كان التاريخية

ISSN: 2090 - 0449
https://kan.journals.ekb.eg
Dawriyyaẗ Kān al-Tārīẖiyyaẗ

تصدر عن مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر

51
السنة الرابعة عشرة

مارس ٢٠٢١
رجب ١٤٤٢

أول دورية عربية إلكترونية محكّمة ربع سنوية متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

Historical Kan Periodical

رقمية الموطن عربية الهوية عالمية الأداء





تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هـ. وصدر العدد الأول سبتمبر ٢٠٠٨ م



دورية كان التاريخية.- س١٤، ع٥١ (مارس٢٠٢١/ رجب ١٤٤٢)

Dawriyyaẗ Kān al-Tārīḫiyyaẗ
Iliktrūniyyaẗ, muḥakkamaẗ , rub' sanawiyyaẗ
Vol. 14, no. 51 [March 2021]
Cairo – Arab Republic of Egypt.
http://www.kanhistorique.org
Information on this issue: https://kan.journals.ekb.eg

دورية كان التاريخية

إصدار مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر.- س١، ع١ (سبتمبر ٢٠٠٨).- القاهرة: المؤسسة، ٢٠٠٨ – ٢٠٢١.

دورية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية

متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

ردمد ٠٤٤٩ – ٢٠٩٠

١- تاريخ ٢- الآثار

٣- التراجم ٤ - التراث

ديوي ٩٠٥

Historical Kan Periodical
Published by Historical Kan Organization.- Vol.1, no.1 [September 2008].- Cairo: Organization, 2008 – 2021.
Peer-reviewed, open-access journal.
Indexed and abstracted in several international databases.
ISSN: 2090 – 0449 (Online)
Keywords: History, Heritage, Archaeology, Biographies.

أول دورية عربية إلكترونية محكمة ربع سنوية
متخصصة في الدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول 1429هـ
صدر العدد الأول منها في سبتمبر 2008م



ISSN: 2090 – 0449 Online

مسجلة ومفهرسة في قواعد البيانات الببليوجرافية العالمية

- Academic Journals Database
- Access to Mideast and Islamic Resources, AMIR
- CORE: Open Access repositories
- Directory of Abstract Indexing for Journals, DAIJ
- Directory of Open Access Scholarly Resources, ROAD
- Directory of Research Journals Indexing, DRJI
- Eurasian Scientific Journal Index
- Google Scholar
- Host Online Research Databases, EBSCO
- Journal Database – Zurich Open Repository and Archive
- JOURNAL FACTOR – forum for promoting research work
- Journal Guide- Research Square
- ROOT INDEXING – Journal abstracting and indexing
- The researchBib Journal database
- Ulrichsweb
- WorldCat

مدرجة في الأدلة الرقمية لمكتبات الجامعات والمراكز البحثية العالمية

- Birmingham Public Library
- Max Planck Institute for the Physics of Complex Systems
- National Cheng Kung University Library
- National Taiwan Normal University Library
- NYPL (New York Public Library)
- OALib - Open Access Library
- OREGON Health & Science University
- San Francisco Public Library
- SAN JOSÉ STATE UNIVERSITY
- Stanford University Libraries & Academic Information Resources
- State Library of New South Wales
- State Library of Queensland (Australia)
- The J. Paul Getty Trust
- The University of Texas at El Paso Library
- Toronto Public Library
- UCDAVIS University Library
- University of California
- University of Michigan
- University of Rochester
- University of South Australia
- Villanova University

دراسات ومقالات الدورية مفهرسة وذات خلاصات

https://kan.journals.ekb.eg

أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
دار ناشري للنشر الإلكتروني
أول دار نشر إلكترونية عربية مجانية تأسست يوليو ٢٠٠٣ – الكويت
www.nashiri.net



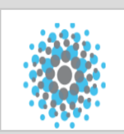
أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي
منظمة غير ربحية – سان فرانسيسكو – الولايات المتحدة
www.archive.org



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة معلومات اللغة والأدب والعلوم الإنسانية
دار المنظومة "الرواد في قواعد المعلومات العربية" – السعودية
www.mandumah.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة بيانات المنهل
أول قاعدة بيانات عربية تأسست ٢٠١٠ – الإمارات
www.almanhal.com



مقالات الدورية مفهرسة في:

قاعدة البيانات العربية الرقمية "معرفة"
شركة عالم المعرفة للمحتوى الرقمي تأسست ٢٠٠٤ - الأردن
www.e-marefa.net



دورية كان التاريخية مدرجة في:
دليل الدوريات العربية المجانية
الدوريات العلمية المُحكّمة الصادرة في الوطن العربي والمتاحة على شبكة الإنترنت مجاناً

www.dfaj.net



موقع دورية كان التاريخية مسجل لدى:
هيئة الإنترنت للأسماء والأرقام المخصصة
الآيكان منظمة غير ربحية تأسست ١٩٩٨ – كاليفورنيا
www.icann.org



معتمدة من مركز مؤشر - برلين:
المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية
عن الالتزام بشروط النشر العلمي المعتمدة عالميًا.
https://indexpolls.de



المشرف العام

أ.د. عبد العزيز غوردو
أستاذ التاريخ والحضارة
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين
وجدة – المملكة المغربية

تعتبر الدوريات شريانًا رئيسًا من شرايين المعلومات في المكتبات ومراكز المعلومات وخاصةً المكتبات الأكاديمية التي تولي اهتمامًا خاصًا للدوريات العلمية في مختلف مجالات المعرفة. ولقد ظلت الدوريات المطبوعة هي السائدة في مقتنيات المكتبات الأكاديمية حتى قبيل نهايات القرن العشرين وقبل التحول الجذري في وسائل نقل المعلومات إلى الوسيط الرقمي الذي يزداد يومًا بعد يوم.

تحددت مهام أعضاء الهيئة الاستشارية وفق مذكرة تأسيس دورية كان التاريخية في غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، حيث تتكون الهيئة الاستشارية من خبراء ومتخصصين بهدف التعاون مع طاقم عمل الدورية لخدمة البحث العلمي، وتقديم الدعم الفني من خلال تبادل الآراء والمقترحات. والتواصل مع المؤسسات الأكاديمية العربية والأساتذة والباحثين بما يعزز مكانة الدورية في الأوساط العلمية. وتقديم المشورة والنصح في الموضوعات المطروحة من قبل هيئة التحرير. والتعريف بأهداف الدورية، وتشجيع الباحثين على النشر العلمي الرقمي. وتولي مهمة التوصية فيما يتعلق بتطوير الدورية من حيث الشكل والمضمون.

عملت هيئة التحرير ومنذ اليوم الأول على بناء الأرضية الثقافية الرقمية من أجل المساعدة في استحداث وعي ثقافي تاريخي عند الجيل العربي الشاب، وخصوصًا فيما يتعلق بأهمية التاريخ والتراث وارتباطهما المباشر بالهوية العربية والإنتاج الإبداعي الثقافي المستدام



"كان التاريخية" أول مبادرة عربية مستقلة متخصصة، تدعم مبدأ "المعبر المفتوح" في تداول المعرفة على شبكة الإنترنت بتشجيع النشر الرقمي للدراسات التاريخية. "كان التاريخية" غير هادفة للربح وتتيح نصوصها كاملة على شبكة الإنترنت، وتسعى إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي.

الإشعار القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي، إنما هي منبر علمي ثقافي يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

موضوعات الدورية

الدورية متخصصة في المقالات والدراسات العلمية والأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العربية، وأصحاب الدراسات العليا، والباحثين في الدراسات التاريخية، والمهتمين بالقراءات التاريخية، وتعبر الموضوعات المنشورة في الدورية عن وجهة نظر كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية أو هيئة التحرير.

حقوق الملكية الفكرية

لا تتحمّل دورية كان التاريخية أيّة مسؤوليّة عن الموضوعات الّتي يتم نشرها في الدورية. ويتحمل الكُتاب بالتالي كامل المسؤولية عن كتاباتهم التي تخالف القوانين أو تنتهك حقوق الملكيّة أو حقوق الآخرين أو أي طرف آخر.

حقوق الطبع والنشر والترجمة

جميع حقوق الطبع والنشر الورقي والرقمي والترجمة محفوظة لدورية كان التاريخية، وبموجب الاعتماد والتسجيل الممنوح للدورية يحق لرئيس التحرير اتخاذ الإجراءات القانونية تجاه أي فرد أو مؤسسة أو موقع على شبكة الإنترنت يعيد استخدام محتويات الدورية بدون اتفاقية قانونية.

رخصة التشارك الإبداعي

دورية كان التاريخية مسجلة تحت التراخيص العامة غير التجارية لدى منظمة التشارك الإبداعي في سان فرنسيسكو استنادًا إلى موقعها الإلكتروني. "كان التاريخية" غير تجارية ولا تفرض رسوم على المراجعة والتحكيم والنشر.

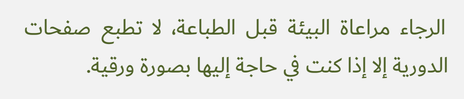
إدارة المعرفة

كان التَّارِيْخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهُويّة الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص المشترك، وتعظيم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها الدورية، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن العربي.




الرجاء مراعاة البيئة قبل الطباعة، لا تطبع صفحات الدورية إلا إذا كنت في حاجة إليها بصورة ورقية.



حاصلة على "**معامل التأثير العالمي**" (UIF) للمجلات العالمية والعلمية

حاصلة على "**معامل التأثير العربي**" (AIF) للدوريات العلمية العربية المَحَكَّمة

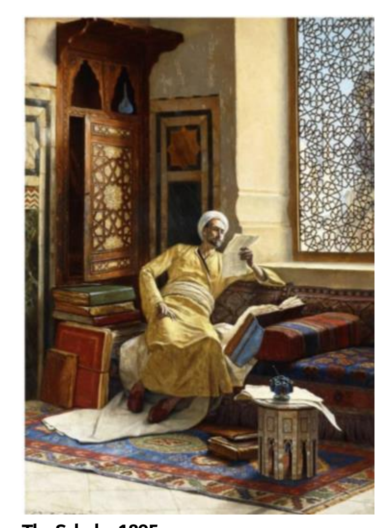
مسجلة في **دليل أولريخ الدولي للدوريات** (UlrichsWeb) تحت رقم ٦٨٨٨١٤

رئيس التحرير

أ.م.د. أشرف صالح محمد

أستاذ مشارك تاريخ وتراث العصور الوسطى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة ابن رشد



The Scholar 1895
Ludwig Deutsch
1855 - 1935 Austrian painter

المراسلات

توجه المراسلات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com

historicalkan
groups/kanhistorique
kanhistorique
kanhistorique.blogspot.com
goodreads.com/kanhistorique
www.kan.nashiri.net



دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية. عالمية. مُحَكَّمَة. ربع سنوية

أخلاقيات النشر والنزاهة العلمية

يستند بيان أخلاقيات النشر وسوء الممارسة الخاص بدَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية على مدونة قواعد السلوك والمبادئ التوجيهية لأفضل الممارسات التي تهمّ محرري المجلاّت العلمية والتي أصدرتها (COPE) لجنة أخلاقيات النشر (Committee on Publication Ethics) وتتخذ هيئة التحرير جميع الإجراءات اللاّزمة ضد أي نوع من الممارسات الخاطئة في مجال النشر، وذلك بحفاظها على مراقبة جميع المراحل والإجراءات المتضمنة في عملية النشر العلمي. وبناءً على هذا يعتبر منع سوء الممارسة في النشر مثل الانتحال أو إعادة الطبع غير المصرّح به، أحد المسؤوليات الملزمة لفريق عمل الدورية، الذي لا يتسامح بدوره مع أي نوع من السلوك الذي لا يلتزم بأخلاقيات النشر، وهو مدرك تمامًا مسؤولياته والتزاماته الأخلاقية.

كان التّاريْخية هي أول دورية عربية مُحكمة ربع سنوية متخصصة في الدراسات التاريخية تصدر في شكل إلكتروني، تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، وصدر العدد الأول منها في أيلول ٢٠٠٨. كان التّاريْخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهُويّة الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

مسؤولية رئيس التحرير

يتكون فريق عمل دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية من متخصّصين معترف بهم في مجال الدراسات التاريخية والأثرية والتراثية. ويتولّى رئيس تحرير الدورية نشر أسماء أعضاء الهيئة الاستشارية وهيئة التحرير وانتماءاتهم ومعلومات الاتصال بهم على موقع الدورية الرسمي عبر شبكة الإنترنت.

قرار النشر

يتحمل رئيس التحرير مسؤولية التصرف النهائي في جميع عمليات التقديم للنشر والمراجعات الرئيسة أو الجزئية أو القبول أو الرفض. ويستند قرار النشر أو عدم النشر إلى تقارير المحكّمين وملاحظاتهم والقيمة العلمية للبحث وأصالته ووضوحه وجدواه وصلته بمجال تخصص الدورية. وقد يحتاج رئيس التحرير إلى استشارة المحرّرين الآخرين أو المحكّمين المتخصصين في اتخاذ القرارات حول البحوث المقدمة. ويأخذ رئيس التحرير أيضًا بعين الاعتبار المسوّغات القانونية المتعلقة بالتشهير وانتهاك حقوق الطبع والنشر والسرقة الأدبية.

السرية

رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير ليسوا ملزمين بالكشف عن أي معلومات حول البحث المقدّم لأي شخص آخر غير المؤلف والمحكّمين والمراجعين المحتملين ومستشاري التحرير الآخرين والناشر حسب الاقتضاء. إن عملية المراجعة العلمية سرية للغاية، والدورية ملتزمة التزامًا تامًا بسياسة مراجعة الأقران المزدوجة التعمية.

عملية التحكيم

تتم مراجعة المقالات في البداية من طرف رئيس التحرير. وقد يرفض رئيس التحرير المقال المقدم قبل إخضاعه لعملية مراجعة الأقران، إما لأنه لا يتّصل بنطاق وموضوعات الدورية أو لأنه ذو جودة متدنّية تجعله لا يرتقي للتحكيم على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير تقييم المقالات بغض النظر عن انتماءات المؤلفين العرقية أو جنسهم أو معتقداتهم الدينية أو جنسيتهم أو مواقفهم الفكرية. وينبغي أن يستند قرار رئيس التحرير بقبول أو رفض المقال المقدم للنشر إلى أهمية العمل وأصالته ووضوحه وصلته بأهداف ومجال تخصص الدورية.

يتم إرسال المقالات التي اعتبرت مؤهلة للمراجعة إلى محكّمين اثنين على الأقل ممّنْ لديهم خبرة في مجال المادة المقدمة. ويجب أن يكون المحكّمون للمقال غير معروفين لبعضهم البعض. كما يطلب منهم أن يقرروا ما إذا كان المقال قابلاً للنشر كما هو، أم أنه قابل للنشر مع تغييرات طفيفة، أو تغييرات جذرية، أو لا يمكن نشره على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير عدم النظر في إعطاء المؤلفين إمكانية ترشيح محكّمين أو طلبهم ألا يقوم محكّمون معينون بمراجعة أوراقهم.

النزاهة الأكاديمية وتضارب المصالح

يجب على رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير عدم استخدام المواد غير المنشورة التي تم الكشف عنها في الورقة المقدمة لأغراضهم البحثية. ويجب الحفاظ على سرية الأفكار المبتكرة أو البيانات المكتسبة في عملية مراجعة الأقران بكل حزم ويجب عدم استخدامها للمصلحة الشخصية. ويجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكّمين الكشف عن أي تضارب مصالح عند قبولهم تحكيم عمل ما وعند إرسال تقارير التحكيم. كما يجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكّمين رفض المشاركة في التحكيم إذا كانوا في وضع لا يسمح لهم بالقيام بمراجعة غير متحيزة.

مسؤولية المؤلف (الكاتب)

يلتزم المؤلفون بمبادئ ومعايير أخلاقيات البحث والنشر العلمي، وتخضع جميع الأوراق العلمية لكشف السرقة الأدبية، وتُرفض كل ورقة بحثية لا تلتزم بسياسات وقواعد النشر المحددة من قبل دَّوريةُ كَان التَّارِيْخية. ويجب على المؤلف عند تقديم البحث تجنب الموضوعات غير الأخلاقية، والعرقية، والمذهبية، والمعلومات المزيفة، مع إدراج تفاصيل المصادر والمراجع ضمن الورقة البحثية.

C O P E

دَّورية كـان التَّاريْخية هي دورية علميـة عالميـة مُحَكَمـة تعتمـد سياســة المراجعــة المزدوجــة وتصدرها مؤسسة كان للدراسات والترجمــة والنشر. إن الهــدف الـرئيس مـن الدورية هـو دعـم الدراسـات التاريخيـة المتخصصـة وتوفير منصة فكرية للباحثين من كافة أنحاء العالم. تصدر الدورية أربعـة أعـداد في السـنة وتقبـل الأوراق البحثية المكتوبة باللغتين العربيـة والإنجليزيـة. كمـا تنشر الدوريـة مقـالات أصليـة وعاليـة الجــودة في مجــالات العلــوم المساعدة ذات العلاقـة، ويشـمل ذلـك كـل العلـوم نظـرًا لطبيعـة التّـاريْخ كعلـم يتنـاول النشـاط الإنسـاني كافـة. ويشـمل ذلـك مجموعـة واسـعة مـن مواضيـع ومناهج ورؤى متخصصة تستجيب لطيـف كبـير مــن القــراء ذوي التخصصات المتعددة.

الأصالة وسلوك التأليف المسؤول

يجب على المؤلفين الابتعاد عن جميع أنواع السلوك غير الأخلاقي مثل الانتحال والافتعال والتزوير. وتجنب السلوك غير الأخلاقي بتقديم البحث نفسه إلى أكثر من مجلة واحدة في الوقت نفسه. كما يجب على المؤلفين تقديم أعمال أصلية خالصة، ويجب ذكر مساهمة الآخرين فيها بشكل صحيح، مع الاستشهاد بالأبحاث التي كان لها أثر في تحديد طبيعة البحث المقدم. وإذا اكتشف المؤلف خطأً فادحًا في عمله المنشور يجب عليه إبلاغ رئيس التحرير أو الناشر بحذف الخطأ أو تصويبه.

حقوق النشر

يحتفظ المؤلفون بحقوق الطبع والنشر لعملهم، وبمجرد قبول الورقة للنشر فإن حقوق الطبع والنشر والترجمة لورقته العلمية تنقل إلى دَّوريةُ كَان التَّارِيْخية، وتُوزع بموجب ترخيص (CC BY-NC 4.0) والذي يسمح بالاستخدام غير المقيد والتوزيع والاستنساخ في أي وسيط بشرط ذكر كل ورقة علمية وتوثيقها توثيقًا صحيحًا وعزوها إلى مصدرها.

تضارب المصالح

إذا كان هناك أي تضارب مصالح محتمل أثناء أو بعد عملية مراجعة الأقران يجب على المؤلفين الإفصاح عنه لرئيس التحرير أو الناشر على الفور. ومن أجل تأمين عدم تضارب المصالح يتم اختيار مراجع ليس له علاقة أو مصلحة مع المؤلف، أو أحد المؤلفين، أو المؤسسات الجامعية أو الهيئة العلمية التي ينتمي إليها المؤلف، وفي كل الأحوال تُعتمد المراجعة المزدوجة للأبحاث المقدمة للنشر.

مسؤولية المحكم (المراجع)

تتبنى دَّوريةُ كَان التَّارِيْخية أسلوب مراجعة الأقران المزدوجة التعمية. ويساعد المحكّمون رئيس التحرير على اتخاذ القرارات التحريرية، كما يمكن أن يساعدوا المؤلف على تحسين الورقة البحثية من خلال تقاريرهم العلمية.

سلوك التحكيم المسؤول

لا يفترض أن يقوم المحكّمون بفحص البحوث التي تقع خارج مجال تخصص دَّوريةُ كَان التَّارِيْخية. ويجب على أي محكّم خارجي غير مؤهل أو غير مستعد لمراجعة البحث المقدم أن يعلم رئيس التحرير وينسحب من عملية التحكيم. وعلى المُحكم المبادرة والسرعة في القيام بتقييم البحث الموجه إليه في الآجال المحددة، ويجب ألا يستخدم المحكّمون أي معلومات أو بيانات تم الحصول عليها من البحث التي تم تحكيمه لمصلحتهم الشخصية. ويجب ألا يقبل المحكّمون بتحكيم البحوث التي يكون لهم فيها تضارب مصالح نتيجة لعلاقات تنافسية أو تعاونية أو غيرها مع المؤلف (المؤلفين). كما يجب على المحكّمين أن يعلموا رئيس التحرير بأي تشابه أو تداخل كبير بين البحث الذي تم تحكيمه وأي أعمال أخرى منشورة يعرفونها.

السرية والموضوعية

يجب على جميع المحكّمين الذين يقومون بمراجعة الأوراق العلمية أن يفهموا ويتقيدوا بمعايير السريّة، ومعاملة البحوث التي تم استلامها للتحكيم كوثائق سرية. ويجب عليهم عدم الكشف عنها أو مناقشتها مع الآخرين باستثناء ما يأذن به رئيس التحرير. وينبغي على المحكّمين إجراء عملية التحكيم بشكل موضوعي ويجب ألا يوجّهوا أي نقد شخصي للمؤلف. ويجب على المحكّمين التعبير عن وجهات نظرهم بنزاهة ووضوح مع ذكر الأدلة والحجج الداعمة.

شرح العملية التحكيمية

- هيئة التحرير تدير عملية التحكيم السري للمقالات والدراسات المقدمة لتحديد صلاحيتها للنشر، ويلتزم الباحث بالأخذ بملاحظات المحكمين.
- يتم تقييم وفحص جميع الأوراق المقدمة للنشر مبدئيًا من قبل المحرر للتأكد من ملاءمتها للمجلة.
- يتم إرسال المقالات والدراسات التي تعتبر مناسبة عادةً إلى ما لا يقل عن اثنين من الخبراء المستقلين المراجعين لتقييم الجودة العلمية للورقة.
- مدة التحكيم ثلاثة أسابيع ويبلغ المحكم بذلك، وبعدها يجب أن يرد المحكم أما (قبولاً) وهو قبول البحث للنشر، أو (قبولاً بشرط التعديل)، وهو قبول البحث للنشر بشروط إجراء بعض التعديلات عليه، أو (رفضاً) وهو التوصية بالاعتذار عن نشر البحث.
- المحرر مسؤول عن القرار النهائي بشأن قبول المقالات أو رفضها.
- لا يشارك المحررون في القرارات المتعلقة بالأوراق التي كتبوها بأنفسهم أو التي كتبها الزملاء. ويخضع أي إرسال من هذا القبيل لجميع الإجراءات المعتادة للمجلة، مع التعامل مع التحكيم (مراجعة الأقران) بشكل مستقل عن المحرر المعني ومجموعات البحث الخاصة بهم.

التسليم

- ترسل الأوراق العلمية مع مرفقاتها بالبريد الإلكتروني إلى الدورية.
- يقدم المؤلف نسخة من البحث مكتوبة على برنامج Microsoft Word.
- يرفق الباحث سيرته العلمية وبيانات التواصل معه.
- يتلقى المؤلف إشعارًا بالاستلام من مديرة التحرير.

الفحص الأولي

- تقوم هيئة التحرير بفحص الورقة العلمية للنظر إذا ما كانت مطابقة لقواعد النشر الشكلية المعلن عنها ومؤهلة للتحكيم العلمي.
- يعتمد في الفحص الأولي على ملاءمة الموضوع للدورية، ونوع المادة العلمية (مقال/ دراسة/ ترجمة/ تقرير/ عرض كتاب/ عرض أطروحة)، وسلامة اللغة، ودقة التوثيق والإسناد بناءً على نظام التوثيق المعتمد في الدورية، بالإضافة إلى عدم خرق أخلاقيات النشر العلمي.
- يجري إبلاغ المؤلف باستلام الورقة البحثية وبنتيجة الفحص الأولي.
- في هذه المرحلة إذا وجدت هيئة التحرير أن الورقة البحثية بحاجة إلى تحسينات ما قبل التحكيم، فتقدم للمؤلف إرشادات أو توصيات ترشده إلى سبل التحسين مما يساعد على تأهيل الورقة البحثية لمرحلة التحكيم.

التحكيم

- تخضع كل دراسة للمراجعة المزدوجة من أعضاء لجنة المراجعة والتحكيم العلمي.
- يُبلغ المؤلف بتقرير من هيئة التحرير يبين قرار المراجعة العلمية، وخلاصة الملاحظات والتعديلات المطلوبة إن وجدت، ويرفق معه تقارير المراجعين أو خلاصات عنها.
- تبقى أسماء المراجعين مغفلة في التقرير الذي يُرسل إلى المؤلف.

إجراء التعديلات

- يقوم المؤلف بإجراء التعديلات اللازمة على الدراسة استنادًا إلى نتائج التحكيم.
- يعيد المؤلف إرسال المقال/ الدراسة إلى الدورية بعد استيفاء طلبات المراجعون.

القبول والرفض

- تحتفظ الدورية بحق القبول والرفض استنادًا إلى التزام المؤلف بقواعد النشر وبتوجيهات هيئة التحرير.
- يرسل إلى المؤلف خطاب قبول النشر، ويأخذ المقال دوره في جدول النشر حسب أسبقية الوصول، وترسل نسخة من الدورية إلى البريد الإلكتروني للمؤلف فور النشر.

دَّورية كان التَّاريْخية مفهرسة وتم اعتماد محتوياتها ضمن عدد وافر من قواعد البيانات العلمية العربية والعالمية التي تتيح مجال الاستفادة منها والرجوع إليها باستمرار. وهي ضمن المجلات العلمية المعتمدة من اتحاد الجامعات العربية منذ نوفمبر ٢٠١٩. وحاصلة على معامل التأثير العالمي منذ (٢٠١٥) ومعامل التأثير العربي منذ (٢٠١٦)، ومعتمدة من المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية (٢٠١٨)، ومسجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات تحت رقم (٦٨٨٨١٤). وحاصلة على الجائزة العربية للتميز العلمي والتكنولوجي (٢٠١٩).

أعضاء هيئة التحكيم

تتميز دَّوريةُ كَان التَّاريْخية بهيئة تحكيم متخصصة ذات كفاءة من أساتذة الجامعات العربية والخبراء ممَنْ عُرفِوا بطول الباع في مجال الدورية والمجالات ذات العلاقة، وممَنْ أصدروا كتبًا أو أبحاثًا علميَّةً متميزة في تخصُّص الدورية. وتعتمد هيئة التحكيم مبدأ الحياد والموضوعية في تحكيم المواد العلمية المرشحة للنشر مع الحرص على خلو الأعمال من التطرف الفكري أو مساسها بمبادئ الأشخاص أو الأنظمة.

- تاريخ الحروب الصليبية.
- تاريخ العصور الوسطى.
- تاريخ الأمراض والأوبئة.
- تاريخ الأدب العربي.
- تاريخ العالم القديم.
- التراجم والأنساب.
- التاريخ المقارن.
- التاريخ الحديث والمعاصر.
- تاريخ الأديان والتصوف.
- تاريخ الكتب والمكتبات.
- منهج البحث التاريخي.
- المستكشفون والرحالة.
- العمارة والعمران والمدن.
- الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.
- التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية.
- الآثار والتراث المادي والشفهي.

المُقيمّون والمُحكّمون

أ.د.	إبراهيم القادري بوتشيش	جامعة مولاي إسماعيل	المغرب
أ.د.	إبراهيم خليل العلاف	جامعة الموصل	العراق
أ.د.	أحمد السري	جامعة صنعاء	اليمن
أ.د.	أحمد عبد الله الحَسُّو	مركز الحسو للدراسات الكمية والتراثية	بريطانيا
أ.د.	إمام الشافعي محمد حمودي	جامعة الأزهر	مصر
أ.د.	أمين محمد علي الجبر	جامعة ذمار	اليمن
أ.د.	بديع العابد	جامعة الإسراء	الأردن
أ.د.	بشار محمد خليف	مركز حضارات المشرق العربي	سوريا
أ.د.	بوحسون العربي	جامعة تلمسان	الجزائر
أ.د.	حبيب البدوي	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د.	الحسن تاوشيخت	المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث	المغرب
أ.د.	حنيفي هلايلي	جامعة جيلالي ليابس	الجزائر
أ.د.	خالد حسين محمود	جامعة عين شمس	مصر
أ.د.	رضوان شافو	جامعة الوادي	الجزائر
أ.د.	سعاد يمينة شبوط	جامعة أبي بكر بلقايد	الجزائر
أ.د.	سعيد بن محمد الهاشمي	جامعة السلطان قابوس	سلطنة عمان
أ.د.	شعيب مقنونيف	جامعة " أبوبكر بلقايد " تلمسان	الجزائر
أ.د.	صالح محمد زكي اللهيبي	جامعة الجزيرة	الإمارات
أ.د.	عادل بن يوسف	جامعة صفاقس	تونس
أ.د.	عبد الرحيم مراشدة	جامعة جدارا	الأردن
أ.د.	عبد العزيز رمضان	جامعة الملك خالد	السعودية
أ.د.	عبد القادر سلامي	جامعة تلمسان	الجزائر
أ.د.	العربي عقون	جامعة قسنطينة (٢)	الجزائر
أ.د.	عطاء الله أحمد فشار	جامعة زيان عاشور	الجزائر
أ.د.	عماد جاسم حسن الموسوي	جامعة ذي قار	العراق
أ.د.	كرفان محمد أحمد	جامعة دهوك	العراق
أ.د.	لمياء بوقريوة	جامعة الحاج لخضر باتنة	الجزائر
أ.د.	مبارك لمين بن الحسن	جامعة ابن زهر	المغرب
أ.د.	محمد دوكوري	الجامعة الإسلامية	النيجر
أ.د.	مصطفى غطيس	جامعة عبد الملك السعدي	المغرب
أ.د.	وجدان فريق عناد	جامعة بغداد	العراق

" حسب الترتيب الأبجدي

يتم تحديث القائمة حسب مساهمات الأساتذة للمرة الأولى في نشر أبحاثهم على صفحات الدورية، وبعد الاطلاع على السيرة العلمية، ومراعاة الخبرات الأكاديمية والإنتاج الفكري والإشراف على الأطاريح الجامعية ومدى الاستعداد للانضمام إلى فريق عمل الدورية بصفة تطوعية.



دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية. عالمية. مُحَكَّمَة. ربع سنوية

السياسات والقواعد والإجراءات

ترحب دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة الْتَّارِيْخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجدّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

سياسات النشر

تسعى دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدها أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكُتَّاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

هيئة التحرير:

- تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقًا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.
- يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.
- يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار (IEEE) تنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسبًا للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

هيئة التحكيم:

- يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمًا سريًا بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوئها يتم تقويم العمل العلمي.
- يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه، ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهاج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.
- تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.
- في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك. أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتاز ت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.
- تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

قَوَاعِدُ النَّشَرِ

إرشادات المؤلفين [الاشتراطات الشكلية والمنهجية]

ينبغي ألاّ يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميًا بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال/ الجداول)، الهوامش، المراجع.

البحوث والدراسات العلمية

تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في مجلة إلكترونية أو مطبوعة أخرى.

تقبل البحوث والدراسات المنشورة من قبل في صورة ورقية، ولا تقبل الأعمال التي سبق نشرها في صورة رقمية: مدونات/ منتديات/ مواقع/ مجلات إلكترونية، ويستثنى من ذلك المواضيع القيمة حسب تقييم رئيس التحرير.

يجب أن يتسم البحث العلمي بالجَوْدة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه، متوافقًا مع عنوانه.

التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.

اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة.

- **عنوان البحث:**

يجب ألا يتجاوز عنوان البحث عشرين (٢٠) كلمة، وأن يتناسب مع مضمون البحث، ويدل عليه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيس.

- **نبذة عن المؤلف (المؤلفين):**

يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمة تبين آخر درجة علمية حصل عليها، واسم الجامعة (القسم/ الكلية) التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة. والوظيفة الحالية، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التي يعمل لديها، والمجالات الرئيسة لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنوان المراسلة (العنوان البريدي)، وأرقام (التليفون- الموبايل/ الجوال- الفاكس).

- **صورة شخصية:**

ترسل صورة واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.

- **ملخص البحث:**

يجب تقديم ملخص للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود (٢٥٠ - ٣٠٠) كلمة.

البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية، يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.

- **الكلمات المفتاحية:**

الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشرة كلمات، يختارها الباحث بما يتواكب مع مضمون البحث، وفي حالة عدم ذكرها، تقوم هيئة التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وإدراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث أثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.

- **مجال البحث:**

الإشارة إلى مجال تخصص البحث المرسل "العام والدقيق".

- **المقدمة:**

تتضمن المقدمة بوضوح دواعي إجراء البحث (الهدف)، وتساؤلات وفرضيات البحث، مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة، وحدود البحث الزمانية والمكانية.

- **موضوع البحث:**

يراعى أن تتم كتابة البحث بلغة عربية سلمية واضحة مركزة وبأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملائمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدًا عن الحشو (تكرار السرد).

- **الجداول والأشكال:**

ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحواه، والإشارة إليه في متن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

- **الصور التوضيحية:**

في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في <ملف منفصل> على هيئة (JPEG)، حيث أن وضع الصور في ملف الكتابة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution)

- **خاتمة (خلاصة):**

تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث، على أن تكون موجزة بشكل واضح، ولا تأتي مكررة لما سبق أن تناوله الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.

- **الهوامش:**

يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر، وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش. يمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق الحواشي (الهوامش) بشرط التوحيد في مجمل الدراسة، وبإمكان الباحث استخدام نمط American Psychological Association " APA" الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية، حيث يُشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرةً وفق الترتيب التالي: (اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة)، على أن تدون الإحالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.

- **المراجع:**

يجب أن تكون ذات علاقة فعلية بموضوع البحث، وتوضع في نهاية البحث، وتتضمن قائمة المراجع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشارة إليه ضمن البحث. وترتب المراجع طبقًا للترتيب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسمية،... إلخ، ويمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

قَوَاعِدُ النَشَرِ

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسئولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفى الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأى كاتبها وعلى مسئوليته هو وحده ولا تعبر عن رأى أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسئولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أُجيز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهامًا معنويًا من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

قواعد عامة

تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشر بصيغة برنامج مايكروسوفت وورد Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.

المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج" مع صورة شخصية واضحة (High Resolution).

ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر. أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصًا وافيًا لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف/ المحقق/ المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل، ويُراعى في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل موضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة / مؤتمر/ ورشة عمل/ سيمنار) مركزًا على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

الإصدارات والتوزيع

- تصدر دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية أربع مرات في السنة: (مارس– يونيو – سبتمبر – ديسمبر).
- الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الإلكتروني على شبكة الإنترنت.
- ترسَل الأعداد الجديدة إلى كُتَّاب الدورية على بريدهم الإلكتروني الخاص.
- يتم الإعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة، والمجموعات البريدية، وشبكات التواصل الاجتماعي.

المراسلات

- تُرسَل الاستفسارات والاقتراحات إلى صفحة الدورية

https://www.facebook.com/historicalkan

- تُرسَل الأعمال المطلوبة للنشر إلى رئيس التحرير:

mr.ashraf.salih@gmail.com

مُحْتَوَيَاتُ الْعَدَدِ

كُتَّاب الْعَدَدِ

العنوان	الصفحة	الكاتب	البلد
محطات أثرية شمال شرق شط الحضنة في إقليم المسيلة (الجزائر) إقليمي عين الخضراء والسوامع	١٤	سعاد سليماني حنان خربوش جامعة قسنطينة (٢)	الجزائر
قصبة موحى اوحمو الزياني التاريخ، المعمار، وسبل التثمين	٢٣	جواد التباعي كلية الآداب والعلوم الإنسانية – سايس	المغرب
القبلية في المدينة: مساهمة في تحليل عوائق التمدن بالمجالات الطرفية المغربية – حالة مدينة بني ملال	٣١	المصطفى أيت يدير جامعة الحسن الثاني	المغرب
نظريات تفسير ظاهرة المد والجزر في البحار عند العلماء العرب بين القرنين (٣ -١٠هـ/ ٩ - ١٦م)	٤٣	سائر بصمه جي دكتوراه في تاريخ العلوم الأساسية	سوريا
التطبيق العملي للحقوق الاقتصادية في الدولة الزنكية ٥٢١ هـ/ ١١٢٧م - ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م	٥٠	غسان محمود وشاح هناء محمد عياش الجامعة الإسلامية	فلسطين
دراسةٌ وثائقيةٌ لشهادةِ نَسَبٍ نُمَويةٍ لفرع من آل الشريف محمد أبي نُمَي الثاني حاكم الحجاز وأمير الحرمين	٦٠	محمد بن حسين الحارثي الشريف جامعة أم القرى (مكة المكرمة)	السعودية
توظيف التّاريخ الكمِّي الثّقافي "نظرية الأجيال" عند سيار الجميل أنموذجًا	٧٠	حسن بربورة مخبر الدراسات التاريخية المتوسطية عبر العصور	الجزائر
آليات تدبير الشأن الديني المسيحي في المغرب (١٨٥٠ - ١٩١٢)	٨١	محمد الصديق احمموشي جامعة سيدي محمد بن عبد الله	المغرب
من الأرشيف الرمزي للحركة الوطنية في المغرب على عهد الحماية ١٩٣٩ - ١٩٤٤	٨٩	عبد السلام انويكًة المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين (فاس)	المغرب
الشيخ سليمان الباروني ودوره التاريخي في عمان أغسطس ١٩٢٤ – مارس ١٩٤٠	٩٩	هيفاء بنت أحمد راشد المعمري جامعة السلطان قابوس	سلطنة عمان
العمل الوحدوي ما بين دول المغرب العربي ١٩٢٦ - ١٩٥٤	١١٤	رفيق تلي جامعة الدكتور مولاي الطاهر (سعيدة)	الجزائر
الصحافة الإصلاحية في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية الفرنسية جرائد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أنموذجًا	١٣١	معيوش براهيم جامعة الجزائر(٢)	الجزائر
الدبلوماسية التونسية في خدمة الثورة التحريرية الجزائرية (١٩٥٦ - ١٩٦٢)	١٣٩	موسم عبد الحفيظ جامعة الدكتور مولاي الطاهر (سعيدة)	الجزائر
الاحتلال الإسباني لجزيرة بادس خلال العصر الحديث السياق والتداعيات	١٥١	عمر اشهبار أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي	المغرب
ملاحظات أولية حول تاريخ التغذية في مغرب العصر الحديث القيم الحضارية والمحددات الطبيعية المتحكمة في ثقافة الغذاء	١٦١	سعيد إدحمان جامعة القاضي عياض	المغرب
ترجمات: الكتب العربية والكنز المغربي العقيد بيرسيفال كيرك ومولاي إسماعيل (١٦٨٢ – ١٦٨٣)	١٧٣	العياشي الحبوش جامعة سيدي محمد بن عبد الله	المغرب
عرض أطروحة: الماء والفلاحة في منطقة سوس خلال فترة الحماية سهل تزنيت نموذجًا (المغرب)	١٨١	محمد مسكيت الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين مراكش	المغرب
ملف العدد: التعليم في الأندلس خلال عهد الدولة الأموية (١٣٨ - ٤٢٢هـ/ ٧٥٥ - ١٠٣٠م)	١٨٦	مختار عمارة جامعة يحيى فارس (المدية)	الجزائر
A Sixteenth-Century Enslaved Moor in the New World The Story of Estebanico Al-Zamori Reconstructed in Laila Lalami's The Moor's Account	200	Lahoucine Aammari University of Sultan Moulay Slimane Brahim AIT IZZI Mohammed V University	Morocco
The importance and role of roads in the emergence and development of the civilizations of the Syrian Jazirah during the Iron Age	209	Ribar Khalaf Directorate-General of Antiquities and Museums	Syria

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

محطات أثرية شمال شرق شط الحضنة في إقليم المسيلة (الجزائر)
إقليمي عين الخضراء والسوامع



د. سعاد سليماني
أستاذة محاضرة (أ) في الآثار القديمة
جامعة قسنطينة (٢)
الجمهورية الجزائرية



حنان خربوش
أستاذة محاضرة (ب) في الآثار القديمة
جامعة قسنطينة (٢)
الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

نقدم في هذه الدراسة نتائج التحريات الأثرية التي قمنا بها في إقليمي عين الخضراء والسوامع الموجودين شرق شط الحضنة بولاية المسيلة. وتحتل هذه الأخيرة موقعًا وسطًا بقلب الجزائر، وتشكل بذلك همزة وصل بين شرقها وغربها، وكذا بين شمالها وجنوبها. عرفت هذه المنطقة على مر العصور تعميرًا بشريًا هامًا، وتشهد على ذلك العديد من المواقع الأثرية المنتشرة عبر ربوعها. لكن العديد من هذه الأخيرة ظل مجهولاً، لاسيما تلك الموجودة شرق إقليم المسيلة، وما نعرفه عنها مجرد إشارات مختصرة جاءت في تقارير البعثات الاستكشافية التي قامت بها الإدارة الفرنسية إبان استعمارها للجزائر. سنسعى من خلال هذه الدراسة الوقوف على منطقتين هامتين، تحتلان الجهة الشمالية الشرقية لشط الحضنة بالمسيلة، إنهما عين الخضراء التي يحتوي إقليمها مجموعة من المواقع الأثرية الهامة، ثم منطقة السوامع التي يوجد بها موقع خربة الرصاص الذي كان أهم مركز زراعي بالمنطقة كلها قديمًا واستمر استغلاله حتى الفترات الإسلامية. اعتمدنا في هذه الدراسة على المنهج الوصفي ثم المنهجين المقارن والتحليلي حتى نتمكن من إعطاء قراءة منطقية لمختلف الشواهد الأثرية، وكذا استنتاج وظائفها. وعليه خلصنا إلى أن طابع هذين الموقعين ريفي محض، ولا شك أن أثنينهما تابع لمدينة مقرة كما أنهما لعبا دورًا اقتصاديًا هامًا بالمنطقة.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٦ يناير ٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر: ٢٥ فبراير ٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

حضنة؛ المسيلة؛ عين الخضراء؛ آثار ريفية؛ معاصر؛ زجاج؛ فخار؛ كنز.

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.218680

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

سعاد سليماني، حنان خربوش. "محطات أثرية شمال شرق شط الحضنة في إقليم المسيلة (الجزائر): إقليمي عين الخضراء والسوامع".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الحادي والخمسون؛ مارس ٢٠٢١. ص ١٤ – ٢٢.

Corresponding author: souad.slimani@univ-constantine2.dz
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقَدِّمَةُ

نقدم في هذه الدراسة مجموعة من المواقع الأثرية الهامة المنتشرة بالجهة الشمالية الشرقية من شط الحضنة بإقليم المسيلة. تنتشر كلها عبر إقليم بلديتين شرق ولاية المسيلة. نستهلها بتلك الموجودة ببلدية "عين الخضراء" البالغ عددها حاليًا ثمانية مواقع أثرية ويليها بلدية "السوامع" التي عرفت أهم مركز فلاحي بالمنطقة خلال الفترات القديمة، هذا الذي تم تزويده بقناة ناقلة للماء تنطلق على بعد حوالي ٢٥ كلم من واد القصب بالمسيلة. ندرج كمرحلة أولى من البحث، ملفات لبعض هذه المحطات التاريخية بغية التعريف بها وبما تتنوع به بقاياها الأثرية، فلعل هذه الأخيرة تيسر لنا تحديد نوعها ووظيفتها، كما قد يتسنى لنا بذلك إدراك ما هو الدور الذي لعبته هذه التجمعات في الفترات القديمة المنتشرة بمناطق أضحت اليوم خالية. اعتمدنا في هذا البحث أساسًا على التحريات الميدانية التي قمنا بها في بعض المواقع من جهة، وكذا على دراسات وتقارير سابقة متعلقة بها من جهة أخرى.

أولاً: مواقع إقليم بلدية عين الخضراء

يمتد إقليم عين الخضراء على بعد ٦٢كلم جنوب شرق مقر ولاية المسيلة، وتلامس حدوده الشرقية مدينة مقرة المعروفة باسم "ماكري" قديما. عرفت عين الخضرة سابقا باسم "عين الكلبة" نسبة إلى المنبع المائي المتواجد بها، هذا الذي طالما تميزت مياهه بالوفرة والجودة العالية[١]، سُمي سابقًا بعين الرومان بسبب احتوائه على بقايا مبنى قديم[٢]، غير أنه لم يعد موجودًا الآن.

يتخلل تراب عين الخضراء بعض الوديان والسيول المنحدرة من الشمال إلى الجنوب نحو شط الحضنة، ومن أهمها واد النفيضة وكذا واد الملاح. تبين الخريطة رقم ٢٦ لبوطالب من الأطلس الأثري للجزائر، أن إقليم عين الخضرة يحتوي على ستة مواقع أثرية[٣]؛ تنتشر بقايا معظمها على ضفاف الوادين السالفي الذكر. وبعد التحريات الميدانية التي أجريناها بالمنطقة مؤخرًا، تبين لنا وجود موقعين آخرين لم يُشر إليهما من قبل (الصورة ١).

في الواقع لا نعلم إلى اليوم اسم المنطقة قديما، فحتى المصادر التاريخية، سواء اللاتينية أم العربية لم تأت على ذكرها، مع ذلك، إننا لا نستبعد أن تكون تابعة لإقليم مدينة ماكري قديما[٤]. وأيضًا قد تسوقنا قراءة خريطة شبكة الطرق الرومانية التي أنجزها الباحث "بيار سلامة" (Salama Pierre)، إلى إدراجها ضمن المحطات الهامة خلال الفترات القديمة؛ فهي تمتد على الضفة الجنوبية للطريق الرومانية المتجهة نحو مدينة طبنة من الجهة الجنوبية الشرقية من جهة، ويفترض كذلك إلى مقرة من الناحية الشمالية الشرقية من جهة أخرى، ثم إلى مدينة زابي جوستنيانا[٥] غربًا ١٥: ٣)، مع العلم أنه اكتشفت كتابة ميلية بخربة الصوالح مفادها مرور الطريق الرومانية القادمة من المدينة القديمة "تمالولة" [٦] (Thamalhula) الموجودة برأس الواد ولاية برج بوعريريج، متجهة إلى المدينة القديمة طبنة[٧] الموجودة ببيطام حاليًا (الصورة ٢)، وهذا عبر واد منايفة وموقع هنشير بودربالة[٨] الموجود ببرهوم من جهة، ثم عبر مدينة ماكري ومنطقة الصوالح[٩] من جهة أخرى.

تشير معظم الشواهد الأثرية المنتشرة بها، أنها كانت ذات طابع زراعي و فلاحي ولا ريب أنها احتوت منشآت زراعية هامة، لاسيما معاصر الزيتون و مطاحن الحبوب؛ فكل ذلك أهّلَهَا لتكون ذات أهمية اقتصادية قديما .استمر تواجدها حتى القرن السادس الميلادي، وهذا ما نستنتجه من محتوى الكنز النقدي الوندالي الذي اكتشف بعين الكلبة والذي سنتطرق إليه من خلال مجموعة المواقع التي عايناها ميدانيا[١٠].

١/١-خربة الصوالح[١١]

نجد هذا الموقع على الطريق الرابط بين مقرة وعين الخضرة بدوار الصوالح حاليًا[١٢]، على الضفة الشرقية لواد النفيضة وعلى بعد حوالي ٤ كلم جنوب غرب موقع خربة مالك[١٣] الموجود بمقرة، وبالتحديد عند النقطة ٣٥°٣٣'٣٤. ٩٣" شمالا و٥°٠٠'٢٣. ٥٩" شرقًا. إضافة إلى الكثير من الحجارة المنحوتة التي كانت بها، عُثر في ما مضى على قاعدة عمود كانت تحمل كتابة لاتينية، غير أن نصها غير واضح وهذا ماحال دون إعطاء قراءة كاملة[١٤]؛ وهي عبارة عن حجر ميلي يحدد المسافة من موقع الصوالح إلى طبنة[١٥] على الطريق الرابطة بين موقع بودربالة ببرهوم و"طبنة" مرورًا بالصوالح[١٦]. لم نتمكن من التأكد من ذلك لأنه لا وجود للنصب الذي يحمل النقيشة حاليًا، غير أن "جزال" (Gsell)[١٧]، أشار إلى ما بقي من نصها، وهو كالآتي : *[h]ic via nova*... *vicus macri a tvb*.... بمعنى: "....هنا الطريق الجديدة....قرية ماكري التي تبعدعن طبنة..."

ومن أهم ما اكتشف أيضًا بهذا الموقع، كتابة ترجع إلى لفترة المسيحية نقشت على تاج عمود[١٨] (الصورة٣)، وجدت هذه الكتابة بمشتى" سيدي يوسف" أو ما يُسمى حاليًا بمزارة سيدي يوسف[١٩]، يبعد هذا الموقع عن الصوالح بحوالي ٤ كلم. وأيضا لم يتسنى لنا معاينته بعد. يبدو أن هذا النص يحمل

أسماء شهداء للاضطهاد الديني، من بينهم اسم "ميكايل باولوس" MECAEL PAVLUS، الذي قد يكون أحد الشهداء المحليين [٢٠] الذين اعتنقوا الدين المسيحي ودافع عن عقيدته السائدة أنذاك. عرف هذا النوع من الكتابات على التيجان ببعض المناطق بنوميديا أيضًا؛ فمثله اوجد بموقع "هنشير قساس" باتنة وآخر بموقع جميلة[٢١] بسطيف.

بسبب التوسع العمراني للمنطقة، لم نجد أثناء تحرياتنا إلا الشيء القليل من الشواهد المادية، فنذكر مضاد ثقل طوله: ١,٢٠ م وعرضه ٠,٥٥ م، وهو عنصر معماري ينتمي إلى معصرة زيتون قديمة، كان مرميًا على حافة الطريق الرابط بين الصوالح ومقرة تحديدًا عند النقطة ٣٥°٣٤'٢٩. ٩٤" شمالاً و ٥°٤٠'٢٤. ٥٢" شرقًا. وعلى بعد حوالي ٤٠٠ م جنوب غرب هذه الأخيرة في اتجاه واد النفيضة، لمحنا انتشار بعض الكسور الفخارية من النوع السجيلي الإفريقي والشعبي (الصورة ٤)

٢/١-خربة أولاد رحمون

دائمًا على الطريق الرابط بين مقرة وعين الخضراء بدوار الصوالح على الضفة الغربية لواد النفيضة، نلمح على بعد١,٧ كلم جنوب غرب خربة الصوالح وعلى بعد ١,٥ كلم شمال غرب مشتى سيدي يوسف وتحديدًا عند النقطة ٣٥°٣٣'٤٥. ٥٤" شمالا و٥°١'٠٠. ١٩" شرقًا وعلى ارتفاع ٤٦٣ م، بقايا أثرية تنتشر على مساحة تقدر بحوالي ١٠ هكتار فوق ربوة صغيرة وسط حقول خاصة بزراعة الحبوب، يبدو شكلها شبه مستطيل ولعله استغل كمقبرة في فترات لاحقة. إن جل البقايا الأثرية التي يمكن ملاحظتها على السطح[٢٢] مباشرة، توحي مثل التي وجدت بموقع الصوالح إلى شواهد ذات صلة بالاستغلال الزراعي. فمعظمها تابع لمنشآت فلاحية سواء وظيفية أم سكنية مثل بقايا أساسات لمباني من الطوب؛ تتجلى آثار تقسيمات الفضاءات الخاصة بمبانيها على السطح بشكل واضح (الصورة ٥). وهناك العديد من بقايا عناصر معمارية تابعة لمعاصر الزيتون، تمثلت أساسًا في العديد من مضادات الثقل، وأحصينا منها ٧ عناصر مختلفة الأبعاد (الصورة ٦)، وتدل هذه الكمية على وجود عدد هام من المعاصر بهذا المكان.

وما شد انتباهنا في هذه المقبرة، وجود قبر قديم عند الزاوية الشمالية الغربية للمقبرة وهو من نوع المزارة، يشبه القبر الموجود بموقع بودربالة ببرهوم٢٣. علاوة عن ذلك، هناك بقايا من الزجاج القديم، منها قطعة قد تكون تابعة لعقد أو من حلي أخرى، والأهم في هذه اللقى الزجاجية بقايا قطعة من عجينة أو نفايات الزجاج التي تسوقنا لافتراض وجود ورشات لتشكيل الزجاج بالمنطقة قديما

٣/١-موقع أولاد بن عمر

لم نتمكن من معاينة هذا الموقع الذي يقع على بعد ٣ كلم غرب مقر بلدية عين الخضراء بدوار أولاد بن عمر. جاء ذكره تحت رقم ١١٧ في خريطة بوطالب[٢٤]، ويبدو أن بقاياه تمثلت في بعض الحجارة المنحوتة وأجزاء من عناصر معمارية تابعة لمعاصر قديمة[٢٥] وهذا دليل آخر على وجود معاصر بالمنطقة

٤/١-خربة أولاد عثمان

تقع خربة أولاد عثمان بدوار أولاد عثمان بالضفة الشرقية لواد المالح، على بعد حوالي ١٢ كلم غرب دوار الصوالح من جهة، وحوالي ٢ كلم غرب موقع أولاد بن عمر من جهة أخرى. يغطي هذا الموقع الأثري مساحة تقدر بحوالي ٣,٥ هكتار، ونجده تحديدًا عند النقطة ٣٥°٣١'٣١. ٩١" شمالا و٤°٥٥'١٦. ١١ شرقًا، غير أنه لم يبق من الشواهد الأثرية به إلا القليل، وهذا راجع إلى التوسع العمراني بالمنطقة.

يمتد الجزء الظاهر من الموقع تحت هضبة تغطي مساحتها ٢هكتار تقريبًا، وتستغل حاليًا كمقبرة للدفن. أما الباقي فتغطيه المباني الجديدة وبساتين خاصة. من أهم ما كان يظهر على السطح، بقايا أساسات جدران تظهر جزئيا بالجزء الشمالي الغربي من المقبرة، ومعظمها يمتد تحت البنايات الحديثة، أما ما يمكن ملاحظته بكثرة هو بقايا كسور الفخار الذي جاء بأنواع مختلفة، مع الإشارة إلى انتشار العديد من بقايا الرماد وآثار الحرق، وهنا نتساءل ما إذا هناك فرن للفخار؟ أم أننا أمام ظاهرة حرق ترجع للفترة القديمة؟ يطلق سكان المنطقة حاليًا اسم "الرمادة" على الموقع بسبب كثرة الرماد المنتشر بها، ونستحضر هنا مثلاً موقع هنشير الرمادة بمقرة[٢٦] الذي تميز بذات الخصائص، كما لا نستبعد أن تكون هذه الرمادات مجرد مفرغة لتلك المنطقة قديمًا؟ إذ كثيرًا ما نصادف مثل هكذا ظاهرة في العديد من المواقع الأثرية التي وقفنا عليها في دراستنا هذه أو عبر مواقع أخرى في كامل الوطن.

من بين اللقى التي اكتشفت بدوار أولاد عثمان، قطعة فخارية هامة احتفظ بها أحد المواطنين يدعى "هواري العياشي"، وهي من الأواني المطبخية القديمة، متوسطة الحجم وأحمر آجوري لونها. شكل بطنها إسطواني مفلطح ثم ينحدر بشكل مائل وينتهي بقاعدة مستوية. بلغ قطر فوهتها ٠,٢٣ م وسمكها ٠,٠٠٨ م وقطر قاعدتها ٠,١٥ م، أما عمقها فهو ٠,٠٨ م.

عندما عرضنا صورة هذه الآنية على المختص في فخاريات الفترة المتأخرة بشمال إفريقيا "ميشال بونيفاي" Michel Bonifay، أكد لنا أنها فريدة من نوعها ولا تمُتُ بصلة للتصنيفات المعروفة في شمال إفريقيا، وعليه قد تكون نمطًا خاصًا بالمنطقة وربما حتى من صناعة محلية. ولا نستبعد هذا لأننا وقفنا على أثار فرن بمنطقة القلال بالناحية الشرقية لدوار عين الكلبة.

١/٥-خربة القلال بدوار عين الكلبة

تقع خربة القلال بالناحية الشرقية لدوار عين الكلبة، وتعرف هذه الناحية بذراع الرمل. يقع هذا الأخير على بعد ٥ كلم جنوب عين الخضراء، وقد تتطابق مع الموقع الذي ذكره "جزال" (Gsell) تحت رقم ١١٨ بورقة بوطالب[٢٧]، ثم أنها جاءت على بعد ٦٠٠ م من المنبع القديم لعين الكلبة. أشار "جزال" إلى وجود حجارة منحوتة به لا غير. إن بقايا الموقع الذي عايناه، تتمركز وتظهر على بعد ١,٢كلم شمال شرق المنبع، أي تحديدًا عند النقطة ٣٥°٢٩'٤١. ٤٦" شمالاً و٤°٥٧'٢٠. ١١" شرقًا. تنتشر به العديد من كسور الفخار القديم على مساحة ٣ هكتار تقريبًا، ولذلك يسميها أهل المنطقة بخربة القلال[٢٨].

أول ما شد انتباهنا بالموقع، إضافة إلى كسور الفخار الكثيرة، وجود بقايا عديدة من الملاط الجيري على السطح وثمة بعض العناصر المعمارية الدالة دومًا على وجود منشآت وظيفية وأخرى سكنية كذلك، ناهيك عن العديد من مضادات الثقل التي تستعمل في معاصر الزيتون؛ فقد أحصينا ستة مضادات ضخمة منحوتة على حجارة من النوع الرملي أو المتكتل (Conglomérat)، كلها مصقولة بشكل غير منتظم ومعظمها لا يظهر كليًا. زيادة على ذلك، هناك عناصر أخرى ذات صلة بالطحن، نذكر أجزاء سفلية (Meta) لمطاحن حبوب من الحجم الكبير، منحوتة أيضًا على حجارة من النوع المتكتل.

١/٦-فرن خربة القلال

ومن بين المخلفات الهامة أيضًا، وقفنا على آثار فرن للفخار فوق تلة صغيرة بالجهة الشرقية للموقع. تجسدت شواهده في بقايا الرماد وآثار الحرق وعجينة الفخار المحروقة ومخلفات الحرق، فضلاً عن العديد من كسور الآجور والقطع الفخارية المتنوعة الصغيرة والكبيرة الحجم مثل الأواني المنزلية وبقايا لمصابيح زيتية. (الصورة٧) على بعد ٢٠٠ م تقريبًا شرق موقع الفرن، يمكن رؤية بقايا أساسات منشآت سكنية، فقط أنه لا يظهر منها إلا الأخاديد التي تبين حدودها، وتدلنا على أننا أمام موقع لاريب أن مبانيه كانت تبنى بالطوب أيضًا. (الصورة ٨)

ثانيًا: الكنز النقدي لعين الكلبة

اكتشف في نهاية السبعينات[٢٩] بدوار عين الكلبة كنز نقدي هام، غير أننا لم نجد معلومات حول مكان اكتشافه بالضبط. احتوى هذا الأخير على ١٢٤٢ قطعة برونزية صغيرة ترجع لفترات مختلفة؛ منها قطعة ترجع للفترة البونية و٧٠ عملة ترجع للفترتين البيزنطية والرومانية، ثم٧٧ عملة ضُربت باسم الملك "تراسموند" (٤٩٦ -٥٢٣) (Thrasamund) رابع ملوك الوندال، كما وجد من بينها ٨٢٤ عملة مجهولة تحمل رمز إلهة النصر الرومانية المعروفة باسم فيكتوريا Victoria، إضافة إلى ذلك ١٧ قرصًا من مادة الرصاص[٣٠]تم إيداع جزء من هذا الكنز سنة ١٩٨٢بالمكتبة الوطنية الفرنسية بباريس وهذا على مستوى قسم العملات والميداليات والتحف. بلغ عدد العملات المودعة ٨٨ قطعة برونزية صغيرة وتحمل أرقام الجرد من ١٩٨٢ -٢٤١ إلى ١٩٨٢ -٣٢٧.[٣١] (الصورة ٩)

تذهب السيدة "موريسون" (Morrisson) التي درست هذا الكنز، إلى إرجاعه رغم تركيبته وتنوعه إلى نفس الفترة التي أُرخ بها الكنز النقدي الذي اكتشف بمنطقة "سيدي عيش" بتونس، أي ما بين ٥٢٠ م و ٥٣٠ م [٣٢]. فضلا عن ذلك ترى أن عملية إخفاء الكنز النقدي "لعين الكلبة"، كان تخوفا من وصول البزنطيين في الفترة التي قاد فيها القائد "سولومون" حملته الثانية، وهذا يتطابق مع تأريخ العملات الأحدث لمجموعة من هذا الكنز؛ أي نحو الفترة ما بين ٥٢٠-٥٣٠ والتي ترجع إلى عهد الملك "تراسموند"[٣٣]، وعليه فهو يعطي كذلك فكرة عن التداول النقدي بإفريقيا قبل الحملة البيزنطية، أو على الأقل قبل دخول عملات بيزنطية[٣٤]. وتضيف نفس الباحثة أن هذه المجموعة تعكس ظاهرة التضخم التي عرفتها إفريقيا في بداية القرن السادس الميلادي.[٣٥]

ثالثًا: مواقع إقليم بلدية السوامع

خربة الرصاص

لا توجد شواهد وكتابات تمدنا بالاسم القديم لخربة الرصاص (الصورة ١) رغم أهميتها، مع ذلك رجحها البعض أنها هي نفسها المنطقة المذكورة تحت اسم Ad Salinae أو Ad Salinas nebunonenses tubunonenses[٣٦] المدرجة في مسار أنطونين[٣٧]. كما ننوه بأن هذه الأخيرة لم يرد ذكرها في القوائم الأسقفية لمقاطعة زابي بموريطانيا السطايفية.[٣٨]

تقع خربة الرصاص على بعد قرابة ٣ كلم جنوب غرب "السوامع"، وهي البلدية التي تحد عين الخضراء من الناحية الجنوبية الغربية. تتجلى آثارها عند النقطة ٣٥°٣٣'٢١,٤٥" شمالاً و٤°٣٩'٣١,٩٠" شرقًا، على بعد ٥كلم تقريبًا شمال شط الحضنة. يعبرها العديد من المجاري المائية المنحدرة نحو هذا الشط، وأهمها وادي "العنات" و"عجلان" اللذين يتوسطهم موقعها.

مثلها مثل العديد من المواقع الأثرية المنتشرة حول شط الحضنة، ما تزال آثارها تحت التراب ولم تنل حقها من البحث والدرس، فإنما جاء ذكرها عرضًا في تقارير إدارية من إنجاز فرق استكشافية للإدارة الفرنسية ترجع إلى مطلع القرن التاسع عشر. عرفت كأهم مركز زراعي[٣٩] في الفترات القديمة، فهي منطقة زراعية عالية الخصوبة[٤٠]. رغم أنها حاليًا أرض جرداء قاحلة، ففي الماضي القريب، لما كانت تحظى بالسقي المنتظم تصبح خصبة وتنتج أجود أنواع الحبوب. كما ذكرت دراسات سابقة أنه أجريت تجربة لزراعة القطن في هذه المنطقة بين عامي ١٨٥٧ و١٨٦٠، ففاق محصوله كل التوقعات لأنه أعطى قطنا من النوعية الرفيعة المعروف بقطن "جورجيا" Georgia[٤١] الواقعة جنوب القوقاز.

ذُكر في الورقة ٢٥ الخاصة بالمسيلة من الأطلس الأثري تحت رقم ٩١، أن هذا الموقع به آثار رومانية تغطي مساحة تقدر بحوالي أربعة ٤٠ هكتارات، تمثلت في بقايا كنيسة مسيحية وأجزاء أعمدة ومطاحن وأحواض صغيرة مصنوعة من مادة الجص، بالإضافة إلى العديد من القطع الفخارية والمطاحن[٤٢].

لكن عند معاينتنا للمنطقة، لاحظنا أن الآثار التي وقفنا عليها تمتد على مساحة تفوق 20 هكتار ولم يبق منها إلا مجموعة من التلال التي تحوي بقايا أثرية مختلفة، معظمها تمثل في العديد من الفخار القديم بنوعيه الاعتيادي (céramique commune) والسجيلي الأفريقي (sigillée africaine) الذي تحتوي عينات منه على زخارف مُقصلة (décor en guilloché)، أي على شكل خطوط ومنحنيات متشابكة،و شاع إنتاج هذا النوع في الفترات المتأخرة [٤٣]. زيادة عن ذلك،عثرنا على قطع من الفخار ذو البريق المعدني الذي يعود إلى الفترة الإسلامية، مما يؤكد على استمرارية استغلال المنطقة في الفترة الإسلامية، ولعلها الفترة التي عاصرت إما دولة الحماديين بقلعة بني حماد أو حتى الفاطميين بالمحمدية (المسيلة).

جاء موقع خربة الرصاص على شكل مجموعة تلال من الردم، امتزجت فيها بقايا أشقف الفخار وعناصر معمارية مختلفة؛ فمنها حجارة منحوتة بشكل غير منتظم، وقواعد لأعمدة تبدو أنها لم تُحرك وظلت مكانها. أضف إلى ذلك، ثمة بعض الأساسات التي قد تكون بقايا لكنيسة، فقط لم يبق منها سوى صفين من القواعد التي كانت تشكل ربما البلاطة الوسطى للمبنى، وهنا عثرنا على بقايا زجاجية، تمثلت في أجزاء من كأس (calice) يستعمل في الطقوس الدينية بالكنائس خلال الفترة المسيحية[٤٤].

في حين تنتشر بقايا أساسات أخرى مُربع ومُستطيل شكلها؛ لعلها بقايا منشآت سكنية أو مجموعة من الضيعات الفلاحية. تتخلل هذه الفضاءات بقايا أحواض مربعة تتشكل من أربع مقصورات مقولبة بالجص والملاط، وهي بمثابة أوعية لحفظ الماء قديمًا. أنشئت هذه الأخيرة على جانب كل منزل بخربة الرصاص[٤٥] (الصورة ١٠). تذكرنا أيضًا بنماذج مشابهة رأيناها بموقع عي سلطان[٤٦] الكائن ببلدية بن سرور جنوب شرق شط الحضنة. نشير هنا إلى نقص المادة الحجرية، فثمة القليل جدا من العناصر المعمارية الكبيرة أو حتى بقايا الحجارة الدبشية؛ فلا نستبعد استعمال مادة اللبن في البناءات مثلما لاحظناه بخربة القلال أعلاه؛ فهي المادة الأنسب لمقاومة المناخ الحار الذي يطغى على المنطقة صيفا حسب ما أكده الساكنة بالمنطقة؛ فهناك بضواحي الموقع منازل حديثة مبني معظمها بهذه المادة.

يترامى على السطح بقايا عناصر معمارية تنتمي إلى منشآت تحويلية، نذكر منها مضادات الثقل التابعة لمعاصر الزيتون وعدد من الأجزاء السفلية لمطاحن الحبوب الكبيرة، وأيضًا أجزاء عديدة من المطاحن اليدوية، ولعل عجينة الفخار المنتشرة وبعض من عجينة الحديد وبقايا الحرق بها، تدل على وجود فرن وورشة لصناعة الفخار. ومن الآثار الهامة بالموقع، ثمة جزء صغير من جدار حامل -دون شك- لقناة مياه يشبه تلك القناة الموجودة بزابي[٤٧]، ولعلها تكون تابعة للقناة التي كانت تأتي من واد القصب[٤٨] على بعد ٢٥ كلم لتزود خربة الرصاص بالماء.

لا ريب أن هذه المعطيات مجتمعة، توحي بأهميتها من الجانب الفلاحي، وأنها حتما تمتعت بمكانة اقتصادية خلال الفترات القديمة المتأخرة خاصة. وما قد يعزز تخميننا هذا، هو موقعها الاستراتيجي بالنسبة لشبكة الطرق القديمة أيضًا؛ إذ من خلال تتبعنا لخريطة الطرق الرومانية القديمة، ندرك جيدًا أن الطريق التي كانت تربط بين المنطقة المسماة بفاقس[٤٩] (vaccis) وطبنة، والتي كان يتخللها مجموعة من الآبار الارتوازية[٥٠]، كانت دون شك تمر عبر خربة الرصاص وتجتاز

مجموعة من المواقع حتى تصل إلى موقع شط الحمام، هذا الذي نعتقد أنه نفسه الموقع الذي أُدرج تحت رقم ٩١ [٥١] على الخريطة رقم ٢٦ لبوطالب، ثم تتجه عبر عدد من المواقع نحو "خربة القلال" بعين الخضراء، وتنتهي عند الجزء الذي يوصل إلى مدينة طبنة القديمة. تُعد خربة الرصاص أيضا من المدن الهامة التي قد دمرت من طرف قبائل الجيتول (Gétules) قبل مجيء الوندال أو مباشرة عند بدايات زحف هؤلاء[٥٢] على منطقة الحضنة. مع ذلك، عاودتها الحياة في الفترات الوسيطة لأنه وقفنا على عينات من الفخار الإسلامي ذو البريق المعدني بالموقع الأثري.

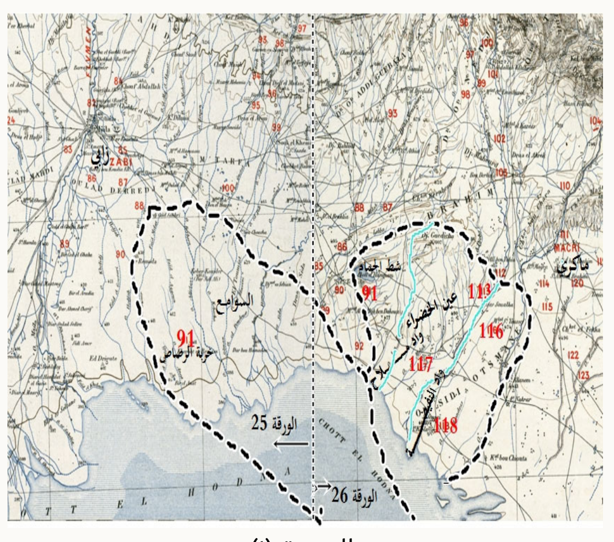
خَاتِمَةٌ

تتجسد بقايا معظم هذه المواقع في العديد من المراكز الفلاحية التي احتوت على إقامات وضيعات بمختلف هياكلها، غير أننا لم نستطع التعرف على مخططاتها كليًا، ليس فقط لأن معظم موادها قد زالت أو استغلت في المباني الحديثة المجاورة لها، بل حتى تلك البعيدة عن التوسع العمراني لا تزال أثارها تحت الأرض، وتستدعي الاستظهار من أجل قراءتها ودراستها مستقبلاً. أضف إلى ذلك خصوصية بعض المنشآت (ضيعات أو منازل؟) التي يمكن أن نلمح بشكل غير دقيق أساساتها، لأنها أصلا قد بنيت بمادة الطوب وزالت نهائيًا، فلم يبق سوى عناصر معمارية هامة فيها، لاسيما الخاصة بمعاصر الزيتون ومطاحن الحبوب، وينتشر على سطحها العديد من الفخار وبقايا الحرق ونفاياته، وذات الشيء بالنسبة للزجاج. أما بقايا عدد من مضادات الثقل وعناصر السحق المنتمية إلى المعاصر، تشير دون شك إلى الزيتنة بالمنطقة قديمًا.

تميزت هذه العناصر بتنوع أشكالها فلا تنطبق في معظمها مع التنميطات المعروفة بالنسبة للعناصر المعمارية التابعة لمعاصر الزيتون التي وجدت بمواقع أخرى في الجزائر أو في كل من تونس[٥٣] وليبيا[٥٤]، غير أن هذه الخصوصية وجدت ببعض المناطق بشرشال[٥٥]، ونذكر خاصة أشكال مضادات الثقل وأحجار الرسو التي احتوت على فتحتين متوازيتين[٥٦].

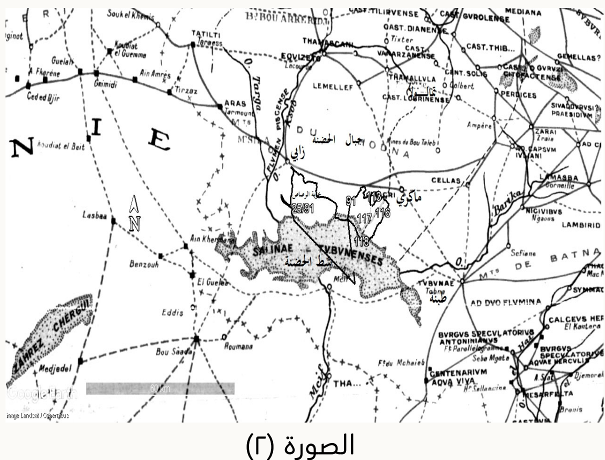
تنتشر جل هذه المواقع الأثرية التابعة للجزء الشمالي الشرقي للحضنة، عبر مساحات شاسعة من السهول الملائمة للنشاط الاقتصادي والزراعي، وذلك لما تتوفر عليه من تربة خصبة ومياه عذبة، وعليه من البديهي تصنيف بقاياها ضمن المنشآت الريفية التي ساهمت في النهوض باقتصاد المنطقة قديمًا. ولا ريب أن هذا الريف ينتمي إلى إقليم مدينة ماكري (مقرة القديمة) لأنها الأقرب. إلى جانب ذلك، عرفت هذه الأخيرة خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين توافدًا بشريًا هامًا؛ فكانت ضمن المناطق التي نفى إليها الملك الوندالي هونيريك Huneric (٤٧٧– ٤٨٤) قرابة ٥٠٠٠ كاثوليكي، ولعل هؤلاء انتشروا عبر العديد من المناطق التابعة لإقليم مقرة بما فيها المواقع المدروسة هنا، وهذا ما زاد من حيويتها وحركية اقتصادها؛ ولعل الكنز النقدي الذي اكتشف بعين الكلبة يؤكد ذلك.[٥٧]

الملاحق



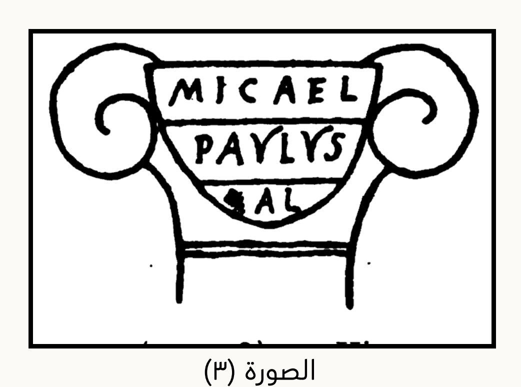
الصورة (١)

حدود بلديتي عين الخضراء و السوامع ومواقعها الأثرية في الخريطتين ٢٥ و ٢٦ من الأطلس الأثري للجزائر(بتصرف (Gsell St ,AAA ,feuilles :25 et 26)



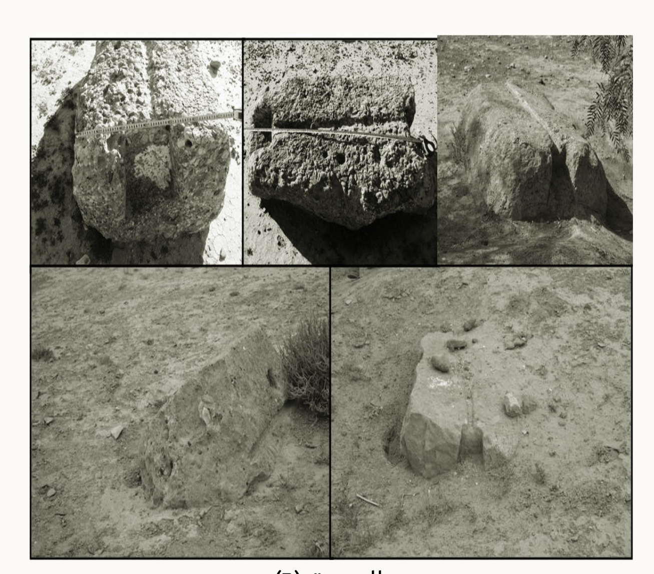
الصورة (٢)

مواقع عين الخضرة على خريطة شبكة الطرق (بتصرف) عن Salama.P



الصورة (٣)

كتابة مسيحية نقشت على تاج عمود(عن Monceaux ,p 295)



الصورة (٦)

نماذج من مضادات ثقل بمختلف المواقع



الصورة (٤)

عينات من فخار الصوالح



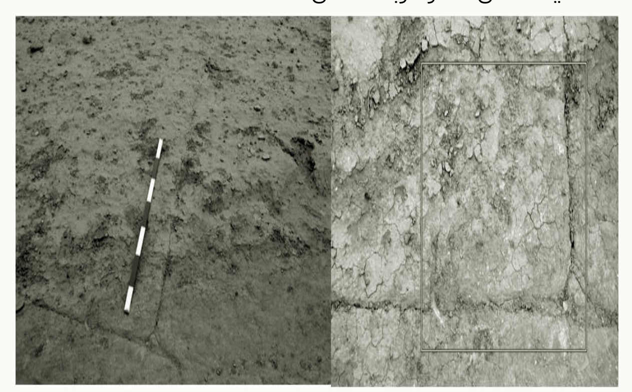
الصورة (٧)

عينات من فخار خربة القلال



الصورة (٥)

ع أولاد رحمون



الصورة (٨)

آثار أسسات لمبنى من الطوب بموقع القلال







الصورة (٩)

عملتان من كنز عين الكلبة

https://images.bnf.fr/#/doclist/1610749511261




الصورة (١٠)

عيناتان من الأحواض المائية المقلوبة بالجص والملاط

الاحالات المرجعية:

(1) Savornin J, Essaisur l'hydrologie du Hodna : Régime artésien - Sources Vauclusiennes - Sources thermo-minérale, Jourdan, Alger1908, p.65.

(2) Ville . M, Voyage d'exploration dans les bassins du Hodna et du Sahara. Paris1868,p.122.

(3) Gsell.St,Atlas Archéologique de l'Algérie(AAA): édition spéciale des cartes au 200.000e du Service Géographique de l'Armée ; avec un texte explicatif:feuille 26 n°(S) 91 ,92,113,116,117,118.

(٤) سعاد سليماني، حنان خربوش؛ **ملفات أثرية بإقليم مقرة: دراسة لموقعي الرمادة وهنشير الرمادة**، مجلة دراسات، ٢٠١٨، العدد ٠٩، ص.١١-١٢.

(5) Salama. P, Les voies romaines de l'Afrique du Nord, Alger, Imprimerie officielle du gouvernement de l'Algérie, Alger 1951,voir la carte

(6) Gsell St ,AAA. feuille 26 n°19

(7) Gsell St ,AAA. feuille ٣٧ n°١٠

(8) Gsell St ,AAA. feuille 26 n°103

(9) Ungerer M, Notes sur quelques ruines antiquités d'Algérie ,BCTH, 1904 ,p.153.

(١٠) سليماني سعاد، **دراسة تاريخية أثرية للمعالم والمواقع القديمة ببلاد الحضنة**، رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد الآثار، جامعة الجزائر ٢، الجزائر،٢٠١٤، ص ٩٦-١١٩.

(11) Gsell St ,AAA. feuille 26 n°113

(١٢) جاء ذكر المنطقة باسم الصوالحة في **الخريطة الطبوغرافية** رقم ٢٦ لبوطالب بالأطلس الأثري للجزائر، ويحمل الموقع رقم ١١٣.

(١٣) سعاد سليماني، حنان خربوش؛ ص١٧.

(14) Tousaint, M. (1903).Rapport sur les reconnaissances archéologiques exécutées par les brigades topographique d'Algérie et de Tunisie en 1901-1902 , BCTH, 1903 ,pp. CXLVI – CXLVII .

(15) Ibid.

(16) Ibid, CXLVII.

(17) Gsell St ,AAA. feuille 26 n°103.

(18) Monceaux. P, Enquête sur l'épigraphie chrétienne d'Afrique. In: *Mémoires présentés par divers savants à l'Académie des inscriptions et belles-lettres de l'Institut de France. Première série, Sujets divers d'érudition*. Tome 12, 1e partie, 1908 ,pp.294-295.

(19) Ibid,p294 ;AAA.26/116.

(20) Ibid,p295.

(21) Ibid,p.242 ,274.

(٢٢) سليماني سعاد، المرجع السابق، ص١٠٣.

(٢٣) المرجع نفسه، انظر ملف بودربالة، ص ١٤٣.

(24) Gsell St ,AAA. feuille 26 n°117

(25) Id

(٢٦) سليماني. س؛خربوش.ح، ص ١٦

(27) Gsell St ,AAA. feuille 26 n°118.

(٢٨) **القلال** كلمة محلية تعني الفخار.
(29) Morisson, C. Mélanges de numismatique, d'archéologie et d'histoires offertes à J. Lafaurie, Paris, Soc. Fr. Num., 1980, p. 239-248.
(30) Id.p 240, note1.
(٣١) المسؤول عن قسم العملات والميداليات والتحف، بعد أن اتصلنا بمصالحه عن طريق البريد الإلكتروني، ونوجه له كل الشكر والتقدير (Dominique Hollard) أعطيت لنا هذه المعلومات من طرف السيد دومنيك هولارد.
(32) Id.p 240.
(33) Id.p 242.
(34) Id.p 240, note1.
(35) Id,p 243.
(36) Grange.R, Monographie de Tobna (Thubunae), RSAC, V35, 1901, P. 60.
(37) Payen, Colonisation du Hodna, RSAC, 1893, P. 146.
(38) Ibid, P. 145.
(39) Gsell. St, Enquête administrative sur les travaux hydrauliques anciens en Algérie,Ernest Leroux,Paris,1911 ,pp.75-76.
(40) Toulotte, Géographie de l'Afrique Chrétienne. Tome II, la Numidie. 1894, Paris. p248.
(41) Payen, RSAC, 1893, P.146.
(42) Gsell St, AAA. feuille 25 n°91.
(43) Ben Moussa, Moncef, Production et circulation de sigillées africaines de la Tunisie septentrionale, Barcelona, 2007, p.208 ; Bonifay.Michel, Céramique africaine et imitations : où, quand, pourquoi ? In : Morais (R.), Fernández (A.), Sousa (M. J.) éd. - As produções cerâmicas de imitação na Hispania. Porto/Madrid, 2014, (Monografías Ex Officina Hispana, 2), P. 80.
(44) Foy Danièle, Démians D'Archimbaud Gabrielle. Dépôts de verres et rites funéraires. Archéologie du cimetière chrétien. Actes du 2e colloque ARCHEA (Orléans 29 septembre-1er octobre 1994) Tours : Fédération pour l'édition de la Revue archéologique du Centre de la France, 1996. p .236
(45) Payen, Les travaux hydrauliques anciens, dont il existe encore de nombreux vestiges dans la partie du Hodna Dépendant de la Province de Constantine , RSAC, 1864 ,p4,note1 ; Gsell.St, Enquête ....,p.75.
(٤٦) سليماني. س، ص٤٠٣-٤٠٤.
(47) Slimani.S ; Kherbouche H, Les formes d'occupation antique dans le Hodna : état des lieux, p.194.
(48) Gsell.St,Id.
(٤٩) مع الإشارة دائمًا إلى أن موقع فاقس لم يحدد بعد إذ يضعها مسار أنطونين بالقرب من طبنة، ونقترح مثل غيرنا من الباحثين الأولين، بعد التحريات الميدانية التي قمنا بها، أن تكون نفسها منطقة التي تحمل تسمية فاقس بإقليم أولاد منصور من الجهة الشمالية الغربية لشط الحضنة، أنها ن للمزيد من المعلومات، يمكن الاطلاع على عمل حول الموضوع. (تحت الطبع)
(50) Payen,RSAC 1893 ,p144 .
(51) Gsell. St , AAA. feuille 25 n°91.
(52) Payen, Id, P. 145.
(53) Sehili. S , Huileries antiques de Jebel Semmama. Centre de Publication universitaire , Tunis,2009.
(54) Mattingly, D J, Hitchner, R B, "Technical specifications for some North African olive press of roman date." BCTH 1993, Supplément XXVI.pp439-461.
(55) Leveau. P, Caesarea de Maurétanie. Une ville romaine et ses campagnes. Collection de l'École française de Rome, 1984, P. 430-432.

(٥٦) سليماني.سعاد، **خصوصية المواقع الأثرية بالحضنة**، تكريم خاص للأستاذين محمد البشير شنيتي وأرفه لي محمد الخير، **أبحاث ودراسات تاريخية وأثرية**، الجزائر٢٠١٦، ص ص٣٨١-٣٨٣.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

قصبة موحى اوحمو الزياني
التاريخ، المعمار، وسبل التثمين



د. جواد التباعي
دكتوراه في التاريخ والتراث الجهوي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية – سايس
فاس – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

تُعَدّ قصبة موحى اوحمو الزياني واحدة من أهم المآثر العمرانية المصنفة تراثًا وطنيًا في المغرب منذ ١٩٣٣م بمدينة خنيفرة المغربية. ينسبها الجميع لمؤسس المدينة الحديثة موحى اوحمو الزياني، لكن الشواهد التاريخية تؤكد أن القصبة شيدت قبل هذا التاريخ بقرون عديدة. وتعود أولى الإشارات في هذا الصدد إلى أنها كانت قلعة عسكرية خلال عهد يوسف بن تاشفين المرابطي (٤٠٠ - ٥٠٠ هـ/ ١٠٠٩- ١١٠٦م)، وجددت كليًا خلال عهد المولى إسماعيل العلوي (١٠٨٢- ١٠٣٩هـ/ ١٦٧٢-١٧٢٧م). وبعد وفاته بقيت مهملة إلى أن سيطر حمو نعقى والد موحى اوحمو الزياني على القصبة منتصف القرن التاسع عشر، وأجرى عليها بعض الترميمات البسيطة. ويبقى أهم ترميم خضعت له القصبة في عهد موحى اوحمو الزياني (١٢٧٣. ١٣٣٩هـ/ ١٨٥٧. ١٩٢١م) الذي اتخذت اسمه جعلها قاعدة لحكم بلاد زيان. سنحاول في هذا المقال تتبع المسار الكرونولوجي لقصبة موحى اوحمو الزياني باعتماد منهج تاريخي يتتبع الإشارات والشواهد الأثرية لهذه المعلمة الزيانية، ويرصد أهم التغيرات التي عرفتها أدوارها تماشيًا مع التحولات وضعية بلاد زيان. لقد كانت في البداية قلعة عسكرية لمحاصرة العدو، إلى قصبة مخزنية لمنع القبائل الجبلية من الزحف نحو السهول، إلى قصبة قائدية توفرت فيها كل معالم رخاء القيادة، ثم حي عسكري استعماري لقمع من بناها بالأمس وصولاً إلى النسيان والتهميش الذي طواها بعد استقلال البلاد. وغايتنا من ذلك تنبيه المسؤولين إلى ضرورة تثمينها لتمارس الأدوار التي تتناسب ومكانتها التاريخية كتراث وطني.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٢١	يناير	٢٠٢١
تـاريخ قبــول النشــر:	١٩	فبراير	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

قصبة: موحى اوحمو الزياني: معمار: تراث: المغرب

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2021.218681 DOI

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

جواد التباعي. **"قصبة موحى اوحمو الزياني: التاريخ، المعمار، وسبل التثمين"**.- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الحادي والخمسون: مارس ٢٠٢١. ص ٢٣ – ٣٠.

Corresponding author: tabbaijaouad@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

تُعَدّ قصبة موحى اوحمو الزياني (١٢٧٣-١٣٣٩هـ/ ١٨٥٧-١٩٢١م) بمدينة خنيفرة المغربية واحدة من عشرات القصبات المرابطية التي تمكنت من الصمود في وجه عاديات الزمن وتدمير الانسان. وشاءت الأقدار أن تحظى باهتمام السلطان العلوي المولى إسماعيل الذي أعاد لها ولو مؤقتا جزءً من أهميتها. وكان حب موحى اوحمو الزياني للمدينة ورغبته في جعلها عاصمة لقيادته سببًا آخر في استمراها معلمة تاريخية منسية اليوم تستوجب التثمين. لقد كانت وراء هذا المقال دواعٍ متعددة أبرزها الرغبة في التعريف بالتراث المعماري لبلاد زيان القصية تنمويا. وتنبيه الفاعلين لأهمية التراث المعماري المحلي في إخراج المنطقة مما تعانيه من تهميش. فجاء هذا المقال كلبنة أولى ـ في غياب دراسات متخصصة في الموضوع ـ في مشروع كبير يهدف إلى تعريف شامل بالتراث الثقافي ببلاد زيان من خلال تقديم نبذة تاريخية عن هذه المعلمة، والتعريف بخصوصياتها المعمارية للمساعدة في أي ترميم محتمل للقصبة يعيد للقصبة وعبرها المدينة والمنطقة شيئا من مجدها الغابر.

أولاً: موقع وأهمية قصبة موحى وحمو الزياني، ونبذة عن حياته ومقاومته

١/١-موقع قصبة الزياني وأهميتها التاريخية

شيدت قصبة موحى اوحمو في موقع استراتيجي فوق مرتفع صخري على الضفة اليسرى لنهر مُ رْبِيعْ وسط مدينة خنيفرة، يتبع تصميمها انحراف أرضيتها الوعرة. ويواجه الباحث في تاريخها شح المادة المصدرية المتعلقة بتاريخ تأسيسها الفعلي، وشكلها الهندسي، ومكونات بنائها، لكن الراجح أنها واحدة من القصبات التي شيدت في عهد يوسف بن تاشفين زمن تأسيس أَدْخْسَانْ ولنفس الأهداف (حصار مدينة فازاز)، ودليلنا الأول في ذلك عادة المرابطين في تشييد قلاع عسكرية دفاعية، وبعثهم لجواسيس من مناطق قريبة لاستطلاع أخبار العدو[١]، ودليلنا الثاني الإهمال الذي طالها بعد سقوط فازاز إلى أن خَرِبَ معظمها لأنها فقدت الوظيفة التي شيدت من أجلها.

جددت القصبة في عهد المولى إسماعيل في نفس سنة بناء قصبتي أَدْخْسَانْ ومنت (١٦٨٨م)، لتأمين الربط بين أهم المحاور الطرقية للقوافل التجارية خلال تلك الحقبة بالنظر لموقعها الاستراتيجي في الربط بين العاصمة مكناس، ومراكش الحاضرة والسوق التجارية المزدهرة[٢]، كما اضطلعت بمهمة تأمين القوافل التجارية.

سيطر حمو نعقى على القصبة منتصف القرن التاسع عشر، وأجرى عليها بعض الترميمات البسيطة لأنها كانت تجاور قنطرة لعبور للمنتجعين مقابل رسوم. وبعد تولي موحى وحمو الزياني زعامة زيان رمم القصبة بسواعد القبائل عن طريق نظام "السخرة" بدعم من الجنود الذين أمده بهم الحسن الأول[٣]، حتى عرفت بين زيان ب "تَحشْنَاوِيتْ"[٤]، قدمها سنة ١٨٨٦م هدية لزوجته زينب الفاسية[٥] فعرفت ب" قصبة الفاسية" التي قطنت بها ستة أشهر[٦] لتأوي فيما بعد شناكْطة وكل حريم القائد مع أبنائهن[٧] وثروته. كانت تعقد بها الاجتماعات، وتبرم الاتفاقيات، وتتوثق الصداقات، ويستقبل بها الزياني الضيوف والأتباع الذين كان عددهم يزداد باستمرار[٨]. بعد معركة لهري نصب المستعمر مدافعه على القصبة، وشرع في قصف من بناها بالأمس، فما كان الحدث ليفوت أحد شعراء المنطقة الذي وثق الحدث شعرا بقوله:

أوَا وُتيطْ أيَاكَادِيرْ تَّاكْ أرنَاكّ رَيَالْ
إِضْربِنِي أَيُّهَا الجِدَارُ الَّذِي دَفَعَتُ فِيهِ رِيَالًا
مْشِي يُوشَا ربِّيْ كَ رُومِي أَكْنهذم أكَّانْ لونَا تُّكْ
إِنْ مَكْنَنِيَّ رَبُ الرُّومِيِّ فَهَدْمِكَ سَيَكُونُ الْجَزَاءْ [٩]

استخدمت القصبة بعد مرحلة التهدئة كحي عسكري، ثم مخبأً للمقاومين خلال مرحلة جيش التحرير قبل أن يتحول الجزء الكبر منها إلى مساكن ومحلات تجارية مكاتب إدارية، حيث لم يبقى من شواهدها التاريخية إلا جزء من الجهة الجنوبية بأبراجها الثلاثة. فمن يكون موحى اوحمو الزياني الذي تنتسب له القصبة؟

٢/١-نبذة مختصرة عن موحى اوحمو الزياني وأهم محطات مقاومته للمستعمر

موحى اوحمو الزياني هو محمد بن حمو بن عقى بن أحمد المدعو أمحزون بن موسى بن سعيد بن عبد الرحمن بن موسى بن لحسن بن سعيد ويشو بن عبد الرحمن بن موسى بن محمد بن يعقوب[١٠]. ولد حوالي ١٨٥٧م بمضارب قبيلة آيت حركات الزيانية حول البرج. واختلفت الكتابات في اسمه فقد عرف في المراسلات المخزنية باسمه الحقيقي محمد بن حمُ(و)، ولقبه أبناؤه وأسرته بموحى ونقله عنهم الفرنسيون. تميز الرجل بكونه أبيض مشرب بحمرة، نقي الشيب، كريم المائدة، يتكلم العربية جيدا، يخدمه حوالي المئة من الشناكْطيَّة (*chnagtia*)[١١] بالإضافة إلى أبنائه الستة عشر وأشقائه[١٢]. لا أحد من الأوربيين أمكنه الاقتراب منه[١٣] أو تصويره، وهوما يفسر غياب صورة له[١٤]. يقضي معظم نهاره في الاجتماعات أو متدربا على ركوب

الخيل[١٥] حتى صار فارسًا مقدامًا، وراميا بلا خطأ وهو في سن العشرين[١٦]. كانت له ولذويه أجود الخيول، وأحدث الأسلحة وأجمل النساء، وأمهر كلاب الصيد، وكانت الخيام لا تتنقل إلا بأمر منه ولا تضرب إلافي الأماكن التي يحددها بنفسه[١٧]. وقد ذكرت بعض المصادر الفرنسية أنه كان ضعيف الإيمان حيث لم يُشاهد يومًا يدخل مسجدًا للعبادة لدرجة أن قاض نصحه بالتسبيح لله لتشمله بركته فأجاب: "لم تتعود سبابتي إلا الضغط على زناد بندقيتي، وتأبى حبات التسبيح"[١٨].

جرت العادة أن تختار القبائل أمغارا من زعمائها الدينيين كما هو الحال بالنسبة لسيدي علي أمهاوش عند إشقيرن، لكن قبائل زيان كسرت هذه القاعدة بتعيين موحى اوحمو الزياني أمغارا لها منذ ١٨٧٧م[١٩]، ثم عين سنة ١٨٨٦ قائدا عليهم، بعدما تمكن خلال ثماني سنوات من إخضاع كل القبائل المنافسة له داخل الاتحادية، فتفوق على خصمه محمد أقبلي الذي أصبح تحت إمرته قائدًا تحت إمرته على زيان الشمالية (آيت سكُوكُو) ويدفع له الإتاوات حتى بعد معركة لهري[٢٠]، ثم تفرغ بعدها للقضاء على مولاي عبد السلام الأمراني[٢١] الذي استقر بين مولاي بوعزة وولماس ورشقه برسائل حارقة[٢٢].

بعد توحيد فيدراليته شارك أول قادة زيان في الحركات المخزنية لتأديب آيت سُخمَان، فتوسع نفوذه ليشمل منطقة كبيرة من الأطلس المتوسط، امتدت من آيت يُوسِي شمالاً إلى آيت وُيرًّا جنوبا، ومن والماس غربا إلى أزرو ولقباب[٢٣] شرقًا، وكون جيشًا مدربًا على القتال والتحدي والصمود، لكن هناك إجماع ببلاد زيان أنه لم يلجئ للعنف إلا لإعطاء المثل ولجم الفتن الناشئة[٢٤]. جاء تعيين موحى وحمو الزياني قائدًا على قبائل زيان ضمن مشروع "الظاهرة القايدية" الذي عول عليه المخزن خلال القرن ١٩م، فكان واحدًا من القواد الثلاثة عشر المعينين بعقود مكتوبة في عهد السلطان الحسن الأول[٢٥] لضمان طاعة الاتحاديات الكبرى، وإضفاء شرعية مخزنية عليها بإدماج الأعيان المحليين في الحكم

يختلف محمد اوحمو عن معظم قواد المرحلة باختياره المقاومة بديلا عن موالاة سلطات الحماية، رغم الإغراءات بجعله جزءً من "الإدارة المخزنية"، فكانت أرض زيان بقيادته قاعدة للجهاد ضد المستعمر، وأسهم منذ ١٩٠٨م في الجهاد بالشاوية، وشارك في معركة تافوديت ببلاد زمور في أبريل ١٩١٢، وفي معركة أكَوراي ببلاد كَروان في ماي من نفس السنة، ومعركة الزحيليكَة بزعير في يونيو، ثم معركة وارغوس نواحي وادي زم سنة ١٩١٣م[٢٦]. وبعد احتلال خنيفرة شارك الزياني في معركة أقلاَّل في ٣٠ يونيو ١٩١٤، ثم معركة تكَط في ٧ يوليوز من نفس السنة، ثم معركة تازروت موخبو في ٢٠ غشت من السنة ذاتها، وتبقى أهم معركة خاضها موحى اوحمو الزياني هي معركة لهري في ١٣ نونبر ١٩١٤م التي أباد فيها الكثير من قوات الجيش الفرنسي.

سجل له التاريخ التحالف والتنسيق مع موحى اوسعيد الويراوي في مقاومة الأطلس المتوسط، ورفضه ربط الصلة مع الألمان والأتراك العثمانيين بعد الهري، حينما بعثوا رسلاً متخفين في زي تجار إلى محل إقامته آنداك ب بُوسَادر[٢٧]، حيث وجه خطابًا إلى الدولتين على يد العالم عبد الرحمان النتيفي قائلاً: "إننا لا نرضخ لعدو ديننا وعدو نبينا، ولا تتراءى معه أعيننا، فليطمئن خليفة الإسلام وقائد الألمان"[٢٨]، وواجه رسل الجنرالين Lyautey وHenrys الرد نفسه[٢٩]، فكان محمد اوحمو بشهادة الرائد كورني "الخصم اللدود الأكثر عنادًا"[٣٠] والذي كان مجرد اسمه يبعث على الرعب في النفوس لأنه الأكثر تنظيما، وحنكة في قيادة المعارك[٣١].

قتل سيد زيان المعاصرة في معركة أزلاغ نبوتزمورت[٣٢] بجبل "تَاوْجْكَالْتْ"[٣٣] يوم ١٧ رجب ١٣٣٩هـ/ ٢٧ مارس١٩٢١م، في معركة ضم جيش عدوه فيها أبنائه المنشقين[٣٤] بقيادة الجنرال بوميرو بعد ضمان دخول العديد من القبائل المساندة للزياني تحت نفوذه[٣٥]، فكانت تلك أول وآخر مرة يرى فيها المستعمر وجه قائد زيان دون أن يلتقط له أي صورة[٣٦]. يستند المنصوري إلى إصابته بطلق ناري في صدره للتأكيد على انه استشهد وهو مقبل لا مدبر[٣٧]، ويؤكد شيوخ المنطقة أن بندقيته لم تكن محشوة بالرصاص[٣٨] بسبب نفاذ ذخيرته أثناء المعركة. وتواترت حكايات تفيد إصابته بطلق ناري أسفل العين نزل منه خيط دم قبل أن يسقط أرضا، وأفتى بعض الفقهاء والشرفاء بدفنه بملابس القتال باعتباره مجاهدا وأطفئت نيران كل الخيام وهدم بعضها حزنا عليه.

شيع جنازة محمد اوحمو الأف المجاهدين والخاضعين إلى مقبرة أجداده بتملاكْت[٣٩] وتصالح في جنازته الأعداء والخصوم. ودفن في قبر مجهول ظل يحرسه السكان المحليون إلى أن شيد على قبره الضريح الحالي، وشهد له خصومه قبل أصدقائه بالشهامة ودماثة الأخلاق[٤٠] فقال عنه Peyronnet أنه: "سقط بجلال وعظمة وهو يقاتل [...] فرض احترامه وتقديره"[٤١]، ليصفو الجو للفرنسيين الذين استولوا على معظم زيان بعيد وفاته.

ثانيًا: خصوصيات قصبة موحى اوحمو الزياني وقيمتها المعمارية والفنية لقصبة موحى اوحمو وإمكانات مساهمتها في التنمية المحلية

٢/١-خصوصيات قصبة موحى اوحمو الزياني وقيمتها المعمارية والفنية

تتجلى خصوصيات القصبة الزيانية في:

- عدم قيامها بالدور العسكري في عهد موحى اوحمو رغم توفرها على كل مقوماته كالمداخل المنكسرة، والأبراج الخارجية المربعة المكونة من ثلاثة طوابق، وتجاوز ارتفاعها علو الأسوار لتسهيل مراقبة تحركات العدو حتى لا تطرق المدينة على حين غفلة. لكن قائد زيان أخلى القصبة والمدينة بكاملها قبيل دخول سلطات الحماية إليها، وفضل قتال العدو في الجوار المكشوف، وهو ما يرجح أن القصبة بنيت في عهد سابق للزياني الذي قام فقط بتجديدها.
- اتخذها الزياني مقرًا مؤقتًا لإقامته خلال فترات الاضطرابات الجوية وتساقط الثلوج، ليعود إلى محلته في الجبل بعيدًا عن الأسوار السميكة الجامدة، فلا يعود إليها إلا للمراقبة والتسلية، أو لإصدار الأحكام العرفية من شرفة مطلة على ساحة القنطرة بعدما تعرض عليه القضايا لتنفذ في الحال[٤٢].
- تميزت القصبة بطريقة بنائها الأصيلة، المعتمدة على المواد الأولية المحلية والمتأقلمة مع محيطها الطبيعي. وهي تجمع بين طرازين معماريين:

الطراز المعماري الصحراوي المستخدم في قصبات وادي درعة لتشابه واجهتها إلى حد بعيد مع قصبة تاوريرت ضواحي ورززات.

طراز العمارة الأميرية بتافيلالت في الأبراج الخلفية والأبواب التي تشبه قصور الأمراء العلويين تافيلالت، خاصة البوابة الرئيسية لقصر أولاد عبد الحليم الريصاني[٤٣].

إنها شكل هندسي شبه صحراوي (تيغرمت) وقلعة حقيقية محصنة بجدران عالية لا تنفتح على الخارج إلا بكوات ضيقة للرمي[٤٤]. كانت وفق وصف *François Berger* نوعا من القصور المحصنة بأسوار جد سميكة من الطين الصلصالي الأحمر القاتم الجميل كتربة خنيفرة، قليلة الزخرفة تتخللها أحجار محلية وأجر محروق وفق معايير هندسية جد محددة تختصر مظاهر اندماج وتناسق القصبة مع محيطها المعماري والطبيعي من خلال طابقها الأرضي ذي العلو الكبير بفناءات داخلية بعضها مكشوف، وبعضها مزين برواق مغطى، ونافورة وقاعات واسعة تشرف على النهر والجبل بنوافذ مشبكة[٤٥]. يصفها بن داود في مذكراته بالقلعة الحقيقية القوية التي تحمل سمات قصبات العصور الوسطى من خلال أسوارها، وشرفات القلعة، والأبراج، وغرف الحراسة، والنوافذ[٤٦]. تكونت أبراجها المربعة الكبيرة من ثلاثة طوابق، يتم الولوج إلى الطابق الثالث منها من خلال مدخل صغير وسلالم لإطلاق النار. كما تمكن حراسها من مراقبة الوضع بأريحية، وتمنح لسكانه فرصة إلقاء نظرة شاملة على المنطقة.

كان يحيط بالقصبة سور مستطيل كبير يتكون من تسعة أبراج يتم الاتصال بينها عبر ممشى السور، وضمت مرافق أخرى كالمخازن والأهراء، والدار الكبيرة، وغرف إقامة الحرس...، ونرجح أن القصبة لم تضم مسجدًا جامعًا حفاظًا على دورها العسكري بدليل أداء الزياني وأقاربه للصلاة بالجامع الكبير على الضفة الأخرى للمدينة. كانت سقوف القصبة جميلة مزينة من الخارج بالقرميد الأخضر، ومصنوعة من الداخل بالأرز المحلي المزخرف بإمعان على يد صُنّاع استقدموا من مراكش. كما احتوت القصبة على عدد كبير من الغرف المزينة بفسيفساء ذات لون زجاجي، خاصة غرف الجهة اليمنى بمثابة قاعة جلسات يصدر محمد اوحمو أحكامه أوامره للمتقاضين من إحدى نوافذها[٤٧].

لم تكن قصبة الزياني عند تصنيفها تراثًا وطنيًا سنة ١٩٣٣م مستطيلة تمامًا على غرار القصبات الإسماعيلية أو قصبات الأعيان حيث تزيد عنها بمساحة مستطيلة بدون أبراج في الجهة الجنوبية. وضمت أسوارها الشرقية بابين جانبيين توسطهما برج أكبر من باقي أبراج القصبة. وتجد هذه الإضافات تفسيرها في انحراف أرضية الموقع، وكون الجهة الشرقية المصدر الرئيس للخطر القادم من مدينة فازاز خلال العصر المرابطي، ومن قبائل جبل زيان المتمردة منذ العهد الإسماعيلي وحتى حصول البلاد على الاستقلال سنة ١٩٥٦.

ضمت قصبة الزياني تحفًا عديدة أهمها ثلاث مدافع أهدتها الملكة إيزابيت للحسن الأول، وأهداها بدوره للزياني أثناء زيارته لفاس لكنها لم تستخدم لعدم معرفة الزياني وجيوشه بطريقة استخدامها. وتحولت القصبة ردحا من الزمن إلى متحف يزوره الجبليون لرؤية هذه المدافع.

سلم أبناء الزياني القصبة وما استولوا عليه في لهري إلى السلطات الفرنسية سنة ١٩٢٠م بعدما أصبحوا في صفوفها[٤٨]، فرممها المعمرون وأعادوها لأبناء القائد المنضمين إليهم[٤٩].

تظهر أسوار القصبة في فيلم وثائقي سنة١٩٤٨م ملاصقة للأبراج بسمك لا يقل عن المتر[٥٠]، لكنها بدأت تنهار تدريجيًا بعد ذلك نتيجة تعرضها للإهمال، فلم يبقى من معالمها اليوم سوى ثلاثة أبراج متصدعة في الضلع الجنوبي لسورها، وجزء من الجدارين الشرقي والغربي الملاصقين للأبراج بشرفات مسننة.

٢/٢-الوضعية الحالية لقصبة موحى اوحمو وإمكانيات مساهمتها في التنمية المحلية

تعتبر قصبة موحى اوحمو الزّياني أّول أثر تاريخي مصنف كإرث وطني بزيان، وذلك بمقتضى ظهير ٢٠ فبراير١٩٣٤ الذي نص على تسجيل الأسوار والأبواب والزوايا المحصنة للقصبة في عداد الأبنية التاريخية[٥١]. وبعد الاستقلال تفاقم وضعها بسبب الإهمال التام وعوادي الزمن، والتوسع العمراني بمحيطها، وهكذا تهاوت معظم أركانها، واستغل جزء مهم منها في بناء منازل حديثة، رغم أن الظهير الذي صنفت بموجبه القصبة يشدد على أهمية الحفاظ على هذا الموقع.

لم يصمد منها إلا جزء من الجدارين الشرقي والجنوبي، وبرج رئيس انهار ما يقرب من نصفه، بينما تعاني الأبراج الأخرى من شقوق عميقة. نميز وسط بقايا بناياتها المهدمة زخارف وزليج بديع، وسقوف من خشب الأرز المحلي المنقوش والمصبوغ، ونوافذه تشهد على روعة إبداع صناعها وبراعتهم. ولأنها تراث معماري وطني فريد على أرض زيان ورمز لذاكرتهم الجماعية، ومن أجل صيانة هذا الموروث الثقافي تبذل جهود كبيرة لتثمينه أبرزها:

- استعداد وزارة الثقافة لإنجاز دراسات هندسية، ومواكبة تقنية من أجل الحفاظ على ما تبقى من هذا الصرح التاريخي، وجعله في قلب مشروع تنموي شامل.
- استعانة مفتشية المباني التاريخية بمركز الدراسات والبحوث العلوية في إعداد دراسات للترميم[٥٢] وإيجاد حلول لوقف الزحف العمراني على ما تبقى من القصبة، وإعادة بناء الأجزاء المنهارة على المدى المتوسط. مع الحرص على تنفيذ مشروع إعادة التأهيل والتنمية من خلال تحويلها إلى فضاء ترفيهي وثقافي وفني، خاصةً وأنها تتوفر على كل المواصفات الضرورية لذلك. وتكلفة مشروع الترميم ما تزال ضئيلة بالمقارنة مع المكاسب الممكنة من تثمينها[٥٣].
- إيقاف بلدية خنيفرة لمختلف أشكال البناء بمحيط القصبة وزودت جوانبها بالإنارة وكاميرات مراقبة للحد مختلف أشكال الاعتداء عليها. ومن أجل جعلها في قلب مشروع تنموي شامل للمدينة يتوجب:

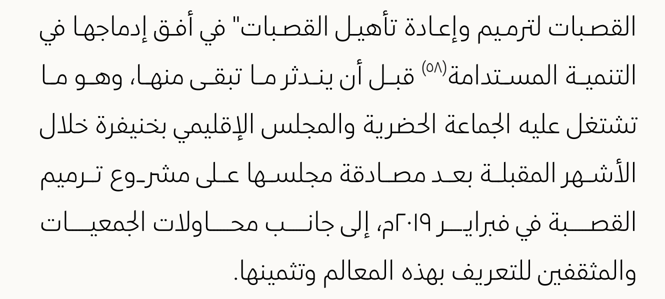
- تدعيم الأسوار كضرورة استعجالية تم ترميم ما تبقى منها وفق شروط الترميم المتعارف عليها.
- تهيئ حدائق وممرات بجانب القصبة وعلى طول أسوارها، ومنع البناء الإسمنتي في محيطها.
- تسليط الإنارة الفنية ليلاً على أبراج وأسوار هذه المعلمة وتوفير مكان ملائم لاستضافة أنشطة التثمين والتعريف بها عن قرب[٥٤].

بالإضافة إلى القصبتين الشهيرتين توجد العشرات من القصبات الصغيرة التي شيدها أبناء ومعارف القائد الزياني على الضفة اليمنى لنهر مُ رْبِيعْ، وبجنْ القّاشْ، وأرُوكُو، ومَنْث، والكُعِيدَة، أبرزها قصبات الباشا حسن ابن موحى وحمو الزياني بجبل أقلال[٥٥] بل وعاينا قصبات لقادة زيان وبنفس المواصفات بين أزمور والجديدة بدكالة. نستنتج أن القصبات ومن ضمنها قصبات زيان صنف معماري مغربي أصيل، إلا أن نصفها تقريبا مهدد بالانهيار، بينما١٠٧% فقط في حالة جيدة لأنها تحظى باهتمام الدولة والمستثمرين الخواص[٥٦].

خاتمةٌ

نخلص بناءً على ما سبق إلى أن قصبة موحى اوحمو الزياني لم تحمل اسم هذا الزعيم الزياني عبثًا، لأنه كان وراء تجميلها وجعلها قاعدة لحكم منطقة شاسعة وسط المغرب. تفردت بخصائص معمارية كثيرة جمعت فيها بين التصميم العسكري والوظيفة السكنية، بل أصبحت متحفًا يزوره الجبليون خلال فترة من تاريخها. وخضعت خلال العهد الاستعماري لتعديلات تتلاءم ووظيفتها كثكنة عسكرية. هذه المميزات جعلتها تصنف تراثًا وطنيًا سنة ١٩٣٣م فأصبحت بذلك رمزًا للذاكرة الجماعية لزيان وللمغرب. لكن حالها اليوم لا يسر الجميع مما يستوجب صيانة هذا الموروث الثقافي.

وعمومًا فقصبة موحى اوحمو الزياني واحدة من قصبات عديدة بزيان شيدت من التراب الأحمر والرمل الأبيض الموجودين بكثرة في المجال والمتميزين بالصلابة والقدرة على مواجهة عاديات الزمن، واختلفت مكانتهما باختلاف وظائفها. بعضها ما زال قائمًا يصارع عوادي الزمان والإهمال والتهميش، والبعض الآخر اندثر ولم يعدّ لها إلا قليل الأثر[٥٧]، مما يستوجب تكثيف الجهود المحلية والجهوية والوطنية للرفع من نسبة القصبات المصنفة خاصةً مع خلق "الشركة الوطنية لتثمين



القصبات لترميم وإعادة تأهيل القصبات" في أفق إدماجها في التنمية المستدامة[٥٨] قبل أن يندثر ما تبقى منها، وهو ما تشتغل عليه الجماعة الحضرية والمجلس الإقليمي بخنيفرة خلال الأشهر المقبلة بعد مصادقة مجلسها على مشروع ترميم القصبة في فبراير ٢٠١٩م، إلى جانب محاولات الجمعيات والمثقفين للتعريف بهذه المعالم وتثمينها.

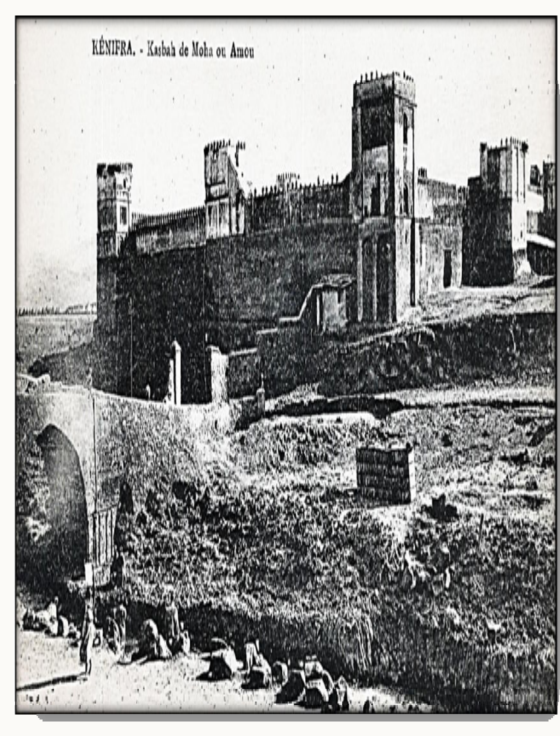


جانب من الواجهة الشرقية للقصبة — جانب من أبراج الجهة الجنوبية للقصبة

الصورة (١)

صورة تركيبية حديثة لقصبة موحا اوحمو الزياني[٥٩]

الملاحق

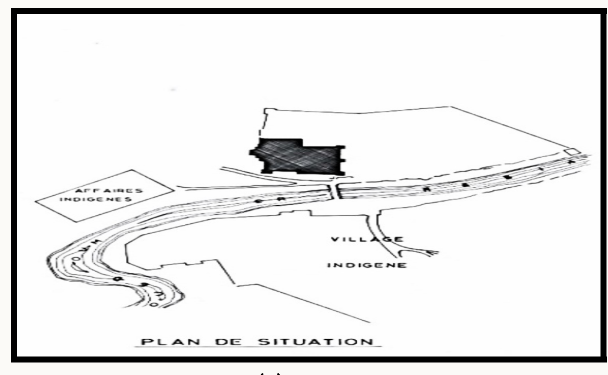


الصورة (١)

صورة لقصبة موحى وحمو الزياني عند تصنيفها سنة ١٩٣٣

من أرشيف المكتبة الوطنية

٢٠١٦/٠٣/٢٣



تصميم (٢)

تصميم ترتيب قصبة موحى اوحمو الزياني (١٩٣٣)

الاحالات المرجعية:

(١) المريني عبد الحق، **الجيش المغربي عبر التاريخ**، مطبعة المعارف الجديدة، ط٥، الرباط، ١٩٩٧، ص٢٦؛ عثمان إسماعيل، **تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى**، الهلال العربي للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٢- ١٩٩٣، ج٢، ص ١١٥- ١٢٣

(2) Inspection Des Monuments Historiques Et Sites Meknès Tafilalet, «**Rapport D'enquête: Kasbah De Moha Ou Hammou Zayani A Khénifra**», 30 Mars 2010.P.3.

(٣) المنصوري أحمد، **كباء العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر**، تحقيق وتقديم محمد بلحسن منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة الكرامة الرباط، ط١، ٢٠٠٤، ص١٣٥

(٤) **تحساويت**: معناها القصبة الحسنية نسبة إلى الحسن الأول وفق مجموعة من الروايات الشفوية المتواترة.

(٥) بيرجي فرانسوا، **موحا اوحمو الزياني (١٨٧٧ ١٩٢١)**، ترجمة محمد بوستة، مطبعة أنفو برانت، فاس، ط١، ١٩٩٩ ص ٢٠، رمم محمد اوحمو الزياني القصبة في محاولة لتوفير سكن لزوجته الفاسية لا يختلف كثيرا عن قصور فاس.

(٦) بيرجي فرانسوا، م. س، ص ٥٢- ٥٣.

(٧) أمحزون محمد، "**لمحات من سيرة القائد المجاهد أمحزون محمد أوحمو الزياني**"، جمعية أمحزون محمد أوحمو الزياني بخنيفرة، ندوة سيرة القائد المجاهد أمحزون محمد أوحمو الزياني القاعة الكبرى، خنيفرة، ١١ دجنبر ٢٠١١. غير منشورة.

(٨) نفس المحاضر ونفس الندوة

(٩) وعتيق أحمد، **من شعر المقاومة في الأطلس المتوسط**، ندوة المقاومة المسلحة والحركة الوطنية بالأطلس المتوسط (١٩٠٧- ١٩٥٦)، منشورات المندوبية السامية لقدماء المحاربين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة بني يزناسن، سلا،٢٠٠١، ص٢١٥.

(١٠) أمحزون محمد، "**لمحات من سيرة القائد...**"، محاضرة سابقة.

(١١) المنصوري أحمد، **كباء العنبر...**، م. س، ص ٢٩٩

(١٢) العلمي محمد، **حركة المقاومة بالأطلس**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط٢، ٢٠١٣، ص٥٥

- بيرجي فرانسوا، م. س، ص ٥٠، بينما يتحدث كيوم عن ١٤ ابنا فقط (كيوم أوغسطين، **البربر المغاربة وتهدئة الأطلس المركزي (١٩١٢-١٩٣٣)**، ترجمة وتقديم محمد العروصي، بني ملال (دون ناشر)، ٢٠١٦، ص١٥٢)

(13) Ben Daoud, «**Notes Sur Le Pays Zayan**», Archives Berbères, Vol 2, Fasc3, 1917, P ٢٨٤

(١٤) باستثناء رسم تقريبي اعتمادا على الأوصاف التي سجلها مقربون منه، وتبقى كل الصور المتداولة حتى في بعض كبريات المعاهد والمتاحف بالمغرب وخارجه صورا لأحد ابنيه حسن أو أمهروق (الصور)

(١٥) المنصوري أحمد، **كباء العنبر ...**، م. س، ص٢٩٩.

(١٦) بيرجي فرانسوا، م. س، ص ١٣- ١٤

(١٧) كنون سعيد، **الجبل الأمازيغي آيت أومالو وبلاد زايان المجال والإنسان والتاريخ**، تعريب الدكتور محمد بوكبوط، إصدار مصلحة الشؤون الأهلية بالمغرب، عن منشورات لجنة إفريقيا الفرنسية، باريس، ١٩٢٩، منشورات الزمن، مطبعة بني يزناسن، سلا، سلسلة ضفاف، ع ١٨، يوليوز ٢٠١٤، ص ١٠٨

(١٨) أسبينيون روبير، **أعراف قبائل زيان**، ترجمة محمد أوراغ، تنسيق أحمد شعبهي، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، سلسلة: ترجمة رقم ١١، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ٢٠٠٧، ص١٠.

(١٩) بلحسن محمد، **موحا وحمو الزياني**، موسوعة الحركة الوطنية وجيش التحرير بالمغرب، منشورات المندوبية السامية لقدماء المحاربين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة عكاظ، ٢٠٠٨، ج٢، ص٣٨٦.

(٢٠) كيوم أوغسطين، م س، ١٦٦

(٢١) **عبد السلام الأمراني**: (١٢٥٠-١٣٢٧هـ/ ١٨٣٤- ١٩٠٩م) أحد أصهار الملوك العلويين وأبرز شرفاء الامرانيين العلويين بمكناس وفاس الذين حظوا بتوقر واحترام المخزن. أصله من زاوية الافراني بسجلماسة، استقر في البداية بالزاوية الأمرانية (زاوية إفران) على بعد حوالي ٢٠ كلم من مركز الحمّامْ، ثم بمحل "الغزاز" قرب أكوراي قبل أن يصل إلى أمسرسر ببلاد زيان، انضمت له بعض قبائل كروان، وبني مْكيلْ، وفروع من آيت عْمّر، وآيت معي، وآيت سكَوكَو، وآيت رحو، وآيت بوخيو. دخل حروبا كلامية وعسكرية مع موحى وحمو انتهت بمقتل الأول سنة ١٣٠١هـ/١٨٨٤م (المنصوري أحمد، **كباء العنبر...**، م. س، ص١٤٥- ١٤٦.

(٢٢) لم يتوانى **الأمراني** عن مراسلة الزياني باستمرار لتنبيهه ومن بين رسائله الحارقة إليه: " إلى خديم حاجته، وأسير شهوته، من ليس له في البسيطة ود من قاص داني، محمد بن حم الزياني،[...] وبعد فقد ملأ الأدهان، بعد ما طرق الأذهان، بعد ما طرق الآذان، أنك عزمت على شق العصا فويلك ثم يا ويل من حواليك إن بلغ ما نقل عنك هنالك أما علمت أن هفوة العامة كغصة الطعام وهفوة الخاصة كغصة الماء لا دواء لها ولعمري لقد تصديت لمقتك، وسعيت بظلفك لحتفك، وأيم الله لقد زلت أقدامك، وطاشت سهامك" للمزيد (ابن زيدان، **الإتحاف...**، م. س، ج ٥، ص ص ٤٣٨- ٤٤٦).

(٢٣) بلحسن محمد، "**موحا وحمو الزياني**"، موسوعة الحركة الوطنية...م. س، ج ٢، ص٣٨٨.

(٢٤) كنون سعيد، م. س، ص108.

(٢٥) بورقية رحمة، **السلطة والدولة والمجتمع دراسة في الثابت والمتحول في علاقة الدولة بالقبائل في المغرب**، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩١، ص٢٧.

(٢٦) المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، "**إحياء الذكرى 90 لاستشهاد البطل موحى وحمو الزياني صانع بطولات وأمجاد معركة لهري الخالدة لقبائل زيان والقبائل المجاورة بالأطلس المتوسط**"، نشرة التواصل، ع١٦٠، أبريل ٢٠١٦، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ص - ٤٨ و٥١

(٢٧) مكان إقامته بعد معركة لهري على بعد حوالي ٢ كلم من جن الماس.

(٢٨) أمحزون محمد، "**سيرة القائد...**"، م. س، ص ص ١٠- ١١

(٢٩) المرجع نفسه، ص ١١.

(٣٠) الرائد كورني، **رائحة البارود في طريق احتلال الجنوب المغربي مع طابور مانجان مشاهد من مقاومة الرحامنة وتادلا وزيان والقصيبة**، ترجمة محمد ناجي بنعمر، منشورات الزمن، مطبعة بني يزناسن، سلا، سلسلة ضفاف، ع ٢٣، ماي ٢٠١٧، ص ١٤٣.

(٣١) المصدر نفسه، ص١٤١.
(٣٢) كل المصادر التي أتيحت لنا فرصة الاطلاع عليها في هذه النقطة تسمي المنطقة "أزلاك نتزمورت" لكن تعميق البحث بالمنطقة والتواصل مع السكان المحليين أكد لنا أنهت كانت ولاتزال تعرف " أزلاك نبوتزمورت"
(٣٣) **تاوجكالت**: صيغة تأنيث لكلمة أوجكال، وتعني مخزن جماعي يشبه في كثير من مواصفاته مؤسسة "أكادير" بسوس
(٣٤) كنون سعيد، م. س، ص١١٠
(٣٥) كيوم ليون أوغسطين، م. س، ص ١١٣
(٣٦) موس حسناوي، "**المقاومة المسلحة بالأطلس المتوسط**"، مجلة وجهات نظر، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ع ٥٩، شتاء ٢٠١٤، ص٤٣، تروج على العديد من المجلات والكتب صور يقال إنها للزياني، لكن الأرشيف الفرنسي يؤكد ألا أحد تمكن من التقاط صورة لهذا القائد.
(٣٧) المنصوري أحمد، **كباء العنبر**...، م. س، ص ٢٩٧
(٣٨) العلمي محمد، م. س، ص ٦٣
(٣٩) المنصوري أحمد، **كباء العنبر**...، م. س، ص ٢٩٧
(٤٠) المعزوزي محمد، هاشم بن الحسن العابدي العلوي، **الكفاح المغربي المسلح في حلقات من ١٩٠٠ إلى ١٩٣٥، مطبعة الأنباء**، الرباط، ١٩٨٧، ص ٤١- ٤٧، في هذا الصدد يؤكد السكان المحليون أن الزياني دفن في قبر عادي بمقبرة سيدي اوبلقاسم، وراقبه آيت بوهو القبر بإشراف شخص يدعى مهدي نعلي وحينما أراد الرحيل وضع ١٢ حصاة في أحد أركان القبر بطريقة خفية، ثم شاع أن النصارى هربوا الرفات، فعاد صاحبنا إلى القبر ليتأكد من بقاء الحصيات التي وضعها على القبر فوجدها لازالت في مكانها. (مقابلة مع **إبراهيم سواقي** (٦٠ سنة) شيخ إداري لقبائل آيت بوهو، آيت معي، وآيت خويا، بضريح موحى اوحمو الزياني بتاريخ ٢٠١٨/ ٠٨/ ٢٨.
(41) Peyronnet. R, Peyronnet. R, **Tadla Pays Zayan E Moyen Atlas** ,Imprimerie Algérienne, 1923, P12.
(٤٢) بيرجي فرانسوا، م. س، ص ٣٨- ٤٠.
(43) Inspection Des Monuments Historiques Et Sites Meknès Tafilalet, «Rapport D'enquête: Kasbah De Moha Ou Hammou Zayani A Khénifra», 30 Mars 2010.-, P5-6.
(٤٤) كيوم أوغسطين ليون، م. س، ص٥١.
(٤٥) بيرجي فرانسوا، م. س، ص ٥٣.
(46) Ben Daoud, Op, Cit, P2٨٢.
(٤٧) كنون سعيد، م. س، ص ١٠٩.
(٤٨) العلمي محمد، م. س، ص ٦٢.
(٤٩) بيرجي فرانسوا، م. س، ص ٥٣.
(50) Centre Cinématographique Marocain, **Tapis Parterres Du Maroc** (Film Documentai re), 01 Janv. 1948, Sur Ina. Fr.
(٥١) الدولة المغربية الشريفة المحمدية، الجريدة الرسمية، **قرار وزاري لإجراء بحث قصد التقييد**، ع ١٠٨٥ بتاريخ ١١ غشت ١٩٣٣، بتاريخ ٠٤ ربيع الثاني ١٣٥٢الموافق ٢٨ يوليوز١٩٣٣، الدولة المغربية الشريفة المحمدية، الجريدة الرسمية، **ظهير شريف صادر في ٢٠ فبراير ١٩٣٤**، ع ١١١٤، ٠٢ مارس ١٩٣٤، ص٢٧١.
(٥٢) يُعرف اختصارًا بـ (Cera) تأسس سنة ١٩٩٠ بمدينة الريصاني، ويُعَدّ مركزًا وطنيًا يُعنى بدراسة تراث تافيلالت وتاريخ المغرب في عهد العلويين.
(53) Inspection Des Monuments Historiques Et Sites Meknès Tafilalet, Op Cit P17
(٥٤) الرازقي محمد حافظ، "**نظريات حول عملية الترميم والمحافظة على المعالم التاريخية أسوار تطوان وشفشاون نموذجًا**"، ندوة أسوار المدن العتيقة، منشورات وزارة الشؤون الثقافية ١٩٨٩، ص١٢٥-١٢٦ .
(55) Pilant Lieutenant, Op, Cit , P95 .
(٥٦) القاضي محمد، "**القلاع والقصبات في المغرب**"، مجلة الثقافة الشعبية، منشورات الثقافة الشعبية للدراسات والبحوث، مطبعة أوال، البحرين، ع ٤٠، شتاء ٢٠١٨، ص ١٨٢.
(٥٧) المقال نفسه، ص١٨٠.
(٥٨) شهير وسام، "**تثمين قصبة سلوان ورهانات التنمية**"، ندوة قصبة سلوان التاريخ والحضارة، منشورات المجلس العلمي للناضور، مطبعة شركة الواحة، الناظور، ط١، ٢٠١٧، ص ٢٣٠.
(٥٩) وثائق المديرية الجهوية للتراث الثقافي لجهة بني ملال خنيفرة، ٢٠١٩.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

القبلية في المدينة
مساهمة في تحليل عوائق التمدن بالمجالات الطرفية المغربية
حالة مدينة بني ملال



د. المصطفى أيت يدير
مفتش تربوي للتعليم الثانوي
دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة الحسن الثاني – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

على الرغم من تجذر فكرة المدينة في المغرب منذ الحقبة القديمة، سواء في الكتابة التاريخية أو ما يقوم مقامها، أو في طوبونيمات محلية ووافدة، بعضها مندرس، وبعضها لا يزال قائمًا، فإن تحقيق فكرة المدينة والتمدن، لم تتم إلا بشكل ظاهر، لا تتعدى مستوى التعبير المؤسساتي والاداري، وما تفرضه الدوافع الاقتصادية والسياسية لاستعمال المجال، ولم ينفذ إلى مستوى العقليات والذهنيات، في سلوكات الناس وخطاباتهم، وفي أنماطهم الثقافية والتفكيرية. يعتبر الامتداد القبلي والعقلية القبلية داخل المدينة أحد أهم العوامل الرئيسة المانعة لتحقق التحول المنشود، إذ إن المدينة المغربية عامة، ومدينة بني ملال التي نناقشها في هذه الدراسة، لم تتطور من ذاتها، ولكنها نشأت من حاجة سياسية وعسكرية، ابتدأت بالحصن والقصبة، لتشكل مع توالي العقود والقرون ملجأ القادمين إليها من قبائل أمازيغية وعربية، عمرت المجال وحملت معها ثقافة البادية والبدو، التي وجدت داخل الإطار الجديد مسالك للبقاء والترسيخ، لم تزد مع الوقت إلا تحجرًا. إن مسار تشكل هذه الحاضرة كما خطته سجلات التاريخ، تبرز أن السلطة السياسية، التي كانت لها رهانات سياسية واستراتيجية ترتبط بسياق وقتها، منذ القرن (٦ه/١٢م)، عملت على استيطان عناصر بشرية ظاعنة متنقلة، اعتادت ثقافة الترحال والخيام، فلما تغيرت ظروف الوقت، وتغير نمط الانتاج والمعاش، وكان لابد من الاستقرار، وجدت تلك القبائل نفسها أمام صعوبات القطع مع العهد الماضي، ولا ينفك الفرد يشهر هويته القبلية، معددًا أنسابه وأجداده كلما دخل في حوار أو صراع مع طرف آخر. نعتقد أن هذه المعضلة، حدّت من فعالية الفكر المديني، وهويته الموجبة للانصهار وللعقلنة، بما هي قيم جديدة، يعضدها الانتاج المادي والفكري الحديث المصاحب لنظام اجتماعي معبر عن عمق التحول.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٧ فبراير ٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر: ٢٦ فبراير ٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

التمدن؛ القبيلة؛ السلطة؛ المخزن؛ بني ملال

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.218768

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

المصطفى أيت يدير، "القبلية في المدينة، مساهمة في تحليل عوائق التمدن بالمجالات الطرفية المغربية: حالة مدينة بني ملال".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الحادي والخمسون؛ مارس ٢٠٢١. ص ٣١ – ٤٢.

Corresponding author: aitidirmustafa@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَة

بني ملال مدينة بالنعت، وعند المؤرخين بالرواية، وأما بالدراية وماجريات التاريخ فهي قبيلة، ليست قبيلة بالنسب، فذلك من قبيل الوهم، وإنما هي كذلك بالتدبير وبعقلية العمل والسلوك[1]. **ما هو الباعث على هذا القول؟**

ثمة مؤشرات متفاوتة القيمة لقياس صوابية هذا الطرح من عدمها، أمكن لنا أن ننتقي منها اثنين، ونجعلهما في ذات الوقت أدوات بناء الموضوع. أولها ملاحظات معاشة تخلق استفزازًا ذهنيًا مؤداه خطاب وممارسة متأصلان في البداوة، وجدت منافذ يسيرة لتنغرس في مدينة ذات جذور قرنية. ثانيها امتداد العصبية (القبلية) – بالمعنى الخلدوني- بين الأفراد والزمر وفي كل أشكال التدبير والتفكير. مسألة العصبية القبلية هذه، والتي تشتغل حولها جملة عناصر سنأتي على ذكرها تباعًا، هي التي سنجعلها مفهومًا رئيسًا للبناء، به سنراقب انحباس الانعتاق والانتقال من وضع إلى آخر. فالقاعدة "تاريخيًا وسوسيولوجيًا" أن الغاية التي تجري إليها الحضارة هي الانتقال من طور الخشونة البدوية إلى رقة ودَعة المدينة. قد يتساءل متسائل، إذا استقرت الدولة وتمهدت فإنها تستغني عن العصبية، عصبية القبيل، فهل لعصبية ابن خلدون من بقية بعد عصر ابن خلدون؟ تساؤل وجيه لولا أن الواقع معاكس للمأمول، امتد إلى رفض فكرة التحقيب المقترحة لتاريخ المغرب جملة وتفصيلا. "إن الفكر الخلدوني فكر فلسفي، والفكر الفلسفي الأصيل يتجاوز عصره بمقدار ما هو نتاج هذا العصر نفسه،... يعكس (التراث الخلدوني) بقوة وعمق خبايا وتفاصيل أهم وأخطر حقبة من التاريخ العربي الاسلامي... ويعكس أيضًا جانبًا مهمًا من جوانب واقعنا الراهن، هذا الواقع الذي تتواجد فيه جنبا إلى جنب بنيات القرون الوسطى، والبنيات الجديدة التي خلقها عالم اليوم"[2]، الحق أن هذا الكلام دال ومعبر، بل هو، وصميمًا، في عمق الدافع إلى أشكلة الفكرة المطروحة والاشتغال عليها وبها في تاريخ بني ملال كمجال طرفي.

لنضف ملاحظة تأسيسية أخيرة تتصل بالجانب المنهجي، لكن في علاقة بمعرفية القضية المطروحة للنقاش، فبني ملال، الحاضرة التي تجاوز عدد سكانها اليوم مائتي ألف نسمة، ذات تاريخ عميق لكنه غميس أيضًا، الإشارة هاهنا إلى الاسطوغرافيا المحلية، وما تطرحه من مشاكل جمة أمام كل راغب باحث فيما يريد أن يعرض له، من نافل القول كذلك أن المظان والوثائق المنتجة حول بني ملال لا تسعفنا كثيرًا في الجواب عن الاشكالية المطروحة. قبل بسطه هذه الاشكالية، نؤكد مرة أخرى، أن الأمر يتعلق ببنى وهياكل المدينة وتحديدًا "التمدن" ولا يتعلق بعرض تاريخ على شكل سجل زمني للأخبار والأحداث، ومعلوم أن التطور الفعلي للمعرفة التاريخية حدث من هذا الباب، وهو الوحيد الذي سيمكن من مغادرة القلعة العتيقة للتاريخ بتعبير «ميشيل فوكو» (M. Foucault)، على أساس هذه الملاحظة ليس هاجسنا موجزًا مونوغرافيًا يبحث في مسار القبيلة والمدينة من حيث أهم الأحداث التي ميزته وعلاقتهما بغيرهما من القبائل والمدن وكذا العلاقة مع السلطة السياسية الحاكمة.

تأسيسًا على هذه المنطلقات سنقيد مناقشتنا في هذه الدراسة بالسؤال الإشكالي الآتي:

بني ملال من القبيلة إلى المدينة. ماهي تجليات استمرار البداوة والقبلية داخل مدينة بني ملال؟ وما هي ممكنات تحليل وتفسير الانتقال المتعثر؟ سنشتغل على هذا السؤال من خلال المحاور الثلاثة الآتية:

أولاً: تمدن الأطراف
(انشغالات في المنهج والموضوع)

يحمل البحث في تاريخ بني ملال قلقا ناتجا عن ملاحظات آنية، لكنها بجذور، ولأن التاريخ نظر وتحقيق، فقد كان لابد من بلورة إشكالية يساهم بها في محاولة لاستكناه معيقات التحول، بقطع النظر عن النتائج التي كان من المتوقع أن نخرج بها هذا من هذه المحاولة. تحول ملازم لكل مجتمع محتم عليه الانتقال من «التضامن الآلي» إلى «التضامن العضوي»، أو بعبارة أخرى من الجماعة «communauté» إلى المجتمع «Société». نعتقد أن مكمن التفاوت حاصل هنا، حيث لم تتبلور على صعيد العلوم الإنسانية، أبحاث مواكبة لصيرورات المجتمع أيًا كان حجمه ومقياسه. من هذا المنظور فهمنا أن الإنسان في بني ملال خضع ولا يزال لمؤسسة اجتماعية هي القبيلة يعتقد ذهنيا أنها قواعد وقوانين لا يمكن تغييرها، وبالتالي ينبغي الخضوع لها كما هي، نزعم أن هذا هو «الرحم التاريخي» الذي نشأ فيه العطب.

مدار اشتغال هذه الدراسة أربعة مفاهيم رئيسة، البنية والتحول والمدينة والقبيلة. أما البنية[3] فهي تنظيم واتساق للعلاقات الأكثر ثباتًا بين الواقع وظواهره الاجتماعية، كما أنها واقع يؤثر في الزمن بصعوبة ويطيل في عمره كثيرًا، فتصبح أساسًا ثابتًا لأجيال بلا حصر، تملأ التاريخ وتعطل مسيرته. والاستعانة بالبنيات لفهم واقع المجتمع الحضري الملالي فرض

الانتقال من الاهتمام بما هو استثنائي إلى ما هو منتظم، ومن ما هو خارق للعادة إلى ما هو معتاد. هذا الاختيار ينعكس بصورة مباشرة على الخيار التحقيبي لأي محاولة بحثية في هذا الموضوع، إذ أن البنية تفرض تتبع الظاهرة الأكثر ثباتا والتي تتماشى مع الأمد الطويل. وأما التحول فهو أداة البحث وموضوعه في نفس الوقت وهو الكاشف عن حدود حركة التطور ونقط الانعراج، وبخصوص القبيلة(٤) فسنعتبرها وحدة لا تتحدد فقط بروابط الدم والقرابة بل بأشكال رمزية من التحالفات والولاءات والانتماءات، بالنظر إلى بنية المجتمع فإنها اعتبرت ضرورية في مسار تطوره، صارت في كثير من المراحل نحو التفكك لكنها لا تلبث أن تُحيى وتتجدد، إما من ذاتها وغالبًا من خارجها، مادامت تشكل الإطار الأنسب للضبط والتحكم. وأخيرًا المدينة باعتبارها كائنًا عضويًا له وظائف وحاضن لممارسات الأفراد والجماعات، كما أنها لا تتحدد فقط بمعيار كمي بل بما تنتج وتستهلك اقتصاديًا واجتماعيا بالمعنى "الفيبري" الذي حفر في أصول المدينة وتراكمات معانيها قبل أن تستقر على حالة وظيفية معينة. والمدينة ليست إلا الإطار المؤسس للتمدن، إذ يكون الهدف حينها هو تحقيق ما في البشر من قوة كامنة على تنمية الفكر، بهذا الصدد يلاحظ أنه بغياب الشرط الأول (المدينة) يتعذر كليا الحديث عن الثاني (التمدن).

إن بني ملال عُدَّت قبيلة ليس في ربائد التاريخ ولكن في التنظيم، وهذا التصنيف لم يكن إلا تساوقًا مع واقع الكتابة التاريخية واتجاهاتها في لحظات معينة من البحث في تاريخ المغرب عامة، فهو قول تقليد وبالتالي مبتذل، اندرج في إطار إصدار مونوغرافيات وصفية دفعت بوثائق وأغفلت السؤال التاريخي، فسقطت في إعادة إنتاج فكرة أن المجتمع المغربي مجتمع قبائل من غير وعي(٥)، سبب ذلك في نظرنا أن الرهان كان هو إثبات تمثيلية السلطة السياسية للمخزن في المجال ولو كان قاصيًا، في محاولة لتمطيط المناطق التي كانت تصلها يد السلطان، فلا اعتبار بذلك للمسالك التي تؤدي لهذا الإثبات. والحال أن القبيلة تكرست داخل المجتمع ولو كان حضريًا، وهي أول أشراط العصبية، وهذه إنما تكون من الالتحام بالنسب أو ما في معناه وبها تتحقق النعرة والتناصر والتعاضد، ولزيادة هذا التماسك فإن الأمر يصل إلى "ثمرة النسب" ما دام أن هذا الأخير أمر وهمي لا حقيقة له، كون أن الروح الجمعية السائدة في العصبة تحقق للفرد غايات مادية وأخرى معنوية تصب كلها في "المصلحة المشتركة" ولهذا الاعتبار أساسًا يشهر كل فرد هويته القبلية وبها يقدم نفسه حين مخاطبته لغيره.

إن هذا الإطار القبلي الذي اعتبرت البادية المجال الأنسب لاحتضانه وتدعيمه وجد السبل الميسرة ليتمدد داخل المدينة، مادامت هذه الأخيرة لم تنشأ في سياقها الخاص بها، وفي كلتا الحالتين، أي المدينة والبادية، لم تكن القبيلة إلا الوحدة التنظيمية العاكسة لصورة الأنماط الثقافية والذهنية والبنيات الاقتصادية والاجتماعية السائدة ببني ملال، فهو مجتمع لم يؤسس لنفسه بنى مسايرة للمدينة، والتطور الذي حصل داخله يفتقد وسائل التجاوز للعهد الزراعي الرعوي والانتمائي كذلك، هذا الشكل من التنظيم وجدت فيه الدولة المخزنية ولمدة طويلة حلاً لقصور سلطتها ويدها على التراب والإنسان، فعمدت على الإبقاء عليه كأساس للجبي والتنظيم والتسخير. في الحقيقة لم يكن المخزن يعتبر القبيلة إلا مقاولة عقارية(٦) وبشرية وجدت لتعطي لا لتأخذ، كلما تماسكت استفاد ما لم تتجاوز قوتها قوته، لكل هذا وغيره فإن القبيلة وحدة اصطناعية مدعومة بهواجس نفسية وذهنية لم تجد بعد الظروف المواتية لتفكيكها وإعدامها بصورة نهائية.

قبل استيضاح أمر العصبية وعلاقتها بانحباس التمدن من خلال نموذج بني ملال، من المفيد أن نتوقف وبشكل موجز عند السجل الاسطوغرافي للمدينة من أوائل عهودها إلى المرحلة الراهنة التي غدت فيها تعرف بالوصف المديني لدى كل من يقصدها أو يعيش فيها. لا تسعفنا الأسفار التي تخلفت من الزمن الماضي للقطع بالقول أن حاضرة بني ملال نشأت على أنقاض مدن وقصبات اندرس بعض أثارها ولا يزال بعضها الآخر باد للشاهد، فقد ذكرت مصادر العصر الوسيط والمصادر المتأخرة قاعدة داي ونعتتها بالمدينة(٧)، وأشارت إلى وفود بنو جابر من بني جشم الهلاليين إلى هذا المجال إبان العصر الموحدي الأوسط(٨)، إن المصادر والوثائق المتوفرة، تبين أن المجال التادلي، في بعض أجزائه، وبفعل ظروف الوقت، سار نحو التحضر أو «التمدن»، أو هكذا يرد على الأقل في تلك الربائد نفسها، إذا سلمنا بكون مؤلفيها سلطة ليس أمامنا إمكان تجاوزها، يرجع ذلك التمدن إلى الاستقرار السكاني والقطع مع ظاهرة الترحال والتنقل، اعتبارًا لأن الاستقرار هو الخطوة الأولى في اتجاه التمدن، فعندما تولى الرحالة الحسن الوزان الحكم باسم حكام الوقت في هذا المجال أثار انتباهه ذلك التمدن، فشرع يصف تلك الحواضر بالغنى والترف وبتفيء اجتماعي بارز، فذكر أفزا وتفزة وغيرهما(٩).

غير أن محاولة الاستقرار تلك أجهضت في مهدها، لأنها، وببساطة لم تكن محاولة من إبداع المجتمع، بل هي من وضع السلطة السياسية، التي لم تكن تتمتع بالاستقرار على امتداد الزمان والمجال، وإذ باءت تلك المحاولة بالفشل، فإن المجال التادلي عاد من جديد إلى الظعن والترحال. ولم تتمكن الحواضر التي استمرت بعد ذلك من أن تتجاوز أسوارها القائمة، بل إن ما كان موجودا منها اندرس. ولم تعد المصادر تذكرها إلا أطلالا، فارتد المجال من جديد إلى مجال القبيلة، وكأننا أمام تاريخ دوراني، ينطبق فيه على القبيلة ما ينطبق على الدولة، لما كان مصيرها يرتبط بالعصبية.

حملت بني ملال منذ بداياتها الأولى هوية مدينة تحيا فيها القبيلة باستمرار، فالقبيلة تستمد اسمها من القبيلة العربية المحيطة بها. إن النصوص المتاحة أمامنا تكشف عن هذا العطب، ونستدل عليه بنصين اثنين يحيل الأول إلى نهاية القرن السابع عشر والثاني إلى القرن التاسع عشر. كتب المؤرخ الزياني بصدد قصبة بلكوش منشأ حاضرة بني ملال يقول "رجع من السوس (السلطان اسماعيل) ودخل مكناسة فاستراح بها وتهيأ لحركة فازاز وخرج من مكناسة وطلع للجبل من الناحية الغربية، وأمر بتجديد قصبة دخيسان كان بناها يوسف بن تاشفين، وأمر ببناء قصبة ابن الكوش، وجعل بقصبة دخيسان خمسة عشر مائة فارس وأنزل بزاوية محمد الحاج كذلك وبقصبة تادلة ألف فارس وبقصبة بلكوش خمسمائة فارس"[١٠]، كان ذلك في حدود سنة ١٠٩٩هـ/ ١٦٨٨م. بعد قرابة قرنين من الزمن كتب الرحالة شارل دوفوكو واصفا بني ملال، فيقول "قصبة بني ملال، مدينة صغيرة يبلغ سكانها حوالي ٣٠٠٠ نسمة من بينهم ٣٠٠ من اليهود، بنيت عند قدم الجبل على مرتفع من الأرض يصلها بالسهل المجاور ... البناء في قصبة بني ملال من الحجر المدكوك ومنازلها لا تتوفر على أكثر من طابق واحد، لا توجد فيها أية صومعة ... كما أنه لا توجد بها إلا قصبة قديمة ذات أسوار عريضة ومرتفعة لم يبق منها إلا الأطلال."[١١]

هذا الأمد الطويل الذي تظهر فيه بنيات المدينة راكدة بطيئة مستعصية على التغيير أنهكها الزمن، أسهمت فيها عوامل متباينة بعضها سياسي واقتصادي وبعضها ثقافي ذهني لحمت العصبية القبلية كل عناصرها وتأبى أن تذوب على الرغم من انسحاقها الزمني، وحتى حين كان من المفترض أن يحدث ذلك، أي في عهد الحماية الفرنسية بما هي نشر للتمدن والتحضر، حصل العكس، أبقت فرنسا على البنيات القبلية التقليدية، بل أحيتها عمدا، لما ظهر لها أن تدبيرها بشخصنة الزعيم وتشكيل الأتباع يوفر لها الامكانات الضرورية لتصريف سياستها الاستغلالية، وبالمثل، سيستمر نفس الوضع قائما عقب العهد الاستعماري، إذ لم تبذل الدولة أي جهد في اتجاه التخلص من البنى التقليدية الحابسة للتقدم، بدورها قوّت شبكة الزعماء والأشياخ والأعيان، والذين تكفلوا جميعا بكبح كل تحول وانعتاق.

ننهي هذا المحور، وقد أوجزنا الكلام فيه كثيرا عن قضيتنا المعرفية منظورا إليها من زاوية التفكير في تعثر الفعل المديني بما يعنيه من حتميات الانتقال من طور البداوة إلى مجتمع المدينة إنتاجا وسلوكا وخطابا، فعل طالما أعاقه العض على القبلية داخل المدينة بالنواجد، يرتد إليها الفرد والجماعة في كل آن وحين، مسنودين بإحياء مقصود مؤسساتيًا وعاطفيًا.

ثانيًا: بنيات عطب التمدن اقتصاديًا واجتماعيًا وذهنيًا

بني ملال كما أومأنا أعلاه مدينة لامتمدنة، أسهمت قرارات متباينة المنشأ والامتداد في هذا الوضع، منها ما يضرب بجذوره في الزمن البعيد، ومنها ما هو مستحدث وفق سياقات طارئة، فالنزوع نحو التشبث بالقبيلة والجماعة لازم نفسانيات الملاليين أيا كانت أصولهم، غير أن هذا الأمر أوجدت له ظروف قوّت من امكانيات استمراره سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، فعلى الرغم من صدور قرارات إدارية ظاهريا عملت على إبطال مفعول هذا التوجه[١٢]، فإن ذلك لم يُجد في شيء، واهِم من يعتقد أن الدولة أفنت القبيلة والقبلية، بل طالما انتفعت من وجودها ماديًا ورمزيًا. نولي الاهتمام الآن شطر الحديث عن عوامل حالت دون الانتقال المرغوب المتعثر، ونقف عند ثلاثة منها، وإلا فثمة من أخرى مسْهمة في تفسير المشار إليه:

٢/١-الاندفاع القبلي (المجالي والإسهام في التعثر)

مثّل مجيء عرب بني هلال دورًا مهمًا في هذا التعثر بل هو الذي دشنه، فقد خربوا السقف وانتهبوا الأموال ولم يعرفوا للعمل قيمة وقسطًا من الأجر، فأسرع الخراب إلى وطن تغلبوا عليه، قبائل سببت نكوصا وانتكاسة للمدينة والتمدن، ببساطة لأنهم جيل طبيعي في العمران وهي أولى مراحل التدرج في سلم التطور نحو المدينة[١٣]، غير أن الملاحظ المثير هو أن هذه القبائل تجر معها موروثها جرا وتأبى تماما فك الارتباط به حتى حين اتخذت المدينة مستقرا لها وسكنا، فقد بقيت القبيلة متجلية في عدة مظاهر منها الخطاب والسلوك والعلاقات وشؤون التدبير والتسيير وفي الحياة اليومية. وحتى لا يُظن أننا ناطقين بلسان وطن غزاه هؤلاء وأثخنوا فيه مدى أحقاب،

فإننا نوازى في ذلك التعثر بين عاملي المحلي والوافد، ونشير إلى أن قبائل المنطقة غلب عليها هي الأخرى الظعن والترحل لم تـزده الهجـرات الأعرابيـة والظـروف السياسـية والثقافيـة إلا تحجيرا. هذا الاندفاع حمل معه، وبقوة، مؤشرات الابقاء على الاستمرار، داخل بني ملال وإلى اليوم، يقدم الأفراد والجماعات أنفسهم على أساس الأنساب، فكل من يقطنها يصل نفسه بقبيلتـه هـذا مـن «أولاد» وذاك مـن «أيـت»، ذهنيـة موروثـة عجزت بها المدينة عن تحقيق اندماج وانصهار لساكنتها وهو أول أشراط تحقق نعت "المدينة".

لم تكن أزمة مدينة بني ملال وانتكاساتها إلا صورة لسمة الاختلال بين الدولة والمجتمع عامة، إذ لم تكن لها الآليات التي تمكنها من استنبات فئات اجتماعية بديلة ميالة إلى الاستقرار متعاطيـة لكسـب المعـاش منـه، ولـم تسـتطع التغلـب عـلى هشاشة النسيج الحضري والحد من طغيان البداوة حيث تطلب منهـا(أي الدولـة المخزنيـة) القطـع مـع سياسـة رعايـة الرعيـة والبحـث عـن القـرين في القـوة والنفـوذ والشريـك في المصالح والمنافع، فكرة حملتها أساسًا مسألة الحرْكات وزمن المـْحلات في ثناياها زيادة على آليات ممارسة السلطة بالمدينة وقضايا الإنعام على البعض والمنع عن الآخر.

٢/٢-نمط الإنتاج (الگيش والترحال)

بـني مـلال تطـورت في مسـارها التـاريخي عـبر مجموعـة مـن المراحـل مـع أن الغالـب عـلى بنياتهـا الاجتماعيـة والانتاجيـة والذهنيـة هـو الثبـات والركـود، فكـل نمـط مـن أنمـاط الانتـاج المعروفـة في الدراسـات الاجتماعيـة[١٤]، تتجسـد صـورته في هـذا المجتمع لكنها صورة لا تكتمل، مما يسقط تصنيفه ضمن هـذا الـنمط أو ذاك، وحتـى لـو وصـفنا نمـط الإنتـاج في بـني مـلال ب"المركـب" فإنـه لا يزيـد الأمـر إلا غموضـا، وقبـل أن "نغـامر" بتسمية معينة، وجب تبرير التداخل والتمازج بين هذه الأنماط، فصـورة نمـط الانتـاج الآسـيوي لا تتطـابق كليـة مـع خصـائص مجتمـع بـني مـلال حيـث تغيـب أشـغال الـري الكـبرى وتسـود الملكيـة الخاصة للأرض إلى جانب الملكيـة الجماعيـة طبعـا، وأمـا نمـط الانتـاج الخـراجي، فـإن انتظـام الفلاحـين في إطـار وحـدات للإنتاج أمر مستجد، وبالنسبة لنمط الانتاج القبلي، ظاهريا يبدو أن المدينة تشكلت على أنقاض القبيلة لكن لم تحصل القطيعة التامـة بـين مرحلتي التطـور، إذ ورثـت المدينـة كثـيرا مـن سـمات القبيلـة عـلى مسـتوى القـيم والأخـلاق والأنمـاط الثقافيـة والمفاهيم والخطـاب المتـداول والسـلوكات العامـة والفرديـة، وإذن فمجتمـع بـني مـلال تنطبـق عليـه صـورة هـذا الـنمط لكـن ليس بالانفراد. هل لم يبق إلا القول بأن نمط الانتاج ببني ملال هو نمط إنتاج إقطاعي؟

الجواب عن هذا السؤال يكون بالمماثلة بين الخصائص التي ذكرناهـا أعـلاه مـع سـمات مجتمـع بـني مـلال. بإيجـاز شـديد فمجتمع بني ملال اتسم من هذه الناحية بـ:

- بـروز زعامـات محليـة متسـلطة، قـواد ومـن بعدهـم باشـوات، استفادوا من الصراعات حول الموارد ومن الخروج عن طاعة السلطة المركزية.
- سيادة الفوضى وانعدام الأمن وانتشار الاقتتال والعنف.
- سيادة الاقطاع سواء كانت إقطاع منفعة دائمة أو مؤقتة أو هما معا، وهذا الاقطاع هو الذي شكل أساس الامتياز والتمايز.
- قيام التراتب الاجتماعي على أساس امتلاك الثروة والنفوذ، مأتاهمـا الأرض والمنصـب الإداري ثـم روابـط الزبونيـة وعلاقات المصلحة والمنفعة.

كل هذه الخصائص وغيرها كثير، وكما هو الشأن للأنماط السابقة، هي خصائص غير مكتملة، فمع وجود زعامات محلية تماثـل سـلطتها مـا كـان للأسـياد فإنهـا زعامـات غالبـا مـا يـتم تزكيتها من المركز الذي كان ينزل بثقله على القبيلة ويستنزفها إما بالجبايات وإما بالتسخير، ثم إن هذه الزعامات لم يكن لها ما يكفي من السلاح فكانت تستنجد بالمركز ولا تظهر الفيودالية الحربيـة إلا في الحركـات وفي زمـن المحـلات، زد عـلى كـل هـذا الاقطاع بمثل ما كان يعرف به لم يكن مؤطرًا قانونا، فلا عقود ولا فصول كانت تفرض أو تتبع وهذا هو الوضع الذي ساد أوربا الوسيطية. والأساس من كل هذا هـو أن السلطان انطلاقًا من مسوغات اعتبرها «شرعية» مكَّن لنفسه دون غيره ما به يمنح أو ينزع الأرض، وأهم مظهر لذلك في قبيلة بني ملال هو أن السـلطان جعلهـا قبيلـة «گياشـة»، فكانـت ربعًـا واحدًا مـن قيـادة منفصلـة تسـمى أيـت الربـع وكانـت "جيشـا مـن جيـوش مولانا المؤيـد بالله"[١٥]. وهـذه الوضعية كان لها تأثير بالغ على البنيـات الاجتماعيـة والانتاجيـة والثقافيـة، إذ يظهـر أن الأرض وضعت بأيدي أناس لا يعرفون كيف يستغلونها، فجعلوها ما ليس لهـا، حيث منحـت لقبائـل تطبعـت عـلى الترحـال والبـداوة ولـيس عـلى الاسـتقرار، ثـم إن قضـية «الأرض مقابـل الخدمـة العسكرية»، لم تكن تحفز على الانتاج مادام أن التمليك مؤقت وحتى الانتاج معرض للمصادرة. ماهي إذن الجذور التاريخية لأرض «الگيش» (Guich) ولقبيلة الكيش في بني ملال؟

بداية تشكل الگيش تعود إلى عهد السلطان اسماعيل (١٦٧٢- ١٧٢٧) حين أسس قصبة تادلة وأنزل بها جيشا اتخذها مقرا له، ف "بعد تمرد قبائل شمال تادلا، بني خيران و اسماعلة و أيت يمور سنة ١٧٦٥ قام السلطان محمد بن عبد الله بنقلها ووطن محلها كطاية وهم بربر[١٦] الجنوب وسمكت بربر أصلهم من أيت حديدو وأيت سخمان ثم بني ملال الذين أضيفت إلى حاميتهم كل من شراكة والبواخر ثم بني معدان أصلهم من العرب كبني ملال والذين جلبهم هؤلاء الأخيرون فاستقروا في الضفة اليمنى لنهر أم الربيع حيث سيؤازرونهم في صراعهم ضد القبائل البربرية. هكذا تكونت قبيلة جديدة من أربعة أرباع هي كطاية وسمكت وبني ملال وبني معدان تحت اسم أيت الربع فشكلوا جيشا يساهم ب ٥٠٠ فارس."[١٧]

إن تصنيف بني ملال ضمن القبائل الگياشة جعلها تحتفظ بذهنية التنقل حتى في ظل استقرار الأوضاع، معناه أنها مجموعة بشرية تحت التصرف، وتدبير شؤونها قائم على هذا الأساس، أمر كفيل بتعريضها للتأديب في حال رفض الانصياع، وهو وضع يخل حتما بفكرة التمدن، نستدل على ذلك بما وقع سنة ١٨٨٠ حين رفضت قبائل أيت الربع تمويل حملة سلطانية إلى السوس فأخذ السلطان الحسن الأول (ت ١٨٩٤) بثأره منها، حيث هاجمها جيشه وفرّت إلى حدود واد العبيد قبل أن تطلب منه الأمان فوافقها على شرط أداء غرامة مالية ثقيلة والانقياد للخدمة الشريفة، نقرأ في رسالة وجهها الحسن الأول إلى قواد قبائل «أيت الربع» ما يأتي: "خدامنا الأنجاد، قبيلة أيت الربع كافة، وبعد فقد أطلقتم لسان الفساد، وأرخيتم عنان الغي والعناد وأطلقتم الرسن وضربتم في بيداء المخالفة بعطن، فكيف رأيكم فيما صدر منكم، مع كونكم تدعون مخزنا، فما بالكم لم تحركوا لسوس، وقد كتبنا لكم بها وسط جيوشنا الموفورة... زيادة على عدم دفعكم ما حرم الله، وكنتم لا تطالبون به من قبل، حيث كان وصف الخدمة فيكم قائما... وأما الآن فقد استوجبتموه هو وغيره من الكلف.. وارتمى بكم الحال إلى أن اقتحمتم سفك الدماء وقطع الطرق اللذين هما منهى الغي والظلال"[١٨] غير أن الجزاء لم يرتب على القواد للأداء من ملكهم الخاص بل فرضوا على القبيلة أداء غرامة مالية كبيرة انتهت إلى بيت مال العاهل "وحاصلة قد تعلقت بكم حقوق، فإن أنتم أديتموها وتداركتم رتق خرقها فعليكم الأمان وإلا فسطوة الله وراءكم، وقد وظفنا عليكم تكفيرا لما ارتكبتموه، وتطهيرا لصحائفكم من رجس المخالفة، أربعين ألف ريال عشرة آلاف لكل ربع من أرباعكم، فإن أنتم أديتموها، فلا تعود عليكم إلا بالبركة والرزق المتزايد، وإلا عاد عليكم وبال فعلكم، وحاق بكم مكر سيئكم، ودارت دائرة السوء عليكم وساء صباح المنذرين، والسلام"[١٩].

لم تتوقف مسيرة گيش أيت الربع[٢٠] بعد وصول الفرنسيين إلى بلاد تادلا، بل عملت سلطات الاحتلال على إحياء أرض وقبيلة الگيش، حيث وظفت فرنسا هذه القبائل في فرض «التهدئة» في مواجهة القبائل الجبلية التي لم تخضع لها بسهولة، ولأجل التأسيس لاحتياط عقاري فقد فرضت هذه السلطات صفة گيش على ١١٠,٠٠٠ هكتار تمهيدًا لمنحها للمعمرين. هكذا يظهر أن التحولات التي طرأت على امتداد أحقاب طويلة لم تعمل على تفكيك البنى العتيقة، بل حافظت عليها فحالت دون حدوث التمدن المأمول.

٣/٢-الحركات المخزنية (رمزيات السلطة والاحتكار)

شكلت العلاقة بين القبيلة والمدينة والمخزن مثار اهتمام عدد من الدراسات[٢١]، ودون أن نفصل القول في هذا الباب سنحاول رأسًا إبراز كيفية تأثير الحركات المخزنية على تادلا عامة وعواقبها، ولكن ما يهمنا تحديدا هو استيضاح الكيفية التي ساهمت بها في تعثر الحركة المدينية والعمرانية خاصة على بني ملال بالمعنى الذي كانت عليه قبل أن تحدد إداريا في وحدة حضرية. أمكن لنا أن نحدد كل هذا فيما يأتي:

- كان الغرض من الحركة هو التأديب أو الجبي، كما كانت لها غايات رمزية لها مفعول لا ينكر، لكن طالما عادت الحركة على المجال التادلي عامة بعواقب وخيمة، فالنصوص تظهر أنها تخلف قتلى ومعطوبين بل تفرغ المجال بصفة نهائية وليس أبلغ من لفظة الأكل تعبيرًا عن هذه الوضعية والتي تتردد بكثرة في الوثائق التاريخية.
- كان هاجس السلطان وعموم الجهاز المخزني المرافق له مزدوجًا، من جهة تكون عنده رغبة جامحة في وأد القبيلة، ولا تقف حدود التفسير هنا عند الجوانب المادية والاقتصادية بل تتعداه إلى الآليات النفسية لممارسة السلطة والتسلط، ومن جهة أخرى فالسلطان يرتهن برهان مالي إذ الغرض أيضًا تزويد البيت المخزني بالأموال اللازمة وأداء متطلبات الجند "ولم تلتفت المحلة إلى حز ما بقي من رؤوسهم شغلا بالسعاية وحرصا على الجباية".
- كانت الحركات السلطانية محددًا أساسيًا لمنع الاستقرار السكاني، وهو وحده الكفيل بنشأة المدينة وتمدنها، تقول وثيقة مخزنية" حرقوا قصورهم ولم يتركوا لهم فيها سبدا ولا لبدا فليمكن إلا هدم قصورهم، وإعفاء آثار رسومهم حتى

صارت دكا بعد استخراج خباياهم وزرعهم وأسلحتهم وأمتعتهم وصارت للجيوش ملكا"، هنا للسلطة السياسية الحاكمة مبررات، فإن كان السلطان في مراسلاته يقدم قتل الخارجين عنه على قتل الكفار، فإنه أيضًا يتخذ من النص الشرعي مبررا لآليات التأديب، والتي منها عقوبة النفي من الأرض.

- حتى إذا لم تكن وجهة السلطان ومقصده هي بني ملال وأرباضها الواطئة، فإن القبائل والجند التي وطنها فيه كانت تستدعى للمشاركة في الحركة قريبًا أو بعيدًا، لأنها مخصوصة بتلك الوظيفة، فقصبة بني ملال كانت مقاما للجند، كما أن القبيلة كانت وحدة للخدمة، فكانت موطنا لقبيلة كياشة، وهذا الوضع كان له تأثير مباشر على نمط الإنتاج، وأن الدولة بالمعنى الإنتاجي لم تدرك هذا الواقع أصلا، ولم يستدرك إلا في الحقبة الاستعمارية، وهل هي إلا مزية تحسب له، رغم آثارها الجانبية على التمدن في المجال التادلي.
- لم تكن الحركة السلطانية تراعي لهذا المجال خصوصياته، فهو مجال للزرع والرعي، لكن هذه الأنشطة توسم دومًا بالكفاف ولا تحقق التراكم، بفعل العوامل الطبيعية القاسية غالبا، وكان المخزن المركزي والمحلي يتخذ من وقت التحصيل زمنا للتحرك، وهذا الاجراء يحول دون اكتمال الدورة الانتاجية، فالنصوص المتوفرة[٢٢] تبين أن السكان لا يزرعون إلا القليل ليس لضيق المجال أو لتطرف المناخ، ولكن لأنهم يعرفون بمقدم الحركة مدفوعة بدافع الانتقام والعداوة بحسب مضمون الوثائق المخزنية نفسها، وهذا يؤدي حتما إلى فرار السكان إلى الجبال وتحصنهم بها، وتراقبهم القبائل العسكرية المرابطة بالسهل وبتكليف، هذه دورة مفرغة ومفزعة في نفس الآن تنم عن مراسيم فارغة للحكم، ومع أنها طالت لقرون، فإن استمرارها أثبت من انقراضها.

كتب شاهد أجنبي يقول: "ورغم الحصيلة الفلاحية السيئة فإن السلطان تحرك بالمحلة في فصل الربيع (٣ ماي ١٨٧٩) عبر السراغنة وانتيفة لإخضاع قبائل أيت عتاب الموجودين على ضفتي وادي العبيد، وكذا جيرانهم بني موسى بمنطقة دار ولد زيدوح وقصبة بني ملال. وبعد إخضاع هذه القبائل اتجه الملك ووزراءه نحو مكناس...وفي ربيع السنة الموالية اتجه السلطان نحو مراكش، حيث ستحل محلته عند زمور ثم عند زعير التي اجتاحها، منحدرا نحو الشاوية، معرجا على تادلة التي خضعت قبائلها البربرية، كما استقبلت قبائل زيان أحد القواد مع قوات من أفواج المخزن، والتي ستكون نواة قوة موحا أحمو المشهور، وهكذا دخلت المحلة المنتصرة مراكش حيث ستقضي أربعة أشهر الشتاء"[٢٣].

إن بني ملال، وبالنظر إلى مسار نشوئها وارتقائها، وتوازيا مع ما عرضناه حول مسألة العصبية القبلية ونمط الانتاج والدفع نحو التنقل والترحل، بقيت مراوحة لمكانها في إطار بنية راكدة. أمكن القول إنها مرت من ثلاث مراحل، ويبدأ هذا المسار حتى قبل أن تسمى باسمها الحالي، أي حين كانت تنعت بداي وقصبة بلكوش ثم قصبة بني ملال إلى صارت تحمل اسم المدينة اليوم، هذه المراحل هي:

مرحلة المدينة المجهضة: وتسري على فترة الوصول الهلالي إلى المنطقة، إذ قبل هذا العهد تأسست مراكز حضرية شاع ذكرها في التآليف الاخبارية بشتى أنواعها على أنها مقصد التجار والصناع، زرعها كثير وفير وفيها عدد لا يستهان به من السكان، غير أن الدخول الهلالي أجهض مسيرة تلك المراكز-المدن وحال دون استمرار تمدنها. ألم يكن ذلك من مراجعات يعقوب المنصور بالله الموحدي (ت ٥٩٥هـ) إذ قال يوم حضرته الوفاة أنه ما ندم على شيء في خلافته إلا من ثلاث أولها "إدخال العرب من إفريقية إلى المغرب مع أني أعلم أنهم أهل فساد".

مرحلة البداوة المرتجعة: حل الهلاليون بهذا المجال وأنزلتهم به السلطة الزمنية تأديبًا وتعميرًا، فقد كانت الحاجة ماسة إلى الانسان مثلما كان الضبط من رهاناتها، غير أن القبائل التي وصلت إلى المنطقة على مراحل كانت ظاعنة مخربة لا تعرف سبيلا إلى الاستقرار ولو توافرت لها ممكنات ذلك من أرض وماء، فعادت البداوة لتطغى على المجال وتأجل استئناف المسيرة المدينية لوقت طال أكثر من اللازم بفعل طبائع تلك القبائل ورفضها التام للتغيير ظاهرًا وخفيًا.

مرحلة المدينة الكسيحة: طال أمد البداوة في بني ملال، فلم يطرأ التحول المتوقع حتى في ظروف الانتعاش العابر، بل حتى مع قدوم الوافد الجديد صاحب رسالة التمدن، على العكس من ذلك عمل على إحياء البداوة والقبيلة وزكى القبلية حتى حين رفضها أصحابها فهو لذلك كان معتديا أثيما، فوجدت التربة الخصبة للانغراس والتجذر إلى اليوم، لكل ذلك تظهر مدينة بني ملال كسيحة في تجليات ومظاهر عدة.

ثالثًا: مخرجات الموضوع ودرس عسر التحول

يمكن القول، استنادا إلى المنجز السابق، أن بني ملال بدأت في التشكل كقبيلة تقدم نفسها مجتمع بدو ادعى نقاوة النسب، والعصبة هاهنا هي التي تحرك همم الرجال، ولما دشنت مسار المدينة صار أهلها يبالغون في تعداد الأجداد، وهنا بالضبط ورثت المدينة تركة القبيلة، فكرة تتبعناها عبر مستندات متاحة وملاحظات مشاهدة، واستنتجنا منها خلاصات هذه أهمها:

- ليست بني ملال في الواقع التاريخي إلا مركزًا حمل في كثير من الوثائق اسم "المدينة"، نقصد الوثائق في عموميتها الزمنية وحتى في أصلها ومرجعيتها[٣٤]، كذلك الأمر في المعنى الوظيفي اعتبارا للتزايد المهول لعدد السكان والتوسع المجالي[٣٥]. إن هذا الاستنتاج نابع من تتبع تاريخي لأصل وتطور الظاهرة الحضرية بمجال الدراسة، مجال نشأت فيه مراكز حضرية عبر قرون، لكنها تعثرت جراء عوامل خارجية وداخلية ولم يكتمل نموها لتحمل صفة المدينة. إن بني ملال لم تستطع فك الارتباط مع نوابتها غلب عليها طابع البداوة وخشونة الطبع وانحطاط السلوك وردة الفكر وفظاظة الخطاب، وكلها سمات المجتمع البدوي الزراعي القبلي، فمن الخارج تشاهد بني ملال مشوهة ومعطوبة ومن الداخل لا تقدم للمرء ما به يفتتن أو يعجب، حتى أمكن القول أن "مدينة" بني ملال كيان غريب غرس في جسم مجتمع بدوي قبلي قروي، فالمعاش الذي انتحله أهل المدينة لم يكن إلا ضروريا ولم يصل إلى مستوى الكمالي، ولم يركن أهلها إلى السكون والدعة حيث غلب الصراع، ولم تظهر الصنائع والتجارة وسائر المهن التي تختص بها الأمصار.
- بني ملال اسم لقبيلة، في الحقيقة وحدة إدارية مصطنعة مهما ادعى المنتسبون إليها، ومعهم بعض المؤلفين[٣٦]، أن نسبها صحيح ويرفعونه إلى جد مشترك، لا يودون مع ذلك أن تذكر صفاته المقرونة بالهدم والخراب والغزو وأخذ ما بأيدي الغير بالسيف، لكن الثابت أن الاندفاعات القبلية لبني هلال وصلت إلى المنطقة، ومعها وفد عنصر طارئ على مجال سار حثيثا نحو الاستقرار واتخاذ المدينة سكنا ومستقرا له، عنصر لا يقبل التحضر بيسر. ويحن إلى الظعن وتذكر "أيام العرب". ليس هذا الحكم نابع من أن الأعراب فعلوا ما يستحقون أن يصب متقول جام غضبه عليهم، مثلما فعل بعض المؤرخين ومنهم ابن خلدون مثلا، ولكن تتبع المصادر ومختلف الوثائق يوحي بكون قدوم العنصر الأعرابي الهلالي حال دون بروز مدينة وساكنة مدينية تتجاوب طبائعها مع العقلانية التي تفرضها.
- تفيد الاشارات المصدرية والوثائقية أن العامل السياسي محدد حاسم في نشأة وتطور مدينة بني ملال، فهي مثل غيرها من المدن المغربية، ومثل كثير من القضايا التاريخية المصيرية، خضعت لمراقبة الدولة السلطانية. فلم تكن مدينة بني ملال إلا أداة للسلطة المخزنية جعلت لهدف الاخضاع والتحكم، وهذا عنصر آخر مضاف إلى عناصر التعثر، فقد أولى المخزن العلوي خاصة اهتماما بالغا لهذا المجال لكنه لم يستثمر في الاتجاه الايجابي الذي كان يمكن أن ينتج مدينة يقدم بها هذا المجال نفسه. فهي لم تكن في الأصل إلا حصنا أنزل به السلطان جيشه وكلفه بمراقبة قبائل المنطقة، ولما قطنها الملاليون وسورت حافظت على نفس المهمة ولو سيكولوجيا، إذ استمر المخزن يذكر بالتنافر ولا يدعو للتعاون والتقارب[٣٧]، كل هذا مدفوع باختلافات راهن عليها لبث الفوضى وإظهار الحاجة المستمرة إليه محليًا ومركزيًا.
- إن هذه الاعتبارات السياسية عضدها إقدام المخزن المحلي والمركزي على ضبط الساكنة المدينية والمجاورة في الأرباض بالحَرْكات والمْحَلات، فهو سلوك وإن كان مبررا بظروف الوقت فهو من حيث مآلاته سافر، لأن بأسها أكبر من نفعها، ولعل عبارة "أكل الزرع أو القبيلة" أو عبارة "خنقهم وأتلف نفوسهم" أكبر دليل على ذلك. كل حركة يتبعها أذى، تهجير للناس، تعطيل للإنتاج، ترهيب للنفوس، وأكثر من كل هذا دورية الصراع ولزوميته، في جو مثل هذا لم يكن من الممكن أن تبرز مدينة مستقرة آمنة منكبة على التعمير والعمران.
- إن وفود بني هلال إلى المنطقة مصحوبين بنمط ترحالي قبلي، أسهم في الحيلولة دون تطور الحصون والقلاع التي كانت قائمة قبل هذا التاريخ، أمر لم يكن استثناء حتى يستبعد كعنصر تحليل أو تفسير، فالهجرات الهلالية والمعقلية التي حلت بكثير من مناطق المغرب في فترات متفاوتة أدت إلى نفس النتائج، فالباحثون تحدثوا عن ثورة مدينية قبل هذه الفترة صاحبتها فورة ديمغرافية واقتصادية حققت فائضا في كثير من المنتجات الفلاحية، بل إن المدينة وصلت إلى مستوى فوق القبيلة، وكان يسكنها أخلاط من البربر والعرب، ومع التطورات الطارئة حل الخراب واضمحل العمران وعادت القبيلة لتطفو على الساحة من جديد. حالة

بني ملال مماثلة مع مجال الشاوية شمالا وسجلماسة شرقًا وولاّتة جنوبًا.

- بنية مدينة بني ملال متأزمة، فعلى المستوى الاجتماعي لم تكن إلا امتدادا للقبيلة، داخلها نجد التقسيمات القبلية المعروفة تتعارض لتضمن لنفسها التوازن. ففي المستويات الدنيا تعقد أواصر التضامن باسم الأسرة ثم العشيرة وربما وجدت مستويات أخرى من التنظيم غير هذه التي ذكرت، وفي الأعلى تنصهر كل هذه المستويات حين يتهددها خطر خارجي، هذا الخطر لم يكن هو التهديد المخزني لأنها كانت من متوليه، ولكن تمثل في الجنس الأمازيغي الذي رأى أن المدينة منعمة ومترفة حق له أن يطمح في موفورها. على هذا الأساس من الصراع الموروث لم تكن مدينة بني ملال إلا وحدة تنظيم وليست وحدة إنتاج.
- كانت بني ملال وما إليها ضحية الضغط الخارجي، من قبائل السهل والجبل ومن سياسة سلطانية عادت كارثية على بنية الدولة بأكملها، حيث أسس المخزن لوجوده في هذه المنطقة على أساس صد قبائل الجبل ومعاقبة قبائل السهل كلما امتنعت عن أداء الخدمة الشريفة، مهمة قائمة على التحكم في التنقل العمودي بين "أدرار" و "أزغار" حيث الرعي لم يكن مكملا للزراعة، بل هو الأساس وعدد رؤوس الماشية هو المقدر للثروة، فلا قبائل الجبال وجدت له بديلا ولا قبائل السهل عرفت كيف تستغل الأرض لتحقيق التغيير، فكان الاستقرار وغياب الصراع أو التقليل منه رهينين بهذا التحول، وإذ لم يتحقق فإنه استمر مانعا من موانع التمدين والتمدن.
- ذهنيات مجتمع بني ملال هي الأخرى مأزومة، أصل ذلك عائد إلى أعطاب نفسية، أفرزت شروط إنتاج العنف واستمراره، فقد سادت اللصوصية والانتقام والاقتتال والحركة والتنقل، ليس ثمة ما يؤكد أنه كان عنفا مؤقتا أو على الأقل متحكما فيه، بل هو عنف بنيوي لا ينتهي إلا ليبدأ، حال كل هذا دون نمو المدينة وتمدنها، فقد كان الهاجس ابتداء وانتهاء هو البقاء والحفاظ على التوازنات، ولأجل ذلك تعصب الناس وتنافسوا ودخلوا في اتفاقيات وتحالفات لتقاسم المجال والمنافع.
- من تجليات أزمة الذهنيات أيضًا أن "مدينة" بني ملال، لم يكف فيها الناس عن الالتفاف حول المدركين من البشر، شيوخ وأولياء وعارفين، فتعلق الناس بعدد من الممارسات كالاعتقاد في وجود بركة عند شيخ أو أرواح وأعمال عجيبة، استوى فهم الناس في ذلك ولا فرق بين من ادعى أنه عالم ومن هو من عوام الناس[٢٨]. فبني ملال تعرضت لهجوم القبائل المجاورة وكان ذلك مصدر خوف، ومن ثم كانت الحاجة ماسة إلى الرجال الصلحاء، كانوا مقصودين يتقي الناس عقابهم وسخطهم ويحتاجون إلى بركتهم وكراماتهم، لم يقصد هؤلاء الأشخاص فقط، الذين حظوا بالتبجيل والتوقير، بل قصدوا الأمكنة أيضًا في مناسبات متفاوتة، لذلك عجت المدينة بأضرحة ومراقد الصالحين التي وفرت شروطا مناسبة للنشاط الروحي. هؤلاء كل ما فعلوه، إن كانوا أحياء، أمروا الناس بالصبر والاحتساب ولم يدعوا لهم المجال لاتخاذ مبادرات عقلانية بديلة، مع أن كثيرا منهم كانوا من المترفين الأثرياء.
- حلت فرنسا ببني ملال في حدود عام ١٩١٦، فوجدتها صورة مطابقة لما نقلته تآليف المبعوثين، مدينة محصورة بأسوار هي كل ما يميزها ويجعلها كذلك، ولأن فرنسا تبنت نظامًا يرتكز على سياسة أهلية فيها تفرقة ومحافظة أيضًا، فإنها لم تضف إلا ما كان ضروريًا بالنسبة لها من أجهزة إدارية وتسخير تشييد الطرق من أجل أغراض أمنية وتدعيما للنشاط الاقتصادي، بالإضافة إلى بعض الخدمات الاجتماعية التي كانت موجهة. لكن أهم ما يتعين الإشارة إليه هاهنا هو أن فرنسا حافظت على البنيات العتيقة للمدينة من مراتب سياسية واجتماعية وثقافية، لذلك لم تكن المدينة قادرة على استيعاب النشاط الاقتصادي الذي بدأ يبرز خارج الأسوار وعدته فرنسا من إنجازاتها، رافق كل هذا إحياء مقصود لتقاليد عتيقة تذكر بالقبيلة داخل المدينة.
- بعد الاستقلال استمرت المدينة تبنى على أنقاض ما تخلف من العهد البائد، وفي هذه الفترة لم تكن المدينة إلا تعبيرا عن تيه عم سياسة الدولة بأكملها وتقدم تفسيرا لها، تسلم مقاليد التدبير بها الأعيان، فلم يكن عندهم ما يسوسون به إلا مما عندهم من قرارات تنم عن عقلية قبلية، سادت الفوضى في التعمير أفقيا وعموديا، وتفاقمت معضلات التدبير، وغاب التخطيط وما وجد منه نفذ بشكل مشوه، حدث كل هذا في غمرة نزوح كثيف من الجوار والآفاق البعيدة لم يستغل إلا في الرأسمال الانتخابي وهو المحدد الأساس للتوجهات المستقبلية للمدينة، وعلى المستوى الثقافي والذهني تكرست الأنماط القبلية في شتى مناحي الحياة، في السكن وتجمعاته، في الخطاب ومدلولاته، في الحياة ويومياتها. أمكن القول تبعًا لكل هذا أن التحول لم يحصل سوى من القبيلة إلى القبلية.

خَاتمَةٌ

نعتقد أن دعوات إعادة إيجاد حياة للقبيلة والعشيرة داخل المدينة وخارجها، في بني ملال وغيرها من الأقطار، دعوات لا مبرر لها، في صورة ذلك ينبغي إعدام تلك التنظيمات، فهي أكبر كوابح الدولة العقلانية، وهذا الإطار وحده هو الذي تتحقق داخله المواطنة، مهما كانت كثافة الأمشاج والأعراق، القبيلة تلجم التفكير في الحاضر والمستقبل، القبيلة تنزع الانسان من حاضره وتقذف به في ماض لا يعلم له بداية، تبقي التضامن الآلي قائمًا الذي يغلب فيه التشابه على الاختلاف والتكامل.

اعتقد بعض الباحثين الذين عنوا بالبحث في القبيلة أن اليوم الذي تندثر فيه القبيلة بالمرة كما اندثرت في الأقطار المتحضرة والشعوب المتطورة قريب، وتبقى محلها العمارة أو الجماعة التي يرتبط أفرادها برابطة المصلحة المشتركة والمنفعة المتداخلة لا برابطة القرابة النسبية، غير أن شيئًا من ذلك لم يحصل بعد لدواعي متباينة بعضها جلي وغالبها خفي، منها أن الدولة ما تزال في مستواها السلطاني المشخصن، مستوى يميز بين العوام والخواص، وهي ألفاظ تخلفت عن المصنفات الفقهية وتآليف السياسة الشرعية والمتون الصوفية، وكلها أثرت في نفسانية الفرد الذي لا يجد أمامه إلا القبيلة يستذكرها لتحميه نفسانيا. ثم إنه لا ينبغي على الباحث في التاريخ أن يفهم من الحوليات الاخبارية أن جهاز المخزن يثأر لنفسه من القبيلة، فيبطش بها إلى أبعد مدى، الحاصل هو العكس، على أساس القبيلة كان يرسم خططه، ولم تكن له نية ورغبة في القضاء عليها، وضع تاريخي يكيفه اليوم مع مفاهيم السياق السياسي والاجتماعي والثقافي المتداولة في الخطاب الرسمي.

الاحالات المرجعية:

(١) يتعين أن نشير في هذا المقام إلى أن رواد مدرسة الحوليات تفوقوا كثيرًا في إنتاج دراسات تركيبية حول قضايا محددة وضمن مجالات محدودة، استنادا إلى رؤية منهجية، لا نرى من داع للكلام عنها ههنا، وبقدر ما كانت تلك القضايا مبحثية (شمولية)، بقدر ما كانت مهتمة أكثر بالبحث في العقليات والذهنيات، قصد الكشف عن المتروك من المصادر والمغيب من الفئات الاجتماعية. من هذه الدراسات نورد على سبيل المثال ما يأتي منها:

Pierre Toubert, les structures du Latium médiéval : le Latium méridional de la Sabrine du IX siècle à la fin du XII siècle, bibliothèques des écoles Françaises, Rome, 1973. Emmanuel Le Roy Ladurie, Montaillou : village occitan de 1294 à 1324, Gallimard, 1973. Pierre Goubert, Beauvais et le beauvaisis de 1600 à 1730, contribution à l'Histoire sociale de la France du XVII siècle, Flammarionn Paris, 1968.

(٢) محمد عابد الجابري، **فكر ابن خلدون العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط. ٦، ١٩٩٤.

(٣) وجيه كوثراني، **تاريخ التأريخ، اتجاهات- مدارس- مناهج**، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الثانية، بيروت، ٢٠١٣، ص. ٢٢٠ وما بعدها.

(3) Braudel (F), La méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II (1558-1598), Armand collin, 9(ème) édition, 1999.

انظر كذلك الملاحظات التي سجلها محمد حبيدة، **المدارس التاريخية برليت السوربون- استراسبورغ**، من المنهج إلى التناهج، دار الأمان، الرباط، ط.١، ٢٠١٨، ص. ٨٩- ١٠١.

(٤) حول القبيلة أمكن الرجوع إلى عديد دراسات منها: المختار الهراس، **القبيلة والسلطة: تطور البنيات الاجتماعية في شمال المغرب**، المركز الوطني لتنسيق وتوثيق البحث العلمي، الرباط، ١٩٨٨. الهادي الهروي، **القبيلة والإقطاع والمخزن: مقاربة سوسيولوجية للمجتمع المغربي الحديث ١٨٤٤- ١٩٣٤**، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠٠٥. مجموعة من الباحثين، **الأنتربولوجيا والتاريخ: حالة المغرب العربي**، ترجمة عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ٢٠٠٧. محمد نجيب بوطالب، **سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي**، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة أطروحات رقم ٤١، بيروت، ٢٠٠٢.

Larou i (A), les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain, maspero, Paris, 1977.

(٥) محمد بوسلام، **تاريخ قبيلة بني ملال ١٨٥٤- ١٩١٦، جوانب من تاريخ دير الأطلس المتوسط ومنطقة تادلا**، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٩١.

(٦) الطيب بياض، **المخزن والضريبة والاستعمار، ضريبة الترتيب، ١٨٨٠- ١٩١٥**، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠١١، ص.٧٥.

(٧) محمد بن عبد المنعم الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الثانية، مكتبة لبنان، بيروت ، ١٩٨٤،ص.٢٣١. الشريف الادريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، طبعة نابولي، ج٣، ص. ١٤٤. أبي بكر بن علي الصنهاجي، **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧١، ص. ٤٩-٥٠. أبو عبيد البكري، **المسالك والممالك**، الجزء ٢، حققه وقدم له وفهرسه أدريان فان ليوفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، قرطاج، ١٩٩٢، ص. ٨٤٤- ٨٤٥.

(٨) عبد الواحد المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق محمد زينهم محمد عزب، دار الفرحاني للنشر والتوزيع، دون تاريخ، ص.١٨٩-١٩٠. عبد الرحمان بن خلدون، **تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس الأستاذ خليل شحادة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الجزء ٦، بيروت، ٢٠٠٠، ص.٣٧.

(٩) الحسن بن محمد الوزان، **وصف افريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الاسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣، ص. ١٧٦-١٨٣.

(١٠) أبو القاسم الزياني، **الترجمان المعرب على دول المشرق والمغرب**، مخ. خ ع، رقم ٦٥٨ د، ص.٣٨٠.

(١١) شارل دوفوكو، **التعرف على المغرب، ١٨٨٣_١٨٨٤**، ترجمة المختار بلعربي، دار الثقافة، ١٩٩٩، ص.٨٣.

(١٢) من ذلك مثلا صدور ظهير شريف مؤرخ ب ٢٧ أبريل ١٩١٩، والذي حدد أدوار الجماعات الادارية معلنا موت "اجماعة"، من دون أن يقبرها إلى الأبد، فبقيت منذ ذاك في حالة احتضار تحيى في لبوس جديد من طرف تنظيمات اجتماعية متباينة.

(١٣) من اليسير أن نتبين أن هذه التعابير خلدونية، راجع المقدمة، ص.١٥١ . ١٧٢. ١٨٦. ١٨٧. ١٨٩

(١٤) حول هذه الأنماط أمكن العودة إلى الهادي الهروي، **القبيلة الاقطاع والمخزن**، مقاربة سوسيولوجية للمجتمع المغربي الحديث ١٨٤٤- ١٩٣٤، افريقيا الشرق، ٢٠٠٥، ص. ١٣٤.

(١٥) مخ خ ح، رقم ٦/٨، رسالة من القايد بوعبيد بن محمد إلى السلطان بتاريخ ٠٣ مارس ١٨٣٨.

(١٦) استعملنا اللفظة هنا وفي سياقات مختلفة من هذه الدراسة، بالمعنى الذي حملته في المؤلفات والمراسلات، وفيها تحيل إلى مجموعة بشرية وليس إلى نعت قدحي، كذا الأمر بالنسبة للفظة "الأعراب".

(17) Le Coz (J), *Les tribus guichs au Maroc*, revue de géographie du Maroc, faculté des lettres, Rabat, p. 19.

(١٨) كناش الخزانة الحسنية، رقم ٣٥٣، **رسالة من السلطان الحسن الأول إلى قواد أيت الربع**، بتاريخ ٠٧ يونيو ١٨٨٣، ص. ٤٨.

(١٩) نفسه، ص.٦١.

(٢٠) يشير صاحب مؤلف **"الابتسام في دولة ابن هشام"** والذي كان كاتبا للسلطان عبد الرحمان بن هشام (١٨٢٢- ١٨٥٩) إلى أن العبيد يشكلون أغلبية الگيش ص. ٤٢١. ولم يكن گيش أيت الربع طبعا من العبيد بل من قبائل هلالية وحتى أمازيغية، ومعلوم أن الجيش المغربي على الأقل في القرن التاسع عشر كان يتشكل من خمس مجموعات ليس بينها مجموعة "أيت الربع"، وهذه المجموعات هي: البواخر- شراكة- أولاد جامع- شراردة- الأوداية. (ابن زيدان، **العز والصولة**، الجزء ٢، م. س، ص. ١٨٩- ٢١٦). تدل إذن تسمية گيش أيت الربع على وحدة لاستغلال الأرض أكثر مما تدل على تقديم الخدمة العسكرية والتي غالبًا ما كانت تقتصر على المستوى المحلي.

(٢١) علاقة القبيلة والمدينة بالمخزن، قضية تصدت لها أبحاث متنوعة محلية وأجنبية، عامة يمكن التمييز هنا بين مقاربتين، الأولى: أمكن تسميتها بالمقاربة الدفاعية، حيث تفسر الخلل بالضغوط الأجنبية، والتسرب الأوربي، كتب الباحث الصديقي في معرض حديثه عن الرحامنة يقول "تصادف تلك الأزمة (أزمة النصف الثاني من القرن التاسع عشر)، التي كانت تعتري كل مجالات الحياة المغربية، على المستويات الاقتصادية والاجتماعية والدبلوماسية وحتى الشرعية، بسبب ما كانت تعانيه البلاد من ضغوط أجنبية وما كان يترتب عليها من نتائج وخيمة، نخرت كيان الأمة المغربية، وكسرت توازن مجتمعها، ويهمنا أن نتعرف عبر هذه الدراسة المحددة في الزمان والمكان، على ما آلت إليه علاقة الرحامنة بالمخزن في النصف الثاني من القرن الماضي، على ضوء المستجدات التي طرأت على البلاد، وإلى أي حد نالت الأزمة المشار إليها من قبيلة كانت تستمد هيمنتها في الحوز، من توازنات مجتمع زراعي قبل أن تفكك الضغوط الأجنبية بنياته.. أنظر عبد الرزاق الصديقي، **الرحامنة وعلاقتهم بالمخزن**، (١٨٥٠- ١٩٠٠)، بابل، الرباط، ١٩٩٧، ص.١٨-١٩.الثانية: تدعو إلى مراجعة مثل هذه المسلمات، وترى أنها تحجب فهم بعض الظواهر والبنيات التي ورثها المجتمع المغربي على امتداد قرون عديدة. أنظر عبد الأحد السبتي، **بين الزطاط وقاطع الطريق، أمن الطرق في مغرب ما قبل الاستعمار**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ٢٠٠٩، ص. ٢١. هذا البحث حول بني ملال يرى أن المقاربة الثانية هي التي تقدم ممكنات أوسع للتفسير والفهم، وسيعتمد عليها لاستجلاء عوامل وكوابح تعثر التحول من القبيلة إلى المدينة، وكيف أن المدينة ورثت كثيرًا من مظاهر وتركة القبيلة.

(٢٢) يمكن العودة إلى: عبد الله الكنسوسي، **الجيش العرمرم**، م. س، ص.٢٢٨. أبو القاسم الزياني، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا**، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، دار النشر والمعرفة، الرباط، ١٩٩١، ص. ٧٥-٧٦. عبد الرحمان بن زيدان، **اتحاف**، الجزء ٢، م. س، ص. ١٤٩-١٥٠. رسالة مخزنية من أحمد بن محمد بن القايد إلى السلطان عبد الرحمان بن هشام مؤرخة ب ١٢٦٣ هـ، محفوظة بمديرية الوثائق

الملكية، الرباط، غير مرقمة. شارل دو فوكو، **التعرف على المغرب ١٨٨٣-١٨٨٤**، ترجمة المختار بلعربي، الطبعة الأولى، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٩٩م. ص.٨٦-٨٧.

(٢٣) لويس أرنو، **زمن المحلات السلطانية، الجيش المغربي وأحداث قبائل المغرب ما بين ١٨٦٠ و١٩١٢**، ترجمة محمد ناجي بن عمر، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء وبيروت، ٢٠٠٢، ص.٥١-٥٢.

(24) Gautier (E.F), *Médinat-ou-Daï*, in HESPERIS Archives berbères et bulletin de l'institut des Hautes études Marocaines, Tome VI, année 1926.

(25) Laraichi Fatima et Gouvreur, Béni mellal : Une ville Marocaine moyenne, D.E.S, Strasbourg, 1973.

(٢٦) محمد بوسلام، تاريخ قبيلة بني ملال، مرجع سابق.

(٢٧) يمكن أن نستنتج ذلك بيسر من خلال بعض المصادر، راجع مثلا ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، الجزء ٢، ط.١، القاهرة، ٢٠٠٨.

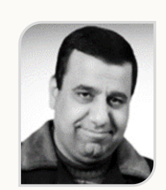
(٢٨) بهذا الشأن راجع: ابن الزيات التادلي، **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، سلسلة نصوص ووثائق رقم ٤، الطبعة الثالثة، ٢٠١٠. الصومعي أحمد بن أبي القاسم، **المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى**، تحقيق علي الجاوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير، ١٩٩٦. الولالي أحمد بن محمد بن يعقوب، **مباحث الأنوار في أخبار بعض الأخيار**، دراسة وتحقيق عبد العزيز بوعصاب، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٩.

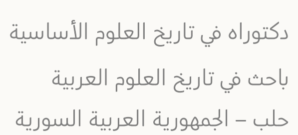
مقالات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

نظريات تفسير ظاهرة المد والجزر في البحار عند العلماء العرب بين القرنين (٣ - ١٠هـ/ ٩ - ١٦م)

د. سائر بصمه جي





دكتوراه في تاريخ العلوم الأساسية

باحث في تاريخ العلوم العربية

حلب – الجمهورية العربية السورية

مُلَخّصْ

تكمن الغاية من هذا البحث تسليط الضوء على النظريات العربية التي حاولت تفسير ظاهرة المدّ والجزر في البحار بشكل علمي، وذلك ضمن الفترة الواقعة بين القرنين (٣-١٠هـ/ ٩-١٦م). حيث إننا اتبعنا فيه المنهج التاريخي المقارن، وذلك لتحديد الإضافات التي قدمها العلماء العرب والمسلمين على معارف الحضارات السابقة. وبعد إنجاز هذا البحث توصلنا إلى عدد من النتائج، ومنها: لقد قدم لنا الكندي نظرية جديدة أراد من خلالها تفسير ظاهرة المد والجزر في البحار وفق رؤيته الخاصة (وإن لم تكن دقيقة وفق نظرياتنا الحالية)، لكنها لم تكن مأخوذة عن أي عالم سابق له. كما قدّم لنا تصنيفه للمد الطبيعي على أساس يومي وشهري وسنوي. قام أبو معشر البلخي بتحديد العوامل الأساسية لحدوث ظاهرة المد والجزر في البحار وهي حالة موضع الماء، وحالة الماء نفسها، وانتقال القمر في أطواره. كما قدم لنا أبو معشر البلخي –ربما-أول صياغة رياضياتية تمكن الراصد من التنبؤ بساعة المد والجزر. وانتبه إلى وجود ثمانية أسباب تؤثر على قوة المد وضعفه. حاول البطروجي أن ينحي أثر القمر في ظاهرة المد والجزر، معتبر أن السبب هو حركة السماء التي تعلو كتلة المياه في البحار. وقدم لنا عبد القادر البصري مناقشة واسعة جدًا، وقد أورد –ربما أول مرة-مقارنة تشبيهية بين جاذبية القمر لمياه البحر وجاذبية المغناطيس للحديد، ليقترب بذلك كثيرًا من مفهوم الجاذبية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	١٦	أغسطس	٢٠٢٠
تاريخ قبــول النشــر:	٣٠	أغسطس	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

مد وجزر؛ بحر؛ القمر؛ تصنيف المياه؛ الجاذبية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.219596

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

سائر بصمه جي. "نظريات تفسير ظاهرة المد والجزر في البحار عند العلماء العرب بين القرنين (٣ - ١٠هـ/ ٩ - ١٦م)".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الحادي والخمسون؛ مارس ٢٠٢١. ص ٤٣ – ٤٩.

Corresponding author: saerbasmaji@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

من المعروف حاليًا أن المد والجزر ظاهرة جغرافية-فلكية طبيعية تنشأ من عدم تساوي جاذبية كل من القمر والشمس للأرض في أجزائها المختلفة وأنّ النصف المواجه للقمر ينجذب ماؤه أكثر من النصف الآخر وذلك لأن القمر أقرب إلى الأرض من الشمس الشديدة البعد، ويتأرجح المد والجزر وفقًا لتغير مواقع الشمس والقمر من الأرض بالتباعد أو التلاقي أو الانحراف على مدار الشهر. وعند تلاقي القمر والشمس على مستوي واحد من الأرض-كما يحدث في أول الشهر ومنتصفه -يحدث المد الأعظم. يهدف هذا البحث إلى استعراض ودراسة كافة النظريات العلمية العربية التي فسّرت ظاهرة المد والجزر ضمن الإطار الهيدروغرافي -بحيث إنها تشمل الأنهار والبحار-وفق تسلسل تاريخي. وبالتالي فإن أهميته تكمن بالمحاولة الجادة لوضع إسهامات العلماء العرب والمسلمين في سياقها التاريخي العلمي الصحيح، مقارنةً بما قدمه علماء الحضارات الأخرى. أما عن دواعي القيام بهذا البحث فهو ندرة البحوث العلمية العربية والأجنبية التي أجريت حوله. إذ أننا نجد الكثير من المراجع التي درست تفسير هذه الظاهرة لدى الكثير من الحضارات القديمة والوسيطة، لكنها لم تُعنَ بأفكار ونظريات العلماء العرب والمسلمين.

١-محاولات الحضارات القديمة تفسير ظاهرة المد والجزر في البحار

حاول الكثير من الناس -ومنذ أقدم الحضارات-معرفة سبب هذه الظاهرة، فمنهم من ربطها بحركة القمر وحده، مثل البابليين[١]، والصينيين[٢]، ومنهم من ربطها بالآلهة التي كانوا يعبدونها، مثل الهنود[٣]. أما فلاسفة اليونان فقد تباينت آراؤهم كثيرًا فيما بينهم؛ حيث إن أفلاطون اعتبر أن سبب ظاهرة المدّ والجزر في البحار هو تذبذبات السائل الموجود داخل الأرض[٤]. في حين أن أرسطو تخبّط في آراءه؛ فتارة يعتقد أن سببها الرياح التي تولّدها الشمس[٥]، وتارةً يعتقد أن سببها الصخور[٦].

واقترح الرحالة بيثياس المسيلي أن سبب ظاهرة المد والجزر هو علة كونية أو شروق وغروب القمر[٧]، وقد شاركه الرأي إيراتوسثينس[٨]. أما ديكايارخوس المسينى فقد تنبّه إلى أن حركات المدّ والجزر لا تتأثر بالقمر وحده، وإنما بالشمس أيضًا[٩]. وقد اقترح فيما بعد بوسيدونوس الرودسي أن سبب الظاهرة هو وجود تأثيرٍ مشترك للشمس والقمر[١٠]. واعتقد بطليموس بأن سبب الظاهرة هو كوكب زحل[١١]. في جميع الأحوال لم تقدم لنا كل الملاحظات السابقة أية نظرية متماسكة البنية تؤطر كل هذه الملاحظات في إطار نظري واحد نحصل من خلاله على تفسير مقنع. ولذلك لم تستمر هذه الملاحظات إلا في حدود مؤلفات أصحابها.

٢-تعريف مفهوم البحر

لقد سُمّي البحر بحرًا عند العرب -من الناحية اللغوية- لاتساعه وعمقه، ولكثرة الماء فيه، سواء كان عذبًا أو مالحًا، وفي لغة العرب يوجد عدة مرادفات لكلمة البحر مثل: القمّيس، والقاموس، والعيْلَم، والطَيْسل، والطيش، والخضم، واليمّ[١٢]. وقد قدم لنا الحسن ابن البهلول (القرن ٤هـ/ ١٠م) شرحًا مبسطًا حول تشكل البحار، منوهًا إلى الدورة الهيدرولوجية التي تنشأ بين البحار والأمطار والأنهار. قال ابن البهلول: "إن البحار، إنما هي مواضع عميقة في الأرض. ومن شأن الماء طلب العمق، فتنصبّ المياه من الأنهار والأودية والسيول، فتستنقع فيه. فما كان من ذلك عذبًا، فإنه يصير فوق لخفّة العذب. وما كان مرًّا أو مالحًا، صار إلى أسفل لثقله. فإذا مرّت عليه الشمس، رفعت العذب لخفّته. فما كان من ذلك لطيفًا جدًا، صار هواء. وما كان دون ذلك في اللطافة، صار ندى ومطرًا"[١٣].

أما التعريف الحديث للبحار والمحيطات، فهو يقرر بأنها مسطحات مائية صغيرة إذا ما قورنت بالمحيطات التي تعد مسطحات مائية كبرى[١٤]. والحقيقة هناك تقارب كبير بين تعريف ابن البهلول للبحار والتعريف الحديث. فالموضع العميق الذي افترضه ابن البهلول في تعريفه، لا يقل أهمية عن الانتشار السطحي للكتلة المائية.

٣-أرصاد ظاهرة المد والجزر

لم تكن الشعوب العربية والإسلامية معزولة عن بيئة البحار والأنهار، كما أن العلماء العرب والمسلمين لم يكونوا معزولين بوعيهم عن ملاحظة وتفسير ظاهرة المد والجزر. بعد إجراء مسحٍ شامل، وجدنا أنه بلغ عدد العلماء الذين وثّقوا لنا مشاهداتهم لظاهرة المد والجزر في البحار والأنهار بين القرنين (٣هـ/ ٩م – ١٠هـ/ ١٦م): ٢٢ عالم عربي ومسلم، موزعين على رقعة جغرافية امتدت بين الصين والهند شرقًا إلى الأندلس وبريطانيا غربًا. وقد سجلوا لنا/ ٣٦/ موقعًا يحدث فيها مد وجزر في بحر أو نهر.

٤-النظريات المفسّرة لظاهرة المد والجزر

من الناحية الاصطلاحية؛ أطلق العرب لفظي المد والجزر في العصور الوسطى على مفهومين مختلفين[١٥]: على الحركة الرأسية للمياه، المقصود بها ارتفاع مستوى سطح البحر وانخفاضه في اليوم والليلة مرتين. وعلى الحركة الأفقية للمياه بمعناها الواسع ويقصد بها التيارات البحرية بشكل عامّ.

ومن الطبيعي قبل البدء بصياغة أية نظرية وضع تعريفات واضحة لمكونات النظرية حتى يتم الارتكاز عليها. فقد عرّف أبو معشر البلخي (توفي ٢٧٢هـ /٨٨٦م) المدّ أنه " الابتداء وهو الذي يفعله القمر بطبيعته، والجزر بعد المدّ وهو رجوع الماء إلى البحر بطبعه"[١٦]. كما عرّفه أبو الحسن المسعودي (توفي ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م) بقوله: "المدّ: مضيُّ الماء في فَيْحته وسَيْحته وسنن جريته، والجزر: رجوع الماء على ضد سنن مُضِيِّه وانكشاف ما مضى عليه في هَيْجه"[١٧]. ونلاحظ في تعريف أبي معشر أنه يفترض أن بداية الظاهرة (المد) تكون من تأثير القمر، أما نهاية الظاهرة (الجزر) فهي عودة الماء بعد أن زال أثر المؤثر. طبعًا لم يكن مصطلح "الجاذبية" أو "حقل الجاذبية" شائعًا بين أوساط علماء القرن ٩م، فهو كما نعلم سيظهر بصيغته الواضحة والمقننة رياضياتيًا مع نظرية نيوتن في تفسيره لقوة الجاذبية والأثر المتبادل بين كتل الأجرام السماوية الكبيرة. إذًا افترض أبو معشر وجود "أثرٍ من نوعٍ ما" يمارسه القمر على مياه البحار فيجعلها تمتد على السواحل والشطآن، ثم يقل هذا الأثر فتنحسر المياه لتعود كما كانت. هذا الافتراض سيكون نقطة الانطلاق في صياغة النظريات العربية التي ستفسّر ظاهرة المد والجزر.

٤/١-نظرية الكندي

أفرد أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي (توفي ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م) رسالة خاصة بعنوان (رسالة في العلة الفاعلة للمد والجزر)، وهي من أولى الرسائل المتخصصة في معالجة هذا الموضوع والقائمة على نظرية التمدد الحجمي للمواد. وبحسب تقييم سزكين لهذه الرسالة، فإنه يرى أنها "بعرضها المسهب في إطار المصادر حول الموضوع نفسه، فإنها قائمة بذاتها دون نموذج سابق مباشر، فعبارته تعد العبارة الوحيدة التي أقيم فيها الظاهرة الكونية بلا ثغرة. والفرق بين عبارة الكندي والوصف الحديث يكمن-بشكل رئيس- في أنه استبدل في الوقت الحاضر بالتفسير الحركي جذب القمر والشمس"[١٨]. وهو الرأي الذي يخالفه فيه المستشرق الألماني إيلهارد فيدمان (E. Wiedemann) عندما درس هذه المقالة، وقرر فيدمان أن الكندي وضع هذه الرسالة وهو متأثر بأرسطو[١٩].

لكننا في الحقيقة سبق وأن وجدنا كيف أن أرسطو كان متخبطًا في آرائه وتفسيره لهذه الظاهرة؛ فمرة كان ينسبها للرياح، ومرة للكتل الصخرية الساحلية. دون أن يأتي على ذكر أي دور للقمر. باستثناء الرسالة المزيفة المنسوبة لأرسطو، والتي لا يمكننا اعتبارها تجسد أفكار أرسطو. لذلك فإننا نرجح رأي سزكين حتى تظهر دلائل وقرائن مغايرة لذلك. قال الكندي " فإن القمر إذا صار في مشرق موضع كان أول وقوع ضوئه عليه، فابتدأ في الحمى وقبول الزيادة في الأجزاء. إلا أن ‹ذلك› أظهر ما يكون في الماء؛ فكلما علا، كان حمى ذلك الموضع له أشد، حتى يصير في وتد سمائه. فهو نهاية قبول ذلك ‹الموضع› للحرارة، لحركة القمر، ونهاية مدّه؛ لأن الأجرام كلما حميت احتاجت إلى مكان أوسع، كما قلنا متقدمًا. فإذا انحدر عن ذلك الموضع الذي هو وسط السماء، نقص حرّ الموضع من الأرض المنفعل به"[٢٠].

رأي الكندي هذا سيتبعه روبرت غروستيست (توفي ١٢٥٣م R. Grosseteste) بشكل أو بآخر في رسالته عن المد والجزر، ولكن لم يستطع غروستيست أن يصل إلى مستواه[٢١]، مع أن بينهما أكثر من ٤٠٠ سنة؛ حيث إن المطلع على رسالة غروستيست يجد أن العبارات الفيزيائية عنده لم تصل إلى غايتها كما هي عند الكندي، فهو يعتقد أن أشعة القمر تسبب، عن طريق توليد الأبخرة والرياح في مياه البحر، الزيادة في الحجم[٢٢].

لقد ذكر الكندي في رسالته (في العلة الفاعلة للمد والجزر) أسباب المد والجزر وأنواعه، فعرّف نوعين من المد:

- الأول المد الطبيعي: وعرفه بأنه: "استحالة الماء من صغر الجسم إلى عظمه"[٢٣].
- والثاني المد العَرَضِي وعرفه بأنه: "زيادة الماء بانصباب مواد فيه"[٢٤]، كما في حالة الأنهار والأودية والفيوض التي أصلها من الأنهار، وأشار إلى أن مثل هذا المد لا يظهر فيه زيادة، وذلك لصغر كمية المياه المضافة إليه من الأنهار وغيرها، بالمقارنة مع مياه البحار، وكذلك بسبب البخر الواقع لها.

وقد قسم الكندي المدّ الطبيعي إلى ثلاثة أنواع:

١. المد السنوي: وهو الزيادة في مياه البحار في وقت محدد من السنة في موضع دون موضع، حسب حركة الأجرام السماوية[٢٥].

٢. المد الشهري: وهو يحدث حسب تغير أوضاع القمر في دورانه حول الأرض[٢٦].

٣. المد اليومي: وهو واقع لتأثير ضوء القمر عليه، فيبتدئ مده مع طلوع القمر عليه، ويبتدئ جزره حين يبتدئ زوال القمر عن سمت رؤوس أهله[٢٧].

يرى مؤرخ الجغرافيا العربية أغناطيوس كراتشكوفسكي (I. Krackovski) "مع أن نظرية الكندي في المد والجزر تستند على أفكار خاطئة إلا أنه من الطريف ملاحظة أنه قد اعتمد على الملاحظة والتجربة العلمية ليثبت صحتها"[٢٨].

٢/٤-نظرية أبو معشر البلخي

درس العالم الفلكي أبو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخي ظاهرة المد والجزر في البحار بشكل مفصّل، وذكر الأنواع والأسباب المختلفة لها، وقد أودع ذلك في خمسة فصول حاول من خلالها أن يقدم نظرية متكاملة وشاملة تفسّر كل ما يتعلق بظاهرة المد والجزر من وجهة نظره كعالم فلك. ما يميز بحث أبو معشر في الفصول التي ناقش فيها المد والجزر أنه لم يتطرق إلى الأسباب الغيبية الخارقة للعادة التي طرحها بعض المؤلفين الذين ناقشوا هذه الظاهرة؛ وإنما حاول تفسيرها وفق الأسباب والمعطيات الفيزيائية والطبيعية التي كانت في عصره، خصوصًا أثر القمر وحركته ومدى اكتماله ونقصانه خلال الشهر.

ونستشف من البداية إدراك كلام أبي معشر للعلاقة بين أثر القمر وحركة المد والجزر، سواء اليومي أو الشهري[٢٩]. كما تحدث أبو معشر عن التيارات البحرية التي تتأثر بالرياح وتتزامن مع حركة المد، وكذلك تحدث عن التيارات البحرية الصاعدة من الأعماق للسطح[٣٠]. وذكر أن المدّ والجزر لا يحدث بالأصل إلا بتوفر ثلاثة عوامل أساسية معًا[٣١]:

١. حالة موضع الماء: إذ يجب أن يكون الموضع عميقًا وعريضًا وطويلاً، وفيه جبال تمكن الرياح من الاجتماع والقيام بدور إضافي في حركة المد.

٢. حالة الماء نفسه: إذ يجب أن تكون كمية المياه كثيرة وساكنة، لا تدخل أو تخرج منها المياه.

٣. تحريك القمر للماء: بمعنى انتقال القمر في أطواره خلال اليوم أو الشهر.

وهكذا وباجتماع العوامل الثلاثة يحدث لدينا المد والجزر بشكل واضح تمامًا. وقد فسّر لنا سبب كون ماء المد فاترًا وماء الجزر باردًا، لأن ماء المد يخرج من أعماق المياه التي تكون فاترة، ويزيد من فتورها حركة الماء نفسه وتحريك القمر له. وعندما يصل إلى الشاطئ فإنه يبرد ويعود مع الجزر باردًا[٣٢]. وللتنبؤ بساعة المد والجزر الطبيعي اقترح أبو معشر طريقة حسابية عامة. وهي تتطلب معرفة درجة شروق القمر (A) ودرجة غروب القمر (B) وضرب الفرق بينهما بمعامل تصحيح (α)، مع إضافة درجة خط عرض ذلك البلد (C) وتطبيق المعادلة الآتية:

$$H = \alpha(A-B) + C$$

وفي حال أردنا معرفة ساعة المد لوحده أو الجزر لوحده فيمكننا تقسيم الناتج على ٢. وهذا يعني أن أبا معشر قد تنبه إلى تأثر المد بعامل خط الطول والعرض وزاوية شروق وغروب القمر. وقد تكون هذه أول معالجة حسابية مقننة لظاهرة المدّ والجزر. إذْ أننا لم نعثر على أي معاجلة أو طرح من هذا النوع لدى أي عالم سبق أبو معشر. بعدها ينتقل لتعداد أسباب قوة المد وضعفه وهي برأيه ثمانية[٣٣]:

١. بُعد القمر من الشمس وزيادته في الضوء ونقصانه منه.

٢. زيادة تعديل القمر عن وسطه أو نقصانه منه.

٣. موضع القمر من فلك الأوج أو قربه من الأرض.

٤. صعوده أو هبوطه الفلك المائل وجهة عرضه.

٥. كون القمر في البروج الشمالية والجنوبية.

٦. الأيام التي يسمونها البحريون الذين هم في ناحية المغرب ومصر أيام زيادة الماء ونقصانه.

٧. معرفة قوة المد وضعفه من طول النهار والليل وقصرهما حسب خصائص الشمس.

٨. والثامنة معرفة الرياح المقوّية للمد والجزر.

كما انتبه أبو معشر إلى أن المدّ والجزر يزيد وينقص في الحالة التي يكون فيها اجتماع واستقبال بين الشمس والقمر[٣٤]. وأنه يوجد تناسب عكسي بينهما؛ " فإذا طال زمان المدّ فإنه يقصر زمان الجزر الذي يكون بعده، وإذا قصر زمان المد طال زمان الجزر الذي بعده، والرياح التي يوافق هبوبها جرية المدّ والجزر أيهما وافق ذلك فإن تلك الريح تزيد في قوته وفي طول زمانه، والرياح التي تستقبل جرية أيهما كان فإنها تضعفه"[٣٥]. وقد قدم لنا تصنيفه للمياه على أساس ما يحدث فيها من مدّ وجزر إلى ثلاثة أنواع:

١. الأول: لا يكون فيه مد ولا جزر.

٢. الثاني: لا يتبين فيه المد والجزر.

٣. الثالث: ما يتبين فيه المد والجزر.

وقد فسّر على النوع الأول الذي لا يظهر فيه مدّ ولا جزر، بأننا نصادف حالته في المياه الجارية والبحار التي لا تسامت القمر مباشرة، والمياه التي لا تكون على أرضٍ صلبة فيتسرب الماء في جوفها[٣٦].

كان أبو معشر رجل يحب أن يقرن النظرية بالتجربة؛ إذْ كثيرًا ما استخدم لفظ مثل "سألنا" لتدل على أنه كان يواكب بين النظرية والتجربة. وربما هذا ما منح نظريته قوة أكبر في الصمود والبقاء. وبالمقارنة بين طروحات أبي معشر وبالكندي نجد أن أبي معشر قد فصّل في حالات المد والجزر وما يتعلق بها من عوامل أكثر بكثير من الكندي. هذا من ناحية، ومن ناحيةٍ أخرى فإننا تتبعنا أثر نظرية أبو معشر البلخي على علماء أوربا في العصور الوسطى، ووجدنا أنها قد مارست تأثيرًا أكبر من نظرية الكندي، خصوصًا بعد أن تمّ ترجمة كتاب أبو معشر (المدخل) للغة اللاتينية مرتين: مرة من قبل يوحنا الإشبيلي (توفي ١١٨٠م) John of Seville في عام ١١٣٣م، ومرة من قبل هيرمان الكارينثي (توفي ١١٦٠م) Herman of Carinthia في عام ١١٤٠م. ومن هذه الترجمات اقتبس كل من جيرالد الويلزي (توفي حوالي ١٢٢٣م) Gerald of Wales وروبرت غروستيست (توفي ١٢٥٣م) R. Grosseteste ودانييل المورلي (توفي ١٢١٠م) Daniel of Morley نصوصًا كثيرة عن المد والجزر، أخذوها كلها عن كتاب أبي معشر ونسبوها لأنفسهم[٣٧]. كما امتد تأثير أفكار أبو معشر إلى توما الأكويني (توفي ١٢٧٤م) Th. Aquinas وروجر بيكون (١٢٩٢م) R. Bacon فيما بعد[٣٨].

٣/٤-نظرية البطروجي

ساهم أبو إسحق نور الدين البطروجي الإشبيلي (توفي حوالي ٦٠٠هـ/ ١٢٠٤م) في فكرة أن المد والجزر سببها الدورة العامة للسماوات[٣٩]. وقد بنى نظريته على الحركة الموجودة في المحيط الأطلسي، ملاحظًا التزامن بين حركة السماء نفسها والمد والجزر، وقرر بأن الظاهرة تحدث نتيجة حركة السماء وليس بتأثير القمر كما قال بذلك كل من سبقه.

قال البطروجي:" وأما عنصر الماء فإن حركته تبيّن من أمرها أنها تابعة لحركة السماء بالضرورة، وإن لم تكن حركته على استدارة تامة، وذلك بما نشاهده من حركة البحر الأعظم من مدّه وجزره في الليل والنهار على نظامٍ محفوظ كأنها حركة موازاة، وإنما ‹يحدث› ذلك لثقله وما في طباعه من الميل إلى الأسفل والرسوب إلى المواضع المنخفضة من الأرض. وأكثر ما يبين ذلك ويظهر حركة الماء في مجتمعه كالبحار التي لا تُدرك لها إلا شدّ واحدة لغلظها وعمقها؛ فحركة الماء التي من جهة المشرق هي حركته التي يتبعها ما فوق، وحركته في الرجوع هي تثقله وميله إلى الأسفل لكثرته وحركة الماء أقل سرعة من حركة الهواء، ولذلك يُظن أنه تابع في الحركة لنقلة القمر لتقارب حركتيهما، وإنما ظنّ ذلك لأنها تأتي تابعة ومقصرة عنها فلا تنتهي القوة إلى إتمام الدورة حتى تأتي عليها دورة أخرى فتستعجلها عن التمام واستيفاء الدورة، فيضطرب الماء لذلك كما ذلك فيها"[٤٠].

هذا الطرح الذي قدمه البطروجي عن المدّ والجزر كان جديدًا بالنسبة لعلم الفلك الأرسطي، وقد انتقل لأوربا عبر الترجمة التي قام بها ميشيل سكوت (توفي ١٢٣٢م) M. Scotus عام ١٢١٧م[٤١]. وقد تأثره به كثيرًا روبرت غروستيست وحاول أن يرد على طرحه لكنه لم يوفق في ذلك[٤٢].

٤/٤-نظرية عبد القادر البصري

وضع عبد القادر بن أحمد بن ميمي البصري (توفي ١٠٨٥هـ/ ١٦٧٤م) كتابًا خصصه لمناقشة ظاهرة المد والجزر في البحار بعنوان (يتيمة العصر في المد والجزر)، وتتلخص آراءه فيما يأتي:

- رفض البصري أن يكون منشأ المد والجزر هو الرياح المتحركة بتأثير الشمس[٤٣] متبنيًا بذلك رأي فخر الدين الرازي (توفي ٦٠٦هـ/١٢٠٩م)[٤٤]. أي أنه رفض فكرة أرسطو. كما رفض أن يكون منشأ المد والجزر هو تسخين أشعة الشمس لقاع البحار، وتوليد الرياح بداخلها والتي تدفع بالماء وتمدده[٤٥]. أي أنه رفض نظرية الكندي.
- وجد أن الرياح الساكنة تترافق مع المد، وأن المد يزداد عندما تنقص والعكس صحيح[٤٦].
- رفض أطروحة البعض بأن المد والجزر يكونان فقط في الحالة التي يكون فيها القمر بدرًا فقط، وإنما يمكن أن نشاهد المد والجزر يوميًا[٤٧].
- اتفق مع القائل بأن سبب المد والجزر هو طلوع القمر وغروبه. وهنا يشير إلى أنه لابد وأن في القمر خاصية "الجاذبية" حيث قال:" ولا مانع من أن يكون قد جعل الله في القمر خاصية جذب الماء وارتفاعه كما جعل في المغناطيس خاصية جذب الحديد"[٤٨]. وهذه أول مرة يرد فيها تشبيه العلاقة بين القمر ومياه البحار كالعلاقة بين المغناطيس والحديد؛ وهي الفكرة التي سيعود لها الفيزيائي البريطاني وليم غيلبرت (توفي ١٦٠٣م) W. Gilbert، ويفسر ظاهرة المد والجزر على أساس أن الأرض تعمل مثل مغناطيس كبير تجذب القمر[٤٩].
- اعترض على من فسّر سبب المدّ انصباب الأنهار في البحار، والجزر توقفها عن الانصباب[٥٠].

- كما أنه وقف محايدًا من الأقوال العجيبة والغريبة التي وصلته، فهو لم يصدقها ولم يكذّبها. مثل قول البعض إن سمكة أو دابة كبيرة جدًا تمتص ماء البحر فيحصل الجزر، وتلفظه فيحصل المد[٥١].

خَاتِمَةٌ

تستحق إنجازات وإسهامات العلماء العرب والمسلمين في تفسير ظاهرة المد والجزر أن تبرز إلى النور بعد أن نالها من التهميش والإهمال ما نالها. إذْ أننا نتلمس عدم اهتمام مؤرخي الغرب أو مستشرقيهم بإسهامات العلماء العرب والمسلمين في النظريات العلمية العربية المفسرة لظاهرة مد وجزر البحار من خلال الأبحاث والدراسات التي قاموا بها. فالمؤرخ جون هوث (J. Howth) ذكر أن تفسيرات ظاهرة المد والجزر في البحار قبل أن يضع نيوتن نظريته في الجاذبية مشتتة[٥٢]. وحتى أحدث وأوسع كتاب تناول هذا الموضوع من الناحية العلمية التاريخية للمؤرخ ديفيد كارتويت (D. Cartwright) لا نجده يخصص سوى أقل من صفحةٍ واحدة للحديث عن أبي معشر البلخي[٥٣]. في حين أن إيدغر وليمز (W. Edgar) قال: "كان يوهانس كبلر أول عالم يفسر أن سبب المد والجزر هو القمر"[٥٤]. وهو ما يدلنا على أن المؤرخين لم يطلعوا بما فيه الكفاية على ما ألفه وكتبه العلماء العرب والمسلمين. أو أنهم تقصّدوا تهميش إسهامات العلماء العرب والمسلمين في تفسير هذه الظاهرة.

نتائج الدراسة

وبعد إنجاز الدراسة توصلنا إلى النتائج الآتية:

- لقد قدم لنا الكندي نظرية جديدة أراد من خلالها تفسير ظاهرة المد والجزر في البحار وفق رؤيته الخاصة (وإن لم تكن دقيقة وفق نظرياتنا الحالية)، لكنها لم تكن مأخوذة عن أي عالم سابق له. كما قدّم لنا تصنيفه للمد الطبيعي على أساس يومي وشهري وسنوي.
- قام أبو معشر البلخي بتحديد العوامل الأساسية لحدوث المد والجزر وهي حالة موضع الماء، وحالة الماء نفسها، وانتقال القمر في أطواره. قدم لنا أبو معشر البلخي –ربما- أول صياغة رياضياتية تمكن الراصد من التنبؤ بساعة المد والجزر. وانتبه أبو معشر إلى وجود ثمانية أسباب تؤثر على قوة المد وضعفه. وقدّم لنا أبو معشر تصنيفه للمياه على أساس ما يحدث فيها من مدّ وجزر إلى ثلاثة أنواع.
- تبين لنا بعد إجراء المقارنة الدقيقة أن الكثير من العلماء الأوربيين في العصور الوسطى قد اعتمدوا على نظرية أبي معشر في تفسير ظاهرة المد والجزر وبشكل كبير.
- حاول البطروجي أن ينحي أثر القمر في ظاهرة المد والجزر، معتبر أن السبب هو حركة السماء التي تعلو كتلة المياه في البحار.
- قدم لنا عبد القادر البصري مناقشة واسعة جدًا، وقد أورد –ربما أول مرة- مقارنة تشبيهية بين جاذبية القمر لمياه البحر وجاذبية المغناطيس للحديد، ليقترب بذلك كثيرًا من مفهوم الجاذبية.

الاحالات المرجعية:

(١) تارن، و.و.g، **الحضارة الهلنستية**، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، المركز القومي للترجمة، العدد ١٩٠٤، ط١، القاهرة، ٢٠١٥م، ص ٣٢٢.

(2) Cartwright, David Edgar, Tides: A Scientific History, Cambridge University Press, Cambridge, 1999, p. 11.

(٣) البيروني، أبو الريحان، **تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة**، ط٢، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٢م، ص ٣٨٩.

(4) Harris, Rollin Arthur, Manual of tides, Part 1, Govt. Print. Off., Washington, 1898. p. 387.

(٥) تارن، و.و.g، **الحضارة الهلنستية**، ص ٣٢٢.

(6) Darwin, George Howard, The Tides and Kindred Phenomena in the Solar System, Boston, Houghton, 1898, p. 81.

(٧) سزكين، فؤاد، **تاريخ التراث العربي (أحكام التنجيم والآثار العلوية)**، ط١، المجلد ٧، ترجمة: عبد الله حجازي، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٩٩م، ص ٣١٦. وانظر أيضًا: **نخبة من العلماء، العلم وأزمنته**، ترجمة: أيمن توفيق، ط١، المجلد ١، ج٢، المركز القومي للترجمة، العدد ١٩٦١، القاهرة، ٢٠١٥م، ص ١٢.

(٨) سزكين، فؤاد، **تاريخ التراث العربي (أحكام التنجيم والآثار العلوية)**، ط١، المجلد ٧، ص ٣٦٨.

(٩) سارتون، جورج، **تاريخ العلم**، ترجمة: لفيف من العلماء، ج3، ط١، المركز القومي للترجمة، العدد ١٦٣٨، القاهرة، ٢٠١٠م، ص ٢٤٢.

(١٠) فريلي، جون، **مصباح علاء الدين**، ترجمة: سعيد محمد الأسعد ومروان البواب، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠١٠م، ص ٩٣.

(١١) بطلميوس، **المقالات الأربع**، ترجمة: زياد الخفاجي، (د.د)، بغداد، ٢٠٠٩م، ص ٥١.
(١٢) محمدين، محمد محمود، **التراث الجغرافي العربي**، ط٣، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، ١٩٩٩م، ص ٤٥٩.
(١٣) ابن البهلول، الحسن، **المختار من كتاب الدلائل**، اختيار وتقديم: إياد خالد الطباع، وزارة الثقافة، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠١٤م. ص ١٤٨-١٤٩.
(١٤) عبده، طلعت أحمد محمد، وحورية محمد حسين جاد الله، **جغرافية البحار والمحيطات**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٧م، ص ٩٦.
(١٥) عبد العليم، أنور، **الملاحة وعلوم البحار عند العرب**، سلسلة عالم المعرفة، العدد-١٣، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٧٩م، ص ١٢٦.
(١٦) أبو معشر البلخي، جعفر البلخي، **المدخل الكبير في علم أحكام النجوم**، مخطوطة المكتبة الوطنية، رقم (Arabe 5902)، ص ٥٢ظ.
(١٧) المسعودي، أبو الحسن، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج١، ط١، اعتنى به وراجعه: كما حسن مرعي، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ٢٠٠٥م، ص ٤٢.
(١٨) سزكين، فؤاد، **تاريخ التراث العربي (أحكام التنجيم والآثار العلوية)**، ط١، المجلد ٧، ص ٣٦٩.
(١٩) تناول المستشرق الألماني إيلهارد فيدمان E. Wiedemann دراسة ما كتبه الكندي عن ظاهرة المد والجزر في بحثه الذي يحمل عنوان:
Uber al-Kindi's Schrift uber Ebbe und Flut, Annalen der Physik, No. 67, 1921 p. 374.
حيث يذكر فيدمان في هذه المقالة أن الكندي تأثر بأرسطو، ويذكر أنه توجد في المخطوطة نفسها التي كتب فيها الكندي فصل حول "لون السماء"، والتي ترجم منها فيدمان سابقاً فصلاً آخر يتحدث فيه الكندي عن المد والجزر. ويعرض لطريقة الكندي في البحث فيقول إنه يأتي أولاً بالملاحظات التجريبية للوقائع وما يتعلق بها وتعرض بطريقة منظمة ثم يشرح جوهرها ثم يبحث عن أسبابها. ولا شك بأن هذه المنهجية علمية بامتياز.
(٢٠) الكندي، **رسالة في العلة الفاعلة للمد والجزر**، نسخة موجودة ضمن مجموع أياصوفيا رقم (AYASOFYA4832) (١٤٩ظ-١٥٧و) ص ١٥٥ظ.
(٢١) سزكين، فؤاد، **تاريخ التراث العربي (علم الفلك حتى نحو ٤٣٠ هـ)**، مجلد٦، ج١، ترجمة: عبد الله حجازي، جامعة الملك سعود، الرياض، ٢٠٠٨م، ص ٥٤.
(٢٢) سزكين، فؤاد، **تاريخ التراث العربي (أحكام التنجيم والآثار العلوية)**، ط١، المجلد ٧، ص ٣٦٩--٣٧٠.
(٢٣) الكندي، **رسالة في العلة الفاعلة للمد والجزر**، ص ١٥٣و.
(٢٤) المرجع السابق نفسه، ص ١٥٣و.
(٢٥) المرجع السابق نفسه، ص ١٥٥و.
(٢٦) المرجع السابق نفسه، ص ١٥٥و.
(٢٧) المرجع السابق نفسه، ص ١٥٥و.
(٢٨) كراتشكوفسكي، أغناطيوس، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، ج١، ص١٠٥.
(٢٩) أبو معشر البلخي، جعفر، **المدخل الكبير في علم أحكام النجوم**، مخطوطة المكتبة الوطنية، رقم (Arabe 5902)، ص ٣١و-٣١ظ.
(٣٠) المرجع السابق نفسه، ص ٣٢و-٣٢ظ.
(٣١) المرجع السابق نفسه، ص ٣٣ظ.
(٣٢) المرجع السابق نفسه، ص ٣٥ظ.
(٣٣) أبو معشر البلخي، جعفر البلخي، **المدخل الكبير في علم أحكام النجوم**، ص ٣٧و-٣٧ظ.
(٣٤) المرجع السابق نفسه، ص ٥٠و.
(٣٥) المرجع السابق نفسه، ص ٥٢ظ.
(٣٦) المرجع السابق نفسه، ص ٥٣ظ.
(37) Laird, Edgar S., Robert Grosseteste, Albumasar, and Medieval Tidal Theory, Isis, University of Chicago Press, Vol. 81, No. 4 (Dec., 1990), p. 684-685.
(38) Cartwright, David Edgar, Tides: A Scientific History, p. 16.
(39) Glick, Thomas F. (ed.). Marina Tolmacheva, Geography, Chorography. Medieval Science, Technology, and Medicine: An Encyclopedia. Routledge, 2014, p. 188.
(٤٠) البطروجي، نور الدين، **كتاب في الهيئة**، مخطوطة مكتبة الاسكوريـال، رقم (٩٦٣)، ص ١٧ظ-١٨و.
(41) Dales, Richard C., The Scientific Achievement of the Middle Ages, University of Pennsylvania Press, 1973. p. 73.
(42) Laird, Edgar S., Robert Grosseteste, Albumasar, and Medieval Tidal Theory, p. 687.
(٤٣) ابن ميمي البصري، عبد القادر، **يتيمة العصر في المد والجزر**، مخطوطة دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، رقم (ق ع ١١٠/ ٤٢٣)، ص ٣٣-٣٤.
(٤٤) لقد رجعنا إلى كتاب الإمام فخر الدين الرازي، الشهير (المباحث المشرقية في علم الإلهيات والطبيعيات)، ج٢، منشورات بيدار- قم، ط٢، ١٩٩٠م. ص ١٤٣. لكن للأسف كان المبحث الخامس المخصص لمناقشة سبب المد والجزر ناقصًا من هذه الطبعة. لذلك فإننا سنعتمد كليًا على ما أورده ابن ميمي من آراء للرازي تتعلق بتفسيره لظاهرة المد والجزر في البحار.
(٤٥) ابن ميمي البصري، عبد القادر، **يتيمة العصر في المد والجزر**، ص ٣٥-٣٦.
(٤٦) المرجع السابق نفسه، ص ٣٩.
(٤٧) المرجع السابق نفسه، ص ١٠١.
(٤٨) المرجع السابق نفسه، ص ١٠١.
(49) Cartwright, David Edgar, Tides: A Scientific History, p. 26.
(٥٠) ابن ميمي البصري، **عبد القادر، يتيمة العصر في المد والجزر**، ص ١١٧-١١٨.
(٥١) المرجع السابق نفسه، ص ١٥٦.
(٥٢) هوث، جون إدوارد، **الفن الضائع ثقافات الملاحة ومهارات اهتداء السبيل**، ترجمة: سعد الدين خرفان، سلسلة عالم المعرفة، العدد-٤٤١، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ٢٠١٦م، ص ١٣٨.
(53) Cartwright, David Edgar, Tides: A Scientific History, p. 6.
(54) Williams, Edgar, *Moon*, Reaktion Books Ltd, London, 2014, p. 108.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

التطبيق العملي للحقوق الاقتصادية في الدولة الزنكية
٥٢١ هـ/ ١١٢٧م - ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م

أ.م.د. غسان محمود وشاح
أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية
كلية الآداب – الجامعة الإسلامية
غزة – دولة فلسطين

هناء محمد عياش
باحثة في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية الآداب – الجامعة الإسلامية
غزة – دولة فلسطين

مُلَخّصْ

إذا كان اقتصاد دولة جيدًا فهذا مؤشر على أن حكام هذه الدولة قد نجحوا في إحداث نهضة اقتصادية في البلاد وضاعفوا الموارد، ما يعطي مساحة للدولة لتنفيذ مشاريع كبرى، مثل النهضة الحضارية والمعمارية وخوض الحروب من أجل حماية الحدود وتحرير المقدسات، والجدير أن أمراء الدولة الزنكية عملوا على تقوية اقتصاد الدولة بالتوازي مع الانطلاق في مشروع تحرير أراضي الإسلام، فقاموا بخطة متكاملة لتطوير اقتصاد الدولة تقوم على تشجيع الزراعة والتجارة والصناعة فقاموا بإلغاء الضرائب التي تثقل من كاهل الناس، وكفل الزنكيون حقوق الفلاحين والتجار والصناع، من أجل تنظيم الحياة الاقتصادية واتبعوا مبدأ العدل في جباية الضرائب، وركزوا على حماية الفلاحين وأراضيهم وقدمت الدولة الزكية الرعاية الكاملة والحماية للتُجار والصناع حتى تزدهر التجارة والاقتصاد بشكل عام. ترجع أهمية الدراسة إلى بيان المبادئ والقيم والأصول الإنسانية التي سارت عليها الدولة الزنكية، على الرغم من انشغالها بحروبها ضد الصليبيين. وبيان مدى اهتمام الدولة الزنكية بالحقوق الاقتصادية الواجب توافرها من قبل أي سلطة حاكمة. وقياس مستوى أداء الدولة الزنكية في تطبيق حقوق الإنسان كواقع عملي، من خلال سرد الروايات والمواقف التي حدثت زمن حكمهم. وقد اتبعت الدراسة المنهج التاريخي الوصفي التحليلي. قُسمت الدراسة إلى مقدمة وثلاث عناوين (أولاً: الحق في العدالة الضريبية. ثانيًا: الحق في حماية الفلاحين وأراضيهم الزراعية. ثالثًا: الحق في رعاية التجارة) وخاتمة ثم ثبت بالمصادر والمراجع.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٦	نوفمبر	٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر:	١٣	ديسمبر	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:
الزنكيون؛ نور الدين محمود؛ التاريخ الاقتصادي؛ العصور الوسطى؛ الفلاحين

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.219954

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
غسان محمود وشاح، هناء محمد عياش. "التطبيق العملي للحقوق الاقتصادية في الدولة الزنكية ٥٢١ هـ/ ١١٢٧م - ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الحادي والخمسون؛ مارس ٢٠٢١. ص ٥٠ – ٥٩.

Corresponding author: gwshah@iugaza.edu.ps
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Inquiries: info@kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

جاء الحكم الزنكي العالم الإسلامي منقسمًا مُتفرقًا، أكثر من نصف البلاد الشامية كانت قد وقعت تحت سيطرة الفرنج بسبب ضعف المسلمين، فكانت كل بلدة تمثل دولة، وكل قرية حكومة[١]، ناهيك عن الفتن والمؤامرات، فضعفت النفوس من أجل امتلاك السلطة، وضعف الإيمان والالتزام الديني، وعمت الفوضى العالم الإسلامي كله[٢]. في ذات الوقت الذي سقطت فيه المدن الإسلامية واحدة تلو الأخرى ظهر أول حكام الدولة الزنكية وهو عماد الدين زنكي[٣]، والذي تمكن من استرجاع العديد من الإمارات الإسلامية مع تأييد شعبي كبير له، فبدأ بمهاجمة ما استولى عليه الصليبيون[٤]، وتابع فتح باقي المدن نور الدين زنكي، فكان ظهور دولة آل زنكي بداية الصحوة الإسلامية بقوة وإخلاص[٥].

جاء الحكم الزنكي وكأنه قيادة ربانية جاءت لتنتشل المشرق الإسلامي من الضعف الذي حل به، فبعد موجات انهيار الحياة الاجتماعية لسنوات طويلة، وتأزم الأحوال الاقتصادية، بدأت الدولة الزنكية تركز جهودها على إعادة الحياة لطبيعتها، من خلال التركيز على الاهتمام على جميع جوانب الحياة العامة، ومن ضمنها الحياة الاقتصادية. على الرغم من أن الزنكيون شغلوا مدة حكمهم بالجهاد والحروب، إلا أنهم لم يهملوا حياة المدنيين من الناس، من خلال حماية الحقوق وخاصة الاقتصادية منها، فركز الحكام على تنظيم الحياة الاقتصادية واتباع مبدأ العدل في جباية الضرائب من الناس حتى لا تكون سبب في تراجع الاقتصاد، وركزوا على حماية الفلاحين وأراضيهم الذين كان لهم الدور الأبرز في زيادة الإنتاج، وقدمت الدولة الزكية الرعاية الكاملة والحماية للتُجار حتى تزدهر التجارة والاقتصاد بشكل عام.

أولاً: الحق في العدالة الضريبية

عنيت الأصول الدينية والشريعة الإسلامية بشؤون الضرائب والأموال، ووضعت الدول الإسلامية قواعد وقرارات وأنظمة وسياسة عادلة لاتباعها، بحيث يتم تحقيق العدالة بين جميع أفراد المجتمع. ففي جباية الضرائب من الناس حرمان واستيلاء على جزء من أموالهم، إلا إن كانت جبايتها لضرورة لا بد منها أي من أجل مصالح العامة، وتكون جبايتها بمقدار معين بحيث يُراعى في تحصيلها ما يُخفف عن الناس، مع توفر العدل والمساواة بين الجميع بأن تفرض حسب مقدرتهم[٦]. وحث النبي (ﷺ) على التخفيف من مقدار الضرائب عن الأمة حتى لا يصل الكسب من الناس إلى الفجور[٧]، وتوفرت الأدلة النبوية التي تؤكد ذلك ما رواه مسلم قال: "حجم أبو طيبة النبي (ﷺ)، فأمر له بصاع أو صاعين من طعام، وكلم مواليه فخفف عن غلته أو ضريبته"[٨].

ولقد أقر علماء الاقتصاد بفرض الضريبة على المال المتجدد والمستمر فتصبح الضريبة من ثمرة المال، وبالتالي لا تكون من عوامل نقص الأصل، ولا يجوز أن تؤخذ ثمرة المال كلها كضريبة فيشعر الإنسان بأنه يعمل لغيره فيقل نشاطه وإنتاجه[٩].

وأولت الدولة الزنكية الجانب الاقتصادي رعاية كبيرة، فالذي يُميز الزنكيون إبطالهم المكوس والضرائب عن البلاد الخاضعة تحت حكمهم، وانعكس إلغاء المكوس إيجابًا على نمو الاقتصاد وتقدمه، ومساهمة الناس في العمل بجد واجتهاد من خلال تطبيق حقوق العدالة الضريبية في المجتمع. والتزمت الدولة الزنكية بالأحكام الشرعية وما جاءت به السنة النبوية من أحاديث عن الضرائب، فقد عرض الأمير مسلمة بن مخلد[١٠] على رويفع[١١] أن يوليه العشور[١٢] فقال: إني سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: "إن صاحب المكس في النار"[١٣].

ولو عدنا إلى الذين حكموا البلاد سابقًا لوجدنا كثرة الضرائب والمكوس[١٤] في العهدين العباسي والفاطمي والتي أثقلت من كاهل الناس[١٥]، وما إن جاء الحكم الزنكي حتى أسقط الملك العادل نور الدين المكوس والضرائب[١٦]، وخاصة عن الموصل والبلاد التي قام بفتحها[١٧]، ومنع ما كان يؤخذ من المغارم في دمشق بدار البطيخ والكيالة[١٨] وسوق الغنم[١٩]، وسوق البقل وضمان النهر وغيرها[٢٠]، وألغى الضرائب التي كانت تؤخذ على الخمر[٢١][٢٢] ونهى عن شربها وعاقب عليها بالسجن[٢٣]، وراجع نور الدين رسوم المظالم والمؤن بنفسه في جميع البلاد الخاضعة له، فأزالها وعفى الناس منها[٢٤]، ولم يُبقي سوى الجزية والخراج[٢٥].

ولما ألغت الدولة الزنكية عن دار البطيخ وسوق البقل والنهر الضرائب خرجت جماعة تُحرض نور الدين زنكي على إعادة ما تم إبطاله من ضرائب عليهم، وأرسلوا عدة خطابات إلى نور الدين إلا أنهم لم يجدوا ردًا شافيًا يستهويهم، فتصرفوا بأنفسهم وضايقوا الناس وزادوا في خناقهم، وأصبحوا يفرضون الضرائب على الناس دون علم نور الدين، فاستغاث الناس بالملك نور الدين لوضع حد لما تفعله هذه الجماعة، فنظر في الأمر وأعاد ما أُخذ من الناس من ضرائب وزاد عليها تبرعًا من نفسه لهم، وأبطل ضريبة الهريسة والجبن، فأثنى عليه الناس ودعوا له بالخير[٢٦].

وقد جاء إلغاء الدولة الزنكية الضرائب في الوقت الذي حدثت فيه الزلازل[٢٧] في بلاد الشام والتي استمرت سبع سنين،

فشعر نور الدين زنكي أن جبايتها ستثقل من كاهل الناس وستزيد فوق همومهم همًا، فألغى مكوسًا مقدارها مائة وخمسون ألف دينار[٢٨]، وإن لم تكن الزلازل سببًا في إلغاء المكوس فيبدو أن نور الدين قد أبطلها لسبب ديني وهو حرمة المكوس، خاصة إن كانت الدولة في وضع اقتصادي جيد ومزدهر، وليست بحاجة لجبايتها. ويأتي إصرار الدولة الزنكية زمن نور الدين زنكي إلغاء المكوس بعد أن روى له موفق الدين خالد بن محمد بن نصر القيسراني[٢٩] رؤية رآها في منامه أنه يغسل ثياب نور الدين، وقص عليه رؤياه فأمر نور الدين بنشر خبر إبطال المكوس والضرائب عن كل البلاد، وقال له: هذا تأويل رؤيا المنام، وكتب إلى الناس يقول لهم: أن ما أُخذ منكم من ضرائب ومكوس سابقًا قد ذهبت لدفع بلاء الكفار عن أولادكم ونسائكم ولقتالهم ومنعهم من دخول بلاد المسلمين[٣٠]. وبعث نور الدين الفقهاء والوعاظ إلى التُجار ليستسمحهم عما أُخذ منهم من أموال وضرائب، ومن شدة ندمه أنه كان يدعو في سجوده: "اللهم ارحم المكاس العشار الظالم محمود"[٣١].

فكان حكام الدولة الزنكية يتصفون بالعدل والإنصاف في جباية الضرائب وهذا يتضح من خلال فرضها على الأغنياء دون الفقراء أو فرضها بكم أكبر على الأغنياء وقت الحاجة إليها وبعدل ودون إجهاد للناس. ومن ذلك: أرسل نور الدين زنكي صلاح الدين الأيوبي إلى عمه أسد الدين شيركوه يستشيره في أمر إبطال الضمانات والضرائب، فعاد صلاح الدين إلى نور الدين ومعه جواب أسد الدين شيركوه، والذي رفض إبطال المكوس مبررًا ذلك بأن أموال الضرائب التي تؤخذ تُصرف على الجنود والجيش، وإن لم تتوفر الأموال فلن نستطيع مواجهة الغزاة والأعداء، فعاد نور الدين وأرسل صلاح الدين مجددًا إلى عمه شيركوه يخبره جوابه والذي يقول فيه أنه إن كنا معولين على الضرائب للقتال فنقعد ولا نخرج، فرد عليه شيركوه إن تركك الغزاة تقعد فهذا جيد، وأصر شيركوه على رأيه فسمع منه نور الدين وترك أمر المكوس فترة، ثم عاد وألغاها[٣٢].

يتضح مما سبق؛ أن نور الدين في بداية حكمه كان قد أخذ ضرائب من الناس، إلا أنها كانت لضرورة ملحة كما ذكرنا لقتال الكفار ولما فيه مصلحة للدولة، وعندما استقرت الأوضاع أبطلها واستسمح الناس فيما أخذه منهم. ولو عدنا إلى فترة حكم قطب الدين مودود أخ نور الدين لوجدناه قد فرض ضرائب ومكوسا على الناس، ولكنها كانت ضرائب تأديبية ضرورية لا بد منها هدفها تهذيب الناس وردع كل من يرتكب خطأ، فكان قطب الدين يباشر جبايتها ويُصر عليها بدليل توبيخه لأحد عماله بإهماله الجنايات والغرامات التأديبية[٣٣]. وهناك سبب قوي ذكرته المصادر بأن السبب الرئيس في إبطال نور الدين زنكي المكوس هي الأبيات الشعرية التي ألقاها البُحتري، ويقول فيها[٣٤]:

مثل وقوفك أيها المغرور	يوم القيامة والسماء تمور
إن قيل نور الدين رحت مسلمًا	فاحذر بأن تدعى وما لك نور
أنهيت عن شرب الخمور وأنت من	كأس المظالم طافح مخمور
عطلت كاسات المدام تعففًا	وعليك كاسات المكوس تدور
ماذا تقول إذا نقلت إلى البلى	فردًا، وجاءك منكر ونكير
ماذا تقول إذا وقفت بموقف	فردًا ذليلاً والحساب عسير
وتعلقت فيك الخصوم وأنت في	يوم الحساب مسحب مجرور
وتفرقت عنك الجنود وأنت في	ضيق اللحود موسد مقبور
ووددت أنك ما وليت ولاية	يومًا، ولا قال الأنامُ أمير
وبقيت بعد العز رهن حفيرة	في عالم الموتى وأنت حقير
وحشرت عريانًا حزينًا باكيًا	قلقًا، ومالك في الأنام مجير
أرضيت أن تحيا وقلبك دارس	عافي الخراب وجسمك المغمور
أرضيت أن يحظى سواك بقربه	أبدًا وأنت مبعد مهجور
مهد لنفسك حجة تنجو بها	يوم المعاد لعلك المعذور

فلما سمع نور الدين هذه الأبيات بكى بكاء شديدًا، وأمر فورًا بإلغاء المكوس والضرائب عن كل البلاد الإسلامية التي تتبع الدولة الزنكية[٣٥]، فكانت هذه الأبيات الموجهة من البحتري إلى نور الدين بمثابة تذكرة وعظة له لتطبيق لتأمين حقوق الإنسان وتطبيقها في البلاد بما يخص العدالة الضريبية. وسار على ذلك عبر التاريخ شخصيات فيها من الورع والحكمة كما هي عند نور الدين زنكي، فقد ألغى ابن عمار[٣٦] مكوسًا إضافية فرضها عيسى بن نسطورس[٣٧] وزير الخليفة الفاطمي العزيز بالله، وخفف عن الناس ما كانوا به من ظلم جائر[٣٨].

ثانيًا: الحق في حماية الفلاحين وأراضيهم الزراعية

اعتنت الدولة الزنكية بطبقة الفلاحين وأراضيهم، فرعاية وحماية الفلاحين من واجبات الدولة ومن أبسط حقوقهم، فهي الفئة التي لها دور كبير وفعال في ازدهار وتقدم الجانب الاقتصادي. فإقرار حقوق الناس هي تربية وأخلاق، بدأت من المؤسس الحقيقي للدولة الزنكية آق سنقر، فهو أول من رفض الظلم لعامة الناس ومنهم الفلاحين، فرفض آق سنقر إطاعة تتش بن ألب أرسلان بعد وفاة أخيه ملكشاه على الرغم من أن تتش عين آق سنقر في منصب مرموق وأعطاه مكانة، إلا أنه خرج عن طاعته بسبب ظلمه للناس وسرقة جيشه أرزاق

وأقوات الفلاحين ومواشيهم، فلم يصمت آق سنقر أمام هذا الظلم فجهز جيشا بمساعدة بركيارق وحكام الموصل والرها والرحبة ووقعت في حلب المعركة الفاصلة(٣٩)، والتي انتهت بمقتل آق سنقر على يد تتش بن ألب أرسلان(٤٠). لقد ضحى آق سنقر بروحه من أجل نصرة الحق والضعفاء من الفلاحين، فهذه الحادثة بكل تأكيد علم بها أولاده وأحفاده من بعده كونها كانت سبب في مقتله، فجعلت الحكام الزنكيون من بعده يأخذون العبرة من هذه الرواية لرد الحقوق لأصحابها، ومنهم فئة الفلاحين.

وأما عماد الدين زنكي فأقر للفلاحين حقوقهم واعتنى بهم، ومن ذلك: أن عماد الدين كان حذرًا في السير في بساتينهم وأراضيهم، فعندما يسير هو وعساكره بين أراضي الفلاحين كان يسير في حذر شديد حتى لا يدوس أحد من جنوده على الزرع والنباتات، وكان لا يقبل أحد من عساكره أن يدوس هو أو فرسه على زرعة للفلاحين، أو أن يأخذوا من منتوجاتهم الزراعية إلا بدفع ثمنها وإن تجاوز أحدهم ذلك، عاقبهم بالصلب(٤١)، فأي اهتمام وأي حرص هذا الذي يجعل حاكم الدولة يُعاقب من يدوس أراضي الفلاحين بالصلب.

ومن أمثلة تطبيق حقوق الفلاحين في الدولة الزنكية، أن عماد الدين زنكي لم يتخلَّ عن الفلاحين الذين لا دخل لهم، فحماهم من الفقر ووفر للفلاحين العاطلين العمل في زراعة البساتين، وهذا يتضح من تعميره للبساتين الزراعية في الموصل لزراعة أشجار الفواكه، التي لم تكن تتوفر بسبب ندرة زراعتها حتى أصبحت الموصل أكثر البلاد وفرة بالفواكه(٤٢). ووصف ابن جبير معرة النعمان بحلب فقال: "هي سواد كلها بشجر الزيتون والتين والفستق وأنواع الفواكه ويتصل التفاف بساتيها وانتظام قراها مسيرة يومين وهي من أخصب بلاد الله وأكثرها أرزاقًا"(٤٣)، ووصف حماة فقال: مليئة بأشجار العنب والبساتين والمزارع الكثيرة(٤٤).

وامتازت أراضي وبساتين ومزارع الدولة الزنكية بخصوبة التربة، ووفرة مياه الأنهار والأمطار والآبار لري المزروعات، وحرصت الدولة على تأسيس شبكة قنوات توصل مياه الأنهار إلى الأراضي الزراعية التي بها مزروعات بحاجة إلى مياه أكثر من غيرها كقصب السكر والقطن وغيرها(٤٥). وكانت الدولة الزنكية تطبق حقوق الفلاحين من خلال توفير الأراضي للعمل بها وتأجيرهم بساتين دمشق زمن نور الدين زنكي، فكان هادئ الطبع في تعامله مع الفلاحين الذين يأخذون البساتين إيجارا، ففي أحد الأيام جاءه فلاح يشكو أنه قد أصابه الضرر في أحد البساتين فأمر نور الدين بأن يُسقط عنه نصف المبلغ من الإيجار(٤٦). يتضح من ذلك مدى الثقة بين نور الدين والفلاحين، فوثق بالرجل الفلاح، ولم يُرسل أحدا من خدمه ليتأكد إن كان حقًا قد أصاب البستان الضرر أم لا، وأمر فورًا بإسقاط نصف المبلغ من الإيجار، يبدو أن نور الدين كان يهدف من طريقة تعامله تشجيع الفلاحين على العمل بجد حتى يصل إلى طريق الازدهار بالزراعة من خلال الاهتمام بالفلاحين.

ومن نتائج اهتمام الدولة الزنكية بالفلاحين ومزارعهم أصبحت أسعار المزروعات قبل وفاة عماد الدين رخيصة جدًا لكثرتها، فكانت الحنطة بستة مكايك بدينار، والشعير اثنا عشر مكوكًا بدينار، والعدس أربع مكايك بدينار، والقطن ستون رطلاً بدينار(٤٧). معنى ذلك أن مع زيادة اهتمام الدولة الزنكية بالفلاحين أصبحوا يعملون بجد وبالتالي زاد الإنتاج وتوفرت المزروعات بثمن زهيد يناسب ظروف المجتمع والناس الفقراء، وفي المقابل حافظت الدولة الزنكية على أجور وأرزاق الفلاحين دون إهدار لأتعابهم. إلا أن الأسعار ارتفعت قليلاً في عهد نور الدين زنكي عن عهد والده عماد الدين بسبب زيادة عدد السكان في البلاد التي جاءوا من خارجها لشدة إعجابهم بسياسة وعدل نور الدين فمكثوا في البلاد التي يحكمها، فكان الإنتاج كبيرًا، وفي ذات الوقت زاد الطلب من السكان، ولذا ارتفعت الأسعار، وما أن توفي نور الدين حتى رحل الناس من البلاد، ولقلة الطلب رخُصت الأسعار مجددًا فأصبحت الحنطة بمكوك ونصف دينار، والشعير مكوكان ونصف بدينار، والعدس مكوك ونصف بدينار، وغيرها الكثير من المزروعات التي انخفض ثمنها(٤٨).

ومن حقوقهم أن أمر نور الدين باحترامهم وعدم العبث بأراضيهم، وأوصى بهم وبالإحسان إليهم والرأفة والتخفيف عنهم، ففرح الفلاحون بذلك ودعوا له بسبب اهتمامه الكبير بأوضاعهم. من ذلك أن الغيث قد انقطع الغيث عن الناس في حوران والغوطة وغيرها من المدن، وزاد الحال سوءًا مما أدى إلى رحيل الكثير من الناس عن هذه المدن،(٤٩) ومع وصول نور الدين إلى بعلبك نزلت الأمطار على الناس، ففرح الفلاحون وسُقيت أراضيهم ومزارعهم، وامتلأت البرك في حوران وجرت الأودية والأنهار بعد جفافها، وعاد الزرع والنبات يصحو من جديد، فاستبشروا خيرًا بنور الدين وقالوا هذا ببركة هذا الملك العادل(٥٠).

وعندما وصلت الأخبار لنور الدين بأن الفرنج يُفسدون أراضي الفلاحين في حوران وينهبون أموالهم استعد وتجهز لقصدهم، وأرسل إلى حاكم دمشق مجير الدين الذي كان يساند الصليبين

ويساندونه قائلاً: أنه لم يأتِ لمحاربته، وإنما جاء بسبب كثرة شكاية المسلمين من الفلاحين سلب الفرنج أموالهم وخربوا أراضيهم وسبوا نسائهم وأطفالهم، ولا ناصر لهم وللمسلمين سوى نور الدين بعد الله تعالى، وطلب من مجير الدين العون والمدد وتجهيز ألف فارس لقتال الفرنج إلا أنه رفض طلب نور الدين وأجابه قائلاً: " بيني وبينك السيف وإن اقتربت سأجد الصليبيين في مساندتي[٥١]، فقرر نور الدين مواجهة الفرنج بنفسه إلا أن رحمة الله حالت دون ذلك فنزلت الأمطار وامتنع نور الدين عن القتال وكأن الله تعالى أرسل هذه الأمطار للحفاظ على دماء المسلمين[٥٢].

ولم يقبل نور الدين زنكي أن يُهان الفلاحون وأملاكهم وأراضيهم بسبب نائبه أسد الدين شيركوه، والذي كان يأخذ أملاكهم وقراهم وأموال مجهودهم في مزارعهم، ولم يقبل ظلم نواب أسد الدين للفلاحين دون أي رادع، فلما أنشأ نور الدين دار العدل لهذا السبب[٥٣]، راجع أسد الدين شيركوه نفسه وعلم بالخطأ الذي وقع فيه، وتحدث إلى نوابه وموظفيه ونصحهم بأن لا يتعدى أحد على قرى وأملاك الفلاحين حتى لا يصفنا أحد بالظلم، وقال لهم نادمًا إن زوال مالي أحب من أن يراني نور الدين ظالمًا للعباد، أو أن أقف أمام خصمي من عامة الناس، فلم يتجرأ أحد بعد ذلك على المساس بشيء يخص الفلاحين وأملاكهم، وعندما سأل نور الدين القاضي على دار العدل عن عدم تقديم أي شكاوى عن أسد الدين أخبره بالحال، فسجد نور الدين شاكرًا لله على إنصاف نوابه للفلاحين ولعامة الناس[٥٤].

ولم يكن فتح الدولة الزنكية للمدن والبلاد التي استولى عليها الفرنج لغرض الاستيلاء والسيطرة فقط، بل هناك أسباب أخرى يُمكن أن تعود بالخيرات على البلاد الإسلامية وخاصة الخاضعة للدولة النورية، فعندما فتح نور الدين منبج كان يعلم روعة أراضيها وخصوبة تربتها، وأنها مليئة بالأشجار المزهرة المثمرة، ومياهها عذبة وفيرة، وأسواقها عامرة فسيحة، وتجارتها دائمة قائمة[٥٥]. فوجود مزيد من البساتين والأراضي يعني أن الدولة بحاجة لعمال وفلاحين لزراعتها، وبالتالي زيادة الإنتاج، وإن زيادة الإنتاج تسهم في القضاء على الفقر، وتؤدي إلى تقدم في الجانب الاقتصادي من الناحية الزراعية والتجارية. فمع الحاجة لأيدٍ عاملة فتح الازدهار الزراعي باب توفر فرص العمل أمام العاطلين عن العمل من الغرباء وعامة الناس الذين عاشوا في الدولة الزنكية، والذين لا أهل ولا مأوى لهم للعمل في البساتين والأراضي الزراعية[٥٦]. فالبلاد التي افتتحتها الدولة الزنكية بها من الخيرات والأرزاق والمميزات ما لا تحصى، وكانت على يقين بأنها ستنتج شتى أنواع المحاصيل والمزروعات والأشجار، بالإضافة إلى المياه الوفيرة العذبة.

ثالثًا: الحق في رعاية التجارة

إن العمل من سنن الحياة لضمان بقاء الإنسان واستمراريته، والتجارة من جملة هذه الأعمال، فقد حث القرآن الكريم على العمل بالتجارة في قوله تعالى: لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ[٥٧]، وخير مثال على ذلك نبينا محمد عليه السلام، فقد كان نموذجًا في الجد والعمل لكسب لقمة العيش، فكان النبي (ﷺ) تاجرًا صادقًا أمينًا، وبدأ تجارته مع خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فذهب النبي (ﷺ) بأموالها إلى الشام وباع واشترى وعقد الصفقات التجارية وحقق كسبًا حلالاً وأرباحًا وفيرة[٥٨]، وذات يوم سأل أحدهم النبي (ﷺ): أي الكسب أطيب، فقال: "عمل الرجل بيده، وكل بيع مبرور"[٥٩]. فالتجارة هي ما تنتجه دولة أو مدينة ما ويكون فائض عن حاجتها[٦٠]، فتستغل الدولة الفائض وتقوم بتصديره إلى خارج البلاد والمناطق المجاورة.

لقد اقتدت الدولة الزنكية بما جاء في كتاب الله تعالى، وسنة نبيه بتحسين حال الإنسان بالعمل والكسب الحلال من خلال التجارة، وقد لعبت التجارة دورًا أساسيًا في تشكيل الحياة الاقتصادية[٦١]. وتقدمت التجارة وازدهرت في عصر الزنكيون[٦٢]، ونتيجة لذلك أصبحت الدولة قوية، وأي دولة يقال بأنها قوية بديهيًا نفهم بأن اقتصادها حيوي مزدهر على المستوى الزراعي أو التجاري أو الصناعي. وكان الناس في العهد الزنكي أكثر علمًا ووعيًا وإبداعًا، فأصبحوا بحاجة إلى مواد التصنيع للصناعة، فوفرت الدولة الزنكية المواد الخام ووفرت العمال المهرة ذوي الكفاءة العالية، فأنتجوا صناعات كثيرة، منها منسوجات قطنية وحريرية وصوفية، وازدهرت صناعة الورق والزجاج وغيرها[٦٣]. يبدو أنه لم تكن تتوفر الآلات الضخمة الحديدية التي تُنتج الصناعات الأكثر ثقلاً، فاقتصرت الدولة في صناعاتها على ما تنتجه الآلات البسيطة التي كانت متوفرة.

واهتمت الدولة الزنكية بتطبيق حقوق التجار في البلاد، فشجعت التجارة، ورعت التُجار وحقوقهم، وكانت يخشى عليهم الخطر والضرر، ومن ذلك: عندما استولى الفرنج على مراكب التجار التي خرجت من مصر والشام إلى اللاذقية، لم يصمت نور الدين بل راسلهم وحذرهم وأعطاهم الفرصة لإعادة ما سرقوه من التُجار إلا أن الفرنج رفضوا، فتحرك نور الدين وجمع عساكره

واتجه نحو الفرنج فحاصرهم، وأخذ المراكب عنوة وزيادة عليها، واغتنم المسلمون مراكب أخرى، وخربوا ودمروا وحرقوا ممتلكات الفرنج فراسلوا نور الدين وطالبوه بالتوقف عن التدمير والتخريب وأنهم سوف يُعيدون ما أخذوه من أموال من التجار المسلمين[٦٤].

لقد كانت تجارة الدولة الزنكية تتم عبر موانئ شرق البحر المتوسط الصليبية، فعمل نور الدين على الحفاظ على سلامة الطرق التجارية، والتي هي من سلامة التجار فأراد أن يحافظ عليهم وعلى أرواحهم من خطر الصليبيين، وخاصة بين دمشق وشمال فلسطين، باعتبارها حلقة وصل مهمة على السواحل الشامية النشطة، لذلك لم يكن صراع نور الدين مع الصليبيين صراعًا على الدين فقط، بل على جوانب أخرى مهمة، منها حفظ التجارة وحقوق التجار وخاصةً حقهم في الأمن والحماية[٦٥]، فالمصالح التجارية هي التي كانت تحدد العلاقة بين الدولة الزنكية والصليبيين، وخاصة أنه كانت هناك بعض العلاقات التجارية بين المسلمين والصليبيين في مملكة بيت المقدس[٦٦].

وفي يوم من الأيام حضر جماعة من التجار يشتكون إلى حاكمهم نور الدين خسارتهم في ظل استمرار ارتفاع أسعار القراطيس، والتي كان الستون منها بدينار، فأصبح السبعة وستون بدينار، فاستفسر نور الدين عن الأمر فأشار عليه بعض أصحابه أن يضرب عملة باسمه لكي تساهم في حل المشكلة، وبالتالي تُبطل المعاملة بالقراطيس، فرفض نور الدين ذلك وقال إن ضربت عملة الدينار ستُخرب بيوت كثير من التُجار الذي يملكون آلاف القراطيس، فماذا يفعلون بها لو ضربت عملة الدينار باسمي[٦٧]. هنا يظهر مدى اهتمام حكام آل زنكي بحقوق التجار من خلال الاستماع لهم وعلاج مشاكلهم بما يُرضيهم، فلهم بعد الله تعالى الفضل الكبير في ازدهار وإنعاش التجارة والاقتصاد في الدولة، فلو أُهملوا حتمًا ستضعُف قوة الدولة وستزداد الأحوال سوءًا وخاصة بين أفراد المجتمع وما يعقبها من فقر وفساد وجرائم.

وفي حادثة وقعت بحضرة القاضي تاج الدين الكردري[٦٨]، أنه جاء تاجر يشكو حاكمه نور الدين زنكي، وكان عند الكردري غلام يُدعى سويدًا مهمته إحضار المتهمين والخصوم إلى جلسة الحكم، فأرسل القاضي سويدًا لاستدعاء نور الدين، وكان سويدًا مُحرجًا كيف يقوم بإخبار الحاكم نور الدين بأن له خصما وجلسة حكم بانتظاره، فذهب إلى الميدان مكان تواجد نور الدين وإذ بإسماعيل الخزندار خادم نور الدين يخرج من عنده، فأخبره بأن يُخبر نور الدين بأن تاجرًا جاء يشكو منه وعليه حضور جلسة الحكم، فضحك إسماعيل الخزندار ودخل إلى نور الدين ضاحكًا يخبره، فرد عليه نور الدين بغضب وكيف تستهزأ من طلبي لجلسة الحكم، فأمر فورًا بإحضار فرسه وركبه وقال السمع والطاعة، ولما وصل قال نور الدين لسويد: "أخبر القاضي بأني وصلت امتثالاً وتلبية لأمر الشرع"، فالتقى نور الدين بالتاجر وأصلح الأمر معه ولم يُخرجه من مجلس الحكم إلا وهو راضٍ[٦٩].

ومن حقوقهم أن بُنيت في العصر الزنكي الخانات الكثيرة في جميع الطرقات[٧٠]، فأمن التُجار على أموالهم وبضاعتهم، وكانت الخانات ملجأ ومأوى لهم في سفرهم وتنقلهم بين المدن والبلدان، تحميهم من حر الصيف وبرودة الشتاء وقطاع الطرق والأخطار التي تواجههم في مهنتهم الصعبة[٧١]. وكانت الخانات تُقدم للتُجار كل ما يلزم من طعام وشراب، وتوفر لهم سُبل الراحة من لحظة مكوثهم حتى مغادرتهم الخان.

ومن حقوقهم أن اعتنت الدولة الزنكية بإنشاء وعمارة الأسواق[٧٢] لأهميتها التجارية وعملت على توسيعها[٧٣]، وما خُرب منها بفعل الزلازل في حلب[٧٤]، وكانت أسواق دمشق غاية في الحُسن والبهاء والنظام، خاصة قيساريتها: وهي مرتفعات كالفنادق ولكنها ليست فنادق، وأبوابها حديدية ضخمة كأبواب الملوك والقصور[٧٥]، ويوجد السوق الكبير في دمشق وفيه بيت صغير يتخذه التجار والباعة للصلاة فيه، وفي اتجاه قبلته يوجد حجر قيل بأن إبراهيم عليه السلام كان يكسر عليه الآلهة التي كان يأتي بها والده ليبيعها في السوق[٧٦].

وألحقت الدولة الزنكية بالأسواق الحمامات[٧٧]، فبُنوا أكثر من مائة حمام[٧٨]، منها حمام نور الدين الجديد في سوق القمح[٧٩]، وحمام درب النخلة وغيرها الكثير[٨٠]. فهذه الحمامات كانت محطة لراحة التُجار القادمين من خارج البلاد بعد عناء ومشقة الطريق، ويمكن أن تكون الحمامات مكانًا لعقد الصفقات التجارية بين التجار. فالأسواق لها أهمية كبيرة في العمليات التجارية من خلال عرض السلع من قِبل التجار وطلبها من الناس، فالاهتمام بإنشاء الأسواق أعطى التُجار فرصة ليعملوا في مهنة التجارة باجتهاد في ظل تواجد أسواق سهلت عليهم بيع السلع.

ولشدة اهتمام الزنكيون بطبقة التجار، أرسل لهم نور الدين زنكي الفقهاء والوعاظ ليسامحوه عما أخذ منهم من أموال وضرائب، ومن ندمه على أخذه الضرائب في بداية حكمه لضرورة الجهاد، وكان يدعو في سجوده: "اللهم ارحم المكاس العشار الظالم محمود"[٨١]. فخشيّ نور الدين أن تبقى في قلب أحد التجار ولو ذرة حقد عليه، فتواضع لهم وطلب السماح منهم بواسطة

الوعاظ الذين أرسلهم. ومن نتائج إقرار الحقوق للتجار أن نشطت حركة التجارة بين المدن والبلاد الأخرى، فكان الطبيب جمال الدين الرحبي تاجرًا يذهب ببضاعته من البلاد الشامية إلى مصر[٨٢]، ويعود من مصر ومعه المنتوجات والبضاعة المصرية ويأتي بها إلى دمشق[٨٣].

وعلى الرغم من أن الرحبي يعمل طبيبًا في البيمارستان النوري إلا أن مهنته لم تمنعه من إقباله على العمل في التجارة، ليدل ذلك على احترام وتقدير وحماية الدولة الزنكية للتجارة وحقوق التجار، ولو كان التجار مضطهدون لحدث عكس ذلك، واقتصر الرحبي في مهنته على الطب دون التجارة. إن اهتمام الدولة الزنكية بالتجارة والتجار شجع الصناع والحرفيين على الإبداع والابتكار، وأسهم في الحد من الفقر والبطالة من خلال توفر فرص عمل، وتبادل الثقافات بين الدول والشعوب أثناء عبور التجار الدول والمدن والتنقل بها، وساعد اهتمام الزنكيون بحقوق التجار في تقدم التجارة وما يتبعها من زراعة وصناعة كون التجارة تُعَدّ عاملاً أساسيًا ومهمًا في ازدهار الزراعة والصناعة.

خَاتِمَةٌ

توصلت الدراسة إلى عدد من النتائج، أهمها:

- تطبيق حقوق الإنسان مسئولية الدولة الحاكمة، وقد أوصى الله تعالى وحث النبي محمد (ﷺ) بضرورة إرساء الحقوق الإنسانية، والتعامل مع الجميع في الدولة دون تمييز.
- أدى إلغاء نور الدين زنكي المكوس والضرائب إلى فرض الحقوق الضريبية العادلة في المجتمع، ونمو في الحياة الاقتصادية والزراعية والصناعية والتجارية.
- إقرار الحقوق الاقتصادية هو حق أساسي ومهم من حقوق الإنسان، والذي يترتب عليه العدل والمساواة بين جميع أفراد المجتمع.

الاحالات المرجعية:

(١) الطنطاوي، علي، **رجال من التاريخ، (١٩٩٨م)**: ط١، مصر: دار البشير-جدة: دار المنارة. (ج٢/ص٧٢).

(٢) قطب، محمد علي، **من أبطال الفتح الإسلامي، (٢٠٠٦م): أبطال الفتح الإسلامي**، ط١، الإسكندرية: دار الدعوة، (ص١٠١-١٠٢).

(٣) انظر: طقوش، محمد سهيل، **تاريخ الحروب الصليبية (حروب الفرنج في المشرق)**، (٢٠١١م): ط١، (د.م)، دار النفائس. (ص٢٦٧).

(٤) فريد بك، وآخرون، **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، (١٩٨١م): ط١، تحقيق: إحسان حقي، بيروت، لبنان: دار النفائس. (ص٧٣).

(٥) باقر، وآخرون، **الحروب الصليبية**، (د.ت): (د.ط)، (د.م)، مجلة الهجرة. (ص٢٣).

(٦) خلاف، عبد الوهاب، **السياسة الشرعية في الشئون الدستورية والخارجية والمالية**، (١٩٨٨م): السياسة الشرعية في الشئون الدستورية والخارجية والمالية، (د.ط)، (د.ت)، دار القلم، (ص١١٧).

(٧) ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل(١٣٧٩هـ): **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، (د.ط)، بيروت: دار المعرفة، (ج٤/ص٤٥٨).

(٨) البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي (١٤٢٢هـ): **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله (ﷺ) وسننه وأيامه** = صحيح البخاري، ط١، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، (د.م)، دار طوق النجاة، (ج٣/ص ٩٣).

(٩) خلاف، **السياسة الشرعية في الشئون الدستورية والخارجية والمالية**، (ص ١١٧).

(١٠) **مسلمة بن مخلد**: هو مسلمة بن مخلد الصمات الأنصاري الخزرجي الزرقي، سمع الأحاديث عن رسول الله (ﷺ)، وشهد فتح مصر، وتولى قيادة الجيش في عهد معاوية وابنه يزيد، وهو من الأربعة الذين أمد بهم عمر بن الخطاب عمرو بن العاص؛ انظر: ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (١٩٩٢م): ط١، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، (ج٦/ص١٠)؛ ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل (١٤١٥هـ): **الإصابة في تمييز الصحابة**، ط١، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، بيروت- دار الكتب العلمية، (ج٦/ص٩١)؛ مغلطاي بن قليج بن عبد الله البكجري المصري الحكري الحنفي، أبو عبد الله، **إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، (٢٠٠١م): ط١، تحقيق: أبو عبد الرحمن عادل بن محمد، وأبو محمد أسامة بن إبراهيم، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر. (ج١١/ص١٩٢).

(١١) **رُويفع**: هو رويفع بن ثابت الأنصاري النجاري، نزل مصر وسكنها وشهد فتحها، وولاه معاوية بن أبي سفيان على طرابلس وأمره بغزو أفريقية، وأسلم وصحِب النبي (ﷺ) وروى عنه الأحاديث؛ انظر: البغوي، أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن المَرْزُبان بن سابور بن شاهنشاه،

معجم الصحابة، (٢٠٠٠م): ط١، تحقيق: محمد الأمين بن محمد الجكني، الكويت: مكتبة دار البيان، (ج٢/ص٣٧٧)؛ ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي، الثقات، (١٩٧٣م): ط١، الهند: طبعته: وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية، ونشرته: دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند، (ج٣/ص١٢٦)؛ الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، (٢٠٠٣م): ط١، تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، (د.م)، دار الغرب الإسلامي. (ج٢/ص٤٠٧)؛ ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي، **الطبقات الكبرى**، (١٩٩٠م): ط١، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، (ج٤/ص٢٦٢)؛ السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين، **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، (١٩٦٧م): ط١، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر: دار إحياء الكتب العربية. (ج١/ص١٩٩)؛ مغلطاي، **إكمال تهذيب الكمال**، (ج٥/ص١٤).

(١٢) **العشور**: من النقصان أي نقصان الأموال، جمع عشر، وهي ما تؤخذ من أموال التجارة، والعشور تؤخذ من غير المسلمين من اليهود والنصارى؛ الزبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، **تاج العروس من جواهر القاموس**، (١٤١٤هـ): ط١، بيروت: دار الفكر، (ج٧/ص٢٢٣)؛ ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقي، **لسان العرب**، (١٤١٤هـ): ط٣، بيروت: دار صادر، (ج٤/ص٥٧٠).

(١٣) ابن النحاس، محيي الدين أبو زكريا أحمد بن الدمشقي، **تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين وتحذير السالكين من أفعال الجاهلين**، (١٩٨٧م): ط١، تحقيق: عماد الدين عباس سعيد، بيروت – لبنان: دار الكتب العلمية، (ص٢٧٦).

(١٤) **المكوس**: هي الضرائب التي يأخذها الماكس من الناس وخاصة التُجار، والماكس هو العشار الذي يأخذ عُشر منتوج التاجر من تجارته، أي أن فيها نقصان الثمن وأخذ أموال الناس بظلم؛ ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، مسند الإمام أحمد بن حنبل، (٢٠٠١م): تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، ط١، مؤسسة الرسالة، (ج٣٨/ص٤١)؛ ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، **سنن ابن ماجة**، (د.ت): (د.ط)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (د.م)، دار إحياء الكتب العربية، (ج٢/ص١٢٢٥)؛ مسلم، بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله (ﷺ)**، (د.ت): **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله (ﷺ)**، (د.ط)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي. (ج٣/ص١٢٢١).

(١٥) كرد علي، محمد كرد، **خطط الشام**، (١٩٨٣م): ط٢، دمشق: مكتبة النوري. (ج٥/ص٦٣).

(١٦) ابن قاضي شهبة، بدر الدين، **الكواكب الدرية في السيرة النبوية**، (١٩٧١م): ط١، تحقيق: محمود زايد، بيروت – لبنان: دار الكتاب الجديد. (ص١٦).

(١٧) ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية**، (د.ت): تحقيق: عبد القادر طليمات، القاهرة: دار الكتب الحديثة، بغداد: مكتبة المثنى. (ص١٥٤).

(١٨) النعيمي، عبد القادر بن محمد، **الدارس في تاريخ المدارس**، (١٩٩٠م): ط١، تحقيق: إبراهيم، (د.م)، دار الكتب العلمية. (ج١/ص٤٦٧).

(١٩) كرد علي، **خطط الشام**، (ج٥/ص٦٣).

(٢٠) العفاني، سيد بن حسين، **صلاح الأمة في علو الهمة**، (د.ت): (د.ط)، (د.م)، مؤسسة الرسالة. (ج٦/ص١٣٣).

(٢١) النعيمي، **الدارس في تاريخ المدارس**، (ج١/ص٤٦٧).

(٢٢) أي أنه ألغى الضريبة التي كانت تؤخذ من التجار الذين يُتاجرون بالخمر لأنها محرمة، الخمر نفسه محرم، وألغى التجارة بالخمر، وأكد النبي(ﷺ) ذلك بأحاديثه عن حرمة تجارة الخمر؛ **صحيح البخاري**، (ج١/ص٩٩).

(٢٣) ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله، **تاريخ دمشق**، (١٩٩٥م): تحقيق: عمرو بن غرامة العمري، (د.ط)، (د.م)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. (ج٥٧/ ص١٢٠).

(٢٤) ابن العديم، عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي كمال الدين، **زبدة الحلب في تاريخ حلب**، (١٩٩٦م): ط١، بيروت – لبنان، دار الكتب العلمية. (ص٣٥٤).

(٢٥) الأصفهاني، الفتح بن علي، سنا البرق الشامي، (١٩٧٩م): تحقيق: فتحية النبراوي، (د.ط)، مصر: مكتبة الخانجي. (ص٢٦)؛ النعيمي، **الدارس في تاريخ المدارس**، (ج١/ ص٤٧٠).

(٢٦) أبي شامة، أبو القاسم شهاب الدين، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، (١٩٩٧م): تحقيق: إبراهيم الزيبق، ط١، بيروت: مؤسسة الرسالة. (ص٣٧٩-٣٨٠).

(٢٧) الأصفهاني، **سنا البرق الشامي**، (ص٤٧).

(٢٨) ابن العديم، **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، (ص٣٣٩).

(٢٩) **موفق الدين القيسراني**: هو خالد بن موفق بن نصر بن صغير الرئيس موفق الدين أبو البقاء الكاتب البارع المخزومي الخالدي الحلبي بن القيسراني، والذي تم تعيينه وزيرًا للسلطان نور الدين محمود زنكي، واشتهر ببارعته في الكتابة، وكان أصل وأساس سعادة عائلته وشهرتها؛ الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله، **الوافي بالوفيات**، (٢٠٠٠م): (د.ط)، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، بيروت: دار إحياء التراث. (ج١٣/ص١٧٢).

(٣٠) ابن قاضي شهبة، **الكواكب الدرية في السيرة النبوية**، (ص٤٣-٤٤).

(٣١) أبي شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، (ص٥٤)؛ ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية في السيرة النبوية، (ص٤٣)؛ ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، **البداية والنهاية**، (١٩٨٦): (د.ط)، (د.م)، دار الفكر. (ج١٢/ ص ٣٤٧).

(٣٢) أبي شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، (ص٦٧)؛ ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية في السيرة النبوية، (ص٤٣).

(٣٣) ابن الأثير، **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية**، (ص١٤٧).

(٣٤) ابن قاضي شهبة، **الكواكب الدرية في السيرة النبوية**، (ص٤١-٤٢).

(٣٥) ابن كثير، **البداية والنهاية**، (ج١٢/ص٢٨٢).

(٣٦) **ابن عمار**: هو أبو محمد الحسن بن عمار بن أبي الحسن الكلبي من بني أبي الحسب، لُقب بأمين الدولة، وهو أحد أمراء صقلية، وأحد شيوخ كتامة؛ المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، (١٤١٨هـ): ط١، بيروت: دار الكتب العلمية. (ج٣/ص ٦٨).

(٣٧) **عيسى بن نسطورس**: عينه الخليفة الفاطمي العزيز بالله وزيرًا، وكان مسيحيًا، وكان ذو حزم وقوة وصبر، إلا أنه كان متحيزًا للنصارى فعينهم على الوظائف وأهمل المسلمين، فاعترض المسلمين على سوء معاملته، فقبض عليه وأُعيد المسلمين إلى وظائفهم؛ ابن القلانسي، حمزة بن أسد بن علي بن محمد، أبو يعلى التميمي، **تاريخ دمشق لابن القلانسي**، (١٩٨٣م): ط١، تحقيق: د سهيل زكار، دمشق: دار حسان للطباعة والنشر. (ج١/ص٥٦).

(٣٨) الأنطاكي، يحيى بن سعيد بن يحيى، **تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتيخاء**، (١٩٩٠م): (د.ط)، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، طرابلس – لبنان: جروس برس. (ص٢٣٨).

(٣٩) ابن العديم، **بغية الطلب في تاريخ حلب**، (ج٤/ص١٩٥٦-١٩٥٧).

(٤٠) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، (١٩٩٤م): تحقيق: إحسان عباس، ط١، بيروت: دار صادر. (ج١/ص٢٤١).

(٤١) ابن العديم، **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، (ص٣٢٧).

(٤٢) ابن الأثير، **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية**، (ص٧٨).

(٤٣) ابن جبير، محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، أبو الحسين، **رحلة ابن جبير**، (د.ت): ط١، بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر. (ص٢٢٩).

(٤٤) المصدر السابق، (ص٢٣١).

(٤٥) عوض، محمد مؤنس أحمد، **في الصراع الإسلامي الصليبي السياسة الخارجية للدولة النورية**، (١٩٩٨م): ط١، مصر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. (ص٤٢).

(٤٦) ابن قاضي شهبة، **الكواكب الدرية في السيرة النبوية**، (ص٦٥).

(٤٧) ابن العديم، **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، (ص٣٢٨).

(٤٨) المصدر السابق، (ص٣٥٨).

(٤٩) أبي شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، (ج١/ ٢٣٩-٢٤٠).

(٥٠) ابن قاضي شهبة، **الكواكب الدرية في السيرة النبوية**، (ص١٣٤).

(٥١) قطب، من أبطال الفتح الإسلامي، (ص١١٤).

(٥٢) أبي شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، (ج١/ ٢٤٠-٢٤١)؛ ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية في السيرة النبوية، (ص٣٤-٣٥).

(٥٣) النعيمي، **الدارس في تاريخ المدارس**، (ج١/ص ٤١٩).

(٥٤) ابن كثير، **البداية والنهاية**، (ج١٢/ص٣٤٦).

(٥٥) الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، (١٩٨٠م): ط٢، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: مؤسسة ناصر للثقافة. (ص ٥٤٧).

(٥٦) **رحلة ابن جبير**، (ص٢٥٠).

(٥٧) **سورة النساء**، (الآية ٢٩).

(٥٨) البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجِردي الخراساني أبو بكر، **دلائل النبوة**، (١٩٨٨م): ط١، تحقيق: عبد المعطى قلعجى، (د.م)، دار الكتب العلمية، ودار الريان للتراث. (ج٢/ص٦٦).

(٥٩) الإسماعيلي، أبو بكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل، **المعجم في أسامي شيوخ أبي بكر الإسماعيلي**، (١٤١٠هـ): ط١، تحقيق: زياد محمد منصور، المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، (ج٢/ص٦٤٣)؛ ابن البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق، مسند البزار، **المطبوع باسم البحر الزخار**، (د.ت): ط١، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، وعادل بن سعد، وصبري عبد الخالق الشافعي، المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، (ج٩/ص١٨٣)؛ ابن الخلال، أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد البغدادي الحنبلي، **الحث على التجارة والصناعة والعمل والإنكار على من يدعي التوكل في ترك العمل والحجة عليهم في ذلك**، (١٤٠٧هـ): ط١، تصنيف: أبو عبد الله محمود بن محمد الحداد، الرياض – السعودية: دار العاصمة. (ص ٦٦)؛ ابن أبي شيبة، أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي، **الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار**، (١٤٠٩م): ط١، تحقيق: كمال يوسف الحوت، الرياض: مكتبة الرشد. (ج٤/ص٥٥٥)؛ الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد أيوب بن مطير اللخمي الشامي، **المعجم الكبير**، (١٩٨٣م): ط٢، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، (د.م)، دار إحياء التراث العربي، (ج٤/ص٢٧٦)؛ الرافعي، عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم، أبو القاسم الرافعي القزويني، **التدوين في أخبار قزوين**، (١٩٨٧م): تحقيق: عزيز الله العطاردي، (د.م)، دار الكتب العلمية، (ج١/ص٤٤٩).

(٦٠) ديورانت، ويليام جيمس، **قصة الحضارة**، (١٩٨٨م): (د.ط)، ترجمة: الدكتور زكي نجيب محمُود وآخرين، بيروت – لبنان: دار الجيل، تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. (ج٧/ص٥٤).

(٦١) عبد الوهاب، لطفي، **العرب في العصور القديمة**، (د.ت): ط٢، (د.م)، دار المعرفة الجامعية. (ص٣٠٦).

(٦٢) الكيلاني، ماجد عرسان، **هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس**، (٢٠٠٢م): ط٣، الإمارات: دار القلم. (ص٢٥٦).

(٦٣) عوض، **فن الصراع الاسلامي الصليبي – السياسة الخارجية للدولة النورية**، (ص٤٢-٤٣).

(٦٤) ابن الأثير، **التاريخ الباهر في الدولة الآتابكية**، (ص١٥٥).
(٦٥) عوض، **فن الصراع الصليبي الإسلامي-السياسة الخارجية للدولة النورية**، (ص١٣٩-١٤٠).
(٦٦) السابق نفسه، (ص١٥٥).
(٦٧) أبي شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، (ص٦٤-٦٥).
(٦٨) **الكردري**: هوعبد الغفور بن لقمان بن محمد الملقب بتاج الدين، أبو المغافر، تفقه على يد أبي الفضل عبد الرحمن الكرماني، وولاهُ نور الدين زنكي؛ وهو من أئمة المذهب الحنفي، وأصله من كردر في خوارزم؛ وله تصانيف في الفقه والأصول منها شرح التجريد وشرح الجامع الصغير، ولُقب بشمس الأئمة، وعُرف بالزُهد والتواضع؛ الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، **الأعلام**، (٢٠٠٢م): ط١٥، (د.م)، دار العلم للملايين، (ج٤/ص٣٢)؛ القرشي، عبد القادر بن محمد بن نصر الله القرشي، أبو محمد، محيي الدين الحنفي، **الجواهر المضية في طبقات الحنفية**، (د.ت): (د.ط)، كراتشي: مير محمد كتب خانه. (ج١/ص٣٢٢-٣٢٣)؛ ابن قطلوبغا، زين الدين أبو العدل قاسم بن قُطلُوبغا السودوني الجمال الحنفي، **تاج التراجم**، (١٩٩٢م): ط١، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، دمشق: دار القلم. (ص١٩٤).
(٦٩) أبي شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، (ص٦٥-٦٦).
(٧٠) ابن كثير، **البداية والنهاية**، (ج١٢/ص٣٤٦).
(٧١) ابن واصل، محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم أبو عبد الله المازني التميمي الحموي، **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، (١٩٥٧م): تحقيق: جمال الدين الشيال وآخرون، مصر: دار الكتب والوثائق القومية -المطبعة الأميرية. (ج١/ص٢٨٣).
(٧٢) العفاني، **صلاح الأمة في علو الهمة**، (ج٦/ص١٣٣).
(٧٣) النعيمي، **الدارس في تاريخ المدارس**، (ج١/ص٤٦٧).
(٧٤) ابن العديم، **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، (ص٣٥٢).
(٧٥) **رحلة ابن جبير**، (ص٢٦١).
(٧٦) **رحلة ابن جبير**، (ص ٢٦٢).
(٧٧) **الحمامات**: مفرد حمام والحمّام يعني الماء الحار، وهو لا يقتصر على الاغتسال كما معروف عن الحمامات، بل يتكون من غرف وأحواض باردة وساخنة، وأرض الحمام من المرمر الرخام، المكي، التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، (ج٢/ص ١٧٦)؛ المقريزي، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، (ج٣/ص١٤٥).
(٧٨) ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، (ص٢٦١).
(٧٩) ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، (ج٢/ص٣٨٧).
(٨٠) الشافعي، **تاريخ مدينة دمشق**، (ج٢/ص٣٨٧).
(٨١) أبي شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، (ص٥٤)؛ ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية في السيرة النبوية، (ص٤٣)؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، (ج١٢/ص ٣٤٧).
(٨٢) ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي موفق الدين أبو العباس، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء** (د.ت)، تحقيق: الدكتور نزار رضا، بيروت: دار مكتبة الحياة، (ص ٦٨٢).
(٨٣) ابن واصل، **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، (ج١/ص٢٦٢).

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

دراسةٌ وثائقيةٌ لشهادة نَسَبٍ نمَُوية لفرعٍ من آل الشريف محمد أَبي نمُي الثاني

حاكم الحجاز وأمير الحرمين في القرن (العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي)



د. محمد بن حسين الحارثي الشريف

دكتوراه في التاريخ والحضارة

جامعة أم القرى – مكة المكرمة

المملكة العربية السعودية

مُلَخّصْ

تُعَدّ الوثائق من المصادر الأصلية والأساسية لدراسة التاريخ والحضارة العربية لكونها منبعًا ماديًا يرد فيه الكثير من المعلومات الأصلية لكل باحث يرغب في الوصول إلى الحقائق العلمية في مجال التاريخ والأنساب وغيرهما. تهدف الدراسة إلى بيان أهمية الوثائق كأساس مهم في بناء الحقائق. والتعريف بشخصية الشريف محمد أبونُمَيّ الثاني، حاكم الحجاز وأمير الحرمين في القرن العاشر الهجري. ودراسة الوثيقة بتطبيق قواعد علم الوثائق "علم الديبلوماتيك". وتوثيق سير شهود الوثيقة من أعيان أشراف مكة المكرمة في تلك الفترة. وقد استخدم الباحث المنهج التحليلي (لشهادة النسب)؛ المؤدي إلى تفسير نص الوثيقة، وإظهار محتواها، والكشف عن غايات كتابها ودقتهم، ونتائجها. وقد قسمت البحث إلى مدخل وستة مباحث وخاتمة. ونطاق الدراسة لوثيقة نسبية أُنشئت بمكة المكرمة بتاريخ ١٣٩٢/١٢/٢هـ الموافق ١٩٧٣/١/٦م. ونستخلص من هذه الدراسة عناية أشراف الحجاز بحفظ وضبط وتدوين أنسابهم منذ القرون الأولى حتى وقتنا الحاضر، فظهر في العقدين الأخيرين عدد وافر من الكتب والبحوث ومشجرات الأنساب المحققة المدققة، والتي استثمرت خير استثمار وسائل وأدوات التقنية الحديثة في الطباعة والنشر.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٠٧	ديسمبر	٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر:	١٣	ينـاير	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

الوثيقة؛ الشهادة؛ الأشراف؛ النسب؛ آل أبي نمي الثاني؛ مكة المكرمة.

معرِّف الوثيقة الرقمي:

DOI 10.21608/KAN.2021.220362

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد بن حسين الحارثي الشريف. "دراسةٌ وثائقيةٌ لشهادة نَسبٍ نمَويةٍ لفرع من آل الشريف محمد أبي نمي الثاني حاكم الحجاز وأمير الحرمين في القرن (العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي)".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الحادي والخمسون؛ مارس ٢٠٢١. ص ٦٠ – ٦٩.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: alsharifmh95@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

مُقدِّمَةُ

تُعَدّ الوثائق من المصادر الأصلية والأساسية لدراسة التاريخ والحضارة العربية لكونها منبعًا ماديًا يرد فيه الكثير من المعلومات الأصلية لكل باحث يرغب في الوصول إلى الحقائق العلمية في مجال التاريخ والأنساب وغيرهما، ومن هنا تكمن أهمية شهادات الأنساب، في أنها من وسائل حفظ النسب للأجيال، ودعم أواصر الترابط والتكافل الاجتماعي بين الأسر والقبائل، ولتحقيق هذه الأهمية، كان لا بد من التوثيق بوسائل عدة كالمشجرات والكتب والصكوك، وشهادات الأنساب. (وقد تمت الدراسةُ للشهادةِ النَّسَبيةِ بطلب شخصي من الشريف الحسين بن أحمد أبوطالب آل خيرات النُمَوي الحسني "ابن صاحب الشهادة").

أهداف الدراسة:

١- بيان أهمية الوثائق كأساس مهم في بناء الحقائق، كونها تمثل الأصول الدقيقة التي يجد الباحث في محتواها ما يكمل به الحلقات التاريخية المفقودة.

٢- التعريف بشخصية الشريف محمد أبونُمَيّ الثاني، حاكم الحجاز وأمير الحرمين في القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي. "الجد الشامل لجل قبائل أشراف الحجاز وما تفرع منهم في المخلاف السليماني".

٣- دراسة الوثيقة بتطبيق قواعد علم الوثائق "علم الديبلوماتيك" لمعرفة أجزاء الوثيقة، وأسلوبها من الناحيتين الفقهية، والوثائقية، كالسمات العامة للوثيقة (الخارجية والداخلية).

٤- توثيق سير شهود الوثيقة من أعيان أشراف مكة المكرمة في تلك الفترة.

منهج البحث:

من منطلق أن طبيعة الموضوع (في كلياته وجزئياته) هي التي ترسم بالأساس ملامح المقاربة المنهجية التي ينبغي اعتمادها في البحث؛ ونظرًا لطبيعة هذه الدراسة الوثائقية، فقد استخدم الباحث المنهج التحليلي (لشهادة النسب)؛ المؤدي إلى تفسير نص الوثيقة، وإظهار محتواها، والكشف عن غايات كتابها ودقتهم، ونتائجها. وقد قسمت البحث إلى مدخل وستة مباحث وخاتمة.

الفترة الزمنية والمكانية "النطاق":

دراسة لوثيقة نسبية أُنشئت بمكة المكرمة بتاريخ ١٣٩٢/١٢/٢هـ الموافق ١٩٧٣/١/٦م.

الدراسات السابقة أو المثيلة:

لأن الحجاز مهد الأسر والقبائل الهاشمية خاصة (الحسنيين) سلالة حكام بلاد الحرمين، فقد عُرف عنهم تواترًا اهتمامهم بتوثيق أنسابهم جيلاً بعد جيل، ونسلاً بعد نسل، ومن ذلك يقول النسابة الشهير ابن عنبة في مقدمة كتابه عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب: هذه بيوتات العلوية العارية عن العار متوافرة، وقبائل الفاطمية الطاهرة عن الغبار متكاثرة، قد قام بتصحيح اتصالهم في كل زمان علاَّمون من الأمة، ونهض بتنقيح حالاتهم في كل أوان فهَّامون من الأئمة. وهنا فقط أشير إلى بعض الدراسات المعاصرة التي اعتنت بأنساب الأشراف، خاصة في مجال حفظ المشجرات والوثائق ودراستها: كتاب/ عناية أشراف الحجاز بأنسابهم والمصنفات التي عنيت بتدوينها للشريف إبراهيم بن منصور الهاشمي الأمير، وكتاب/ معجم أشراف الحجاز في بلاد الحرمين للشريف أحمد ضياء العنقاوي.

أولاً: أهمية الوثائق النسبية

تُعَدّ الوثائق أساسًا مهما في بناء الحقائق كونها تمثل الأصول الدقيقة التي يجد الباحث في محتواها ما يكمل به الحلقات التاريخية المفقودة، ولهذا فإن الدراسات التاريخية تعتمد اعتمادًا كبيرًا على الوثائق كونها من المصادر الأصلية والأساسية لكل مؤرخ وباحث يريد إضافة مادة جديدة للتاريخ[١].

وفي اللغة تعني الوثيقة: الإحكام في الأمر، والجمع وثيق، والوثيقُ: الشيء المُحكم، والموثِقُ الأمانة، ووثق وثاقه: مصدر الشيء المحكم، ووثقه توثيقًا أحكمه، والميثاق العهد، والجمع مواثيق[٢].

وقدم الجيلي[٣] لتعريف الوثيقة لدى علماء التوثيق المعاصرين؛ التعريفات التالية:

١-عرفها الألماني " مولر " بقوله: "كل ما هو مكتوب أو مرسوم أو مطبوع، والذي يصدر أو يستلم من أي دائرة أو مؤسسة رسمية، والذي تقرر الاحتفاظ به لأهميته وفائدته لتلك الدائرة".

٢- عرفها الإيطالي " يوجينو " بقوله : "التجميع المنظم للوثائق الناتجة عن فعاليات الدوائر والمؤسسات أو الأشخاص، والتي تقرر حفظها لأهميتها السياسية أو القانونية أو الشرعية لتلك الدائرة أو الشخص".

٣- عرفها الألماني " أودلف برنيكه " بقوله : "كافة الأوراق والسجلات التي وجدت وتجمعت خلال الأعمال القانونية أو الرسمية للمؤسسات الحكومية والتي تقرر حفظها بصورة دائمة في مكان معين كمصدر إثبات للماضي".

وهذه تعريفات ذكرها بعض علماء العرب عن علم الوثائق "الدبلوماتيك التاريخية والقانونية":

١- عرفها الأستاذ / الموسوي بقوله: "هي الوثيقة العامة المتعلقة بأعمال جهاز إداري رسمي أو غير رسمي "حكومي أو غير حكومي" أو فرد أو جمعية، والتي انتهى العمل منها بحيث يمكن الرجوع إليها مستقبلاً، وتحفظ بطرق خاصة لغرض صيانتها والمحافظة عليها، ولها قيمة تاريخية أو أهمية قانونية، أو مالية، أو إدارية ".

٢- عرفها د . محمد ماهر حمادة بقوله: "صك يحتوي على معلومات تصدرها هيئة رسمية معترف بها. ومعترف لها بالحق في إصدار تلك الأشياء. ويحمل من السمات العائدة إلى تلك الهيئة ما يمكن الاطمئنان إلى صحة صدورها عن تلك الهيئة لقطع دابر التزوير".

٣- عرفت: سلوى ميلاد الوثائق العامة بقولها: "مكتوبات بطريقة وشكل محدد ومعين صدرت عن سلطة عامة أو شخصية معنوية من السلطة العامة بصفتها الوظيفة العامة "أما الوثيقة القانونية" الدبلوماتيكية" فعرفتها بقولها: "مكتوب كدليل قانوني يحتوي فعلاً أو تصرفًا قانونيًا صادر بإدارة المتصرف أو المتصرفين".

شروط الوثيقة النسبية

كما سبق بيان أن للوثائق دورًا مهمًا لا يقلُّ شأنًا عن دور الكتب والمصنفات وهو مكمل لها وقد مرت الجزيرة العربية وغيرها من المناطق بفترة ركود تفشى فيها الجهل فأصبحت الكتب لا تفي بهذا الغرض مما جعل الناس يعتمدون على الوثائق المحفوظة لدى كثير من الناس التي هي عبارة عن حجج وصكوك ومشاهد قديمة شيء منها معتمد من قبل المحاكم في ذلك الوقت وشيء منها معتمد من قبل نسابين معروفين.

ويشترط للوثيقة لكي تكون معتمدة عدة أُمور:

١-أن تكون معتمدة موثقة بتواقيع أو أختام.

٢-أن تكون مؤرخة.

٣-أن تكون غير مخالفة لما هو معروف عند المؤرخين أو النسابين

٤-ألا تكون مزورة.

٥-أن تكون واضحة غير مبهمة [٤].

طريق ثبوت النسب الشريف عند علماء الشريعة بالدلائل التالية:

أولاً: النص من المؤرخين الثقات أن البيت الفلاني أو آل فلان من أهل البيت ويعرف أن الشخص الذي يشتبه فيه من أهل ذلك البيت المنصوص عليه من المؤرخين الثقات.

ثانيًا: أن يكون بيد من يدعي أنه من أهل البيت وثيقة شرعية من بعض القضاة المعتبرين أو العلماء الثقات أنه من أهل البيت، ومنها الاستفاضة عند أهل البلد أن آل فلان من أهل البيت.

ثالثًا: وجود بينة عادلة لا تنقص عن اثنين تشهد بذلك، مستندة في شهادتها إلى ما يحسن الاعتماد عليه من تاريخ موثوق أو وثائق معتبرة أو نقل عن أشخاص معتبرين، وأما مجرد الدعوى التي ليس لها مبرر فلا ينبغي الاعتماد عليها لا في هذا ولا في غيره."[٥]

أهمية الشهرة والاستفاضة:

بين العلامة الشريف إبراهيم الهاشمي الأمير: أن تحقق الشهرة والاستفاضة والسماع هي التي عليها مدار إثبات الأنساب البعيدة بإجماع علماء الإسلام، واتفقت عليه كلمة أئمة المذاهب الأربعة؛ فإذا اجتمعت للأسرة شهرة واستفاضة صحيحة وذِكْرٌ في المصادر التاريخية والنسبية؛ أصبح النسب نورًا على نور؛ لأن ثبوت الأنساب تكفيه الشهرة والاستفاضة الصحيحة المجمع عليها، قال العلامة الونشريسي (ت٩١٤هـ): «اعلم أنه يكفي في ثبوت هذا النسب لمدَّعِيه السماع الفاشي، ويتقوى ذلك بثبوته عند القضاة» [٦].

ثانيًا: جد الأشراف النُّمَويين الشريف محمد أبونمّي الثاني حاكم الحجاز وأمير الحرمين في القرن العاشر الهجري

هو الشريف محمد أبو نمي الثاني بن بركات بن محمد بن بركات بن الحسن بن عجلان بن رميثة بن محمد أبي نمي الأول بن أبي سعد الحسن بن علي الأكبر بن قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن الحسين بن سليمان بن علي بن عبد الله الأكبر بن محمد الثائر بن موسى الثاني بن عبد الله الرضى بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

ولد رحمه الله ليلة التاسع من ذي الحجة من عام ٩١١هـ، وكان والده الشريف بركات يمسح على ناصيته ويقول: كنت في أكدار وكروب متوالية، حتى ظهرت لي هذه الناصية. وكان يُلقب نجم

الـدين، "صـاحب القـانون"، شـارك أباه بركـات في ولايـة مكـة، وعمره ثمان سنوات، حيث صدرت له هذه الولاية من السلطان المملوكي الغوري عام ٩١٨هـ، وبعد سقوط الحكم المملوكي على يد العثمانيين أبقاه السلطان العثماني مشاركًا لوالده في إمارة مكة، ثم منفردًا بالإمارة بعد وفاة والده. وعدَّه المؤرخون زعيمًا قل من يضاهيه شهرة من طبقات الأشراف الأخرى. وكان الشريف أبو نمي جم الفضائل، حسن الشمائل، محمود السيرة، له النثر الرفيع الفائق، والنظم البديع الرائق. وامتاز أبونمي بحزمه في إدارة الأمور وصرامته في الحكم وبذلك هابته الأعراب والأهالي واحترمه الحجاج والمجاورون وقدر منزلته أصحاب السلطان من العثمانيين وقضى بحزمه على أصحاب الفتن وساعد على رخاء الأسعار، واستمرت مكة محكومة بأمره سنين في استقرار لا تعبث بها القلاقل والفوضى.

وأرسل السلطان الغوري يطلب الشريف بركات إلى عنده، فأرسل يعتذر إليه، ثم إن الشريف بركات أرسل ابنه السيد أبا نمي بن بركات في هذه السنة (إلى مصر للقاء السلطان، وكان عمره إذ ذاك ثمان سنين) وأرسل معه السيد عرار بن عجل وقاضيا مكة القاضي صلاح الدين بن ظهيرة الشافعي، والقاضي نجم الدين بن يعقوب المالكي، ولديه القاضي محمد والقاضي تاج الدين. وجملة من أعيان السادة الحسنيين وطائفة من قوادهم، فتوجهوا إلى مصر ومعهم السيد أبو نمي فلما دخلوا مصر قابلهم السلطان الغوري بالإعزاز والإكرام وأجلس السيد أبا نمي على حجره وقبل يده وفرح به غاية الفرح. ويقال: "إنه سأله ما سورتك؟ " فقال له: "إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا " فاستبشر الغوري بذلك وجعله شريكًا لوالده في أمر مكة، وجدة، وينبع، وسائر الأقطار الحجازية وكتب له توقيعًا بذلك. فولي مكة بعد وفاة أبيه الشريف بركات ووصل إليه التأييد بعد وفاة أبيه من السلطان سليمان خان وكان عمره إذ ذاك نحو العشرين سنة وبعث قاصدًا حضرة الأبواب السلطانية للسلطان الأعظم مولانا السلطان سليمان.

ومن الحوادث المهمة في تاريخه رحمه الله تصديه لغزو البرتغاليين "الإفرنج" لميناء جدة؛ وهي من الجهاد في سبيل الله تعالى في أعظم ثغور بيت الله الحرام، وكان ذلك في أواخر سنة ٩٤٨ هـ، دخلت طائفة عظيمة من الإفرنج وخربت غالب البنادر، فلما قصدوا جدة المعمورة نزلوا المرسى المعروف بأبي الدوائر في خمس وثمانين برشة "مركبًا" مشحونة بالرجال والسلاح فقاتلهم الشريف بنفسه وترك الحج ونزل إلى جدة في جيش عظيم بعد أن أمر بالنداء في نواحي مكة المشرفة من صحبنا فله أجر الجهاد، وعليه السلاح والنفقة. فبلغ أهل الجهاد مبلغًا عظيمًا، لا يعد ولا يحد، ونفقة الشريف شاملة للجميع وعيون الكفار تدور عليهم كل حين فتشاهدهم يزيدون عَدَدًا وعُدَدًا وعيشًا رغدًا، ورجال أبي نمي يتوجهون إلى أطراف البلاد ويحضرون بأنواع الطعام بأغلى ثمن حتى فرغت الحبوب وكادت تعدم فدخروها للخيل، وأقبلوا على نحر الإبل فكان يأمر بأن ينحر لكل مائة نفس بدنة ناقة أو بعير ..واستمر ذلك مدة فقال له بعض الناس : إن هذا الفعل يستأصل ما عندك من الإبل فأجابه " بأني نويت أنحر ما أملكه ويملكه أولادي وأحفادي، فإذا نفدت الإبل نحرت الخيل ثم كل حيوان يجوز أكله ".

فلما قرب زمن الحج برز أمره إلى ابنه الشريف أحمد بن أبي نمي أن يقابل الأمراء ويلبس الخلع الواردة ويحج بالناس على عادة أجداده. فلما وصل أمراء الحج وبلغوا ما قصدوه فحينئذ توجهوا للقاء الشريف أبي نمي بجدة لإلباسه الخلع، فلاقاهم وهو شاكي السلاح لابسًا درعه في هيئة المقاتل، ولما أن قرب الأمراء أمر بطلق المدافع فطلقت لمقابلتهم نحو ثلاث مئة مدفع، فكان (مشهدًا عظيمًا) فألبسوه الخلع الواردة صحبتهم، وانصرفوا راجعين للحج. ولما رأى الكفار صبره وحصاره لهم انقلبوا خاسئين. ولما بلغ السلطان سليمان خان ذلك زاد في إكرام أبي نمي، وسمح له بنصف معلوم جدة، إلى غير ذلك من الإنعامات التي لا تحصى.

توفي الشريف أبو نُمَي بن بركات ليلة تاسوعا افتتاح سنة٩٩٢هـ بوادي الأبيار من جهة اليمن وحمل إلى مكة وصلى عليه تجاه الكعبة ميرزا مخدوم ودفن بالمعلاة. وقيل إنه عاش ثمانين سنة، وشهرًا، ويومًا، ومدة ولايته منفردًا، ومشاركًا لولديه [أي أحمد والحسن] ثلاثة وسبعون سنة. وكان رحمه الله صاحب خيرات، ومبرات كثيرة متكاثرة، أسس لأبنائه معالم الكرم، وحثهم على شريف المناقب والشيم. فبنى بمكة رباطين للفقراء المجاورين، ورباطًا للشرايف المنقطعات بمكة، وأوقف عليهما أوقافًا كثيرة. وأعقب المذكور أحمد والحسن وثقبة، وبركات، وبشير، وراجح، ومنصور، وسرور، ومن البنات ناصرة، وصالحة، وشمسية، وعيشة، وموزة، وراية، وغيرهم [٧].

ثالثًا: دراسة الشهادة النَسَبية

فيما يلي الدارسة الوثائقية لشهادة النَّسَب، التي حُرِرت بتاريخ ١٣٩٢/١٢/٢هـ الموافق ١٩٧٣/١/٦م، في مكة المكرمة، في فترة حكم الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية.

تعريف بموضوع الوثيقة

هذه الشهادة النَّسَبية موضوعها الشهادة من عدد من نَسَّابَةِ وأعيانِ الأشراف بمكة المكرمة من آل الشريف محمد أبي نُمَي الثاني أمير مكة وحاكم الحجاز في القرن العاشر الهجري، لمن طلبها من الأشراف آل أبي طالب [٨]، آل خيرات [٩] النُّمَويين القاطنين في المخلاف السليماني (منطقة جازان) جنوب المملكة العربية السعودية التي تبعد عن مكة المكرمة (٦٨٥) كيلا جنوبًا.

السمات العامة للوثيقة (الخارجية والداخلية)

السمات الخارجية

١-الورق: هذه الشهادة النَّسَبية أصلية من مقتنيات (الشريف الحسين بن أحمد أبي طالب آل خيرات النموي الحسني)، لم يَسْبق تحقيقها، وكُتبت على ورق أبيض عادٍ.

٢-شكل الوثيقة: تتألف الشهادة من ورقة واحدة (وجه وظهر).

٣-السطور: كُتبت الشهادة النسبية بخط جيد أقرب لخط الرقعة، في سطور كاملة منتظمة دون فواصل أو وقفات، ولم توضع الهمزات على بعض الحروف.

٤-السمات البيانية " البيليوجرافيا":

أ-الخط: لم يستعمل الكاتب حروفا كبيرة ولا المدات في الكلمات الافتتاحية أو بداية الفقرات.

ب-اللغة: عدم الالتزام بقواعد النحو والإملاء إلى حد ما؛ من مثل: (الحمدالله) (خيزان) (الأعلا).

السمات الداخلية: وهي معرفة أجزاء الوثيقة، وأسلوبها من الناحيتين الفقهية، والوثائقية "الدبلوماتية"[١٠].

١-[الإجراء الافتتاحي] مقدمة الشهادة النسبية:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه: أما بعد لما كان الأشراف ذوي الشريف خيرات القاطنين بمنطقة جيزان...

٢-عناصر نص الشهادة النسبية:

أ- أما بعد لما كان الأشراف ذوي الشريف خيرات القاطنين بمنطقة جيزان من المملكة العربية السعودية هم من عقب الشريف خيرات بن شبير بن بشير ابن محمد أبي نمي الثاني.

ب- ولا يتطرق إلى نسبهم هذا أي شك بل هو واضح وثابتة في جميع المصادر التاريخية والمشجرات القديمة المحفوظة لدى النمويين من أشراف مكة المكرمة.

ت- علاوة على ما بأيدي الأشراف ذوي خيرات أنفسهم من مستندات شرعية.

ث- فأننا نصادق الشريف أحمد بن علي بن الحسن ابن محمد بن يحيى بن محمد أبوطالب بن محمد بن أحمد بن محمد بن خيرات بن شبير بن بشير بن محمد أبونمي الثاني على صحة نسبه ونسب جماعته إلى جدهم الأعلا الشريف خيرات المذكور.

ج- وذلك منا إحقاقا للحق وإبراء للذمة والله على ما نقول وكيل وشهيد وصلى الله على محمد وآله وصحبه د ن حرر ١٣٩٢/١٢/٢هـ

١- **الإجراء الختامي**: وذلك منا إحقاقا للحق وإبراءً للذمةِ والله على ما نقول وكيل وشهيد وصلى الله على محمد وآله وصحبه د ن حرر ١٣٩٢/١٢/٢هـ

٢- **علامات الصحة والإثبات**: تواقيع الأشراف الواردة أسماؤهم بخط أيديهم.

وفيما يلي سير الموثقين وصاحب الشهادة الشخصية

رابعًا: سِيَرُ موثقي الشهادة النَّسَبية

١/٤-سيرة صاحب الشهادة

الشريف أحمد بن علي بن الحسن بن محمد بن يحيى بن محمد أبي طالب بن محمد بن أحمد بن محمد بن خيرات بن شبير بن بشير بن محمد أبي نمي الثاني. من مواليد عام١٣٤٣هـ. مكان الولادة: منطقة جيزان (جازان)-أبو حجر الأعلى -قرية تتبع صامطة، جنوب غرب المملكة العربية السعودية. وتعليمه لم يتجاوز الخامسة الابتدائي، ولكنه حفظ ثلث القرآن الكريم، وعمل جنديًا في قيادة منطقة جيزان، ثم انتقل إلى تبوك للانضمام للخدمة العسكرية في الجيش من عام ١٣٧١هـ-١٣٧٧هـ، وانتقل بعد فترة من الزمن إلى مكة المكرمة بأسرته، وهنا التحق بالأمن العام (شرطة العاصمة المقدسة) بتاريخ ١٣٧٩/٥/٨هـ. إلا أن الأمن العام انتقل إلى الرياض العاصمة، عام ١٣٨٤هـ تقريبًا، فانتقل معه للإقامة في الرياض، وعاش بها حتى وفاته ١٤٢٨/٩/١٦هـ. وقد أعقب سبعة ذكور، وثمان إناث.

وكان الشريف أحمد بجانب حفظه للقرآن، كان جميل الصوت بتلاوته، ويتقدم كثيرًا للإمامة في غياب الأئمة، كما يتقدم أحيانًا لإلقاء المواعظ وشرح وتفسير بعض الآيات؛ عقب بعض الصلوات، فكان محبًا للقراءة في كتب الفقه والسيرة والتفاسير، حيث يحرص على اقتنائها. وكان جميل الخط، وله اهتمامٌ وحرصٌ بتحسينِ خطوط أبنائهِ. وكان الشريف أحمد

مُقدمًا في أقربائه بالرياض، وهمزة وصل لهم بينهم وبين شيوخ القبيلة في الجنوب فيما يتعلق بهمومهم وأمورهم ومراجعاتهم، فكثيرا ما كانوا يجتمعون في داره للنقاش والتشاور والتحاور.

وكان حريصًا على التواصل والتراسل مع وجهاء وأعيان آل أبي طالب، وتحتفظ أسرته بعدد من تلك الخطابات والمراسلات، ومن هؤلاء الأعيان الشيخ محمد بن هزاع أبوطالب شيخ شمل الأشراف آل خيرات السابق، والشيخ الحسن بن زيد شيخ شمل الأشراف آل خيرات اللاحق، ووالد الشيخ محمد -الشيخ الحالي، والشريف أحمد بن حمود أبوطالب، وهو صاحب كتاب أوضح الإشارات؛ وشخصيات أخرى. فكان الشريف أحمد من خلال هذه الثقافة والاهتمام والتواصل بأعيان الأشراف بمكة، وأعيان آل أبي طالب بجازان؛ ممن شارك في إعداد مشجرة آل أبي طالب آل خيرات.

ظرف طلب الشهادة النسبية:

أثناء إقامته بمكة المكرمة وبدافع اعتزازه بنسبه، تعرف على عدد من أبرز وجهاء وأعيان ونسَّابة الأشراف بمكة المكرمة، فكان يذهب إليهم في مجالسهم ويتسامر معهم، فعرفوه، فقد كان أنيسًا صاحب طُرفه ومفوهًا، وحافظًا لكثير من سور القران وطُرَف العرب، ومحبًا للقراءة. فطلب إليهم هذه الشهادة النَّسَبية، تأكيدًا لثقته بنسبه لديهم، ورغبة في الاستئثار بهذه الشهادة لنفسه وبني قومه، واعتزازًا بصداقته لهؤلاء الأعيان والنسَّابة الأشراف، وهي ولا شك شاهدٌ على الترابط بين آل أبي نُمَي الثاني بمكة المكرمة وأبناء عمومتهم من آل خيرات، وإن تباعد بهم المكان ما بين مكة وجازان.

٢/٤-سِيَرُ موثقي هذه الشهاد

(٢/٤) ١-سيرة الشريف علي بن أحمد بن منصور الكريمي

الشريف علي بن أحمد بن منصور بن أحمد، أبو زامل الكريمي البركاتي الحسني، المؤرخ، النَّسَّابة، الحكيم، أمير رابغ ثم جدة. ولد الشريف علي في ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٠١هـ في قرية التويدرة التي تبعد عن الحديبية(الشميسي) بأقل من كيلو ونصف متر تقريبًا. نشأ الشريف علي في كنف والده أمير المدينة النبوية -على ساكنها أفضل الصلاة والسلام-، فاعتنى به غاية الاعتناء في تأديبه، وتعليمه، وغرس مكارم الأخلاق فيه. كان «رجلاً طِوَالاً قوي البنية معتدل القامة طويلها غير معلول ببطن أو «كرش» ولا مهلهلٍ بعَجُزٍ ولا أرداف، رياضي الشكل، جميل المحيا، مهيب الطلعة، أقنى الأنف، رافع الرأس، في غير تكبُّرٍ ولا استعلاء، كأنه الصقر، ثابت الخُطى، لم تخُنْه صحته وعافيته إلاّ بأشهُرٍ معدودة تقريبًا قبل وفاته»؛ ويذكر عارفوه أنه اتصف بخلال وصفات حميدة يندر أن تجتمع في رجال كثير منها: التدين، والزهد، والفروسية، والكرم، والشجاعة، وإكرام الجار.

تولى الشريف علي إمارة رابغ وما حولها من ديار حرب، ثم تولى إمارة جدة، وقد كان من المقربين لأمير مكة الشريف الحسين بن علي الذي كان يعتمد عليه في شؤون القبائل وغير ذلك، وبعد نهاية ولاية الشريف حسين لازم الملك عبد العزيز. يقول حفيده الأديب الشريف عبد العزيز بن الحسين بن علي بن منصور الكريمي: «ومن الخصال التي يتميز بها جدي الشريف عليّ الفراسة القوية، وقد حصلت عدة حكايات له مع أناس دلت على ذلك. وقد كان صاحب معرفة قوية بأنساب الخيل».

الشريف علي بشهادة العلماء وأهل العلم من أعلم الناس بتاريخ وأنساب الأشراف في زمانه، بل «اعتبره أشراف الحجاز في وقته بأنه نقيب الأشراف في الحجاز لمكانته بينهم وماضيه وتاريخه المجيد»، ودونك أقول العلماء وأهل العلم والمكانة فيه: وقال المؤرخ النَّسَّابة الشريف مساعد بن منصور آل زيد(ت١٤٣١هـ) صاحب كتاب «جداول أمراء مكة»: «في عنفوان شبابي التقيت بالشريف علي بن أحمد بن منصور الكريمي، واستقيت منه أنساب الأشراف آل بركات، والتي أودعت شيئًا منها في كتابي» جداول أمراء مكة". وقال المؤرخ النَّسَّابة الشريف محمد بن منصور صاحب كتاب: «قبائل الطائف وأشراف الحجاز»: «التقيت بالشريف علي في منزله الكائن بمحلة جرول قبل ثلاثين سنة في مجلس لمناقشة نسب فرع من الأشراف، فهالني سمت هذا الرجل وهيبته ومعرفته بأنساب الأشراف ورأيته يتحرى ويسلك مسلك المتقدمين في علم الأنساب».

وقد كان الشريف علي يتحرى الدقة والأمانة في هذا العلم، فإذا سأله سائل واستشكل عليه شيء رجع إلى كتبه ووثائقه ومشجراته، وهذا دأب أهل العلم. وقد توفي الشريف علي في مكة المكرمة سنة ١٤٠٦هـ، ودفن في مقبرة المعلاة [١١].

(٢/٤) ٢-سيرة الشريف شاكر بن هزاع بن عبد الله العبدلي

هو آخر قائم مقام للعاصمة المقدسة في المملكة العربية السعودية، واشتهر بعلمه في مجال التاريخ والجغرافيا والأنساب وسعيه في حل المشاكل والمنازعات القبلية. وله دراية كبيرة بأنساب قبائل الأشراف وغيرهم. ولد في شعب عامر سنة ١٣٤٧هـ وبها نشأ على يد والده هزاع بن عبد الله العبدلي الذي كان قائم مقام مكة وأخواله الخنان من بني صخر.

وله من الأبناء: فواز وفيصل ونواف وهزاع. كان لوالده اهتمام وعناية به منذ صغره في تحصيل العلم وحمله، فاتجه شاكر أولاً للتعليم النظامي، ودرس بالمدرسة السعودية، والمعهد العلمي، وبرع حتى رشح للابتعاث للدراسة في الخارج، ولكنه آثر البقاء في مكة وطلب العلم الشرعي وحصله على يد جلة من العلماء ومنهم العلامة الموسوعي المطلع فضيلة الشيخ محمد بن عبد العزيز بن مانع مدير المعارف آنذاك، وأخذ أيضًا عن العلامة الشيخ يحيى أمان نائب رئيس المحكمة الكبرى بمكة المكرمة، وغيرهم.

كان صاحب قول معتمد في حدود مكة، وحرمها ومعالمها مما جعل أكابر العلماء يرجعون إليه في هذا كأمثال محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتي السعودية، وخلفه عبد العزيز بن باز، وغيرهما من أعضاء هيئة كبار العلماء، والقضاة آنذاك، وكذلك حمد الجاسر، ومثله الدكتور عبد الملك بن دهيش فيما كتبه عن حدود البلد الحرام وكذلك الدكتور سامي عنقاوي فيما كتبه من دراسات وأبحاث بمركز أبحاث الحج وكذلك عاتق البلادي. توفي في آخر ليلة من شهر رمضان سنة ١٤٢٥ وقد حضر عزاءه ملك البلاد وولي عهده وأمراؤها ووزراؤها ومسؤولوها[١٢].

(٢/٤) ٣-الشريف فايز بن هزاع الحارثي

أبو علي أمير هذيل وضواحي المضيق، ولد بالمضيق عام١٣١٣هـ، وكان جهوري الصوت، مهيبًا، وشخصية بارزة وكان من أعيان الحجاز، لازم الملك عبد العزيز ثم أبناءه من بعده وخاصة الملك خالد بن عبد العزيز، وكان يصاحبه إلى مجالس الملك خالد، الشيخ ناصر الشتري المستشار بالديوان الملكي. وكان قيادي الطبيعة سريع الحسم في الرأي ذو فطنة وحذر شديدين حاضر البديهة ذا حجة ومنطق وذا معرفة واسعة بشؤون الحياة شارك في قيادة جيوش الثورة العربية وانتفاضها على الأوضاع التي آل إليها الحكم التركي أميرًا على بعض قبائل عتيبة، واتصل جهاده تحت لواء التوحيد الذي أطلقه الإمام عبدالعزيز بن عبدالرحمن، فرافق الملك عبدالعزيز وأبناءه من بعده سعود وفيصل وخالد، ونال ثقتهم في إمارة بعض قبائل عتيبة، وتمتع بمنزلة عالية ومحبة بين ذويه من قبائل الأشراف والقبائل الأخرى لمشاركته الدائمة لهم في جميع أحوالهم فأصبح من المقدمين بينهم.

وفي سنة ١٤٠٠هـ توفي الشريف فايز في مكة المكرمة عن سبع وثمانين سنة، ودفن في مقبرة العدل[١٣].

(٢/٤) ٤-الشريف محمد هاشم بن سعدالدين آل غالب صاحب "مشجرة الري"

جده الشريف عبد المطلب بن غالب أمير مكة، ولد في قصر البياضية بالمعابدة سنة ١٣١٨هـ، تعلم العلوم الشرعية على يد علماء المسجد الحرام، ثم أرسله والده إلى إستانبول في تركيا لإكمال تعليمه، فتعلم اللغة التركية والفرنسية، ثم درس الطب وتخرج في إحدى جامعاتها طبيبًا سنة ١٣٣٩هـ. له اهتمام بعلم التاريخ والأنساب، وكان يرجع إليه الكثير لمعرفة أنسابهم. توفي في مكة المكرمة في ٨/صفر/١٤٠١هـ ودفن في مقبرة المعلاة [١٤].

(٢/٤) ٥-الشريف محمد بن فوزان بن هزاع الحارثي

الشريف محمد بن فوزان بن هزاع، من أبرز وجهاء وأعيان الأشراف الحرث، وكانت بينه وبين الملك عبد العزيز عدد من الخطابات والمراسلات[١٥]، وهو الذي عينه بعد وفاة والده أميرًا لبني مسعود من هذيل بوادي الشامية شرق مكة. ومن أبرز ما يتصف به الشريف محمد ثقافته في التاريخ والجغرافيا والأنساب، فلديه معرفة دقيقة وميدانية بالأودية والشعاب والجبال والمواقع المحيطة بمكة تاريخيًا وجغرافيًا، ذكر ذلك وأكده وأثنى عليه الشيخ عبدالملك بن دهيش الباحث والمؤرخ والمحقق في تاريخ مكة في عدد من مؤلفاته، منها ما ورد في كتابه " الحرم المكي الشريف والأعلام المحيطة به" الذي أثنى ثناء واسعًا على الشريف محمد بن فوزان فيقول عنه : "فلقد اتصلت بأكثر من رجل ممن لهم خبرة في مواضع مكة وجبالها ووهادها وأعلامها وشعابها، ومنهم خبراء عملوا في هيئة النظر في محكمة مكة تنتدبهم محاكم مكة لفض المنازعات، وتثبيت الحدود والحقوق والممتلكات في المواضع المحيطة بمكة المكرمة، ومنهم من خلف والده في هذا المنصب أو كان أميرًا على منطقة من مناطق مكة كالشريف الحارثي. وخلاصة القول إن هؤلاء أعلم بالمواضع التاريخية والأثرية بمكة. لابل أعلم أهلها بأسماء جبالها، وريعانها وأوديتها وشعابها وآبارها وغير ذلك، وأعلم من عرفت بمواضع حدود الحرم المكي الشريف، بل هو أعلم من عرفت مطلقًا حسب اجتهادي في ذلك بدون منازع... –وأكمل ابن دهيش الحديث في الحاشية عن محمد بن فوزان – قائلاً: "ولقد استفدت منه كثيرًا في تحقيق بعض المواضع التي وردت في مصادر التاريخ المكي، فكان حجة في تاريخها."، وكتاب" أخبار مكة للفاكهي، الذي حققه"، فقد ذكر اسم الشريف محمد بن فوزان في خمسة عشر صفحة. كما استفاد من ثقافة الشريف محمد بن فوزان المؤرخ الشيخ عاتق

البلادي. ويؤكد ابنه اللواء الشريف فيصل بن محمد (نائب مدير الأمن العام ومدير شرطة المنطقة الغربية الأسبق)؛ بأن أباه المُعِدْ الحقيقي لأصول شجرة الأشراف الحرث[١٦].

(٤/٢) ٦-الشريف حمود بن فوزان بن هزاع الحارثي

هو من كبار آل هزاع الحرث، وله علم بأنسابهم، وبتاريخ الحرث وبعض القبائل الأخرى، وله معرفة بعلم الفلك، وحفظ الأشعار ومعرفة الأماكن والمياه بالحجاز، وتوفي عام ١٤١٨هـ[١٧].

(٤/٢) ٧-الشريف سعود بن هزاع العبدلي

اسمه الصحيح الشريف سعود بن مسعود بن ونيس العبدلي: من الأشراف البطنان ذوي عبد الله. ولد الشريف سعود سنة ١٣٥٤هـ في مكة المكرمة -حرسها الله تعالى-وتلقى تعليمه في المدرسة السعودية، ثم في تحضير البعثات لشهور، ثم إلى المدرسة اللاسلكية التابعة لوزارة المواصلات. حينما توفي الشريف هزاع بن عبد الله العبدلي قائم مقام إمارة مكة المكرمة-جده لأمه وعم أبيه سنة ١٣٨٦هـ صدر أمر جلالة الملك فيصل، بخطابه الموجه لسمو وزير الداخلية الأمير فهد بن عبدالعزيز برقم (٢٥١٦١) في ١٣٨٦/١١/٥هـ المتضمن ترشيحه لشغل وظيفة معاون قائم مقام العاصمة حيث صدر قرار وزارة الداخلية رقم (١٩٦١) في ١٣٨٦/١١/١٤هـ المبلغ لأمير منطقة مكة، وعدل مسمى الوظيفة بقرار الأمير نايف بن عبدالعزيز رقم (١١٢١) في ١٣٩٨/٦/٩هـ إلى وكيل قائم مقام العاصمة، وتمت إحالته للتقاعد سنة ١٤١٤هـ[١٨].

(٤/٢) ٨-الشريف فؤاد بن زين العابدين

هو الشريف فؤاد بن زين العابدين بن علي بن أحمد عدنان بن أمير مكة الشريف عبد المطلب بن أمير مكة الشريف غالب بن مساعد آل زيد. ولد بمكة المكرمة ١٣ ربيع الثاني ١٣٥٧ هجري وتربي وترعرع ما بين مكة المكرمة والطائف. درس الابتدائية في المدرسة الرحمانية بمكة المكرمة، ودرس المتوسطة والثانوية في القاهرة بجمهورية مصر العربية. بدأ حياته العملية في وزارة المالية في الرياض. انتقل إلى مكة المكرمة في الزكاة والدخل حتى التقاعد. كان مُحبًا لعشيرته الأشراف عامه وآل زيد وآل غالب، خاصة وهو ومن أوائل من أسس لأعيادهم ومجلس الأشراف آل غالب وله قصائد عديدة في مدحهم، وكان يجيد الشعر ومحبا للشعر والأدب والفنون التراثية عامة والحجازية خاصة، ويهتم بالخيل والفروسية؛ حيث كان عضو مجلس إدارة نادي الفروسية بمنطقة مكة المكرمة، ويعشق الصيد والمقناص والسفر والرحلات البرية. توفي يوم الجمعة ٨ رمضان ١٤٣٢ هجرية عن عمر يناهز ٧٥ عاما[١٩].

(٤/٢) ٩-الشريف عامر بن ونيس العبدلي

من الأشراف آل شاكر أحد فروع الأشراف آل عبد الله من البطنان الحمودية العبادلة[٢٠]. الشريف عامر بن ونيس بن عبد الله آل عبداله الحمودي العبدلي، ولد في مكة المكرمة بوادي نعمان عام ١٣٣٢هـ كان حليمًا شجاعًا حكيمًا، واشتهر بالفراسة. وتوفي بمكة عام ١٤١٩هـ وله من العمر (٨٧) عاما[٢١].

(٤/٢) ١٠-الشريف محمد بن منصور بن هاشم آل زيد.

يُعرف بالنجدي، وهو المؤرخ، الفرضي، الجغرافي، الأديب، الشاعر، من مواليد الطائف عام ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م، ويسكن حي الجال بالطائف، تلقى تعليمه في المدرسة السعودية بالطائف، وأكمل تعليمه الثانوي بمكة، لازم أستاذه النسابة الإخباري الشريف أحمد بن زيد آل يحيى، والمؤرخ الطائفي، الأديب محمد بن سعيد آل كمال، وأثنى عليه علامة الجزيرة الشيخ حمد الجاسر. واهتم بالبحث التاريخي لا سيما ما يتعلق بالطائف فقد كتب عدة مقالات فيه، من ذلك كتاب: "معالم الطائف" وهو مخطوط، وكتاب: "الطائف في عهد الملك عبد العزيز"، ورسالة يرد فيها على كتاب "ماضي الحجاز وحاضره"، ومقالة بعنوان "الصخيرة ليست قرية الحجاج بن يوسف"، وغير ذلك. كما اهتم بالبحث الجغرافي من خلال كتابه "العيون في الحجاز وبعض أوديته"، والمقالات: "دجنا غير دحنا" انتصر فيها إلى أن دحنا ودجنا موقعان، "جلدان" موقعه في الطائف، و "عكاظ بين المحققين والعابثين" بين فيه موقعه، "طائف ثقيف" في القرن الأول والذي حدده بأنه جبل ابن منديل، وخارطة لمنطقة الطائف وضواحيها وفيها سوق عكاظ ودرب اليمن القديم الذي في أرجوزة الرداعي وفيها تحديد بعض المواضع الاثرية، "سوق مجنة" بين فيه موقعه، وغير ذلك، واهتم بعلم الفرائض والمناسخات، ومارسهما فترة من الزمن[٢٢].

خامسًا: أهم آثار الشهادات النَّسَبية

١- وثائق أو شهادات الأنساب الموثوقة المثبتة؛ من مصادر التاريخ، مثلها في ذلك مثل كتب التراجم، وكتب الرحلات، والمراسلات ونحوها، فهي شواهد التاريخ بكل ما هي عليه من معان ناطقة.

٢- يُستَفاد من شهادات الأنساب الموثوقة المثبتة في معرفة التراجم الواردة للتوثيق على الشهادة.

٣- **الآثار النسبية** لشهادات الأنساب الموثوقة المثبتة، **كثيرة ومتعددة**، على رأسها حفظ أنساب تلك الأسر، ودعمت تماسكها وتقاربها وتعارفها وتلاقيها ببعضها، حتى لو تباعدت أماكن السكنى.

سادسًا: نص وصورة أصل الشهادة النسبية

نشر نص الشهادة النسبية دون تصحيح أو إضافة أو تعديل، وإيرادها في وضعية مكتوبة ومصورة.

الحمد الله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه: أما بعد لما كان الأشراف ذوي الشريف خيرات القاطنين بمنطقة خيزان من المملكة العربية السعودية هم من عقب الشريف خيرات بن شبير بن بشير ابن محمد أبي نمي الثاني ولا يتطرق إلى نسبهم هذا أي شك بل هو واضح وثابتة في جميع المصادر التاريخية والمشجرات القديمة المحفوظة لدى النمويين من أشراف مكة المكرمة علاوة على ما بأيدي الأشراف ذوي خيرات أنفسهم من مستندات شرعية فأننا نصادق الشريف أحمد بن علي بن الحسن ابن محمد بن يحيى بن محمد أبوطالب بن محمد بن أحمد بن محمد بن خيرات بن شبير بن بشير بن محمد أبونمي الثاني على صحة نسبه ونسب جماعته إلى جدهم الأعلا الشريف خيرات المذكور وذلك منا إحقاقًا للحق وإبراء للذمة والله على ما نقول وكيل وشهيد وصلى الله على محمد وآله وصحبه د ن حرر ١٣٩٢/١٢/٢هـ

علي بن أحمد بن منصور الكريمي

الشريف شاكر بن هزاع بن عبد الله العبدلي

قائم مقام مكة المكرمة

الشريف محمد بن فوزان الحارثي

الشريف فايز بن هزاع الحارثي

الشريف عامر بن ونيس العبدلي

الشريف فؤاد زين العابدين آل غالب ذوي زيد

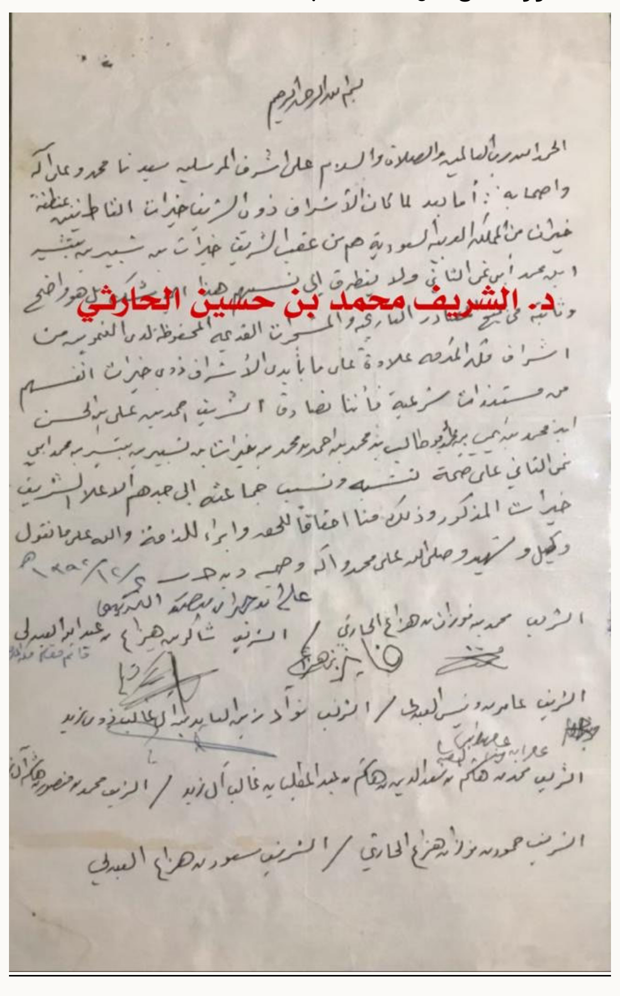
الشريف محمد بن هاشم بن هاشم سعدالدين هاشم بن عبد المطلب بن غالب آل زيد

الشريف محمد بن منصور بن هاشم آل زيد

الشريف حمود بن فوزان بن هزاع الحارثي

الشريف سعود بن هزاع العبدلي.

صورة أصل شهادة النسب:



خاتِمَةٌ

نستخلص من هذه الدراسة الوثائقية، شديد عناية أشراف الحجاز بحفظ وضبط وتدوين أنسابهم منذ القرون الأولى حتى وقتنا الحاضر، فظهر في العقدين الأخيرين عدد وافر من الكتب والبحوث ومشجرات الأنساب المحققة المدققة، والتي استثمرت خير استثمار وسائل وأدوات التقنية الحديثة في الطباعة والنشر.

الاحالات المرجعية:

(١) الشاهين: محمد عمر، **نصوص ووثائق تاريخية**، دار الفكر – الأردن- عمان، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م- ١٤٣٠هـ، ص١٩.

(٢) الشاهين: **نصوص ووثائق تاريخية**، ص٢١؛ الحجيلي: عبد الله بن محمد بن سعد، علم التوثيق الشرعي، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص٣٥.

(٣) علم التوثيق الشرعي، ص١٩-٢٠.

(٤) الشريف: ناجي الهجاري، **الجمان في تاريخ ينبع على مدار الزمان**، وإتحاف السائل في وثائق القبائل في العصر العثماني، دار البصائر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م، ص١١٩.

(٥) الحارثي: الشريف محمد بن حسين، **الاستشراف على تاريخ أبناء محمد الحارث الأشراف**، دراسة تاريخية وثائقية، مؤسسة الريان-بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م، ص٤٧١.

(٦) الهاشمي الأمير: إبراهيم بن منصور، **رسائل في أصول وقواعد علم النسب**، خير جليس للنشر والتوزيع- جمهورية مصر العربية، الطبعة الثانية، ١٤٣٩ه/ ٢٠١٨م، ص١٩-٣٠، ص٣٨.

(٧) الحارثي: الشريف محمد بن حسين، **الاستشراف على تاريخ أبناء محمد الحارث الأشراف، دراسة تاريخية وثائقية**، مؤسسة الريان-بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م، ص١٣٨-١٤١.

(٨) لمزيد من التفاصيل عن الأشراف آل أبي طالب آل خيرات. انظر: العنقاوي: أحمد ضياء، **معجم أشراف الحجاز في بلاد الحرمين**، مؤسسة الريان-بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، المجلد الثاني، ص٨٠٨.

(٩) لمزيد من التفاصيل عن الأشراف آل خيرات. انظر: العنقاوي: **معجم أشراف الحجاز**، المجلد الأول، ص٤٣٣.

(١٠) يُعَرَّفُ علم الوثائق في اللغات الأوروبية باسم "علم الديبلوماتيك"، وقد أُشتق ذلك الاسم من الكلمة اليونانية (Diploma) ومعناها صحيفة مطوية، وقد سميت كذلك لأنها كانت تكتب في الأزمنة الماضية، إما على قراطيس البردي، أو قطع الرق، أو الورق عندما انتشرت صناعته في العالم، ثم تطوى الصحيفة بحيث تصير ملفوفة، وتحزم أحياناً بشريط من الجلد أو القماش، وقد يختم على هذا الشريط حفظاً للوثيقة من العبث والتزييف. للمزيد انظر: عيسوي: عصام أحمد، **مدخل لدراسة الوثائق العامة في مصر**، الإسكندرية، دار الثقافة العلمية،٢٠٠١م.

(١١) العنقاوي: أحمد ضياء، **معجم أشراف الحجاز في بلاد الحرمين**، مؤسسة الريان- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، المجلد الثالث، ص١٢٠٥؛ الهاشمي الأمير: الشريف إبراهيم بن منصور، **عناية أشراف الحجاز بأنسابهم والمصنفات التي عنيت بتدوينها**، مؤسسة الريان- بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص٣١.

(١٢) العنقاوي: أحمد ضياء، **معجم أشراف الحجاز في بلاد الحرمين**، مؤسسة الريان- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، المجلد الأول، ص٢١٥؛ موقع موسوعة ويكيبيديا: (شاكر بن هزاع العبدلي) https://ar.wikipedia.org/wiki/

(١٣) انظر صور الخطابات والمراسلات في كتاب: الحارثي: **الاستشراف على تاريخ أبناء محمد الحارث الأشراف**.

(١٤) الهاشمي الأمير: **عناية أشراف الحجاز بأنسابهم**،ص٤٤.

(١٥) الحارثي: **الاستشراف على تاريخ أبناء محمد الحارث الأشراف**، ص٣٤١.

(١٦) الحارثي: **الاستشراف على تاريخ أبناء محمد الحارث الأشراف**، ص٣٣٤.

(١٧) العنقاوي: أحمد ضياء، **معجم أشراف الحجاز في بلاد الحرمين**، مؤسسة الريان- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، المجلد الثالث، ص١٥٣١.

(١٨) العنقاوي: **معجم أشراف الحجاز في بلاد الحرمين**، المجلد الثاني، ص٧٠٢.

(١٩) ترجمة شخصية من ابنه الشريف طراد بن فؤاد آل غالب.

(٢٠) العنقاوي: **معجم أشراف الحجاز في بلاد الحرمين**، المجلد الثاني، ص٧٠٢.

(٢١) ترجمة من الشريفين الكريمين (عبد الإله بن ونيس العبدلي، وشاكر بن ونيس العبدلي).

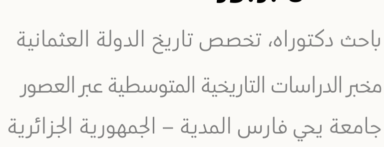
(٢٢) العنقاوي: **معجم أشراف الحجاز في بلاد الحرمين**، المجلد الثاني، ص٨٧٨؛ الهاشمي الأمير: الشريف إبراهيم بن منصور، **الإشراف على المعتنين بتدوين أنساب الأشراف**، مؤسسة الريان- بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ج١، ص٤٠٣.

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

توظيف التّاريخ الكمّي الثّقافي
"نظرية الأجيال" عند سيار الجميل أنموذجًا





د. حسن بربورة

باحث دكتوراه، تخصص تاريخ الدولة العثمانية

مخبر الدراسات التاريخية المتوسطية عبر العصور

جامعة يحي فارس المدية – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّص

فتح التّاريخ الكمّي Quantitative History وسائل وآليات منهجيّة جديدة أمام المؤرخين للبحث التّاريخي الاستردادي، والاقتراب أكثر من الحقيقة التّاريخية، من خلال إجراء العمليات الإحصائية التراكمية كبديل عن الدراسات التقليدية. وتعتبر دراسة المؤرّخ العراقي سيّار الجميل "المجايلة التّاريخية، فلسفة التّكوين التّاريخي، نظرية رُؤيوية في فلسفة تاريخ الثقافة العربية والمعرفة الإسلامية" نموذجًا لتوظيف هذا التاريخ الكمّي، حيث اعتمدت برامج بحثية إحصائية على الكمبيوتر، تدرس، تُحصي وتُحلّل أعداد العلماء، الولادات، الوفيات والأمكنة، وتُقدّم إحصاءات بأعداد الكتب وتوزيعاتها في الأزمنة والأمكنة، في دراسةٍ تستجلي أهمية الأجيال العربية الإسلامية، على امتداد قرابة خمسة عشر قرنًا (٥٩٩-٢٠٩٩م)، من تطوُّر الثّقافة والمعرفة في الحياة الإنسانية. لقد أدرك الجميل الفرق الشّاسع بين كتابة التاريخ، والكتابة عن التاريخ أو في التاريخ، وهو الفرق نفسه بين التّاريخ والمعرفة التّاريخيَّة، لذا فقد حاول المؤرِّخ أن ينقل التَّاريخ إلى شروط المدد الطويلة، حتى لا نتيه في زمن تشظّي المعاني وتشتُّتِها، ولعلَّها مهمة المؤرخ الأولى والرئيسية في زمن العولمة، الذي بالكاد نجد فيه شيئًا يجمعنا، ويستحقُّ تضحيتنا، كي ما يبقى مستمرًا ومتواصلاً. إن كتاب "نظرية الأجيال"، ومن خلال توظيف التَّاريخ الكمِّي، يعتبر نظريةً رؤيويةً ذكيّةً لدراسة تاريخنا الحضاري، مُدعّمةً بالأمثلة، الشّواهد، الرسوم، الأرقام والجداول، كُتبت بمنهجيّةٍ جديدةٍ، من أجل إعادة تركيب الحياة الثَّقافية في تاريخ العرب والمسلمين، لكن بالمقابل فإن هذا المبحث الجديد، وبسبب ارتباطه بالتِّقنيَّة وبالعالم الرَّقمي، التي وبقدر ما فتحت من آفاقٍ واسعةٍ للإبداع والابتكار، بقدر ما تطرح مسائل منهجيةٍ ومعرفيةٍ عويصةٍ حول "التَّاريخ الكمِّي أو التَّاريخ بالعدد".

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٠٥	فبراير	٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر:	٢٦	فبراير	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

التاريخ الكمّي؛ الإحصائيات التراكمية؛ المجايلة التاريخية؛ سيار الجميل؛ نظرية الأجيال

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.220370

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

حسن بربورة. "توظيف التاريخ الكمّي الثّقافي: نظرية الأجيال عند سيار الجميل أنموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الحادي والخمسون؛ مارس ٢٠٢١. ص ٧٠ – ٨٠.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: hassen.barboura@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

مُقَدّمَةُ

إن غياب النّهج الكمّي، والوسائل التقنية والإحصائية في الدراسات التاريخية، يعني غياب لجوانب كثيرةٍ من الحقيقة التّاريخيّة، من هذا المنطلق اهتمت كثيرٌ من الدّراسات بالتّاريخ الكمّي والإحصائي، إمّا بشكلٍ شاملٍ كدراسة المؤرخ إبراهيم العسكر: (التاريخ الكمّي)، ودراستي المؤرخ مصطفى زايد: (الإحصاء والتّاريخ الإسلامي)، (الإحصاء والبحث التاريخي)، أو كدراساتٍ تحليليةٍ ضمن التّأريخ لفترةٍ معينة، كدراسة المؤرخة الهام أحمد البابطين: (الحياة الاجتماعيّة في مكّة منذ ظهور الإسلام حتى نهاية العصر الأموي)، ودراسة المؤرخ عز الدين عمر موسى: (علماء المدينة في العصر الأموي من خلال طبقات خليفة بن خياط)، إضافة لدراسة المؤرخ المغربي محمد حالي: (الزّيجات والولادات عند عيّنةٍ من الصّحابة المهاجرين البدريين)، والتي اعتمد فيها نصوصًا وروايات إخباريّةٍ مصدريّةٍ، كما تعتبر دراسة المستشرق الفرنسي "شارل بيلا" Charles Bellat: (هل يمكن معرفة معدل المواليد في زمن النبي صلى الله عليه وسلم؟ البحث عن طريقة)، ترجمة فاطمة عصام صبري، من نماذج الدّراسات التحليليّة الكمّية عن عصر النبوة.

هذا وتعتبر دراسة المؤرخ العراقي سيّار الجميل، موضوع البحث:"نظرية الأجيال المجايلة التّاريخيّة: فلسفة التّكوين التّاريخي تحقيب الثّقافة العربيّة الإسلاميّة"، أحد أبرز الأعمال العلميّة العربيّة في القرن العشرين، ونموذجًا لتوظيف التّاريخ الكمّي Quantitative History، الذي فتح وسائل وآلياتٍ منهجيّةٍ جديدةٍ أمام المؤرخين، للبحث التّاريخي الاستردادي، والاقتراب أكثر من الحقيقة التّاريخية، من خلال إجراء العمليّات الإحصائيّة التّراكميّة، كبديلٍ عن الدّراسات التّقليديّة، وقد ضَمَّنَهُ مُؤلّفه نظرية رؤيوية في فلسفة تاريخ الثّقافة العربيّة والمعرفة الإسلاميّة، مُلبيًا بذلك حاجات الأمّة في معالجة حاضرها، من أجل تكوين مستقبلها، ومُفصحًا عن عظمة حضارة العرب والمسلمين، ومستكشفًا أسرار تواصل ثقافتهم.

وقد اعتمد المؤلف في دراسته على برامج بحثيةٍ إحصائيةٍ عديدةٍ، تدرس، تُحصي وتُحلّل أعداد العلماء والولادات والوفيات والأمكنة، وتُقدّمُ إحصاءاتٍ بأعداد الكتب وتوزيعاتها في الأزمنة والأمكنة، في دراسة تستجلي أهميّة الأجيال العربية الإسلاميّة، على امتداد قرابة خمسة عشر قرنًا (٥٩٩-٢٠٩٩م) من تطوُّر الثّقافة والمعرفة في الحياة الإنسانيّة، بتركيب خمسةٍ من العصور الكُلّيّة، التي كوّنتها تواصلات خمسين من الأجيال الجزئية.

فما هي مهمة المؤرّخ الكمّي؟ وكيف وظّفت (نظرية الأجيال) المنهج الكمّي الثّقافي في التاريخ العربي الإسلامي؟ وما النتائج المستخلصة من ذلك؟ وما أهمية هذا المنهج الإحصائي في التأريخ للفترات والمراحل الكبرى في تاريخ الأمم؟

أولاً: تقديم المصدر

سيار كوكب علي الجميل، أستاذٌ ومؤرخٌ أكاديمي عراقيٌ، من مواليد سنة ١٩٥٢م بمدينة الموصل، لأُسرةٍ تُعنى بالثّقافة (آل الجميل)، فوالده خرّيج كلية الحقوق، كما أن جدّه "علي الجميل" كان صُحفيًا في الحكومة الوطنيّة العراقيّة سنة ١٩٢١م، وأحد رجال التّنوير في الموصل[١].

أكمل سيار الجميل دراسته الأولى في الموصل، وتخرّج من قسم التاريخ سنة ١٩٧٤م، لينتقل بعدها إلى انكلترا حيث أكمل دراساته في الجامعات البريطانية: "ردنك"، "اكسفورد" و"سانت اندروس" الاسكتلندية، التي نال فيها دكتوراه الفلسفة (التاريخ الحديث) سنة ١٩٨٣م[٢]، ليعود بعدها إلى العراق، وينتسب إلى كلية الآداب سنة ١٩٨٤م، إضافةً لعمله كمُحاضرٍ في العديد من الجامعات العربيّة، ويستقرّ به الحال بعد ذلك في الأردن، ومنها إلى قطر ثمّ كندا[٣]. وقد حصل المؤرخ على عدة جوائز منها: جائزة شومان للعلماء (١٩٩١م)، براءة تقدير (١٩٩٢م)، قلادة الإبداع للعلماء المتميزين النمسا (١٩٩٥م)، وجائزة "الكوريار الدولية" في كتابات العراق (٢٠٠٤م)، كما ألّف أزيد من ٣٠ كتابا منشورًا[٤]، إضافة لمؤلفات قيد النشر منها: الجاندريون (الصُّدور العظام العثمانيُّون دراسةٌ وثائقيّةٌ)، الأطوار الانتقالية في التاريخ، التّكوين التاريخي الحديث للخليج العربي، إضافةً لعديد الدّراسات باللّغتين العربيّة والإنجليزية[٥].

وتتلخّصُ رؤية الجميل للتاريخ، كونه مصدر إلهام للشعوب للاندفاع نحو إثبات ذاتها، وتحقيق أهدافها، لكنه بالمقابل يرفض تقديس التاريخ، ويعيب على المؤسّسات الثّقافية والإعلامية تمسُّكها بالمفاهيم الخاطئة عن الماضي وعن الزمن، وعن التاريخ بالذات والتراث، ويصل إلى نتيجة قاسيةٍ ربما، وهي أن العرب لا يزالون بعيدين عن فهم التاريخ، لذلك هم يُعيدون صُنع المآسي.

أما الكتاب والموسوم بـ: "نظرية الأجيال: المجايلة التاريخية، فلسفة التكوين التاريخي تحقيب الثقافة العربية الإسلامية" فقد جاء ضمن ما يقارب ٧٠٠ صفحة، وصدر عن دار الأهلية للنشر والتوزيع، بكل من عمّان وبيروت في طبعته الأولى سنة ١٩٩٩م[٦]، كما صدرت له الطبعة الثانية ببيروت سنة ٢٠١٨م، والتي تولى نشرها المركز الأكاديمي للأبحاث العراق-

تورنتو-كندا. وهو كما يقول مؤلفه عنه: "مساهمة في مجال التّحقيب التّاريخيّ[٧] Periodization وسيرورة التّاريخ؛ لفهم الزّمن العربيّ ودوره في التّاريخ العالمي"[٨]. يتضمّن الكتاب إضافةً لـ:(نبذة عن المؤرخ، مقدمة كل من الطبعتين الثانية والأولى، الخلاصة والاستنتاجات)، ستة فصول[٩] تبدأ بالفصل الأول (المدخلات: التّحقيب التاريخي والمنهج الكمّي)، ويستعرض فيه المؤلف معنى التّحقيب، إطارهُ العام وأبعاده الفلسفية، مدارس ومناهج التّحقيب التاريخي الحديثة، كما يُعرّف بالتاريخ الكمّي واتجاهاته المنهجية، إضافة لمهمة المؤرخ الكمّي وكيفية توظيفه لقواعد البيانات، وصوليًا إلى أُسس التاريخ الاجتماعي الجديد، والتاريخ الكمّي الثقافي.

ويتناول الفصل الثاني الفرضيّات البحثيّة:(المنهج، الرؤيّة والتّفكير)، وكل ما يتعلق بنظريته (سلاسل الأجيال) من مُقدّمات، إشكالات، تفسيرات، وجوانب اجتماعية، المنهج العام وآليات العمل، ليصل إلى جملة من الاستنتاجات المعرفية. كما يُعالج الفصل الثالث نظريّة الأجيال، أو ما اصطلح عليها "المجايلة التّاريخيّة"، من خلال مناقشة نظامها وتطبيقاتها، بالتعرُّض لمسار التّكوينات الثقافية أوليًا، ثم توصيف المضامين والتراكيب عبر الأجيال الإسلامية ثانيًا، انطلاقًا من الجيل الأول أو ما سمّاه (جيل التأسيس والتكوين والابتكار)، وصولا إلى آخر جيلين؛ الجيل التّاسع والثّلاثون (جذور الإصلاحيَّة السّلفية العربية)؛ والجيل الأربعون (وهو جيل نهاية التراكيب القديمة). أما الفصلين الرابع والخامس من الكتاب، فيُفضيان إلى التّطبيقات، ومنتجات المجايلة التّاريخيّة، بدايةً بفحوصات الثّقافة العربيّة الإسلاميّة، وتفسير البيانات والقياسات الكمية التي كانت حصيلة أتعاب مكثّفة، وجهود كبيرة للمؤلف في البحث والاستقصاء، وإخضاع المعلومات لأكثر من برنامج على الحاسب الالكتروني.

لتختتم الدراسة بالفصل السادس والمعنون بـ: (عصرنا الأخير أزمنة النهضة العربية)، وهو محاولة لإعادة فهم التكوينات التاريخية في ضوء فلسفة المجايلة، حيث يستعرض المؤلف تراكيب المجايلة النهضوية، بداية بالجيل الواحد والأربعون الذي حدّده بالفترة (١٧٩٩-١٨٢٩م) وهي فترة التأسيس النّهضوي، ثم جيل التّنظيمات العثمانيّة (١٨٢٩-١٨٥٩م)، فجيل اليقظة الدستورية (١٨٥٩-١٨٨٩م)، ثم جيل الاستنارة الفكرية (١٨٨٩–١٩١٩م)[١٠]، فجيل الليبرالية الوطنيَّة (١٩١٩–١٩٤٩م)، ثم جيل المدّ القومي الراديكالي (١٩٤٩-١٩٧٩م)، فالجيل السابع والأربعون (١٩٧٩-٢٠٠٩) أو ما سمّاه جيل الماضويات، ليقدّم في آخر هذا الفصل، تحليل للمكونات الثّقافية لأجيال القرن العشرين، والمستلزمات المستقبلية للأجيال القادمة كأحد مُخرجات البحث[١١].

في النهاية يختم المؤرخ سيار الجميل كتابه بمجموعة من الإحالات والملاحظات، إضافة لملحق: "جدولية المجايلة التاريخية في تكوينات الثقافة العربية الاسلامية" (ص ص٤٨٧-٦١٠)، مع توضيح تسع نقاط أساسية في كيفية قراءة جداول المجايلة التاريخية[١٢]، وآخر ما ينتهي به الكتاب، قائمة ضخمة من المصادر والمراجع والتي ضمّت أزيد من ثلاثمائة وستون دراسةً، أغلبها باللغات الأجنبية (الانجليزية والفرنسية)، منها ثلاثة وثلاثون مصدرًا أساسيًا.

مما سبق يتّضح أن الكتاب سواءً في مُدخلاته أو مضامينه واستنتاجاته، يتضمَّن جملةً من المحدّدات والمفاهيم أهمُّها: تحديد معاني المجايلة التاريخية، ومعالجة الأفكار التي يمكن الاستفادة منها في فهم سلاسل الأجيال، من خلال الوقوف على سمات ومواصفات كُلَّ جيلٍ، وتوضيح تراكيب الأجيال العربيَّة وتطور النُّخب الثّقافية، وصوليًا إلى حصيلة الاستنتاجات المعرفية لهاته الدراسة، والتي شكّلت الرؤية المستقبليَّة، من خلال التّساؤل الذي يطرحه المؤلف: في أيِّ جيلٍ نحن؟ وفي أي عصر تاريخي نعيش؟ وما المتغيّرات نحو المستقبل؟[١٣]

ثانيًا: التاريخ الكمِّي الثقافي ومهمّة المؤرخ

تواجه المؤرخين إشكالاتٌ منهجيَةٌ عِدَّة، عند دراستهم لظروف عيش المجتمعات التاريخية وأنماطها، بسبب نُدرة المصادر وشُحَّ الوثائق، فيضطرُّون إلى البحث عن مناهل مصدرية جديدة، واستعمال مقاربات وآليات منهجية مُستعارة من علوم أخرى، كالاستقصاء الإثنوغرافي أو المناهج الكميّة[١٤]، لعلّها تُمكّنهم من استنطاق جديد للنُّصوص، وقراءات مُتجدّدة للمعطيات، كما يؤكد ذلك قول شونو: "ظنّ البعض أن التاريخ الكمّي يُفتّت وحدة الدراسات التاريخية، لكن الجميع اقتنع الآن بأنه أعاد إلى الإنسان وحدته في إطار التّنوع الذي يعني بالذات الشّمول والكُلّية"[١٥] لذلك فقد أصبح التاريخ الكمِّي (الإحصائي)[١٦] أحد المناهج الجديدة، التي حاولت الدراسات التّاريخيَّة الحديثة توظيفها، في محاولة للاقتراب من العلوم الاجتماعيَّة، والسَّعي للاستفادة من الأدوات الكمّية والإحصائيَّة وبرامج الكمبيوتر[١٧]، في عملية بناء الجداول واحتساب الأرقام ومعرفة الأوزان، إضافةً للتعمُّق في الكشف عن الحسابات

والحجوم والأعداد، وبذلك تتيح سلسلة المقارنات للمؤرخ باستنباط الاستنتاجات الأخيرة حول موضوع بحثه[١٨].

لكن يشترط ألاّ يكون نطاق استخدام التّقدير الكمّي واسع جدًا[١٩]، وأن تكون الإحصاءات وسائل وليس غاياتٍ في حدّ ذاتها، حيث يُلاحظ أن كثير من الباحثين قد يتحمّس لاستخدام الطُرق الاحصائيَّة في مجال الدراسة البحثية، ما يوقع أحيانيًا وبسبب سوء الاستخدام في أخطاءٍ جسيمةٍ[٢٠]. ويفترض المنهج الكمِّي بتقنياته المتعدّدة، القُدرة على تحويل الظَّاهرة إلى عددٍ من المؤشّرات القابلة للقياس، أو العمل على تطويع المؤشرات الكيفية إلى مؤشّرات قابلة للقياس الكمّي، (مثل تحليل المضمون، وتحويل النص إلى عدٍّ للكلمات، أو قياس للمساحة، أو الزَّمن الذي يستغرقه نصٌّ ما.. إلخ)[٢١]

ومنذ الستينيات من القرن الماضي، ساعد تقارب اتِّجاهاتٍ منهجيَّةٍ ثلاثٍ[٢٢]، في ظهور التاريخ الكمِّي، بدايةً بالموضوعات والحقول المدروسة تاريخيا، حيث عوّلت عليه بعض المدارس التاريخية الحديثة[٢٣] في أوربا والولايات المتّحدة الأمريكية خُصوصًا في دراستها للتّواريخ الاقتصادية[٢٤]، الدّيمغرافية، تاريخ المدن الصِّناعيَّة، الطبقة العاملة، التاريخ الزّراعي، ناهيك عن تاريخ الأسعار والعُمُلات، والتّواريخ الثّقافية للشُّعوب[٢٥].

أمَّا الاتّجاه الثاني فيتمثّل في الثَّورة المعرفية، وظهور حركةٍ طالبت بجعل التَّاريخ أحد العلوم الاجتماعيَّة، التي تُكرِّسُ للبحث عن حقائق الماضي بتطبيقاتٍ صارمةٍ، وبما يتفق مع الأساليب العلميَّة الاجتماعيَّة في دراسة السلوك البشري الماضي، وهذا بعد حركة المؤرخين الاقتصاديين الذين تقدّموا بنظرية الاقتصاد القياسي، وهي ذات محتويات رياضية منهجية لدراسة المسائل التاريخية، كما فعل رائد "التاريخ الاقتصادي الجديد" روبرت فوغل[٢٦] في دراسته للاقتصاد الأمريكي خلال القرن ١٩م[٢٧].

أما الاتجاه الثالث الذي شجَّع على تنامي التاريخ الكمِّي، فكان ظُهور الثّورة الرقميّة ممثّلةً في أجهزة الكمبيوتر، التي كانت في بدايتها بأيدي عُلماء الطّبيعيات فحسب، لكن سرعان ما حاول علماء الاجتماع الاستفادة من كمّ المعلومات والبيانات الهائلة، التي يمكن تحليلها واستغلالها، وكان ذلك مدخليًا من أزمنة التَّقاليد إلى عصر المركزيَّة المعلوماتيَّة، لكن رغم استفادة كثيرٍ من العلوم من الكمبيوتر الرَّقمي، فإن معظم المؤرخين ظلّ يُلازمهم الخوف، إلى غاية عقد الثمانينيات وحُلول البرمجيات السّهلة لمعالجة النُّصوص وعمليات المقايسة، الجدولة، والمقارنة واستخلاص النتائج في النّهج الإحصائي، فانتقلت تسجيلات التّاريخ الحديث من الورق والسّجلات والملفات، إلى قواعد بيانات مُحوسبة[٢٨]، ورغم ذلك لا يزال المؤرخين غير مستفيدين منها بشكلٍ كافٍ في قراءة التاريخ الكمِّي[٢٩].

وبالحديث عن التاريخ الكمِّي "الثقافي"، يرى المؤرخ سيار الجميل أن التاريخ الثقافي في أساليب بحوثه، لا يقتصر على درس البيانات الحديثة، فثمّة معلوماتٌ وإحصاءاتٌ قديمةٌ، تتناثر في كتب تراثية ومخطوطات ودواوين شعر ووثائق وموسوعات[٣٠]، ويُعَدّ الفارابي[٣١] أول مؤسّسٍ لهذا النَّوع من التاريخ الكميّ الثقافيّ في كتابه "إحصاء العلوم"، حيث ضمّن ذلك في مقدمته[٣٢]. فضليًا على أن المؤرخ الثّقافي الكمِّي يتناول في إحصاءاته الكتب، المؤلفين، الخطّاطين والنسّاخ، التّجمعات الثّقافية، وكثير من المصطلحات واللّهجات والعادات والتقاليد الثقافية، إضافةً للمعارف التقليدية، المهرجانات والأسواق الثّقافية، الرسوم والخرائط والكتب ودور النشر والمراكز التّضقافية، المتاحف والمعارض وغيرها[٣٣].

ثالثًا: توظيف المنهج الكمِّي في نظرية الأجيال (الأساليب، الآليات والمجالات)

٣/١-الأساليب والآليات

يذكر المؤلف من بين الأساليب والآليات والمناهج المعاصرة التي اعتمدها في دراسته، الاستفادة من المنهج البُنيوي[٣٤]، في متابعة التّراكيب الفكرية والثقافية العربية الإسلامية، مع المزاوجة بين المنهج القياسي والتاريخ الكمِّي، أو ما يعرف فرنسيًا Periodisation chronologique lineaire et periodisationepisemique "التَّقسيمات الزمنيةَ المحدِّدة، والتَّقسيم الابستيمي"، إضافةً إلى متابعة المقارنات بين النتائج البنيوية (الفكريَّة) والقياسيَّة (المعرفية)، والظَّواهر التَّاريخية (السياسيَّة والاجتماعيَّة /المدينيَّة) في الحياة العربيَّة الإسلاميَّة[٣٥]. وقد أفضت هاته الآليات العملية المنهجية إلى ثلاث تأسيساتٍ هي أوليًا: إقامة توازن بين الأنساق المركّبة للتكوين الثّقافي العربي الإسلامي، ثانييًا: تأسيس مُحدّدات ارتكازية لمعرفة موقع كل نسق (الفواصل الزَّمنية لِكُلِّ موضوعٍ)، وثالثيًا: تأسيس للتَّواصل بين عناصر هذا النّسيج المرّكب، بين جيلٍ وآخرٍ (تواصل الأجيال)[٣٦].

وقد أُخضِعَت كل المعلومات المحصّل عليها -والتي لم تكن انتقائية كما قد يعتقد البعض- للفحص والمقارنة، من خلال الرجوع إلى عِدّة مصادر أساسية وثانوية، لتبدأ بعد ذلك عملية البرمجة، بناء الجداول، إنجاز الأشكال والرسوم البيانية[٣٧]، من

خلال المنهج القياسي للمعلومات(٣٨)، مع الابتعاد عن تحليل النُّصوص، أو شرح الآراء والأفكار، وإثارة الإشكاليات وتفسير الموضوعات وترسيم السِّير والتّراجم، والتي يقول المؤلف أنَّه يتركها لمن يريد خوض غمار هاته التجربة، من الباحثين والعلماء حاضرًا ومستقبليًا، والاستفادة من موضوعه بمُحدّداته وتشعُّباته، وعلى النّهج الذي رسمه أو ما يُشابهه ويُطوِّره ويُثريه(٣٩).

٢/٣-المجالات

يقول الجميل: "عندما عرضت عملي على المؤرّخ الأمريكيّ جيري بنتلي(٤٠) في سانت انتوني بجامعة أكسفورد، والّذي له نظريّته هو الآخر في التّحقيب التّاريخيّ، انشدَّ إلى مفهوم سلاسل الأجيال، وقد أُعجب بالثّقافة التّاريخيّة العريقة لدى العرب، واعتبرها الوحيدة في هذا العالم التي اهتمّت بالإنسان في سيره وتكوينه وإنتاجه، وخصوصيًا في دراسته وأساتذته وبيئته.. فكيف هي إذا ما استخدم فيها المنهج الكمّي!"(٤١)، وفعلاً فقد وظّفت دراسة المؤرخ (تحقيب الثقافة العربية الإسلامية) المنهج الكمّي في عديد المجالات أهمها:

(٢/٣) ١-في التّحقيب التاريخي:

إن فكرة التّحقيب، مُستلهمةٌ من مبدأ الانقسام، ومنه تقسيم العالم، وتقسيم الزّمن(٤٢)، وبذلك فالتّحقيب محاولةٌ لتصنيف أو تقسيم الزّمن/التاريخ إلى كُتلٍ مُنفصلة ومركَّبَة، بهدف معرفيّ ووصفيّ تجريديّ يوفّر معالجة مفيدة للتاريخ البشريّ(٤٣)، والتي يقول عنها المؤرخ: "لديَّ القناعة التّامّة بأنّها ستجد ضالتّها في يوم من الأيّام، خصوصيًا أنّ العمل لم يقتصر على كونه نظريّة مجرّدة في فلسفة الحياة أو التّاريخ، بل إنّها تضمُّ تطبيقات في سيرورة التّاريخ؛ معتمدةً على وحداتٍ كبرى وأخرى صغرى، في سلاسل متعاقبةٍ لفهم الزّمن العربي، ودوره في التّاريخ العالمي.."(٤٤)

ويُعدُّ التّحقيب الإشكالية المحورية التي تدور عليها أبحاث التَّاريخ الثَّقافي، إذ يتمُّ من خلاله تحديد أزمنة الفعل الثَّقافي، وإعادة قراءة تراثها، وصوليًا إلى العلاقة بين ماضيها وحاضرها، بل وتأسيس آفاق مستقبلها ذاته(٤٥)، وقد استفاد مؤرخنا في ذلك من دراسات من سبقوه في هذا المجال، حيث أن تحقيب التاريخ العربي والإسلامي عالجته دراسات كثيرٍ من المؤرِّخين، منهم: "دوميناك سورديل"، الذي نجح في وضع تحقيب على أساس الدول والكيانات من خلال مبدأ الخلافة، و"فيليب حتّي" الذي قدّم تحقيبًا على أساس الزّعامات، كما قدّمت "مارلين روولدمان" تحقيبًا على أساس الثقافة والمجتمع الإسلاميين،

وقدَّم "ألبرت حوراني" تاريخه التَّحقيبي على أساس الرُّؤية الموحَّدة للنظامين السِّياسي والاجتماعي، كما اتَّخذ المؤرخ الأمريكي "مارشال هودجسن" التَّشكيل الحضاري أساسًا لتحقيبه(٤٦)، في حين أن "محمد أركون"(٤٧) قد أقامه على أساس التّشكيل الفكري(٤٨)، أما "هشام شرابي" فقسّمه على أساس الأبوية الإسلامية –العربية(٤٩)، كما ساهم المؤرخون المغاربة في النِّقاش الدائر حول موضوع تحقيب تاريخ المسلمين، وبحثوا في طبيعة موقع المغرب من هذا التاريخ، محاولين إيجاد بديلٍ يستبعد فيه أيَّ تأثير للتَحقيب الأوربي، الذي هيمن على الباحثين فترةً طويلةً، فقدم كل من: "عبد الله العروي"(٥٠)، و"أحمد التوفيق"(٥١) محاولاتٍ في التَّحقيب للتَّاريخ المغربي.

من جانبٍ آخر أيضًا، استفاد المؤلف الجميل من أفكار المؤرِّخ "بنتلي"، في تحقيب تاريخ العالم، وأفكاره وتطبيقاته التي أسماها "عِبْرَ التَّفاعل الثَّقافي"، والتي استلهمها بشكلٍ أكيدٍ من الثّقافة التَّاريخية العربيَّة، والتي يقف المسعودي(٥٢) على رأسها، أو تلك التي أكّدَ عليها الجغرافيون العرب الأوائل(٥٣).

إن جيري بنتلي يحدّد منذ البداية منهجه، إنه يلتقط جملة من الأفكار التاريخية عن الثقافة التاريخية القديمة في المعرفة والعلوم العربيّة الإسلاميّة(٥٤)، ويقول: "المؤرِّخون يعرفون جيدًا أن تحديد فترات التَّاريخ، هو الأكثر تماسكًا وإتعابًا"، ولكنَّه لا يُفصح عمّن قصد بالمؤرخين العارفين جيدًا بمسألة التَّحقيب، وهو منهجٌ صعبٌ للغاية، لكن الدكتور الجميل يُفصح بجُرأةٍ أن المسعودي ومدرسته، ومَن جاء من بعده وينهج نهجه، هم الذين قدّموا للبشرية ذلك الاكتشاف الذي سبق أصحابه عصرهم بقرون طوالٍ، ليقدموا في البواكير الأولى نظرية يؤسِّسون من خلالها لمنهجٍ كاملٍ في التَّحقيب(٥٥).

(٢/٣) ٢-في التّكوين السياسي والحضاري للعرب والمسلمين:

يقدم الجميل في كتابه المجايلة التاريخية، إحصاءً كمّيًا شاملاً لأبرز إنجازات الحضارة العربية الإسلامية، من خلال سردٍ لأبرز المؤلَّفات في مختلف مجالات فنون العلم والمعرفة، فلقد تفوَّق "الفارابي" في إحصاء العلوم لأوّل مرَّةٍ، وصحَّت أرقام "الكندي"(٥٦) عن مسافات البحار، فهي أقرب إلى الحقيقة من تلك التي كتبها بطليموس، وأسَّسَ "الجاحظ" أفكار النشوء والتطوُّر، و"أسّس المسعودي" للمعرفة الموسوعية للعالم، وأسّس ابن "خردابة" علْمَ البلدان، وأسس ابن خلدون عِلْمَ العمران البشري (الاجتماع)، وأسّس الطبري تدوين الحوليات التاريخية وفق التسلسل الزمني، وصنَّف "ابن خلكان" في التَّراجم والمعرفة

البلدانيّة، وأسّس الخطيب البغدادي للمحلّيّات (التاريخ المحليّ)، وأسّس "الجرجاني" لتفكيك النّص الشعري، وأسّس ابن الأثير فنّ الكتابة، و"ابن قدامة" لنقد الشعر، وأثرت مدرسة "حنين بن إسحاق" في الترجمة، و"القلقشندي" في الإنشائيّات، وسجّل "أبو الفرج الأصفهاني" في كتابه "الأغاني" منهجًا من الاعترافات الصريحة للمعاني وغيره، أمّا في الجغرافية الإنسانية عند العرب والمسلمين؛ كما يُسمّيها المستشرق الفرنسي "أندريه ميكال"(٥٧)، فلقد كانت ينبوعًا معرفيًّا للجغرافية التاريخية، التي تطوّرت تطوّرًا كبيرًا في القرن العشرين(٥٨).

هكذا فإنّ الثّقافة العربيّة الإسلاميّة بحسب "الجميل"، هي من أبرز الثّقافات التي اهتمّت بحياة أبنائها، وتراجم أعيانها ومستويات طبقاتها، وسِيَرِ زعمائها وقادتها وعباقرتها، وهي ظاهرةٌ لم تكن وليدة تطوّر تلك "الثّقافة" وثقل عناصرها، بل إن جذورها تعود إلى اهتمام العرب منذ القدم بالإنسان، عضوًا في وحدة اجتماعيّةٍ قويّة عند العرب هي "القبيلة" وعليه، فإن خصوصيّة العرب الاجتماعية، إنما تفصح عن تمسُّكهم واعتزازهم بـ"الأنساب" و"الأصلاب" و"الأرحام"، كأحد أبرز المعايير الاجتماعية التي مَيَّزَت العرب عن غيرهم، علما بأن النّسّابين العرب كانوا يحفظون أنساب العرب قاطبةً، مُشافهةً وروايةً.(٥٩)

كما يدعو الباحث إلى ضرورة الفصل بين التّكوينات الثّقافية والتّكوينات السّياسية، في الحياة التّاريخية العربيّة- الإسلاميّة: تكوينٌ سياسيٌّ تابعٌ لتاريخ الدّولة، وتكوينٌ حضاريٌّ تابعٌ لتاريخ المجتمع، ليُوضّح أنّ هذه "الثنائية" المتباعدة والتي لم يدركها بعد إلّا النُّدرة القليلة، هي السّبب في جعل الرّأي العام وحتى أغلب المختصّين والمثقّفين، في عالمنا العربي والإسلامي لا يميّزُ بين التاريخ والشّرع، وبين الخلافة والسّلطنة، أو بين العلوم النّقليّة والعقليّة، وبين الشّورى والديمقراطية..(٦٠).

حيث أدّى استبداد الأنظمة العربية إلى ردّة فعلٍ حتى عند العرب أنفسهم، الذين بدأ جزءٌ كبيرٌ من "مثقفيهم" النّظر إلى عروبتهم باستهجان واضح، ويسود منذ عدة عقود أن "تاريخنا هو ماضٍ وليس تاريخا بالمعنى الدقيق"، ونسب كُلّ جميلٍ فيها لغير العرب، هذا ما يقترفه ويردّدُه "المثقفون" بلا وازعٍ من ضمير، وبلا أدنى شُعورٍ بالمسؤولية(٦١)، بل وصار كل ما هو ماضٍ في الحياة التاريخية العربية- الإسلامية هو زاهرٌ رائعٌ، وأنّ كلّ ما هو حاضرٌ اليوم لديه قاصرٌ خانعٌ(٦٢).

لكن المؤرخ سيار الجميل ووفقًا لمنهجيةٍ علميةٍ صارمةٍ، يُبيّن بأن الحضارة العربية- الإسلامية، لم تكن مجرّد سُلطةٍ سياسيةٍ بقدر ما كانت مَدَنيّةً معرفيّةً، وتُراثًا بشريًّا ناتجًا عن حضارةٍ واعيةٍ تمام الوعي، ومُنتشرةٍ تمام الانتشار، بفعل قوّة مُكتسباتها ومُنتجاتها(٦٣)، إنها كما قال الباحث، ثقافة مدنٍ فاعلةٍ، متوقّدةٌ إبان ازدهار العقل والتّفكير، فبغداد كأبرز عاصمةٍ حضاريَّةٍ عربيَّةٍ-إسلاميّةٍ ازدهرت بتكويناتها الثّقافية المتنوعة في العصور الوسطى، ووصل تعداد سكّانها إلى رقم يُقدَّر بـ:٩٠٠ ألف نسمة (أي قرابة مليون)في القرنين ٣-٤هـ/١٠م، ووصل عدد نفوس مدينة قرطبة في الأندلس خلال الزمن نفسه إلى ٤٥٠ألف نسمة (أي قرابة نصف مليون)(٦٤).

كما تُخصّص نظرية الأجيال جانبًا لدور المرأة(٦٥)، فقد اشتهرت الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة بوجود النساء في فضائها الحضاريّ، وتُخبرنا صفحات التّاريخ الثّقافي والعلمي عن المجهودات المتميّزة للنِّساء المثقفات اللاّتي كان لهنَّ العطاء الثقافي المتنوّع في حياتهن الأدبية، الفنية، الاجتماعية والعلمية، ويُقدّم المؤرخ من خلال جدول إحصائي مُهم(٦٦)، عدد النسوة في بغداد وحدها في القرنين ٥و٦هـ/ ١١و١٢م، وأن عدد النساء الشّاعرات والكاتبات قد بلغ (١٨٩) امرأة؛ منهنّ (١٥) امرأة عِشْنَ في القرن ٥هـ/١١م، و(٨٥) امرأة عِشْنَ في القرن ٦هـ/١٢م، و(٨٠) امرأة امتدّتْ حياتهن إلى أوائل القرن ٧هـ/ ١٣م، و(٩) كُنَّ من المخضرمات بين القرنين ٥-٦هـ/ ١١ -١٢م، كما تُوضّح لنا الإحصائيَّة أنّ (١٤٩) امرأة من المجموع الكلي كُنّ من المحدّثات. كما كان للمرأة المثّقفة جُهودها في التّدريس والأستذة للعديد من رجالات الثّقافة العربيَّة الإسلاميَّة، وفي تخصصات شتّى، كما كان لها أنشطةٌ في بناء بعض المراكز العلمية والدّينية ورعايتها، وخصوصًا عندما تصل إلى مركز فعّال في السُلطة ، ومن أشهر المدارس مدرسة "تركان خاتون الجلالية"، ومدرسة "زمرد خاتون" وغيرها، إضافةً للمساجد والرّباطات(٦٧).

(٣/٢) ٣-في عالميَّة الحضارة الإسلاميَّة:

انطلاقًا من وجهة نظر "هيغل" G.W.F. Hegel (١٧٧٠-١٨٣١م)(٦٨)، يطرح الباحث سؤالًا: أين تقف كونية الحضارة العربيَّة- الإسلاميَّة؟(٦٩) وبلا شكّ فإن الحضارة العربية- الإسلامية خضعت لهيمنة هذه الإرادة، لا سيما في بواكير مراحلها الأولى وأجيالها التّأسيسية، إذ نجد الولاء الجمعي نفسيًّا واجتماعيًّا للإرادة الواحدة، التي عُدّت رابطا أساسيّا جمع بواسطته عدة حالات متباينة في حالة واحدة ضمن أنظمة فكرية متنوعة، وقد تميّز العرب المسلمون عن غيرهم من الشُّعوب، في ميراثٍ ضخمٍ يُعنى بالسِّير والتّراجم، وهو ما يخدم في بناء المجايلة التاريخيّة(٧٠).

فتاريخ العرب المسلمين الحقيقي، ليس مجرد حُكّام وأُسَرٍ وسلطاتٍ وتمزُّقاتٍ سياسيَّةٍ وانقساماتٍ داخليَّةٍ، فهذا التُّراث الضَّخم من موسوعاتٍ، ومعاجم السِّيَرِ والتَّراجم، لأعلام هذه الأمَّة، يوَضّح ويُثبت أنه تاريخُ نموٍّ حضاريٍّ متراكمٌ في تقاليده وحفظه، على أيدي سلاسل عنقوديةٍ متواصلةٍ من العلماء والطلبة (=الأستذة والتلمذة) من جيل إلى آخر، بمعنى أنَّ كُلَّ جيلٍ، هو أستاذٌ للذي يليه، سواءً في العلوم الدينيَّة أو غيرها[٧١]، فما من "كاتبٍ" شاعرًا أو فقيهًا أو مؤرخًا أو جغرافيًّا أو نحويًّا أو متفلسفًا، إلّا ولديه أساتذةٌ درس عليهم، وتلاميذ درسوا على يديه، إذ تخبرنا مئات السّير وتراجم الأعلام وكتب الطبقات، أن هناك تأكيدًا واضحًا على جانبين أساسيين: أولهما الاحتفاظ بنزعة انتماء كبيرٍ لِكُلِّ جيلٍ سابقٍ من أيّ جيلٍ لاحقٍ، اعترافًا بفضله ودَين أساتذته، الذين كانوا يمثّلون حلقةً واحدةً من سلسلة حلقاتٍ متوارثةٍ ومتواصلةٍ عن أجيال سابقةٍ، من أجل تكوين أجيال لاحقة، ثانيهما التَّعبير الخصب والمتنوّع عن واقع مُتعدِّد الجنبات، غنيٌ بالتَّفاعلات، مُتباينٌ في النَّزعات، مُثقلٌ بالنُّخب والطَّبقات[٧٢].

خَاتِمَةٌ

لقد أدرك الجميل، الفرق الشَّاسع بين كتابة التاريخ، والكتابة عن التاريخ أو في التاريخ، وهو الفرق نفسه بين التَّاريخ والمعرفة التَّاريخيَّة، لذا فقد حاول المؤرِّخ أن ينقل التَّاريخ إلى شروط المدد الطويلة، حتى لا نتيه في زمن تشظِّي المعاني وتشتُّتِها، ولعلَّها مهمة المؤرخ الأولى والرئيسية في زمن العولمة، الذي بالكاد نجد فيه شيئًا يجمعنا، ويستحقُّ تضحيتنا، كي ما يبقى مستمرًا ومتواصلاً. وقد حاول الجميل في كتابه، أن يقدم تاريخًا يستنطق الثَّقافة العربيَّة-الإسلاميَّة، مُضفيًا على الحقب والمراحل والفترات التَّاريخية طابعًا واقعيًا، ليتحوَّل التَّاريخ بهذا المعنى من وعاءٍ يشتمل على أشياء، إلى بناءٍ يحتمل معاني ودلالاتٍ.

ومن أهم الاستنتاجات التي نخلص إليها من دراسة الكتاب وتوظيف التَّاريخ الكمِّي الثقافي:

- أن التاريخ هو وصف الماضي، وصف بمعناه الواسع، فهو لم يعد مجرد سرد كيفي، بل يشمل التَّفسير والتَّأويل والتَّصنيف، والمقارنة والتوقيت والتسلسل..، وهذه كُلُّها عملياتٌ متطورةٌ، تخضع لقواعد المنطق ومناهج وطرق البحث، وضرورة توظيفها لعددٍ كبيرٍ من الأساليب الكميَّة، التي تنتمي إلى علوم وتخصُّصاتٍ شتَّى: كالرِّياضيات والإحصاء والاحتمالات وبحوث العمليات وغيرها.
- إنه –كتاب المجايلة التاريخية- دعوةٌ للتَّأريخ، وإعادة ما سبق تأريخه، بمراعاة التَّطورات الكبيرة والإمكانات المتاحة، والتي أصبح معها التَّاريخ التقليدي غير كافٍ لتحقيق الأهداف والتّطلعات، فمؤرخ اليوم يتاح له من الإمكانات ما لم يكن متاح له من قبل، وبحكم مسؤوليته، عليه أن يستثمر ذلك ليس فقط فيما ينتجه اليوم، بل أيضا فيما أنتجه بالأمس.
- إن الأساليب الكميَّة أصبحت ضرورةً للمؤرِّخ، في سبيل تحصيل الخبرة وتكوين الحس التَّاريخي، فالكمُّ أصبح لغة العرض والنشر في كافَّة مصادر المعلومات، كما أنَّ الأساليب الكميَّة لازمةٌ للباحث التَّاريخي، في كل مراحل بحثه، خاصَّةً فيما تعلَّق بإعادة تحقيق وتشكيل التُّراث وتنقيته، والانتفاع منه.
- تبنَّت "نظرية الأجيال" أصول وتطبيقاتٍ جديدةٍ، لا تعتمد على التَّقسيمات المعروفة والمألوفة للتَّاريخ، بل تعتمد على وحدتي (الماكرو) و(المايكرو) في التَّحقيب للتَّاريخ العربي الإسلامي، حيث أن هناك ١٥٠٠ سنة (٥٩٩-٢٠٩٩م) بدءًا بجيل الرسول -صلى الله عليه وسلم- الذي بدأ حقيقة سنة ٥٩٩م، وانتهاءً بالجيل الأخير القادم بعد حوالي مائة سنة من اليوم ٢٠٩٩م، وهاته الفترة قابلةٌ للتَّقسيم خماسيًا، مُولّدةً خمسة عصورٍ كُبرى، عُمْرُ كُلُّ عصرٍ ٣٠٠سنة (ماكرو) هي: (عصر التَّدوين، عصر الإبداع، عصر الموسوعيَّة، عصر السُّكونية وعصر النّهضوية)، كما يتضمَّن كُلُّ عصرٍ عشرة أجيالٍ.
- يضمُّ كُلَّ عصرٍ حسب (نظرية الأجيال) عشرة أجيالٍ، حيث عُمْرَ كُلِّ جيلٍ ٣٠سنة (مايكرو)، وهذا باعتبار حياة الإنسان في معدّلها ستُّون سنةٍ، مُنقسمةً إلى قسمين اثنين، فالإنسان يعايش جيلين اثنين، وقد حدّدت النظرية عُمُرَ كُلِّ جيلٍ بثلاثين سنةٍ، إذ يتكوّن ويتعلّم في الأول، ويجايل وينتج في الثاني، وقد أطلق المؤرخ على كل جيل اسمًا خاصًّا به، مستلهما ذلك من التطبيقات المعقدة للمعرفة ضمن قياسات المجال والآجال.

أخيرًا إن كتاب "نظرية الأجيال"، ومن خلال توظيف التَّاريخ الكمِّي، يعتبر نظريةً رؤيويةً ذكيّةً لدراسة تاريخنا الحضاري، مُدعّمةً بالأمثلة، الشّواهد، الرسوم، الأرقام والجداول، كُتبت بمنهجيّةٍ جديدةٍ، من أجل إعادة تركيب الحياة الثّقافية في تاريخ العرب والمسلمين، لكن بالمقابل فإن هذا المبحث الجديد، وبسبب ارتباطه بالتِّقنيّة وبالعالم الرَّقمي، التي وبقدر ما فتحت من آفاقٍ واسعةٍ للإبداع والابتكار، بقدر ما تطرح مسائل منهجيةٍ ومعرفيةٍ عويصةٍ حول "التَّاريخ الكمِّي أو التَّاريخ بالعدد".

الاحالات المرجعية:

(١) عمر محمد الطالب، **موسوعة أعلام الموصل في القرن العشرين**، مركز دراسات الموصل، العراق، ٢٠٠٨، د.ص.
(٢) إبراهيم خليل العلاف، **"سيّار الجميل وموقعه في حركة الكتابة التاريخية العربية المعاصرة"**، مجلة الحوار المتمدن، ع٢٩٠٤، فيفري ٢٠١٠، د.ص.
(٣) إبراهيم خليل العلاف، **"إسهامات مركز الدراسات الإقليمية في كتابة تاريخ وتراث تركمانستان"**، مجلة دراسات إقليمية، جامعة الموصل، العراق، ٢٠١١، ص١١.
(٤) من بين أبرز مؤلفاته نذكر: العثمانيون وتكوين العرب الحديث ١٥١٦-١٩١٦م (أربع مجلدات)، بقايا وجذور التكوين العربي الحديث، العرب والأتراك الانبعاث والتحديث من العثمنة إلى العلمنة، العثمنة الجديدة، زعماء وأفندية، حصار الموصل، المجال الحيوي للخليج العربي، التحولات العربية وغيرها. للمزيد يُنظر: سيار الجميل، **نظرية الأجيال المجايلة التاريخية: فلسفة التكوين التاريخي تحقيب الثقافة العربية الإسلامية**، ط٢، المركز الأكاديمي للأبحاث، بيروت، ص ص٦-٧.
(٥) نفسه، ص٨.
(٦) سمر ماضي، **"المجايلة التاريخية: نظرية رؤيوية، مشهد منهجي عربي جديد في فلسفة التكوين التاريخي"**، جريدة الحياة، لندن، ١٨ ماي ١٩٩٩، د.ص.
(٧) للمزيد حول موضوع التحقيب يُنظر:**"ندوة أسطور: التحقيب في التاريخ العربي الإسلامي"**، مجلة أسطور، ع٣، يناير ٢٠١٦، ص ص٢٢٣ -٢٩٢.
(٨) سيار الجميل، **"نظرية الأجيال المجايلة التاريخية: فلسفة التكوين التاريخي"**، تاريخ النشر: ٢٠١٨/٠٤/٠١، تاريخ الزيارة: ٢٠١٩/١٢/٢٧، موقع الدكتور سيار الجميل على الخط:
http://sayyaraljamil.com/2018/04/01/4940.html
(٩) ستة فصول، بعكس الطبعة الأولى الصادرة سنة ١٩٩٩، والتي تتألف من مدخل (التّحقيب التاريخي والمنهج الكمّي)، وخمسة فصول فقط، وقد نجح الكاتب في هاته الطبعة الثانية أن يجعل من المدخلات فصليًا جديدًا، كما تتضمن هاته الطبعة الثانية استنتاجاتٍ معرفية جديدة.
(١٠) تعتبر الاستنارة الفكرية العربية خلال القرن التاسع عشر بنظر المؤرخ، الركيزة الأساسية لحياة النهضة العربية الحديثة والمعاصرة، والتي كانت وراءها عوامل تاريخية أساسية من أهمها: الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام، الإرساليات التبشيرية، الجمعيات والمجامع العلمية واللغوية والأدبية، الطباعة والصحافة العربية، البعثات العلمية إلى أوربا، الترجمة والمدارس الحديثة. يُنظر: الجميل، **نظرية الأجيال..** المرجع السابق، ص٤٤٦؛ يُنظر أيضًا: محمد عابد الجابري، **"المثقف العربي وإشكالية النهضة: رؤية مستقبلية"**، مجلة اليقظة العربية، ع٤، السنة ٢، أفريل١٩٨٦، ص٩٨.
(١١) الجميل، **نظرية الأجيال..**، المرجع السابق، ص ص٩-١٤.
(١٢) أهم هاته النقاط أن لكل جيل من الأجيال (٣٠ سنة) جدول خاص به، يقسم إلى ستة أو سبعة حقول، ترقيمًا وأعلامًا، وعلامات فارقات، وتخصيصات، وولادات ووفيات، أعمارًا وآجالاً، بيئات وتوطُّنات، أيضًا اقتصر تدوين الجداول ورسمها على أشهر رجالات الثقافة العربية، كما تتوقف الجدولة عند الجيل الخامس والأربعون، أي جيل ما بين الحربين العالميتين ١٩١٩-١٩٤٩م باعتبار أن الجيلين التاليين لم يدخلا بعد في عداد التاريخ. يُنظر: الجميل، المرجع السابق، ص ص٤٨٥-٤٨٦.
(١٣) نفسه، ص ص٢٨-٣٠.
(١٤) طارق مداني، **"المؤرخ والمقاربات الكمية: حول الدراسات الديموغرافية لبعض الحواضر الإسلامية عرض أطروحات وإثارة تساؤلات"**، مجلة أسطور، ع٤، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، تموز/يوليو ٢٠١٩، ص ص٧-٣٢.
(١٥) الجميل، **نظرية الأجيال..**، المرجع سابق، ص٧١.
(١٦) تمثّل الأفكار والأساليب الإحصائية أساس كل جوانب الحياة الحديثة تقريبًا، سواءً كان هذا الدور واضحًا أو مختفيًا، ويُعرَّف الإحصاء عمومًا على أنّه: "تكنولوجيا استخراج المعنى من البيانات". **يُنظر**: ديفيد جيه هاند، **مقدمة قصيرة جدًا في علم الإحصاء**، تر: أحمد شكل، مر: محمد فتحي خضر، ط١، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٦، ص ص٩-١٠.
(١٧) بما أن مناهج الإحصاء صارت تُستخدم على مستوى عالمي، ولأن الكمبيوتر يلعب مثل هذا الدَّور المحوري، فقد غيَّر جهاز الكمبيوتر منذ ظهوره علم الإحصاء بقوة، وليس من المستغرب تطوُّر حزم برامج إحصائيّةٍ أخرى سهلة الاستعمال، والتي يُعدُّ بعضًا منها مهمٌ لدرجة أنها أصبحت معايير في مجالات تطبيق معينة. يُنظر: هاند، مرجع لسابق، ص ص١١٠-١١١.
(18) William O.Aydelotte, Allan G.Bogue and William Fogel,**"QuantifyingHistory, The Dimensions of Quantitative Research in History"**,The Journal of Interdiciplinary History, Vol5, No2, Autumn 1974, pp303-312, Review: Robert Forster, Published by: The MIT Press, Stable URL: https://www.jstor.org/stable/202512 ,Accessed:02-01-2020 11:19 Utc, p306.
(19) Aydelotte, Op.Cit, pp304-305.
(٢٠) خلود علي هادي، **"تطور استخدام الأسلوب الكمي في الدراسات الخرائطية عبر التاريخ"**، مجلة كلية التربية الأساسية، مج١٧، ع٧٠، العراق، ٢٠١١، ص ٢٥٤.
(٢١) وليد عبد الحي، **"تكامل التقنيات المنهجية الكمية والكيفية في الدراسات المستقبلية"**، مجلة استشراف للدراسات المستقبلية، ع١، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، ٢٠١٦، ص٢٦.
(٢٢) الجميل، **نظرية الأجيال..**، مرجع سابق، ص ص٥٦-٥٩.
(٢٣) نذكر في هذا الصّدد مدرسة الحوليّات الفرنسية والتّاريخ الجديد، والتي دعت إلى "الإحياء الكُليِّ للماضي"، ومن روّاد هذا الاتجاه مارك بلوخ، الذي عمل في كتابيه: (الصِّفات الأصليَّة لتاريخ الرِّيف الفرنسي)، و(المجتمع الإقطاعي) على تحليل العوامل الاقتصاديَّة، كما اتَّجهت مجلة الحوليَّات التي أسَّسها، لا إلى نشر الدراسات التَّاريخية الاقتصاديَّة

والاجتماعيَّة فحسب، وإنما نحو تحليل العوامل الاقتصاديَّة والطبيعيَّة والفكريَّة في بنية المجتمع، وإضافةً لتوجُّهات مدرسة الحوليَّات، فإنَّ مدرسة الاستشراق الأمريكي، ألغت بدورها المناهج الاستشراقيَّة التَّقليدية، وأعطت أهميةً لمناهج العلوم الاجتماعيَّة كبديل. يُنظر: مصطفى زايد، **التاريخ الكمّي مع تطبيقات في التاريخ الإسلامي**، القاهرة، ٢٠٠٠، ص٣٦؛ يُنظر أيضًا: إبراهيم بن عمار، **"خصائص الاستشراق الأمريكي المُتجدّد"**، الحوار المتوسطي، مج٩، ع١، مارس ٢٠١٨، ص٣٤٢.

(٢٤) نشأت الأمة الأمريكيَّة في عصر الثَّورة الرأسماليَّة الديمقراطيَّة، لذلك فقد امتاز مجتمعها بكون الدِّراسات التَّاريخيَّة استندت فيه دائمًا إلى الاقتصاد والإحصاء (التاريخ الاقتصادي الجديد)، فكان تاريخها معاصر بكل معاني الكلمة، حيث تُعوّض الأحكام الكيفيَّة المدعّمة أحيانًا بأرقام متناثرة، بأنساقٍ من المعادلات مأخوذةٌ بحذافيرها من الاقتصاد الكمّي، وباستعمال الحواسيب الالكترونيَّة القوية، وهكذا فقد بدأت "ثورة الكم" أو الرقم في البحوث التَّاريخية في أمريكا أوليًا، ومنها انتقلت إلى أوربا، حيث الوثائق الرقميَّة الكثيرة والمنسّقة. **يُنظر**: عبد الله العروي، **مفهوم التاريخ الألفاظ والمذاهب المفاهيم والأصول**، ط٤، المركز الثقافي العربي، بيروت-الدار البيضاء، ٢٠٠٥، ص ص١٣٦-١٣٧.

(٢٥) سيار الجميل، **"التاريخ الكمي"**، مركز الحسو للدِّراسات الكميَّة والتُّراثيَّة، تاريخ النشر: ٢٤سبتمبر ٢٠١٦
https://www.ahmadalhasso.com/1575160415781575158516101582-575160416031605161016041604160415831603157816081585157516041580160516101604.html

(٢٦) روبرت ويليام فوغل Robert W. Fogel (١٩٢٦-٢٠٠٣م): من مواليد مدينة نيويورك الأمريكية، لأسرةٍ هاجرت من مدينة "أوديسا" في روسيا، والتحق بجامعة كورنيل Cornell University سنة ١٩٤٨م، ليحصل بعدها على الماجستير سنة ١٩٦٠ من جامعة كولومبيا Columbia University، وليتخصَّص في جامعة هوبكنز Hopkins University١٩٦٣م، بالتاريخ الاقتصادي، موظفًا الأساليب الإحصائيَّة، وقد حقَّق بذلك شهرةً واسعةً بين المؤرِّخين الاقتصاديين، كما حصل على جائزة نوبل في الاقتصاد سنة ١٩٩٣م. **يُنظر:**
Daniel B.Klein and Ryan Daza,"Ideological Profiles of the Economics Laureates", Econ Journal Watch,Vol 10, N° 3, Sep 2013 , p316-325.

(٢٧) حاول "فوغل" من خلال دراسته تفسير السبب الرئيسي لسرعة نمو الاقتصاد الأمريكي خلال القرن التاسع عشر الميلادي، والمتمثل في ظهور وتوسع خطوط السكك الحديدية. يُنظر: Robert William Fogel and Elton.G.R, "Which Road the Past Two Views of History", yale University Press, 1983.

(٢٨) توجد أكبر قاعدة بيانات للتَّاريخ الكمّي في العالم (كونسورتيوم للبحوث السياسية والاجتماعية ICPSR)، في جامعة ميتشغان بالولايات المتحدة الأمريكية. **يُنظر**: الجميل، **نظرية الأجيال..**، مرجع سابق، ص٥٩.

(٢٩) الجميل، نفس المرجع السابق، ص٥٩.

(٣٠) نفسه، ص٦٤.

(٣١) **أبي نصر محمد بن محمد الفارابي (٨٧٠-٩٥٠م)**: على اختلاف بين المؤرخين في تاريخ المولد والوفاة، أما عن أصله فيقول ابن النديم في الفهرست: (أصله من الفارياب من أرض خراسان)، أما البيهقي في كتابه المخطوط في تاريخ الحكماء، فيذكر أنه من فارياب (تركستان)، ويبقى الأرجح أنه من أصل تركي، نشأ الفارابي محبًا للفكر والفلسفة وللتّرحال والأسفار، حيث سافر إلى العراق سنة ٣١٠هـ، ودرس المنطق والعلوم العربية، كما تنقّل بين عدة بلدان منها مصر والشام، وترك تراثًا فكريًا يزيد على ثلاثة وخمسون كتابًا، منها ٢٥ رسالة في المنطق، وسبعة شروح على منطق أرسطو، كما ألّف كتبًا أخرى منها: المدينة الفاضلة. يُنظر: **موسوعة ستانفورد للفلسفة "الفارابي"**، تر: منى الرفاعي، مجلة حكمة، ٢٠١٧، ص ص١-٣؛ يُنظر **أيضًا:** مصطفى عبد الرازق، **فيلسوف العرب والمعلم الثاني**، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢، ص ص٤٢-٤٣.

(٣٢) "قصدنا في هذا الكتاب أن نحصي العلوم المشهورة علمًا، ونعرف جمل ما يشتمل عليه كل واحد منها، وأجزاء كل ما له منها أجزاء، وجمل ما في كل واحد من أجزائه، ونجعله في خمسة فصول: الأول في علم اللسان وأجزائه؛ والثاني في علم المنطق وأجزائه؛ والثالث في علوم التعليم، وهي العدد والهندسة وعلم المناظر وعلم النجوم التعليمي وعلم الموسيقى وعلم الأثقال وعلم الحيل؛ والرابع في العلم الطبيعي وأجزائه، وفي العلم الإلهي وأجزائه؛ والخامس في العلم المدني وأجزائه، وفي علم الفقه، وعلم الكلام". **يُنظر**: أبي نصر محمد بن محمد الفارابي، **إحصاء العلوم**، مركز الإنهاء القومي، بيروت، ١٩٩١، ص٧.

(٣٣) الجميل، **نظرية الأجيال**..، مرجع سابق، ص ص٦٤-٦٥.

(٣٤) **البنيوية**: يقول ميشيل فوكو: "من الصَّعب إعطاء مفهوم للبنيويَّة، لأنها تجمع اتجاهاتٍ، ومباحث وطُرُقٍ مختلفةٍ، إنها مجمل المحاولات التي تقوم بتحليل ما يمكن تسميته وثيقة"، وبالتَّالي يمكن القول إنها منهجيَّةٌ نقديةٌ تحليليةٌ، تقوم فلسفتها على اعتبار البنية الذَّاتية للظَّواهر، بمعزلٍ عن محيطها الخارجي والتَّأثيرات الأخرى، فهي تنظر إلى تلك الظَّواهر من الدَّاخل، وتفترض أنها مغلقةٌ على ذاتها. **يُنظر**: محمد بن عبد الله بن صالح بلعفير، **"البنيوية النشأة والمفهوم"**، مجلة جامعة الأندلس للعلوم والتقنية، مج١٦، ع١٥، سبتمبر ٢٠١٧، ص ص٢٤٠، ٢٤٢.

(٣٥) الجميل، **نظرية الأجيال..**، مرجع سابق، ص٨٢.

(٣٦) نفسه، ص ص٨٢-٨٣.

(٣٧) وظّف المؤرخ في دراسته أزيد من ثمانيةً وخمسون شكلاً، موزَّعةً على صفحات الدراسة (ص ص١٥٦-٤١٨)، وثلاث جداول (جدول تركيبي لضبط مقياس الأجيال قبل الإسلام ص١٤٨، جدولية للتكوينات السياسية الإسلامية ص١٦٩، جدولية منتجات المجايلة التاريخية للتكوينات الثقافية العربية الإسلامية ص٤١٦، وبيانات جدولية ص ص٤٨٧-٦١٠)، إضافة لثمانية رسوم بيانية لأعداد مشاهير العرب والمسلمين من الشعراء، النُّحاة واللُّغويين، المؤرخين الجغرافيين، الرحالة، العلماء والفلكيين والأطباء والمهندسين، علماء الدين، الأدباء والخطباء والإنشائيين والمترجمين، وأخيرا رسم بياني لنسب مشاهير المثّقفين، وهي كلُّها رسوماتٌ بيانيةٌ تتوزَّع بين ص ص٣٨٥-٣٩٤.

(٣٨) يعتني المنهج الكمذِي والتَّحليل القياسي للتاريخ، بثلاثة أصنافٍ من الجداول عبر الحاسوب: الجدوليَّة العدديّة التي تعتني بدقةٍ بالأرقام والإحصاءات المباشرة، الجدولية الاستبداليَّة التي تُرسم من خلال معلومات وثائقية لمعرفة المعدذّلات والنِّسَب، والجدولية المستنبطة التي يصل إليها الباحثون عبر عمليات ترقيميَّة، لتحويل توصيفات ومضامين، إلى أرقامٍ، أي تحويل الكيف إلى كمّ. **يُنظر:**

L.Festinger et D. Katz , **Les Methodes de Recherche dans les Sciences Sociales**, T1,PUF, Paris, 1963, PP350-378.

نقليًا عن: العروي، **مفهوم التاريخ**، مرجع سابق، ص١٤٣.

(٣٩) الجميل، **"نظرية الأجيال.."**، مرجع سابق، ص ص٨٥-٨٦.

(٤٠) **جيري بنتلي Jerry H. Bentley (١٩٤٩-٢٠١٢م):** مؤرخ أمريكي، من مواليد مدينة "ألاباما"، التحق بجامعة تينيسي، وتابع دراسات الدكتوراه في تاريخ النهضة في جامعة مينيسوتا. له عدَّة مؤلَّفات منها: "الإنسانيات والكتاب المقدس: منحة العهد الجديد في عصر النهضة" (١٩٨٣)، و"السياسة والثَّقافة في عصر النَّهضة نابولي" (١٩٨٧). **للمزيد يُنظر:**

Patrick Manning,**"Jerry H.Bentley (1949–2012)"**, Memoriam, Sep2012
https://www.historians.org/publications-and-directories/perspectives-on-history/september-2012/in-memoriam-jerry-h-bentley

(٤١) الجميل، **نظرية الأجيال..**، مرجع سابق، ص ص٢٥-٢٦.

(٤٢) نفسه، ص٤٤.

(٤٣) إنّ تقسيم التَّاريخ إلى عصورٍ وحِقَبٍ زمنيَّةٍ، عمليةٌ تقريبيةٌ، من أجل تسهيل دراسته من قبل المؤرِّخين والباحثين، وذلك بعد أن تطوّر حقل التاريخ، وتحوَّل إلى أحد العلوم الإنسانيَّة المهمَّة التي تهتمُّ بتطور الجنس البشري في زمان ومكان معين، فكلُّ حدثٍ تاريخي هو نتيجةٌ لعددٍ لا يُحصى من الأسباب، وبالتَّالي هو نقطة بدايةٍ لعددٍ لا يُحصى من الآثار المترتبة عليه. **يُنظر:** صالح حسين الجبوري، **"وجهة نظر في التحقيب التاريخي العثماني"**، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، مج١٣، ع٣، العراق، ٢٠٠٥، ص٣٥٠.

٤٤) الجميل، **"نظرية الأجيال المجايلة التاريخية: فلسفة التكوين التاريخي"**، مرجع سابق، د.ص.

(٤٥) قصي عدنان الحسيني، **"الإصلاح الفكري والتطور المعرفي في العصور الأندلسية قراءة تحقيبية جديدة"**، مجلة قرطاس المعرفة، السنة الأولى، ع٤، بغداد، ٢٠١٨، ص ص١٧٤-١٧٥.

(٤٦) في هذا الاتجاه قدّم "هودجسن" تحقيبًا للتاريخ الإسلامي داخل التاريخ العالمي، مُتجاوزًا محدودية التّحقيب الثلاثي الأوربي، حيث قسّم التاريخ الإسلامي إلى ست مراحل رئيسية كبرى هي : المرحلة الأولى من بداية الدعوة النبوية سنة ٦١٠م، وحتى نهاية الجيل الأول من الخلفاء الأمويين (٦٢٢-٦٩٢م)، المرحلة الثانية وتمثل ذروة الخلافة (٦٩٢-٩٤٥م)، فالمرحلة المتوسطية الأولى (٩٤٥-١٢٥٨م) وهي مرحلة التفتيت السياسي، وله أشكال سياسية متعددة منها بروز دول منفصلة عن الخلافة، المرحلة الرابعة (١٢٥٨-١٥٠٣م) والتي سيطرت فيها النخبة الحاكمة التركية –المغولية الجديدة، المرحلة الخامسة (١٥٠٣-١٨٠٠م) وتميزت بولادة ثلاث دول كبيرة العثمانية ، الصفوية والتيمورية وهيمنتها على العالم الإسلامي ، المرحلة السادسة، وتبدأ عام ١٨٠٠م وما تلقيه أوربا بكل تحوُّلاتها على العالم من صدمات إلى يومنا الحاضر. **يُنظر:** الجميل، **نظرية الأجيال..**، مرجع سابق، ص ص١٣٧-١٤٣.

(٤٧) محمد أركون (١٩٢٨-٢٠١٠م): من مواليد مدينة تاوريرت-ميمون بالجزائر، والتي بدأ فيها تعليمه الأول، ثم واصل تعليمه في كل من وهران والعاصمة، لينتقل منها إلى جامعة السوربون بباريس، حيث حصل على الدكتوراه في الفلسفة عام ١٩٦٨م، تفرغ بعدها للتأليف والتّدريس في عدة جامعات فرنسية: ستراسبورغ، السوربون، ليون ٢، باريس والسوربون الجديدة، وقد تميّز بأفكاره النّقدية للعالم الإسلامي، ومحاولة تجديد الفكر الإسلامي. للمزيد يُنظر:

Mohamed Nachi, **"Mohamed Arkoun (1928-2010) L'affranchissement de la raison critique en contextesislamiques"**, Hermès La Revue, n° 59, 2011, pp187-188.

(48) Mohamed Arkoun, **Religion et laïcité: Une Approche Laique de L'Islam**, L'Arbrelle, Centre Thomas More, 1989.

(٤٩) هشام شرابي، **النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي**، ط٢، تعريب: محمود شريح، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٣.

(٥٠) عبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، الرباط، مطبعة المعارف الجديدة، ١٩٨٤؛ **وراجع أيضًا: مفهوم التاريخ**، المركز الثقافي العربي، بيروت-الدار البيضاء، ١٩٨٤.

(٥١) أحمد التوفيق، **"تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر أفكار في التحقيب"**، مجلة المشروع، ع٩، الرباط، ١٩٨٨، ص١٣ وما بعدها.

(٥٢) **أبو الحسين علي بن الحسين بن علي المسعودي**: نسب نفسه إلى العراق، وقد وصفه ابن شاكر بأنه (كان إخباريا علامة صاحب غرائب وملح ونوادر)، كما كان رحالة وموسوعيًا بطبعه، عالج موضوعات متعددة في مؤلفاته التي يزيد عددها على الثلاثين، أشهرها "مروج الذهب" و"التنبيه". **للمزيد يُنظر:** محمد بن شاكر الكتبي، **فوات الوفيات**، تح: إحسان عباس، ج٣، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣، ص١٢. يُنظر أيضًا: جواد علي، "**موارد تأريخ المسعودي**"، مجلة كلية التربية، بغداد، ص ص١-٢.

(٥٣) الجميل، **نظرية الأجيال**..، مرجع سابق، ص٥١.

(٥٤) **للمزيد حول موضوع العلوم عند العرب والمسلمين يُنظر:** صالح أحمد العلي، **العلوم عند العرب : دراسة في كتبها ومكانتها في الحركة الفكرية في الإسلام**، الرسالة، بيروت، ١٩٨٩.

(٥٥) باسم فرات، "**نظرية الأجيال في الثقافة العربية الإسلامية لسيار الجميل**"، مجلة الجديد، ع٤٢، لندن، يوليو/تموز ٢٠١٨، ص١٥٢.

(٥٦) **أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي (١٨٥ هـ/٨٠٥م - ٢٥٦ هـ/٨٧٣م)**: علاّمة عربي مسلم، ولد بالكوفة، وبرع في عدة علوم، ويعد أول الفلاسفة المتجولين، كما اشتهر بجهوده في تعريف العرب والمسلمين بالفلسفة اليونانية القديمة والهلنستية، وحين ترجم له ابن النديم أحصى له نحو مائتين وثماني وثلاثين رسالة تناولت مواضيع مختلفة، نذكر منها: "رسالة في استعمال الحساب الهندسي"، "رسالة في علل الأوضاع النجومية"، "رسالة في صنعة الإسطرلاب"، "رسالة في التنجيم"، "المد والجزر". **يُنظر:** محمد عبد الرحمن مرحبا، **الكندي: فلسفته منتخبات**، ط١، منشورات عويدات، بيروت-باريس، ١٩٨٥، ص ص١١-١٥.

(٥٧) **أندريه ميكال Miquel André**: من مواليد جنوب فرنسا، سنة ١٩٢٩م، عمل عقب تخرجه بالمعهد الفرنسي للدراسات العربية، بكل من دمشق وبيروت، كما تولى التدريس في الجامعات الفرنسية فانسان والسربون، عمل بعدها مدير المعهد اللغات في الهند والشرق وشمال إفريقيا وحضارتها في جامعة باريس الثالثة، ثم عُيّن مديرا للمكتبة الوطنية الفرنسية سنة ١٩٨٤، وقد سخّر ميكال جهوده طوال مساره العلمي للأدب العربي. **يُنظر:** أحمد درويش، **الاستشراق الفرنسي والأدب العربي**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧، ص١٦-١٧.

(٥٨) ضمّن المؤرخ مشاهير المثقفين العرب والمسلمين ضمن ثمان رسوم بيانية على الحاسوب، هي بالترتيب: أعداد مشاهير المثقفين العرب المسلمين، أعداد الشعراء، النحاة واللغويين البارزين، المؤرخين والجغرافيين والرحالة، العلماء والفلكيين والأطباء والمهندسين، علماء الدين، الأدباء والخطباء والإنشائيين والمترجمين، نسب مشاهير المثقفين. وهاته كلها هي ما سماها (بقياسات الأنشطة الكمّية والنّوعية للتّكوينات الثقافية العربية الإسلامية)، بهدف معرفة نسب التصاعد والتنازل إزاء ثلاث ركائز أساسية هي: المجايلة الزمانية، المجايلة المكانية–المدينية، والمقابلات مع العصور التاريخية. **يُنظر:** الجميل، **نظرية الأجيال**..، مرجع سابق، ص ص٣٨٥-٣٩٤.

(٥٩) نفسه، ص ص٨٣-٨٤.

(٦٠) نفسه، ص٢١٢.

(٦١) فرات، مرجع سابق، ص١٥٣.

(٦٢) نفس المشكلة تقريبا أو ما يقاربها، يطرحها المفكر الإسلامي فهمي جدعان حين يعالج قضية التّقدم عند المسلمين، بالتّطرق لأُسُس الفلسفة الميتافيزيقية ونظرة المسلمين للتاريخ، وهي نظرة تتنازعها رؤيتان متناقضتان: نزعة تشاؤم، كُتب لها الانتشار، وعبّر عنها كثير من المفكّرين من مختلف المشارب، مستدِّلين بقوله صلى الله عليه وسلم: (خيرُ القُرُونِ قَرْني ثُمَّ الذِّينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الذِّينَ يَلُونَهُمْ)، وبالتالي فالرؤية أن الأمر دائما إلى انحدار وتنازل، وقد عبّر عن ذلك الطرطوشي مثليًا في كتابه (سراج الملوك)، مقابل نزعة التفاؤل التي تبنّاها التيار السلفي العلمي الذي أخذ من مدرسة الإسلام، كما أخذ من مدرسة الحكمة الإغريقية. **للمزيد يُنظر:** فهمي جدعان، **أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث**، ط٣، دار الشروق، عمّان، ١٩٨٨، ص ص٢٥-٥٣.

(٦٣) فرات، مرجع سابق، ص١٥٣.

(٦٤) الجميل، **نظرية الأجيال**..، المرجع سابق، ص٢١١.

(٦٥) **للمزيد يُنظر:** الفصل الثالث من الكتاب (دور المرأة ومجايلة النسوة المثقفات)، ص ص٢٠٥-٢٠٧.

(٦٦) **يراجع دراسة:** ناجية إبراهيم، **الجهود العلمية للمرأة خلال القرنين الخامس والسادس الهجري**، ط١، عمان، ١٩٩٦، ص٢٤٨.

(٦٧) الجميل، **نظرية الأجيال**...، مرجع سابق، ص٢٠٧.

(٦٨) يقول هيغل: "إن التاريخ البشري يتألّف من مراحل مختلفة، في كلّ منها تظهر الروحية الكونية ذاتها في روح أو إرادة معيّنة مجتمعية أو وطنية، هذه الروح (الإرادة) تسيطر في عصرها، ولكن لها حدودها، وعندما تهمل هذه الحدود، فإن روحا جديدة تنبعث في شعبٍ آخر". **للمزيد يُنظر:** جورج فيلهلم فريدريش هيغل، **محاضرات في فلسفة التاريخ، العقل في التاريخ**، تر: إمام إمام، ط٣، دار التنوير، بيروت، ١٩٨٣.

(٦٩) الجميل، **نظرية الأجيال**...، مرجع سابق، ص١٢٦.

(٧٠) فرات، مرجع سابق، ص١٥٤.

(٧١) الجميل، **نظرية الأجيال**..، مرجع سابق، ص١٢٨.

(٧٢) فرات، مرجع سابق،ص١٥٤.


ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

آليات تدبير الشأن الديني المسيحي في المغرب (١٨٥٠ - ١٩١٢)



محمد الصديق احمموشي
باحث في سلك الدكتوراه تخصص تاريخ معاصر
كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس فاس
جامعة سيدي محمد بن عبد الله – المملكة المغربية

مُلَخّص

يُطرح اليوم سؤال مركزي حول مسوّغات تدبير الاختلاف مع أقليات دينية تعيش في بلدان ذات أغلبية مسلمة، وكيف يتم تحويله إلى مصدر غنى وقوة، بعيدًا عن كل مبررات اللجوء إلى العنف والإقصاء باسم الإسلام. والمغرب استطاع في مرحلة من تاريخه تدبير تعايش المسلمين مع طوائف مسيحية تعاظم انتشارها منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، في الوقت الذي تنامى فيه أيضا العداء ضد الأجانب خصوصًا بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة ١٨٣٠م. وتأتي هذه الورقة البحثية، لتدخل الفترة ما بين ١٨٥٠-١٩١٢ إلى مشرحة التحليل، ولتتعاطى مع أبعاد ظاهرة تعايش المغاربة مع الأقلية المسيحية في توترها وديناميتها وأنماط علاقاتها التفاعلية، مع محاولة لتقديم الإجابات عن البياضات التي تركتها الكتابات السابقة. ولذلك ستكون الإشكالية كالآتي: كيف دبّر الحكام المغاربة الشأن الديني المسيحي في بلد يدين غالبيته بالإسلام، وفي فترة حرجة موسومة بالأطماع الاستعمارية؟ ولأجل ذلك، حاولنا معالجة هذا الموضوع من خلال محورين رئيسيين؛ في المحور الأول، تناولنا بعض الآليات التي اعتمدها الحكام المغاربة في تدبير الشأن المسيحي على أرض المغرب مثل الترخيص للطوائف المسيحية ببناء كنائسهم وتهيىء مقابر لدفن أمواتهم، وذلك ضمن سياسة واضحة ترمي إلى ضمان حرية المعتقد دون أي تعصب ديني أو إقصاء للأقليات الدينية. وفي المحور الثاني، حاولنا إبراز دور الديبلوماسية الدينية كآلية أخرى فعالة في تجسير الروابط التاريخية بين المغرب والفاتيكان بشكل خاص، وبين الإسلام والمسيحية بشكل عام. وعموما خلصنا إلى بعض الخلاصات ترتبط في مجملها ارتباطا وثيقا بالذهنية المتسامحة المتأصلة في المغاربة، واستعدادهم الفطري لقبول الآخر ومحاولة إدماجه في فضاءاتهم العامة والخاصة، مستندين بذلك إلى سياسة تقرّ بالاختلاف والتنوع، وتقوم على تدبير عقلاني للخلاف الموجود في الثقافة والدين.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	١٠	يناير	٢٠٢١
تـاريخ قبــول النشــر:	٢٨	يناير	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:
مسيحيون؛ حرية المعتقد؛ المغرب؛ الكنائس؛ الفاتيكان

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.220387

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
محمد الصديق احمموشي. "آليات تدبير الشأن الديني المسيحي في المغرب (١٨٥٠ - ١٩١٢)".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الحادي والخمسون؛ مارس ٢٠٢١. ص ٨١ – ٨٨.

Corresponding author: hmamouchiseddik@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

منذ حلول منتصف القرن التاسع عشر، دخل المغرب مرحلة جديدة في علاقاته مع الطوائف الدينية غير المسلمة المقيمة على أرضه. فقد ظلت وضعية المسيحيين بالمغرب خلال هذه المرحلة محكومة بالاتفاقيات الدولية المبرمة التي باتت تتحكم في علاقة المغرب مع القوى الأجنبية. هذه الأخيرة انتبهت إلى تسامح الدين الإسلامي والدول الإسلامية مع أهل الذمة، فأحاطت رعاياها بمجموعة من الضمانات والامتيازات خصوصا فيما يتعلق بحرية التدين، والسعي إلى تحصينها من خلال المعاهدات الأجنبية. ومن بين الأمور التي راهنت عليه الدول الأجنبية وأولتها عناية خاصة ممارسة الأجانب لشعائرهم الدينية بكل حرية فوق التراب المغربي.[١] فجاء الفصل الخامس من المعاهدة الموقعة بين المغرب وبريطانيا في ٩ دجنبر ١٨٥٦م الموافق ليوم ١٠ ربيع الثاني عام ١٢٧٣هـ للتأكيد على حرية الرعايا البريطانيين في ممارسة شعائرهم الدينية بكل حرية وأمان، "فلهم الأمن التام على أنفسهم وأموالهم، ويتدينون بما هو من أمور دينهم من غير أن يتعرض لهم أحد بمنع أو سبّ. وتعين لهم مقبرة لدفن موتاهم ويخرجون لدفنها آمنين محفوظين في ذهابهم وإيابهم".[٢]

عاش النصارى إذن في المغرب حياة عادية تملؤها أجواء من التسامح والتعايش السلمي، انعكست بوضوح على حرية ممارستهم لشعائرهم الدينية دون أيه عراقيل أو قيود.[٣] ومن المظاهر الاجتماعية التي تؤكد على تمتع اليهود والنصارى بحرية العقيدة، ارتيادهم لدور العبادة بشكل معتاد وعلني على مرآى من المسلمين دون الخوف من أي اضطهاد، واحتفالهم بأعيادهم الدينية والتعبير عنها بالطقوس التعبدية والعادات الفلكلورية وبكل ما تتطلبه هذه الاحتفالات من مظاهر الفرح والتسلية. وهو ما يحتاج، بطبيعة الحال، إلى قدر كبير من الاستقرار فضلا عن مساحات واسعة من الحرية الاستقلالية، وهو على عكس ما كان سائدا لدى أقليات دينية في أنحاء متفرقة من العالم[٤].

وخلال هذه المرحلة، استطاع المغرب تبني سياسة تقوم على مجموعة من الآليات لتدبير الاختلاف بين أغلبيته المسلمة وأقليته المسيحية من حيث الدين، اللغة، الأعراف، والهوية، وجدت في امتداد العلاقات بين المسلمين والمسيحيين التاريخ المغربي مرجعا وسندا لها؛ مما جعله يشكل نموذجا متميزا من التعايش بين الأعراق والديانات عبر التاريخ. فما هي تجليات هذا التعايش بين المسلمين والطوائف المسيحية في المجتمع المغربي وبالأخص مغرب القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين؟ وكيف استطاع الحكام المغاربة تدبير هذا الاختلاف والتنوع في تركيبته المجتمعية؟

أولاً: الترخيص ببناء الكنائس والمقابر على أراضي ممنوحة من طرف الدولة

واضح أن شعائر العبادات تحتاج في ممارستها إلى العلانية وتحقق شرط الجماعة، لهذا كان من واجب الحكام المغاربة، منذ قيام الدولة المغربية، التدخل لتأمين هذين الشرطين من خلال الترخيص بإنشاء الكنائس والمقابر لغير المسلمين، مع ضمان إقامة طقوسهم شعائرهم على أرض المغرب بكل حرية وأمان. لقد استفاد النصارى من تسامح الحكام المسلمين بالمغرب خصوصا خلال القرن التاسع عشر، فأقاموا كنائسهم من أجل ممارسة شعائرهم؛ فمنذ النصف الأول من هذا القرن كانت هناك أقليات مسيحية تحترف التجارة وتمارس طقوسها الدينية بكل حرية، وكانت لهم كنائسهم ومقابرهم.[٥] أما في النصف الثاني، ونتيجة لازدياد أعداد البعثات المسيحية[٦] والأجانب عمومًا،[٧] كانت الحاجة إلى تأسيس مزيد من الكنائس وأديرة جديدة تسعهم، فضلا عن مقابر لدفن موتاهم.

١/١-بناء الكنائس على أرض الإسلام المغرب

إن الترخيص ببناء كنائس على أرض المغرب المسلمة يعّد تقليدا تاريخيا دأب عليه السلاطين المغاربة منذ أمد بعيد، ذلك أن الظهير السلطاني الصادر عن السلطان السعدي محمد الشيخ في ١٥ شتنبر ١٦٣٧م[٨]، نجده يتضمن الأمر بمنح مقبرة وقطعة أرضية جيدة لتأسيس كنيسة للنصارى المقيمين ببلاده.

وسيرًا على هذا النهج، وفي إطار التزام السلاطين العلويين بضمان حرية التدين بالنسبة لغير المسلمين داخل الإيالة المغربية،[٩] منح السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان بقعة أرضية بهدف تأسيس كنيسة إسبانية بفاس: " ... فإنه يكون بالإمكان الحصول على قطعة أرض مناسبة بالقرب من القنصلية الإسبانية، لتشيد بها كنيسة حيث يتسنى للقساوسة الإسبان أن يزاولوا شعائرهم الدينية...".[١٠] وبالرجوع إلى المادة السادسة من معاهدة ١٨٦١م المبرمة بين المغرب وإسبانيا، نقف على حقيقة الضمانات المهمة الممنوحة للرعايا الإسبان من طرف المخزن المغربي، من خلال "التنصيص صراحة على حرية ممارسة الشعائر الكاثوليكية بجميع أنحاء الإيالة الشريفة سواء داخل منازلهم أو بالكنائس، مع تأمين شامل للطقوس

الجنائزية وضمان عدم التعرض لهم أو إزعاجهم أثناء دفن موتاهم ".[11]

وفي 11 مارس 1885م، بعث ممثل ابريطانيا بالمغرب "جون دراموند هاي" برسالة إلى وزير الخارجية المغربي محمد الطريس يطلب فيها منه إصدار أمره إلى السلطات الحاكمة بطنجة للإشهاد على الرسم المثبت لوضع الكنيسة البروتستانتية على "طرف من الأرض خارج المدينة" كان قد أنعم به السلطان المولى الحسن على دولة "اكريت ابريتن" لبناء كنيسة به.[12] وفي نفس السياق، نجد سفير بريطانيا يطلب من المخزن، نهاية سنة 1894م، "تنفيذ بقعة مجاورة لداره قدر مساحتها قدما من الجهة الشرقية ليزيدها في كنيستهم لصغرها". وبعد بحث في الموضوع، وافق السلطان المولى عبد العزيز على الطلب.[13] كما أن البقعة الأرضية التي شيدت عليها كنيسة الدار البيضاء في 12 دجنبر 1889، تعتبر "هبة سلطانية".[14]

ومن أشكال التسامح الديني في إطار سياسة الترخيص ببناء الكنائس، يمنح السلطان المولى الحسن لممثل البعثة المسيحية بالمغرب الأب "خوسيه لرتشوندي" Lerchundi إذنا سلطانيا من بإقامة العديد من الكنائس على أرض المغرب، نذكر على سبيل المثال بناء كنيسة جديدة بطنجة سنة 1881م. وعندما توفي الأب "لرتشوندي"، أقام خلَفه الأب "سرفيرا" Cervera عدة كنائس جديدة بناء على تراخيص سلطانية، وذلك في مازغان سنة 1891م، العرائش سنة 1901م، وفي طنجة سنة 1902م.[15]

جدير بالذكر أن إلى الإذن السلطاني ببناء الكنائس والمعابد المسيحية كان مشمولا بالإعفاء الضريبي من كل الرسوم الجمركية الواجب أداؤها عن مواد البناء التي كان الرهبان يستوردونها من الخارج قصد استكمال أشغال البناء. وهو تقليد سلطاني قديم دأب الحكام المغاربة على احترامه، حيث كان السلطان سيدي محمد بن عبد الله (1710-1790م) قد أصدر أمره إلى أحد عمّاله سنة 1774م، يقضي فيه بمنع تفتيش أمتعة الرهبان الإسبان ولو كانت محتوية على الياقوت: "صناديق الفرايلية التي ترد السفن نأمرك ألا تفتح لهم ولو كانت حاملة للياقوت الدمنطي فقد أنعمنا عليهم بأن ينزلوا ولا يقربها لهم أحد".[16]

من خلال هذه الوثائق يتضح أن السلاطين المغاربة أولوا عناية فائقة للرهبان على مختلف انتماءاتهم ومشاربهم الدينية، وسمحوا لهم بإقامة معابدهم وسكناهم، كما أحاطوهم بكل الضمانات لممارسة شعائرهم بكل حرية على أرض الإسلام المنصوص عليه في اتفاقيات سابقة وقعها أجدادهم السابقين.[17] وفيما يلي جدول يوضح التواجد المسيحي البروتستاني بالمغرب إلى حدود بداية القرن العشرين، بما يقتضيه ذلك من ضرورة إقامة معابدهم من أجل ممارسة شعائرهم الدينية بها.

الهيئات البروتستانتية بالمغرب سنة 1900م[18]

الهيئات المسيحية البروتستانتية	السنة	عدد المبشرين	المساعدون	المجموع	عدد المراكز
لندن دجويس سوسايطي[19]	1875	2	1	3	1
بريتيش أند فورين بايبل سوسايطي[20]	1882	2	3	5	1
نورث أفريكا ميشن[21]	1883	37	13	50	6
سنطرول مروكو ميشن[22]	1886	4	0	4	1
سوذرن مروكو ميشن[23]	1888	19	0	19	4
ميدواي دجويس ميشن[24]	1889	3	0	3	1
كوسبل يونيون ميشن[25]	1894	13	0	13	4
مستقلة[26]		1	0	1	1
المجموع		81	17	98	19

1/2-تخصيص أراضي لدفن أموات المسيحيين مع الاحترام الكامل لطقوسهم الجنائزية

لا تكاد تخلو مدينة من المدن المغربية مما يسمى بـ "قبور النصارى"، ذلك الفضاء الجميل المنظم والذي يشغل موقعا استراتيجيا داخلها. والسؤال الذي قد يتبادر إلى أذهاننا: ما حقيقة وجود هذه المقابر المسيحية ضمن فضاءات مغربية عامة؟

انخرط المغرب مبكرًا في منظومة ضمان حقوق الأقليات الدينية، وذلك بالتزامه الصريح بالتنصيص على حق الأقلية المسيحية بالتوفر على فضاءات خاصة من أجل دفن موتاهم، والحرص على تأمين سلامة الطقس الجنائزي وفقا لما تنص عليه

شريعـتهم.[٢٧] وقـد يشـكك مشـكّكٌ في النيـة المتسـامحة للسلطان محمد بن عبد الرحمان مع أقليته المسيحية المتواجدة على أرضه، على اعتبار أن التوقيع على مثل هذه المعاهدات جاء في ظرفيـة دوليـة تمـيزت بضـعف المخـزن المغـربي أمـام الضغوطات الأجنبية. وتعسفنا الفقرة الثانية من نفس المادة السادسة للتأكيد على الذهنية المتسامحة للسلطان المغربي، وأن الشـرط المضـمن في المعاهـدة ملـزم للـدولتين يحفـظ لكلتيهما سيادتهما: "... وكذلك رعية سلطان مراكش القاطنين في إصبانيا لا يمنعهم أحد من دينهم ولا من صلاتهم في ديارهم مثل ما صار الآن".[٢٨]

تكشـف الوثـائق التاريخيـة أيضـا عـن هـذا الحـق المشـروط بترخيص مـن أعلـى سـلطة في البلاد، اعتبارا لرمزيـة المقابر في المشهد الديني العام، وحفاظا على هوية "النصراني"، وصونا لها من أية محاولة اغتيال. ففي رسالة من ممثل بريطانيا العظمى في المغـرب والقـائم بأعمـال المفوضـية الفرنسـية في طنجـة "نِكُلْسن دلمرطينيز" Nicolsson Del Martinez إلى النائب محمـد الطـريس يطلبـان فيهـا تخصـيص قطعـة أرضيـة لـدفن أموات المسيحيين في فاس وذلك في ٢٨ نونبر ١٩٠٠:[٢٩]

"المحـب العاقـل الناصـح نائـب الحضـرة الشـريفة المحـترم المكرّم السيد الحاج محمد الطريس بعد مزيد من السؤال عنك ومحبة أن تكـون بخـير علـى الـدوام فقـد كـان علـى نـواب الـدول المحترمون قد كلفونا بمباشرة الكلام مع جانب المخزن بقصد تعيينه بقعة يكون بها مدفن من يموت من رعاياها المسيحيين بفاس الجديد وفاس القديم فقد كان ابتداءُ الكلام في ذلك قبل التاريخ بنحو الأربع سنين إلى أن كتبنا اخرا لجانب المخزن الكتاب الواصل إليك طيّه نسخة منه وفيه الكفاية لكونه ملخص ما دار في القضية إلى يومنا هذا فلم يصل لنا جواب به فاقتضى الحال الآن تجديد الكلام في هذا الأمر لما ورد علينا من الخبر من فاس وهو أن اليهود هناك لا يزالون منتفعين بالمحل الذي يدفنون بـه رعـايا الـدول وكـثر ترددهم بـه حـتى تعـذّرت صـيانة قبـور المسـيحيين وحُرمتهـا الواجبـة لهـا فيتعـين حينئـذ علـى جانـب المخزن القيام على ساق الجد في تعيينه بموافقة قنصلَينا ثمة بقعة خاصة يُجعل بها في المستقبل مدفن المسيحيين فقط دون غـيرهم حسـبما تعاهـد بـه. فأخبرنـا جنابـك بهـذه القضـية لتصدر أمرك الأكيد إلى ولاة فاس بالمتعيّن إن كان ذلك شأنك وإلاّ فنحبك أن تبلغ كتابنا هذا للجناب الشريف ليقتضي نظره السديد ما يفي به ما كان واعدا به إن هذا أمرٌ تقتضيه المصلحة العامة بلا شك عندنا حينئذ أنه أعزّه الله يصير منه على بال وينتهز هذه الفرصة لإقامة دليل من محبة نبل الدول المحبين دمت بخير وسرور وختم في ٢٨ نونبر ١٩٠٠م".

نستشـف مـن هـذه الرسـالة أن الحصـول علـى مكـان لـدفن أمـوات المسـيحيين كـان يخضـع لمسـطرة خاصـة تقتضيـ رفـع الأمـر إلى وزيـر الخارجيـة في مرحلـة أولى، ثـم إلى السـلطان في مرحلـة ثانيـة باعتبـاره السـاهر علـى الشـأن الـديني في مملكتـه، والضـامن لحقـوق الأقليـات بهـا. وتتضـمن الرسـالة أيضـا تـذكيرا بالمعاهدات الدولية التي صادق عليه المغرب بهذا الخصوص، مع إشـارة إلى ضـرورة المسـاواة مـع الأقليـة اليهوديـة مـن حيـث الانتفـاع بفضـاء مخصـص لـدفن الأمـوات. وتفيـد رسـالة عميـد الهيئـة الدبلوماسـية بطنجـة إلى ممثـل المخـزن "بناصـر غـانم" بتـاريخ ١٧ مـارس ١٩٠٣م، بيلغـه شـكر وامتنـان الـدول الأجنبيـة للسـلطان المـولى عبـد العزيـز علـى إصـداره أمـره الشـريف بمنـح بقعة أرضية تبلغ مساحتها "ثمانية ألف متر ومربعة قرب سوق البقر لدفن بها من يموت من الأجانب".[٣٠]

ثانيًا: الدبلوماسية الدينية كآلية لإشاعة قيم التسامح بين الأديان

تكشف المراسلات السلطانية عن عمق العلاقات التاريخية بـين الحكـام المغاربـة وبـين ممـثلي الديانـة المسـيحية، وتقـدم نموذجا حضاريا في التسامح والاحترام الذي ميّز هذه العلاقات، كما تعكس ذلك الامتداد التاريخي للدبلوماسية الدينية للمغرب مع ممثلي الديانة المسيحية.

٢/١-السفارة المغربية إلى الفاتيكان سنة ١٨٨٨م

بمناسبة القداس الديني الذي أحياه البابا ليون الثالث عشر بالفاتيكان سنة ١٨٨٧ م،[٣١] أرسل السلطان المولى الحسن الأول سـفارة يرأسـها القائـد عبـد الصـادق الريفـي، صـحبة الفقيـه أبـو العبـاس أحمـد الكـردودي والراهـب الإسـباني الأب خـوسي لورشندي،[٣٢] صاحب الحظوة لدى السلطان وذلك لتهنئته بعيده الخمسيني. وفيما يلي نص الظهير السلطاني:

إلى المحب المعظم، المحترم المفخم، رئيس أساقفة الملة النصرانية الجالس على كرسي الحوارية، لقضاء الدعاوى الدينية، الذي اشتهر علمه وانتشر، البابا ليون الثالث عشر.

أما بعـد حمـد اللـه الـذي لا إلـه إلا هـو العلي العظيم، فمن المعلـوم عنـد النـاس والخـاص والعـام الأجنـاس، أن أسـلافنا المقدسين ملوك المغرب كان بينهم وبين الرهبان البابا ليون رؤساء الرهبنة الفرنسيسكنية مزيد المحبة، والمودة والصحبة، حتى إنهم كانوا أعطوهم الحرية وإباحة السكنى حيث النصارى،

وكانوا يعملونهم ويعينوهم على أمور دينهم، ونحن بحول الله على آثار أسلافنا رحمهم الله في معاملتهم بذلك، واقتضى نظرنا الشريف إعلامكم أيها المحب بهذا لما ينهى من محاسنكم وفضلكم إلينا، ويتلى من شهرة وصفكم بالخير والحق والعلم لدينا، وبمزيد محبتكم وبمزيد صحبتكم في المحبة المفخمة، سلطانة دولة إسبانيا المعظمة، وأن نعطوكم أمارة ودليلا على محبتنا ومودتنا، ونوجه لكم سفيرا من شريف حضرتنا كما يوجه سائر الدول سفرائهم لعندكم برومة ليحضروا عيدكم، ويهنوا جنابكم بما من به الله القادرعليكم من بلوغ فقاهتكم إلى خمسين سنة.

فاخترنا لذلك خديمنا الأرضى الانجد الانصح القائد عبد الصادق بن أحمد الريفي، وعززناه بكاتبنا الأرضى الأنبل الطالب أحمد الكردودي، وعينا لمرافقتهما الأساقفى البدرى خوسى لرجوندى كبير الرهبان الصبنوليين الذي هو عزيز عندنا لأنه رافق غير مرة سفرائنا للدولة الصبنولية المحبة.

ونحن على يقين من أنكم تقابلون سفيرنا المذكور، ومن معه بمثل ما تقابل به مجادتكم سفراء الأجناس المحبين من الاعتناء والبرور، في الورود والصدور، وتصدقونه فيما يذكره لكم عنا من المحبة والمودة، ودمتم في سرور وهناء، ملحوظين بعين الاعتبار والاعتناء، وختم في ١٢ من ربيع الثاني عام ١٣٠٥".[٣٣]

شكّلت هذه المبادرة الحسنية سبقا تاريخيا متفرّدا، ذلك أنها المرة الأولى التي يرسل فيها سلطانٌ مغربيٌّ سفارةً رسميةً إلى البابا بالفاتيكان لتهنئه بعيد القداس الكاثوليكي. وبالفعل استُقبل الوفد المغربي من طرف البابا ليون الثالث عشر، "بعد الزوال في احتفال كبير حضره جمهور من الأعيان والنبلاء الرومان كان من بينهم الأميران: كولونا وأوزيني كما حضره سائر السفراء والمبعوثين...".[٣٤]

وقد ألقى الوزير المغربي محمد الطريس بالمناسبة خطابا أمام البابا جاء فيه: " لقد بعثني صاحب الجلالة نصره الله لأزف إليك التهاني بمناسبة مرور خمسين عاما على تقلدكم المنصب السامي مشاركا في ذلك سائر الذين هنأوكم من آسيا وأمريكا ومختلف جهات العالم، إن صاحب الجلالة أمدّ الله في حياته يعتزم الحفاظ على صلات الود التي تجمعه بكم لأنه يعلم تشبثكم بالعدالة... وقد زودنا العاهل أعز الله أمره بخطاب مكتوب إليكم كتعبير عما يكنه لمقامكم وما ينتظره للعلاقات التي تجمع المغرب بكم...".[٣٥] ومباشرة بعد ذلك، توجه البابا بخطاب إلى الوفد المغربي، جاء فيه: "ليست هذه المرة الأولى التي تتجدد فيها الصلات بيننا وبين إفريقيا ونحن حريصون دائما دعمها وتقويتها... إننا نريد أن نجدد للجلالة الشريفة نفس المتمنيات التي كان سلفنا كريكوار السابع أعرب عنها للناصر ملك المغرب الذي عرض عليه صداقته، وإننا ندعو الله من خالص قلوبنا أن يزيد في سعادة ورفاه المغرب وملكه العظيم...".[٣٦]

٢-٢ الراهب الإسباني ليرتشوندي مهندس السفارة المغربية إلى الفاتيكان

إن اعتماد السلطان الحسن الأول على الأب "خوسيه ليرتشوندي" José Lurchundi ضمن السفارة المغربية ليس فقط بصفته كمترجم، فيه من الإشارات البالغة الأهمية إلى البابا ممثل الطائفة الكاثوليكية في العالم، تفيد مدى اهتمام السلطان بالأقلية المسيحية ببلاده، بل الأكثر من ذلك الإنعام عليها بالحظوة والامتياز في بلد غالبيته من المسلمين. لقد "أحاط المولى الحسن الأول هذا الراهب الإسباني بعنايته وأسند إليه ترجمة الوثائق السياسية من العربية إلى اللغات الأوربية وعهد إليه بمرافقة السفارة المغربية إلى الفاتيكان".[٣٧] وبذلك أصبح هذا الراهب رائد المساعي الحميدة والوسيط الذي لا غنى عنه، لحل الخلافات بين المغرب والدول المسيحية.[٣٨]

انبثقت فكرة إرسال سفارة مغربية إلى الفاتيكان في أوائل غشت من سنة ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٧م، عندما دخل السلطان الحسن الأول مدينة الرباط فاستقبل فيها السفارة الإسبانية المؤلفة من "خوسي ديوسدانو" وزير إسبانيا المفوض، والكاتب الأول "كامبيو" والكاتب الثاني "غارسيا خوبي"، فتبودلت الهدايا والخطب الودية المعتادة؛ غير أن الأب "خوسي ليرتشوندي"، ولما كان السلطان يعطف عليه عطفا خاصا ولم يره بين حاشية الوزير، سأل عنه فأخبروه عن حاله... وفي اليوم التالي قابله على انفراد، ودامت المقابلة ساعتين ونصف، تناولا فيه البحث حول القضية المتعلقة بسفارة السلطان إلى البابا، والحفلات التي ستقام بمناسبة عيده الخمسيني.[٣٩]

وبعد اقتناع السلطان بفكرة بعث سفارة مغربية إلى الفاتيكان، كانت لا تزال هناك بعض الصعوبات تحول دون تنفيذها خصوصا وأنها المرة الأولى التي سيقدم فيها سلطان مغربي على هذه المبادرة نحو أقدس بقعة في العالم المسيحي، الفاتيكان. أولى هذه الصعوبات ترتبط بعدم وجود مركب حربي يحمل السفارة إلى روما، وثانيها جهل السلطان بالتقاليد المتبعة في مثل هذه الأعياد الدينية عند المسيحيين. ولكن الراهب الإسباني ذلّل الصعوبتين وتكلف بأمر الوساطة مع

دولة إسبانيا لتخصيص مركب حربي يكون رهن إشارة السلطان، كما تعهد بكتابة جل التقاليد المرعية في الأعياد المسيحية باعتبارها أحد القساوسة الكبار الملمين بمهل هذه الطقوس.[٤٠] وفي ٢٥ فبراير ١٨٨٨م، بعد استقبال البابا للوفد المغربي وتلاوة الخطب الودية، قام الأب "ليرتشوندي" بترجمة خطاب رئيس الوفد المغربي "العربي الطريس"، وشارك في تسليم الهدايا السلطانية إلى البابا.

جرى التقليد المغربي في العلاقات الدولية الاعتماد على عنصر الهدايا كعامل أساسي في تقريب وجهات النظر، وتلطيف الأجواء أو فض النزاعات والحسم في العديد من القضايا الحساسة ذات البعد الدولي. وفي هذا الصدد عزّز السلطان المغربي دبلوماسيته الدينية "بدبلوماسية الهدايا"، حيث كشف "جاك كاييّ" عن قيمة الهدية الثمينة التي سلمها الوفد المغربي للبابا ليون الثالث عشر: "سوارين من الذهب الخالص مرصّعين بالياقوت والزمرد والماس، مشبك (بزيم) وخلخال كبير من الذهب مزين بالأحجار الكريمة، أربعة عشر وسادة مخملية مطرّزة بالذهب، ثمانية زرابي مغربية، أقمشة وطنية مطرزة بالذهب، ستة أحزمة بالحرير والذهب من النوع الذي تستعمله النساء المغربيات، ستة أنواع من الشبشب المغربي (بْلاغي)".[٤١]

تحدثت العديد من المنابر الإعلامية الأجنبية عن هذه الزيارة المغربية التاريخية غير المسبوقة للفاتيكان، فالصحافة الإسبانية اعتبرتها مبادرة "شجاعة" تستحق الإعجاب والإكبار، وصنّفها المؤرخ "لوبيز" Lopez ضمن "المبادرات الخارقة للعادة"، في حين جعلها الأب "كاستيانوس" Castellanos "حدثا يتجاوز كثيرا أحداث التاريخ السياسي والديني للملوك المغاربة".[٤٢] وكانت لسفارة أيضا أثرا بالغا في نفس الجالية الإسبانية المقيمة بالمغرب، وبالأخص رجال الدين من طائفة الفرنسيسكان، الذين كانوا يتمتعون بكامل حقوقهم وحرياتهم في عهد السلطان المولى الحسن الأول.[٤٣]

نلمس إذن من خلال هذه السفارة المغربية الفريدة، اتجاها آخر سلكته الدبلوماسية المغربية في علاقة المغرب مع الخارج، بحيث كانت السفارة الأولى التي أرسلها ملوك المغرب إلى الرئيس الأعلى الممثل للديانة المسيحية. ولذلك اهتم بها المسيحيون كثيرا بالنظر إلى أبعادها السياسية والدينية، إذ لم يسبق في تاريخ المغرب أن توجهت سفارة من أمير المؤمنين لتقديم السلام والتهنئة ومشاركة البابا احتفالاته الأسقفية، واعتُبر المغرب، بشهادة المسيحيين أنفسهم، من أكبر المدافعين عن الحوار والتسامح بين الأديان.[٤٤]

إن قراءة سريعة لظهير المولى الحسن لا تسمح لنا أن نتجاهل السلوك الرسمي للسلاطين العلويين في تعاملها مع الكنيسة المسيحية بصفة عامة، ومع الأقليات المسيحية المقيمة بالمغرب. وهو سلوك إيجابي طبعه الالتزام بالحفاظ على علاقات متميزة بين الطرفين-ممثل المسلمين في المغرب (أمير المؤمنين)، وممثل المسيحيين (البابا)-، في أفق خلق ظروف تعايش إيجابي بين الطائفتين، بغض النظر عن كافة الطروحات التي يربط أصحابها بين التبشير والتنصير؛ ذلك أنه كلما جرى تناول مسألة المسيحية في الثقافة الإسلامية الحديثة،[٤٥] خصوصا وأن الاحتلال الفرنسي للجزائر وحرب ١٨٥٩-١٨٦٠ أثرا بشكل سلبي في الوضع العام للعلاقة بين الإسلام والمسيحية.

خَاتِمَةٌ

على سبيل الختم، يمكن القول إن كل محاولة لملامسة واقع الأقلية المسيحية بالمغرب منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى حدود فترة ما قبل الاستعمار، لا تبدو ناجحة دون الانطلاق من رصد حالات هذه الأقلية في علاقتها مع الأغلبية المسلمة، ومحاولة رصد مجالات التعايش بين الطائفتين.

وفي محاولة الرصد هذه، تم استحضار تجربة الحكام المغاربة في تدبير واقع الاختلاف والتنوع مع أقلية دينية مسيحية يجمعها أكثر مما يفرقها مع مسلم، تقوم على ذهنية متسامحة لا تكيل بمكيالين، تبتغي العدل والإنصاف الذي أمر به الإسلام، وفي نفس الوقت، هي تجربة تدرك مستجدات الواقع، وتستوعب خبرة التاريخ، وتحترم الالتزامات الدولية.

إن قضية معايشة المسيحيين لمسلمي المغرب والتماس الحقوق القانونية لهذا العنصر الوافد أضحت مسألة مقبولة، وإمكانية تحققها واردة، ذلك أن الجاليات المسيحية أدركت أن المغاربة المسلمين لا يقفون بدينهم عند حدّ العبادة كما هو الشأن بالنسبة للعالم المسيحي، بل يُعتمد الدين في توجيه السلوك وتربية الضمير علاوة على المعاملات اليومية والأحوال الشخصية والقضاء.

الاحالات المرجعية:

(١) عادت البعثات المسيحية وخصوصًا الفرانسيكانية للاستقرار في المغرب مع خلال منتصف القرن التاسع عشر، وذلك بتطوان سنة ١٨٦٠م، بالدار البيضاء وبموغادور سنة ١٨٦٨م، بمازغان سنة ١٨٦٩م، بالعرائش وآسفي سنة ١٨٨٠م، وسنة ١٨٩٠م بالرباط"؛ انظر:
Miège Jean-Louis, *« Les missions protestantes au Maroc (1875-1905) »*, in Hespéris, Librairie Larose, Paris, 1955, t. XLII, 1(er) – 2(e) trimestre, pp. 153.

(٢) الشاذلي عبد اللطيف، **نصوص اتفاقيات مبرمة بين المملكة المغربية ودول أجنبية**، ج ٢، المطبعة الملكية الرباط، ٢٠٠٧، ص ٣٨٤.

(٣) على الرغم من الصورة البغيضة التي رسمت عن واقع الطوائف الدينية غير المسلمة في المغرب، يعترف الرحالة "شارل ديديي" بأنهم يتمتعون بحرية ممارسة شعائرهم وتقاليدهم؛ انظر:
Hoefer (F), **Empire du Maroc**, Edition Firmin- Didot Frères, Paris, 1848, p. 265.

(٤) سمك ماهر، **اليهود في المغرب**، سلسلة كتاب الحرية، العدد ٤٢، ط ١، دار الحرية، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٦٠-٦١.

(٥) الجنحاني الحبيب، **من قضايا الفكر**، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٧٥، ص ١١٣.

(٦) ظل النشاط المسيحي في المغرب مقتصرًا على أفراد الجاليات المسيحية التي كانت مستقرة عل طول السواحل المغربية منذ بداية القرن، لكن مع بداية المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر اتسع نشاطها التبشيري ليشمل مختلف مناطق المغرب؛ انظر: الحناشي بلقاسم، **الحركات التبشيرية في المغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر**، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموركسية والتوثيق والمعلومات، زغوان، ١٩٨٩، ص ٧٣. ولم يكن يتجاوز عدد المسيحيين في المغرب ٤٥٨ فردا سنة ١٩٠٥م، لكن مع دخول المغرب عهد الاستعمار ارتفع عدد المسيحيين الكاثوليك من ٧٠٠٠ سنة ١٩٢٥م إلى ١٣٠٦٣١ سنة ١٩٣٣م، وهو رقم يقارب عدد اليهود في المغرب ١٣٤٦٣٦ في نفس السنة. واستمر الحضور المسيحي في المغرب في الارتفاع ليصل إلى ٢٥٦٨٨٣ سنة ١٩٤٢م مشكلين الأقلية الدينية الأولى في المغرب بعدما تراجع عدد اليهود إلى ١٦١٩٤٢؛ احمموشي محمد الصديق، **"الأقليات الدينية والعرقية (المغرب نموذجًا ١٨٥٠-١٩٥٠): دراسة في المفهوم"**، في مجلة مدارات تاريخية، المجلد ٢، العدد ٤، ديسمبر ٢٠٢٠، ص ٤٧٧-٥٠٣، ص ٤٧٩.

(٧) تزايد أعداد الأوربيين المقيمين في المغرب بشكل واضح منذ بداية القرن التاسع عشر؛ فإذا كان عدد هؤلاء لا يتجاوز ٢٥٠ أوربيا سنة ١٨٣٢م، فقد ارتفع عددهم على التوالي إلى ١٣٦٠ و٣٥٠٠ ثم ٩٠٠٠ سنوات ١٨٦٤م، ١٨٨٥م، و١٨٩٥م، منهم الإسبان والإنكليز والفرنسيون وكذلك الإيطاليون والبرتغاليون والألمان، وكان حينها يبلغ عدد سكان المغرب حوالي ثمانية ملايين نسمة سنة ١٨٨٦م؛ انظر:
Miège Jean-Louis, Le Maroc et l'Europe (1830-١٨٩٤), t 4, Editions La Porte, Rabat, 1989, p. 285.

(٨) يوجد نص الظهير بمجلة دار النيابة، السنة الأولى، العدد الثالث، ١٩٨٤، ص. ٦٣.

(٩) كما هو معلوم التزم المغرب خلال القرن التاسع عشر بمجموعة من الاتفاقيات المبرمة مع العديد من الدول الأجنبية، تضمن حرية التدين للمسيحيين المتواجدين على التراب المغربي بما فيها حق إقامة الكنائس والمقابر. فجاء الفصل الخامس من المعاهدة الموقعة بين المغرب وبريطانيا في ٩ دجنبر ١٨٥٦م الموافق ليوم ١٠ ربيع الثاني عام ١٢٧٣هـ للتأكيد على حرية الرعايا البريطانيين في ممارسة شعائرهم الدينية بكل حرية وأمان، "فلهم الأمن التام على أنفسهم وأموالهم، ويتدينون بما هو من أمور دينهم من غير أن يتعرض لهم أحد بمنع أو سبّ. وتعين لهم مقبرة لدفن موتاهم ويخرجون لدفنها ءامنين محفوظين في ذهابهم وإيابهم ". كما ينص الفصل الحادي عشر من الاتفاقية المغربية الإسبانية المبرمة في ٢٦ أبريل ١٨٦٠م، على حق بناء الكنائس والمقابر وضمان حرية ممارسة الشعائر الدينية بالنسبة للمسيحيين؛ الشاذلي عبد اللطيف، **نصوص...**، مرجع سابق، ص ٣٨٤؛ ٤١٨.

(١٠) داوود محمد، **تاريخ تطوان**، ج ٤، المطبعة المهدية، تطوان، (د. ت)، ص. ٢٩٠.

(١١) داود محمد، **تاريخ تطوان**، ج ٥، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصيل، المطبعة المهدية، تطوان، ١٩٦٦، ص. ١٦٤.

(١٢) أرشيف تطوان، رسالة ١٤٩٨، محفظة ١١/٤٢، محفظة ابريطانيا.

(١٣) بوشعراء مصطفى، **الاستيطان والحماية في المغرب ١٨٦٣-١٨٩٤**، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٨٤، ص. ١٤٠١.

(14) Miège Jean-Louis, **Le Maroc et l'Europe(1830-1894)**, t4, Editions la Porte, Rabat, 1989, p. 313.

(١٥) الخرازي بديعة، **تاريخ الكنيسة النصرانية في المغرب الأقصى**، دار نشر المعرفة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، الطبعة١ ٢٠٠٧، ص. ٤٣.

(١٦) اطلعت على هذا الظهير السلطاني وعدة ظهائر أخرى مماثلة خلال زيارتي للمعرض الذي نظمته مؤسسة أرشيف المغرب، بشراكة مع مجلس الجالية المغربية بالخارج، تحت عنوان **"الحضور المسيحي في المغرب: العيش المشترك"**، وذلك برواق أرشيف المغرب ما بين ٢٠ مارس و ٢٧ شتنبر ٢٠١٩.

(١٧) تعددت الظهائر الصادرة عن الملوك المغاربة لفائدة رهبان الكنيسة الكاثوليكية طيلة القرنين السابع عشر والثامن عشر مترجمة بذلك المستوى الجيد الذي بلغته العلاقات بين الحكام المغاربة ورجال الدين المسيحيين الذين أقاموا في المغرب، وبين العالم الإسلامي والمسيحي عموما.

كما عكست هذه الظهائر الخدمات المهمة التي قدمتها الكنيسة الكاثوليكية للمغاربة على مستوى العلاقات الاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية، وذلك في إطار إدماج هذه الأقلية المسيحية في الفضاء العام. وتوجد بكنيسة طنجة ١١١ ظهيرا سلطانيا صدروا ما بين ١٦٣٧ و١٩٨٣ لفائدة المسيحيين؛ انظر: سيمون سيسلاو ستشيرا، **السلاطين وخدّام الكنيسة الفرنسيسكان في المغرب**، ترجمة حسن شملال، مطبعة ليتوغراف، طنجة، ط١، ٢٠١٥، ص. ١٥.

(18) Miège Jean-Louis, *« Les missions protestantes au Maroc (1875-1905) »*, in Hespéris, Librairie Larose, Paris, 1955, t. XLII, 1(er) – 2(e) trimestre, p. ١٩٠.

(19) London jew's Society

(20) British and Foreign Bible Society

(21) North Africa Mission

(22) Central Morocco Mission

(23) Southern Morocco Mission

(24) Midway jew's Mission

(25) Gospel Union Mission

(26) Independant

(٢٧) ينص الشرط السادس من معاهدة ٢٠ نونبر ١٨٦١م على ما يلي: "رعية سلطانة إصبانية لا يقدر أحد أن يمنعهم من صلاتهم في ديارهم أو جوامعهم في شأن دينهم في أي موضع يكون بها، ويكون لهم في المحل الذي يكون بف موضعا لمقابرهم ولا يتعرض لهم أحد من حكام رعية سلطان مراكش في ترتيب دفن موتاهم ذهابا وإيابا ومقابرهم يكونوا موقرين من جميع الرعية..."؛ ابن زيدان عبد الرحمان، **إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس**، ج ٣، تحقيق الدكتور علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٧، ص. ٥١٥.

(٢٨) نفسه، ص ٥١٥.

(٢٩) سيمو بهيجة، **العلاقات المغربية الفرنسية: تاريخ ممتد عبر العصور**، وثيقة رقم ٧١١، ج ٢، مديرية الوثائق الملكية، ٢٠١٥.

(٣٠) التمسماني خلوق عبد العزيز، **مائة وثيقة غير منشورة حول طنجة في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين (المجموعة الأولى)**، مجلة دار النيابة، السنة ٤، العدد ١٣، ١٩٨٧، ص ٤٨.

(31) Caillé Jaques, « sur les rapports du Maroc avec le Saint-Siège », Hespéris Tamuda, 1969, Vol. X, fasc. 1-2, p. 84.

(٣٢) عين الأب لرتشوندي رئيسا لرهبان بعثة المغرب سنة ١٨٧٧ عقب وفاة الأب "سيرزال". وأول الاعمال التي قام بها هو بنا ء كنيسة جديدة في المغرب سنة ١٨٨١م. وفي سنة ١٨٨٧ أشرف على بناء المستشفى الإسباني في المغرب، فضلا عن مدرسة للذكور، كما أشرف على بناء مدرسة بتطوان لتعليم اللغة العربية لفائدة البعثات الفرانسيسكانية، معملا للتجارة، مطبعة، ومعملا للتجليد بطنجة. كانت له علاقات جيدة في أوساط المسلمين من التجار والأعيان. توفي بطنجة سنة ١٨٩٦م؛ انظر:

Jamaaâ Baida et Vincent Feroldi, « **Présence Chrétienne au Maroc XIX-XX(ème) siècle** », Editions Bouregreg, Rabat, 1er édition 2005, p. 20.

(٣٣) ابن زيدان عبد الرحمان، **إتحاف أعلام الناس**...، ج ٢، م س، ص. ٤٣٥.

(٣٤) التازي عبد الهادي، **الوسيط في التاريخ الدولي للمغرب**، ج ٣، دار نشر المعرفة ، ط ١، ٢٠٠١، ص. ٢٦٤.

(٣٥) نفسه، ص. ٢٦٤.

(٣٦) التازي عبد الهادي، **الوسيط في التاريخ الدولي**...، م س، ص. ٢٦٥.

(٣٧) بن العربي الصديق، "**طوائف وشخصيات مسيحية في المغرب**"، مجلة تطوان، العدد ١، السنة ١٩٥٦، ص ١٦٢.

(38) Simou Bahija, *« Le Sultan Moulay Hassan et le Pape Léon XIII L'ambassade de Torres »*, Maroc Europe, Editions La Porte, Rabat, 1994, N. 6, p. 59.

(٣٩) العمراني عبد الله، "**الأب ليرتشوندي P. Lerchundi شخصية المغرب**"، مجلة الأنوار، العدد ١٤، السنة ١٩٤٩، ص ١٩.

(٤٠) العمراني عبد الله، مرجع سابق، ص ١٩.

(41) Caillé Jaques,« **sur les rapports du Maroc avec le Saint-Siège**... », op. cit, p. 88.

(42) Ibid, p. 89.

(٤٣) العمراني عبد الله، مرجع سابق، ص ١٩.

(44) Simou Bahija, *« Le Sultan Moulay Hassan et le Pape...*, op.cit, p. 60.

(٤٥) حاول بعض الباحثين ربط التواجد المسيحي في المغرب وبالبلدان الإسلامية بآفة التنصير ومحاولة صرف المغاربة عن عقيدتهم واعتناقهم للدين المسيحي. من بين هؤلاء نذكر الدكتور بلقاسم الحناشي في أطروحته "الحركات التبشيرية في المغرب الأقصى"، حيث اعتبر ما قام به الفرانسيسكان والبروتستانت في المغرب خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر من خدمات علاجية وخيرية "لم يقم على نيّة سليمة إطلاقا، ذلك أن وجود المبشرين ونشاطهم المستمر بمثابة قرحة شنيعة وعقبة في سبيل التفاهم والتعاون"؛ الحناشي بلقاسم، **الحركات التبشيرية في المغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر**، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، زغوان، ١٩٨٩، ص ٩٩.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

من الأرشيف الرمزي للحركة الوطنية في المغرب على عهد الحماية ١٩٣٩ - ١٩٤٤



د. عبد السلام انويكّة
أستاذ باحث في التاريخ المعاصر
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين (فاس)
مكناس – المملكة المغربية

مُلَخَّصْ

إن ما كان من حركة وطنية وراء ملحمة مطالبة المغرب بالاستقلال زمن الحماية مطلع أربعينيات القرن الماضي يمثل أحسن ما في تاريخ البلاد المعاصر، لكون ما حصل يقدم المغاربة ضمن أنبل عواطفهم ومواقفهم من خلال تجاوزهم لِما كانوا عليه من واقع استعماري وإقبالهم على كفاح وتضحية من أجل الوطن. وعليه، فالقضية الوطنية لهذه الفترة الدقيقة من تاريخ البلاد ١٩٣٩ -١٩٤٤ ليست لا مسألة أشخاص ولا أحزاب سياسية، بل حركة شعب ووعي والتفاف وإخلاص وطني طبع مواقف الوطنيين على تباين نزعاتهم وقناعاتهم السياسية، وليست القضية الوطنية أيضًا مسألة منطقة دون أخرى بل مسألة وطن في كل مكوناته ومجاله. ولعل الحديث عن ملحمة مطالبة المغرب والمغاربة بالاستقلال في كل تجلياتها وبإيراداتها على عهد الحماية الفرنسية، يقتضي تساؤلات جوهرية ذات صلة بالحدث والرهان من جهة وبسياقه وما ترتب عنه من جهة أخرى، وعيًا بما للأمر من أهمية تاريخية كمنعطف وطني دقيق وحرج معًا خلال فترة الاستعمار وبما له من دلالات رمزية لا تزال بوقع واستمرارية في ذاكرة البلاد والعباد. والخلاصة أن من أهم المواقف في حياة الشعوب عمومًا هناك مواقف الرفض لتجاوز الظلم والهيمنة والعنف، ولولا ما سجل من رفض وموقف هنا وهناك ولولا ما حصل من معارك سياسية وفكرية وإعلامية وعسكرية أيضًا لضاعت كثير من القضايا والحقوق ولمَا وجدنا من يؤمن بها ويساندها. فرفض الشعوب واتخاذها لمواقف معينة على أساس واقع ما، كثيرًا ما يكون بروعة حدث وأشد اثارة وعجاب واجلال واكبار وتعاطف والتفاف وحضن ودعم، لا لشيء سوى لأنها تطرح موضوعًا وقضية يكمن فيها ووراءها ظلم وعدم انصاف وتجاوز وحرمان، بين طرف قوي يحتكر مقياس الحق وآخر ضعيف يرفض ما هو طغيان وذل وهوان، وكثيرة هي مواقف رفض ومواجهة ومقاومة خاضها الشعب المغربي لتجاوز ما تعرض له من تآمر وأطماع عبر التاريخ.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	١٤	يناير	٢٠٢١
تـاريخ قبــول النشــر:	٢٦	فبراير	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:
تاريخ المغرب المعاصر؛ وثيقة المطالبة بالاستقلال؛ ١١ يناير ١٩٤٤؛ الحركة الوطنية المغربية؛ حزب الاستقلال

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.220398

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
عبد السلام انويكّة. "من الأرشيف الرمزي للحركة الوطنية في المغرب على عهد الحماية ١٩٣٩ – ١٩٤٤".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الحادي والخمسون؛ مارس ٢٠٢١. ص ٨٩ – ٩٨.

Corresponding author: abdessnwig@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقَدِّمَةُ

تشكل عريضة أو مذكرة مطالبة المغرب والمغاربة بالاستقلال خلال فترة الاستعمار الفرنسي تحديدًا في الحادي عشر يناير ألف وتسعمائة وأربعة وأربعين، محطة تأمل رمزية ومشرقة من زمن الحركة الوطنية وملحمة احتوت صور كفاح حابل بعبر تاريخية وسياسية. ولعل بقدر ما يعود سياق ما حصل مع هذه العريضة لبداية ثلاثينيات القرن الماضي، عندما تم تأسيس كتلة العمل الوطني كرد فعل على دسائس المستعمِر الفرنسي من خلال ما عُرف بـ "الظهير البربري" الذي استهدف به تخريب البلاد والعباد، بقدر ما كانت هذه العريضة نِتاج صف وطني وفعل توافقي تبلورت على إثره مبادرات على قدر عالٍ من الوعي في علاقتها برهان أعمق وأهم في معركة المغاربة الوطنية ضد الاستعمار. وهو ما ترتب عنه انتقال من مطالب إصلاحات أواسط ثلاثينات القرن الماضي إلى مطالب إصلاحية استعجالية، ثم إلى حراك وطني فيما بعد أنتج لا حقًا وضعًا جديدًا شكل انتقالاً من عريضة مطالب إصلاحية إلى عريضة مطلب استقلال من خلال وثيقة صريحة فاصلة.

الأرشيف الرمزي للحركة الوطنية

ما هو غير خافٍ عن باحثٍ ومؤرخٍ ومهتم - ما لا يعني أنه عيب وتكرار بقدر ما يُعد اجتهاد وإعادة كتابةِ أمر ما يخص ماضٍ ما-، كون حقل التاريخ والكتابة والبحث التاريخي ليس سوى مساحة تأمل وتنقيب وترتيب وإغناء وإضافة بشكل مستمر مع كل تفكير ونهج جديد ووثيقة وحاجة. وعندما يتعلق الأمر بكتابة تاريخية تخص لحظة ووقائع ومنعطفات مجتمع ما ممتد في الزمن، من المهم تجاوز كل نظر فوقي بالغوص فيما هو عميق لرصد دوافع واتجاهات وتفاعلات واختلافات. وإبراز ما هناك من عناصر خفية محركة، عِلمًا أن ما كتب ولا يزال في هذا الإطار عمومًا لا يغدو أن يكون مجرد اجتهاد قد يطول نَفَسُه ومداه وقد يقصر، ولا عيب فيمن سيأتي لاحقًا كخلَفٍ من باحثين ومؤرخين لتدارك ما فات سَلف.

قناعة ارتأينا على أساسها بعض الضوء حول حدث فاصل من زمن المغرب المعاصر، يتعلق الأمر هنا بوثيقة مطالبة المغاربة زمن الحماية الفرنسية باستقلال بلادهم كوعي وإجراء وإقدام وملحمة، رغم ما أحيط به هذا الحدث من تناول من قِبل باحثين متخصصين ومؤرخين مغاربة وأجانب. ولعل عريضة أو مذكرة الاستقلال كما يختصرها البعض لا تزال حية في ذاكرة المغاربة الوطنية مناسبة للتأمل في موقفٍ ورفضٍ ورد فعل وطني، باعتبارها بادرة أيقظت ضمير هؤلاء وجعلته أداة تحرير وسبيل استقلال. ومع كل نظر عميق فيما حصل من روح وطنية وتلاحم وموقف موحد ضد المستعمِر، يتبين أنه لا غنى عن استحضارها من حين لآخر واستثمار رمزيتها كحدثٍ ودلالاتٍ وسياقٍ ونبلِ أهداف خدمة لحاضر بلادٍ وعبادٍ ومَعالِم مستقبل.

هكذا ارتأينا تناول ومقاربة ما عاشه المغرب والمغاربة قبل حوالي ثمانية عقود من الزمن، تنويرًا لقراء ومهتمين وناشئة ولجعل تاريخ البلاد الوطني بأثر في تقوية روح انتماء لوطن واعتزاز بماضٍ وتراث وذاكرة. ولعله من المفيد الاشارة الى أن وضع حركة المغرب الوطنية أواسط ثلاثينيات القرن الماضي حتى الأربعينات منه، لم يكن يسمح بأي تصعيد تجاه سلطات الحماية ومسألة الانتقال لمطلب الاستقلال لم يكن واردًا بتاتًا لكون هذه الفترة الدقيقة كانت فترة تراجع للعمل الوطني لطبيعة ما كانت عليه البلاد من قبضة استعمارية. علما أن الوطنيين المغاربة تعرضوا خلالها لحملة قمع شرسة واسعة، فبسبب مطالب وطنية بسيطة فقط تعرضوا لعمليات نفي وإبعاد كانا وراء انكماشهم ومن خلالهم الحركة الوطنية، ناهيك عما حصل من تمزق في كتلة العمل الوطني مع ظرفية أمنية فرضت عدم القيام بأي شيء مزعج لوضع فرنسا الحامية في جبهاتها.

وغير خاف عن الباحثين والمؤرخين والمهتمين بتاريخ المغرب الوطني المعاصر، ما عرفته البلاد زمن الحرب العالمية الثانية من وقائع كانت بدور في دفع الوطنيين لتجاوز سقفِ مطالبةٍ بإصلاحات الى مطالبةٍ بالاستقلال. مساحة تفكير وموقفٍ وبادرة بقدر ما تقاسمت تفاعلاتها كل جهات البلاد من منطقة احتلال اسباني ومنطقة احتلال فرنسي، بقدر ما انتهى الفعل الوطني على أثرها بعريضة الحادي عشر من يناير ألف وتسعمائة وأربعة وأربعين حيث مدينة فاس. ولعل من العوامل التي كانت بأثر في دفع الوطنيين المغاربة للمطالبة بالاستقلال وانتفاضهم على المستعمِر، ما كان من دعاية ألمانية أظهرت فرنسا ضعيفة غير قادرة على أية مواجهة لشدة ما تعرضت له بالجبهات. دون نسيان ما كان لها من أثر فيما عانى منه المغاربة من جوع وعرى وخصاص وميز وقمع، ناهيك عما نادى به الميثاق الأطلسي صيف ألف وتسعمائة وواحد وأربعين من حق للشعوب في تقرير مصيرها، وما ترتب عن الانزال الأمريكي في الشواطئ المغربية من تقزيم للوجود الفرنسي في المغرب كدولة حامية. فضلاً عما حصل من اشارات قوية صوب

المغرب، إثر ما جرى من محادثات للسلطان محمد بن يوسف مع الرئيس الأمريكي روزفيلت والوزير الأول البريطاني تشرشل والمقيم العام الفرنسي نوگيس.[١]

وقد اعتبر الوطنيون المغاربة بلوغ الحلفاء الى المغرب وما جرى بين السلطان وروزفيلت بأنفا (الدار البيضاء)، فرصة لطرح قضية استقلال البلاد علانية معلقين أملاً كبيرًا على موقف السلطان. وهذا ما دفع محمد الفاسي أستاذ الأمير مولاي الحسن للقيام بدور وساطة بين قادة حركة الاستقلال وهم عمر بن عبد الجليل وأحمد بلا فريج ومحمد اليزيدي وبين السلطان، ومن خلال ما حصل بينهما أبان السلطان على أنه لم تعد هناك أية فائدة للمطالبة بالإصلاحات وأن الاستقلال هو الحل الوحيد، مشيرًا أنه لا يمكن له مساندة هذا المطلب الوطني علانية تجنبًا لعزله وحتى لا تخسر الحركة الوطنية رمزًا وسندًا. ولعل من القضايا التي دار حولها نقاش الوطنيين مع السلطان طبيعة نظام البلاد السياسي بعد الاستقلال وقضية الملكية الدستورية، سياق ورد حوله أن السلطان صرح بأنه من مؤيدي دمقرطة النظام الملكي، وأنه ارتأى الحذر من استخدام كلمة "ملكية دستورية" في أي نص علني لِما تحمله من مفهوم ثوري يصعب تقبله من طرف بعض شخصيات المخزن، خاصة وأن نضال المرحلة المقبلة يقتضي وحدة صف المغاربة، هكذا تأسست ملحمة وطنية جديدة وأعلن قادة الحزب الوطني في الحادي عشر يناير ألف وتسعمائة وأربعة وأربعين تأسيس حزب الاستقلال.[٢]

وإذا كان الرئيس الأمريكي روزفلت لم يقدم أي وعد قاطع للسلطان محمد بن يوسف يخص استقلال المغرب، إلا انه وعده بعمل من أجل تحرير الشعوب طبقًا لميثاق الأطلسي من خلال حق تقرير المصير. وللإشارة فإن لقاء السلطان بروزفيلت كان في يناير ألف وتسعمائة وثلاثة وأربعين، وبعد سنة وفي يناير من السنة اللاحقة تقدم حزب الاستقلال بوثيقة المطالبة بالاستقلال.[٣] وكانت سنة اندلاع الحرب العالمية الثانية قد اعتُبرت مرحلة جديدة في طبيعة العلاقة بين السلطان محمد بن يوسف من جهة والحركة الوطنية من جهة ثانية، لِما حصل من نضج وطني وحيوية واقبال سلطاني على معركة تحرير وفق سلوك خاص ورؤية جديدة كانت مفتقَدة، علمًا أن معركة الحركة الوطنية لهذه الفترة الدقيقة لم تكن سهلة بالنظر لما كان عليه الاستعمار من قبضة على البلاد. وبما أن السلطان كان المؤتمن على سيادة البلاد والمخول شرعًا ودوليًا للاعتراض على الاقامة العامة على أساس مضمون اتفاقية الحماية، فقد كانت له تحفظات حول عدد من اجراءات المستعمِر وفي نفس الوقت اتصالات مع نخبة من الوطنيين الملتفين من أجل قضايا الوطن.[٤]

يذكر أن هزيمة فرنسا عام ألف وتسعمائة وأربعين سمحت بصفحة جديدة في تاريخ الحركة الوطنية المغربية وعمل السلطان، فبقدر ما كانت فرنسا الحامية تستحضر قوتها وقدرتها لسحق كل معارضة شعبية بقدر ما كانت هزيمتها أمام الألمان متنفسًا لإبداء الموقف والمضي في المطالبة بالحقوق وتأكيد الشخصية المغربية. مع أهمية الاشارة لِما طبع السنوات الثلاث لاندلاع الحرب العالمية الثانية من عمل وطني خفي وجهد تنظيم ووعي مجتمع، أفرز جيلاً وطنيًا استثمر جوانب عدة شملت ما هو رياضة وثقافة وأنشطة مدرسية وكشفية وغيرها خدمة للقضية الوطنية وكان بأثر أسهم في تحول الكفاح الوطني، من المطالبة بالإصلاح في إطار الحماية الى المطالبة بالاستقلال.[٥]

وكان عبد الرحيم بوعبيد قد أورد بعد ما حصل في لقاء "أنفا" المغربي الأمريكي خلال يناير ألف وتسعمائة وثلاثة وأربعين، أن العمل الوطني عرف دينامية جديدة وأن مرحلة الاصلاحات باتت متجاوزة وإنهاء معاهدة فاس بات واردًا والمطالبة بالاستقلال أصبحت هدفًا.[٦] مشروع ورهان كان في نهاية مطافه وراء خلق حزب الاستقلال إثر ما كان من اتصال سري بين الحزب الوطني والسلطان أواخر ألف وتسعمائة وثلاثة وأربعين، وما كان من استقبال وتنسيق في مخبئ خاص بالإقامة الملكية حيث تم القسم على الإخلاص لخدمة الوطن. وكان ما حصل من تحالف وعمل مشترك بين الوطنيين الذين تزعموا توقيع وثيقة الحادي عشر يناير وبين السلطان، هو ما جعل هذا الأخير ينعت بزعيم الحركة الوطنية. وإذا كانت عريضة المطالبة بالاستقلال قد أدانت نظام الحماية وأكدت رغبة المغاربة في تجاوز واقع حال، وطالبت بتفاوض مع الفرنسيين والإسبان معًا للاعتراف باستقلال البلاد والانضمام الى الميثاق الأطلسي. فإن رد فعل الإقامة العامة كان معاكسًا لكل هذا وذاك برفضها العريضة من جهة وزيادة ضغطها على السلطان من جهة أخرى، فضلاً عما أقدمت عليه من قمع واعتقال لقادة الحزب ومنهم أحمد بلافريج ومحمد اليزيدي وأحمد مكوار وعبد العزيز بن ادريس والهاشمي الفيلالي بتهمة اتصالهم بالألمان وإعدادهم لثورة مسلحة بالمغرب.[٧]

هكذا بعد حدث الإنزال الامريكي وتداعياته انتعش العمل الوطني من جديد بعد فترة جمود بفعل القمع الاستعماري، وبات جليًا أن مطلب الوطنيين بعد ما حصل ليس سوى الاستقلال عبر التنسيق مع السلطان. وهكذا تم الاقدام على خطوة حاسمة فاصلة تمثلت في تقديم عريضة الاستقلال في الحادي عشر يناير ألف وتسعمائة وأربعة وأربعين. وهكذا تم تفجير قنبلة هزت أركان المستعمر في المغرب، تلك التي بقدر ما كانت مفاجأة بالنسبة للشعب المغربي وللفرنسيين الاستعماريين والمتعاونين معهم، بقدر ما أبانت عن موقف سلطاني صدم الاقامة العامة التي جندت آلتها القمعية إثر ذلك لدرجة إعلان حرب على شعب بعدد من المدن كفاس والرباط وسلا وأزرو ووجده وغيرها، بحيث تم اعتقال آلاف الوطنيين واستشهاد العشرات منهم وإعدام ونفي آخرين.[٨]

وفي الوقت الذي كان فيه السلطان محمد بن يوسف يتصل وينسق سريًا مع الوطنيين سبل مواجهة تعنت السلطات الفرنسية، كانت دعايتها تقول بأن السلطان لم تكن له أية علاقة بحركة الاستقلال هذه وأنه كان ساخطًا عليها.[٩] وكان قد تم تهيئ عريضة الحادي عشر من يناير للمطالبة بالاستقلال في سرية تامة وتكتم من قِبل الجميع، مع ما حضي به هذا المشروع من بحث دقيق لأسابيع مع عرض ما كان يتم التوصل اليه في كل اجتماع مع السلطان، الى أن تمت الموافقة على صيغته النهائية في بداية يناير من سنة ألف وتسعمائة وأربعة وأربعين، حيث جاء دور استنساخها وتوقيعها في سرية تامة أيضًا، ثم الاتفاق على الطريقة واليوم والساعة التي تقدم فيه الوثيقة للسلطان.[١٠]

وكانت الجهة التي تكلفت بإعداد خطوط الوثيقة العريضة تحت إشراف أحمد بلافريج، تتكون من شباب طموح متشبع بروح وطنية ومستعد لكل موقف وتطورات. بحيث بعد عرض ما كان يتم التوصل اليه من قبل هؤلاء على السلطان وبعد تجميع ما كان يسجل من ملاحظات وأفكار داعمة، كان يتم عرضها من جديد لمزيد من التدقيق والإغناء على بعض الوطنيين في سرية تامة لتجنب أي تسريب. من هنا يعتقد أن الوثيقة في مسارها كانت بصيغة أولى، تطورت من خلال ما كان ينضاف لمضمونها بعد ما كان من نقاش قائم واتصال مع السلطان. وفي هذا الإطار ورد أن ما انتهت اليه الوثيقة كان تسوية لجملة نقاط أفرزتها نقاشات ومفاوضات بين كل الأطراف ذات الصلة، مع أهمية الاشارة الى أنها كانت في البداية عبارة عن أكثر من مشروع ورؤية قبل ما حصل من توافق ومصادقة على نص مختصر أكثر تركيزًا. بل من الاشارات التي وردت حول ما تم التوصل اليه واختصاره وعرضه على السلطان، الى أنه كان ينص على اقامة نظام ديمقراطي وملكية دستورية من خلال الدعوة الى انتخاب مجلس وطني بالاقتراع العام ومجالس محلية أو جهوية منتخبة أيضًا بنفس الطريقة، وهو ما تحفظ عليه السلطان كتعبيرات لِما قد تثيره من ردود فعل.[١١]

يذكر أن وثيقة الحادي عشر من يناير للمطالبة بالاستقلال، كتبت في منزل محمد الزغادي بالمطاحن الإدريسية بفاس وضربت على الآلة الكاتبة باللغة الفرنسية التي تطوع بها محمد الغزاوي، وكان ممن قام بعملية توثيقها فضلاً عن محمد الزغادي كل من أحمد باحنيني وأحمد لحمياني ختات وادريس المحمدي وعبد الكريم بن جلون التويمي وعمر بن عبد الجليل التلمساني. ولعل اختيار هذا المكان لكتابتها وتوثيقها كان أمرًا مقصودًا حرصًا من المعنيين على سريتها وتجنب تسرب المعلومة حولها لجواسيس الاقامة العامة. وفي هذا الإطار من المفيد الاشارة الى أن من نقل الوثيقة للسلطان وهو مقيمًا آنذاك بالدار البيضاء هو محمد الغزاوي، وأن من ملاحظاته وأوامره بعد الاطلاع عليها التصريح بشكل واضح بمطلب الاستقلال. هكذا أضيفت لفظة استقلال بعدما كانت الوثيقة مبنية فقط على فكرة المطالبة باستبدال معاهدة الحماية بأخرى تليق بالمغرب وسيادته. وكانت الوثيقة قد وضعت في الأصل كما سبقت الاشارة لذلك باللغة الفرنسية قبل ترجمتها للعربية، والذي تم تكليفه بنسخها باللغة العربية نظرًا لجمال خطه كان هو عبد الوهاب الفاسي الأزعر الذي كان معلمًا بالقرويين. وتجدر الاشارة الى أنه الى حد هذه اللحظة لم يكن حزب الاستقلال قد ولد وتأسس، بحيث عندما تم الاتفاق على صياغة الوثيقة حدثت فكرة من سيرفعها الى السلطان وغيره من الجهات، وهنا ورد أنه ما دام أن الوثيقة خاصة بالمطالبة بالاستقلال فمن الأحسن أن يُطلَق على الجمع الذي أعدها اسم "حزب الاستقلال"، وقد تضاربت الآراء حول من كان سباقًا لهذا الاسم "حزب الاستقلال" هل هو أحمد باحنيني أم أحمد بلافريج.[١٢]

هكذا إذن ظهر للوجود حزب الاستقلال الذي قيل إنه حل محل الحزب الوطني عندما بات الأمر يتطلب تقديم وثيقة الاستقلال،[١٣] وهكذا تم جمع توقيعات الوثيقة وعددها ستة وستون توقيعًا وتم تعيين أربعة وفود لتقديمها في تاريخ واحد

موحد، لكل من السلطان أولاً ثم الإقامة العامة والمفوضية الأمريكية والمفوضية الإنجليزية ثانيًا.(١٤)

ولعل اختيار يوم الحادي عشر من يناير لتقديم الوثيقة وتسليمها للسلطان أولاً، ارتبط قصدًا بيوم جرت العادة أن يستقبل فيه السلطان محمد بن يوسف أسبوعيًا مستشارًا فرنسيًا معتمدًا كواسطة بينه وبين الاقامة العامة، وما تم الترتيب له بدقة وحرص هو ما حدث فعلاً وقد شاهد هذا الأخير أن هناك وفدًا من الوطنيين في قاعة الانتظار تم استقباله قبله ودامت مقابلته للسلطان مدة ساعة، وبعد استقبال السلطان للمستشار الفرنسي هذا أطلعه بأنه توصل بعريضة تطالب بالاستقلال وأمره إبلاغ المقيم العام بذلك.(١٥) وبقدر ما أثارته هذه الوثيقة من حماس شعبي كبير أربك ادارة الحماية والاقامة العامة، بقدر ما جعلت هذه الأخيرة تختار لغة التهديد والاستفزاز الذي بلغ مداه مع اعتقال أحمد بلا فريج ومحمد اليزيدي بعد حوالي أسبوعين عن تقديم الوثيقة. بحيث كان كل هذا وذاك سببًا من اندلاع مظاهرات شعبية شملت الرباط وسلا وفاس خاصة، وهو ما واجهته سلطات الحماية بقمع واسع لم ينل من قوة العمل الوطني الذي زادت قوته مع عودة علال الفاسي من منفاه في الگابون، وإلقاء السلطان لخطابه الشهير في طنجة عام ألف وتسعمائة وسبعة وأربعين والذي أعلن فيه صراحة انحيازه الى صف الوطنيين المطالبين بالاستقلال.(١٦)

تبقى عريضة المطالبة بالاستقلال للحادي عشر يناير ألف وتسعمائة وأربعة وأربعين، محطة تأمل مشرقة من زمن الحركة الوطنية، وملحمة احتوت صور كفاح حابل بعبر تاريخية وسياسية. ولعل بقدر ما يعود سياق ما حصل مع هذه الوثيقة لبداية ثلاثينات القرن الماضي، عندما تم تأسيس كتلة العمل الوطني كرد فعل على دسائس المستعمِر من خلال ما عُرف بـ"الظهير البربري" الذي استهدف تخريب البلاد والعباد، بقدر ما كانت الوثيقة نِتاج صف وطني وفعل توافقي تبلورت على إثره مبادرات على قدر عال من الوعي في علاقتها برهان انتقال لِما هو أعمق وأهم في معركة المغاربة الوطنية ضد الحماية. وهو ما ترتب وانتقل من مطالب اصلاحات أواسط ثلاثينات القرن الماضي الى مطالب اصلاحية استعجالية، ثم الى حراك وطني فيما بعد أنتج وضعًا جديدًا شكل انتقالاً من عريضة مطالب اصلاحية الى عريضة مطلب استقلال من خلال وثيقة صريحة فاصلة.

ولعل وثيقة المطالبة بالاستقلال بالنظر لكيفية تبلورها وطبيعة مسارها، شكلت استراتيجية عمل دقيقة بأهداف واضحة تأسست على تلاحم عرش وشعب لخوض معركة تحرير. هكذا كانت وثيقة الحادي عشر من يناير بتزينا، بقدر ما قوى روح كفاح وطني بقدر ما هيأ شروط ما حصل لاحقًا من مقاومة مسلحة وعمليات لجيش التحرير خاصة بعدما تطاول المستعمر على سلطان البلاد. من هنا فإن ما طبع المغرب من أحداث معبرة خلال غشت ألف وتسعمائة وثلاثة وخمسين، لا يمكن عزله عن فحوى وأثر وثيقة الحادي عشر يناير ألف وتسعمائة وأربعة وأربعين، التي اعتبرتها الاقامة العامة بادرة ملكية وجناية لا يمكن تجاوزها، وبالتالي ما حصل من تهيئ لشروط خلع سلطان البلاد وتنزيل ما تم حبكه من مؤامرة. انتهت بعكس نيات المستعمر المبيتة عندما خرج الشعب المغربي رافضًا ما فرض عليه من أمر واقع، حيث اتسعت ردود فعله هنا وهناك من مدن وبوادي وتشكلت خلايا مقاومة مسلحة تكللت بانطلاق عمليات جيش التحرير بشمال البلاد، تلك التي هزت أركان الاستعمار وكانت بدور وأثر حاسم في عودة سلطان البلاد من منفاه وتحقيق استقلال المغرب.

وبقدر عظمة ورمزية الاحتفاء بوثيقة المطالبة بالاستقلال للحادي عشر يناير ألف وتسعمائة وأربعة وأربعين، بقدر أهمية الاشارة لِما طبع مطلع أربعينات القرن الماضي من بادرات وطنية أخرى إن بالمنطقة الخليفية أو السلطانية، وقد نادت بدورها بحق البلاد في سيادتها وحريتها كاملة واستقلالها ووحدة ترابها. وعليه، يصعب القفز عما كان عليه شمال المغرب وتطوان خلال هذه الفترة من نشاط وطني وتحريك لملف مطلب الاستقلال، بحكم طبيعة تدبير استعماري اسباني جعل المنطقة بتسامح سياسي استهدف تقويض وضع فرنسا بالمغرب وبالتالي ما كان من غضِّ طرفٍ عن كل نشاط وطني يدعم ذلك. من هنا ما ميز الوطنيين هناك من حراك واتصال مبكر بالسلطان محمد بن يوسف منذ غشت ألف وتسعمائة واثنين وأربعين، وكان ما زاد من تفاعلهم ورهانهم وتقوية توجههم ما حصل من توحيد بين حزب "الوحدة المغربية" الذي كان يرأسه المكي الناصري وحزب "الاصلاح الوطني" الذي كان يرأسه عبد الخالق الطريس. اجراء تاريخي بين الحزبين انتهى إلى اصدار عريضة تضمنت مطلب استقلال البلاد، تلك التي قُدمت في الرابع عشر فبراير ألف وتسعمائة وثلاثة وأربعين لممثلي الدول الكبرى في طنجة بعد تقديمها لسلطات الحماية الاسبانية في تطوان. وكانت أول وثيقة وطنية مغربية طالبت

بالاستقلال نظرًا لبعدها الدولي، وقد وُقعت من قبل الزعيمين الوطنيين الشيخ "المكي الناصري" والأستاذ "عبد الخالق الطريس".[١٧]

وحول ما شهدته الحركة الوطنية من تطورات مطلع أربعينات القرن الماضي أورد المهدي بنونة:" في غشت عام ألف وتسعمائة واثنين وأربعين أجرت الحركة الوطنية في الشمال اتصالاً مع المرحوم محمد الخامس، للتنسيق من أجل تحرك جديد على ضوء ما جاء في الميثاق الأطلسي، كما تم الاتصال بالسيد أحمد بلا فريج ممثل الحركة الوطنية في الجنوب الذي أقام في مدينة القصر الكبير. كان هدف حزب الاصلاح الوطني في الشمال من هذه التحركات تهيئة الأجواء الملائمة للتقدم بمطالب جديدة على ضوء ميثاق الحلف الأطلسي، وبادر حزب الاصلاح الوطني الى تشكيل جبهة موحدة اشترك فيها حزب الوحدة المغربية وتكونت الجبهة القومية في الثامن عشر دجنبر ألف وتسعمائة واثنين وأربعين. وفي الحادي عشر فبراير ألف وتسعمائة وثلاثة وأربعين تقدمت الجبهة بوثيقة المطالبة بالاستقلال ووحدة المغرب الترابية وإلغاء نظام الحماية نهائيًا. قدمت الوثيقة الى سلطات الحماية الاسبانية في تطوان وفي الرابع عشر من نفس الشهر قدمت هذه المطالب الى ممثلي الدول الكبرى في طنجة، وكان لهذه الدول قناصل فيها بمرتبة وزير مفوض.. وتزامن ذلك التحرك مع نزول القوات الأمريكية على الشواطئ المغربية ..عقب تلك التطورات شرع محمد الخامس في القيام بدور فعال ستكون له انعكاسات مهمة على مستقبل المغرب، إذ أنه بعد نزول الأمريكيين على الشواطئ المغربية في الثامن نونبر ألف وتسعمائة واثنين وأربعين، عقد مؤتمر الدار البيضاء للحلفاء وهو.. الذي حضره روزفيلت وتشرشل ونوگيس، وشارك الملك محمد الخامس في جزء من أعمال المؤتمر وحضر مأدبة العشاء التي أقامها الرئيس الأمريكي..واكتسى هذا الاجتماع أهمية بالغة بالنسبة للمغرب، إذ أنها المرة الأولى التي تتاح فيها للملك.. إجراء مباحثات مع زعماء الدول الكبرى حول حق تقرير المصير للشعب المغربي."[١٨]

على وقع كل هذه التطورات وبعدما حصل من ميثاق وطني بين حزبي "الاصلاح الوطني" و"الوحدة المغربية" بالمنطقة الخليفية في دجنبر ألف وتسعمائة واثنين وأربعين، بدأ اصرار الحزبين على مطلب الاستقلال ورفض منطق الاصلاحات. حيث تبلورت وثيقة المطالبة بالاستقلال والوحدة المغربية في الرابع عشر فبراير ألف وتسعمائة وثلاثة وأربعين، تلك التي كانت بأثر معبر وقيمة غير مسبوقة لدرجة اعتُبرت الأولى من نوعها في تاريخ المطالب المغربية زمن الحماية، بل بأهمية على مستويين كونها أول نداء علني رسمي باستقلال المغرب وبوحدته وبإسقاط نظام الحماية من جهة، فضلاً عن إرسالها من جهة ثانية الى كافة الدول المستقلة بغض النظر عن سياستها وأنظمتها في شخص مفوضها في طنجة وتطوان، وإلى السلطان محمد بن يوسف يوم الخامس عشر فبراير وللخليفة السلطاني بتطوان ثم لحزب القومية المغربية بزعامة محمد حسن الوزاني، وفيما بعد الى بعض الملوك والرؤساء العرب والمسلمين كذا الزعماء القوميين مثل شكيب أرسلان. وبقدر ما تمسك وطنيو المنطقة الخليفية بحق المطالبة بالاستقلال، بقدر ما طالبوا في احتجاجاتهم ومظاهراتهم باسترجاع سبتة ومليلية.[١٩]

ولعل مما طبع هذه الفترة الدقيقة في علاقتها بمطلب الوطنيين المغاربة بالاستقلال، الى جانب اندماج حزبي "الاصلاح الوطني" و"الوحدة المغربية" وتوحيد صفهما وإصدارهما لبيان مشترك، طالبا فيه باستقلال البلاد واستعادتها لسيادتها وقيام نظام ملكي مسلم وطني بها تحت اشراف السلالة العلوية، طرح الحزب الشيوعي المغربي بدوره مطلب استقلال جاء فيه: "حق الوطن المغربي في التحكم في مصيره بنفسه كما هو الشأن في كل أوطان العالم". كما خرج السلطان محمد بن يوسف عن تحفظه الأمر الذي اعتبر حدثًا جوهريًا، إذ في الثامن نونبر ألف وتسعمائة واثنين وأربعين وإثر طلب من المقيم العام الفرنسي "نوگيس" رفض مغادرة الرباط. وفي الثاني والعشرين نونبر ألف وتسعمائة وثلاثة وأربعين التقى كما سبقت الاشارة لذلك بالرئيس الأمريكي روزفيلت، والذي بقدر ما كان مناهضًا للاستعمار بقدر ما شجعه على المطالبة بالاستقلال بعد نهاية الحرب العالمية الثانية مؤكدًا دعمه له.[٢٠]

ويتبين من خلال وثيقة المنطقة الخليفية للمطالبة بالاستقلال التي ارتبطت بشهر فبرار ألف وتسعمائة وثلاثة وأربعين، أن رهانها كان تحقيق إجماع وطني بين الشمال والجنوب حول هدف واحد هو استقلال المغرب ووحدته الترابية. وهو ما يعني ويعكس درجة ما كان عليه الفكر الوطني شمال البلاد من نضج ووعي، وهو الذي وسع مجال الأطراف المعنية بالنظر في مسألة استقلالها من خلال إرسال مذكرة من قِبل عبد الخالق الطريس والمكي الناصري باسم الجبهة القومية المغربية إلى الرئيس الأمريكي روزفيلت في فاتح أبريل ألف وتسعمائة وخمسة وأربعين، وكانت مطالب وثيقة وعريضة الرابع عشر فبراير ألف وتسعمائة وثلاثة وأربعين بالمنطقة

الخليفية قد عرفت اتساعًا كبيرًا في أوساط الوطنيين بشمال البلاد وجنوبها.[٢١]

ولعل مما يؤكد رهان إجماع وطني الشمال من أجل تحقيق استقلال المغرب، ما بادر اليه حزب الاصلاح من تأييد لوثيقة الحادي عشر يناير ألف وتسعمائة وأربعة وأربعين لمَّا بلغه خبر تقديم حزب الاستقلال لها. وذلك من خلال مذكرة وجهها للسلطان محمد بن يوسف أكد فيها أن مطلب الاستقلال هو مطلب أمة بكاملها، ومن جملة ما ورد فيها:" مولانا اننا نغتنم هذه الفرصة لنضم صوتنا الى صوت حزب الاستقلال، نؤازره ونؤيده في مطالبه العادلة معبرين بذلك عن شعور شعبكم الوفي في هذه المنطقة من المغرب، ومؤكدين لجلالتكم بأن مبادئنا واحساسنا في هذه الديار هي عين المبادئ المغربية الخالصة.". وهي المذكرة الداعمة أيضًا التي تم فيها التعبير عن أهمية تزعم السلطان للحركة الاستقلالية، وهو ما يتبين من الفقرة التالية:" يا صاحب الجلالة إن آمال الشعب المغربي كلها معلقة على جهودكم ومساعيكم الدبلوماسية في سبيل تحرير المغرب، وأن مستقبل الأمة ومستقبل الوطن في يدكم."[٢٢]

وفي إطار الحديث عن ملحمة مطالبة المغاربة بالاستقلال التي تقاسمتها عدة مبادرات زمن الحماية، وبعيدًا عن الباحثين والمؤرخين والمهتمين بالتاريخ والتراث الرمزي الوطني، كثير ممن لا يعرفون سوى وثيقة المطالبة بالاستقلال التي تقدم بها حزب الاستقلال الذي تأسس عشية الانتهاء من إعدادها، ولعل مما رسخ هذا الاعتقاد وهذه المحطة الوطنية في ذاكرة هؤلاء تحولها إلى يوم وطني. علمًا أنه فضلاً عن وثيقة الجبهة القومية المغربية بالمنطقة الخليفية حيث الاحتلال الإسباني بشمال المغرب، هناك وثيقة ثانية بالمنطقة السلطانية حيث الاحتلال الفرنسي كانت قد تقدمت بها الحركة القومية التي كان يتزعمها المفكر الوطني محمد حسن الوزاني الى السلطان محمد بن يوسف، كان ذلك في الثالث عشر يناير ألف وتسعمائة وأربعة وأربعين، ليبقى السؤال لماذا لم تحظ هذه الوثيقة بنفس العناية ولماذا لم تكن بنفس وقع الوثيقة التي تقدم بها حزب الاستقلال، ولماذا نوع من الصمت حولها في كتب التاريخ بما في ذلك تلك الموجهة للمتمدرسين والناشئة. فبقدر ما هناك من حديث ووقفة حول عريضة الحادي عشر يناير ألف تسعمائة وأربعة وأربعين بقدر ما هناك من طمس لعريضة الثالث عشر يناير من نفس السنة، علما أنه على مستوى حيثيات الوثيقتين هناك اختلاف بيِّن أما على مستوى الجوهر فقد التقتا في مهمتهما التاريخية تجاه وطن.[٢٣]

وكان محمد حسن الوزاني في مذكراته قد فسر تأخر تقديم عريضة المطالبة بالاستقلال التي بادر اليها الحزب القومي، بما كان عليه الأمر من حاجة لتأمل وتداول ورأي من أجل خطوة وعمل مسؤول. مع أهمية الاشارة لِما كان لهذه الوثيقة من أهمية سياسية للرد على المقيم الفرنسي الذي قال بأن وثيقة حزب الاستقلال لا تمثل كل مكونات الشعب المغربي، هكذا كانت وثيقة الحزب القومي داعمة للإجماع الوطني متضامنة مع حزب الاستقلال من أجل هذا الرهان.[٢٤] ونظرًا لطبيعة اللحظة وحالة استعجال لوقف كل اشاعات ومناورات السلطات الاستعمارية حول عدم وحدة رؤية الأحزاب المغربية، تم تقديم العريضة في غياب الزعيم محمد حسن الوزاني الذي كان في منفاه بـ (ايتزر). فالذي حرر الوثيقة في غياب أمين الحزب العام كان هو عبد الهادي الشرايبي مدير جريدة "الدفاع" لسان حال الحركة القومية. وفي علاقة بحزب الشورى والاستقلال(القوميين) ورد أن حزب الاستقلال اتصل بأفراد الحركة القومية، وعمل على نقل نسخة من عريضة الاستقلال سرًا لمحمد حسن الوزاني للتوقيع عليها لكنه رفض، وعندما تأكد من تقديمها أعطى أمره بإصدار عريضة مماثلة لها. ما يخالف ما جاء في مذكرات هذا الأخير الذي أشار الى أن وثيقة مطالبة حزب الاستقلال بالاستقلال، كانت قد قدمت منذ عدة أيام بعد التوقيع عليها من قِبل أصحابها وأنها لم تبق معروضة لأي توقيع، مضيفًا أن الموقعين عليها كانوا كلهم من حزب الاستقلال الناشئ وأنه لم يكن لا من مؤسسيه ولا من أعضاءه.[٢٥]

وورد أنه بعد تحفظ القوميين الوطنيين وتأخر انخراطهم في حراك المطالبة بالاستقلال، تدخل السلطان محمد بن يوسف موصيًا بضرورة الإسراع لمساندة عريضة الحادي عشر يناير، وأنه بعد يومين عن الحدث استقبل السلطان وفد الحركة القومية الذي قدم له عريضة تم إعدادها في الموضوع.[٢٦] مع أهمية الإشارة الى أنه بعد الافراج عن محمد حسن الوزاني في ماي ألف وتسعمائة وستة وأربعين، كانت هناك محاولة لتحقيق تصالح بين الحزبين بإيعاز من السلطان لتوحيد صف الحركة الوطنية دون جدوى بعد عدة لقاءات ومحادثات.[٢٧] ومن جملة ما جاء في وثيقة المطالبة بالاستقلال التي تقدمت بها الحركة القومية بفاس في الثالث عشر يناير ألف وتسعمائة وأربعة وأربعين:" إن الحركة القومية التي تعمل لتحقيق الوحدة المغربية

والتي تضم صوتها الى حزب الاستقلال، نظرا لما يتمتع به المغرب منذ أقدم عصوره من الاستقلال والسيادة الوطنية، ونظرًا لأن الحماية التي فرضت على المغرب لم تقم بمهمتها التمدينية بل تعدتها إلى الحكم المباشر، ونظرًا لأن ميثاق الاطلنطيك يقرر حق الشعوب في تحقيق مصيرها والتمتع بسيادتها، ونظرًا إلى مبدأ الحريات الأربع التي قررتها الدول الديمقراطية: تطالب بما يأتي."[٢٨]

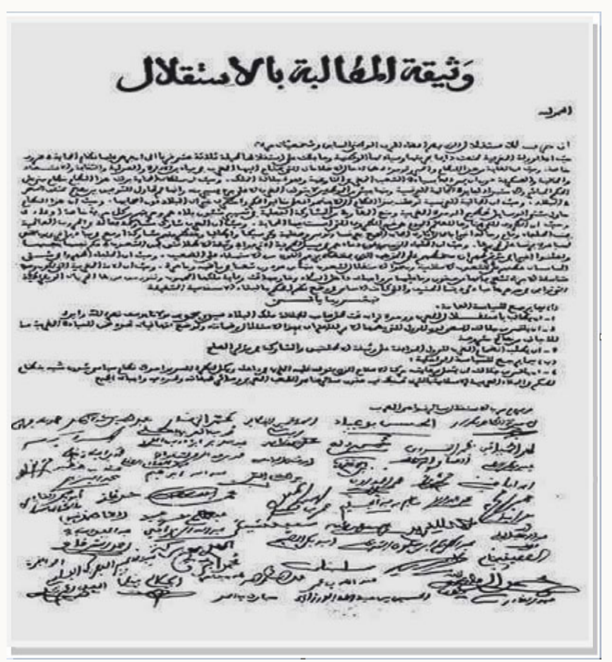
يبقى بعد هذه الإطلالة حول قضية استقلال المغرب وملحمة وثائق المطالبة به، أن من أهم المواقف في حياة الشعوب عمومًا هناك مواقف الرفض لتجاوز الظلم والهيمنة والعنف، ولولا ما سجل من رفض وموقف هنا وهناك ولولا ما حصل من معارك سياسية وفكرية وإعلامية وعسكرية أيضًا لضاعت كثير من القضايا والحقوق ولمَا وجدنا من يؤمن بها ويساندها. فرفض الشعوب واتخاذها لمواقف معينة على أساس واقع ما، كثيرًا ما يكون بروعة حدث وأشد اثارة وعجاب واجلال واكبار وتعاطف والتفاف وحضن ودعم، لا لشيء سوى لأنها تطرح موضوعًا وقضية يكمن فيها ووراءها ظلم وعدم انصاف وتجاوز وحرمان، بين طرف قوي يحتكر مقياس الحق وآخر ضعيف يرفض ما هو طغيان وذل وهوان، وكثيرة هي مواقف رفض ومواجهة ومقاومة خاضها الشعب المغربي لتجاوز ما تعرض له من تآمر وأطماع عبر التاريخ.

إن ما كان وراء ملحمة المطالبة بالاستقلال مطلع أربعينات القرن الماضي من حركة وطنية مغربية، يمثل بحق أحسن ما في تاريخ البلاد المعاصر لكونها تقدم المغاربة ضمن أنبل عواطف وأحسن مواقف، من خلال تجاوزهم لواقع ما كانوا عليه واقبالهم على كفاح وتضحية من أجل الوطن. وعليه، فالقضية الوطنية لهذه الفترة من زمن البلاد ليست لا مسألة أشخاص ولا أحزاب سياسية، بل حركة شعب والتفاف ووعي طبع مواقف الوطنيين عمومًا على تباين نزعاتهم وقناعاتهم الإيديولوجية، وليست القضية الوطنية أيضًا مسألة منطقة دون أخرى بل مسألة وطن في كل مكوناته ومجاله. ولعل الحديث عن مطلب الاستقلال في كل تجلياته وبادراته، يقتضي تساؤلات جوهرية ذات صلة به كحدث ورهان من جهة وكسياق وما ترتب عنه من جهة أخرى، وعيًا بما للأمر من أهمية تاريخية كمنعطف وطني دقيق وحرج زمن مغرب الحماية، وبما له من دلالات رمزية وطنية لا تزال بوقع واستمرارية في ذاكرة بلادٍ وعِباد.

خاتِمَةٌ

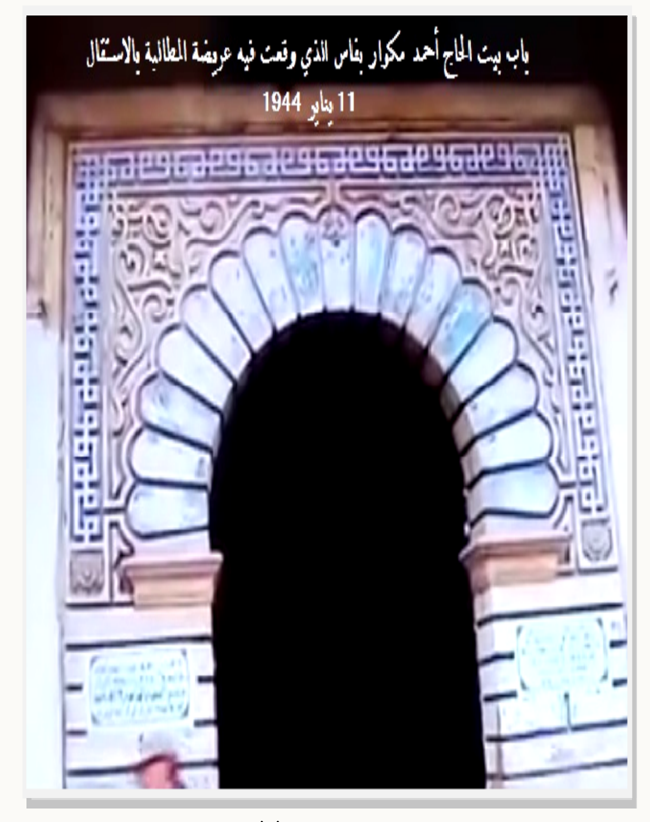
ما كان من حركة وطنية وراء ملحمة مطالبة المغرب بالاستقلال زمن الحماية مطلع أربعينات القرن الماضي يمثل أحسن ما في تاريخ البلاد المعاصر، لكون ما حصل يقدم المغاربة ضمن أنبل عواطفهم ومواقفهم من خلال تجاوزهم لِما كانوا عليه من واقع استعماري وإقبالهم على كفاح وتضحية من أجل الوطن. وعليه، فالقضية الوطنية لهذه الفترة الدقيقة من تاريخ البلاد ١٩٣٩ - ١٩٤٤ ليست لا مسألة أشخاص ولا أحزاب سياسية، بل حركة شعب ووعي والتفاف وإخلاص وطني طبع مواقف الوطنيين على تباين نزعاتهم وقناعاتهم السياسية، وليست القضية الوطنية أيضًا مسألة منطقة دون أخرى بل مسألة وطن في كل مكوناته ومجاله. ولعل الحديث عن ملحمة مطالبة المغرب والمغاربة بالاستقلال في كل تجلياتها وبادِراتها على عهد الحماية الفرنسية، يقتضي تساؤلات جوهرية ذات صلة بالحدث والرهان من جهة وبسياقه وما ترتب عنه من جهة أخرى، وعيًا بما للأمر من أهمية تاريخية كمنعطف وطني دقيق وحرج معًا خلال فترة الاستعمار وبما له من دلالات رمزية لا تزال بوقع واستمرارية في ذاكرة البلاد والعباد.

الملاحق


وثيقة المطالبة بالاستقلال

صورة رقم (١)

وثيقة ١١ يناير ١٩٤٤ للمطالبة بالاستقلال



صورة رقم (٢)

باب بيت الحاج أحمد مكوار الذي وقعت فيه وثيقة المطالبة بالاستقلال لـ ١١ يناير ١٩٤٤

عريضة المطالبة بالاستقلال للحركة القومية (1944)

بسم الله الرحمان الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

«إن الحركة القومية التي تعمل لتحقيق الوحدة المغربية والتي تضم صوتها إلى "حزب الاستقلال" نظرا لما يتمتع به المغرب، منذ أقدم عصوره، من الاستقلال والسيادة الوطنية، ونظرا لأن الحماية التي فرضت على المغرب لم تقم بمهمتها «التمدينية» بل تعدتها إلى الحكم المباشر.

ونظرا لأن «ميثاق الأطلنطيك» يقرر مبدأ حق الشعوب الضعيفة في تحقيق مصيرها، والتمتع بسيادتها القومية.

ونظرا إلى مبدأ الحريات الأربع التي قررتها الدول الديمقراطية

تطالب بما يأتي:

فيما يرجع للسياسة العامة:

1- أن تطالب باستقلال المغرب ووحدة ترابه تحت ظل صاحب الجلالة ملك البلاد المفدى سيدي محمد بن يوسف أيد الله ملكه ونصره.

2- أن تلتمس من جلالته السعي لدى الدول التي يهمها الأمر للاعتراف بهذا الاستقلال وضمانه، ولوضع اتفاقيات تحدد، ضمن السيادة المغربية، ما للأجانب من مصالح مشروعة.

3- أن تطلب انضمام المغرب للدول الموافقة على وثيقة الأطلنطيك والمشاركة في مؤتمر الصلح.

فيما يرجع للسياسة الداخلية:

4- أن تلتمس من جلالته أن يشمل برعايته حركة الإصلاح الذي يتوقف عليه المغرب في داخله، ويكل لنظره السديد إحداث نظام سياسي شوري شبيه بنظام الحكم في البلاد العربية الإسلامية بالشرق تحفظ فيه حقوق سائر عناصر الشعب المغربي وسائر طبقاته، وتحدد فيه واجبات الجميع.

عن هيئات الحركة القومية بسائر أنحاء المغرب:

عبد الهادي الشرايبي- أستاذ

عمر بن محمد العراقي- أستاذ بالقرويين

علي العراقي- أستاذ

عبد القادر بن شقرون- خريج القرويين

محمد بردلة- فلاح وملاك، عضو في جمعية قدماء التلاميذ بفاس

محمد بن العالي الكتاني- تاجر، عضو في جمعية قدماء التلاميذ بفاس

حماد العراقي- خريج القرويين

عبد الهادي بن المأمون العراقي- خريج القرويين

إدريس بن الماحي الإدريسي- أستاذ بثانوية مولاي إدريس

عبد العزيز بوطالب- وكيل عدلي

الحاج عبد القادر العلمي- تاجر ومن كبار قدماء الوطنيين

محمد بوطالب- أستاذ بثانوية مولاي إدريس

محمد بن المكي بن زاكور- ملاك وفلاح

محمد الصبيحي- تاجر

محمد بن عبد الله- من العلماء، ومدير مدرسة حرة

العابد الفرشي- خريج القرويين

عبد الرحمان بن محمد الوزاني- ملاك وفلاح

الحبيب بن عمور- ملاك

إدريس بن محمد الوزاني- ملاك وفلاح

محمد بن عبد السلام المنوني- ملاك

محمد الطاهري- فلاح

محمد بن عبد الهادي المنوني- خريج القرويين

إبراهيم الطلالي- تاجر وأستاذ

محمد بن أحمد برادة- أستاذ

عبد القادر بن جعفر العلوي- تاجر

العلمي بن محمد الزهراوي- مدير مدرسة

المصدر: محمد حسن الوزاني، مذكرات حياة وجهاد، التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحريرية المغربية، الجزء 6، مؤسسة محمد حسن الوزاني، فاس 1986، صص 120-123.

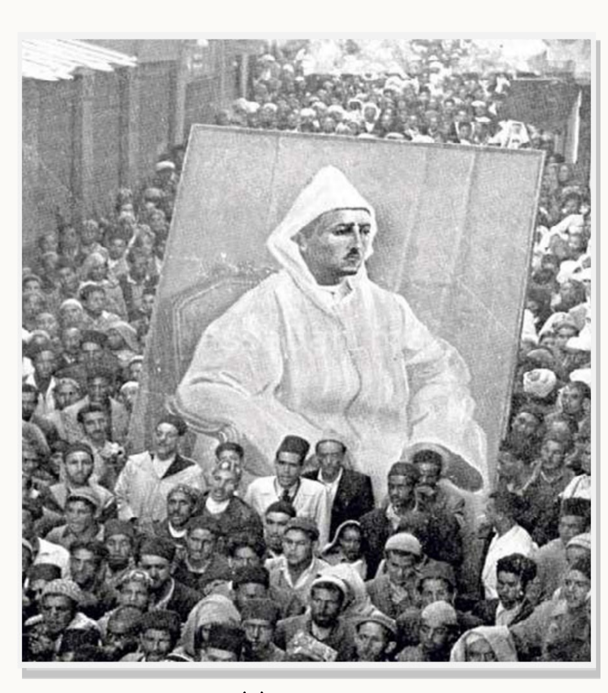
صورة رقم (٤)

عريضة المطالبة بالاستقلال للحركة القومية ١٣ يناير ١٩٤٤



صورة رقم (٣)

البيت الذي وقعت فيه عريضة المطالبة بالاستقلال في فاس ١١ يناير ١٩٤٤



صورة رقم (٥)

السلطان المغربي محمد الخامس وإحدى التظاهرات الشعبية المغربية بعد تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال

*مصدر الصور في الملاحق: أرشيف كاتب المقال

الاحالات المرجعية:

(١) العلوي زين العابدين، **المغرب في عهد السلطان سيدي محمد بن يوسف**، الجزء الثالث، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ٢٠٠٩، ص ص ٢٦٤- ٢٦٥.

(٢) واتربوري، **أمير المؤمنين الملكية والنخبة السياسية المغربية**، مؤسسة الغني، الرباط، مطبعة فضالة، المحمدية، طبعة أولى، ٢٠٠٤، ص ص ٩١- ٩٢.

(٣) بنونة المهدي، **السنوات الحرجة بالمغرب**، منشورات الشركة السعودية للأبحاث والتسويق، المملكة العربية السعودية، جدة، طبعة أولى، ١٩٨٩، ص ٨٥.

(٤) زنيبر محمد، **صفحات من الوطنية المغربية**، مطبعة دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٩٠، ص ٨٨.

(٥) زنيبر محمد، م س، ص ٩٨.

(٦) أشقرا عثمان، **محمد الخامس والحركة الوطنية وعريضة الاستقلال**، مجلة المناهل عدد ٧٧- ٧٨، مطبعة دار المناهل، وزارة الثقافة، الرباط، ٢٠٠٦، ص ٩٢.

(٧) بنعدادة أسية، **الملك محمد الخامس والمطالبة بالاستقلال**، مجلة المناهل، عدد ٧٧- ٧٨، مطبعة المناهل، وزارة الثقافة، الرباط، ٢٠٠٦، ص ص ١٠٥- ١٠٦.

(٨) زنيبر محمد، م س، ص ص ١٤٨- ١٤٩

(٩) العلوي زين العابدين، م س، ص ٢٧٣.

(١٠) أشقرا عثمان، **محمد الخامس والحركة الوطنية**..، م س، ص ٩٤.

(١١) أشقرا عثمان، نفسه، ص ٩٥.

(١٢) الفيلالي عبد الكريم، **التاريخ السياسي للمغرب العربي**، الجزء العاشر، شركة ناس للطباعة، القاهرة، طبعة أولى، ٢٠٠٦، ص ٥٩.

(١٣) الفيلالي عبد الكريم، نفسه، ص ٤٨.

(١٤) أشقرا عثمان، م س، ص ٩٦.

(١٥) العربي المساري، **موسوعة الحركة الوطنية والمقاومة وجيش التحرير**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة عكاظ، الرباط، الجزء الأول، المجلد الأول ٢٠٠٥، ص ٢٤٠.

(١٦) أشقرا عثمان، م س، ص ٩١.

(١٧) بنونة المهدي، **السنوات الحرجة بالمغرب**، م س، ص ٨٤.

(١٨) بنونة المهدي، نفسه، ص ص ٨٣- ٨٤.

(١٩) برادة عبد الرحيم، **وثيقة مطالبة الحركة الوطنية في الشمال بالاستقلال والوحدة**، الظرفية والأبعاد، موسوعة الحركة الوطنية والمقاومة وجيش التحرير بالمغرب، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة عكاظ، الرباط، الجزء الأول، المجلد الأول، ٢٠٠٥، ص ٢٣٤.

(٢٠) عياش ألبير، **الحركة النقابية بالمغرب، الجزء الثاني، مغربة الحركة ١٩٤٣- ١٩٤٨**، ترجمة نور الدين سعودي، منشورات مجلة أمل، طبعة أولى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٧، ص ص ١٣- ١٤.

(٢١) برادة عبد الرحيم، **وثيقة مطالبة الحركة الوطنية في الشمال بالاستقلال...**، م س، ص ٢٣٥.

(٢٢) برادة عبد الرحيم، نفسه، ص ٢٣٥.

(٢٣) **ندوة بيان يناير بين مطالبيه الاستقلال والديمقراطية**، مجلة أمل، عدد ٥، السنة ١٩٩٤، ص ١٥٢.

(٢٤) العلوي زين العابدين، م س، ص ٢٦٨.

(٢٥) أشقرا عثمان، م س، ص ص ٩٧- ٩٨.

(٢٦) أشقرا عثمان، م س، ص ٩٩.

(٢٧) بنعدادة أسية، **الملك محمد الخامس والمطالبة بالاستقلال**، م س، ص ١٠٥.

(٢٨) المساري العربي، **عريضة ١١ يناير ١٩٤٤، موسوعة الحركة الوطنية والمقاومة وجيش التحرير بالمغرب**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، م س، ص ٢٤٤.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].



الشيخ سليمان الباروني ودوره التاريخي في عمان
أغسطس ١٩٢٤ – مارس ١٩٤٠

هيفاء بنت أحمد راشد المعمري

باحثة دكتوراه في التاريخ الحديث

كلية الآداب والعلوم الاجتماعية

جامعة السلطان قابوس – سلطنة عمان

مُلَخّصْ

تُعدّ المرحلة العمانية في حياة الشيخ سليمان باشا الباروني أحد الفترات التاريخية المهمة في مسيرته الفكرية والإصلاحية؛ فقد أسهم في توثيق الصلات والروابط الدينية وتعزيز التعايش السلمي بين أهل عمان، ولم يكن دوره مقتصرا في عمان فقط وإنما للأمة الإسلامية فقد ساهم بقلمه في بث روح القومية، والوقوف بوجه الأطماع الاستعمارية. وقد تم تكليفه من قِبل السلطة في عُمان بالعديد من المهام ومنها تكليفه برئاسة الوزارة في تنظيم أمور الدولة، وتعيينه مستشار للسلطان سعيد بن تيمور في الفترة ١٩٣٨-١٩٤٠. هدفت الدراسة إلى تسليط الضوء على الدور التاريخي الذي قام به الشيخ سليمان الباروني في عُمان سواء كإصلاحات إدارية أو فكرية. وتتضمن الدراسة تمهيد مع محورين، بحيث ناقش المحور الأول وصول الشيخ سليمان الباروني إلى عمان، كآلية استقباله، ورحلته إلى داخلية عمان والتقاءه بأهلها. أما المحور الثاني فيوضح أدواره السياسية وإصلاحاته في عمان من خلال مناقشة المهام التي أوكلت إليه وكيف تعامل معها وما النتائج التي حققها، وهل كان للظروف الشخصية التي واجهته أثر على إصلاحاته وكيف كانت نهايته. أما مصادر البحث التي اعتمدت عليها الدراسة فهي الوثائق التاريخية سواء العمانية منها التي يمثلها المخطوط العماني لعيسى الطائي الذي وثق من خلاله رحلات الشيخ سليمان الباروني لعُمان، والوثائق البريطانية التي رصدت المراسلات ما بين الشيخ وأئمة عمان وسلاطينها، وتدخل الحكومة البريطانية ممثلة في وكالتها في مسقط، ووثائق ومراسلات لأصدقائه في ليبيا التي نشرها صديقه الحاج أبو اليقظان إبراهيم في كتابه الموسوم سليمان الباروني في أطوار حياته. بالإضافة إلى العديد من المصادر والمراجع الأخرى.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٠٦	فبراير	٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر:	٢٧	فبراير	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

سليمان الباروني؛ عُمان؛ الإمام محمد الخليلي؛ السلطان سعيد بن تيمور؛ التبشير؛ الإصلاحات الإدارية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.220446

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

هيفاء بنت أحمد راشد المعمري، "الشيخ سليمان الباروني ودوره التاريخي في عمان: أغسطس ١٩٢٤ – مارس ١٩٤٠".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الحادي والخمسون؛ مارس ٢٠٢١. ص ٩٩ – ١١٣.

Corresponding author: haifa.ahmed999@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

بدأت صلة الشيخ سليمان الباروني بعُمان قبل أن يستقر فيها، وكان يتابع مجريات أحداثها السياسية باستمرار، ويوجه نداءه الفكري لقياداتها السياسية والعلمية بضرورة الحفاظ على وحدتها من جميع الأخطار المحدقة بها، وتفعيل دورها الحضاري من خلال تبني مشروع إصلاحي يشملها في جميع المجالات. وتُعَدّ المرحلة العمانية من حياته إحدى المراحل المهمة في مسيرته التاريخية؛ فقد أسهمت في توثيق الصلات والروابط الدينية والفكرية ما بين المشرق والمغرب الإسلامي. وتقلد الشيخ الباروني عدة مناصب، وتولى عدة مهام في حكومة السلطنة العمانية، وعليه فإن هذه الدراسة ستسلط الضوء على الدور التاريخي الذي قام به الشيخ سليمان الباروني في عُمان من خلال الإجابة على التساؤل الرئيس: **ما الدور الذي قام به الشيخ سليمان الباروني في عُمان بعد أن استقر بها في الفترة ١٩٢٤-١٩٤٠؟ والذي اندرج منه عدة تساؤلات فرعية**

- هل كان للشيخ سليمان الباروني دور في عمان قبل مجيئه إليها والاستقرار بها؟
- ما الأسباب التي أدت بالشيخ سليمان الباروني أن يقرر الاستقرار في عُمان؟
- كيف استطاع أن يحقق منزلة رفيعة بين أهالي عُمان وقادتها؟
- ما المهام الأساسية التي أوكلت إليه وكان له دورًا في إصلاحها في عُمان؟
- ما الظروف التي أحاطت به خلال وجوده في عُمان؟
- كيف كانت نهاية حياته؟

تتكون الدراسة من تمهيد ومحورين، فالتمهيد يتناول تعريفًا بشخصية الشيخ سليمان الباروني، والظروف التي أدت إلى مغادرته من بلده إلى عُمان مع توضيح لدوره السياسي تجاه عمان قبل مجيئه إليها. والمحور الأول يناقش وصول الشيخ سليمان الباروني إلى عمان؛ من خلال رصد كيفية استقباله، ورحلته إلى داخلية عمان والتقائه بأهلها. أما المحور الثاني فيوضح أدواره السياسية واصلاحاته في عمان من خلال مناقشة المهام التي أوكلت إليه وكيف تعامل معها وما النتائج التي حققها، وهل كان للظروف الشخصية التي واجهته أثر على مسيرته الإصلاحية، وكيف كانت نهايته.

أما مصادر البحث التي اعتمدت عليها الدراسة فهي الوثائق التاريخية سواء العمانية منها التي يمثلها المخطوط العماني لعيسى الطائي الذي وثق من خلاله رحلات الشيخ سليمان الباروني لعُمان، والوثائق البريطانية التي رصدت المراسلات ما بين الشيخ وأئمة عمان وسلاطينها، وتدخل الحكومة البريطانية ممثلة في وكالتها في مسقط، ومراسلاته لأصدقائه في ليبيا التي نشرها صديقه الحاج أبو اليقظان إبراهيم في كتابه الموسوم سليمان الباروني في أطوار حياته. بالإضافة إلى العديد من المصادر والمراجع الأخرى. واتبع المنهج الوصفي التحليلي من خلال وصف للمادة المستقاة من مصادرها وتحليل لمحتواها للوصول إلى الحقائق، ووضعها في مساقها التاريخي.

تمهيد

شهد الوطن العربي في القرن التاسع عشر، وبدايات القرن العشرين زحفًا استعماريًا تنوعت أشكاله، واختلفت وسائله بعد أن ضعفت الدولة العثمانية صاحبة السيادة عليه، فخضعت دوله للاستعمار مباشرًا أو غير مباشر كحماية أو وصاية أو انتداب، وكانت ليبيا واحدة من بلدان الوطن العربي التي نالت حظها من الاستعمار على يد إيطاليا عام ١٩١١م، وعليه تشكلت المقاومة الليبية ضد الاحتلال وظهرت شخصيات عديدة برزت في قيادة الثوار المجاهدين، وكان من أبرزهم الشيخ سليمان الباروني الذي قاد ثورة المقاومة في ليبيا، وأسس مع أصحابه أول جمهورية عربية فيها[١]، ووضع قانون أساسي لها عام ١٩١٩م[٢]، ولكن نمو القوة الإيطالية بعد أنتصارهم في الحرب العالمية الأولى أدى إلى شن حرب كبيرة ضد الرموز الوطنية ؛ الأمر الذي جعل الشيخ الباروني يقرر الخروج من ليبيا عام ١٩٢٢م، لتبدأ مرحلة مهمة من حياته مناضلاً من أجل العروبة ما بين عُمان والحجاز.[٣]

فالشيخ سليمان بن عبد الله بن يحيى الباروني النفوسي الطرابلسي، أحد زعماء قادة الإصلاح والجهاد في ليبيا، وهو مؤرخ وأديب ومجاهد بالسيف والقلم. ولد في مدينة جادو في جبل نفوسة شمال غرب ليبيا عام ١٨٧٠م[٤]، ترعرع في أسرة عرفت بمسيرتها الجهادية والعلمية منذ القرن الرابع الهجري في مدينة طرابلس.[٥] ويذكر أبو اليقظان بأن جذور عائلة الباروني تعود في أصولها مع أسرة البرواني في إبرا[٦] العمانية.[٧] وتدعى أمه عزيزة بنت سليمان . ولديه أخوان اثنين: أحمد ويحيى، وقد تزوج من امرأتين أحدهما ليبية الجنسية بربرية الأصل وقد أنجب منها أربعة، والأخرى عمانية ولم تنجب له أبناء.[٨] والزوجة العمانية هي ابنة الشيخ علي بن جبر الجبري.[٩] وأولاده الأربعة هم ولدين

وبنتين، فالأولاد سعيد وإبراهيم والبنات هم زعيمة وعزيزة . ولقد تتلمذ على يد شيوخ علم أجلاء من أبرزهم عثمان المكي، ومحمد النخلي[١٠] في جامع الزيتونة[١١] بتونس، وفي عام ١٨٩٢م سافر إلى القاهرة ودرس في الجامع الأزهر[١٢]، وبعد ثلاث سنوات شد الرحال إلى ميزاب[١٣]، وأقام فيها إلى عام ١٨٩٧م، والتقى فيها بمرجع الإباضية قطب الأمة الشيخ أطفيش[١٤] الذي وجد عنده الرعاية والاهتمام، وتوطدت علاقاته برجال العلم . وواصل الشيخ الباروني رحلاته العلمية مع الشيوخ، والعلماء، والأئمة، والمراجع الدينية. واستمرت علاقته بالدولة العثمانية علاقة طيبة إلى أن ساءت علاقته بالسلطان عبدالحميد الثاني[١٥]؛ بسبب وشاية، فسجن على أثرها شهرين، وأطلق سراحه بعدها نتيجة تدخل القبائل والعشائر وأفرج عنه بعفو سلطاني عام ١٩٠٢م . وأسس عام ١٩٠٤م مدرسة سماها المدرسة البارونية وتولى الإشراف عليها والده، وأنشأ بجوارها المكتبة البارونية التي تضم أمهات الكتب والمخطوطات. وفي عام ١٩٠٦م أنشأ المطبعة البارونية بعد ما اتيحت له فرصة الامتزاج الثقافي مع أعلام الحركة الأدبية والفكرية والسياسية بعد سفره إلى مصر. وفي عام ١٩٠٨م أصدر جريدة الأسد الإسلامي التي لم يصدر منها إلا ثلاثة أعداد فقط؛ إلا أنها وضحت أفكاره وطموحاته.[١٦]

وفي عام ١٩١١م قاوم الباروني الاحتلال الإيطالي لليبيا، وظل يقاومه حتى تغلب عليه الايطاليون فغادر إلى تونس. وفي عام ١٩١٦م عاد إلى طرابلس ليتابع المقاومة، وفي عام ١٩١٨م انتخب عضوًا في الجمهورية التي أسست في طرابلس، بالإضافة إلى انتخابه عضوًا في مجلس المبعوثان العثماني عام ١٩١٩م . وبقى في ليبيا حتى عام ١٩٢٢م، وغادرها بعد ذلك بسبب قوة القبضة الإيطالية تاركًا أسرته، وذهب إلى اسطنبول ولكنه لم يجدها كما كانت، إذ تغيرت بعد تولي مصطفى كمال[١٧] فغادرها إلى أوربا، ووصل إلى فرنسا عام ١٩٢٢م، ومنعته السلطات الفرنسية من مغادرتها، ومكث فيها سنتين،

وبعد ذلك حصل على موافقة للذهاب إلى الحج بعد مطالبة الشريف حسين بن علي[١٨]، وبعد انتهائه من الحج سعى له الشريف لدى البريطانيين للموافقة على ذهابه إلى مسقط[١٩]، فغادر متجهًا إليها على الرغم من أن البريطانيين لم يكونوا مرحبين بذهابه إلى مسقط، والدليل اعتراضهم على السلطان تيمور بن فيصل[٢٠] لترحيبه به إلا أنهم رضخوا لرغبة الحسين ولترحيب حكام عُمان به لمكانته العالية بينهم.[٢١]

ولقد كان للشيخ سليمان دورًا في عمان قبل أن يأتي إليها؛ فكان يتابع مجريات أحداثها السياسية باستمرار، وخاصة عندما كان عضوًا في مجلس المبعوثان في اسطنبول لملائمة الظروف هناك مما كان له أثر في تطلعاته وتوجهاته، فكان حريصًا أن يوجه نداءه الفكري للقيادات السياسية والعلمية في عمان في ضرورة الحفاظ على وحدة عمان، وتفعيل دورها الحضاري؛ وتجلى ذلك واضحًا من خلال مراسلاته والمؤتمرات التي شارك فيها. ومن مراسلاته رسالة بعث بها إلى السلطان فيصل بن تركي[٢٢] عام ١٩١٢م من دار الخلافة في اسطنبول بين فيها حرصه الشديد على نهضة عمان واستقرارها، وناقش من خلالها أوضاع عمان السياسية مع بعض وزراء الدولة العثمانية ؛ من أجل الحفاظ على وحدة عمان، والتصدي لأي محاولة للتدخل الأجنبي، وأكد فيها أن الدولة العثمانية يهمها أن تكون عُمان دولة مستقلة لأن فيه حفظ لاستقلالها ومنع دخول الأعداء إلى داخل شبه الجزيرة العربية.[٢٣]

وحذر الباروني السلطان فيصل بن تركي من أن يعطي امتياز للتنقيب عن المعادن للشركات الأجنبية، واقترح عليه مجموعة من الاجراءات والمشاريع الإصلاحية، وطلب رأيه في إمكانية تبادل السفراء ما بين الحكومتين العثمانية والعمانية بشكل سري حتى يأتي الوقت المناسب لأعلان الأمر، كما دعاه إلى ضرورة التوعية من الآثار التي تترتب على تدخل القوى الأجنبية في أمور البلاد، وتبصيره بمخططاتهم، والدعوة إلى الوحدة والتحذير من الفتن والانقسام.[٢٤] وعندما أسس مكتبة في مجلس المبعوثان أرسل للسلطان فيصل يطلب منه تقديم مجموعة من المؤلفات الفقهية للمكتبة تكون باسم السلطان لتبقى تذكارًا له وللدولة العمانية.[٢٥]

وكان الشيخ الباروني على تواصل كذلك مع علماء عمان ومنهم العلامة نورالدين السالمي [٢٦]فأرسل له رسالة مماثلة للرسالة التي بعثها للسلطان فيصل تضمنت النصائح والتوجيهات فيما يخص الحفاظ على استقلال عُمان ووحدته.[٢٧] نستنتج بأن الشيخ الباروني كان له صلات وعلاقات بعُمان وأهلها قبل أن يفكر أن يأتي للاستقرار بها، وأن قرار الاستقرار بها لم يأت من فراغ، بل أنه ينمي على حسن العلاقات ما بين الطرفين.

أولاً: وصول الشيخ سليمان الباروني إلى عُمان

إن السلطات الأجنبية منعت الشيخ سليمان الباروني من دخول الدول الواقعة تحت سيطرتها، وكان مخيرًا بين أمرين أما الإقامة في الحجاز، وإما العودة إلى فرنسا، ولكن الشيخ الباروني فضل أن يستقر في ظل الظروف السياسية الصعبة التي تمر بها بلاده في عُمان؛ ويعود سبب ذلك إلى العلاقة الحميمة التي تربطه بالسلطان تيمور بن فيصل الذي عبر عن ذلك بقوله: "أنه صديق لي وفوق ذلك فهو من أصدقاء والدي فلا سبيل إلى إغلاق الأبواب دونه"[٢٨] وبسبب تدخل ووساطة الشريف حسين بن علي شريف مكة تمكن الشيخ الباروني من التوجه إلى مسقط وما يدل على ذلك الرسالة التي بعثها من جدة إلى الحاج عمر العنق في ٢٠ من ذي الحجة ١٣٤٢هـ /٢٢ يوليو١٩٢٤م يقول فيها: "وقد قلدني الملك حسين نيشان الاستقلال الهاشمي وهو أكبر نيشان عنده، أيده الله وحماه،وبتوسط حكومته رخص لي البريطانيين في الذهاب إلى مسقط ...الخ"[٢٩].

وعلى الرغم من وساطة شريف مكة إلا أن السلطات البريطانية كانت مدركةً تمامًا أن الشيخ سليمان الباروني لا يشكل خطورة عليها في عُمان، فمن ناحية ربطت سلطانها باتفاقيات ومعاهدات مع حكومة الهند البريطانية، والإمامة في الداخل تعيش ظروف اقتصادية صعبة؛ بسبب سيطرة الموانئ الساحلية على حركة التصدير والاستيراد للبضائع التجارية؛ وكذلك من الناحية الثقافية فعمان تعيش في عزلة وبالتالي فأنه لا يشكل خطرًا على مخططاتهم بالمنطقة.

اتجه الشيخ سليمان الباروني في يوم الأحد ٢٥ ذي الحجة ١٣٤٢هـ /٢٧ يوليو ١٩٢٤م إلى عُمان بحرًا على متن باخرة متجهة إليها وتنقل على متنها مجموعة من الحجاج العمانيين ومن بينهم الشيخ إبراهيم بن سعيد العبري، وعندما علم السلطان تيمور بن فيصل الذي كان موجودًا بالهند بمجيئه لعمان أمر الهيئة الوزارية بمسقط باستقباله.[٣٠]

وصل مسقط في الثاني من محرم ١٣٤٣هـ / ٤أغسطس ١٩٢٤م، وأجريت له مراسم استقبال تليق به، وهيأ له مسكن خاص وجاء السيد نادر بن فيصل[٣١] (أخو السلطان) رئيس مجلس الوزراء وبمعيته أعضاء العائلة الحاكمة والعلماء والأعيان للسلام عليه، وبدأت تفد إليه الوفود في محل اقامته بمسقط لتهنئته بسلامة الوصول، وأقيمت على شرفه مأدبة غداء أقامها السيد نادر في مسقط في ٧محرم ١٣٤٣هـ / ٩ أغسطس ١٩٢٤م، حضرها حشد كبير من الوزراء والعلماء والرؤساء وأعيان البلاد. وفي يوم ٢٧ محرم١٣٤٣هـ /٢٩ أغسطس ١٩٢٤م أقام السيد محمد بن أحمد الغشام وزير المالية ووالي مطرح[٣٢] وجبة غداء ترحيبًا بقدومه حضرها رجال البلد وأعيانها من مختلف أجناسها(عرب، عجم، هنود، بلوش).[٣٣] وأرسل السلطان تيمور برقية تهنئة وترحيب بقدومه في السابع من محرم ١٣٤٣هـ / ٩أغسطس ١٩٢٤م قال فيها: "قدوم مبارك لبلادنا، وأرجو أن شعبي قد استقبلكم بكل احترام".[٣٤] وفي الجانب الآخر وردته رسالة الأمام محمد بن عبدالله الخليلي[٣٥] بتاريخ ١٣ محرم ١٣٤٣هـ / ١٥ أغسطس ١٩٢٤م حاملة التهنئة والدعوة للزيارة ومما جاء فيها: "... بعد إهداء السلام والتحية والإكرام، إعلامك بأن اخوانك في أهل عمان مسرورون بسلامتك وصحتك، مستبشرون بقدومك وطلتك، وقد وجهنا إليك الرسول الحامل لهذا طالبين منك الوصول إلينا على بركة الله زائرًا إخوانك مشرفًا أوطانك، فاضرب لنا موعدًا لنوجه لك رجالاً من الخاصة رفقاء للطريق، وأخبر رسولنا بكل ما يلزم والسلام"[٣٦] وأرسل الشيخ عيسى بن صالح الحارثي[٣٧] برسالة إلى الشيخ الباروني في غرة صفر ١٣٤٣هـ / اسبتمبر ١٩٢٤م يبادله فيها المحبة والسلام، والدعوة إلى زيارته، وأوضح له بأنه وردته رسالة من السيد نادر تبشره بقدومه، ونوه له بأنه أبلغ حكومة السلطان بطلب الرخصة لزيارته لبلدته في الشرقية.[٣٨]

وقد أصيب الشيخ الباروني بعد فترة من وصوله بحمى شديدة اطرحته الفراش نتيجة اصابته بالملاريا، بالإضافةً لقساوة المناخ وخاصة أنه جاء في فصل الصيف وأشد أشهره حرارة، فلازم الفراش في حدود (٢٠) يومًا، وقد وفرت له عناية خاصة بأمر من السلطان ومتابعة منه إلى أن شفي بفضل من الله وعناية المستشفى البلدي في مسقط.[٣٩] ولقد امتاز الشيخ الباروني بالحنكة السياسية التي ساعدته على التعامل بحكمه مع القيادات السياسية في عمان فهو مدرك تمامًا بالوضع بين حكومة السلطان ودولة الإمام فأراد أن يكسب جميع الأطراف لكونه محبوب ومرغوب من الجميع حكومة وشعبًا , فعندما توالت عليه الدعوات لزيارة عمان استشار مجلس الوزراء في حكومة مسقط الذي كتب بدوره للسلطان تيمور وهو لا يزال بالهند يستشيره؛ فأجاب أن يسمح له بإجراء ما فيه راحته وأن تسهل سياحته ففعلوا ما أمروا به.[٤٠]

بدأت رحلته في ٢٧ صفر ١٣٤٣هـ / ٢٧ سبتمبر ١٩٢٤م متجهًا من مسقط إلى ولاية مطرح وبمعيته من طرف الحكومة: عيسى بن صالح الطائي[٤١]، وأخوه محمد بن صالح الطائي[٤٢]، والشاعر سليمان بن سعيد الكندي[٤٣] وأخوه أحمد بن سعيد الكندي

ومعهم طباخ وخادم.[٤٤] وبدأ خط مسير رحلته بالمناطق التابعة للسلطان تيمور فنزلوا بيت الفلج[٤٥] تلبية لدعوة قائد الجيش السلطاني الكابتن إيكلسEcls ، ومعاونه السيد سالم بن فيصل أخو السلطان، ثم غادروها إلى قرية روي[٤٦] تلبية لدعوة رئيسها الشيخ سالم بن عبيد الوهيبي ومكثوا في ضيافته إلى ٢٨ صفر ١٣٤٣هـ / ٢٨سبتمبر ١٩٢٤م[٤٧]. وبعد ذلك توجه إلى العامرات[٤٨]، وتم استقبالهم بقرية القريحة وكان على رأس مستقبليهم الشيخ سعيد بن ناصر الكندي[٤٩] وجماعته، والأديب محمد بن سيف السعدي، وتم إلقاء الخطب والقصائد الشعرية التي تغنت بالخصال الحميدة والبطولات العظيمة للشيخ سليمان الباروني ومنها ما قالة الأديب أحمد الكندي: "بقدوم هذا السيد الهمام، والبطل المقدام، المجاهد الكبير، والسياسي الخطير، الذي اشتهر بمواقفه المحموده ....فلنا الشرف العظيم بتشريف بلادنا العامرات ووطء اقدامه ربوعها " [٥٠] واستمرت زيارته لها ثلاثة أيام. وانتقل بعد العامرات إلى وادي بوشر بدعوة من أعيانها وعلى رأسهم والي السلطان الشيخ علي بن عبدالله الخليلي أخو الإمام فاستقبلوه بالأناشيد الحماسية، وأتم في ضيافتهم أربعة أيام ومنها توجه إلى السيب[٥١] وهي آخر المناطق التابعة للسلطان بدعوة من الشيخ راشد بن عزيز الخصيبي[٥٢]، وتم استقبالهم بموكب مهيب بين متسابقين بخيلهم، ومتبارزين بالسيوف، وكان في استقبالهم بمعية الشيخ والي السيب السيد سيف بن محمد البوسعيدي، ووالي صور السيد حمود بن أحمد البوسعيدي، واستمر في ضيافتهم خمسة أيام.[٥٣]

وبعد انتهاء رحلته من المناطق التابعة للسلطان اتجه إلى داخلية عمان في ١٤ ربيع الأول ١٣٤٣هـ/ ١٣ أكتوبر ١٩٢٩م، فكانت البداية لبلدة الخوض والتي يقطنها بني هناه، وأكد الإمام على كل الحصون التي سيمر بها الشيخ الباروني بإطلاق المدافع.[٥٤] وتوجه بعدها إلى فنجا التابعة لولاية بدبد[٥٥] فكان في استقبالهم (٢٥) فارسًا ارسلهم الإمام لملاقاتهم، وعند وصولهم استقبلوا بالأناشيد وإطلاق المدافع، وأنشد صبي نشيدًا استوقف الباروني منه شطرا دعا فيه على الحزب الغافري[٥٦] فحاوره الشيخ قائلا: أليس الغافري بأخيك في الدين والوطن ؟ قال الصبي: نعم لكنه ليس من الحزب الذي انتمي إليه وهو الهناوي[٥٧] فهو عدوي فقال الشيخ: أن هذا لتفكير باطل وخطأ عظيم والعتب على من ربى الصبي على هذه الأفكار، لأن العدو الحقيقي هو الذي لكم بالمرصاد ليبتلع بلادكم ويفقدكم استقلالكم ويستعبدكم كلكم وأنتم غافلون"[٥٨]

أن هذا الموقف لدليل واضح بأن الشيخ الباروني كان يدرك الوضع السياسي والاجتماعي في عمان من خلال ما أحدثته النعرات القبلية من ضعف وتفكك فتح الباب للتدخل الأجنبي في عُمان، فخطابه الذي قاله كان يهدف من خلاله أن ينبه العمانيين إلى ضرورة أن يربى الناشئة على الألفة والمحبة وعدم ترسيخ الفكر الباطل والكراهية في نفوسهم على أبناء وطنهم وإنما على العدو المشترك الذي يتحين الفرصة للسيطرة والنفوذ على خيرات الوطن.

وفي يوم ١٦ ربيع الأول ١٣٤٣هـ / ١٥ اكتوبر ١٩٢٤م قصد الشيخ ومن معه بلدة نفعا، وحل ضيفًا على شيخها محسن بن زاهر السيابي، وفي نفس اليوم توجهوا إلى بلدة سرور. وبعد يومين وصلوا إلى ولاية سمائل[٥٩] مكان إقامة الإمام فكانت محطتهم الأولى في سفالة سمائل عند الشيخ جبر بن سعود الجبري، وبعدها علاية سمائل حيث الإمام كان في انتظارهم واقفا متكئا على سيف الإمامة ومعه صفان من خواصه ورجال دولته من العلماء والرؤساء، وأخذت المدافع تدق والبنادق تطلق حتى اختلطت الأصوات وامتلأ الفضاء بالدخان.[٦٠] ومكث الشيخ الباروني ومن معه في سمائل[٦١] حوالي ستة أيام إلى اليوم الرابع والعشرين من الشهر. وتوجهوا بعد ذلك إلى بلدان تابعة لوادي محرم تلبية لدعوة شيوخ قبائلها وهي بلدة منال تلبية لدعوة الشيخ محمد بن حارث الهشامي، وبلدة الجناة تلبية لطلب الشيخ أحمد بن حامد الراشدي، وكانت مدة إقامتهم فيها يومين وبعدها رجع إلى سمائل[٦٢]ومنها اتجه إلى الشرقية. ففي اليوم الأول من شهر ربيع الثاني ١٣٤٣هـ/٣٠ أكتوبر ١٩٢٤م أرسل أمير الشرقية الشيخ عيسى بن صالح الحارثي وفد برئاسة الشيخ محمد بن عبدالله السالمي لمرافقة الشيخ الباروني إلى مركز الشرقية في ولاية القابل[٦٣]، وعليه استأذن المرافقون له في رحلته ومنهم راوي الرحلة (عيسى الطائي) إلى العودة إلى مسقط لأن الرخصة التي أخذوها كانت إلى سمائل فقط فقال في ذلك: " ها هنا انتهى ما شاهدناه بأنفسنا وسنكتب عما جرى فيما بعد نقلاً عن إخواننا الذين استمروا في السير معه إلى أن عاد إلى مسقط".[٦٤]

وكان أول ولاية يصلها في الشرقية هي إبرا في اليوم الخامس من ربيع الثاني ١٣٤٣هـ / ٣نوفمبر ١٩٢٤م، وكان في استقباله أعيان البلاد وفرسانها تحت قيادة الشيخ أبي الفضل محمد بن عيسى الحارثي.[٦٥] واستقبلوه كسابق البلدان التي مر بها بالأغاني الحماسية وصهيل الخيول وهز السيوف.[٦٦] ومن جمائل حضوره لولاية إبرا أن اجتمع أهلها من السفالة والعلاية

في أفراح استقبال الشيخ الباروني على الرغم ما بينهم من تحزبات وخلافات وأشار إلى ذلك الأديب سيف بن علي المسكري قائلا: " فلنا الهناء العظيم بهذا العيد الأكبر الذي جمع الله فيه شملنا بورود الإنسان الباسل أعز عزيز نزل بساحة حضرة الإمام والسلطان ...الخ "[٦٧]

ولقد تدهورت الحالة الصحية للشيخ الباروني حيث كان مصاب بالملاريا، وارتفعت حرارته، وزاد عليه القي والإسهال ورغم ذلك واصل المسير واتجه إلى القابل التي تبعد عن إبرا بحوالي أربع ساعات، وكان في مقدمة مستقبليه الأمير عيسى بن صالح الحارثي، ومعه خواص رجاله من العلماء والرؤساء والأعيان وتم الترحيب به بما يليق بشخصه، وتكلم الشيخ الباروني قائلاً: "بأنني من عشرين سنه وأنا اتمنى هذه الزيارة فلم يسهل الله الطريق إليها إلا في هذا الوقت، ولكن أبت إرادة المولى أن أصل المكان العامر وأشاهد هذه الوجوه النيرة إلا وأنا بحال غير محمودة من شدة المرض...الخ".[٦٨] وكان من جملة المتحدثين في هذا اللقاء الأديب أبو الوليد سعود بن حميد الذي أثنى على ما تقوم به الإمامة من المحافظة على الدين وإقامة الحدود الشرعية وأنهى حديثه قائلاً: "وسترى فيها أي دار الإمامة ما تقر به العين من مكارم الأخلاق، ولطيف الشمائل المستمدة من الآداب العربية والتعاليم الإسلامية".[٦٩]

وفي هذه الفترة بقى الشيخ الباروني ملازمًا للفراش لا يدخل جوفه طعامًا لمدة أربعة أشهر، وبعد شهر من مرضه أصيب الشيخ عيسى بمرض في صدره وحمى فلازم الفراش شهرين ولم ير أحدهما الآخر، وكان كل واحد منهما يسأل عن الآخر، وصاحب مرضهما كذلك العلامة الكندي فكانوا الثلاثة في مكان واحد مع اختلاف المرض، وكان الجميع يدعوا لهم بالشفاء.[٧٠] وبسبب أوضاعه الصحية تعذر عليه تلبية دعوة الكثير من القبائل العمانية التي طلبت زيارته[٧١]وبعد عودة السلطان تيمور بن فيصل من الهند إلى مسقط في ٢٥ جمادى الأولى ١٣٤٣هـ / ٢٢ ديسمبر ١٩٢٤م أرسل يسأل عن صحة الشيخ الباروني ويتمنى له الشفاء.

وفي ٢٠ رجب ١٣٤٣هـ / ١٤ فبراير ١٩٢٥م تحسنت الحالة الصحية للشيخ الباروني وأصر الرجوع إلى مسقط قبل أن يعاوده المرض، وفعلا بعد ثلاثة أيام تحرك موكب الشيخ الباروني عائدا إلى مسقط ولضعف جسمه تم حمله على سدة قماش بين أعمدة خشب يحملها أربعة رجال، وخصص عشرة رجال أقوياء لحملة فكان خط سير الرحلة من المنطقة الشرقية عبر عدد من القرى والأودية حتى الوصول إلى مسقط. وعند وصوله مطرح كان في استقباله السيد مالك بن فيصل أخو السلطان وقاضي القضاة راشد بن عزيز، وركبوا الزورق السلطاني متجهين إلى مسقط، ونزلوا عند رصيف القصر السلطاني، فاستقبله السلطان بسرور وإجلال، وكانت إقامته في قصر خارج العاصمة مسقط، وكان السلطان يتردد عليه لمؤانسته والسلام عليه .[٧٢] وفي يوم ١٤ رمضان ١٣٤٣هـ/ سافر السلطان تيمور إلى ظفار[٧٣] المنطقة الجنوبية من عُمان، وحضر توديعه كل من الوزراء والأعيان والعلماء والعائلة المالكة، وكان السلطان يتمنى لو أن الشيخ الباروني كان بمعيته في يرافقه في سفره لكن المرض حال دون ذلك، وبحضور الجميع تم تقليده وسام الشرف السعيدي أكبر وسام في الدولة السعيدية[٧٤] قائلا: " هذا تذكارنا عند ضيفنا وأخينا العزيز الذي لا نقدر على الوفاء بما يجب علينا لو عملنا ما عملنا". وفي المقابل نظم الشيخ الباروني قصيدة مدح في السلطان تيمور يشكره فيها على تقليده وسام الشرف، ومعبرًا عن عجزه في الوفاء بشكره، ومتمنيا له رحلة سعيدة.[٧٥]

ومع اشتداد المرض على الشيخ الباروني دفعه إلى اتخاذ قرار السفر إلى الهند للعلاج، ولكن القنصل البريطاني في مسقط رفض أن يؤشر على جوازه، وأخبره بأنه ممنوع من زيارة أي بلد تحت الحكم البريطاني،[٧٦] فلم يشفع الوضع الصحي للباروني في أن تتعاطف الدول الأجنبية في أن تسمح له بالسفر، وهذا يؤكد جليًا خوفهم من المكانة الكبيرة التي يحظى بها ودوره الكبير في مواجهة الاستعمار. وعند تعذر سفره للهند، قرر الذهاب إلى العراق للتداوي من مرضه فغادر عُمان عن طريق البحرين فالبصرة ومن ثم بغداد، ولما شفي عاد إلى عمان، وبذلك لم يكن بإمكانه إلا التنقل ما بين عُمان والعراق على الرغم من تأمله بحل مشكلته مع الدول المتحالفة (بريطانيا، فرنسا، إيطاليا) حسب ما جاء في رسالته إلى بغداد في ٢٦محرم ١٣٤٨هـ / ٤ يوليو ١٩٢٩م: "أرجو أن أوفق وأنا هنا إلى حل الأبواب المغلقة أمامي من طرف الدول المتحالفة، فقد شممت إمكان ذلك"[٧٧] ولقد حاول السلطان تيمور أن يقدم له ألتماس مع الحكومة الفرنسية ويتضح ذلك من رسالة أرسلها إلى القنصل الفرنسي في بومباي يطلب فيها من القنصل إبلاغ حكومته للسماح للشيخ الباروني بالذهاب إلى تونس والإلتقاء بأسرته واحضارها إلى مسقط.[٧٨] وظل الشيخ الباروني يلح في طلبه، ودول الحلفاء تمنعه، واستمر الباروني يتقلب ما بين المرض في عمان والشفاء في العراق. وفي رسالة بعث بها من بغداد بتاريخ ٢٦محرم ١٣٤٨/ ٤ يوليو ١٩٢٩م يصف فيها شعوره

والآلام التي عاشها في عمان بسبب المرض فقال: "والله إني إذا فكرت بأني سأعود إلى عمان أدهش وكأني أرى نفسي قادمًا على يوم الحشر لما كنت أعانيه من ألم مستمر ..."[٧٩] واستطاع بعد معاناة أن يجمع شمل أسرته بعد فراق دام أكثر من تسع سنوات، فوصلوا عمان في ١٢ جمادى الأولى ١٣٥٠هـ / ٢٥ سبتمبر ١٩٣١م، وبعد يومين حدث ما كان يخاف منه وهو إصابة جميع أفراد أسرته بالملاريا فاضطر إلى نقلهم إلى مسقط للعلاج على يد طبيبة أمريكية ثم طبيب هندي ولكن بلا جدوى وساءت حالتهم فاضطر إلى نقلهم إلى بغداد للعلاج. وقد مكث الباروني في العراق حتى عام ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م بعدها غادر إلى عمان بعد أن استدعاه السلطان سعيد بن تيمور[٨٠] ليكون مستشاره، ويتولى رئاسة الوزارة هناك، فعاد مع أسرته إلى مسقط.[٨١]

ولقد كان للشيخ حظوة ومكانة عالية وهذا ما لمسناه في السطور الماضية، كيف استقبله العمانيون، وكيف يتسابقون في أن يحل ضيفًا عليهم، ومما يدلل على ما وصل إليه الباروني من مكانه اجتماعية مهمة بين أهل عمان وعمق العلاقة والتواصل بينهم ما ورد في رسالة الوكيل السياسي والقنصل البريطاني الرائد (جي.أف.مورفي G.F.Murphy) في تقرير قدمه للمقيمية البريطانية في الخليج العربي العقيد الركن(أل.بي. هاروث L.B.Haworth) قائمة توضح أسماء الشيوخ للقبائل الرئيسية في عمان، وكان اسم الشيخ سليمان الباروني مدرج ضمن منطقة بدبد مع شيوخ سرور.[٨٢] وكذلك ما كتبه السيد داوسون Dawson في تقريره عندما زار سمائل: "أن الباروني من أهم الشخصيات المعروفة ...الخ".[٨٣]

ثانيًا: الأدوار السياسية والإصلاحات الاجتماعية في عُمان

حفلت مسيرة الشيخ سليمان الباروني في عمان بالعطاء الكبير والذي سنحاول رصدها في النقاط الآتية:

٢/١-التقريب بين وجهات النظر في أوساط المجتمع العماني

استطاع الشيخ الباروني أن يقرب بين السلطان تيمور والإمام محمد الخليلي، حتى أصبحا يتبادلان الرسائل من دون وساطة، على الرغم من عدم اعتراف السلطان بالإمامة وفي ذلك يقول الشيخ أبو اليقظان: "ومن أعماله الكبيرة سعيه المخلص المثمر لجمع الكلمة وتوحيد الوجهة بين عظمة سلطان مسقط السيد تيمور وبين عظمة الإمام الخليلي فكانت الكلمة واحدة، والخطة واحدة، والهدف واحدًا لو اختلفت الوسائل وتباين الموقف".[٨٤] بالإضافة إلى أن الشيخ الباروني ساهم مساهمة فاعلة وحضارية من خلال رحلته وزيارته للعديد من الولايات والقرى العمانية للتقريب بين وجهات النظر على مستوى المشكلات الداخلية خاصة ما كان منتشرًا وسائدًا في أوساط المجتمع العماني من التعصب والولاء القبلي الذي كان سببًا رئيسيًا في عرقلة البناء والتنمية.

٢/٢-وضع نصوص اتفاقية السيب[٨٥] عام ١٩٢٠م بين السلطان تيمور والإمامة حيز التنفيذ

تمكن الشيخ الباروني من تنشيط بنود اتفاقية ١٩٢٠م بعد أن كانت حبرًا على الورق قبل مجيئه إلى عمان من خلال السعي في تقارب وجهات نظر كلا من السلطان تيمور والإمام محمد بن عبد الله الخليلي كما أسلفنا الذكر فبعد أن اعترف السلطان تيمور بسيادة الإمام على مناطقه في عمان كما نصت عليها الاتفاقية. وكذلك سعى في أن تنفذ بنود الاتفاقية من أجل مصلحة الطرفين وعلى سبيل المثال أحد بنود الاتفاقية تنص على رفع العوائق على جميع الداخلين والخارجين في مسقط ومطرح فتطبيق هذه المادة سهل التعامل المريح بين الطرفين مما كان له الأثر الكبير سواء على الجانب الأمني أو الحركة التجارية داخليًا.[٨٦]

٢/٣-تكليفه بالمشاركة في المؤتمر الإسلامي لمناقشة قضية الخلافة والأماكن المقدسة ممثلا لعمان

كلف الإمام محمد بن عبد الله الخليلي الشيخ الباروني المشاركة في المؤتمر المذكور باسم الأمة العمانية. ويتضح ذلك من الرسالة التي بعثها له في رمضان ١٣٤٣هـ / مارس ١٩٢٥م قال في مطلعها: " من إمام المسلمين بعمان محمد بن عبدالله الخليلي - إلى جناب المجاهد في سبيل الله الغيور في دين الله أخينا الشيخ سليمان الباروني وفقه الله ..." واسترسل حديثه فيها: " ...فأنا نكلف جنابك باسم الأمة العمانية أن تحضر هذا المؤتمر الذي سيعقد لهذا الغرض الديني السامي في مصر أو غيرها من البلاد الإسلامية، وليكن رأيك في مسألة الخلافة مطابقًا لقواعد الشرع الصحيحة وهي لا تخفى عليك. أما مسألة الأماكن المقدسة فليكن رأيك مبنيًا على حمايتها من عبث العابثين بها، ووقايتها من تسلط كل يد أجنبية عليها مهما كانت مقاصدها...الخ "[٨٧] ولكن الشيخ الباروني لم يتمكن من حضور المؤتمر بسبب منع دول الحلفاء له من دخول مستعمراتها فقد تلقى دعوة من شيخ الأزهر رئيس اللجنة العليا للمؤتمر ودعوة خاصة من الكاتب العام الشيخ حسين يحثه على إجابة الدعوة، فرد عليه بخطاب في ٥ رمضان ١٣٤٤هـ بأنه لا يستطيع دخول مصر، وطلب منه أن يصدر له رخصة

لدخول مصر من حكومتها، وانتظر الجواب، ولما مضت شهور وفات وقت انعقاد المؤتمر علم أن اللجنة عجزت عن تحصيل الرخصة له، ولم تقدر على الثبات أمام اعتراضات حكومة مصر ومعتمدي بريطانيا وإيطاليا على دخول الباروني لمصر.(٨٨) ولم يمنع الباروني عدم حضور المؤتمر من إبداء رأيه ونشر ما كان ينوي البيان به فنشره في مجلة المنهاج. وركز في بيانه على نقل الآثار النبوية من حكومة الحجاز إلى مصر حيث يرى بأنها أقوى الدول الإسلامية القريبة من الحجاز، وأن يقرر المؤتمر بأن يكون ملك مصر أمينًا على هذه الآثار، وفي حال استرجعت حكومة الحجاز قوتها وتحقق استقلالها واستعدادها للمحافظة على هذه الآثار فأنها تنقل إلى مهدها الأول مكة الكرمة أو المدينة المنورة.(٨٩)

٤/٢-معالجة القضايا السياسية التي أسهم التدخل الأجنبي في نشأتها

لقد بذل الشيخ الباروني جهد كبير في توعية الشعب من الخطر الأجنبي وما يهدف إليه، واستخدم قلمه الحر فنشر في جريدة العالم العربي (البغدادية) الصادرة في ٢٩ ديسمبر ١٩٣٢م مقال بعنوان: مناورات الأنجليز(٩٠) في عمان، الذي وضح فيه آلية التدخل البريطاني الغير مباشرة فكان يرسلون المراسلات لمشايخ سواحل عمان الشمالية (مشيخات الساحل العماني) باسم المدينة المستقلة عن عمان وتسمية شيخ قبيلتها بالسلطان، فيقول: بأن خطاب ارسله المقيم البريطاني السياسي في الخليج العربي إلى شيوخ سواحل عمان الشمالية ومن ضمنهم شيخ الشارقة على إنشاء محطة للطائرات، فهدد البعض، وأملى البعض بأماني كبيرة، وعندما علم الإمام محمد بن عبدالله الخليلي بعد أن رأى بأن السلطان تيمور لم يتدخل ولم يعترض أرسل أمير الشرقية الشيخ عيسى بن صالح احتجاجًا إلى قنصل بريطانيا بين له: "أن مخاطبة القنصل للمشايخ مباشرة وفي البلاد دولة يعد مخالف للأصول، وأن الأمة العمانية تعتبر بلادها كلها كتلة كما هي منذ عرفت.....الخ واعتبره الإمام تعدي على حقوق الأمة العمانية وإخلال باستقلالها.(٩١)

ومن هذه الحادثة نرى بأن بريطانيا عزمت من خلالها على سلخ القسم الشمالي من عمان، ولكن الصحوة القومية منعت ذلك في تلك الفترة، وفتحت بريطانيا على نفسها بهذا العمل باب نفور عظيم من العمانيين بعد أن كانت ينظرون إليها بنظر الصديق. ويبرز دوره كذلك بسعيه في تأكيد الروابط ما بين شيوخ سواحل عمان الشمالية والإمامة في اجتماع القابل الذي كان في ١٨ محرم ١٣٤٤هـ/ ٩أغسطس ١٩٢٥م حيث يقول: " وصل وفد من شمال عمان يرأسه شيخ دبي وكان الاستقبال مهيبًا، قدموا لتأكيد الروابط مع الشيخ عيسى وحضرة الإمام وتنظيم خطة لصد غارة ابن سعود والإنجليز، وستسمعون بإذن الله اتحاد كلمة هذه المملكة حتى مع عظمة السلطان، وأني منذ نهضت من ذاك السقم وأنا مجد في ذلك سرًا وجهرًا والنجاح محقق بإذن الله ...الخ".(٩٢) نستخلص من هذه الرسالة الجهد الخالص من قبل الشيخ الباروني في تقوية الروابط وتوحيد عمان تحت كلمة وهدف وراية واحدة.

٥/٢-إيفاده كمبعوث سلام وحامل رسالة

أرسله السلطان تيمور بن فيصل إلى كلا من أمير نجد عبد العزيز بن سعود، وحاكم الحجاز الشريف علي بن الحسين، فعندما علم بهذا الصراع في مكة والحجاز ترك كل الخلافات الداخلية حاله من حال الإمام الخليلي وأهل عمان جميعهم لمصلحة وحدة الأمة الإسلامية، فبعث السلطان لهم مبعوثه الخاص الشيخ سليمان الباروني.(٩٣) وفي رسالته لأمير نجد قال:

"من تيمور بن فيصل .. إلى حضرة صاحب العظمة سلطان نجد وتوابعها أخينا عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود لا برح في رقي وإجلال .. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،، أخوكم يحمد الله الواحد الأحد بحال يسركم، ويرجو من الله أنكم بحال يسر إخواننا المسلمين، ومنذ برهة من الزمن انقطعت بيننا المكاتبات الودية فعساه الشاغل خيرا. أما الباعث على طرفنا هو أن حامله جناب الشيخ الجليل سليمان باشا الباروني أحد رجال الإسلام ومن علماء مذهبنا قصد السفر إلى مركز عدلكم الذي أضاءت أنواره أقصى ممالك الإسلام، فلزم تجديد مراسلات الصداقة وروابط المحبة بيننا، ولا شك في أنها لا تتغير. وبهذه المناسبة أتشرف أن أصرح لعظمتكم بأننا في كدر وأسف عظيمين من استمرار الحرب حول بيت الله الحرام بين إخوان مسلمين كل منهم يعظم البيت المقدس ويحترمه، نسأله تعالى أن يوفق الجميع إلى الوصول إلى طريقة حل تحقن الدماء وترضي أهل الإسلام جميعا. وحيث أننا كلفنا حامل رسالتنا بأن يعرب لعظمتكم عن أحاسيسنا الدينية توضيحا لما كتبناه هنا، فالمرجو اعتماد كلامه في هذا الصدد فإنه الثقة الأمين، ولا شك في أن لكم الخبرة التامة فيه وفي أمثاله، وله تفانٍ وتضحية في كل ما يتعلق بإصلاح حال الأمة الإسلامية. وفي الختام أتمنى دوام علائق المودة الخالصة وقبول احترامي".(٩٤)

وفي الجانب الآخر وبنفس التوقيت أرسل معه كذلك رسالة لحاكم الحجاز جاء فيها:

"من تيمور بن فيصل إلى حضرة صاحب الشرف العالي أخينا الملك الشريف علي بن الحسين المحترم دام إقباله وإجلاله السلام عليكم ورحمة الله ..أما بعد فإن أخاكم يحمد الله جل شأنه في عز من فضله تعالى يرجو أنكم في صحة تامة مؤيدين بروح من مالك الملك متوجين بالفوز في كل حركة فيها راحة إخواننا المسلمين. وحامل كتابنا هذا هو الوجيه المحبوب لدى الدولتين المحترم الشيخ سليمان الباروني أحد علماء مذهبنا ومن رجال الإسلام المعروف لديكم شخصا وعملا متوجه إلى ساحة ملككم مضحيا خدماته فيما فيه مصلحة الأمة الإسلامية ولديه إخلاص كامل لسيادة والدكم ووالدنا، وقد أصبناه كتابنا هذا لينوب عنا في عرض إحساسنا وتألمنا العظيم مما لا زلنا نسمعه من استمرار الحرب حول حرم الله المقدس بين إخوان مسلمين كلهم يدينون بتعظيم بيت الله الحرام وشعائره المقدسة فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. نسأله تعالى أن يلهم الجميع ما فيه حقن الدماء وسرور العالم الإسلامي ووقاية الأماكن المقدسة من كيد الكائدين، وحيث إن الحامل المذكور لرسالتنا من الثقاة الأمناء عندنا فلا حاجة إلى التوصية على اعتماد ما يبديه لديكم من الفكر فيما فيه الصلاح، كما نلتمس من جلالتكم تسهيل ما يعسر عليه في هذا السبيل فإنه وأمثاله الذين حاربهم الدهر ولا يزال حربا لهم ممن يجب أن تسهل السبل أمامهم ليقوموا بخدماتهم الخيرية الإسلامية. وفي الختام أرجو دوام اتصال حبل المودة المتين وقبول احترامي الخالص والسلام."[٩٥]

ومن ناحية أخرى أوصى الإمام محمد بن عبد الله الخليلي مستشاره الباروني بنفس وصايا السلطان تيمور بن فيصل للمتخاصمين في نجد والحجاز، ومما جاء في رسالته:

"وقد استحسنا جدًا تكليف السلطان إياك بالتوجه إلى الحجاز مندوبًا من طرفه وحاملا كتب نصيحة منه إلى المتحاربين حول بيت الله الحرام، فنعم الرأي رأيتماه فإن المسألة من أهم ما يجب أن يهتم بها كل مسلم وإننا لا نزال في شغل من ذلك، والمنتظر من جنابك موافاتنا بالأخبار الصحيحة...الخ".[٩٦]

٦/٢-تكليفه بتأسيس أول وزارة في نزوى لإقامة مؤسسات حكومية تنظم إدارة الحكم فيها من قبل الإمام محمد بن عبد الله الخليلي

سعى الأمام الخليلي الاستفادة من خبرة الشيخ الباروني فقرر توليته منصبًا مهمًا في الدولة لإصلاح أوضاعها الداخلية ولكن الشيخ الباروني كان يرفض الفكرة خوفًا من أن ينسب إليه التحيز ما بين الإمام والسلطان وكان يهمه أن تبقى علاقته طيبة مع الطرفين، ولكن مع إلحاح الإمام محمد الخليلي، وإدراكا منه لأهمية أن يقيم شيء من الأعمال الإصلاحية وافق على طلب الإمام بتوليه المنصب الذي يعادل في الوقت الحالي منصب رئيس الوزراء وذلك في سنة ١٣٤٥هـ / ١٩٢٦م، وعليه أصدر الإمام إعلان في ذلك وتم مناداته في الأسواق وقد جاء فيه ما يلي:

"من إمام المسلمين محمد بن عبد الله الخليلي إلى جماعة المسلمين: ليعلم الحاضر الغائب إني فوضت الأمر في تنظيم المملكة تنظيمًا صالحاً للشيخ سليمان الباروني فبيده الملكية، والعسكرية، والمالية، والسياسة الداخلية والخارجية، ومن يخالفه أو يقف في سبيل أعماله الإصلاحية يعاقب، ولا يلوم إلا نفسه".[٩٧]

وبدأ الشيخ الباروني مهام عمله بوضع خطة طويلة الأمد لإصلاح أجهزة الدولة وضبطها وفي ذلك يقول في رسالة ٩جمادى الأولى ١٣٤٥هـ / ١٩٢٦م: "إني في اجتهاد في تنظيم المملكة مبديًا بماليتها[٩٨] التي كانت ضائعة، وبعد حفظها أباشر في غيرها....الخ".[٩٩]

ولقد ركز الشيخ الباروني على تطوير التعليم حيث بدأ في سنة ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م في بناء مدرسة حديثة في سمائل، وفي رسالة أرسلها في ١٠ ذي الحجة ١٣٤٨هـ /١٩٢٩م يقول: "قد تم بناء المدرسة والبيت وسأرس إليكم رسم المدرسة ...".[١٠٠] واستمر الشيخ الباروني في أعماله الإصلاحية لما يقارب السبع سنوات، وقد أثمرت بفائدة كبيرة ولكنها لم تكن كما كان يطمح لها؛ بسبب الأمراض التي كانت تصيبه هو وأسرته وتضطره للسفر بشكل مستمر، بالإضافة إلى عدم توفر الكادر المؤهل الذي يستطيع الاعتماد عليهم في التعليم والطب والتدريب العسكري، وقد لخص كل هذه المعوقات في رسالة في الرابع من ربيع الأول ١٣٥٢هـ / ٢٦ يونيو ١٩٣٣م يقول فيها:

"لقد كان من المقرر إنشاء مدارس ومستشفى وتنظيم الجيش والمالية تنظيمًا عصريًا إلى غير ذلك إلا أن ذلك لم يتم حسب المرغوب، أما المالية فقد نظمت، وقد تنبهت الأمة إلى ما كانت غافلة عنه، وأصبحت تتوق للاقتداء بالأقطار الإسلامية الناهضة وتتشوق إلى أخبار الصحف التي كانت لا تعلم لها معنى، وأما المستشفى فقد استدعينا الدكتور فؤاد بشير الشامي الذي كان دكتورا معنا في الحروب الطرابلسية لكن مع الأسف ما كاد يصل إلى مسقط حتى أصيب بالملاريا، وفي ظرف ذلك الشهر انتقل إلى جوار ربه..... الخ".[١٠١]

٢/٧-دوره في الوقــوف بوجــه التبشــير للمســيحية في عمان

في تلك الحقبة من الزمان كانت الأوضاع الصحية في عمان متردية، بسـبب انتشـار الأمـراض والأوبئـة، ولفقـدان الأدويـة والأطباء فكان العمانيون يلجؤون للطب الشعبي القديم فكثيرا ما كانوا يتداوون بالكي بالنار. واستغلت الإرسالية الأمريكية الوضـع وقامـت بإنشـاء مستشـفى في مسـقط يقـدم خدماتـه الصـحية خدمـة للإنسـانية كمـا يـدعون هـم، ولكـن الهـدف الأساسي منه هـو التبشير بالنصرانية أكثر من الطب، وحاولت بكل الطرق من الدخول إلى داخلية عمان فلم تنجح، ولكن بعد إلحاح الكثيرين وشفقته على الفقراء الذين يعانون مشقة كبيرة في الوصول إلى مسقط، سمح الإمام للبعثة أن تأتي إلى سمائل بشكل مؤقت ولمرة واحدة، فوصلت البعثة ومعها قافلة كبيرة تحمل صناديق مشحونة بالآلات والأدوية والكتب، وهيأت لها الحكومة محلاً مناسبًا لتقوم بالهدف المطلوب منها، ولكن لم تقـم بواجبهـا الإنسـاني أكـثر مـن بضـعة أيام، وبعـدها بـدأت بمهامهـا التبشـيرية مـن إقامـة محاضـرات للمـرضى بواسـطة القسيس المرافق للطبيب وهـو من أصل عـربي، وأخذ يطلب مـن الأهـالي أن يؤمنـوا برسـالة النصـرانية، ووزع عليهم رسائل تتضمن الدعوة إلى الدين المسيحي، فوصل الخبر الشيخ الباروني الـذي كـان لا يـزال مريضًـا بالملاريا وأرسـل مبـاشرة رسالة إلى الإمام يطلب منه طـرد البعثة من السلطنة بأسرع ما يمكن، ومباشرة أصدر الإمـام الأمـر وأحضرت لهم الأبل لحمل أثقالهم والعودة إلى مسقط.(١٠٢)

وبعد فترة من هذه الحادثة أرسل الشيخ الباروني برسالة إلى مدير المستشفى في مسقط يخبره بأنه يستطيع إقناع الإمام برجـوعهم إلى سـمائل نظـير أجـرة معقولـة تراعــي الفئـات المجتمعيـة بشرـط ألا يصــطحب معــه مبشّـرًا وألا يشـتغل بالسياسة والدين. وجاء رد رئيس المستشفى بأنهم جاءوا من أمريكا لخدمـة الإنسـانية ومـداواة المـرضى مجانًـا لا بأجـرة عـلى شرط التبشير لأنه دعوة إلى الحق لا يتنازلون عنها، والأموال التي تنفـق عليهم إنمـا خصصـت لـذلك الأمـر. وبعـد هـذا الـرد منعت البعثة من الدخول إلى داخلية عمان.(١٠٣)

٢/٨-عمـل كمستشار للسـلطان تيمـور بـن فيصـل ١٩٣٨-١٩٤٠م

لقد اعتمد السلطان سعيد بن تيمور على الشيخ الباروني في تنفيـذ مخططاتـه السياسـية، وإضـفاء الشرـعية الدينيـة عـلى نفوذه في حكـم البـلاد. وكـان يستشيره بحكـم خبرتـه السياسية والقتاليـة والدوليـة بعـد أن رأى السـلطان سـعيد أن الدولـة البريطانية تتقرب منه مع اقتراب نذير الحرب العالمية الثانية، ويذكر بأنه كان له الأثر الأكبر في صياغة شروط السلطان سعيد بن تيمور على بريطانيا عام ١٩٣٩م، مقابل السماح لها باستخدام الأراضي العمانيـة للطـيران البريطـاني وغـيره، بحيـث مـن يقـرأ الشرـوط يجد أنها مدروسـة بحكمة واضحة وهـو الإفادة بقدر الاستفادة بحيث تنتهي التسهيلات بنهاية الحرب.(١٠٤)

وحاولـت إيطاليـا ممثلـة بـوزارة الخارجيـة أن تسـتغل حاجـة الشيخ الباروني في عودته إلى طرابلس بمساومته بحكم عمله كمستشار للسلطان سعيد، وعلاقته المتميزة مع الإمام الخليلي ليؤمن لها المعلومات التي تريدها عن عمان، ويكون عينها في الخليج، وهذ ما كشـفته أحد الوثائق الإيطالية وهي عبارة عن رسالة من وزارة الخارجية إلى وزارة المستعمرات الملكية بتاريخ ١٩٣٢/٧/١٥م بأنها اقتنعت برأي القائم بالأعمال في بغداد حول استغلال ظروف الباروني لتحويله إلى عميل لها للحصول على المعلومات التي تنقصها عن منطقة الخليج العربي بسبب عدم وجود تمثيل سياسي لها، وعدم وجود عملاء دائمين لها في تلك المنطقة يمدونها بالمعلومات، فأبدت تحمسها على الرغم من تحفظ وزارة المستعمرات على السماح للشيخ الباروني بالعودة إلى ليبيا.(١٠٥) ولكن باءت محاولاتها بالفشل؛ ولذلك فأنه لم يعد يعنيها منحه أي وعود وعليه تمسكت وزارة المستعمرات برأيها وكـذلك الحـاكم الإيطـالي في طـرابلس بـرفض دخـول البـاروني لبلاده بشكل نهائي، وانتهت بالسماح له بالدخول لاصطحاب عائلته فقط مع وضع العديد من القيود.(١٠٦)

وبعد مسيرة العطاء الحافلة في عمان كانت نهايته بمرض أودى بحياته، فمنذ وصوله إلى عمان وتغير المناخ عليه أصيب بأمـراض كانـت تعـاوده كثـيرًا، فـلا يكـاد يشـفى حتى يعـود إليـه ليبقى حبيس فراشـه، وقد أشار إلى ذلك في كثير من رسائله ومنها رسالة ١٤ صفر ١٣٤٣هـ: "مرضت نحو(١٠) أيام بلغت فيها درجة الهلاك ثم زال الضرر والبأس بفضل الله، وإني متدرج في العافية... الخ".(١٠٧) ولقد استمر فيه المرض سنوات عديدة، فسافر إلى بغداد للعلاج وكانت صحته في تحسن مستمر؛ ولكـن بعد رجوعـه مـن بغداد عـاوده المـرض مـرة أخرى فكتـب في ٢٠ رجب ١٣٤٧هـ: "اكتب لك هذه الأسطر مع ملازمتي للفراش منذ شهر وهذا حالنا مع هواء عمان والأمر لله ..."(١٠٨)

وهذه الأمراض المتتالية جعلته يفكر في مغادرة عمان، وفي هذا يقول في رسالة بتاريخ ٢٨ ربيع الثاني ١٣٤٨هـ: "...صحتي الآن في غايـة مـا يـرام والحمـد لله وسـأنظر هـذه المـرة فإما الإقامة

الدائمة في عمان إذا دامت صحتي، وإما هجرها بتاتًا إذا عاد ما كان بي...." وبعد رسالته ظل مدة ثلاث أشهر ولم يعاوده المرض، وهي المرة الأولى التي لم يعاوده المرض لأكثر من شهر منذ ٧ سنوات. ولكن ما أن تعافى الشيخ الباروني من الملاريا حتى أصيب بضغط الدم الذي أثر فيه كثيرا وأشار إلى ذلك في رسالته بتاريخ ٢٩رجب ١٣٥٦هـ: "أني منذ أكثر من شهر ملازم للبيت منقطع عن القراءة والكتابة بإشارة الأطباء لأني أصبحت فجأة بالألم المعروف بضغط الدم..."(١٠٩)

وبسبب معاودة الأمراض له وتدهور حالته الصحية تقرر أن يسافر إلى الهند مع السلطان للعلاج، وما كاد يصل للهند حتى اشتد عليه المرض وفاضت روحه إلى بارئها بتاريخ ٢٣ ربيع الأول ١٣٥٩هـ / ١ مايو ١٩٤٠م.(١١٠) وبعد وفاته بسنوات أرادت أسرته العودة إلى موطنهم، فكتب السلطان سعيد بن تيمور رسالة إلى القنصل البريطاني في مسقط ليسهل لهم أمر سفرهم(١١١)، ومن جانبه أرسل للمقيم السياسي في الخليج العربي يبلغه بالأمر، وفي مايو ١٩٤٧ غادرت أسرة الشيخ الباروني إلى موطنها.(١١٢)

خاتِمَةٌ

حفلت حياة الشيخ سليمان الباروني في عُمان ١٩٢٤-١٩٤٠م بالعطاء والسخاء، فقد ساهم بشكل كبير من خلال رحلته وزيارته للعديد من الولايات والقرى العمانية للتقريب بين وجهات النظر، وبث روح الوطنية، ونبذ ما كان سائدًا في أوساط المجتمع من التعصب القبلي الذي كان السبب الأساسي في تأخر البلاد في مجال التنمية والبناء. **ومن أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة خلال الفترة التاريخية التي عاشها الباروني في عمان قرابة ستة عشر عامًا ما يأتي:**

- ساهم الشيخ الباروني في بث الوعي الديني والقومي بين أبناء المجتمع العماني، وترك الفتن، والانتباه من الأعداء الذين يتربصون بالوطن.
- إن الحنكة السياسية والخبرة القيادية للشيخ الباروني ساعدت في مهارته في التقريب بين وجهات النظر ما بين السلطان تيمور بن فيصل والإمام محمد الخليلي بعد أن اعترفت بسيادته حسب ما أقرته اتفاقية السيب عام ١٩٢٠م.
- اتضح دور الباروني في تنظيم أمور الدولة لاسيما المالي، فوجد معارضة شديدة من أولئك الذين تتأثر أوضاعهم بإصلاحاته المالية.
- تكليف الشيخ الباروني بالعديد من المهام وتنصيبه بأهم المناصب في حكومتي السلطنة والإمامة تدل دلالة واضحة على المكانة العظيمة التي امتاز بها عند كلا الطرفين.
- أبرزت دور الشيخ الباروني في معالجة القضايا السياسية التي أسهم التدخل الأجنبي في نشأتها من أجل تفكيك الدولة العمانية داخليا وخارجيا.
- اعتمد السلطان سعيد بن تيمور على الشيخ الباروني بشكل أساسي لإضفاء الشرعية الدينية على نفوذه في حكم البلاد.
- كشفت الوثائق عن النوايا الإيطالية في استغلال علاقة الشيخ الباروني بالقيادات السياسية في عُمان لتحقيق مصالحها من خلال جعله عميل لها يعمل وفق توجهاتها.
- كان للمرض الذي أصيب به الشيخ الباروني الأثر الأكبر في حجبه عن تنفيذ مزيد من الإصلاحات التي يطمح بها في عمان وهذا ما صرح به في أحد مراسلاته لأصدقائه.

الاحالات المرجعية:

(١) تأسست هذه الجمهورية في يوم السبت ١٣ صفر ١٣٣٧هـ/ ١٧ نوفمبر ١٩١٨م وتم تشكيل مجلسها من أعضاء أربعة هم: رمضان بك السويحلي وأحمد بك المريض وعبد النبي بك بالخير. للمزيد من التفاصيل انظر: راشد، أحمد إسماعيل. **تاريخ أقطار المغرب العربي السياسي الحديث والمعاصر**، ط١، دار النهضة العربية، بيروت: ٢٠٠٤، ص٤٧؛ الصلابي، علي محمد. **تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا**، ط٢، دار المعرفة، بيروت: ٢٠٠٦، ص٣٨٦.

(٢) اشتمل القانون الأساسي على أربعين فصلاً، ولكن قواعده الأساسية ارتكزت في ستين مادة، وختمت مواد القانون بتوقيع كلا من: عن العرب الليبيين (سليمان الباروني، أحمد المريض، رمضان الشتيوي، أحمد الصويعي نيابة عن عبد النبي بالخير) وعن الإيطاليين (الجنرال ماجور تارديتي رئيس الدائرة السياسية، الجنرال باسكانو رئيس هيئة أركان حرب الجيش الإيطالي. انظر: فشيكة، محمد مسعود. **رمضان السويحلي البطل الليبي الشهير بكفاحه للطليان**، ط١، الناشر الفرجاني، طرابلس: ١٩٧٤، ص١٣٠-١٣١.

(٣) عبد الكريم، ناهد عبد الكريم. **سليمان باشا الباروني في الخليج ومحاولاته العودة إلى ليبيا سنة ١٩٣٢م**. المجلة العربية للعلوم الإنسانية، مج ٣٢، ع١٢٧، مجلس البحث العلمي، جامعة الكويت، الكويت: ٢٠١٤، ص٨١.

(٤) رجحت ابنته زعيمة ولادته في عام ١٨٧٣م. انظر: الباروني، زعيمة. **صفحات خالدة من الجهاد للمجاهد الليبي سليمان الباروني**. ج١، مطابع الاستقلال الكبرى، القاهرة: ١٩٦٤، ص١١.

(٥) الزركلي، خير الدين. **الإعلام قاموس وتراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، ج٣، ط١٧، دار العلم للملايين، بيروت: ٢٠٠٧، ص١٢٩.

(٦) **إبرا**: ولاية عمانية تقع في محافظة شمال الشرقية، ويشتهر أهلها بتربية الأبل والخيل، تبعد عن مسقط العاصمة ١٧٠كم، ومن أبرز معالمها حصن الشباك الذي بناه الإمام سيف بن سلطان الأول، وبها مئات البروج في قمم الجبال وأشهرها برج القطبي. انظر: الخروصي، سليمان بن خلف. **ملامح من التاريخ العماني**. ط٢، سلطنة عمان: ١٩٩٦م، ص٣٧٢.

(٧) أبو اليقظان، الحاج إبراهيم. **سليمان الباروني باشا في أطوار حياته**، ج١، المطبعة العربية، الجزائر: ١٩٥٦، ص٩. وتوجد وثيقة في المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية تأكد ذلك محفوظة في ملف سليمان الباروني، رقم ٩، وثيقة ١٢٠، بعنوان: مختصر العائلة البارونية، بتاريخ ٢٠ جمادى الأولى ١٣٣٩هـ.

(٨) المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية، **وثيقة تاريخية من ملف سليمان الباروني**، رقم ٩، وثيقة ١١٠، ب.ت، طرابس..

(٩) **الشيخ علي بن جبر بن محمد بن ناصر الجبري**، حفيد الشيخ محمد بن ناصر الحبري جد المشايخ الجبور الذين لهم الشهرة في وادي سمائل. للمزيد انظر: السخاوي، محمد بن عبد الرحمن. الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع عشر، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت: ب.ت، ج١، ص١٩٠.

(١٠) **الشيخ محمد النخلي القيرواني**، من أعلام جامع الزيتونة، ولد عام ١٢٨٥هـ /١٨٧٦م، ولقد تخرج على يديهم الكثير من العلماء مثل: المصلح الجزائري، الشيخ عبد الحميد بن باديس، توفي في تونس ١٩٢٤م. انظر: محفوظ، محمد. تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، لبنان: ١٩٩٤، ج٥، ص٢٦.

(١١) **جامع الزيتونة**: جامع شهير في تونس، بني عام ٧٣٢م، وجدد بناءه بنو الأغلب عام ٨٤٠م، ثم أصبح جامعة كبرى في عهد الحفصيين، ويعد ثاني أقدم جامع في تونس بعد جامع عقبة بن نافع. انظر: توتل، فرنارد. **معجم المنجد في الأعلام**. ط٤٢، بيروت، دار المشرق، بيروت: ٢٠٠٧، ص٢٨٢.

(١٢) **الجامع الأزهر**: يعد من أهم المعاقل التاريخية لنشر الإسلام وتعاليمه في مصر والعالم الإسلامي، ويعود تاريخ بنائه إلى بداية عهد الدولة الفاطمية في مصر، أسسه جوهر الصقلي وأتم بناءه عام ٩٧١م، وقد اختلف المؤرخون في أصل تسميته، ويرجح بأن الفاطميين سموه بالأزهر تيمناً بفاطمة الزهراء ابنة الرسول محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، ويعد أقدم جامعة بعد جامعة القرويين. ورغم أن جامع عمرو بن العاص في الفسطاط سبقه في وظيفة التدريس حيث كانت تعقد فيه حلقات الدرس تطوعاً، إلا أن الجامع الأزهر يعد الأول في مصر في التدريس. انظر: عنان، محمد عبد الله. **تاريخ الجامع الأزهر**. الهيئة المصرية العامة للكتب، القاهرة: ٢٠١٢، ص٣٠.

(١٣) **ميزاب**: وادي في جنوب الجزائر. لمزيد من التفاصيل انظر: أعوشت، بكير بن سعيد. **وادي ميزاب في ظل الحضارة الإسلامية**. ب.د، الجزائر: ١٩٩١.

(١٤) **الشيخ أطفيش**: محمد بن يوسف عيسى بن صالح أطفيش، قطب من أقطاب المذهب الإباضي، ولد في وادي ميزاب سنة ١٢٣٦هـ، وتتلمذ عل يد الشيخ إبراهيم بن يوسف، والشيخ عبد العزيز الثمني وغيرهما، وله مصنفات عديدة منها شرح النيل، الذهب الخالص، وهيمان زاد وتيسير التفسير، توفي عام ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤.للمزيد انظر: الناصر، مصطفى. **آراء الشيخ حمد بن يوسف أطفيش**، دار جمعية التراث، قرارة، الجزائر: ١٩٩١م.

(١٥) **السلطان عبد الحميد الثاني**: ولد في ٢١سبتمبر ١٨٤٢م في قصر جراغان في إسطنبول من أم شركسية الأصل، توفت وهو ابن العاشرة، تولى الحكم في ٣١ أغسطس ١٨٧٦م خلفاً لأخيه السلطان مراد الخامس، قام بالعديد من الإصلاحات في عهده. توفي في العاشر من فبراير ١٩١٨م، ودفن في إسطنبول. للمزيد انظر: حرب، محمد. **السلطان عبد الحميد الثاني أخر السلاطين العثمانيين**، دار القلم، دمشق: ٢٠٠٩.

(١٦) الصلابي، مرجع سابق، ص١٩٦.

(١٧) **مصطفى كمال أتاتورك**: هو ابن لأب يدعى علي رضا أفندي، ولد عام ١٨٨١م، فقد والده وعمره سبع سنوات، ويعد

مصطفى كمال هو مؤسس تركيا الحديثة، وقائد الحركة الوطنية التي حدثت في أعقاب الحرب العالمية الأولى الذي أوقه الهزيمة بجيش اليونانيين في الحرب التركية اليونانية ١٩٢٢م. توفي في ١٠ نوفمبر ١٩٣٨م بسبب مرض تشمع الكبد. انظر: www.wikipedia.org، تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢١/١/٢٩.

(١٨) **الشريف حسين بن علي**: مؤسس المملكة الحجازية، وأول من نادى باستقلال العرب من حكم الدولة العثمانية، ينتسب إلى بني هاشم، ولد في أسطنبول ١٨٥٤م، قاد الثورة العربية الكبرى متحالفا مع البريطانيين ضد الدولة العثمانية في عام ١٩١٦م، ولقب بملك العرب. توفي سنة ١٩٣١م ودفن بالقدس. للمزيد انظر: الحسني، محمد بن علي. **العقود اللؤلؤية في بعض أنساب الأسرة الحسنية الهاشمية**، مكتبة مدبولي، القاهرة: ١٩٩٤.

(١٩) **مسقط**: مدينة تقع على الشاطئ الجنوبي لبحر عمان، عند تجويف صخري محمي على الساحل، اتخذها حكام البوسعيد عاصمة لحكمهم منذ حكم السيد حمد بن سعيد. انظر: لوريمر، ج.ج. السجل التاريخي للخليج وعمان وأواسط الجزيرة العربية، القسم الجغرافي، ج٢، مج ٧، دار جارنت، لندن: ١٩٩٥، ص١٦٩.

(٢٠) **السلطان تيمور بن فيصل**: أكبر أبناء السلطان فيصل، ولد عام ١٨٨٦م، وتولى حكم عمان في فترة صعبة حيث ترك له والده تركة ثقيلة من الصراعات الداخلية ما بين الإمامة والسلطنة، درس في كلية مايو في أجمير، دخل العمل السياسي لأول مرة عندما بعث به والده لحضور تتويج الملك إدوارد ملك بريطانيا عام ١٩٠٢م، تولى الحكم وعمره ٢٧ سنة. انظر: عبد الحسين، فاضل محمد. **العلاقات البريطانية العمانية ١٩١٣-١٩٣٩م**، رسالة دكتوراه، جامعة محمد الخامس، الرباط: ١٩٩٥، ص٩٣.

(٢١) عبد الكريم، مرجع سابق، ص٨٤.

(٢٢) **السلطان فيصل بن تركي**: هو الابن الثاني للسلطان تركي بن سعيد، ولد عام ١٨٥٦م، من أم حبشية، عمل واليًا في عهد والده على حصن سمائل ونزوى عام ١٨٨٠م، ويعد الأقرب من أخوانه لأبيه، عرف بالحزم والعزم وقوة البأس، تزوج من ابنة عمه السيدة علياء بنت ثويني ، تولى الحكم عام ١٨٨٨م بعد وفاة والده واستمر إلى أن وافته المنية عام ١٩١٣م. انظر: لوريمر، مصدر سابق، القسم التاريخي، ج١، مج ٢، ص٢٧٣.

(٢٣) الباروني، مرجع سابق، ج١، ص ١٥٤.

(٢٤) المرجع نفسه، ج١، ص ١٥١.

(٢٥) المرجع نفسه، ج١، ص١٥٦.

(٢٦) **العلامة نور الدين السالمي**: نور الدين عبد الله بن حميد السالمي، ولد عام ١٨٦٩م، بقرية الحوقين بولاية الرستاق، أصبح كفيف وهو ابن الثانية عشر نتيجة إصابته بالجدري، تتلمذ على يد العلامة راشد بن سيف اللمكي والشيخ عبد الله بن محمد الهاشمي، انتقل إلى محافظة الشرقية من عمان وتحديدًا في ولاية القابل لأخذ العلم من الشيخ صالح بن علي الحارثي، أسس مدرسة للتعليم في القابل وبعد وفاة الشيخ صالح نقلها إلى بدية وتتلمذ على يديه أبرز علماء عمان منهم الإمام سالم بن راشد الخروصي، والإمام محمد بن عبدالله الخليلي. وقد ألف الشيخ السالمي الكثير من الكتب، توفي عام ١٩١٤م في قرية تنوف في مقبرة بني نبهان في سفح الجبل الأخضر. انظر: الصوافي، صالح بن أحمد. **قراءات في فكر السالمي**. حصاد الندوة التي أقامها المنتدى الأدبي في الفترة ١-٢ نوفمبر ١٩٩٢م، ط٢، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان: ٢٠٠٣، ص٩٠-١٠٠.

(٢٧) الباروني، مرجع سابق، ج١، ص١٥٧.

(٢٨) الباروني، مرجع سابق، ص٢٣٦.

(٢٩) أبو اليقظان، مرجع سابق، ص٢٠٦.

(٣٠) الطائي، عيسى بن صالح. **رحلات سليمان باشا الباروني لعمان** (مخطوط). مكتبة الشيخ أحمد الخليلي، مسقط، ص٣٥.

(٣١) **السيد نادر بن فيصل**: ولد عام ١٨٨٧م، ويعد أول رئيس وزراء في سلطنة عمان. تولى الرئاسة على فترتين، الفترة الأولى عام ١٩٢٠-١٩٢٤م، والفترة الثانية ١٩٢٥-١٩٢٦ بتكليف من أخيه السلطان تيمور بن فيصل، تقلد عدة مناصب: والي سمائل سنة ١٩١٣م، قاضي في المحكمة ١٩١٣-١٩١٩م، رئيس المحكمة العليا ١٩١٩-١٩٢٠. انظر: **موقع وزارة الخارجية** (www.fm.gov.om)، سلطنة عمان. تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢١/١/٢٩.

(٣٢) **مطرح**: ولاية عمانية ساحلية تتبع إداريًا محافظة مسقط، ويوجد بها أشهر الأسواق التراثية وهو سوق مطرح.

(٣٣) الطائي، مصدر سابق، ص٤١.

(٣٤) أبو اليقظان، مرجع سابق، ص٢٠٩.

(٣٥) **الإمام محمد بن عبد الله الخليلي**: الإمام محمد بن عبدالله الخليلي: ولد عام ١٨٨٢م، في قرية محرم أحدى قرى ولاية سمائل، نصب بالإمامة بعد وفاة الإمام سالم بن راشد الخروصي في ٢٩ يوليو ١٩٢٠م، وتوفي ٣ مايو ١٩٥٤م. انظر: الحارثي، محمد بن عبدالله. **موسوعة عمان الوثائق السرية**. مج ٣، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت: ٢٠٠٧، ص٤٩

(٣٦) الطائي، مصدر سابق، ص٤٧.

(٣٧) **الشيخ عيسى بن صالح الحارثي**: ولد عام ١٨٧٣م، وخلف والده في زعامة قبائل الحرث، تلقى تعليمه على يد أبيه الشيخ صالح الحارثي ومن بعده على يد الإمام نورالدين السالمي. انظر: الهاشمي، سعيد بن محمد. **الشيخ صالح بن علي الحارثي ودوره الاجتماعي والسياسي**، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، السنة ٣٣، العدد ١٢٥، إبريل، ٢٠١٧، ص٩٢.

(٣٨) الطائي، مصدر سابق، ص٥٠.

(٣٩) المصدر نفسه، ص٥١.

(٤٠) المصدر نفسه، ص٥١.

(٤١) **عيسى بن صالح الطائي**: قاضي وفقيه، وناظم للشعر، عاش في القرن الرابع عشر الهجري، من ولاية سمائل، تتلمذ

على يد مجموعة من العلماء منهم أبو عبيد حمد بن عبيد، وربيعة بن أسد الكندي، وأول عمله في القضاء كان مساعدًا لشيخه أبي عبيد السليمي، ثم أصبح مساعدًا لأبيه في المحكمة الشرعية بمسقط، وتولى القضاء بمطرح، ثم صار رئيس القضاه ومستشار السلطان سعيد بن تيمور إلى أن توفي عام ١٩٤٢م.انظر: الخصيبي، محمد بن راشد. **شقائق النعمان على سموط الجنان**. ط٢، المطبعة الوطنية، مسقط: ١٩٨٩، ص٢٠٥.

(٤٢) **محمد بن صالح الطائي**: قاضي وفقيه وشاعر من ولاية سمائل، عاش في القرن الرابع عشر الهجري، ترعرع في أسرة عرفت بالعلم والأدب، تولى القضاء في عهد السلطان تيمور بن فيصل، ومن بعده لابنه السلطان سعيد بن تيمور، توفي عام ١٩٤٥م. انظر: السعدي، فهد بن علي. **معجم شعراء الإباضية** (قسم المشرق)، ط١، مكتبة الجيل الواعد، مسقط: ٢٠٠٧، ص٣٣٧.

(٤٣) **سليمان بن سعيد الكندي**: شاعر وأديب له ديوان شعري بعنوان نشر الخزام. انظر: الهاشمي، سعيد بن محمد. **غاية السلوان في زيارة الباشا الباروني لعمان**، ط١، مطابع النهضة، مسقط: ٢٠٠٧م، ص٦٨.

(٤٤) الطائي، مصدر سابق، ص٥٢.

(٤٥) **بيت الفلج**: سمي ببيت الفلج تيمنًا بمياه الفلج التي تنبع من تلك المنطقة، وهو الفلج الذي نبع من الوادي الكبير ويمر تحت قلعة بيت الفلج التي بناها السلطان سعيد بن سلطان البوسعيدي عام ١٨٤٥م، وكان فيه أول مطار في السلطنة يعود إلى عام ١٩٢٩م، كان للأعمال العسكرية ثم استخدم لطائرات شركة تنمية نفط عمان، وكان به مركز للاتصالات ومكاتب للجمارك، وفيه تم تأسيس أول جيش نظامي عام ١٩٠٧م الذي سمي بقوة مسقط. انظر: مقبيل، سالم بن عقيل. **عمان بين التجزئة والوحدة ١٩١٣-١٩٧٩**. ط١، المركز الدولي للطاقة الحيوية، القاهرة: ٢٠٠٧، ص٧٤.

(٤٦) **روي**: أحد قرى ولاية مطرح بمحافظة مسقط، تقطنها قبائل متعددة أشهرها بنو وهيب. انظر: الحديدي، عادل. **المرشد العام للولايات والقبائل**. ب.د، مسقط: ١٩٨٢، ص٥١.

(٤٧) الطائي، مصدر سابق، ص٥٢.

(٤٨) العامرات: ولايه عمانية تتبع محافظة مسقط حسب التقسيم الإداري.

(٤٩) **سعيد بن ناصر الكندي**: من علماء عمان الذي تولى الأحكام الشرعية في بلدة بوشر ونزوى، وكان قاضي القضاة في حكومة مسقط، توفي في بلدة المتهدمات بوادي حطاط في ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م.انظر: السيابي، سالم بن حمود. **إسعاف الأعيان في أنساب أهل عمان**. ب.د، بيروت: ١٩٦٥، ص ١٣٧.

(٥٠) الطائي، مصدر سابق، ص٥٤.

(٥١) **السيب**: ولاية عمانية تابعة محافظة مسقط حسب التقسيم الإداري، وتعد ثغر مسقط في الجانب الغربي، وتعرف قديما بـ "دما". انظر: السيابي، سالم بن حمود. **العنوان عن تاريخ عمان**. ط٢، مكتبة الضامري، السيب: ٢٠١٥، ص٨١-٨٢.

(٥٢) **الشيخ راشد بن عزيز بن خلفان بن بخيت الخصيبي**: ولد بسمائل ١٢٦٣هـ / ١٨٤٦م، قربه إليه السلطان تركي، وزوجه من امرأة غنية بزنجبار، وفي عهد السلطان فيصل ولاه الأوامر الشرعية وأحكامها في سمائل، وفي عهد السلطان تيمور جعله رئيس، توفي عام ١٩٩٠م. للمزيد: الخصيبي، مرجع سابق، مج٣، ص١٧٠.

(٥٣) الطائي، مصدر سابق، ص٦١.

(٥٤) أبو اليقظان، مرجع سابق، ج١، ص٢١٧.

(٥٥) **بدبد**: أول ولايات محافظة الداخلية من جهة مسقط، تبعد عنها حوالي ٨٠كم، تجاورها ولاية سمائل، تتميز بالعديد من الحرف والصناعات اليدوية. انظر: وزارة الإعلام، مسيرة الخير: الداخلية، مسقط: ١٩٩٥م، ص٧٨.

(٥٦) **الحزب الغافري**: حزب قبائلي برئاسة الشيخ سليمان بن حمير النبهاني من سلالة النبهانيين ملوك عمان في الأزمنة السابقة وهو أمير الجبل الأخضر، وتحته شيوخ وزعماء لقبائل كثيرة، ويعرف كذلك بالحزب النزاري. انظر: الحارثي، مصدر سابق، مج١، ص٤٤٣.

(٥٧) **الحزب الهناوي**: حزب قبائلي رئيسه الشيخ عيسى بن صالح الحارثي أمير الشرقية، وتحته زعماء قبائل وبطون كثيرة، وهو من عائلة عريقة في الرئاسة والعلم. انظر: الحارثي، مصدر سابق، مج١، ص٤٤٣.

(٥٨) الطائي، مصدر سابق، ص٦٧.

(٥٩) **سمائل**: أشهر مدن عمان، سمائل الفيحاء ذات المجد العريق والتاريخ المجيد، بلد مازن بن غضوبة السعدي الطائي أول من أسلم من أهل عمان، وتقع في محافظة الداخلية حسب التقسيم الإداري لسلطنة عمان. انظر: الخروصي، مرجع سابق، ص٣٣٠.

(٦٠) الطائي، مصدر سابق، ص٧٧-٧٨

(٦١) أن مركز الإمامة في نزوى، ولم يتم استقبال الشيخ الباروني فيها لأن خط مسيره لا يصل إلى نزوى بل يتوجه صوب الشرقية.

(٦٢) الطائي، مصدر سابق، ص٨٩.

(٦٣) **ولاية القابل**: إحدى ولايات محافظة الشرقية، ويوجد بها العديد من المعالم الأثرية والأفلاج.

(٦٤) الطائي، مصدر سابق، ص٩١.

(٦٥) **الشيخ محمد بن عيسى بن صالح الحارثي**: أمير وأديب وشاعر، تلقى العلم على يد شيخه عبد الله بن غابش، وقرأ على يد العلامة نور الدين السالمي، وكان أكبر إخوانه وهو الذي تولى الإمارة بعد وفاة والده، وكان من أهم إنتاجاته الأدبية ديوان أبي الفضل، توفي في ٣٠ مارس ١٩٤٧م بسبب مرض أصاب أحد رجليه. انظر: السعدي، مرجع سابق، ص٣٤٨.

(٦٦) الطائي، مصدر سابق، ص١٠٢.

(٦٧) المصدر نفسه، ص١٠٢.

(٦٨) المصدر نفسه، ص١٠٨.

(٦٩) المصدر نفسه، ص ١١٠.

(٧٠) المصدر نفسه، ص١١٩.

(٧١) المصدر نفسه، ص١٣٨.
(٧٢) المصدر نفسه، ص١٥٩.
(٧٣) **ظفار**: تقع في جنوب عمان وتمتاز بطقسها الجميل وأمطارها الموسمية، وتتكون من السهل الساحلي الذي يتراوح عرضه من ٨-١٠كم، من أهم مدنها صلاله، مرباط، طاقه، ثمريت...الخ. انظر: الحديدي، عادل. **المرشد العام للولايات والقبائل في سلطنة عمان**، وزارة الداخلية، مسقط: ١٩٨٢، ص٢٠-٢١.
(٧٤) **وسام الدولة السعيدية**: وسام استحدثه السلطان تيمور بن فيصل في العام ١٣٣١هـ / ١٩١٣م. انظر: الأوسمة والنياشين والميداليات في سلطنتي عمان وزنجبار، إصدار هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية ضمن سلسلة البحوث والدراسات في الوثائق الوطنية والدولية، ط١، مسقط: ٢٠١٨، ص٦٩-٧١. (انظر الملحق صورة الوسام)
(٧٥) الباروني، مرجع سابق، ص٢٣١.
(٧٦) أبو اليقظان، مرجع سابق، ج١، ص١٦٧.
(٧٧) المرجع نفسه، ج٢، ص٩٣.
(٧٨) رسالة من السلطان تيمور بن فيصل إلى قنصل الدولة الفرنسية في بومباي بتاريخ ٢ سبتمبر ١٩٢٤م، محفوظة في هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية بمسقط برقم تصنيف: OM,NRAA.A.2.1.9.77
(٧٩) أبو اليقظان، مرجع سابق، ج٢، ص٩٦.
(٨٠) **السلطان سعيد بن تيمور بن تيمور بن فيصل بن تركي**، ولد سنة ١٩١١م، بعثه والده للتعليم بكلية مايو بالهند، كما أرسله لبغداد العراق لدراسة اللغة العربية، تولى حكم سلطنة عمان سنة ١٩٣٢م، توفي سنة ١٩٧٢م. انظر: الخروصي، مرجع سابق، ص٢٠٥.
(81) IOR/R/15/6/449: Letter from Al Sultan Said bin Taimur To Suleiman Basha ,1938 ؛.
وانظر كذلك: الهاشمي، مرجع سابق، ص ٦٤.
(82) I.O.R/R/15/6/241: Report from Political Agent in Muscat: G.F.Murphy to Political Resident in the Arabian Gulf: L.B.Haworth , No: C/5 , 8/6/1927.
(83) I.O.R/R/15/6/40: Report from Political Agent in Muscat: G.F.Murphy to Secretary of the Political Resident in the Arabian Gulf, About State failures in dealing with tribes, No: C/90, 12/11/1927.
(٨٤) أبو اليقظان، مرجع سابق، ج١، ص٢٥٠.
(٨٥) **اتفاقية السيب**: هي اتفاقية عقدت كصلح ما بين حكومة السلطان تيمور بن فيصل والإمامة، وكان ينوب عن السلطان السيد محمد بن أحمد وعن العمانيين الشيخ عيسى بن صالح الحارثي. وكان السيد وينكت القنصل البريطاني في مسقط وسيطاً ما بين الطرفين مكلفا من حكومته، وتضمنت الاتفاقية أربعة بنود تخص الإمامة، وأربعة بنود تخص حكومة السلطان وتم توقيعها من الطرفين. للمزيد انظر: الحارثي، مصدر سابق، مج٢، ص٢٢٤-٢٢٨.
(٨٦) المصدر نفسه، مج ١، ص٤٤٤.
(٨٧) أبو اليقظان، مرجع سابق، ج١، ص٢٥٢.
(٨٨) الحارثي، مصدر سابق، مج١، ص٤٣٥.
(٨٩) المصدر نفسه، مج ١، ص٤٣٥.
(٩٠) وردت بالبحث لفظة الإنجليز عند ذكرها كشعب بينما نذكرها باسم بريطانيا عند ذكرها كدولة. ومن بابة الأمانة العلمية في نقل المقتبس من الحقائق التاريخية.
(٩١) الحارثي، مصدر سابق، مج١، ص٤٣٧-٤٣٨.
(٩٢) المصدر نفسه، مج١، ص٤٣٠.
(٩٣) مقال بمجلة الشورى المصرية، عنوان المقال: **سليمان باشا الباروني والمسألة الحجازية**، ع٣٠٤، ص٢، ١٢ شوال ١٣٤٣هـ/١٤ مايو ١٩٢٥م.
(٩٤) مجموعة من الباحثين، الدور العماني في وحدة الأمة. تحرير: صالح الزهيمي وآخرون. ط١، **ذاكرة عمان**، مسقط: ٢٠١٦، ص ٥٢١ ؛ أبو اليقظان، مرجع سابق، ج١، ص ٢٥٠.
(٩٥) أبو اليقظان، مرجع سابق، ج١، ص ٢٥٠-٢٥١.
(٩٦) الحارثي، مصدر سابق، مج١، ص٤٢٩.
(٩٧) أبو اليقظان، مرجع سابق، ج٢، ص ٣٠.
(٩٨) من النماذج على ذلك إدارته لمال الوقف حيث توضح أحد الوثائق العمانية إقرار مقايضة بين الإمام محمد بن عبد الله الخليلي والشيخ سليمان بن عبدالله الباروني بأربع آبار ماء مهجورة تعود ملكيتها لبعض المساجد في سمائل مقابل أموال تكون وقفا لهذه المساجد ١٣٤٨/٩/٢١هـ - ١٩٣٠/٢/١٩م. (هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية، رقم التصنيف: OM.NRAA.A.3.2.1
(٩٩) أبو اليقظان، مرجع سابق، ج٢، ص٤٥.
(١٠٠) المرجع نفسه، ج٢، ص٤٨.
(١٠١) المرجع نفسه، ج٢، ص٥٢.
(١٠٢) الحارثي، مصدر سابق، مج ١، ص٤٥١.
(١٠٣) المصدر نفسه، مج١، ص٤٥٢.
(١٠٤) عبدالكريم، مرجع سابق، ص١٠٢.
(١٠٥) المرجع نفسه، ص٩٣.
(١٠٦) المرجع نفسه، ص١٠١.
(١٠٧) أبو اليقظان، مرجع سابق، ج٢، ص٧٧.
(١٠٨) المرجع نفسه، ج٢، ص٤٦-٤٧.
(١٠٩) المرجع نفسه، ج٢، ص ٨٠.
(١١٠) **من أعلام الفكر الإباضي المعاصر، الشيخ سليمان الباروني باشا**، ص15، بحث منشور على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت)،
تاريخ الاسترجاع: ٢٠٢١/١/٢٦. www.4shared.com
(111) I.O.R/ L/PS/12/299: Letter From Sultan Muscat: Said bin Timor To Political Agent in Muscat, 29/10/1946.
(112) I.O.R/ L/PS/12/299: Letter From Political Resident in the Arabian Gulf To Cairo administration and G.London , No: 1077 , 26/11/1946.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

العمل الوحدوي ما بين دول المغرب العربي
١٩٢٦ - ١٩٥٤



د. رفيق تلي
شعبة التاريخ – قسم العلوم الإنسانية
جامعة الدكتور مولاي الطاهر – سعيدة
الجمهورية الجزائرية

مُلَخّص

بدأت فكرة المغرب العربي والتعاون بين أقطاره والتضامن بين شعوبه ما فتئت تحتل مكانًا بارزًا من اهتمامات الحركة الوطنية في كل من تونس والمغرب الأقصى والجزائر منذ ما قبل الحرب العالمية الثانية، وارتبط نضال الحركات الوطنية المغاربية بفكرة الوحدة تأكيدًا على الوحدة التاريخية والهوية المشتركة، ومن أجل التضامن لمواجهة العدو المشترك، حيث تطور النشاط الوحدوي المغاربي في إطار نجم شمال إفريقيا ثم في إطار النضال الطلابي المغاربي المشترك، وبعد الحرب العالمية الثانية تبلور العمل المغاربي المشترك في إطار جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية وفي مكتب المغرب العربي بالقاهرة ولجنة تحرير المغرب العربي، لكن منذ ١٩٤٨ بدأت ملامح التملص والتباين الإيديولوجي من العمل على مستوى مغاربي داخل اللجنة تتضح جليًا، وذلك بانقسام الوطنيون المغاربة إلى اتجاهين: اتجاه يدعو للعمل المسلح الثوري بقيادة "عبد الكريم الخطابي"، واتجاه ثاني داخل لجنة تحرير المغرب العربي تدعو للعمل السياسي القطري بقيادة رئيس حزب الدستور والأمين العام للجنة الحبيب بورقيبة وفقا لمبادئ حزبه، وكان من نتائجه أنّ انطلاق المقاومة المسلحة في المغرب العربي كان غير متزامن وغير منسق، ففي تونس بدأت بمبادرات فردية ثم عممت بدءًا من مارس ١٩٥٤، أما في المغرب الأقصى بدأت حركة المقاومة بعد خلع الملك "محمد الخامس" في أوت ١٩٥٣، وفي هذه الفترة كان حزب الشعب الجزائري-حركة انتصار للحريات الديمقراطية- غارقًا في أزمة داخلية بين المركزيين والمصاليين، فأعضاء المنظمة الخاصة سارعوا إلى التحاق بركب الحركة الثورية في تونس والمغرب الأقصى وتفجير الثورة التحريرية في نوفمبر ١٩٥٤، فوجدت فرنسا نفسها أمام تخوض حرب في كل أقطار المغرب العربي، وبذلك سارعت في فتح المفاوضات مع كل من تونس والمغرب الأقصى والتي انتهت بمنحهما الاستقلال الذاتي سنة ١٩٥٦.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٣١ أغسطس ٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر: ٢٦ سبتمبر ٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

العمل الوحدوي؛ المغرب العربي؛ الاستعمار الفرنسي؛ التضامن؛ النضال الوطني

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.12816/KAN.2021.221772 DOI

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

رفيق تلي. "العمل الوحدوي ما بين دول المغرب العربي ١٩٢٦ - ١٩٥٤".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الحادي والخمسون؛ مارس ٢٠٢١. ص ١١٤ – ١٣٠.

Corresponding author: rafik.telli87@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

تعرضت البلدان المغاربية للظاهرة الاستعمارية الحديثة منذ ثلاثينيات القرن السابع عشر وحتى النصف الثاني من القرن العشرين، إذ احتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠، وتونس ١٨٨١، وموريتانيا ١٩٠٣، وشاركتها في احتلال المغرب الأقصى سنة ١٩١٢م، أما ايطاليا فقد احتلت ليبيا سنة ١٩١١م، حيث اشتركت القوى الاستعمارية في سياسة واحدة قامت على إلغاء الحقوق الوطنية لكل قطر مغاربي، فضلاً عن السيطرة والاستحواذ على الأرض وإمكاناتها الاقتصادية وتجريد السكان من ممتلكاتهم، ولم يقف الأمر عند حدود الاستلاب السياسي والاقتصادي، بل مارست عدوانًا قوميًا وحضاريًا استهدف الإنسان وجودًا وهوية من خلال القتل والنفي والتشريد وتشجيع الاستيطان الاستعماري، ومحاولة القضاء على لغته ودينه وقيمه وتقاليده، وتُعَدّ فرنسا أبرز القوى الاستعمارية التي تحكمت في مسار التطور المعاصر للبلدان المغاربية، تليها إيطاليا وإسبانيا في العمل المنظم للقضاء على الوجود القومي والديني والحضاري لأبناء المغارب.

كان الرد المغاربي عمومًا على صدمة الاحتلال العسكري الاستعماري اعتماد أسلوب الكفاح المسلح لانتزاع الحقوق الوطنية، لكن عدم التكافؤ في الإمكانيات التسليحية أفقد المقاتل في المغرب العربي قدرته على المواجهة، لكن لم يفقده الإيمان بعدالة القضية التي يقاتل من أجلها، قضية الحرية والاستقلال والهوية، وعليه تبدّل أسلوب الحركات الوطنية، إذ لهذا ولازدياد وطأة استمرار الظاهرة الاستعمارية بدأت معظم الأقطار المغاربية اعتماد أسلوب الكفاح السياسي، وخاصةً بعد الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) حتى نهاية الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥)، حيث عادت الحركات الوطنية المغاربية الخاضعة للاحتلال الفرنسي بخاصة، إلى اعتماد أسلوب الكفاح المسلح وبشكل متداخل وموجه أحيانًا من العمل السياسي أو منفصل عنه[١] وبالتالي النضال الوطني المغاربي لم يكن معزولاً عن بعضه البعض ومنه طرحنا الإشكالية التالية: فيما تمثل النضال الوطني والعمل الوحدوي ما بين دول المغربي (١٩٢٦-١٩٥٥).

أولاً: مفهوم المغرب العربي

المغرب العربي، هو عبارة عن كتلة جغرافية واحدة، لها نفس الخصائص العمومية، كانت هذه الكتلة قد باشرت تكوينها التاريخي الموحد منذ بداية التاريخ، وأصبحت منذ امتدادات الفتح الإسلامي القياسية وحدة حضارية، حيث عرفت المنطقة التي تشملها الدراسة عدّة تسميات منها عبارة "بلاد المغرب" التي أطلقها العرب المسلمون على البلاد والتسمية في حد ذاتها فلكية وجغرافية، وتعني جهة غروب الشمس، بالنسبة لبلاد الحجاز مهد الإسلام، ومن المؤرخين الذين استعملوا كلمة المغرب العلامة "عبد الرحمن بن خلدون" وعنى بها المنطقة التي حدّدها من الناحية الطبيعية بتضاريسها من المغرب الأقصى إلى مصر حاليًا (من المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر)، وحدّد من الناحية البشرية في المنطقة مواطن سكانها البربر.

وكان الجغرافيون العرب يدخلون إقليمي مصر وبرقة ضمن بلاد المغرب كذلك، وأطلقوا تسمية "جزيرة المغرب" على المنطقة، وهي التسمية التي ذكرها "ابن خلدون" كذلك، وقال أنّ معاصريه من العرب المسلمين كانوا لا يدخلون إقليم مصر ولا برقة في تحديدهم لمنطقة المغرب العربي، التي تشمل المغرب الأقصى والمغرب الأوسط وافريقية (المغرب الأدنى)، جزيرة أحاطت بها البحار من ثلاث جهاتها. وأما العرف الجاري لهذا العهد بين سكان هذه الأقاليم فلا يدخل فيه إقليم مصر ولا برقة، وإنّما يختص بطرابلس وما وراءها إلى جهة الغرب في هذا العرف لهذا العهد. هذه المنطقة التي حدّدها "ابن خلدون" في عصره أي المغرب العربي الحالي بأقطاره الثلاث (تونس والجزائر والمغرب الأقصى) إضافة إلى ليبيا (طرابس الغرب) وموريطانيا (بلاد شنقيط)، وهما القطران المنتميان إلى المغرب العربي سياسيا خلال فترة الستينات والسبعينات من القرن العشرين، وتظل الصحراء الغربية مشكلة تعيق الوحدة المغاربية منذ ١٩٧٥[٢]. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ الجزائر والمغرب الأقصى وتونس وحدها المعنية بالمشروع المغاربي لعقود، وسجل الغياب الليبي، بحكم خضوع البلاد للاحتلال الايطالي وتطرفها جغرافيا، وعدم ارتباط نخبتها السياسية بالحركات الوطنية المغاربية، ولكن تبقى ليبيا قُطرًا مغاربيًا مشاركًا في المشروع نظرا للاعتبارات التالية:

- تأكيد جبهة التحرير الوطني الجزائرية على اعتبار ليبيا جزءا من المغرب العربي نظرًا للعلاقات التي تربطها بليبيا، والدور المهم الذي نهضت به لصالح الثورة الجزائرية.
- اهتمام ليبيا بالبعد المغاربي في سياستها الخارجية منذ الاستقلال إذ احتضنت المقاومين التونسيين والجزائريين، وربطت علاقاتها مع تونس وجبهة التحرير الوطني، وتجاوبت مع مشروع البناء المغاربي (مؤتمر طنجة، التزام دعم الثورة الجزائرية).

- الامتداد التاريخي والجغرافي لليبيا في كيان المغرب العربي فهي تشترك معه في الجغرافيا والدين واللغة والتاريخ.

أما موريطانيا فكان كيانها السياسي مغيبا حتى عام ١٩٥٧م، واتبطت حركة التحرر الموريطانية وبتوجهها الوطني يؤكد ويعمل لصالح الاستقلال[٣].

ثانيًا: ظهور فكرة مشروع وحدة المغرب العربي

إنّ فكرة المغرب العربي والتعاون بين أقطاره والتضامن بين شعوبه ما فتئت تحتل مكانًا بارزًا من اهتمامات الحركة الوطنية في كل من تونس والمغرب الأقصى والجزائر منذ ما قبل الحرب العالمية الثانية، وهذا نظرا لما يلي:

- لأنّها شيء طبيعي بالنسبة للبلدان المجاورة.
- لأنّها من التطور الطبيعي لهذه البلدان المتجاورة.
- لأنّها من الضرورات التي تطرحها المواجهة مع استعمار واحد[٤].

لذلك وجدنا هذه الفكرة راسخة عند المنظرين، وعند رجال الفكر والسياسة، وعند دعاة الإصلاح الديني والاجتماعي، وعند قادة وإطارات الأحزاب الوطنية وكذلك عند القاعدة النضالية وعند الجماهير الشعبية.

ارتبط نضال الحركات الوطنية المغاربية بفكرة الوحدة تأكيدًا على الوحدة التاريخية والهوية المشتركة، ومن أجل التضامن لمواجهة العدو المشترك، وتجسيدا لطموح عميق تؤمن به الشعوب وكثير من النخب السياسية، وقد أحس المغاربة بعد أن أخضعت تونس والمغرب الأقصى للاحتلال الفرنسي بحجم التهديد الذي يطال كيانهم، وتطلّعوا كغيرهم في بداية القرن العشرين إلى النهضة والتحرر، وارتبط وعي النخب السياسية بفكرة الأمة التي تحركها عقيدة التوحيد المرسخة دينيًا وقوميًا وكذا برد الفعل الوطني ضدّ الاستعمار الفرنسي والاسباني في هذه المنطقة ضدّ محاولاته الهادفة للمس بالهوية الإسلامية والعربية لكيانه[٥].

بدأت نهضة المغرب العربي مع مطلع القرن العشرين، وهذا بعد تأثر المغاربة بالمشرق العربي، وأولى بوادر هذه التأثيرات هو ظهور حركات سياسية مطلبية تمثلت في حركات الشباب التونسي التي تأسست عام ١٩٠٧م، وحركة الشباب الجزائري وتأسست هي الأخرى عام ١٩٠٧، وحركة الشباب المغربي التي تأسست عام ١٩١٩م، فحركة الشباب التونسي من طرف جماعة "بشير صفر" و"علي باش حمبه" الذي تولى قيادتها وفي سنة ١٩٠٩ انضم إليهم الشيخ "عبد العزيز الثعالبي"[٦].

وتجمع كثير من المصادر أنّ رموز النخبة التونسية كانوا وراء الدعوة لوحدة المغرب العربي وخاصة منهم "باش حمبه"، إذ أيد "علي باش حمبه" فكرة الجامعة الإسلامية وتعاون مع الخلافة العثمانية في اسطنبول لتخليص المغرب العربي من الاستعمار، وكان "أول زعيم فكر في ضرورة توحيد المغرب العربي في ميدان الكفاح. وقد مدّ يده للمقاومين الجزائريين وأسس أخوه في برلين لجنة تسمى باللجنة التونسية –الجزائرية (ظهرت سنة ١٩١٦م)، وفي الوقت نفسه اتصل برجال الحركة في مراكش (المغرب الأقصى)"[٧]. وكانت مهمة هذه اللجنة تدافع عن قضية تحرير المغرب العربي كله، وأعلنت فكرة تشكيل جمهورية شمال إفريقيا، وكان "علي باش حمبه" من بين أعضاء هذه اللجنة، واقترح قيادة توجيه حملة ابتداءً من القسطنطينية لتحرير المغرب العربي[٨].

وكان الاتجاه السائد عند النخبة الوطنية في المغرب العربي، هو تأييد فكرة الجامعة الإسلامية والارتباط بالدولة العثمانية، لمواجهة الاحتلال الفرنسي، وأدّى انهزام الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، وحدوث الكثير من المتغيرات المحلية والدولية، أدّى بالحركات الوطنية في المغرب العربي إلى اعتماد هذه الأخيرة على إمكانياتها الذاتية مع الحرص على العمل الجماعي والتنسيق بينها، وانتقل نضالهم من اسطنبول إلى فرنسا والعواصم الأوروبية من أجل الدعاية وتقديم المطالب وتحديد الأهداف والدخول في مرحلة جديدة في عملها السياسي[٩]. وبذلك فإنّ مشروع كفاح المغرب العربي الموحد ظهر أول مرة في بداية القرن العشرين كان يشمل تونس والجزائر والمغرب الأقصى جغرافيا، وقد رفعه المناضل التونسي "علي باش حمبه"، ودافع عنه الشبان التونسيون الذين اتصلوا بالمناضلين الجزائريين والمغربيون من أجل توحيد جهة الكفاح ضدّ السلطات الفرنسية، وقد تضافرت جهودهم في تأكيد حضورهم السياسي والإعلامي في اسطنبول والعواصم الأوروبية، حيث ربطوا توجههم بأفكار الجامعة الإسلامية والدولة العثمانية، وطالبوا باستقلال أقطارهم ووحدتها[١٠].

ثالثًا: الحركات الاستقلالية ومشروع وحدة المغرب العربي

١/٣-النشاط الوحدوي المغاربي في إطار نجم شمال إفريقيا

لم تخلو الكتابات التي تناولت موضوع الحركات الوطنية المغاربية تاريخا وتحليلا من الحديث عن حركة نجم شمال إفريقيا، وهذا لاعتبارات تتعلق بأهمية بروز هذا التنظيم وطبيعته من جهة وبإسهاماته في نقل الدعوة إلى العمل المغاربي المشترك والاجتهاد من أجل صياغة منطلقاته واستراتيجياته من جهة أخرى[١١]. ولاستيعاب منطلقات نجم شمال إفريقيا الايديولوجية والسياسية والموضوعات التي قدّمها كأرضية للعمل المشترك بين الحركات الوطنية المغاربية الثلاث، لا بدّ من التأكيد على مسألة أساسية لفهم طبيعة التنسيق الذي شهدته بلدان المغرب العربي مع منتصف العشرينات من القرن الماضي والتي توضح أنّ التجارب مع قضايا المغرب العربي وأزماته، الذي ظل قطريا غير مؤطر ضمن حركة جماعية ومشتركة سيشهد لأول مرة صيغة تنظيمية ستنقله من دائرة الإحساس بالتآزر والتضامن الذي يفرض واقع الانتماء إلى هوية مشتركة إلى مستوى وعي ضرورة التعبير عن إرادة التنسيق جماعية موحدة[١٢]. وإنّ "الأمير خالد" هو الذي أرسى العمل على مستوى المغرب العربي، ومن الذين كانوا يحضرون تجمعاته بفرنسا، بعد أن أسس " لجنة من أبناء الشمال الإفريقي" حسب "علال الفاسي" "مصالي الحاج" و"عبد القادر بن الحاج" و"عبد العزيز المنور" والسيد "علي الحمامي" (من مراكش). وكان من مهام هذه اللجنة الإشراف على عمال المغرب العربي وتنظيمهم[١٣].

ولقد سبق ميلاد النجم انعقاد أول مؤتمر للعمال المهاجرين من شمال إفريقيا، العاملين بالضاحية الباريسية بتاريخ ٠٧ ديسمبر ١٩٢٤ والذي حضره ١٥٠ مندوبًا، حيث تم فيه تعيين مكتبًا مغاربيًا مشكلاً من ١٥ مندوبًا والمصادقة على برنامج مطالب الذي هو من الناحية السياسية مستمدًا من عريضة المطالب التي تقدم بها "الأمير خالد" لمؤتمر الصلح بباريس سنة١٩١٩ ، قد وجه المؤتمر رسالة تضامن للشعب المغربي إلى الأمير"محمد بن عبد الكريم الخطابي" ومما جاء فيها "إن مندوبي العمال المهاجرين من شمال إفريقيا بالضاحية الباريسية والمجتمعين في أول مؤتمر في هذا اليوم التاريخي ٠7 ديسمبر ١٩٢٤ يهنئون إخوانهم في المغرب الأقصى وقائدهم الفذ بن عبد الكريم الخطابي على انتصارهم على الإمبريالية الإسبانية ويعلنون تضامنهم بكل نشاطاتهم من أجل تحرير أرضهم ويهتفون معهم يحيا استقلال الشعوب المستعمرة وتسقط الإمبريالية العالمية وتسقط الإمبريالية الفرنسية"[١٤].

وبذلك ظهرت الحركة السياسية العمالية في المهجر بفرنسا رسميا سنة ١٩٢٦[١٥]، باسم نجم شمال إفريقيا، وكان مقره بالمقاطعة الخامسة بالضاحية الباريسية، ويذكر "أبو القاسم سعد الله" بأنّه منظمة سياسية وطنية بالمعنى المتعارف عليه فقد ظهر في فرنسا، لا في الجزائر[١٦]، والهدف الرئيس لهذه الجمعية هو وحدة النضال المغاربي لاستقلال المغرب العربي ببلدانه الثلاث: تونس، الجزائر، والمغرب الأقصى[١٧]. وتؤكد الشهادات والروايات التاريخية أن تأسيس النجم، كان بمبادرة "الأمير خالد" الذي ظل يؤكد على حق الشعب الجزائري بالتمسك بشخصيته والتربية الدينية[١٨]، وبعد نفيه من الجزائر إلى فرنسا سنة ١٩٢٣هو الذي أضفى على النجم الصبغة المغاربية فقد كان والجزائر واسطة للحركات المغاربية[١٩]. فلقد طالب النجم منذ نشأته بالاستقلال التام للمغرب العربي[٢٠]، والدفاع عن مصالح مسلمي شمال إفريقيا من النواحي المادية والمعنوية والاجتماعية[٢١]، ونظرًا للانتشار الواسع الذي لقيه النجم داخل الأوساط العمالية والمثقفين المغاربة جعل السلطات الفرنسية تشدّد مراقبتها عليه.

شارك النجم في مؤتمر بروكسل ضدّ الاستعمار الذي انعقد ما بين ١٠ و١٥ فيفري ١٩٢٧م، ومثل النجم في هذا المؤتمر "ميصالي الحاج" الكاتب العام للنجم، و"الشاذلي خير الله" من تونس قدّم الأول مطالب الجزائر والمغرب وقدّم الثاني مطالب تونس، وإنّ حضور النجم في هذا المؤتمر من خلال تقديمه لمطالب أقطار المغرب العربي، إنّما يدل على أنّ النجم كان له بعد مغاربي، لذلك نجده يضم بين صفوفه ممثلين عن الأقطار الثلاثة، وكان له هدفان: الاستقلال الكامل للمغرب العربي، الدفاع عن مصالح عمال المغرب العربي بفرنسا. وحتى يجد النجم مجالاً حيويًا، ينتشر فيه بين أوساط العمال والطلبة، فإنّ دعايته وجهت خصوصًا إلى العمال، وفي أوساط الشباب المسلمين المنتمين إلى البورجوازية التونسية والمغربية المتواجدين في فرنسا[٢٢].

ونظرًا للنشاط الواسع للنجم فإنّ السلطات الفرنسية التي لم يكن يغيب عنها ذلك، حيث منعت النجم من ممارسة نشاطه في أقطار المغرب العربي، في حين سمحت له بالنشاط المحدود في فرنسا وغيرها من البلاد الأوروبية[٢٣]. وعلى صعيد

النشاط الإعلامي للحزب وبعد حل "جريدة الإقدام" أسس الحزب "جريدة الأمة" التي تصدت للدفاع عن مصالح شمال إفريقيا بداية من أول عدد صدر عنها. وبعد أن كانت العلاقات بين حزب النجم والحزب الشيوعي الفرنسي متميزة في بادئ الأمر، تبدأ هذه العلاقات في التوتر إلى أن حدثت القطيعة النهائية بين الطرفين وهو ما علق عليه الحزب الشيوعي الفرنسي في ٢ ماي ١٩٣٢ أثناء تواجد ممثليه في موسكو: " افترقنا مع فريق حزب نجم شمال إفريقيا الذي أصبح يتبع سياسة وطنية ثورية ودينية".

ابتداءً من سنة ١٩٣٣ يبدأ حزب النجم مرحلة جديدة من حيث مطالبه الاستقلالية لصالح البلدان المغاربية ويعلق على ذلك قائلاً: "لن نكون خرفانًا تساق للذبح إذا كان على الشمال إفريقيون الموت وهم يكافحون، فذلك من أجل بلدانهم، فهم يكافحون من أجل استقلالهم ومن أجل دينهم"[٢٤]. وقد نصت المادة رقم ٠٢ من القانون الأساسي ولوائح الجمعية العامة لحركة نجم شمال إفريقيا في اجتماعها بتاريخ ٠٨ ماي ١٩٣٣م على أنّ هدف الجمعية الأساسي هو الكفاح من أجل تحقيق الاستقلال التام لكل البلدان الثلاثة الجزائر والمغرب وتونس ومن أجل وحدة الشمال الإفريقي[٢٥]. والملاحظ مع بداية سنة١٩٢٧ بدأ المراكشيون والتونسيون ينسحبون من النجم بدعوى أن قضيتهم لا يمكن ربطها بالقضية الجزائرية على ما بينهما من اختلاف، فقضية المغرب الأقصى وتونس مرتبطة بالحماية، أما الجزائر اعتبرتها فرنسا قطعة من أراضيها، فخلال هذه الفترة بدأ النجم يتوجه نحو معالجة القضايا الجزائرية وأصبح ذا طابع جزائري فيما بعد، ونظرا للنشاط الواسع للنجم قامت السلطات الفرنسية بحله في جانفي ١٩٣٧، غير أنه وبعد شهرين ظهر بتسمية أخرى وهو حزب الشعب الجزائري في ١١مارس١٩٣٧[٢٦].

٣/٢-حزب الشعب الجزائري

في يوم ١١ مارس ١٩٣٧ تأسّس حزب الشعب الجزائري (P.P.A) في نانتير بقيادة مصالي الحاج[٢٧]، وهو كما يدلُّ عليه اسمه، يعتبر أنّه حزب سيكون له الخيار أن يجعل من الشَّعب الجزائري البوتقة الأولى التي ستنصهر فيها الحركة الوطنية الجزائرية، كما سيُضفي على هذه الأخيرة سِمتها المنظَّمة والمقصودة، وسيتاح له أيضا أن يكتسب التّجربة المضاعفة، تجربة العمل القانوني، والنضال السرّي، وسيكون أشّد عنادًا وأكثر نزوعًا إلى النِّضال، والشَّيء البارز في المشروع السِّياسي لهذا الأخير، هو غلبة واضحة للإيديولوجية الوطنية وتراجع محسوس في برنامج النجم. وعلى حين أن هذا الأخير احتفظ بمقرّه في باريس، وركّز نشاطه الأساسي على المهاجرين الجزائريين في فرنسا، فإن حزب الشَّعب الجزائري سيُوجِّه القسم الهام من نشاطه إلى الجزائر، والحقيقة أن التمركز الجغرافي للحزب[٢٨]، ونقل مقرّه إلى الجزائر آخر عام ١٩٣٨، وكذلك تمفصُل فروعه في المناطق المقسَّمة إلى خلايا صغرى[٢٩]. وكان قرار إنشائه قد تم بالاتفاق مع أعضاء فرع الجزائر وأعضاء اللجنة المركزية ومنهم "ميصالي الحاج" و"راجف" و"موساوي رابح" وغيرهم، وكانت أهدافه لا تختلف في جوهرها عن أهداف النجم، وهي إنشاء حكومة وطنية وبرلمان واحترام الأمة الجزائرية، وبقي متمسكا بتوجهاته المغاربية مناديا بالاستقلال التام للمغرب العربي[٣٠].

ومن الوهلة الأولى لتأسيس حزب الشعب الجزائري عبر عن توجهه الوحدوي ونادى بالاستقلال التام للمغرب العربي وتجلى ذلك من خلال جريدة الأمة التابعة له التي كتبت في إحدى مقالاتها: "إنّ الجزائر ليست ملحقة بفرنسا بأي شعور إن لم يكن شعور الكراهية التي بعثها في قلوبنا مائة سنة من الاستعمار، وباسم الجمهورية الفرنسية يعاني ٣٠ مليون من الكائنات البشرية عبودية منحطة، إنّ وطننا هو المغرب العربي، ونحن مخلصون له حتى الموت، وإذا كانت إرادتنا في العيش أحرار تعد معاداة لفرنسا فنحن معادون لفرنسا وسنكون كذلك للأبد"، وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، أصبح حزب الشعب الجزائري يدعو إلى تكوين جبهة واحدة موحدة من التونسيون والجزائريون والمغاربة للنضال ضدّ الجبهة الامبريالية، وتطور هذا التوجه ليصبح أكثر جذرية منذ المؤتمر السري الذي عقده حزب الشعب الجزائري –حركة الانتصار للحريات الديمقراطية عام ١٩٤٧ بزدين، حيث تم تقديم مشروع للعمل المسلح على المستوى المغاربي، وذلك بتكوين منظمات شبه عسكرية مثلما في الجزائر كمرحلة أولى، ثم دمج هذه المنظمات في قيادة أركان عليا واحدة تقود العمل المسلح وتعممه في كامل المغرب العربي كمرحلة ثانية.

رابعًا: النشاط الوحدوي في إطار النضال الطلابي المغاربي

تواصل التضامن من خلال التضامن الطلابي المغاربي المشترك والذي تجسّد في تأسيس جمعية طلابية بباريس سنة ١٩٢٧، والتي سمّيت بـ"جمعية الطلبة المسلمين لشمال افريقيا"، وهي تعنى بالتضامن بين طلاب المغرب العربي في الجزائر والمغرب وتونس[٣١]، وتعود في أصولها إلى ما قبل الحرب

العالميــة الأولى، أي تلـك المحـاولات الـتي قـام بهـا الشـبان الجزائريون والتونسيون من أجل إنشاء جبهة سياسية واحدة في المغـرب العـربي، وكـانوا يطمحـون إلى تـدعيم هـذه الجبهـة بمـد حبـال الوحـدة إلى إخـوانهم بالمغـرب الأقصى، أمـا التأسـيس الرسـمي لجمعيـة الطلبـة، فكـان بتـاريخ ١٨ مـارس١٩١٩ بالجزائـر العاصـمة تحـت اسـم " الجمعيـة الوداديـة للتلاميـذ المسـلمين بإفريقيا الشمالية" وهي حسب ديباجة قانونها الأساسي الصادر في نفـس التـاريخ تأسسـت سـنة ١٩١٨ وأعلـن عنهـا في الجريـدة الرســمية (الفرنســية) الصــادرة بتــاريخ ١٥ أفريــل ١٩١٩[٣٢]. وتأسيسها محوره فكرة لم شمل طلبة شمال إفريقيا كما أنهّا كانت تهتم بقضايا الفكر والثقافة، إلى جانب القضايا الاجتماعية وخاصـة قضـية المـرأة الـتي ظلـت مهملـة[٣٣]، وكـان مـن بـين أعضـائها "فرحـات عبـاس" عـن الجزائـر و"محمـد الفـاسي" مـن المغرب الأقصى.

أما في تونس، فقد أسس الشيخ "عبد العزيز الثعالبي" لأول مرة، جمعية الطلبة التونسيين الدارسين بباريس سنة ١٩٢٠، أما بخصوص المغرب الأقصى فقد تكونت الجمعيات الطلابية ابتداء مـن نهايـة الثـورة الريفيـة ١٩٢٦ وكانـت متـأثرة بالاصـلاح الـديني، وهي التي كونت حزبا سياسا مع مطلع الثلاثينات، ولكـن كيف نسق الطلبة فيما بينهم لا ندري، وصهروا جمعياتهم في جمعية واحدة، سميت بجمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا، فقد ذكـر أحـد الكتـاب أنّ الفضـل في ذلـك، يعـود إلى "أحمـد بلافـريج" و"محمد الفاسي" الذين أظهروا هذه الجمعية بهذه التسمية في باريـس سـنة ١٩٢٧ مـع ثلـة مـن الطلبـة المغاربـة الـذين اتخـذوا مقـرا للجمعيـة بالحـي اللاتيـني رقـم ١٦ نهـج رولان. أمـا المصـالح الفرنسـية المختصـة بالمسـتعمرات الفرنسـية، فتقـول أنّ نجـم شـمال إفريقيـا هـو الـذي أنشـأ الجمعيـة الطلابيـة المغاربيـة في شـهر نـوفمبر أو ديسـمبر ١٩٢٧، وتـم التصـريح بهـا إلى محافظـة الشرطة بتاريخ ٢٨ ديسمبر[٣٤].

لقد اقترن تأسيس جمعية الطلبة بظرفية بروز مؤشرات انتقال الوعي الوطني من طور المقاومة المسلحة إلى مستوى العمل السياسي الحزبي المنظم وهو ما يفسر ظهور العديد من التنظيمات المؤطرة لهذا الانتقال، كما أن نشأة الجمعية ارتبطت بالموجات المكثفة الأولى من البعثات الطلابية نحو فرنسا المشرق العربي[٣٥]. وبالرجوع إلى الأسس التي قامت عليها الجمعية فإنها معنية بالعمل على المساعدة المتبادلة وعلى خلق علاقات متينة للصداقة والأخوة بين ممثليها لكن بمرور الأيام ستتحول الجمعية إلى نادي للتربية السياسية، كما نشير بهذا الصدد إلى أنه بين (١٩٢٨ - ١٩٣٣) ستجمع الجمعية أهم قادة الحركات الوطنية المغاربية الذين سيستحملون لواء الكفاح والنضال الوطني[٣٦]. وهو ما يذهب إليه المؤرخ الفرنسي أجيرون بقوله :"حينما نرى أسماء الطلبة الذين ناضلوا على رأس جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين بين سنتي ١٩٢٨ و١٩٣٩ نلاحظ بأن معظمهم قد أصبحوا زعماء للحركات الوطنية المغـــاربية وثورات التحرير في بلدانهم".

لقد لعبت جمعية الطلبة دورًا هامًا في تنمية الوعي بالقضية الوطنية المغاربية بين صفوف الطلبة المغاربة القادمين إلى فرنسا ويتعلق الأمر بتكوين الإطارات السياسية المستقبلية الموجهة إلى تأطير القوى الشعبية في بلدانهم المغاربية، وبهذا الصدد تقول إحدى الكاتبات: "إنّ جمعية الطلبة هي نادي للوطنية والبذرة الأساسية الثقافية للإطارات السياسية المغاربية[٣٧]. وهو ما يذهب إليه أحد الكتاب عندما يؤكد بأن جمعية الطلبة مطبوعة بطابع مغاربي واضح ومستمر، جسدت وحدة العمل من أجل التحرير وبلورت فكرة وحدة المغرب العربي، وقد لعبت هذه الجمعية دورًا هامًا وبارزًا في إقامة علاقات صداقة شخصية بين طلاب المغرب العربي الذين كانوا يدرسون في الجامعات الفرنسية والذين أصبحوا فيما بعد العمود الفقري للحركات الوطنية المغاربية وبعد ذلك النخبة المسيرة للحكم بعد الاستقلال وبعده.

وسيظل طلبة شمال إفريقيا يحملون فكرة المغرب العربي الـتي سرعـان مـا سـيرتفعون بهـا مـن مجـرد التنسـيق في دائـرة العمـل السـياسي الظـرفي، إلى مسـتوى التنظـير والتأسـيس الـواعي. وهكـذا سـيطالب مـؤتمرهم الخـامس الـذي انعقـد في تلمسـان في نـوفمبر مـن عـام ١٩٣٥ بـ توحيـد التعلـيم في بلـدان المغرب العربي، وتوجيهه الوجهة التي ستمكنه من ايقاظ الوعي بوحدتنا الوطنية في شمال افريقيا، الوحدة التي تؤسسها ذهنية موحدة ودين واحد وعواطف مشتركة"، ويضيف البيان الصادر عن المؤتمر المذكور قائلاً: "ويجب ألا يقال أنّنا نعمل على إنشاء وحدة مفتعلة. كلا وألف كلا. إنّنا لا نعمل إلا على بعث وحدة عتيدة سجلها التاريخ، وهو ضمانها"[٣٨].

وفي السياق نفسه يقول "محمد الميلي": أنّ مشروع وحدة المغرب العربي الذي يرجع في نشأته إلى العشرينات قد ظهر أول ما ظهر في أوساط الطلاب الشباب من البلدان الثلاثة، جمعتهم فرص الدراسة بتونس أو المغرب أو الجزائر أو فرنسا...إن احتكاك طلائع طلابية من الأقطار الثلاثة في عنفوان السيطرة الاستعمارية قد جعلهم يستخلصون العبرة

من ذلك الوضع الذي كانت آفاقه تبدو مسدودة ويعتبرون أنه لا يمكن الخروج من النفق الاستعماري إلا بصيغة عمل وحدوي"[٣٩].

وتمثلت أهداف الجمعية حسب قانونها الأساسي والذي أكد على ما يلي:

(١) تمتين روابط المودّة والتضامن بين طلبة شمال إفريقيا، وذلك بإنشاء ناد ومكتبة وإصدار مجلة باللسانين العربي والفرنسي والقيام باجتماعات منتظمة.

(٢) تشجيع شباب المغرب العربي على مواصلة دراستهم بفرنسا.

(٣) تسهيل إقامتهم بفرنسا ومنحهم إعانات وقروض مالية لتغطية نفقاتهم[٤٠].

وهو ما عكسته أول نشرة سنوية أصدرتها جمعية الطلبة (١٩٢٩/١٩٢٨) أعلنت من خلالها عن الأهداف والتوجهات حيث جاء فيها: "أسست هذه الجمعية في شهر ديسمبر ١٩٢٧، لسد حاجة أحسن بها طلبة شمال إفريقيا المسلمون في ذلك العهد، إذ كانوا بالرغم من عددهم الكثير يجهلون بعضهم بعضا ولا يجمع الواحد منهم بأخيه إلا بفضل الصدفة، على أننا نرى الطلبة في كافة الأقطار لهم جمعيات يلتفون حولها فتلم شملهم وتؤازر الضعفاء منهم فكيف يتسنى لنا نحن أبناء بلاد واحدة أن نبقى متفرقين"[٤١]. وقد عقدت هذه المنظمة الطلابية عدّة مؤتمرات[٤٢]، بداية من مؤتمر سنة ١٩٣٠ الذي عقد بباريس، وكان من أهم المشاركين فيه "صالح بن يوسف" (تونس) و"علال الفاسي" (المغرب الأقصى) و"فرحات عباس" (الجزائر)، ثم مؤتمر الجزائر الذي ساهم فيه "الهادي نويرة" من تونس، "المنجي سليم" (تونس)، و"عبد الخالق الطريس" (المنطقة الخليفية بالمغرب الأقصى)[٤٣].

ومن أهم المؤتمرات التي عقدها طلبة المغرب العربي، مؤتمر تونس في أكتوبر سنة ١٩٣٤ الذي حضره ممثلون من مختلف أرجاء المغرب العربي، والمؤتمر الخامس انعقد في مدينة تلمسان بالجزائر في سبتمبر ١٩٣٥، ووجه عنايته بموضوع التربية فقد أكد في قراره بضرورة توحيد البرامج التربوية، توحيدا من شأنه أن يبعث الشعور بالوحدة القومية في المغرب العربي تلك الوحدة التي ترتكز على عقلية موحدة ودين واحد وشعور مشترك، أما المؤتمر السادس فقد حاول الانتظام في مدينة تطوان في أكتوبر سنة ١٩٣٦، وهيأ له الزعيم الوطني بالمغرب عبد الخالق الطريس وخرج بتوصيات منها: إعادة الصلات بين أقطار المغرب العربي، وربط الصلات بين هذه الأقطار وبين البلدان العربية والإسلامية، وفي سنة ١٩٣٧ استطاعت جمعية طلبة المغرب العربي أن تجتمع في مقرها الرئيس بباريس مع كل من الأمير "شكيب أرسلان" والسيد "الحبيب بورقيبة" الكاتب العام للحزب الدستوري الجديد، و"مصالي الحاج" رئيس نجم شمال إفريقيا و"السيد خلطي" ممثلا للمغرب الأقصى[٤٤]. ومنه نستنتج أن مؤتمرات طلبة شمال إفريقيا شكلت فرصة لنقل العمل المشترك من أجل تحرير المغرب العربي إلى مجاله الجغرافي ومحيطه القومي منذ أواسط الثلاثينات، وأن مسألة الهوية قد شكلت بمختلف عناصرها الإطار المرجعي لجمعية الطلبة في مواقفها من الاستعمار، كما مثلت جمعية الطلبة محطة متقدمة في مضمار الدعوة إلى إحياء فكرة وحدة المغرب الغربي واستثمار مقوماتها التاريخية والسياسية للتقريب بين الحركات الوطنية المغاربية الثلاثة والتنسيق بين نخبها وقادتها.

ومع مطلع الخمسينات تعرضت جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا في نشاطها منذ ١٩٥٣ لفتور نسبي بعد أن سارع الطلبة التونسيون إلى تكوين الاتحاد العام للطلبة التونسيين في جويلية ١٩٥٣، ثم نجد الطلبة المغربيون قاموا بإنشاء الاتحاد الوطني لطلبة المغرب الأقصى سنة ١٩٥٤ بهدف المشاركة في معركة النضال الوطني، وتأخر ظهور اتحاد خاص بالطلبة الجزائريين إلى ما بعد اندلاع الثورة الجزائرية، وخلال اجتماع جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا في الجزائر يومي ٢٥ و٢٦ فيفري ١٩٥٥ صادق الطلبة على لائحة تدعو الطلبة الجزائريين إلى إنشاء اتحاد خاص بهم، حيث أعلنوا بعد اجتماعات تحضيرية في جويلية ١٩٥٥ عن تأسيس الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين، وقاد هذا التنظيم النضال الطلابي الجزائري إبان الثورة التحريرية، وعمل على توطيد صلات التضامن المغاربي بإعادة الاعتبار لمسألة العمل الطلابي المشترك، كما نهض بتفعيل نشاط الطلبة الجزائريين بالجامعات الفرنسية، وكذا بتونس والمغرب الأقصى حيث تزايدت أعداد الطلبة الجزائريين بهما لمواصلة الدراسة بجامعتي الزيتونة والقرويين، وقد أبدت الحركة الطلابية المغاربية تضامنا هامًا مع القضية الجزائرية[٤٥].

خامسًا: العمل المغاربي المشترك بعد الحرب العالمية الثانية

ونحن بصدد الحديث عن النضال المغاربي المشترك فإنه من المفيد التطرق إلى المرحلة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، فإن الدّراس لتاريخ العلاقات المغاربية بصفة عامة، سوف يقف عند المنحى الجديد الذي ميّز نشاطها، والمتمثل في كثافة الاتصالات والمشاورات بين القادة المغاربة بهدف إيجاد صيغة مشتركة لتوحيد النضال السياسي في المغرب العربي[٤٦]، ولأجل ذلك تكتل هؤلاء القادة في جبهة سميت بـ"جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية".

٥/١-جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية

تأسست "جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية" بالقاهرة في ١٨ فيفري ١٩٤٤م تحت رئاسة شيخ الأزهر "محمد الأخضر حسين"، وضمّت ممثلين عن الجزائر وتونس والمغرب الأقصى، ووضع قانونًا أساسيًا يهدف بالدرجة الأولى إلى استقلال أقطار المغرب العربي استقلالاً تامًا[٤٧]. وكان في عضويتها شخصيات عربية واسلامية فنجد "ابراهيم اطفيش"، و"الشيخ اسماعيل علي"، والأستاذ "أبو مدين الشافعي"، ثم نجد انضمام إلى الجبهة "رابطة الدفاع عن مراكش" التي تأسست سنة ١٩٤٣ على يد جماعة من الطلبة المراكشيين وأكثرهم ينتمون لحزب الاستقلال وزعيمه "علال الفاسي" وأشهرهم السادة: "أحمد المليح"، "عبد الكريم غلاب"، "عبد المجيد بن جلون"، "عبد الكريم ثابت"[٤٨]، كما التحقت شخصيات أخرى نذكر منها: "محمد بن عبد الله"، و"أحمد الوزاني"، و"عبد السلام بناني"، و"أحمد بن عود"، و"مصطفى عبد الوهاب"، ومن التونسيين نذكر: "الشيخ محي الدين القيبي"، و"الحبيب بورقيبة"[٤٩].

وكان لظهور هذا التنظيم الدور الكبير في بلورة الوعي الوطني لبلدان شمال إفريقيا وزيادة في تكثيف العمل الوحدوي الأثر البليغ، وخصوصًا بعد أن عرف مكتب المغرب العربي الأول الذي تأسس في برلين وفرعه في فرنسا فتورًا نسبيًا، ظهر هذا التنظيم للوجود ليبرهن أنّ كفاح ونضال المغرب العربي مستمر وسيظل دائمًا مهما كانت الصعاب[٥٠]. ومن هنا تولدت "فكرة إيجاد هيئة تتناول قضية افريقيا الشمالية موحدة"، وأهداف الجبهة تمثلت فيما يلي:

- **المادة الأولى**: في يوم ربيع أول سنة ١٣٦٤هـ الموافق ١٨ فبراير ١٩٤٤، تألفت هيئة في القاهرة تسمى " جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية"
- **المادة الثانية**: أغراض الجبهة:

أ- السعي بالطرق المشروعة لتحقيق حرية واستقلال شعوب شمال إفريقيا " تونس، الجزائر، مراكش"

ب- السعي لضم هذه الشعوب إلى جامعة الدول العربية.

- **المادة الثالثة**: دستور جبهة التضامن وتحريم العصبيات.

المادة الرابعة: تسعى الجبهة لتحقيق أغراضها بجميع الوسائل المشروعة كإنشاء صحف وفتح أندية وايجاد شعب لها في مصر وخارجها إذا اقتضى الحال ذلك[٥١].

وقد قارب عمر عمل الجبهة السنتين وكان جهادها فيها متواصلاً وعملها مثمرًا وأثر مساعيها العظيمة في كل مجال محسوسًا وكان أكبر نشاطها مع الدول العربية وشعوبها ومع دول الأمم المتحدة وشعوبها، تقدم المذكرات وترفع الاحتجاجات وتنور الأذهان بالخطب والمقالات وتتصل بالهيئات والأندية والشخصيات وتتابع بعناية كبيرة النشاط الذي يقوم به رجال الوطن في البلد وتعمل على إذاعته حسب المناسبات وهو ما عبر عنه مقال صدر في جريدة النذير والذي وضح الهدف الرئيس الذي أنشئت لأجله هذه الجبهة حيث جاء فيه: "... أما هدف الجبهة الأخير فهو استقلال أقطار المغرب كلها استقلالاً تامًا في وحدة كاملة والانضمام إلى جامعة الدول العربية والعزم معقود على مواصلة العمل لإدراك يوم النصر الحقيقي ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله والله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم".[٥٢]

وكان أول بيان أصدرته الجبهة كان عن مجازر ٠٨ ماي ١٩٤٥ والذي جاء تحت عنوان: "ثورة الجزائر العربية" "أول بيان للدفاع عن إفريقيا الشمالية" مما جاء فيه نشرت الصحف اليومية في صباح ١٣ ماي ١٩٤٥ نبأ الثورة في بلاد الجزائر العربية نقلا عن مراسل رويتر بباريس يقول أن جماعات مسلحة تابعة لحزب (البيان) المعروف بعدائه للفرنسيين هبطت من الجبال إلى مدينة سطيف بالجزائر في يوم النصر فأوقعت الاضطرابات في المدينة و قتلت بعض الشخصيات البارزة من الفرنسيين و اليهود، و تقدر رويتر عدد القتلى من أولئك البارزين بخمسين رجلاً، وتقول إنه قد قع قبل دلك كثير من الاضطرابات في إقليم قسنطينة. ولكن حادث يوم النصر كان اشد هولا..."[٥٣].

وكان للجبهة العديد من المذكرات والبيانات وهنا نقتصر على ذكرها في شكل نقاط:

- أول بيان لجبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية حول مجازر 8ماي 1945 بالجزائر.

- مذكرة إلى حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم عبد العزيز آل سعود عند زيارته لمصر.
- مذكرة إلى دول الجامعة العربية ودول الأمم المتحدة.
- مذكرة إلى دول الأمم المتحدة والى الأمم المتحدة.
- بيان حول همجية فرنسا الديمقراطية "النار والدمار في تونس العربية المسلحة"
- مذكرة عن مؤتمر تونس "اعتداء فرنسا على الأرواح و الأعراض في تونس".
- مذكرة إلى السفراء بمناسبة الذكرى السنوية لثورة الجزائر العربية " تخص مجازر ماي ١٩٤٥ "
- احتجاج الجبهة في ذكرى الظهير البربري.
- احتجاج الجبهة على المساومات الاستعمارية في تونس.
- نداء الجبهة إلى جميع العرب من هيئات وأفراد:" يوم إفريقيا الشمالية بعد يوم فلسطين".[٥٤]

لا شك أنّ الجبهة أزعجت السلطات الفرنسية، ولهذا لجأت فرنسا إلى التقليل من أهمية الجبهة بالتشكيك في أحد قادتها، إذ كتب "موريس فيرو" في جريدة "لوموند" قال فيه أنّ جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية تضاعف مناوراتها ومساعيها في المشرق العربي، وأنّها جبهة ثلاثية ألفت من الحزب الدستوري التونسي وحزب الشعب الجزائري وحزب الاستقلال المراكشي، وأضاف قائلاً: "...أنّ الفضيل الورتلاني السكرتير العام للجبهة ...ليس عربيًا..." بل من أبناء القبائل وهو يعارض بكل قواه سيطرة العنصر العربي في بلاد المغرب العربي. فتصدّى له "الورتلاني" بمقال له في جريدة الإخوان بتاريخ ١٢ أكتوبر ١٩٤٦ بعنوان: سيتحد أبناء إفريقيا الشمالية رغم أنوف المستعمرين" تحدّث فيه عن وحدة شعب المغرب العربي التاريخية والحضارية والدينية، ومما جاء فيه: "إنّ المغرب العربي بجميع أقطاره قد خلقه الله وحدة كاملة، وأتم الله عليه نعمة هذه الوحدة بجمعه على دين واحد ولغة واحدة وظلم واحد". هو ظلم فرنسا الاستعمارية.

ومهما يكن من أمر فإنّ جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية، كانت بمثابة لسان وصوت المغرب العربي بالمشرق، في الوقت الذي قمعت فيه الحركة الوطنية بالمغرب العربي، ولا شك أنّها ملأت فراغًا أمام جهل العرب المشارقة بإخوانهم المغاربة كما أنّها خلقت الأرضية السياسية الملائمة لمكتب المغرب العربي بالقاهرة ودمشق[٥٥]. ولم تشارك الجبهة في مؤتمر المغرب العربي في فيفري ١٩٤٧ وذلك لأسباب مختلفة منها: اتجاه رجالها الايديولوجي نتيجة العلاقات التي كانت تربطها بجمعية الإخوان المسلمين في مصر، وكذلك نجد قلة تأييد الجامعة العربية التي أصبحت تشجع رجال مكتب المغرب العربي في إطار ايديولوجية القومية العربية، وبدأت الجبهة تختفي عن الساحة السياسية مع نهاية ١٩٤٧ وبداية ١٩٤٨ ليخلو الجو والنشاط السياسي لمكتب المغرب العربي[٥٦].

٢/٥-مكتب المغرب العربي بالقاهرة

إن الأحداث التي شهدتها بلدان المغرب العربي بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية جعلت قادة الحركة الاستقلالية على يقين بعدم جدوى مسايرة الاستعمار بالطرق التقليدية القديمة خاصة بعد أحداث ٨ ماي ١٩٤٥ بالجزائر، والقمع الوحشي على قريتي زمردين وبني حسان بتونس في٣٠ جوان ١٩٤٥، والأحداث القمعية التي شهدتها مدينة مكناس سنة ١٩٤٥م جعلتهم يفكرون بجدية في ضرورة تنسيق العمل بين الحركات الاستقلالية المغاربية لتحقيق مشروع استقلال أقطار المغرب العربي، وجسد هذا في مكتب المغرب العربي.

أسفرت نتائج التحولات التي واكبت الحرب العالمية الثانية في المغرب العربي بروز مطلب الاستقلال وعدم الاكتفاء بمطلب الإصلاحات، وكما شكلت مرحلة تأسيس جامعة الدول العربية في مارس ١٩٤٥م مرحلة تاريخية هامة بالنسبة للنضال المغاربي، خاصة مع بروز مفهوم القومية والوحدة العربية في مختلف الخطابات السياسية، فكان لها تأثير بالغ على النضال السياسي للدول المغاربية، حيث نضجت الحركة الوطنية وأصبح زعماؤها ينادون بالاستقلال والتحرر، وشكلت مرحلة الأربعينيات حدًا فاصلاً بين مرحلة المطالب الإصلاحية ومرحلة المطالبة بالتحرر، والاستقلال واسترداد سيادة الدولة الوطنية[٥٧].

حظيت أجهزة التنسيق والعمل المشترك المحدثة في أعقاب نهاية الحرب العالمية الثانية، وتأسيس جامعة الدول العربية بمكانة خاصة من حيث فعالياتها النضالية وخصوبة تجربتها السياسية، إلى حد النظر إليها كمرحلة متطورة في مسيرة نضال الحركات الوطنية المغاربية، وكلحظة متقدمة في مجال التنسيق السياسي التعبوي والإعلامي[٥٨].

بهذا الصدد تتصدر تجربة مكتب المغرب العربي بالقاهرة مقدمة هذه الأهمية ومكانتها في حقل النضال الوطني المغاربي المشترك، وهي تجربة لم تتكون عناصرها بمصر، حيث مقر المكتب وحسب، بل تراكمت من عاصمة عربية (دمشق، بيروت) وأجنبية (برلين، نيويورك)، حيث شهدت الخطوات

الأولى لإحداث فروع للمكتب، كما تدل على ذلك المراسلات المتبادلة بين الرشيد إدريس ويوسف الرويسي، حيث نشأت البواذر الأولى للعمل من أجل تجسيد فكرة المغرب العربي أثناء وجود الطلبة المغاربة والجزائريين والتونسيين في فرنسا، عندما أنشئوا جمعية طلبة شمال إفريقيا بفرنسا، التي وجدوا أنفسهم ملتقين على كلمة سواء لخدمة بلادهم وتوحيد أفكارهم من أجل التثقيف والانعتاق، ثم في القاهرة في فترة الحرب العالمية الثانية، لتنموا وتتطور في مرحلة ما بعد الحرب بمبادرات من ثلة من الوطنيين الذين كانوا يقيمون في تلك الفترة في أرض الكنانة[٥٩]. لقد أدت الاتصالات واللقاءات التي تمت بين قادة الأحزاب والحركات السياسية المغاربية سواء في فرنسا أو القاهرة إلى تنظيم" مؤتمر المغرب العربي "بالقاهرة مابين١٥و٢٢ فيفري ١٩٤٧[٦٠]، وشارك فيه ممثلو الحركات الاستقلالية المغاربية في المغرب العربي تحت الرئاسة الفخرية للأستاذ "عبد الرحمن عزّام" الأمين العام لجامعة الدول العربية[٦١]، وبحضور الكثير من زعماء المشرق العربي، وكانت غاية المؤتمرين العمل على توحيد سبل الكفاح الوطني المغاربي، **ومن أهم التوصيات التي خرج بها المؤتمر:**

- تقرير الكفاح المسلح في الداخل والخارج لتحقيق الاستقلال والجلاء.
- الاتفاق على غاية واحدة وهي الاستقلال.
- تنسيق العمل بين الحركات الوطنية في بلاد المغرب العربي.
- تكوين لجنة من رجال الحركات الوطنية مهمتها توحيد الخطط وتنسيق الكفاح المشترك[٦٢].
- رفض الانضمام إلى الاتحاد الفرنسي في أي شكل من أشكاله.
- عدم الاعتراف بأي حق لفرنسا في الجزائر وإلغاء معاهدة الحماية المفروضة على المغرب وتونس.

كانت هذه المطالب المشتركة للمؤتمرين، أما على صعيد مسألة التنسيق بين الحركات المغاربية وما هو مطلوب منها في المرحلة القادمة فقد قرر المؤتمر: ضرورة الاتفاق بين الأحزاب الوطنية داخل كل قطر، إحكام الروابط بين الحركات الوطنية في الأقطار الثلاثة، وقد أوصى المؤتمر بضرورة الاتفاق على مبدأ الاستقلال التام وجلاء القوات الاستعمارية وتكوين لجنة دائمة من رجال الحركات الوطنية المغاربية مهمتها توحيد الخطط، وتنسيق العمل للكفاح المشترك، بالإضافة إلى توحيد المنظمات العمالية، والاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية في الأقطار الثلاث، مع التضامن فيما بينها عن حدوث أزمات في أي قطر منها[٦٣]. ومنذ ١٥ فيفري ١٩٤٧ حل مكتب المغرب العربي محل مكاتب الأحزاب الخاصة بكل قطر من أقطار المغرب العربي بالقاهرة، وأصبح الهدف الأساسي للمكتب هو تنسيق مجهودات الوطنيين المغاربة في نشاطهم ضد الاستعمار[٦٤]. فبقراءة مقررات المؤتمر وتوصياته، نقف عند أربع قضايا شكلت جوهر اهتمام الوفود المشاركة، ومحاور أعمالها، وكذا عناصر استراتيجيتها في حقل التعبئة من أجل التحرر والاستقلال:

- فمن جهة أولى، أدان المؤتمر نظام الاستعمار واعتبره لاغيا، وذلك بتشديده على بطلان الحماية المفروضة على تونس وعدم الاعتراف بأي حق لفرنسا في الجزائر، وبالتالي مطالبة الحكومات المغاربية والهيئات الوطنية بإعلان استقلال البلاد، وكذلك المطالبة بجلاء القوات الأجنبية عن البلاد المغاربية.
- ومن زاوية ثانية أقر المؤتمر مسألة التنسيق والعمل المشترك بين الحركات الوطنية المغاربية الثلاث، مقترحا صيغا أكثر تدقيقا وتقدما من الناحيتين السياسية والتنظيمية، فعلاوة على دعوته إلى ضرورة الاتفاق بين الأحزاب الوطنية داخل كل قطر، أكد إحكام الروابط بين الحركات الوطنية في الأقطار الثلاثة، عبر الاتفاق على غاية واحدة هي الاستقلال التام.
- لذلك لم يقف المؤتمر عند حدود نقد الاستعمار والدعوة إلى إلغائه عبر تطوير أسس النضال القطري وأشكاله المشتركة، بل ربط بين هذه الأهداف والمسؤولية القومية للجامعة العربية، حيث طالبها بإعلان بطلان معاهدتي الحماية المفروضتين على تونس والمغرب، واعلان عدم شرعية احتلال الجزائر، وتقرير استقلال هذه الأقطار مع تعيين ممثلين عنها في مجلس الجامعة.
- وفعلاً مثلت الجامعة العربية دورًا مركزيًا في تدويل القضية المغاربية، وتحفيز الرأي العام على الاهتمام بها والعمل على تفهم مشروعية عدالتها، سيما أنّ المؤتمر سبق أن اتخذ أعضاؤه سلسلة من القرارات التطبيقية لجعل فكرة التدويل سارية المفعول[٦٥].

ووفقًا لهذه المقررات، عمل مكتب المغرب العربي على إنضاج نشاط الحركات الوطنية المغاربية الثلاث، وتأطير وتوجيه ممارسة نخبها السياسية[٦٦]، ويتبين لنا كذلك أن هنالك تلاحم كبير وتنسيق في العمل بين أعضاء مكتب المغرب العربي

لمواجهة الاستعمار بجبهة قوية متينة وموحدة. أصبح المكتب الهيئة الرسمية للحركات التحررية الثلاثة الموحدة ولسان حالها، فكان له دور في فضح تصرفات الاستعمار عن طريق نشرة منتظمة تصدر ثلاث مرات في الأسبوع فأغنت عن المصادر الأجنبية التي كانت المصدر الوحيد في المغرب العربي، فأصبح العالم العربي يتتبع حركة النضال في الأقطار الثلاثة، بالاطلاع على مختلف الأوضاع الداخلية، كالمجاعة التي عرفتها تونس ما بين سنتي (١٩٤٧-١٩٤٨)م ومذبحة الدار البيضاء أبريل ١٩٤٨م...وقد أصدر المكتب عدة مؤلفات منها: "مركز الأجانب في مراكش" ولـ "أمحمد بن عبود"، وكتاب "هذه تونس" للمناضل "الحبيب ثامر"، و"تونس الثائر" لـ "علي البلهوان"[٦٧]. ومن أهم المؤتمرات التي شارك فيها ممثلو مكتب المغرب العربي في القاهرة المؤتمر الثقافي العربي الأول الذي انعقد في بيروت في سبتمبر ١٩٤٧م، وأكد المشاركون فيه على ضرورة دعم استقلال بلدان المغرب العربي، وثم قام الحبيب بورقيبة بجولات في الدول العربية وأمريكا في إطار الحملات الدعائية المناهضة للاستعمار وذلك منذ بداية سنة ١٩٤٨م[٦٨].

إنّ النضال الوطني في إطار مكتب المغرب العربي بالقاهرة يرمز إلى مرحلة هامة نحو تحقيق الوحدة المغاربية، إلا أنّ هذه التجربة مع أهميتها دامت فترة قصيرة من ١٩٤٧ إلى نهاية ١٩٤٩ عندما عرف المكتب أوجه رغم أنّ المكتب ظل يمارس نشاطه إلى استقلال المغرب وتونس سنة ١٩٥٦ ثم انتقل إلى أيدي الجزائريين بعد ذلك[٦٩].

وفي الأخير نستنتج أن المكتب استطاع أن يوحد الجهود ما بين دول المغرب العربي الثلاثة ضمن كيان سياسي واحد يعبرون فيه عن طموحات شعوبهم الواقعة تحت الاستعمار، مستعملاً في ذلك العديد من الوسائل الدعائية والإعلامية والسياسية غلب عليها الجانب السلمي في كثير من الأحيان ومع وصول عبد الكريم الخطابي إلى القاهرة ساهم في تفعيل نشاط مكتب المغرب العربي وحرص على أن تكون وسائله أكثر وقعا ضد الوجود الاستعماري بحيث دعى "الأمير عبد الكريم الخطابي" على انتهاج سياسة أكثر حدّة وهذا ما نلمسه في لجنة تحرير المغرب العربي التي أسسها في جانفي ١٩٤٨ ودعوته للعمل المسلح.

٣/٥-لجنة تحرير المغرب العربي

كما تجب الإشارة إلى أن مجيء واستقرار "محمد بن عبد الكريم الخطابي" في القاهرة منتصف عام ١٩٤٧، مثّل منعطفا جديدا في النضال الوطني المغاربي بالتأكيد على عقم النضال السياسي السلمي، واعتماد أسلوب الكفاح المسلّح طريقًا وحيدًا لانتزاع الحرّية والاستقلال في المغرب العربي، ومارس "محمد بن عبد الكريم الخطابي" نشاطه حال استقراره في القاهرة، وعمل على توحيد أساليب الكفاح على نطاق واسع يجمع أقطار شمال إفريقيا كلها، ويجسّد فكرة توحيد المعركة، وبعد عمل مضن مدة سبعة أشهر من العمل المتواصل في إطار مكتب المغرب العربي، توصل المغاربيون إلى ضرورة خلق إطار شامل يفتح المجال لكل الأحزاب والهيئات السياسية، التي تعمل في سبيل استقلال شمال إفريقيا[٧٠]، وأثمرت جهوده على تأسيس "لجنة تحرير المغرب العربي" في ٥ جانفي ١٩٤٨ التي تم الإعلان عن ميثاقها في معظم الصحف المصرية[٧١]، حيث نص قانونها الأساسي على:

- المغرب العربي بالإسلام كان وللإسلام عاش وعلى الإسلام يسير في حياته المستقبلية.
- المغرب العربي جزء لا يتجزأ من بلاد العروبة وتعاونه في دائرة الجامعة العربية على قدم المساواة مع بقية الأقطار العربية أمر طبيعي ولازم.
- الاستقلال المأمول للمغرب العربي هو الاستقلال التام لكافة أقطاره الثلاثة تونس والجزائر والمغرب الأقصى.
- لا مفاوضة مع المستعمر في الجزئيات ضمن النظام الحاضر.
- لا مفاوضة إلا بعد إعلان الاستقلال .
- حصول قطر من الأقطار الثلاثة على استقلاله التام لا تسقط على اللجنة واجبها في مواصلة الكفاح لتحرير البقية[٧٢].

وكان المنشئون لهذه اللجنة هم رؤساء الأحزاب السياسية أو مندوبوهم وهم السادة "علال الفاسي" عن حزب الاستقلال، "عبد الخالق الطريس" عن حزب الاصلاح، "الحبيب بورقيبة" عن الحزب الدستوري الجديد، "الشاذلي المكي" و"التريكي" عن حزب الشعب الجزائري[٧٣]. لقد كانت طموحات وآمال "محمد بن عبد الكريم الخطابي" متفائلة في التزام كل الأطراف الموقعة على بيان لجنة تحرير المغرب العربي بالمبادئ التي تضمنها[٧٤]، فقد أكد في البيان الصادر يوم ٠٧ فبراير ١٩٤٨ على العمل الوحدوي المغاربي لتحقيق الاستقلال التام[٧٥]. لكنه سرعان ما تبين لرئيس اللجنة أن بعض القادة أخذت تصدر عنهم مواقف وتصريحات تحيد عن المبادئ التي تأسّست من أجلها لجنة تحرير المغرب العربي، وواجه هذا التصرّف بكل حنكة،

وأيضا مواجهة طموحات وأطماع القوى العظمى التي تحاول استقطاب الأمير "محمد بن عبد الكريم الخطابي" إلى صفّها، واتخاذه أداة لتحقيق مآربها السياسية في المنطقة المغاربية[٧٦]، ومع ذلك فإنّ الإيمان بعدالة القضية التي نذر الخطابي نفسه من أجلها وإيمانه العميق بقدرة الشعب على تحقيق أهدافه الوطنية المغاربية جعله يواصل العمل في قيادة الكفاح المغاربي السياسي والعسكري من الخارج.

٤/٥-لجنة تحرير المغرب العربي بين الاتجاه المسلح الثوري والاتجاه السياسي القطري

على الرغم مما كان يدعو له " عبد الكريم الخطابي" من وجوب تجسيد المبادئ المتفق عليها بين الحركات المغاربية، فإنه منذ ١٩٤٨ بدأت ملامح التملص والتباين الايديولوجي من العمل على مستوى مغاربي داخل اللجنة تتضح جليا، وذلك بانقسام الوطنيون المغاربة إلى اتجاهين: اتجاه يدعو للعمل المسلح الثوري بقيادة " عبد الكريم الخطابي"، واتجاه ثاني داخل لجنة تحرير المغرب العربي تدعو للعمل السياسي القطري بقيادة رئيس حزب الدستور والأمين العام للجنة الحبيب بورقيبة وفقًا لمبادئ حزبه.

(٤/٥) ١-الاتجاه الثوري المسلح:

تزعمته العناصر الثورية المتمسكة بميثاق لجنة تحرير المغرب العربي وعلى رأسها "عبد الكريم الخطابي"، وثوريو حركة انتصار الحريات الديمقراطية وكانوا يدعون إلى العمل المسلح وإلى ضرورة التوحيد بين الأقطار المغاربية الثلاثة، وفي هذا الإطار وضع "الخطابي" خطة محكمة لتحرير الأقطار المغاربية الثلاثة بدت للبعض أنها مثالية وصعبة التجسيد وذلك بالاعتماد على تكوين لضباط وفرق الاتصالات الميدانية والدعاية اللازمة لها، وقد حققت بعناية وجهوده التنسيقية نتائج مهمة في خيار الكفاح المسلح في تونس وإنشاء قاعدة تموين خلفية في طرابلس وإرساء توافق مع المناضلين الجزائريين على مبدأ إعلان الثورة وتعميمها على كامل بلدان المغرب العربي، ولهذا كان موعد انطلاق الثورة التحريرية الجزائرية محفزًا لنجاح هذه الاستراتيجية فيما بعد[٧٧].

وفي هذا السياق يذهب المؤرخ "محمد حربي" إلى القول: "إن الوطنيين الجزائريين اتفقوا منذ سنة ١٩٤٨ على ضرورة الإعلان عن عمل عسكري، ولهذا أوفد الحزب الشعب الجزائري (حركة انتصار الحريات الديمراطية) سنة ١٩٤٩ وفدين إلى تونس والمغرب، فاتجه الوفد الأول إلى طنجة وضم "شرشالي" و"خيضر"، أما الوفد الثاني فاتجه صوب تونس وضم كل من "دردور"،" أحمد بن بلة"، "بوقادوم"، وهذا لوضع استراتيجية مشتركة "لإنشاء تنظيم شبه عسكري، فالتقى الوفد الأول بزعيم حزب الاستقلال "علال الفاسي" الذي أبدى تهربا من هذا المشروع، أما الوفد الثاني فاتجه إلى تونس والتقى بالكاتب العام لحزب الدستور الجديد "صالح بن يوسف" الذي اعتبر المبادرة نوعًا ما مجازفة ومغامرة متهورة" [٧٨].

ومع تطور الأحداث مع مطلع الخمسينيات من القرن العشرين في تونس، كان عاملاً محفزًا لهذا الاتجاه ليحاول مرة ثانية في تجسيد مشروعه على أرض الواقع خصوصًا مع انطلاق الحركة المسلحة في تونس التي اتخذت شكل اغتيالات فردية ضد المستوطنين متأثرة ببعض أفكار الزعيم عبد الكريم الخطابي"، لكن دون أن تخرج نهائيًا عن الدائرة الواسعة التي كان يسيطر عليها الحزب الدستوري الجديد ذو التأثير السياسي، وفي هذا الصدد يقول عبد الحميد مهري في الخلايا الأولى للكفاح المسلح بتونس المتأثرة في بداية الأمر بأفكار الخطابي بقوله: "إن هذه التشكيلة هي التي بدأت المقاومة المسلحة منذ لشهر ديسمبر ١٩٥٢، لكنها لم تلبث أن التحقت مع التشكيلات الرسمية للحزب". وتزامنا مع هذه الأحداث، فإنّ مكتب المغرب العربي ولجنة تحرير المغرب العربي عقدا اجتماعا سنة ١٩٥٢ بالقاهرة، واتفقا على القيام بعمل ثوري مماثل لما يحدث في تونس والعمل على تعميمه، في كامل المغرب العربي، وتم خلال هذه الفترة إقصاء "الحبيب بورقيبة" من اللجنة وهذا بسبب سياسته القطرية، وعين بدله "علال الفاسي" أمينًا عامًا للجنة وكان قد التحق بمكتب المغرب العربي كل من "محمد خيضر"، "أحمد بن بلة"، "صالح بن يوسف"، و"حسين آيت أحمد".

وعلى كل نجد أن الأمير "محمد بن عبد الكريم الخطابي" قد اتّخذ الأمور بصورة أكثر جدية، وكانت اللّجنة بالنّسبة إليه الوسيلة الوحيدة للتحرّك والنّزوع نحو العمل الثوري، وتمثّل ذلك في محاولة تكوين شبكة تنسيق عملية الكفاح المسلح على المستوى المغرب العربي وسيلة لتحقيق الهدف، حيث أوفد "محمد بن عبد الكريم الخطابي" لمناضلي المنظمة الخاصة "los" "عبد السلام الهاشمي الطود" و"حمادي عبد العزيز" وهما مغربيان كانا يحملان برسالة من طرفه يدعوهم فيها للتنسيق والشروع في العمل المسلّح في أقطار المغرب العربي[٧٩]، وعن هذه الشبكة يقول "محمد بوضياف" :"إن بعد إعادة تنظيم المنظمة الخاصة "los " في سنة ١٩٥٢ التي أصبحت في علاقات روابط مع الحركات التحرر في تونس والمغرب حل بالجزائر يومئذ ضابطان من الريف المغربي وهما "الهاشمي الطود" و"حمادي

الريفي"، وكان على اتصال بجبهات ثلاث الأمير "محمد بن عبد الكريم الخطابي"، ومصالح المخابرات بالإعداد لعمل ثوري منسّق على مستوى الأقطار الثلاث، وقد اتّصلا بقيادة الحزب حركة الانتصار الحريات الديمقراطية، ولكن لم يجد التجاوب المطلوب، لذلك اتصلا بطريقة غير رسمية بالأخ "عبد الحميد مهري" عضو اللجنة المركزية للحزب، والذي نظّم اتصالا بين "محمد بوضياف" وبين الضابطين المغربيين، وبناءً على ذلك قمت باستدعاء "ديدوش مراد" ليعرض لقاءه مع الضابطين من المغرب، وبحث عملية تنسيق الكفاح المسلح على مستوى المغرب العربي[٨٠].

وفي السياق نفسه يؤكّد المناضل "عبد الحميد مهري" عضو اللجنة المركزية لحركة الانتصار من أجل الحريات الديمقراطية حقيقة هذه الشهادة، مضيفا لما أورده "بوضياف" بأنّه كان من المفروض حسب خطّة هذه المجموعة أن يبدأ الكفاح المسلح في خريف ١٩٥٣ في المغرب ثم تونس ثم يلتحق الجزائريون بإخوانهم المغاربة والتونسيون، إلاّ أنّ انفجار مستودع صنع القنابل في الأوراس أجّل الانطلاقة إلى غاية نوفمبر ١٩٥٤[٨١].

رغم هذا الحادث فإن الاستعدادات بدأت، وعقدت سلسلة من الاجتماعات في باريس، ساهم فيها زعماء حزب الاستقلال المغربي، وكان مجلس المقاومة المغربي على اتصال بالثوار الجزائريين، وهنالك بعض الأدلّة تشير إلى أنّه كان المأمول تنسيق المعارك الأولى للجيش المغربي، مع الهجمات في منطقة وهران، ولقد أقسم الجنود المغاربة في الجيش غير النظامي أن يموتوا في سبيل استقلال شمال إفريقيا، وأن يحاربوا في سبيل عودة الملك، وقدساهم "علال الفاسي" في لجنة تحرير المغرب العربي مع ممثلين من الجزائر في القاهرة لإقامة مراكز تدريب والتموين والعمليات بالمغرب، فالمركز الرئيس للتدريب كان يقع بالقرب من الناظور في جبال الريف تحت إشراف "العباسي" و"عبد الله الصنهاجي"[٨٢].

ومع انطلاق الثورة الجزئرية حفزت لنجاح هذه الاستراتيجية وهي الكفاح المسلح عبر كامل أقطار المغرب العربي، وفي هذا الإطار تم الاتفاق مع قادة المقاومة في تونس والمغرب الأقصى مع مطلع ١٩٥٥، حول تعميم المقاومة عبر البلدان المغاربية الثلاثة ودعمها للقضية الجزائرية، لكن هذا بقي قيد حبر فقط ولم يطبق على ارض الواقع وهذا راجع إلى قبول كل من بورقيبة ومحمد الخامس باستقلال المشروط مع بداية ١٩٥٦[٨٣].

(٤/٥) ٢-الاتجاه السياسي القطري:

تزعم الاتجاه الثاني داخل لجنة تحرير المغرب العربي رئيس حزب الدستور الجديد "الحبيب بورقيبة" الذي نشط فيما بين ١٩٤٥-١٩٤٨ بالقاهرة، لصالح القضية المغاربية وفق الوجهة القومية العربية، لكنه بعد هذه الفترة نجده قد غيّر منهجه، وأصبح يعمل وفق مناهجه القديمة لصالح القضية التونسية، خاصة بعد خلافاته مع رئيس اللجنة "محمد بن عبد الكريم الخطابي"، الذي فصله من اللجنة، وهذا لعدم انضباطه لروح ميثاق اللجنة، وعيّن بدله "علال الفاسي". يعتبر "بورقيبة" أن حل القضية التونسية يبدأ بمد جسور التفاهم مع الحكومة الفرنسية ورفع القضية إلى هيئة الأمم المتحدة والتلويح بالعمل العسكري دون التعويل عليه في القضاء على العدو عسكريًا، وقبل بورقيبة التفاوض مع السلطات الفرنسية وبمبدأ وقف المقاومة المسلحة بمجرد أن أصدر "منديس فرانس" وعد تونس بمنحها استقلال ذاتيا وتسليم جميع أسلحتها الى فرنسا، وقوبلت هذه السياسة العديد من الانتقادات وانقسم التونسيون الى فريقين بين بورقيبة وصالح بن يوسف، واعتبر الخطابي سياسة بورقيبة التفاوضية خيانة وطعنا بميثاق لجنة التحرير المغرب العربي.

هذا ما نجده أيضًا من جانب المغرب الأقصى. مع "محمد الخامس" و اللجوء إلى الحل السلمي وهو التفاوض مع السلطات الفرنسية خصوصًا بعد أن وعدته بمنح الاستقلال ذاتيًا ورفضه لأي عمل وحدوي مسلح ودخول حزب الاستقلال في مفاوضات رسمية اكس ليبان مع القوات الفرنسية جعلت من الخطابي يرى بأن حزب الاستقلال قد خان الوعود والمواثيق التي وقع عليها في ميثاق لجنة تحرير المغرب العربي، ونتيجة لهذه المعطيات سبب هناك شرخا في صفوف لجنة تحرير المغرب العربي بين أنصار الحل السلمي وأولئك المعولين على الحل العسكري الشمولي، ونجد أن الخطابي قد عبر عن هذه الخلافات بقوله: "لقد كان الخلاف بين الإخوة دائمًا هو السبب في القضاء على كل آمالنا"[٨٤].

وما يلاحظ أنّ التونسيين والمراكشيين كانوا خاضعين لسلطة السلطان وحزب الاستقلال، والتونسيون خاضعين لسلطة بورقيبة، هذا الاتجاه بقي داخل اللجنة رغم إقصاء زعيمه "الحبيب بورقيبة" منه، ببقاء "علي البلهوان"، والذي حل بالقاهرة منذ سنة ١٩٤٨، وبعض الأحزاب المراكشية المحافظة، وكان غير متحمس لفكرة تعميم الكفاح المسلح في المغرب العربي، خاصة مع تطور الأوضاع في كل قطر وانطلاق حركة

المقاومة منذ سنة ١٩٥٢م، وحصول تونس والمغرب الأقصى على وعود سياسية من طرف فرنسا لإجراء مفاوضات معها تفضي إلى استقلال البلدين ونظرًا لهذه المستجدات أصبح هذا الاتجاه يدعو إلى تجديد ميثاق اللجنة، وقد استطاع ممثلوا الأحداث تجاوزت "محمد بن عبد الكريم الخطابي"، لذا توصلوا بواسطة الأمانة العامة للجامعة العربية إلى إبرام اتفاق جديد في يوم ٠٤ أفريل ١٩٥٤ وقعه ممثلو الأحزاب المغاربية ما عدا ممثل حزب الشعب الجزائري، وغاب عن هذا الاجتماع رئيس اللجنة "محمد بن عبد الكريم الخطابي"[٨٥].

ولقد تحدّث رئيس المخابرات المصرية "فتحي الديب" عن الاجتماع، حيث جاء الاجتماع في خطابات رنانة وحاول ممثلوا الأحزاب في أن يظهر كل واحد منهم أنّ حزبه القوة الوحيدة القادرة على تحقيق المعجزات، وذهاب بعضها إلى التشكيك في قدرات الأحزاب الأحرى، ولم يكتف البعض بذلك بل عارض تواجد ممثلي بعض الأحزاب في الاجتماع باعتبارها لا تمثل سوى حفنة أفراد ولا وزن لها في المجالين السياسي أو النضالي، وكان تركيز كل من المراكشيين والتونسيين على المطالبة بالدعم المالي لهما حتى يستقلا ثم يأتي دورهما في تحرير الجزائر.

وتم استكمال الاجتماع في مساء اليوم وذلك للاستماع إلى بقية ممثلو الأحزاب الأخرى ومنها الأحزاب الجزائرية، حيث تدخل الشاب الجزائري في هذا الاجتماع والذي فاجئ الجميع، وقد تلخصت كلمته الواقعية والمنطلقة من أعماقه في صدق وإخلاص وذلك من خلال رفضه المطلق للحزبية المقيتة والتحزب الضيق والتي لم تنجح في تحقيق أي مكسب لشعوبهم طالما بقوا على النضال السياسي، وأنّ ما تم الاستماع له من قبل ممثلو الأحزاب وبلا استثناء لا يتسم بالجدية والصدق والاخلاص وأنّ كل مساعيهم ترمي للحصول على المال[٨٦].

ويرجع "عبد الحميد مهري" موقف الطرفين المغربي والتونسي حول قضية توحيد العمل المسلح بالمغرب العربي إلى وجود اختلاف أساسي في تصور المعركة مع الاستعمار الفرنسي، وكان حزب الاستقلال وحزب الدستور الجديد يعتمدان أساسا على العمل السياسي في الداخل والخارج، في حين كان حزب الشعب الجزائري-حركة الانتصار للحريات الديمقراطية يعمل على توحيد المعركة في المغرب العربي، حيث اقترح الوطنيون الجزائريون على شركائهم التونسيين والمراكشيين إلى تكوين منظمات شبه عسكرية مثلما هي في الجزائر، لكن هذا المقترح قوبل بالرفض، وكان من نتائجه أنّ انطلاق المقاومة المسلحة في المغرب العربي كان غير متزامن وغير منسق، ففي تونس بدأت بمبادرات فردية ثم عممت بدءا من مارس ١٩٥٤، أما في المغرب الأقصى بدأت حركة المقاومة بعد خلع الملك "محمد الخامس" في أوت ١٩٥٣[٨٧]. وفي هذه الفترة كان حزب الشعب الجزائري-حركة انتصار للحريات الديمقراطية- غارقا في أزمة داخلية بين المركزيين والمصاليين كادت أن تعصف بالنضال الوطني لولا أعضاء المنظمة الخاصة الذين سارعوا إلى التحاق بركب الحركة الثورية في تونس والمغرب الأقصى، بعد تفجيرهم لثورة الفاتح نوفمبر ١٩٥٤، وعندها وجدت فرنسا نفسها تخوض حرب حقيقية في كل أقطار المغرب العربي، وبذلك سارعت في فتح المفاوضات مع كل من تونس والمغرب الأقصى والتي انتهت بمنحهما الاستقلال الذاتي سنة ١٩٥٦، وبذلك نجحت فرنسا في تفويت الفرصة على العناصر الثورية التي كانت تؤمن بالعمل المسلح كحل وحيد لتحقيق الاستقلال التام للمغرب العربي.

خاتِمَةٌ

لقد أكدت الأقطار المغاربية على بعدها الوحدوي واعتبرت قضايا المغرب العربي قضية واحدة، وكانت آمالها في حل شامل يحقق استقلالها التام ووحدتها، وأكدت أنّ هذا المطمح لا يتحقق إلا بوحدة حركات التحرر بالأقطار المغاربية في مواجهة العدو المشترك، وتجسد ذلك غداة الحرب العالمية الثانية في تلك الحركات الاستقلالية التي عملت جاهدة على تنسيق جهودها وتكريس شعاراتها والتعاون فيما بينها ونادت بضرورة العمل المشترك، واجتهدت في تثمين جهود التنسيق التي أرستها منذ ١٩٢٦ بداية بتأسيس نجم شمال إفريقيا ثم فيما بعد تم تأسيس جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية ثم مكتب المغرب العربي بالقاهرة وفيما بعد لجنة تحرير المغرب العربي، حيث أثر هذا النضال الوحدوي ما بين دول المغرب العربي على المستعمر الفرنسي، غير أنّ الانشقاق الذي حدث داخل لجنة تحرير المغرب العربي من خلال ظهور اتجاهين مختلفين: اتجاه بقيادة عبد الكريم الخطابي يدعو إلى الكفاح المسلح ومغربة الحرب في كامل المغرب العربي، واتجاه ثاني بقيادة الحبيب بورقيبة يدعو إلى الكفاح السياسي القطري، وكان من نتائجه أنّ انطلاق المقاومة المسلحة في المغرب العربي كان غير متزامن وغير منسق، ففي تونس بدأت بمبادرات فردية ثم عممت بدءًا من مارس ١٩٥٤، أما في المغرب الأقصى بدأت حركة المقاومة بعد خلع الملك "محمد الخامس" في أوت ١٩٥٣، وفي هذه الفترة كان حزب الشعب الجزائري-حركة انتصار

للحريات الديمقراطية- غارقا في أزمة داخلية بين المركزيين والمصاليين، فأعضاء المنظمة الخاصة سارعوا إلى التحاق بركب الحركة الثورية في تونس والمغرب الأقصى وتفجير الثورة التحريرية في نوفمبر ١٩٥٤، فوجدت فرنسا نفسها أمام تخوض حرب في كل أقطار المغرب العربي، وبذلك سارعت في فتح المفاوضات مع كل من تونس والمغرب الأقصى والتي انتهت بمنحهما الاستقلال الذاتي سنة ١٩٥٦.

الاحالات المرجعية:

(١) محمد علي داهش، **دراسات في الحركات الوطنية والاتجاهات الوحدوية في المغرب العربي**، منشورات اتحاد الكتاب العرب، كلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة الموصل، دمشق، ٢٠٠٤، ص ٠٧.

(٢) محمد بلقاسم، **وحدة المغرب العربي فكرة وواقعا ١٩٥٤-١٩٧٥**، رسالة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، ٢٠٠٩.

(٣) علال الفاسي، **الحركات الاستقلالية في المغرب العربي**، ط١، مطبعة الرسالة، الرباط، ١٩٨٠، ص١١.

(٤) الميلي محمد، **المغرب العربي بين حسابات الدول ومطامح الشعوب**، ط١، دار الكلمة للنشر، بيروت، لبنان،١٩٨٣، ص٨٣.

(٥) مقلاتي عبد الله، **العلاقات الجزائرية المغاربية والإفريقية إبّان الثورة الجزائرية**، ط١،ج١، دار السبيل للنّشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٩، ص ص٢٢-٢٣.

(٦) العايب معمر، **مؤتمر طنجة المغاربي، دراسة تحليلية تقييمية**، دار الحكمة، الجزائر، ٢٠٠٩، ص٤٩.

(٧) علال الفاسي، المصدر السابق، ص٤٤.

(٨) العايب معمر، المرجع السابق، ص ص٢٤-٢٥.

(9) الجابري محمد عابد، **فكرة المغرب العربي أثناء الكفاح من أجل الاستقلال**، في وحدة المغرب العربي (ندوة)، ط١، بيروت، جانفي، ١٩٨٧، ص١٨.

(١٠) الفاسي علال، المصدر السابق، ص١١.

(١١) العمري مومن، **شعر الوحدة ومضامينه في المغرب العربي أثناء فترة الكفاح الوطني**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والعاصر، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الانسانية، قسم التاريخ، جامعة قسنطينة، ٢٠٠٩-٢٠١٠، ص ١١٤.

(١٢) محمد مالكي، **الحركات الوطنية والاستعمار الفرنسي في المغرب العربي**، ط٢، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٤، ص ٢٧٣.

(١٣) محمد بلقاسم، **الاتجاه الوحدوي في المغرب العربي (١٩١٠-١٩٥٤)**، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، ١٩٩٤، ص ص٢١٧-٢١٨.

(١٤) العمري مومن، المرجع السابق، ص١١٥.

(١٥) قدّمت تواريخ مختلفة لنشأة النجم فيما بين فيفري وجوان ١٩٢٦. انظر: محمد بلقاسم، المرجع السابق، ص٥٧.

(١٦) أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية ١٩٣٠-١٩٤٥**، ج٣، ط٤، دار الغرب الاسلامي، بيروت،١٩٩٢، ص١١٧.

(17) Mohamed guenaneche, le movement d'indépendance en algerie entre les deux guerres (1939-1945) tuaduit de l'arabe par sidahmedbouali, enal, alger 1990 ,p35.

- بن يامين سطورا، **ميصالي الحاج ١٨٩٨-١٩٧٤ رائد الوطنية الجزائرية**، دار القصبة للنشر، الجزائر،١٩٩٩،ص55.(١٨)

(١٩) محمد بلقاسم، المرجع السابق، ص٥٧.

(20) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص١٢٢

(٢١) عبد الرحمن بن العقون بن إبراهيم، **الكفاح القومي والسياسي (١٩٢٠-١٩٣٦)**، ج١، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤، ص ١٢٢.

(٢٢) العايب معمر، المرجع السابق، ص ص٢٨-٢٩.

(٢٣) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص١١٩.

(٢٤) العمري مومن، المرجع السابق، ص١١٨.

(25) عائدي نوري، **العلاقات الجزائرية المغاربية أثناء الثورة التحريرية**، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجيستر في التاريخ، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، (د.ت)، ص ١٠.

(٢٦) عبد الحميد زوزو، **دور المهاجرين الجزائريين بفرنسا في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين ١٩١٩-١٩٣٩**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٥، ص ٧٠.

(٢٧) من مواليد ١٦ ماي ١٨٩٨ بتلمسان من عائلة فلاحيه، توجه لآداء الخدمة العسكرية مع الجيش الفرنسي ١٩١٨، وبعد الحرب العالمية الأولى هاجر إلى فرنسا وهو في سن ٢٥ وأصبح تاجرًا متنقلاً وأنشأ حزبا سياسيا رفقة المهاجرين، عرف بنجم شمال إفريقيا ١٩٢٦، وبعد حلِّ النجم شكّل حزب الشعب ١٩٣٧، وأثناء الحرب العالمية الثانية سجن عدة مرات ونفي إلى لمبيز ثم برازافيل، وخرج من السجن بعد قرار العفو الشامل سنة ١٩٤٦ وفي نفس السنة شكل حركة الانتصار للحريات الديمقراطية، ثم وُضِع تحت الإقامة الجبرية سنة ١٩٥٢، وعند اندلاع الثورة التحريرية بقي معارضا للعمل المسلّح وشكّل الحركة الوطنية المصالية ضد جبهة التحرير ولم يدخل بعد ذلك الجزائر إلى غاية وفاته يوم ٠٣ جوان ١٩٧٤. يُنظر: بنيامين سطورا، **مصالي الحاج ١٨٩٨-١٩٤٧ رائد الوطنية الجزائرية** -دار القصبة للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٧.

(٢٨) كان لحزب الشعب الجزائري ٣٨ خلية عام ١٩٣٩ يُنظر:
Claude Collot, Parti Peuple Algérien (mars 1937-février1947),R .A .S .J .E .P.n=(0) 1.mars1971, p, p: 145-146.

(29) Claude Collot, Op,Cit :p,p142,144.

(٣٠) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص١٤٤.

(٣١) محمد بلقاسم، "**طلاب الوحدة جمعية طلبة شمال إفريقيا**"، مجلة الرؤية، عدد٠٣، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، الجزائر، ١٩٩٥، ص١٥.

(٣٢) اختلف الكتاب حول تاريخ نشأة جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا، فقد ورد أنّها نشأت لأول مرّة سنة ١٩١٢ بالجزائر العاصمة، وذكر كتاب أنّها نشأت سنة ١٩٢٧ بباريس، وبدأت تعقد مؤتمرات سنوية ابتداء من سنة ١٩٣١، وأنّ الذي أنشأها هو المراكشي أحمد بلافريج، الطالب بجامعة السربون ومواطنه محمد الفاسي، ويذكر كاتب آخر أنّ جمعية الطلبة تأسست سنة ١٩١٩ بالجزائر باسم " رابطة الطلبة الأهالي" وتغير اسمها إلى "جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا" سنة ١٩٢٦، وكان يتزعمها السيد فرحات عباس إلى سنة ١٩٣١، وهو تاريخ بداية مؤتمراتها السنوية، وكانت هذه الجمعية في تيار "فكرة الاندماج"، أما أبو القاسم سعد الله فيذكر أنّ جمعية الطلبة، قد تكونت بالجزائر خلال العشرينات قبل ١٩٢٨، وكان لها مجلة دورية تسمى (التلميذ)، انظر: محمد بلقاسم، **الاتجاه الوحدوي في المغرب العربي (١٩١٠-١٩٥٤)**، المرجع السابق، ص١٩١.

(٣٣) بية نجاة، **الطلبة الجزائريون وثورة التحرير الوطني**، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، الجزائر، (د.ت)، ص٠٨.

(٣٤) محمد بلقاسم، **الاتجاه الوحدوي في المغرب العربي (١٩١٠-١٩٥٤)**، ص ١٩٣.

(٣٥) محمد مالكي، المرجع السابق، ص٢٩٨.

(36) Pevrillé Gay, entretien avec le chercheur au cour de stage en France univ.
Le Mirail, Toulouse, France 2007/2008.p91.

(٣٧) العمري مومن، المرجع السابق، ص١٣٥.

(٣٨) الجابري محمد عابد، المرجع السابق، ص١٩.

(٣٩) الميلي محمد، **وحدة المغرب العربي**، مجلة المستقبل، العدد ٤٩٠، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٦، ص٠٣.

(40) Pevrillé Gay, op cit, p90-91.

(٤١) العمري مومن، المرجع السابق، ص١٣٧.

(٤٢) للمزيد من التفاصيل عن هذه المؤتمرات انظر: أمحمد مالكي، المرجع السابق، ص ص٣٠٨-٣٢٠.

(٤٣) العايب معمر، المرجع السابق، ص٤٤.

(٤٤) نفسه، ص٤٥.

(٤٥) مقلاتي عبد الله، **دور المغرب العربي وإفريقيا في دعم الثورة الجزائرية**، ط١،ج2، دار السبيل للنشر، الجزائر، ٢٠٠٩، ص ص٢١٠-٢١١.

(٤٦) عامر رخيلة، **الثورة الجزائرية والمغرب العربي**، مجلة المصادر، العدد ٠١، القرص المضغوط الصادر عن المركز الوطني للدراسات والبحث في تاريخ الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، الجزائر، ٢٠١٠.

(٤٧) الفضيل الورتلاني، **الجزائر الثائرة**، ط٣، دار الهدى، الجزائر،١٩٩١، ص٢٧٦، وانظر: نزار المختار، **وحدة المغرب العربي الفكرة والتطبيق ١٩١٨-١٩٥٨**، ط١، الدار التونسية للكتاب، تونس،٢٠١١، ص٧٩.

(٤٨) الرشيد إدريس، **ذكريات عن مكتب المغرب العربي في القاهرة**، الدار المصرية للكتاب، تونس، ١٩٨١، ص ١٣-١٤.

(٤٩) الفاسي علال، المصدر السابق، ص٢٦٩.

(٥٠) أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص٢٤٣.

(٥١) الورتلاني الفضيل، المصدر السابق، ص ص٢٨٤-٢٨٦.

(٥٢) نفسه، ص٢٨٠.

(٥٣) نفسه، ص٢٩١.

(٥٤) نفسه، ص٢٨٣.

(٥٥) محمد بلقاسم، **الاتجاه الوحدوي في المغرب العربي (١٩١٠-١٩٥٤)**، ص ٣٢٩.

(٥٦) بلقاسمي بوعلام، **مكتب المغرب العربي ١٩٤٢ – ١٩٤٧ – تطور تيار العمل المغاربي الموحد بين برلين والقاهرة**، الندوة المغاربية "وحدة المغرب العربي" في ذاكرة حركات المقاومة وجيش التحرير، الرباط، ٢٤ /٢٦ يناير ٢٠٠٢ الموافق لـ ١٠/١٢ ذو القعدة ١٤٢٢هـ، منشورات مجلة الذاكرة الوطنية، ٢٠٠٢، ص٦٠.

(٥٧) امحمد مالكي، المرجع السابق، ص٣٢٨.

(٥٨) بن عبود أمحمد، **مكتب المغرب العربي في القاهرة - دراسات ووثائق**-، منشورات عكاظ، الرباط، ١٩٩٢، ص٣٣.

(٥٩) القادري أبو بكر، **مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية**، مؤتمر طنجة لوحدة المغرب العربي. أبريل ١٩٥٨، مطبعة النجاح الجديدة، الجزء الثالث، الدار البيضاء، ٢٠٠٠، ص٠٩.

(٦٠) العايب معمر، المرجع السابق، ص٤٩.

(٦١) محمد الصافي، **المغرب العربي وتجارب الوحدة النضالية المشتركة وأثرها على السياسة الفرنسية**، مجلّة الذاكرة الوطنية، العدد٢٢، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين واعضاء جيش التحرير، الرباط، المغرب ٢٠١٣، ص١٠٣، وانظر أيضًا: أبو بكر القادري، **مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية**، مؤتمر طنجة لوحدة المغرب العربي ابريل ١٩٥٨، مطبعة النجاح الجديدة ج٣، الدار البيضاء، ٢٠٠٠، ص١٠ .

(٦٢) الرشيد إدريس، المصدر السابق، ص١٠١-١٠٣.

(٦٣) نفسه، ص، ٨٧- ٨٨.

(٦٤) محمد بلقاسم، المرجع السابق، ص٣٧٦.

(٦٥) امحمد مالكي، المرجع السابق، ص٤٥٣-٤٥٤.

(٦٦) محمد ابن عبود، "**مؤتمر المغرب سنة ١٩٤٧ وبداية نشاط مكتب المغرب العربي في القاهرة، عملية ابن عبد الكريم الخطابي**"، المجلة التاريخية المغاربية، العددان ٢٥-٢٦، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، جويلية ١٩٨٢، ص١١.

(٦٧) محمد بلقاسم، المرجع السابق، ص٣٧٦.

(٦٨) بن عبود أمحمد، مكتب المغرب العربي في القاهرة ـ دراسات ووثائق، منشورات عكاظ، الرباط، ١٩٩٢، ص، ١٠-١١

(٦٩) بن عبود محمد، "**الجذور التاريخية لوحدة المغرب العربي، مكتب المغرب العربي في القاهرة نموذجًا**"، مجلة الذاكرة

الوطنية، عدد خاص، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين واعضاء جيش التحرير، الرباط، المغرب، ٢٠٠٢، ص٥١.

(٧٠) محمد بلقاسم، المرجع السابق، ص١٤٩.

(71) Mahfoud keddache, histoire de natioualismealgerienne, 2eme ed: E.N.L, alger, tome2 annex, N°:49, p983 .

(٧٢) محمد بلقاسم، **الاتجاه الوحدوي في المغرب العربي (١٩١٠-١٩٥٤)**، المرجع السابق، ص ٣٧٩.

(٧٣) محمد التازي، **الوطنيون ببلدان المغرب العربي**، مجلة الذاكرة الوطنية، عدد خاص، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين واعضاء جيش التحرير، الرباط، المغرب، ٢٠٠٢، ص١٥٥.

(٧٤) زكي مبارك، **محمد بن عبد الكريم الخطابي وحركة التحرر المغاربية (١٩٤٧-١٩٥٦)**، محاضرة منشورة في أعمال الملتقى الدولي التاسع حول تصفية الاستعمار بتونس، الأطوار والأبعاد ١٩٥٢-١٩٦٤، المنعقد بنزل بور سعيد أيام ٠٨-٠٩ ماي ١٩٩٨، تونس ١٩٩٩، ص١٨.

(٧٥) محمد علي داهش، **دراسات في الحركات الوطنية والاتجاهات الوحدوية في المغرب العربي**، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٤، ص١٨٠.

(٧٦) محمد الدرويش، **الوحدة المغاربية في ذاكرة الحركات الوطنية والتحريرية**، سلسلة دراسات وأبحاث رقم ٧، منشورات فكر، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، ٢٠٠٨، ص١١٥.

(٧٧) بوجمعة أكرم، **محمد بن عبد الكريم الخطابي ودوره في تحرير المغرب العربي (تونس، الجزائر، المغرب الأقصى)**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في تاريخ المغرب العربي الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة تلمسان، ٢٠١٦-٢٠١٧، ص ص٢٩٦-٢٩٧.

(78) Harbi Mohamed, le F.L.N MIRAGE ET REALITE ORIGNES A LA PRISE DU POUVOIR 1945 -1962, JEUN AFRIQUE, PARIS, 1985, PP. 54 .55.

(٧٩) عبد الحميد مهري، **مسألة الانتقال إلى الكفاح المسلح، جيش التحرير المغاربي ١٩٤٨-١٩٥٥**، أعمال ملتقى مؤسسة محمد بوضياف المنعقد بالجزائر، ١١-١٢ ماي ٢٠٠١، الجزائر، ٢٠٠٤، ص٤٦.

(٨٠) **شهادة محمد بوضياف في جريدة الشعب**، العدد ٧٧٨٦ و ٧٧٨٧ ليومي ١٦و١٧ نوفمبر ١٩٨٨، ص٠٥، وانظر:

Mohamed boudiaf, la preparation de 1er nouvembre in memoria magazine n°01, le magazine de l'histoire, ed: rahama,Alger,1997, pp03-29.

(٨١) **شهادة عبد الحميد مهري لجريدة الشعب**، العدد ٧٧٨٦ و ٧٧٨٧ يومي ١٦و١٧ نوفمبر ١٩٨٨، ص٠٥.

(٨٢) دوغلاس أي أشفورد، **التطورات السياسية في المملكة المغربية**، تر: عائدة سليمان عارف، أحمد مصطفى أبو حاكمة، الدار البيضاء، ١٩٦٣، ص٢١٨.

(٨٣) العايب معمر، المرجع السابق، ص٦٠.

(٨٤) بوجمعة أكرم، المرجع السابق، ص٣٠٠.

(٨٥) العايب معمر، المرجع السابق، ص٦١-٦٣.

(٨٦) الديب فتحي، **عبد الناصر وثورة الجزائر**، ط١، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٨٤، ص٢٤-٢٦.

(٨٧) العايب معمر، المرجع السابق، ص٦٤-٦٥.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

الصحافة الإصلاحية في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية الفرنسية
جرائد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أنموذجًا



د. معيوش براهيم
دكتوراه العلوم من جامعة الجزائر(٢)
أستاذ بجامعة سطيف (٢)
الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

لقد أسفرت القفزة المُتطورة التي حققتها المجتمعات الحديثة في أكثر من صعيد عن ظهور الصحافة التي تُعَدّ الجرائد من أهمّها، كونها تتيح مجالاً واسعًا للحديث عن ما يُرافق المجتمع من أزمات ومشاكل وأنها أيضا قنوات لنقل الأخبار وتبادل الأفكار، لكن على الرغم من أهميتها إلاّ أنّ الجزائر لم تعرف هذه الظاهرة إلا مع مطلع القرن العشرين أين توالى صُدور الصحف على أيدي الأفراد والأحزاب السياسية والجمعيات الثقافية والدينية تنوعت حسب مجالات اهتمامها من بينها الجرائد التي أصدرتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وهي كلها ذات طابع ديني تمّ اعتمادها كوسيلة فعّالة لتنمية العُقول من خلال إلقاء القارئ في بحر من الأفكار الدينية الإصلاحية وقد استطاعت أنْ تجد بابًا مفتوحًا إلى الجزائريين حيث شدّت أنظارهم وكانت لهم بمثابة شُعلة تُضيء الطريق أمامهم والاستعمار مُخيّمٌ عليهم بظلمه وظلامه. وقد اتضح أنّ الجرائد الإصلاحية التي أصدرتها جمعية العلماء المسلمين في ظروف قاسية جدًا بصرف النظر عن قوة التأثير أو ضعفه تُعدُّ مرجعًا من مرجعيات العظة العقلية والرُوحية وكذلك غطاءً واقيًا من تظليلات وتطلُّعات الايدولوجيا الاستعمارية لصبّها كل الاهتمام على نشر الوعي الديني وأخبار العالم الإسلامي برُمته، وكذلك لدعوتها أفراد المجتمع الجزائري إلى الدفاع عن ثوابته وقيّمه وأصالة تُراثه بنشر المقالات والخُطب التي تُهيّئُهم نفسيًا للتخلّص من سيطرة موجة الفرنسة والتغريب ويهتدي إلى الطريق الذي يُمكّنه من الخطو بخطوات ثابتة نحو النهضة يكون أساسها العلم الصحيح والإيمان بالذات والعودة إليها.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٠٧	ديسمبر	٢٠٢٠
تـاريخ قبـول النشـر:	١٥	فبراير	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

الصحافة؛ الجرائد الإصلاحية؛ جمعية العلماء المسلمين؛ الحقبة الكولونيالية؛ تاريخ الجزائر الحديث

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/KAN.2021.221898

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

معيوش براهيم، "الصحافة الإصلاحية في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية الفرنسية: جرائد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أنموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الحادي والخمسون؛ مارس ٢٠٢١. ص ١٣١ – ١٣٨.

Corresponding author: mayouchebrahim@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

ظهر للوجود بالجزائر مع مطلع القرن العشرين ذات توجه ديني إسلامي عني أصحابها بنشر التيار الإصلاحي بمعانيه الواسعة، وقد عرفت نشاطًا وتطورًا مستمرين حتى تمَ تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مطلع الثلاثينيات أين استطاع المبادرون بها استجماع الجهود فأصدروا عدة جرائد أرادوها لتكون منابع فكرية تثقيفية صافية تُصحح عقائد الجزائريين الدينية وتُعلَمهم التشبث بثقافتهم والدفاع عنها، لكن لم يكن للإدارة الاستعمارية أن تترك هؤلاء ينشطون بحرية تامة حيث كانت تلك الجرائد تُصادر مخافة أن يصل صداها إلى الجماهير الشعبية، وسنحاول من خلال هذا المقال الوقوف عند حقيقة تأثيرها على الجزائريين من خلال الإجابة عن بعض الأسئلة كانت ولا تزال تدور في أذهان ذوي النزعة التشكيكية القائلين بنفعها المُحجم لخُروجها عن المسار الذي تطلّع إليه طاقمها من جهة، ومن جهة أخرى في أذهان المُغالين في فكرة شدة تأثيرها باعتبارها مُنعرجًا حاسمًا في تاريخ الصحافة بالجزائر وأنّها كانت بمثابة مدرسة للبناء الحضاري الفكري الأصيل، لكن قبل ذلك رأينا أن نشير إلى عنصرين إثنين نتحدث في أولهما عن الصحافة الناطقة باللغة العربية بالجزائر في تلك الفترة المأزومة، ثم نذكر الجرائد التي أصدرتها الجمعية في تلك الظروف القاسية، لننتهي في الأخير بتقييمها وبيان مدى تأثيرها على أفراد المجتمع الجزائري.

أولاً: الصحافة الناطقة بالعربية في الجزائر إبان الحقبة الكولونيالية

لم تشهد الجزائر ظُهور الصحافة الناطقة بالعربية إلا مع بداية القرن الماضي حيث ظهرت بعض الأقلام الصُحُفية التي جنّدها أصحابها ليخُوضُوا بها الخُطُوب في نقد الإدارة، ولقد استطاع هؤلاء أنْ يفتحُوا صفحات جديدة من تاريخ الصحافة بالجزائر ففي فترة ما قبل الحرب العالمية الأُولى شهدت البلاد بُرُوز صُحف عربية اللّسان والأفكار كانت أكثريتُها تصدُر بالعاصمة كصحيفة المغرب النصف أسبوعية التي أثني عليها المُصلح مُحمد عبده أثناء زيارته للجزائر قائلاً: "إنَها تُمثل بالنسبة للجزائريين شُعاعا مُضيئا نظرا لحرمانهم من الصُحف الناطقة باسمهم وبلُغتهم القومية[1]، وجريدتي عمر راسم أحد المُصلحين الجزائريين المعرُوف بصوته الجريء على الاستعمار وبيّن مكيدته في السعي لفرنسة الجزائر ومحو هوّيتها، صدرت الأولي منها بتاريخ السابع عشر من شهر أكتوبر ١٩٠٨م بعنوان "جريدة الجزائر" ولم يصدر منها إلاّ عددان فقط ليُعاود الكرّة بعد خمس سنوات بإصداره جريدة " ذو الفقار" جاء في افتتاحية عددها الأوّل ما يلي :"ذو الفقار يُبارز الأغنياء المُقصرّين الذين يُريدون أنْ يجعلوا مخلُوقات الله وأنظمة الكون آلات يستجلبون بها منافع لهم[2]، ونشر مثل هذا الكلام التهجُّمي الحاد على الاستعمار وأذنابه من الخُدام الخاذلين للأمة كان داعيا كافيا لتفقد الإدارة صوابها وينفذ منها صبرها على هذه الجريدة فأسكتتها بعد صُدور العدد الرابع فقط[3]، ثُم بعيدًا عن العاصمة وبالتحديد في قسنطينة وتقريبا في نفس الفترة صدرت جريدة " النّجاح" وقّع شهادة ميلادها عبد الحفيظ بن الهاشمي واشترك معه ابن باديس في تأسيسها والكتابة فيها لينفصل فيما بعد عنها[4] وفي نفس السنة صدرت صحيفة شهرية بالعاصمة على يد عمر بن قدور بعنوان "الفاروق" واستمر صدورها لمدة عامين ثم تبعتها صحف أخري كالصدّيق ولسان الدين والإقدام وكلها كانت تنشُر مقالات سياسية واجتماعية ودينية تختلف باختلاف حرارة وحماسة مؤسسيها[5].

انطلاقًا من أنّ لكل جريدة شخصية تُميّزها عن غيرها من الصُحف وتُحدّد سياستها التحريرية من جهة وجُمهُور القُرّاء الذي تُخاطبه من جهة أخرى، فإن عشرينيات القرن الماضي عرفت فيها الصحافة الجزائرية نوعا جديدا من الصُحف وهي الصحف الإصلاحية ذات التوجه الديني التي حاولت منذ نشأتها أنْ تعكس ما يمُر به المجتمع الجزائري من أحداث وما يستجديه العالم من تغيُّرات وقد كانت تلك الصحف بمثابة لسان حال البلاد يُعبّرُ عن حاضرها ويتطلع إلي مُستقبلها، والحديث عن هذا النوع من الجرائد نستهلُه بجريدة المُنتقد التي صدرت في منتصف العشرينيات، أسّسها عبد الحميد ابن باديس لتدعو إلي النهضة بأسلوب وحماس واضحين وقد توقّفت بعد أربعة أشهر بقرار من وزارة الداخلية[6]، لتخلفها جريدة الشهاب التي تزامن ظُهور أعدادها الأولى مع فترة مُحاولة تأسيس الجمعية الإصلاحية المرجُوّة ما جعلها مُهتمة بالحديث في صفحاتها عن كُلّ ما يتعلُق بأعمال المُقتنعين بالإصلاح، ولعّل أبرز ما قدّمته هذه الصحيفة من نفع للمجتمع الجزائري هي نقلها لدروس التفسير القرآني والحديث النبوي الشريف التي كان يُقدّمها رئيس الجمعية ابن باديس بعنوان " مجالس التذكير من كلام البشير النذير"[7]، وفي نفس الفترة ظهرت صحيفتان إسلاميتان في بسكرة ظهرت الأولي سنة ١٩٢٥م تحت عنوان "صدى الصحراء" وكان رئيس تحريرها أحمد بن عابد العُقبي وبعد توقُفها صدرت في نفس الولاية الجريدة الثانية حملت عنوان جريدة "الإصلاح" أنشاها

الشيخ الطيب العُقبي عام١٩٢٧م ولم يصدر منها سوى بضعة أعداد لظُروف مادية بحتة[٨]، وعلى العُموم فإن العُشرية الثانية من القرن الماضي مثلّت أرضية خصبة ظهرت فيها العديد من الصُحف الدافعة في تيّار الإصلاح كالمرصاد والليالي وأبو العجائب والوفاق والحارس والدّفاع التي كانت تصدر باللغة الفرنسية[٩]، وقد كان هذا النوع من الصحافة يدعو إلي العلم والعمل اللذين يُعيدان للعربية بعضا من تاريخها العامر في بُطون الكُتب المهجُور من أبنائه ،وقد تعرّضت كلها في صفحاتها إلي كل ما يُحي الضمائر والنُفوس، ففي شأنها وبيان قيمتها وأهميتها قال أحمد الشادلي صاحب مجلّة "الإسلام" ما يلي :"إنّ هذه الجرائد لها من الفضل ما يضيقُ عن حصر نطاقه بيانُ كاتب وقلمُ شاعر إذ هي مصباح ُالنُّهُوض ورائد الأمة، ربّت بنين وبنات هذّبت شُيُوخا ورجال وهي السبب الأكبر للنُّهُوض[١٠].

ثانيًا: الجرائد الإصلاحية التابعة للجمعية

تُعتبر العشرينيات من القرن الماضي طورًا تمهيديًا للصحافة الإصلاحية في الجزائر وقد استطاع ابن باديس مع بعض من العناصر الذين إلتفّوا حوله ممن يُمكن اعتبارهم آنذاك من خيرة الأقلام العربية في الجزائر تأسيس صحيفتّي "المنتقد والشهاب" لكن سُرعان ما تعرّضتا للغلق ومنع الصُدور وبقي الأمر على حاله حتى التأسيس الفعلي للجمعية وتلّقيها المُوافقة على نشاطها من طرف الإدارة الاستعمارية، ولما كانت الصحافة ظاهرة حضارية تُواكب تطوُر المجتمعات وتعكس صُورها مُؤثّرة ومُتأثّرة بحركة هذا التطوُر ولها من الوزن والقيمة ما ليس هو بخاف عن رجال الجمعية عاودا التفكير من جديد في إصدار صُحف لتسهم وتضطلع بدور هّام في تمرير أفكار التيّار الإصلاحي إلى أفراد المجتمع الجزائري، وبالفعل بعد مرور سنتين من التأسيس أصدرت الجمعية أولى صُحفها تحت عنوان "السنة النبوية" لتجتهد في تعبئة النُفوس برُوح المُقاومة ومُناهضة الاستعمار، ولكن هيهات لفرنسا أنْ تسمح بذلك وفي الأُفق بدأ المُثقفون بالثقافة العربية هُجومهم بسلاح الكلمة إذ من دون إخطار لجأت مباشرة إلى غلقها بعد أنْ صدر منها آخر عدد بتاريخ ١٠ربيع الأول من سنة ١٣٥٢هـ[١١]، خشية أنْ تُخلخل عقول الجزائريين التي استسلمت لمخدّر الأفكار السّامة الهدّامة.

وفي السنة نفسها تمّ إصدار جريدة جديدة لتُشييع الاتجاه الإصلاحي ولتُحارب البدع التي تروّجها الحركة المرابطية أُختير لها اسم "الشريعة النبوية "للدلالة على احتفائها بالعقيدة الصحيحة، لكنها توقفت هي أيضًا بعد مُدّة لا تتجاوز الأربعين يوما لتكون أقصر الجرائد عُمرا وطبعا لم يكُن ذلك من تلقاء نفسها أو لغيّاب مصادر التمويل التي تُساعدها على التطور والروّاج ليبلغ صداها القرّاء وإنما بقرار من الحُكومة الفرنسية التي رأت في لهجتها نوعًا من التهجّم والانتقاد لها، ثالث الصحف التي استطاعت الجمعية إصدارها على الرغم من المُضايقات هي "الصراط السوّي" التي صدر منها سبعة عشر عددًا ظهر أوّلها بتاريخ ١١ ديسمبر١٩٣٣م واستمرت في الصدور حتى الثامن من جانفي ١٩٣٤ماي[١٢]، وكان السبب في منعها من الصُدور أيضًا إحدى القرارات التعسُّفية للإدارة التي لا تتحمّل لا نقدًا ولا مُعارضة، وبطبيعة الحال كان على الإدارة أثناء غلق هذه الجرائد التحجّجُ بأنّ تلك الصحف خالفت القوانين المعمُول بها، وأنها أيضًا مخيّبة لآمال الحكومة إلى حدّ بعيد لنشر شائعات فيها عند الأهالي تجعلهم يفقدون ثقتهُم بالإدارة، فيدخُلون بذلك الحقل السياسي الذي أشارت الجمعية في مبادئها لأول عهدها من أنّها ستظّل بعيدة عنه وكأنّ الفرنسيين بهذا كانوا يتوهّمُون بأنّ تلك الجرائد ستتضمّنُ أراءً وأقوالاً تجهرُ بأنّ كل الأمور في الجزائر تسير على نحو جيّد ووتيرة مقبُولة.

وقد بقيت الجمعية بلا جرائد وفقدت صلتها بالقُرّاء ما يُقارب سنتين كاملتين وعلى الرغم من أنّها ألفت سياسة الجُور هذه والمعاملة السيّئة بوضع جرائدها تحت المجهر ومنعها من مُمارسة نشاطها في حرية دون ضغوط إلا أنّ هذه المرة تمّ العمل على قمعها بأعلى الوتائر لتبديد كل الأوهام حول فرص الإصلاح فكانت الضربةُ قوية إذ عقب قرار التوقيف هذا أصدرت الحكومة التي كان يترأسها (جون ميرانت) قرارًا آخر في منتهي التعسُّف وهو حرمان الجمعية مهما كان الحال من إصدار صحيفة لها أو باسمها مُستقبلاً إلى حين إشعار آخر، وما كان لهذا أنْ يُثبّط من عزيمة رجال الجمعية حيث بقيت أعينُهم على الدوّام شاخصة إلى الأُفق يتحيّنُون الفُرص لإسقاط القنّاع عن الاستعمار ومطالبته بوقف مُمارسته الوحشية وكذلك في تثوير الفكر الرّاكد والوعي المُغتال لأفراد المجتمع الجزائري، حتى جاءت الفُرصة الحاسمةُ برحيل (ميرانت) من على رأس الولاية العامة واستخلافه بمدير جديد(ميو) فاستغّل ابن باديس وفريقه الحدث وقدّموا لهذا الأخير طلبا يتضّمنُ منحهم الحقّ في إصدار جريدة وعبّروا له في طلبهم أنّ القصد هو العناية بتربية الشعب وتهذيبه وتعليمه لغته بعيدا عن السياسة فمنحهم الفُرصة التي أملوا في الحُصول عليها لتظهر جريدة "البصائر" في سبتمبر ١٩٣٥م[١٣]، تزامنا مع إحدى كُبريات شعائر المُسلمين وهي عيد الفطر ليكون لها وقعٌ حسنٌ في نُفُوس المُقتنعين بالتيّار

الإصلاحي فقد جاء في عددها الثاني ما يأتي "استلمنا الرُّخصة بإصدار البصائر في الأسبوع الأخير من شهر رمضان والأمة مُقبلة على عيد الفطر، فتعجّلنا في إصدار العدد الأول منها يوم العيد ليكون أحد بشائر الأمة الجزائرية المُتطلّعة لرؤْية جريدة جمعية العلماء"[١٤]، ومنذ ذلك الحين ألف الجزائريون قراءة أخبارها ومُطالعة مقالاتها في يوم الجُمعة من كل أسبوع.

تُعدُّ هذه الجريدة أكبر الصحف الإصلاحية التي سجّلت حُضورا واسعا بالجزائر بما كان لها من تأثير على مشروع الاصلاح، كون أنَ صدورها لم يتوقف لسنوات عديدة إذ استمر القائمُون عليها في تخريج أعدادها حتى شهر أفريل من عام ١٩٥٦م[١٥]، وحتى أنها شهدت توقفا تزامنا مع بداية الحرب العالمية التي قضت على الحرث والنّسل إلا أنّ هذا التوقُّف ليس إجباريا ولم يكُن بقرار من الحكومة الفرنسية كما ألف رجال الجمعية وإنما كان توقفا اختياريا إراديا تجنُّبا لشتى أنواع الضُغُوط والمُساومات وخشية من أنْ تحتويها الإدارة وتستعملها في تعبئة الجماهير لخوض حرب لا جمل لهم فيها ولا ناقة كما يُقال ولا تعنيهم أصلا، فكما قال ابن باديس عن جمعيته أنها لا تُقدّم شواهد الإخلاص ولا تقوم بأي عمل من أعمال التملُّق للحكومة[١٦]، وهو قرار لم تكن الإدارة لتنتظره آنذاك وفي اعتقادنا أنها ردٌّ كاف من أعضاء الجمعية على تعامل فرنسا غير اللائق مع صحفها إذ أنّ قرار التوقيف الإرادي هذا لو وضعناه في كفّة ووضعنا كل قرارات التعطيل والتوقيف الفرنسية التي سبقت البصائر لاتزنت الكفّتان، ولم تتوقف الجمعية عند حدّ إصدار صحف ناطقة بالعربية بل تعدته إلى تأسيس جرائد باللغة الفرنسية أيضا عنوانها (الشاب المسلم)، وهي خُطوة تحتسبُ للجمعية ورجالها وتُصورهم حقيقة على أنهم مُحرّري الفكر من قُيُود التقليد ومُخلّصين للعُقول من الجُمود ،كما أنها دليلٌ صريحٌ على فهمهم لنفسيّة وتركيبة المجتمع الجزائري فعلى الرغم من أنّ الجرائد التي أسستها كانت من جُملة أهدافها إعادة الاعتبار للغة العربية ووضعها في مكانتها اللائّقة بها ما دامت في موطنها إلا أنّ ذلك لم يمنع من إقدامهم على هذه الخُطوة وفاءا لكل الجزائريين مهما كانت لغة تعلُّمهم، وكذلك دفعا عنهم لشُبهة التعصُّب والموقف السلبي من اللغة الفرنسية، فاللغة ما كانت لتُشكّل حجر عثرة أمام من اختاروا السيّر في درب الإصلاح لأنّ جدّية هذا الأخير تقتضي العمل بأيّ وسيلة مهما كانت المُهّم فيها أنْ تكون منفذا من المنافذ التي تُمكّن من التغلغُل إلي أعماق المجتمع الجزائري لتوعيّته وبالخُصوص بعد أن بدت عليه أمارات الخُضوع نتيجة شتّى أنواع التسلُّط الذي كان يُمارسه الاستعمار عليه، فالصُحف في هذا المجال يُمكن أنْ تُمثّل سلّاحًا فعّالاً في الصراع الإيديولوجي مع الإدارة ويستطيع العاملين فيها تحقيق المشاركة الشعبية في تغيير الأوضاع وقلب الإحساس بالشُؤم والضيّاع إلى إحساس بالوُجود والثّقة الكاملة في القدرة على صناعة مُستقبل ناظّر للجزائر.

إنّ حديثنا عن مدى تأثير الصحف الإصلاحية التي أسستها الجمعية سنخّصُه بذكر جريدة البصائر التي ظهرت أخيرة حسب التسلسل الزمني لتواريخ التأسيس، وهذا ليس من جهة التقصير أو القُصور وإنما مما نعتقده في الصحف الأخرى الصادرة قبلها (الشريعة، الصراط، السنة) من الفُتُور وقلّة تأثيرها بحكم أنها تُغلق وتُصادر ويتّمُ إدخالها كهف النسيّان قبل أنْ تعرف الرّواج ويصل صداها إلى القُرّاء لتؤدي رسالتها أحسن الأداء فما من شك أنّ هذه الجريدة التي كُتبت لها الحياة حتى أوقفها من بادر بها بالنسبة لسابقاتها تُعد بمثابة واسطة العقد، إذ علّق عليها المُصلحون العاملُون تحت ألوية الجمعية كل الآمال في الاستزادة من النّشاط التوعوي التثقيفي فقد جاء في إحدى مقالات الرأي التي كتبها "فرحات بن الدراجي" أحد العاملين بها الأتي: "إنّ البصائر سيُطابق فيها الاسم المُسمي وسيكون لها من الذيُوع والانتشار ما لم يحصل لأيّ جريدة قبلها لأنها طلعت على الأمة بعد شوق عظيم وعلى الأدباء والعلماء بعد وقت طويل، إنها تحُّل على الأمة محّل العين من الإنسان والرُوح من الجسد فستُنير بصائرهم وتُرشدهم إلي سواء السبيل.[١٧]

وللوقوف على صحّة هذا الكلام وقصد ألاّ يكون حديثنا مُتأتيا من فراغ ولا أراء يشُوبُها المُيُول الذاتي أو التقييم الأخلاقي أثناء مُحاولتنا وضع هذه الجريدة في الميزان مع مُراعاة الفضاء الثقافي الذي كان يسُود الجزائر حينذاك ارتأينا أنْ نعود إلي قراءة المجموعة الأولي من البصائر التي تحوي خمسين صحيفة صدرت ما بين ديسمبر ١٩٣٥م إلى جانفي ١٩٣٧م والتي تّم جمعها من طرف محمد الحسن فضلاء أحد مُنتدبي الجمعية ورئيسها للتعليم والإدارة في المدارس الحُرّة على كامل التراب الوطني لتتكفّل بطبعها دار البعث للنشر والطباعة، ولعّل هذا الكّم من الجرائد التي تربُو عدد صفحاتها عن الاربعمئة تُمكّننا من معرفة مادتها وشكلها ومضمُونها بشكل عام وتُساعدنا في تسلّيط الضوء على وظيفتها التي ارتاضاها لها من بادروا بتأسيسها ألاّ وهي الوعظ والإرشاد وربط المجتمع بمصالحه ومُقوّماته بتجديد الأفكار وإعادة الوازع الديني بالجزائر إلى جيد السّكة بعدما انحرف عنها.

ولمّا كان العلماء المصلحون مُحبون وشغُوفون بمطالعة جرائد إصلاحية لها نفس اتجاههم الفكري في بعض الدول الشقيقة التي تتواصل معها ثقافيًا والتي وجدوا فيها تجربة سابقة لتجربتهم، عمدوا إلى مُعاودة نشر بعض المقالات التي كتبها أكابر الدُّعاة المتميّزين بالأسلوب الرائع واللّفتات العميقة وبالخصوص تلك التي تُدافع عن الإصلاح وتُسفّه أراء الخُصوم من أدعياء التصوف النّاقمين على الجمعية والذين لم يروا حاجة الأمة في أمثالها من الجمعيات التي تقوم على مبادئ سامية ويهدف مُؤسسوها من المُثقفين والعلماء إلى ترقية المجتمع، وقد عنيّت البصائر بسير أعمال الجمعية ونشرت كل ما تُسفر عنه الاجتماعات العامة من قرارات ضمانًا لاتساع دائرة الإصلاح، حتى إننا لنجد في أعداد كثيرة منها قصّا وسردًا بأسلوب رومنطقي لسفريات حاملي ألويتها الذين كانوا يفدُون إلى نواحي مُختلفة من القطر الجزائري بحواضره ومداشره مُبتغين من وراء ذلك الوعظ ونشر التعليم العربي الحُر بها، ولمّا انعقد المؤتمر الإسلامي وتوجّه أعضاء الجمعية القاعديين إلى فرنسا لإسماع نواب برلمانها صوت الجزائريين تابعت البصائر كل صغيرة وكبيرة عن الوفد ونقلت كل مُجريات الاجتماعات التي جمعت ما بين العلماء ومُمثّلي السلطة الفرنسية ضمانًا لعدم تزييف الحقائق وتحريفها عن مواضعها.

أما أسلوب هذه الصحيفة في التعبير فهو أسلوب مختلف عن الذي نتعارف عليه أو نقرأه في أيامنا هذه فما يشدُّ الانتباه فعلا بعد قراءة بضعة أعداد منها تلك العناية الفائقة والاهتمام الذي أولتهُ فرقُ التحرير للجانب اللغوي الذي يبدو أقرب إلى طابع الكُتب من الطابع الصحفي فقد كان أصحاب المقالات في تلك المرحلة ذوي حظّ كبير من العلم باللغة العربية الفُصحى وقواعدها، الشيء الذي مكّنهم من كتابة أجمل النُّصُوص وأفصح الخطابات بلغة بليغة ذات اتصال وثيق بالتُّراث الأدبي العربي الأصيل قدْ لا يتمكّنُ من استيعابها إلا من لهم معرفةٌ عميقةٌ بأساليبها السّلسة وتُراثها اللّفظي، على الرغم من أنّهم لا يُخاطبون جماعات خاصة من القرّاء ولا نُخبة مُتميّزة من النُّخب بل بالعكس تماما إذ كانت الآمال مُعلّقة عليها لتحقيق أوسع انتشار للفكر الإصلاحي وأبعد تأثير له في حياة المجتمع الجزائري وفي اعتقادنا أنّ الدافع الذي دعاهم لذلك هو مُحاولتهم إعادة اللغة العربية إلي الواجهة وسدّ شغف بعض من الطلبة المُحبّين لها والراغبين في التّفنُن والوصف بها، حيث أنه بالإمكان لصحيفة جيّدة أنْ تُقدّم لقرّائها ما تُقدّمه الجامعة لطُلاّبها من أنواع الثقافات[١٨] وكذلك حرصهم الشديد على ضمان بقاء الفكر العربي بالأسلوب العربي النّقي الخالي من شوائب اللغات الأخرى، فحتى لغة التخاطُب اليومي (العامية) التي كانت تُشجّعُها الإدارة اعتبارًا من سُهولة فهمها اجتنبوها بشكّل مُطلق لئّلا اختفى سحر البيان من ألسنة طلبة العلم الذين كانوا على إطّلاع عليها من دُون شك، وعلى كلٍ فإنّ استعمال هؤلاء للتعبير الحسن والعبارة الفصيحة لا غرابة فيه لأنّ أكثريتهم كما سبق وأشرنا من ذوي الحدّة الذهنية والذاكرة القوّية والاطّلاع الواسع يكفي فقط أنْ نُشير إلى الشيخ البشير الابراهيمي الذي كان نائبا للجمعية ثُم رئيسًا لها والذي شغل منصبًا لا يليقُ إلا بمن كان مُتقنا لفني الخطابة والنثر ومُجيدًا فيهما ألا وهو مُراسل المُجمّع العربي بدمشق ثُم مُجمُع اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٥٤م[١٩] فقد عُرف عنه تبحُّرهُ في اللغة إذ لا يتردد ولا يتكلّفُ مشقّة أثناء الحديث بها وإنما يفعل ذلك عن سعة وارتياح وعلى شاكلته كان مُعظم العاملين معه في فريق تحرير البصائر.

من الأشياء التي تشّد الانتباه حقيقة في هذه الجريدة التي كانت تطلع على القُرّاء نهاية كل أسبوع في أوّل عهدها تلك المقالات والخطابات التي كانت تبدو أكثر تسامحا ولينا مع الإدارة الفرنسية بعد أنْ كانت الصحف الصادرة قبلها أكثر حماسة وعدائية لسلطات الاحتلال، فقد جاء في كثير من أعدادها الأولي ما يتضّمنُ ويوحي بمُصالحة العلماء للإدارة وعلى الرغبة في التعاون من أجل تجديد ما بلي في ثقافة المجتمع الجزائري والرُقيّ به إلي مصاف الأمم الناهضة، فالمُتصفّح لها سيجد ذكرًا مُتكررًا على أنّ الجزائر فرنسية وأنهما مُرتبطتان وأنّ أبناء الجزائر وفرنسا مُتآخين والأمثلة كثيرة لا يتّسعُ المقام لذكرها لذلك سنُدرج بعضا منها فقط ليتّضح المقال.

"..... إذا نظرتم وتأملتُم حمدتم لهذه الجزائر الفتيّة نهضتها وتمسُّكها بفرنسا وارتباطها القوّي بها وعدّها نفسها جزءا منها ...".

".....لا تنهض الجزائر إلاّ تحت كنف فرنسا، يدها في يدها فتاة لها من الجمال والحيوّية ما لكل فتاة أنجبتها لوريثها مثل تلك الأم (فرنسا)...".

"..... حتى يقف المسلم الجزائري مع آخيه من بقية أبناء فرنسا على قدم المساواة الحقّة التي تكون أوّل ثمراتها الاتحاد الصحيح المنشُود للجميع ..."[٢٠].

ومثل هذه الآراء والتصريحات تقبل تأويلات عديدة يُمكن أنْ تتضارب فظاهرها يبدو أنّ الجمعية واثقة في الإدارة الاستعمارية وتنتظر منها المؤازرة للخُروج بالجزائر من دركها

التّازل الشيء الذي جعل الكثيرين يتحاملُون على رجالها ويتّخذُون منها ثغرًا من الثّغُور التي ينقمون منها عليهم، وداعيا من دواعي التشكيك في وطنيتهم وتلويثها لكّن الحقيقة ليست كذلك فهذا الكلام لو تأنينا في طلب معناه نجدهُ دليلٌ بيّنٌ على اعتبار هؤلاء الرجال (أعضاء الجمعية) بسياسة فرنسا التعسُّفية التي تمنع التعبير والتفكير الحُرّين، فمُجرد التفكير في أنّ فرنسا ستُساعد الجزائر وتضمن لها الاستقرار والرُّقّي تفكيرٌ خاطئ مُنكر لا يقبله الإنسان العاقل، فليس بخاف على الجميع أنّه لو أرادت فرنسا ذلك ما منعها شيء ولما انتظرت ما يربُو عن قرن من الزمن فنشر مثل هذه الآراء قد يعتبرُها من يطّلع عليها الآن أنها خطيرةٌ وكاتبوها تجاوزوا الخُطوط الحمراء، لكّن الرّاجح في لُجوئهم إلى مثل هذا الكلام ليس مُجاراة للاستعمار وإنّما مُراواغة له وخلطٌ لأوراق إدارته التي ستكُون لا محالة على إطّلاع واسع بمثل هذه الأقاويل الشيءُ الذي يجعلها تبتعد عن مُراقبة نشاط الجمعية الصُّحفي والتوقُّف عن الإقدام على غلق الجرائد والزّج بالقائمين عليها في السُجُون، بالإضافة إلى أنّ هذا الخطاب بعدما حقّقت الجريدة استمرارية دامت سنوات تغيّر ولم يُصبح بنفس اللّهجة بحُكم ظُهور عرائض فيها من وقت لأخر يُرسل بها رجال الجمعية إلى الحكومة داخلين بذلك مناطق كانت محظورة وهي نقد السلطة والاعتراض على مُخططاتها.

كانت مضامين هذه الجريدة مُتعددة ولم يغلب عليها الطابع الإخباري إذ ركّزت على الشؤون الجدّية فبالإضافة إلى بعض من الأخبار كانت تخّصُ في أحد جوانب صفحاتها مكان للحديث عن بعض الأدباء والعلماء الذين لهم قدرهم ووزنهم في العلم والأدب، كما فتح فيها مُحرّرُوها صُدورهم لكل من وجدوا فيه المُستوى المطلوب لمُعاونتهم على الإنشاء والتحرير فكثيرا ما كان ينشر فيها الطلبة ممن يمتازُون بحُضور البديهة ثمرات عُقولهم التي كانت مُعظمها أدبية تتضمّنُ الشعر الذي لا يكاد يخلُو أيّ عدد منها منه، والمقالات النثرية البديعة وكذلك الخُطب الدينية التي يُرجى منها الوعظ والإرشاد ونقد الوضع الاجتماعي والثقافي السائدين وكلّ ما لا تحتمله الآداب والقيَم الإسلامية، فمن هذا الجانب حوَت هذه الجريدة مناشير وإعلانات للشعب الجزائري تستنكّر بعض التقاليد المنكرة شرعا كاستئجار القُرّاء على الميّت والدعوة إلى إقامة الزردات والوعدات التي كانت تستهوي عُقول العامة والخاصة من أفراد المجتمع كزردة (ابن جلول) التي تحدثّت عنها الصحيفة في أعداد كثيرة، وقد توَلى الرَد على عوادي المبتدعين وممارستهم البالية التي الصقوها بالدين وغلوتوه بها (الشيخ المبارك بن محمد الميلي) أمين مال الجمعية حيث نجد في كل عدد من أعداد جريدة البصائر مقالا بعنوان "الشرك ومظاهره" ومجوع هذه المقالات هي التي يتألّفُ منها كتابه "رسالة الشرك ومظاهره "الذي عرف رواجا في كثير من الأوطان الإسلامية حتى أصبح يُعدّ مرجعًا هامًا في نُصرة السُنّة وإماتة البدع.

ثالثًا: بيان مدى تأثير جرائد الجمعية على الجزائريين

على الرّغم من أنَ الصحف التي أصدرتها الجمعية من أجل أنْ تضع القرّاء الجزائريين أمام الإطار الفكري لأعضائها وتُبيّن لهم مضمون دعوتهم إلى التجديد والإصلاح، وعلى الرغم أيضًا من أنّها عايشت المجتمع هُمومه الصغيرة وقضاياه الكبرى واستطاع فريق تحريرها أنْ يُحرزوا نقلة نوعية بنقد العقلية الجزائرية وما يسُودها من ثقافة بالية بالشكل الذي لم يستطعه العُتاة من أذيال الاستعمار وساهموا بها في تخفيف ولو بعض من الأعباء الثقيلة لحياة أفراد المجتمع الجزائري الذين أرهقت كاهلهم مُخططات فرنسا الساعية في سبيل إلحاق الجزائر بها وجعلها قطاعا تابعا لها، إلاّ أنّ الإصلاح الذي كانت إحدى وسائله الصحافة المكتُوبة لم يكن بالأمر الهيّن على الإطلاق فقد كان يهُّب من حوله تيّارات مُتصارعة فمن الجزائريين من كان يرنو إلى المذهب الكمالي ومنهم من يأخذ بالمذهب الوهّابي وآخرون ينزعون إلى التّمدُن الغربي ومنهم من ينحدر بفكره إلى مذهب المادة.[٢١]

كما أنه لو استندنا إلى الإطار الزماني الذي كانت تُصدر فيه الجمعية جرائدها نجد أنّ الجزائريين من الناحية النّفسية ألفوا تحطيم التّوابغ من الرجال ويسود العوام نوعٌ من الخوف من الإدارة الاستعمارية التي تُهدّد بالسّجن وشتى أنواع العقاب كل مَنْ يُحاول الخوض في مسائل تتعلّقُ بمُعاداة الحكومة والتحرُك السياسي ضدها لأنّه في نظرها كل مَنْ يعمل على نشر الوعي بين الناس مهما كانت طريقته أو وسيلته مُحرّضٌ لابُّد من بتر صلته بالجماهير لئّلا تتحول أفكاره إلي مطالب شعبية، ثُم إنّ قراءة الجرائد ومُطالعة المنشورات كان في تلك الحقبة يقتصر علي النُّخبة فقط بحكم أن جلّ الجزائريين كانوا لا يهتمون بالقراءة كمُمارسة حضارية الشاهد ما ذكره الطبيب (المارتيني فرانز فانون) المُتعاطف مع الجزائريين ففي إحدى الرسائل التي بعث بها لأحد أصدقائه أخبره بسوء الحال الثقافية في الجزائر ودرجة التّدهور التي تشهدها والتي تجاوزت كل الحُدود إذ قال أنّه من بين ثلاثمائة جزائري واحد فقط منهم يُجيد التوقيع فإذا كان الأمر لا يتعدى التوقيع فما بالنا بالقراءة أو الكتابة[٢٢]، فحتى لو

توجّهت الجمعية بصحائفها تلك إلى السواد الأعظم من أفراد المجتمع الجزائري لتنتشلهُم من عُزلتهم وتُعلمهم بما يجري في بلادهم من أحداث وتُطلعهم على ما يستجدّه العالم الإسلامي من أمور، كان المُقبلون على انتقائها قليلون وبالخصوص في الأماكن البعيدة عن مواطن الحضر فالقرّاء الذين لا يتجاوزون الألفيّن لم يكونوا يُمثّلون إلاّ وسطا محدُودا معزُولا عن الجماهير الشعبية.[٢٣]

كما أنّ الحديث عن التأثير البارز لصُحف الجمعية على المجتمع الجزائري خاصةً تلك التي صدر منها أعداد قليلة جدًا يُعّد موضع تساؤل فكيف لها أن تبعث شعبا من سُباته الذي طال أمده ليفرض وجوده ويفتّك حُريّته ممن سلبها منه بمُجرّد قراءتها والاطّلاع على أخبارها، وحتى لو سلّمنا بأنّ هناك من يقرأها على الأميين الذين تجذّر فيهم الجهل ويُناقشون ما يرد في المقالات من أفكار لمحاولة فهم أبعادها إلاَ أنّ الذهنيّة والعقلية التي كانت سائدة أنداك لا تنخرط هكذا وبباسطة بعالم الحداثات الفكرية ونُظم الأفكار التغيرية، لما كانت تتّسم به من سطحية وانغلاق، ضف إلى ذلك الصراع الذي كان ناشئًا بين النُّخب الدينية والسياسية وغيرها من النُّخب الأخرى وتهجُّم بعضها على البعض الأخر الشاهد على ذلك الصراع شتات فكر مُمثليها إذ أنّ كلّ منهم يرى الخطاء فيما يراه الأخر صوابًا، ما جعل الإصلاح كتيّار فكري تجديدي لم تتفق الآراء حول صيغته الثقافية التي يُمكن أنْ تلقى قُبولا عند الكل ويطمئن إليها الجميع وهذا أسفر إلى حدّ ما عن فُقدان معظم أفراد المجتمع الجزائري للثّقة في تلك النُّخب التي تُنّصب نفسها وصيّة على الشعب وناطقة رسمية له، فشاع عندهم فكرة أنّ نشاطهم شكليٌ لا جدوى منه ما دامت الأوضاع على حالها لا يتغيّرُ منها شيء.

ثُم إنّ الأمر الذي نراه كلاما مشُوبًا بالعاطفة هو الذي يتحدث فيه البعض عن أنّ جرائد الجمعية كانت السبب في تحرير الوعي الجزائري وهي التي قوّضت الحواجز التي تسدُّ مُستقبله وتُعرقل سيّره نحو النُهوض وأنّها كذلك عتبةٌ أفضت إلى التّحرُر الفكري مُتناسين ومُتجاهلين الظُروف المجتمعة التي كانت تمُر بها الجزائر على كل الأصعدة لتغيّر أهداف وطموحات واهتمامات الشعب، فلو تعاملنا مع الواقع كما كان وراعينا الحقائق المُتعلّقة بالشعب الذي كان يعيش في بلاد سُدّ فيها المُستقبل أمامه كون الفرد يُولد والتشاؤم يملأ أعماقه وروحه لأنّه يفقد الدوافع الوجودية الباعثة التي تُتيح للإنسان أن يُكرّس نفسه للحياة أو الموت من أجل شيء مُعيّن، وكتبنا أيضا بلغة العقل وليس بهواجس العاطفة التي لا يستطيع المرء فيها امتصاص شُحنات التقيّيم الأخلاقي والايدولوجيا ولا التحلّي بروح الموضوعية لتبيّن لنا أنّ تلك الجرائد التي استطاعت الجمعية أنْ تُؤسسها وتُوّقع شهادة ميلادها وهي في مرحلة ذروة نشاطها الإصلاحي لم تكن لتُؤثر فكريًا وثقافيًا على أفراد المجتمع الجزائري بالشكل الذي يكتُب عنه البعض، فحتى لو تجاهلنا التعسُّف الذي قابلت بها السلطات الاستعمارية الجمعية وقبلنا سلفا أنّها عرفت إقبالاً من بعض المُتديّنين ممَنْ لهم نصيب وافر من العلم واستأثرت باهتمام المُفكّرين والمُثقفين بالثقافة العربية فإن الأمر لا ينطبقُ على العامة الذين كانوا يعيشُون وضعًا مأزوم وفترة زمنية شهدت البلاد فيها انهيارًا في جميع نواحي الحياة وبشكل أخّص الصعيد الثقافي الذي ميّزة التقليدُ والجُمود.

وللتدليل على هذا الكلام سنضرب مثالاً بجريدة يُشير إليها الكثير من الكُتّاب على أنّها هزّةٌ للقُلوب ويقظةٌ للعُقول وهي جريدة "المنار" التي تأثر بها الكثير من العلماء التّوابع المُقتنعين بالتيّار الإصلاحي في شمال افريقيا والحجاز والشام وسجّلت حُضورًا لسنوات مُتتابعة في معظم أوطان العالم الإسلامي حيث كانت أوّلُ صحيفة إسلامية تُوزع على مستوى عالمي[٢٤] يُطبع منها ألف وخمسمائة نسخة وتُرسل إلي دول عربية آخري لم تلقى رواجًا إلّا بعد خمس سنين[٢٥] فكيف الحال بجريدة الصّراط أو السُّنة أو الشريعة التي تُغلق بعد أمد قصير وتصدر منها أعداد قليلة وتُنسخ منها نسبة ضئيلة تُباع أكثريتها في أكشاك المُدن على قلّتها مُقارنة مع عدد الجزائريين الذين كانوا يُقّدرون بما يقارب السّتة ملايين نسمة ونيف أكثريتهم أميين بحُكم أنَ الاستعمار منعهم من أنوار العلم، وبطبيعة الحال كلامنا هذا الذي نُحاول من خلاله وضع الصُحف الإصلاحية الإسلامية التابعة للجمعية في الميزان مُقارنة طبعًا بما كان يطبعُ مُعظم الجزائريين من فكر خافت فالقول بمحدودية تأثير الصحافة لإصلاحية المكتُوبة مُمثلة في جرائد الجمعية ليس له خلفية الانتقاص من جُهود ابن باديس والفريق العامل معه ممن آزروه وكانوا إلى جنبه في مسعاه، فمبادرتهم تُعدّ حقيقة نشاطا محمُودا كونها حلقة من حلقات سلسلة النّضال بما تنشُره من مقالات تُدافع عن حرّية الشعب واختياراته وتجهرُ بمطالبهم وتسهمُ كذلك في تصحيح عقيدته التي غُلوثت بالبدع وأيضًا في توجيه الرأي العام بالجزائر توجيهًا سليمًا فكل هذه الأمور تُعطينا صورة وانطباعًا حسنين عنهم ما دام ذلك كان يُعدّ جرأة حينذاك على سلطات الاستعمار التي هتكت حُقوق

الأفراد وأضّرت بهم لمنعها إيّاهم من حُرية التعبير التي تُمثّل عنوانًا وشرطًا من شروط تغيير وتطوير المجتمع كلّه.

خَاتِمَةٌ

بعد ما تمَ عرضه يتبيَن بشكل جليَ أنَ الجرائد الإصلاحية التي أصدرتها جمعية العلماء المسلمين في ظروف قاسية جدًا بصرف النظر عن قوة التأثير أو ضعفه تُعدُّ مرجعًا من مرجعيات العظة العقلية والرُوحية وكذلك غطاءً واقيًا من تظليلات وتطلُّعات الايدولوجيا الاستعمارية لصبّها كل الاهتمام على نشر الوعي الديني وأخبار العالم الإسلامي برُمته، وكذلك لدعوتها أفراد المجتمع الجزائري إلى الدفاع عن ثوابته وقيَمه وأصالة تُراثه بنشر المقالات والخُطب التي تُهيّئُهم نفسيًا للتخلُّص من سيطرة موجة الفرنسة والتغريب ويهتدي إلى الطريق الذي يُمكّنه من الخطو بخطوات ثابتة نحو النهضة يكون أساسها العلم الصحيح والإيمان بالذات والعودة إليها، فمن هذا الجانب لا يمكن بأي حال من الأحوال الانتقاص من قيمتها في قلْب الموازين لصالح المبادرين بها ضد الاستعمار وأذنابه بسلاح الكلمة المكتّوبة وما لها من مفعُول في إقناع الفئات العريضة من الشعب بضرُورة التغيير وبتحميلهم نصيبًا من المسؤولية في الاضطلاع بدور هّام في التخلُّص من حالة الغيبوبة بمعناها المطلق والدُخول في مرحلة جديدة يُعاد فيها بعث الجزائر بعد أنْ تردّت إلى القاع السحيق في شتى ميادين الحياة.

الاحالات المرجعية:

(١) عواطف عبد الرحمان، **الصحافة العربية في مواجهة الاختراق الصهيوني**، القاهرة، دار الفكر العربي، ط١، ١٩٩٦م، ص٣٧.

(٢) محمد ناصر، **عمر راسم المصلح الثائر**، الجزائر، منشورات وزارة الثقافة والسياحة، ١٩٨٤م، ص٢٤.

(٣) محمد ناصر، **المقالة الصحفية الجزائرية نشأتها وتطورها وأعلامها**، الجزائر، ش-و-ن-ت،١٩٧٨م ص٥٧.

(٤) عواطف عبد الرحمان، **الصحافة العربية في الجزائر (١٩٠٤-١٩٦٢)**، القاهرة، معهد الدراسات العربية، ١٩٧٨م، ص٧٨.

(٥) رابح تركي، **الشيخ عبد الحميد ابن باديس رائد الإصلاح في الجزائر**، الجزائر، المؤسسة الوطنية للاتصال ط٢،٢٠٠١م، ص١٤١.

(6) Claude Collot, **Le Régime juridique de la presse musulmane algérienne**, Revue Algérienne des sciences économiques et politiques, Alger, volume1, 1969, P. 396.

(٧) نصير بوعلي، **"تجربة الصحافة الإصلاحية في العالم العربي"**، مجلة المعيار، الجزائر، دار الهدى، العدد ١٣، ٢٠٠٦م، ص ٢٥٥.

(٨) نفس المرجع، ص٢٥٦.

(9) Zahir Ihaddaden **Histoire de la presse indigène en Algérie des origines jusqu'au 1930,** Alger, le prise nationale du livre, 1983, P. 61.

(١٠) أنور الجندي، **تاريخ الصحافة الإسلامية**، لبنان، دار الأنصار، بدون تاريخ، ص٦.

(١١) رابح تركي، مرجع سبق ذكره، ص١١٧.

(١٢) محمد الحسن فُضلاء، **مجموعة جريدة البصائر-لسان حال ج ع م ج -**، الجزائر، دار البعث للنشر والطباعة، ج١، ١٩٨٣م، ص٢.

(13) Zahir Ihadadden, Op.Cit, P.261.

(١٤) محمد لحسن فضلاء، مرجع سبق ذكره، ص٩.

(١٥) عبد الكريم بوصفصاف، **جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقتها بالحركات التحررية الأخرى**، الجزائر، المؤسسة الوطنية للنشر والاتصال، ١٩٩٦م، ص٧٦.

(١٦) رابح تركي، مرجع سبق ذكره، ص١١٨.

(١٧) محمد الحسن فضلاء، مرجع سبق ذكره، ص٦.

(١٨) توفيق العاني، **الصحافة الإسلامية ودورها في الدعوة**، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٣م، ص٧٠.

(١٩) أحمد الخطيب، مرجع سبق ذكره، ص١١١.

(٢٠) محمد الحسن فضلاء، مرجع سبق ذكره، ص١-ص٣.

(٢١) مالك بن نبي، **شروط النهضة**، تر: عبد الصبور شاهين، دمشق، دار الفكر للطباعة والتوزيع، ١٩٨٦م، ص٢٤.

(٢٢) العربي الزبيري، **المثقفون الجزائريون والثورة**، الجزائر، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، ١٩٨٥م، ص ١٤٠.

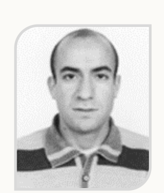
(٢٣) شارل روبير اجرون، **تاريخ الجزائر المعاصر**، ترجمة: عيسى عصفور، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ط٢، ١٩٨٢م، ص٣٣٩.

(٢٤) محمد منير حجاب، **الإعلام الإسلامي) المبادئ، النظرية، التطبيق)**، القاهرة، دار الفجر للنشر، ٢٠٠٢م، ص٣٨٥.

(٢٥) أنور الجندي، **تاريخ الصحافة الإسلامية**، مرجع سبق ذكره، ص ٣١.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

الدبلوماسية التونسية في خدمة الثورة التحريرية الجزائرية (١٩٥٦ - ١٩٦٢)



د. موسم عبد الحفيظ
أستاذ محاضر (أ) تاريخ حديث ومعاصر
جامعة الدكتور مولاي الطاهر – سعيدة
الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

تعدّدت مستويات الدّعم الدبلوماسي التونسي للثورة الجزائرية بالمحافل الدولية والإقليمية، وهو ما يتّضح لنا من خلال تأييد الحكومة التونسية ومساندتها لآراء ومواقف جبهة التحرير الوطني خلال مؤتمرات الدول الإفريقية المستقلة وداخل هيئة الأمم المتّحدة، وعلى مستوى الولايات المتّحدة الأمريكية وبعض الدول الأوروبية. إضافة إلى هذا فقد أكّدت الحكومة التونسية في كثير من المناسبات على عدالة القضية الجزائرية، وعلى أحقّية الشعب الجزائري في الحرية والاستقلال بناء على المواثيق الدولية الصّادرة عن مختلف المنظّمات والهيئات الدولية. انطلاقًا من إيمان شعب تونس وقادتها بضرورة الوقوف إلى جانب الشعب الجزائري في كفاحه ودعم ثورتة بكلّ الوسائل الماديّة والمعنويّة. وقد تجسّد هذا الموقف منذ اندلاع الثورة الجزائرية وإلى غاية الاستقلال، حيث ظلّت تونس طيلة هذه المدّة تحمل مكانة هامّة في استراتيجية الثورة الجزائرية، باعتبارها طريقا مهمّا للإمدادات العسكرية القادمة من الشرق، وحليفًا سيّاسيّا ودبلوماسيّا يخدم القضية الجزائرية. فقد عملت الحكومة التونسية على تنسيق المواقف السياسية والعمل المشترك مع عدّة أطراف أخرى قصد كسب التّأييد الدولي للقضية الجزائرية من جهة، والضّغط على فرنسا للدخول في مفاوضات جادّة مع جبهة التحرير الوطني بهدف الوصول إلى حلّ يرضي الشعب الجزائري من جهة أخرى. وللإشارة فإن هذه الجهود الهامّة التي كانت تقوم بها تونس في مساندتها لكفاح الشعب الجزائري، كانت محلّ تقدير وامتنان من طرف مسؤولي الثورة الجزائرية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٧ أغسطس ٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر: ٢٠ سبتمبر ٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

الدعم الدبلوماسي؛ الحكومة التونسية؛ الثورة الجزائرية؛ هيئة الأمم المتحدة؛ التأييد الدولي؛ جبهة التحرير الوطني؛ المواثيق الدولية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/KAN.2021.221899

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

موسم عبد الحفيظ. "الدبلوماسية التونسية في خدمة الثورة التحريرية الجزائرية (١٩٥٦- ١٩٦٢)".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الحادي والخمسون؛ مارس ٢٠٢١. ص ١٣٩ – ١٥٠.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: dr.moussem gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

مُقدِّمَةٌ

لعبت تونس دورًا هامّا في دعم الثورة الجزائرية، انطلاقا من إيمان شعبها وقادتها بضرورة الوقوف إلى جانب الشعب الجزائري في كفاحه ودعم ثورتة بكلّ الوسائل الماديّة والمعنويّة. وقد تجسّد هذا الموقف منذ اندلاع الثورة الجزائرية وإلى غاية الاستقلال، حيث ظلّت تونس طيلة هذه المدّة تحمل مكانة هامّة في استراتيجية الثورة الجزائرية، باعتبارها طريقا مهمّا للإمدادات العسكرية القادمة من الشرق، وحليفا سيّاسيّا ودبلوماسيّا يخدم القضية الجزائرية. وسنتطرّق في هذه الدّراسة إلى بعض الجوانب المهمّة من مظاهر التّعاون الدبلوماسي التونسي مع الثورة الجزائرية، من خلال الإشارة إلى الجهود الدبلوماسية التونسية للتّعريف بالقضية الجزائرية في المحافل الدولية، محاولين بذلك إبراز دور تونس في خدمة ثورة الجزائر ونُصرتها على المستوى الإقليمي والعربي والعالمي. تُرى: كيف كانت مواقف الحكومة التونسية من دعم الثورة الجزائرية؟، وفيما تمثّلت أهم الجهود والمساعي الدبلوماسية التونسية لخدمة الثورة الجزائرية ونُصرتها؟

استطاعت الثورة الجزائرية أن تفرض وجودها في الدّاخل والخارج، وأن تنال منذ الوهلة الأولى لاندلاعها تأييد العديد من الدول الاشتراكية ودول العالم الثالث[١]. وضمن هذا السيّاق حظيّت القضية الجزائرية بمكانة هامة لدى تونس من حيث الاهتمام السيّاسي وحجم التّضامن الشعبي، وذلك بحكم الجوار الجغرافي وتوطّد الصّلات السيّاسية والاجتماعية بين البلدين[٢]، إذ أنّ الدّارس للثورة الجزائرية سيتضّح له أن تاريخها لم يكتب على الأرض الجزائرية فحسب، بل كتب كذلك عن جدارة واستحقاق على أرض تونس، حيث كانت البلاد التونسية شعبا وحكومة تعيش على وقع أحداث الثورة الجزائرية طيلة سبع سنوات من عمرها، فتأثرت بوقائعها سلبا وإيجابا، باعتبار أنها (أي الثورة) قد رسمت آثارها في كل مكان تقريبا من البلاد التونسية، وبصفة خاصّة على المناطق الحدودية أين تشهد على ذلك مواقع الذاكرة الكثيرة التي لازالت قائمة على الأرض وفي وجدان الكثير ممّن عايشوها[٣].

وقبل التطرّق إلى أهم الجهود الدبلوماسية التونسية لنُصرة القضية الجزائرية، تجب الإشارة –ولو بإيجاز- إلى موقف الحكومة التونسية من دعم الثورة الجزائرية، لأنّ الدّعم الدبلوماسي يدلّ في حقيقة أمره على موقف الحكومة الرّسمي، باعتبار أنّ مصطلح الدبلوماسية قائم في جوهره على أساسين هما: وجود دولة سيّدة وحكومة تمثيليّة[٤].

أولاً: قراءة عامة في مواقف الحكومة التونسية من دعم الثورة الجزائرية

في الواقع لا يمكن الحديث عن دعم تونسي واضح للثورة الجزائرية، خلال الفترة الواقعة ما بين (١٩٥٤- ١٩٥٦)، باعتبار أن تونس كانت خلال هذه الفترة تحت سلطة الحماية الفرنسية، وهي الأخرى فاقدة لسيّادتها الوطنية مثل الجزائر، بل ما يمكن الحديث عنه فعلاً في هذه المرحلة، هو ذلك الشعور الشعبي العام بوحدة المصير الذي كان قائمًا ليس فقط بين تونس والجزائر، بل بين جميع أبناء المغرب العربي ككلّ، باعتبار أنهم كانوا جميعا تحت سيطرة استعمار واحد. وهو الشعور الذي أفضى إلى تكثيف عمليّات التّنسيق بين الحركات الاستقلالية في هذه الأقطار الثلاثة (تونس، الجزائر، المغرب). والتي تُوّجت في نهاية المطاف بتوحيد الكفاح المسلّح تحت قيادة عسكرية موحّدة هي «جيش تحرير المغرب العربي»[٥].

ولمّا أدرك الفرنسيون خطورة هذا المشروع الكفاحي المشترك، سارعوا إلى الدّخول في مفاوضات مع بعض الأطراف المعتدلة في الحركتين الاستقلاليتين التونسية والمغربية، قصد إغرائها بالاستقلال شريطة التّخلي عن وحدة الكفاح المسلّح في المغرب العربي[٦]، وهو ما تمّ بالفعل، إذ سرعان ما فتر التوجّه المغاربي المشترك في تعميم الكفاح على إثر تصريح قرطاج ومباشرة الحزب الحر الدستوري مفاوضاته مع فرنسا لإنهاء المقاومة، حيث كانت العناصر المؤثّرة في الحزب تحرص على أن يكون إطار العمل المسلّح محدود المجال والزمان، كونه عنصر ضغط على فرنسا لإلغاء نظام الحماية والجلوس على طاولة المفاوضات[٧].

وفي حقيقة الأمر، أنّ هذه السيّاسة ما كانت لتتمر لولا انعكاسات الثورة الجزائرية، حيث أدّى اندلاعها بعد أشهر من تصريح قرطاج إلى إسراع فرنسا بوتيرة التّفاوض مع التونسيين، ومنحهم الاستقلال الذاتي في جوان ١٩٥٥، ثم عزّزت بعد ذلك موقف بورقيبة[٨] في مواجهة الرّافضين لهذا الاستقلال والدّاعيين إلى مواصلة الكفاح المسلّح ومساندة الثورة الجزائرية، وبهذا تكون فرنسا قد نجحت ولو نسبيّا في تقويض دعائم التّضامن بين التونسيين والجزائريين خلال مرحلة النّضال المغاربي المشترك (١٩٥٤-١٩٥٦)[٩].

وإذا كانت فرنسا قد نجحت في إجهاض الثورة المغاربية الكبرى، وإيقاف مدّها التحرّري في كلّ من تونس والمغرب الأقصى بعد أن منحتهما الاستقلال، فإنها لم تتمكّن من إطفاء لهيب هذه الثورة الذي ظلّ مشتعلاً في نفوس بعض الزّعماء

التّاريخيين أمثال: محمد بن عبد الكريم الخطابي[١٠]، وصالح بن يوسف[١١] وغيرهم من المجاهدين الذين ظلّوا متشبثين بالمبادئ التي تشكّلت على أساسها الحركات التحريرية المغاربية، حيث تجاوبت مع هذه المواقف شعوب المغرب العربي في كل من تونس والمغرب، وفرضت على القيّادات السيّاسية والزّعامات الوطنية ضرورة الوقوف إلى جانب الثورة الجزائرية، ودعمها ماديّا وعسكريّا كواجب تفرضه أواصر الأخوة والتاريخ والمصير المشترك[١٢].

وعلى هذا الأساس، استمر الدّعم التونسي للثورة الجزائرية بعد سنة ١٩٥٦، أي بعد استقلال تونس، حيث ظلّت هذه الأخيرة وفيّة للجزائر في ثورتها التحريرية ضدّ فرنسا إلى غاية ١٩٦٢ (تاريخ استقلال الجزائر)، وهو ما يتّضح لنا من خلال مظاهر الدّعم والمساندة التي تلقّاها الجزائريون من تونس، سواء كان ذلك الدّعم شعبيا أم حكوميا[١٣]. وإذا لم يكن بوسع تونس أن تُعلن عشية استقلالها عن دعمها للثورة الجزائرية، أو تُبدي تأييدها لأهداف جبهة التحرير الوطني في كفاحها، باعتبار أنّ النفوذ العسكري والاقتصادي الفرنسي بقيّ سيّد الموقف في تونس، فإنها راحت تُباشر مفاوضات التّعاون النّهائية لتعزيز استقلالها من جهة، وتُقدّم دعمها لنشاط الثوار الجزائريين بصورة خفيّة مع بذل الجهود السّلمية لإيجاد حلول للقضية الجزائرية من جهة أخرى[١٤].

وممّا يلاحظ أيضًا على موقف تونس من دعم الثورة الجزائرية، هو أنّ هذا الدّعم قد تأثّر كثيرا خلال هذه المرحلة بالصّراع الذي كان قائما بين بورقيبة وصالح بن يوسف، ففي الوقت الذي كانت فيه الثورة الجزائرية تمدّ نفوذها إلى تونس وتتعاون مع أنصار صالح بن يوسف لتمرير السلاح وشنّ الهجمات المشتركة على القوات الفرنسية، كان الصّراع على أشدّه بين بورقيبة وصالح بن يوسف، حيث كان كلّ طرف منهما يحاول تأكيد اتّجاهه، غير أنّ حدّة هذا الصراع قد خفّت بمجرّد إعلان فرنسا عن استقلال تونس في مارس ١٩٥٦[١٥]. وممّا لا شك فيه أن حجم التّضامن الشعبي وتمسّك المعارضة بمواقفها قد فرض على حكومة بورقيبة ضرورة التّعاون مع الثورة الجزائرية، والسّماح للثوار الجزائريين بمواصلة نشاطهم بتونس مثلما كان يحدث في السابق[١٦].

ونتيجة لذلك تدعّم النشاط السيّاسي والعسكري لجبهة التحرير الوطني بتونس، وازدادت قوة التأييد الشعبي التونسي للثورة الجزائرية، كما قدّمت الحكومة التونسية تسهيلات معتبرة للثورة الجزائرية، فأصبح لهذه الأخيرة نفوذها الخاصّ في تونس منذ سنة ١٩٥٦[١٧]. غير أن هذا الموقف السّياسي للحكومة التونسية لم يرق إلى مستوى أهداف ومبادئ الثورة الجزائرية، بسبب اختلاف التوجّهات السيّاسية وتباين طبيعة القضية الجزائرية عن القضية التونسية. فعلى الرغم من اعتراف بورقيبة أنّ المشكل التونسي يختلف عن المشكل الجزائري، وتسليمه باختلاف الوضع الدستوري بينهما، إلا أنه كان يظنّ أنّ فرنسا ستلجأ إلى التّفاوض مع الجزائريين باعتبار أنها قد تنازلت عن تونس والمغرب، وبالتّالي على الجزائريين ألا يُعوّلوا على الحلّ العسكري، بل ما عليهم هو أن يقبلوا بسيّاسة التّفاوض مع فرنسا حتّى ولو أدّى ذلك إلى القبول بمبدأ الحكم الذاتي[١٨].

هذه الاقتراحات لم تكن ترضي جبهة التحرير الوطني، باعتبار أنّ المشكل التونسي يختلف تماما عن مشكل الجزائر، كما أنّ فرنسا كانت مُصمّمة على عدم الاعتراف بالهوية الجزائرية، وهو ما أكّده أحد مسؤولي الجبهة في نهاية سنة ١٩٥٥ مشيرا إلى الاتّفاق الفرنسي التونسي، قائلا: «إنّنا نستنكر هذا الاتّفاق، ولو عرض علينا اتّفاق مثله في الجزائر، فإنّنا سنرفضه»[١٩].

وعليه فإنّ ما يمكن ملاحظته عن موقف الحكومة التونسية من دعم الثورة الجزائرية، هو أنّ النّظام التونسي لم يكن بإمكانه الاعتراف بسيّاسة جبهة التحرير الوطني ومبادئ كفاحها، لذلك حدّد موقفه منذ البداية بالإعراب عن أمله في إيقاف الحرب وحلّ المشكلة بالطّرق السلمية بين الطرفين، وهو ما أكّده الرئيس بورقيبة حين قال: «إنّ تونس المستقلة تتألّم من الحرب الفاشية المسلّطة على الشعب الجزائري الشّقيق، وتُصرّح هذه الحكومة (حكومة تونس) بأنّها سوف تبذل كلّ ما في وسعها لتساعد على إيجاد الحلول السّلمية التي تضمن للشعب الجزائري الشّقيق حقوقه الوطنية، ليسود الاطمئنان كامل أقطار شمال إفريقيا، ويزول آخر عامل يكدر صفو العلاقات بين الشعبين التونسي والفرنسي»[٢٠].

هكذا تكون الحكومة التونسية قد أدركت خطورة انعكاسات ثورة الجزائر على الاستقلال التونسي الذي أكّدت أنه لا يزال ناقصا، ولن يكتمل إلا بإيجاد حلّ للقضية الجزائرية، الأمر الذي جعلها تتحرّك على المستوى الإقليمي والدولي من خلال جهودها الدبلوماسية المكثّفة التي تهدف إلى كسب التّأييد الدولي للقضية الجزائرية، تماشيّا مع واجب نُصرة الشعب الجزائري للحصول على استقلاله.

ثانيًا: الجهود والمساعي الدبلوماسية التونسية لخدمة الثورة الجزائرية ونُصرتها

تعدّدت مستويات الدّعم الدبلوماسي التونسي للقضية الجزائرية بالمحافل الدولية والإقليمية، في إطار الدول الغربية وعلى مستوى هيئة الأمم المتّحدة والدول الإفريقية، بالإضافة إلى التّأييد الدبلوماسي على المستويين الإقليمي والمغاربي.

١/٢-المساعي الدبلوماسية التونسية في إطار الدول الغربية

قدّمت الحكومة التونسية مساندتها الفعّالة للثورة الجزائرية، واهتمت بحلّ القضية الجزائرية وإيجاد تسويّة سلميّة لمشكلة الجزائر، سواء في إطار التّعاون مع فرنسا أو عن طريق الضّغط عليها بكلّ الوسائل الممكنة قصد الاستجابة لمطالب الشعب الجزائري، وإنهاء حرب فرنسا في الجزائر حفاظا على الأمن بشمال إفريقيا[٢١]. واعتبرت تونس أنّ مصير الشعب الجزائري سيكون كمصير كفاح التونسيين، وأنّ ما يعترض المشكلة الجزائرية هو الإطار القانوني الذي تُصرّ فرنسا على عدم إعادة النّظر فيه[٢٢].

وقد ارتبطت المساعي الدبلوماسية التونسية لنُصرة الثورة الجزائرية بطبيعة التوجّهات الخارجية لسيّاسة الحكومة التونسية، التي تقوم على التّعاون الوثيق مع الغرب من أجل مساعدته في حلّ المشاكل المتعلّقة بتونس أو بالشّمال الإفريقي، إذ كان النّظام التونسي يرى أنّه بالإمكان حلّ مسألة تحرير الجزائر في إطار العالم الغربي، وذلك عن طريق تفهّم فرنسا واعترافها بحقوق الشّعب الجزائري، مقابل الحفاظ على مصالحها بالشّمال الإفريقي في إطار الجامعة الفرنسية– الشمال إفريقية.[٢٣]

وبناءً على هذا التوجّه، اهتمّت الدبلوماسية التونسية بالدّفاع عن القضية الجزائرية والتّعريف بها في إطار المعسكر الغربي، وهو معسكر يصعب على جبهة التحرير الوطني وُلوجه كونه حليفا لفرنسا، حيث اعتمدت قيّادة الجبهة بشكل كبير على تونس والمغرب لتأكيد مواقفها وكسب الرّأي العام لمناصرة القضية الجزائرية، في حين ركّزت الثورة الجزائرية جهودها الدبلوماسية على كسب تأييد الدول العربية ومجموعة الدول الآفروآسيوية ودول المعسكر الشرقي.[٢٤]

ورغم ما يعكسه التوجّه السيّاسي من اختلاف دوائر الأحلاف الدولية بالنسبة لتونس وجبهة التحرير الوطني ، إلا أنّهما عملا معا على تكثيف جهود التّنسيق قصد كسب التأييد الدولي للقضية الجزائرية، غير أن الميول الغربية للسيّاسة التونسية واهتمامها بالتوجّه الغربي قد تسبّب في حدوث عدّة خلافات بين الطرفين التونسي والجزائري، وهو ما نلمسه من خلال نصّ التقرير الذي قدّمه كريم بلقاسم إلى المجلس الوطني للثورة الجزائرية خلال شهر أوت ١٩٦١، مشيرا فيه إلى العلاقات مع تونس بهذه العبارات: «... ويتميّز تفحّص عملنا أيضا بوجوه سلبيّة، يكمن أهمّها في العلاقات الجزائرية التونسية، إنّ مناورات بورقيبة وسيّاساته التّقسيمية للعالم العربي وإفريقيا، ومواقفه الوسطى التي غالبا ما تكون لصالح فرنسا والغرب، أساءت جميعها لسيّاستنا الإفريقية والعربية بوجه خاصّ ...»[٢٥].

هكذا يتّضح لنا أن الحكومة التونسية لم تُوفّق في مساعيها الدبلوماسية القائمة على التّعاون مع الغرب، والهادفة إلى تقريب وُجهات النظر بين الجزائريين والفرنسيين، الأمر الذي دفعها إلى العمل في اتجاه معسكر الحيّاد، خاصّة بعدما يئس بورقيبة من تصرّفات الفرنسيين ومناوراتهم، فهم يؤيّدون مساعيه السيّاسية ثم يتراجعون عنها، لذلك نجده ينتقد ازدواجية الخطاب والغموض لدى الفرنسيين، ويطالبهم بتطبيق الشّعارات التي ينادون بها على الشّعب الجزائري، مؤكّدا في خطاباته أنّ تونس ستكون دوما في صفّ إحقاق الحقّ وتوقيف المعتدي.[٢٦]

٢/٢-الجهود الدبلوماسية التونسية على مستوى هيئة الأمم المتّحدة

في إطار تضامنها مع الثورة الجزائرية اهتمّت الحكومة التونسية منذ استقلالها بمسألة تدويل القضية الجزائرية، والسّعي لكسب التّأييد الدولي لها في هيئة الأمم المتّحدة، حيث كانت تونس من أبرز المدافعين عن قضيّة الجزائر بهذا المحفل الأممي[٢٧]. وفي نفس الوقت كانت جبهة التحرير الوطني تعتبر دخول تونس والمغرب لهيئة الأمم المتّحدة حدثا بارزا في تاريخ النّضال السيّاسي للجزائر ضدّ الاستعمار الفرنسي، باعتبار أن شعوب المغرب العربي لا تفرّق كثيرا بين دخول تونس والمغرب إلى هيئة الأمم المتّحدة، وبين حضور الجزائر بنفسها في هذه الهيئة[٢٨].

وفي هذا الصّدد، تجب الإشارة إلى أن بورقيبة هو أول مسؤول تناول القضية الجزائرية في أروقة الأمم المتّحدة، حيث وضّح في أول حضور لتونس بهيئة الأمم مدى اهتمام بلاده بالمشكل الجزائري، ودعا فرنسا إلى الاعتراف بحقّ الشعب الجزائري في الحرية والاستقلال، كما انتقد سكوت العالم وعدم اكتراثه بما يحدث في الجزائر، مطالبًا هيئة الأمم بضرورة تدويل القضية الجزائرية، وإنهاء الحرب التي تقودها فرنسا في الجزائر قائلاً: «نحن نشاهد اليوم حربًا طاحنة تدور رحاها في الجزائر ضدّ

شعب أبيّ لا ذنب له سوى تعلّق إرادته بالتخلّص من السّيطرة الأجنبية...، فالمنطق يفرض علينا أن نُناهض العدوان أينما ظهرت معالمه، وعلى الأمم المتّحدة أن تمدّ يدها إلى الشعوب التي مازالت تكافح لتحقيق مطامحها القومية، بل ومن واجبها مساعدة فرنسا على الخروج من المأزق الذي تورّطت فيه، وتحديد صيغة علاقاتها بالشعب الجزائري، والاعتراف بحقّه الطبيعي في الاستقلال، والحلّ الذي ننشده يمكن أن يتمّ بمراحل، كأن يتحقّق أوّلا وقف القتال، وثانيّا إرسال قوة بوليس دوّلي، على أن يتمّ في الأخير إرسال لجنة وساطة مؤلّفة من ثلاث أو أربع شخصيّات مهمّتها إيجاد حلّ سلمي عادل لقضية الجزائر»[٢٩].

لقد استاء السّاسة الفرنسيين وقادة الرّأي العام الفرنسي من هذا الاقتراح الذي أعلنه بورقيبة على منبر الأمم المتّحدة، واعتبروه تدخّلا في مشكلة هي من صميم المشاكل الدّاخلية بالنّسبة لفرنسا، باعتبار أن الجزائر أرض فرنسية في نظرهم، وأنّ النزاع هناك في الجزائر قائم بين طائفتين من الفرنسيين: مسلمين وأوروبيين، والحكومة الفرنسية هي الوحيدة التي يمكن أن تحكم بينهما[٣٠].

ومن جهته أيضا قام السيّد المنجي سليم[٣١] –ممثّل تونس في الأمم المتّحدة– بمساع لدى وفود الكتل الإفريقية والآسيوية يوم ٠٦ فيفري ١٩٥٧، حيث قام بإعداد لائحة مشتركة موقّعة من طرف سبعة عشر وفدا، وتمّ توجيهها إلى اللّجنة السيّاسية التّابعة للأمم المتّحدة، قصد لفت أنظارها إلى ضرورة إعطاء الأولوية لمناقشة القضية الجزائرية في دورة الأمم المتّحدة الحاليّة، وضمن هذه اللاّئحة نقرأ ما يلي: «إنّ الجمعيّة العامّة تُلفت نظركم إلى الحالة المضطربة وإلى الكفاح الجاري في الجزائر الذي سبّب آلام بشرية عديدة عكّرت صفو التآلف بين الأمم، ولهذا نطالبكم بالاعتراف بحقّ الجزائر في تقرير مصيرها طبقا لمبادئ وميثاق الأمم المتّحدة، كما نطلب من فرنسا والشعب الجزائري أن يدخلا حالا في مفاوضات من أجل إيقاف القتال وتسويّة نزاعهما سلميّا وفق مبادئ الأمم المتّحدة»[٣٢].

كما اتّصل المنجي سليم برؤساء وأعضاء الوفود المعتمدة لدى الأمم المتّحدة، وطلب منهم تأييد القضية الجزائرية خلال المناقشات. وفي نفس السيّاق ألقى السفير التونسي بالأمم المتّحدة كلمةً دحض فيها الأفكار الفرنسية، حيث قال: «إنّ الجزائر لم تكن فرنسية في يوم من الأيّام، لذلك يجب وقف القتال وفتح مفاوضات على أساس الاعتراف بحقّ الشعب الجزائري في استرجاع كرامته والتمتّع بسيّادته وتقرير مصيره طبقا لميثاق الأمم المتّحدة»[٣٣]. وطلب السفير التونسي أيضا مقابلة الأمين العام بالأمم المتّحدة "داغ هامر شولد" قصد التّباحث معه حول مشكلة اللاّجئين الجزائريين الذين تفاقم عددهم بتونس، واغتنم الفرصة ليسلّم الأمين العام تقريرا مفصّلا عن وضع هؤلاء اللاّجئين، منتقدا فيه ازدواجيّة التّعامل بين الشعوب، ومطالبا بضرورة معاملة اللاّجئين الجزائريين مثل اللاّجئين المجريين[٣٤].

والملاحظ أيضًا، أن البعثة التونسية بالأمم المتّحدة، قامت بجهود حثيثة للتّعريف بالقضية الجزائرية، ففي الخامس من شهر أكتوبر ١٩٥٧، قدّم مندوب تونس بالأمم المتّحدة السيّد "محمود المسعدي" مداخلة أمام اللّجنة الاجتماعية والثقافية اتّهم فيها فرنسا بخرقها لحقوق الإنسان من خلال أعمالها الإجرامية التي تقترفها في حقّ الشعب الجزائري، والمتمثّلة أساسا في جملة الاعتقالات والإيقافات التي لا مبرّر لها والتي لا ترتكز على ضمانات عدليّة[٣٥]. وفي السّابع من نفس الشهر قدّم الباهي الأدغم[٣٦] نائب رئيس المجلس التونسي اقتراحا في الأمم المتّحدة يتضمّن عقد ندوة من أربعة فرقاء: فرنسا، تونس، المغرب، جبهة التحرير الوطني، قصد تسوية المشكلة الجزائرية[٣٧].

وخلال شهر ديسمبر ١٩٥٧، لقيّت القضية الجزائرية جهودا مكثّفة لتدويلها بالأمم المتّحدة بفضل فكرة الوساطة التي عرضتها تونس والمغرب، والجهود المبذولة من طرف الدبلوماسية التونسية في تنسيق المواقف مع الأقطار الآفروآسيوية[٣٨]. ومُواجهة للموقف الفرنسي المتشدّد ردّ ممثل تونس المنجي سليم على افتراءات وزير الخارجية الفرنسي "كريستيان بينو" في خطاب مطوّل كان له تأثيره على أعضاء الجمعيّة العامّة، حيث شدّد فيه على تأكيد هويّة الجزائر المستقلّة عن فرنسا، وتمسّك الثوار الجزائريين بضرورة الاعتراف بهويّتهم واستقلالهم، وذكر أن حوادث الجزائر ليست مجرّد تهدئة للأوضاع بقدر ما هي حرب شرسة تطال شعب أبيّ، ودعا المنجي سليم إلى تأييد مشروع الوساطة التونسية المغربية للإسراع بإيجاد حلول سلميّة للقضية الجزائرية، غير أن هذا المشروع قد وُوجه بمعارضة فرنسية شديدة اللهجة[٣٩].

لقد تضاعفت مساعي تونس الدبلوماسية للتّنديد بسيّاسة الاضطهاد والتّقتيل الممارسة ضدّ الشعب الجزائري، ودعت الرّأي العام العالمي والمنظّمات الدولية إلى تأييد القضية الجزائرية، حيث طالب ممثّل تونس خلال الدورة الثالثة عشر

للأمم المتّحدة بضرورة الاعتراف بوجود طرفين متحاربين، والسّماح لممثّل جبهة التحرير الوطني بحضور مناقشات القضية الجزائرية خلال الدّورة المقبلة للأمم المتّحدة[٤٠]. وعلى هامش انعقاد هذه الدّورة، أقام المنجي سليم حفلا على شرف الوفد الجزائري حضره وفد المغرب وليبيا، وعدد من الدبلوماسيين والصحفيين، وتمّ التّأكيد خلاله على الدّعوة لنصرة القضية الجزائرية والاعتراف بحقّ الشّعب الجزائري في الحرية والاستقلال[٤١].

هكذا يتّضح لنا أن تونس قد حاولت من خلال مساعيها الدبلوماسية تفعيل دور الأمم المتّحدة لصالح الثورة الجزائرية، حيث استغلت منبرها للدّعاية لها والتّعريف بها قصد كسب أنصار ومؤيّدين لها، هذا فضلا عن فضح الممارسات القمعية الفرنسية في حقّ الشعب الجزائري، كما سعت البعثة التونسية إلى تكثيف الاجتماعات لدى الدول المعتمدة بها للتّصويت لصالح القضية الجزائرية. وبهذا تكون الدبلوماسية التونسية قد نجحت إلى حدّ ما في هذه المهمّة، وذلك باعتراف وشهادة البعثة السيّاسية لجبهة التحرير الوطني الجزائرية بالأمم المتّحدة، التي عبّرت عن شكرها الخالص للوفد التونسي بالأمم المتّحدة من خلال نصّ البرقيّة التي بعث بها وزير الأنباء الجزائرية "محمد يزيد" إلى الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة، وممّا جاء فيها ما يلي: «... نُريد أن نعبّر لفخامتكم عن ارتيّاحنا لما برهن عنه الوفد التونسي ورئيسه السفير المنجي سليم من مساندة فعّالة للقضية الجزائرية... مع فائق الاحترام والتقدير»[٤٢].

٣/٢-الجهود الدبلوماسية التونسية على المستوى العربي

عملت الحكومة التونسية على تكثيف التّنسيق مع بقيّة الأقطار العربية من أجل تدويل القضية الجزائرية ومواجهة الدّعاية الفرنسية بصفة خاصّة والغربية بقيّادة الولايات المتّحدة الأمريكية بصفة عامّة، تلك الدّعاية التي كانت تتضمّن أنّ ما يحدث بالجزائر هو مجرّد تمرّد جماعة متطرّفة خارجة عن القانون، وبالتّالي لا يرقى طرحه على مستوى الجمعية العامة للأمم المتّحدة كقضية دوّلية[٤٣].

إنّ هذا التوجّه الذي اعتمدته الحكومة التونسية في نصرتها للقضية الجزائرية، جاء نتيجة اعترافها وقناعتها بمدى تأثير أحداث ثورة الجزائر على مسألة الحرية والوحدة في منطقة المغرب العربي بصفة خاصّة والوطن العربي بصفة عامّة، وهو ما نلمسه من خلال تصريح الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة، حين قال: «إنّ العقبة الكأداء هي الاستعمار في الجزائر، لذا أعتقد أن عملنا مع بعض تونس والمغرب وليبيا لتوفير أسباب تحرير الجزائر، يسهّل علينا في نفس الوقت تحقيق الوحدة، لأنّ تحرير الجزائر شرط أساسي لتحقيق تلك الوحدة»[٤٤].

وتدعيما لهذا الاتّجاه شاركت الحكومة التونسية في مؤتمر القاهرة المنعقد بمصر خلال الفترة الممتدّة من ٢٦ ديسمبر ١٩٥٧ إلى ٠١ جانفي ١٩٥٨، وفيه أدينت السيّاسة الاستعمارية المنتهجة في حقّ الشعب الجزائري الذي يناضل من أجل الحرية والاستقلال، وصدر تصريح مشترك عن الدول الحاضرة يدعو إلى مدّ يد المساعدة للشعب الجزائري في جميع الميادين، كتقديم الأدوية والأغذية وغير ذلك من الوسائل[٤٥]. وخلال هذا المؤتمر قدّم الوفد التونسي المشارك عدّة اقتراحات تخصّ القضية الجزائرية، أهمها: إحداث لجنة الجزائر (لجنة فرعية منتخبة تختصّ بالقضية الجزائرية)، وتدعيم وساطة الرئيس بورقيبة والملك محمد الخامس، بالإضافة إلى إعانة اللاّجئين الجزائريين في تونس والمغرب ...[٤٦].

كما أكّدت تونس دعمها الدبلوماسي للثورة الجزائرية من خلال دعوتها إلى الاعتراف بحقّ الشعب الجزائري في السيّادة والاستقلال أثناء اللّقاءات الثنائية ومؤتمرات المغرب العربي، حيث أعلنت خلال مؤتمري طنجة[٤٧] والمهدية[٤٨] عن وقوفها إلى جانب الجزائر معتبرة أنّ تحريرها من قبضة الاستعمار هو الشرط الأساسي لتحقيق وحدة المغرب العربي[٤٩].

ففي مؤتمر طنجة، ألقى ممثّل الوفد التونسي السيّد الباهي الأدغم خطابا يعكس فيه مدى اهتمام تونس بمسألة استقلال الجزائر، داعيّا إلى ضرورة التّعاون من أجل تحرير الجزائر ووحدة المنطقة، حيث قال: «إنّنا نجتمع اليوم في ظرف جدّ دقيق، فمن جهة يعيش شمال إفريقيا في تمخّض كاد يجتاز حدود الاستطاعة، وهذا التيّار التحرّري الذي يكتسح المغرب من أدناه إلى أقصاه قد قوض أركان الاستعمار حتى أشرفه اليوم على الهلاك ...، ومن جهة أخرى يساوس الظرف الدولي اهتماما بالحرب في الجزائر بين مؤيّد للحقّ ومناهض له، سواء كان ذلك بتأييد القوات الغاشمة أو بالسّكوت عن الإجرام». كما قدّم الباهي الأدغم بوضوح رأي الوفد التونسي حول الوحدة المغاربية حين قال: «إنّ وحدة شمال إفريقيا قد أصبحت ضرورة يؤيّدها التاريخ ويفرضها وجوب التّعاون لضمان مصالحه الحيوية وكيانها»[٥٠].

وتطبيقًا لتوصيّات مؤتمر طنجة، دعت تونس إلى عقد مؤتمر مغاربي بمدينة المهدية التونسية بحضور ممثلين عن تونس والمغرب الأقصى وجبهة التحرير الوطني[٥١]، رافعين صوت

القضية الجزائرية رغم المضايقات الفرنسية[٥٢]. ونظرا لكون الثورة الجزائرية كانت هي النقطة الأساسية والمحور الأساسي للقاءات الإخوة المغاربة، فقد أعطيّت رئاسة هذا المؤتمر إلى السيّد فرحات عبّاس عن الوفد الجزائري الذي صرّح باسم جبهة التحرير الوطني قائلا: «ستبحث ندوة المهدية في المشاكل التونسية والمغربية والجزائرية على ضوء الأحداث الأخيرة التي جرت في فرنسا، كما تبحث كيفية تطبيق القرارات المتّخذة في ندوة طنجة بشأن إنشاء المجلس الاستشاري للوحدة في شمال إفريقيا، وتشكيل الحكومة الجزائرية الحرّة، وستكون الندوة كذلك فرصة للتّنسيق بين الحكومة التونسية والمغربية وجبهة التحرير الوطني حول الإعداد للمفاوضات المقبلة مع فرنسا ...»[٥٣].

وعلى هذا الأساس قرّر القادة المغاربة المجتمعون بمدينة المهدية التونسية، إنجاز ما أوصى بإنشائه مؤتمر طنجة من مؤسّسات وقتيّة ريثما يستكمل المغرب العربي حريته واستقلاله، حيث قرّروا تأليف مجلس استشاري مكوّن من ثلاثين عضوا يمثلون الأقطار الثلاثة[٥٤]، وعلّقت جريدة المجاهد على هذه الندوة قائلة: «إنّها جاءت لبحث تنفيذ توصيّات مؤتمر طنجة وبحث وسائل التّعاون السيّاسي والدبلوماسي لخدمة القضية الجزائرية في الخارج»[٥٥].

وزيادة على ما سبق ذكره، فقد عملت الحكومة التونسية على تنسيق مساعيها الدبلوماسية مع دولة ليبيا والتحرّك بصورة جماعية لمساعدة الجزائر الشقيقة، وفي هذا الإطار اجتمع بورقيبة برئيس مجلس الوزراء اللّيبي السيّد مصطفى بن حلّيم خلال الفترة الممتدة ما بين ٠٢ و٠٦ جانفي ١٩٥٧، وأصدرا بلاغا مشتركا أكّدا فيه على أنّ الحلّ العادل للقضية الجزائرية، يقتضي الاعتراف بحقّ الشعب الجزائري في السيّادة والاستقلال وتقرير مصيره بكامل الحرية، تماشيّا مع ما نصّ عليه ميثاق الأمم المتّحدة، كما استغلّ الطرفان فرصة لقائهما لمناشدة الدول الحرّة المحبة للسّلام بتضافر جهودها لحلّ قضية الجزائر بما يحقّق رغبات الشعب الجزائري ويحقن الدّماء ويعيد الأمن والسلام للمنطقة[٥٦].

٤/٢-الجهود الدبلوماسية التونسية على المستويين الإفريقي والآسيوي

عملت الحكومة التونسية على إقامة علاقات دبلوماسية مع العديد من الدول الإفريقية والآسيوية، قصد كسب تأييدها للثورة الجزائرية، حيث ظلّت تونس تؤكّد مرارا وتكرارا على عدالة القضية الجزائرية أثناء الزيّارات الثنائية والمشاركات في النّدوات والمؤتمرات الإفريقية والأسيوية[٥٧].

وفي هذا السيّاق، قام الرئيس بورقيبة بزيارة إلى غانا سنة ١٩٥٨ لحضور عيد استقلالها، وتطرّق في نقاشه مع المسؤولين الغانيين إلى القضية الجزائرية قصد تحسيسهم بأهميتها وعدالتها وضرورة دعمها، وألقى خطابا في عاصمتها أكرا جاء فيه: «لقد توغّلت فرنسا في الجزائر، واستعملت سيّاسة القوة التي لا تنجح أبدا...، وعلى الأمم المتّحدة أن تبعث بقوة عسكرية تأخذ على عاتقها مهمّة إيقاف القتال»[٥٨].

كما شاركت تونس أيضا في ندوة أكرا بغانا، وألقى الصّادق المقدم[٥٩] كاتب الدولة للخارجية التونسية خطابا عرض فيه القضية الجزائرية، وطلب من الأفارقة تقديم الدّعم الكافي للثورة الجزائرية، مُعربا عن تضامن تونس مع الشعب الجزائري الشقيق، من خلال التّنديد بجرائم الإبادة التي يقترفها الجيش الفرنسي في حقّه[٦٠]. وخلال هذه الندوة نسّق التونسيون مع المغاربة وقدّموا عدّة اقتراحات لتتبنّاها القمّة في البيان الختامي، تتمثّل أساسا في: إعلان حقّ الجزائر في الاستقلال واستنكار حرب الجزائر ودعوة فرنسا إلى التفاوض مع جبهة التحرير الوطني بمساعدة الرئيس بورقيبة والملك محمد الخامس، بالإضافة إلى دعوة جميع الأمم إلى توجيه نداء لفرنسا لوضع حدّ لحربها بالجزائر ...[٦١].

وفي سنة ١٩٥٩ شاركت الحكومة التونسية في ندوة منروفيا في ليبيريا للحكومات الإفريقية المستقلة، وقدّم الصّادق المقدم وزير الخارجية التونسية مداخلة استنكر فيها بشدّة حرب الإبادة التي يتعرّض لها الشعب الجزائري من طرف فرنسا، حيث قال: «لقد تبث أنّه لا يوجد حلّ عسكري للقضية الجزائرية ...، وعلينا أن نعمل بجميع الوسائل الصّالحة لإعانة الشعب الجزائري على استرجاع سيّادته واستقلاله ...»[٦٢].

وزيادة على ما سبق، احتلّت القضية الجزائرية صدارة الاهتمام خلال النّدوات والمؤتمرات الإفريقية التي احتضنتها تونس، فمع مطلع سنة ١٩٦٠ انعقدت بتونس الندوة الثانية للشعوب الإفريقية التي حقّقت نجاحا سيّاسيا كبيرا للوفد الجزائري، بإعلان الوفود والمنظّمات الشعبية والإفريقية تأييدها لكفاح الشعب الجزائري[٦٣]. كما اهتمّت تونس بالعمل على كسب تضامن الدول الإفريقية مع الجزائر من خلال احتضانها المؤتمر الثالث للدول الإفريقية في شهر جوان ١٩٦٠، أين بذلت جهودا معتبرة لصالح دعم القضية الجزائرية وكسب موقف الدول المستقلة حديثا لصالح مساندة الجزائر في المحافل

الدولية، وهو ما أكّده الرئيس بورقيبة أثناء اجتماعه برؤساء دول الكاميرون والنيجر والسنغال في شهر نوفمبر ١٩٦٠ بتونس، حين عبّر عن ضرورة مساندة الدول الإفريقية للقضية الجزائرية[٦٤].

هذا وقد تحرّكت الدبلوماسية التونسية أيضًا على المستوى الآسيوي لخدمة الثورة الجزائرية، حيث تحادث الرئيس بورقيبة مع الرئيس الإندونيسي أحمد سوكارنو في قصر الجمهورية بالمرسى حول القضية الجزائرية، وأكّد له على ضرورة دعمها على المستوى العالمي وداخل هيئة الأمم المتّحدة[٦٥].

٢/٥-الجهود الدبلوماسية التونسية على مستوى الولايات المتّحدة الأمريكية وبعض الدول الأوروبية

سعت الحكومة التونسية إلى التحرّك دبلوماسيا على مستوى الولايات المتّحدة الأمريكية لفائدة الثورة الجزائرية، وهو ما يتّضح لنا من خلال تلك اللّقاءات والاجتماعات التي كانت تتمّ بين المسؤولين التونسيين والأمريكيين بهدف إقناع الإدارة الأمريكية وتحفيزها على التحرّك لإيجاد حلّ عادل وسلمي للقضية الجزائرية[٦٦].

ففي شهر نوفمبر ١٩٥٦، اغتنم الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة فرصة زيّارته إلى الولايات المتّحدة الأمريكية، قصد تمثيل تونس في الأمم المتّحدة، للقيّام بعدّة مشاورات مع المسؤولين الأمريكيين بخصوص القضية الجزائرية، وفي هذا الشّأن عقد بورقيبة لقاء خاصّ مع الرئيس الأمريكي إيزنهاور، وشرح له تداعيّات الثورة الجزائرية، كما طلب منه ضرورة التدخّل العاجل لإيجاد حلّ عادل لها[٦٧]. وقد تحدّث بورقيبة عن لقائه بالرئيس الأمريكي خلال الخطبة التي ألقاها بمدينة باردو بتاريخ ١٤ ديسمبر ١٩٥٦ تحت عنوان "الانسجام طريق النّجاح"، فقال: «... وأثناء لقائي بالرئيس الأمريكي، فإنّ أبرز موضوع تناولته المحادثات التي تمّت بيننا، هو موضوع القضية الجزائرية، حيث وقع تبادل الآراء في شأن الحلول الممكنة...، وصرّحت أنّه لا يمكن وقف القتال إلّا بعد الاعتراف بحقّ الشعب الجزائري في الاستقلال، وكلّ ما عدا ذلك من إصلاحات مقترحة لا سبيل لها، ولا يمكن أن ترضي المجاهدين الجزائريين بتسليم البلاد ووقف القتال، وأنّه ليس لأيّ كان الحقّ في الاقتصاص من إخواننا الجزائريين في ترابنا التونسي»[٦٨].

ومع مطلع سنة ١٩٥٧، وفي محاولة منه لكسب الرّأي العام الأمريكي لصالح الثورة الجزائرية، وجّه الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة نداء إلى أمريكا يحثّها فيه على التّصويت لفائدة استقلال الجزائر عند مناقشة القضية الجزائرية من طرف اللّجنة السيّاسية التّابعة للأمم المتّحدة، كما قام السفير التونسي أيضا السيد المنجي سليم بزيارة لوزارة الخارجية الأمريكية، حيث اجتمع مع كاتب الدولة للخارجية الأمريكية "جون فوستر دالاس" لأكثر من ساعة، وطلب منه ضرورة تدخّل الولايات المتّحدة الأمريكية وتأييدها للقضية الجزائرية أثناء مناقشتها في الأمم المتّحدة[٦٩].

ولتحسيس المسؤولين الأمريكيين بمسؤولياتهم الإنسانية تجاه الشعب الجزائري، الذي شنت عليه فرنسا حرب إبادة بدعم مالي أمريكي، وجّه الرئيس بورقيبة رسالة إلى الرئيس الأمريكي إيزنهاور، يُلفت فيها نظره إلى حرب الإبادة التي تشنّها فرنسا في منطقة الحدود الجزائرية التونسية ونتائجها الإنسانية على عشرات الآلاف من المواطنين الجزائريين الأبرياء، موضّحا له بأنّ هذه الحرب هي التي حمّلت عدد كبير من الجزائريين على النزوح والالتجاء إلى تونس والعيش في ظروف صعبة[٧٠].

إنّ ما يمكن ملاحظته من خلال استعراض أهمّ المساعي الدبلوماسية لتونس على مستوى الولايات المتّحدة الأمريكية من أجل خدمة الثورة الجزائرية ونُصرتها، هو أن نظرة الولايات المتّحدة الأمريكية قد بدأت تتغير لصالح القضية الجزائرية نتيجة الجهود والمساعي التي بدلتها تونس في هذا المسعى، وهو ما أكّده كاتب الدولة للخارجية الأمريكية "مستر دالاس" حين صرّح قائلا: «إنّ الولايات المتّحدة الأمريكية أصبحت تعتبر القضية الجزائرية مسألة عالمية، وهي عازمة اليوم على ضرورة حلّها بكل ما أتيح لذلك من وسائل ...»[٧١].

إضافة إلى ما سبق، فقد تحرّكت الدبلوماسية التونسية على مستوى المملكة البريطانية، حيث يذكر فتحي الديب أن الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة، طلب المساعدة من بريطانيا لإيجاد حلّ سلمي للقضية الجزائرية، وذلك على إثر استقباله لمبعوث بريطانيا الوزير البريطاني السابق "مستر نانتج"[٧٢]. كما تحدّث الرئيس بورقيبة عن القضية الجزائرية مع الرئيس اليوغسلافي "جوزيب بروس تيتو"، وذلك أثناء زيارته إلى يوغسلافيا سنة ١٩٦١، حيث ألقى خطابا مطوّلا في بلغراد يوم ٠١ سبتمبر ١٩٦١، تطرّق فيه إلى الاستعمار ومناوراته في الجزائر قائلا: «إنّ حرب الجزائر تشكّل بدون شكّ حجر الأساس للاستعمار الذي دقّت ساعته، لكنّه أبى إلا أن يلفظ أنفاسه الأخيرة حيث رفع القناع عن وجهه فتغالى في ركوب الشطط والاستهتار بالذّات البشرية، متفننا في طرق القهر والاضطّهاد ... »[٧٣].

وإلى جانب هذه المساعي والخدمات الدبلوماسية التونسية العلنية؛ المتمثّلة في السّعي لتدويل القضية الجزائرية ومحاولة كسب التّأييد لها في المحافل الدولية المختلفة، فقد كانت هناك بعض الخدمات السرّية في هذا المجال، تمثّلت في إيعاز السّلطات التونسية لبعض سفاراتها وممثليها في الخارج بضرورة تقديم الخدمات والتّسهيلات لجبهة التحرير الوطني، وخاصّة سفاراتها في بلدان أوروبا الغربية التي لم تكن تعترف بجبهة التحرير الوطني، حيث كان لزاما على هذه الأخيرة تغطيّة نشاطاتها السرّية فيها، كما كان الحال في ألمانيا الاتّحادية وبلجيكا وسويسرا وهولندا وفرنسا وإيطاليا وغيرها من البلدان الأوروبية الأخرى(٧٤).

وقد تعدّدت أوجه التّسهيلات والخدمات التي قدّمتها السّفارات والقنصليّات التونسية لجبهة التحرير الوطني الجزائرية، ومنها على سبيل المثال قيّام القنصليات التونسية في ألمانيا بمنح الجزائريين الفارّين من الجيش الفرنسي، وثائق وجوازات سفر تونسية لتسهيل انتقالهم إلى تونس للالتحاق بصفوف الثورة(٧٥). هذا فضلا عن سماح السّلطات التونسية لجبهة التحرير الوطني باتخاذ بعض السّفارات التونسية في أوروبا بأن تكون مقرّات لمكاتب الاتّصال السرّية التّابعة لها، كسفارتي تونس في فرنسا وألمانيا التي اتّخذها المناضل عبد الحفيظ كيرامان مقرّا رئيسًا له، وقد كان بهاتين السّفارتين يومئذ مناضلان هما "المنذر بن عمّار" و"عبد الكريم الفاسي"، اللّذين كانا يتجاوبان مع جبهة التحرير الوطني دون انتظار التّعليمات من حكوماتهما، كما كان المجاهد عبد الحفيظ كيرامان مسؤول مكتب الاتّصال ببون ينشط بجواز سفر تونسي تحت اسم مالك الدخلاوي(٧٦).

خاتِمَةٌ

على كلّ، وصل بنا البحث في هذا الموضوع إلى القول بأن تونس قد وفّت الثورة الجزائرية حقّها من التّضامن والتآزر، حيث لم تبخل الحكومة التونسية في إعرابها عن تأييدها للقضية الجزائرية في المحافل الدولية والإقليمية، ومساندتها لآراء ومواقف جبهة التحرير الوطني خلال مؤتمرات الدول الإفريقية المستقلة وداخل هيئة الأمم المتّحدة. كما ظلّت تؤكّد في كثير من المناسبات على عدالة القضية الجزائرية، وعلى أحقّية الشعب الجزائري في الحرية والاستقلال بناء على المواثيق الدولية الصّادرة عن مختلف المنظّمات والهيئات الدولية. وأكثر من ذلك فقد عملت الحكومة التونسية على تنسيق المواقف السياسية والعمل المشترك مع عدّة أطراف أخرى قصد كسب التّأييد الدولي للقضية الجزائرية من جهة، والضّغط على فرنسا للدخول في مفاوضات جادّة مع جبهة التحرير الوطني بهدف الوصول إلى حلّ يرضي الشعب الجزائري من جهة أخرى. وللإشارة فإن هذه الجهود الهامّة التي كانت تقوم بها تونس في مساندتها لكفاح الشعب الجزائري، كانت محلّ تقدير وامتنان من طرف مسؤولي الثورة الجزائرية.

الاحالات المرجعية:

(1) Mohammed Guentari ,organisation politico-administrative et militaire de la révolution algérienne de 1954-1962, Tome 2, officier publications universitaire, Algérie, 2000, p59.

(٢) **الجامعة التونسية**، بناء المغرب العربي، أشغال الملتقى المنظّم من طرف مركز الدّراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية بتونس، أكتوبر ١٩٨١، ط١، المطبعة العصرية، تونس، ١٩٨٣، ص٣٥.

(٣) عميرة عليّة الصّغير، **جيش التحرير الوطني بتونس، الملتقى الدولي حول نشأة وتطوّر جيش التحرير الوطني ١٩٥٤ – ١٩٦٢**، أيام ٢. ٣. ٤ جويلية ٢٠٠٥، فندق الأوراسي، الجزائر، ٢٠٠٥، ص١٠.

(٤) خليل فادي وآخرون، **تاريخ الدبلوماسية، قسم العلاقات الدولية والدبلوماسية**، منشورات جامعة دمشق، ٢٠٠٨، ص١٩.

(٥) عمّار بن سلطان وآخرون، **الدّعم العربي للثورة الجزائرية**، سلسلة المشاريع الوطنية للبحث، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في تاريخ الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، الجزائر، ٢٠٠٧، ص ٣٠.

(٦) عبد القادر العريبي، **تونس وعلاقاتها مع بلدان المغرب العربي (١٩٤٧-١٩٨٠)**، ج ٠١، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس، ص ١١٧.

(٧) عامر رخيلة، **الثورة الجزائرية والمغرب العربي**، مجلة المصادر، العدد ٠١، القرص المضغوط الصّادر عن المركز الوطني للدراسات والبحث في تاريخ الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، الجزائر، ٢٠١٠.

(٨) ولد الحبيب بورقيبة بمدينة المنستير في ٠٣ أوت ١٩٠٣، زاول تعليمه الابتدائي والثانوي بالصّادقية ثم بمعهد كارنو، ومنه انتقل إلى باريس أين حاز على الإجازة في الحقوق وديبلوم العلوم السياسية، انخرط في النشاط السيّاسي مبكّرا وشارك بذلك في تأسيس الحزب الدستوري الجديد سنة ١٩٣٤. ساهم في التعريف بالقضية الوطنية التونسية من خلال جولاته الدعائية للعديد من البلدان، وعلى إثر توقيع الاتفاقيات التونسية- الفرنسية دخل بورقيبة في صراع مع الأمين العام للحزب الدستوري الجديد "صالح بن يوسف" بسبب الموقف من الاتفاقيات. انتخب بورقيبة في ٠٨ أفريل ١٩٥٦ رئيسا للمجلس التأسيسي وأصبح في ١٢ من نفس الشهر رئيسا لأول حكومة تونسية بعد الاستقلال. توفي سنة ٢٠٠٠. انظر: الطويلي (أحمد)، **تراجم تونسية**، المطبعة العصرية، تونس، ٢٠٠٩، ص ١٦٦.

(9) Amira Aleya Sghaier, Les Tunisiennes et la révolution algérienne (1954 - 1962) ,in méthodologie de l’histoire des mouvements nationaux au Maghreb, publication de la F.T.E.R.S.I Zaghouan, 1998, p113.

(١٠) ولد محمد بن عبد الكريم الخطابي في منطقة أجدير بالمغرب الأقصى سنة ١٨٨٢، وهو رجل سيّاسي وقائد عسكري مغربي من منطقة الرّيف، تلقّى ثقافته الوطنية من جامع القرويين بفاس، ثم انخرط في سلك الإدارة الإسبانية بمليلية. انتخبته قبيلته خليفةً لأبيه، فبدأ بذلك مرحلةً جديدةً من حياته، قوامها مقاومة الاستعمار الإسباني والفرنسي للمغرب. في سنة ١٩٢٥ تمّ نفيه من طرف الاستعمار إلى جزيرة "ريونيون" بالمحيط الهادي، وفي سنة ١٩٤٧ طلب اللّجوء السيّاسي من السّلطات المصرية، فسمحت له بذلك، حيث تابع نشاطه السيّاسي هناك وأسهم مساهمة فعّالة في أعمال لجنة تحرير المغرب العربي، وبقيّ في مصر إلى أن وافته المنية هناك سنة ١٩٦٣. انظر: **الموسوعة العسكرية**، ط ٠١، المؤسّسة العربية للدّراسات والنشر، ١٩٧٩، ص ص ١٠٧. ١٠٨.

(١١) ولد صالح بن يوسف يوم ١١ أكتوبر ١٩٠٧، بمغراوة (قرب مدين) بجزيرة جربة من عائلة ميسورة الحال، تحصّل على البكالوريا سنة ١٩٣٠ بتونس، وعلى الإجازة في الحقوق من باريس سنة ١٩٣٣، ليعود بعد ذلك إلى تونس وينخرط في الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد سنة ١٩٣٤. في سنة ١٩٤٨ أصبح صالح بن يوسف الأمين العام للحزب، فعرف الاعتقال والنّفي شأنه شأن قيادة حزبه، عاش في المنفى منذ جانفي ١٩٥٢ هروبًا من الاعتقال إثر القطيعة مع الحكومة الفرنسية. عارض اتفاقيات الاستقلال الداخلي الموقعة في ٠٣ جوان ١٩٥٥، معتبرا إياها "خطوة إلى الوراء"، فتزعّم بذلك الشقّ المعارض لها. في سنة ١٩٥٦ سافر إلى ليبيا ومنها انتقل إلى القاهرة معلنا عن استمراره في نضاله التحرري. في ١٤ أوت ١٩٦١ تم اغتياله في فرانكفورت بألمانيا، بموجب القرار الذي أصدره بورقيبة في حقه. انظر: منصف الشابي، **صالح بن يوسف. حياة كفاح**، دار نقوش عربية للطباعة، دون مكان، دون تاريخ، ص. ص ١٧،٥٣.

(١٢) ربيع مبارك، **لجنة التّنسيق بين جيش التحرير الجزائري وجيش التحرير المغربي: دواعي التأسيس والأهداف، ١٥ يوليو ١٩٥٥**، أعمال الملتقى الدولي حول نشأة وتطوّر جيش التحرير الوطني المنعقد بفندق الأوراسي ٢. ٣. ٤ جويلية ٢٠٠٥، الجزائر، ٢٠٠٥، ص ١٥٧.

(١٣) عميرة عليّة الصّغير، **اليوسفيون وتحرّر المغرب العربي**، ط ٠٢، المغاربية للطباعة والنشر والإشهار، تونس، ٢٠١١، ص. ص ١٦٨. ١٦٩ .

(١٤) عبد الله مقلاتي، **دور بلدان المغرب العربي وإفريقيا في دعم الثورة الجزائرية**، ج٠١، دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٩، ص ٧٢.

(١٥) الطاهر عبد الله، **الحركة الوطنية التونسية. رؤية شعبية قومية جديدة (١٨٣٠. ١٩٥٦)**، ط ٠٢ ، دار المعارف للطباعة والنشر، تونس (دون تاريخ)، ص١٨٠ .

(16) Mohammed Sayeh , le nouvel état aux prises avec le complot youssefiste 1956-1958, dar el Amel, Tome3, (S.L), 1983, p62 .

(17) Mohammed Guentari , Op, Cit, tome 2 , p 215 .

(١٨) الحبيب بورقيبة، **من أقوال المجاهد الأكبر الرئيس الحبيب بورقيبة**، ط ٠١، شركة فنون الرسم والنشر والصحافة، تونس، ١٩٨٤، ص ١٨٣.

(١٩) جوان غليسي، **الجزائر الثائرة**، ط ٠١، ترجمة حماد خيري، دار الطليعة للنشر، بيروت، ١٩٦١، ص١٧٤.

(٢٠) الحبيب بورقيبة، المصدر السابق، ص ٧٥.

(٢١) أحمد توفيق المدني، **حياة كفاح مذكرات (مع ركب الثورة التحريرية)**، ج٠٣، ط ٠٢، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٨، ص ١٥٢.

(٢٢) الحبيب بورقيبة، المصدر السابق، ص٧٧.

(٢٣) محمد حسني عبّاس، "**حول اتجاهات السياسة التونسية**"، مجلة العلوم السياسية، العدد ٠٣، الجمعية المصرية للعلوم السياسية، القاهرة، ديسمبر ١٩٥٧، ص٣٢.

(٢٤) عبد الله مقلاتي، المرجع السابق، ص ١٢٠.

(٢٥) محمد حربي، **جبهة التحرير الوطني الأسطورة والواقع**. الجزائر (١٩٥٤ - ١٩٦٢)، ط١، ترجمة: كميل قيصر داغر، دار الكلمة للنشر، بيروت، ١٩٨٣، ص ٢٢٦.

(٢٦) الحبيب بورقيبة، **خطب**، ج ٠٣، منشورات كتابة الدولة للإعلام، تونس، ١٩٧٤، ص ٦٦.

(٢٧) عمّار بن سلطان وآخرون، المرجع السابق، ص ٥٨.

(٢٨) **المقاومة الجزائرية**، العدد ٠٣، ٠٣ ديسمبر ١٩٥٦، ص ٠٢.

(٢٩) "**خطاب بورقيبة بالأمم المتّحدة**"، جريدة الصباح، العدد ١٥١٣، ٢٣ نوفمبر ١٩٥٦، ص ١.

(٣٠) محمد شطيبي، **العلاقات الجزائرية التونسية إبان الثورة ١٩٥٤ – ١٩٦٢**، رسالة ماجستير، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة قسنطينة، الجزائر ٢٠٠٨–٢٠٠٩، ص ١١٠.

(٣١) ولد السيد المنجي سليم في ١٥ سبتمبر ١٩٠٨ بمدينة تونس، زاول تعليمه بالمدرسة الصّادقية بتونس، ثم التحق بكلية الحقوق بباريس أين حصل على الإجازة في الحقوق، نشط في جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا بفرنسا، وبعد عودته إلى تونس سجّل في سلك المحاماة وانخرط مبكّرا في النشاط الحزبي في صلب الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد، الأمر الذي أدّى إلى اعتقاله عدّة مرات من طرف السلطات الاستعمارية. عيّن وزيرا للدّاخلية في سبتمبر ١٩٥٥، وفي ١٧ أفريل ١٩٥٦ سُمّي وزيرا للدولة في حكومة الاستقلال الأولى، ثم كلّف في جويلية من نفس السنة بتمثيل البلاد التونسية لدى حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ومنظمة الأمم المتّحدة، وكانت تدخلاته في أعلى منبر المنظمة متّسمة بالحزم والاعتدال في شأن العديد من الأحداث، خصوصا تلك المتعلقة بتونس والجزائر والكونغو والمجر ... توفي في ٢٣ أكتوبر ١٩٦٩ إثر مرض عضال أصابه في الكبد. انظر: أحمد الطويلي، المرجع السابق، ص. ص. ١٥٨. ١٥٩.

(٣٢) "**لائحة الكتلة الإفريقية الآسيوية**"، جريدة الصباح، العدد ١٥٧٨، ٠٧ فيفري ١٩٥٧، ص ٤.

(٣٣) " **كلمة المنجي سليم بالأمم المتّحدة**"، جريدة العمل، العدد ٤٠٣، ٠٨ فيفري ١٩٥٧، ص٠٣.

(٣٤) "مباحثات السفير التونسي مع الأمين العام للأمم المتّحدة"، جريدة العمل، العدد ٤٩٧، ٢٩ جانفي ١٩٥٧، ص ٠١.

(٣٥) "**مداخلة مندوب تونس بالأمم المتّحدة**"، جريدة العمل، العدد ٦٠٦، ٠٥ أكتوبر ١٩٥٧، ص ٠٢.

(٣٦) ولد الباهي الأدغم بتونس في ١٠ جانفي ١٩١٣، وبدأ نشاطه السياسي مبكّرا في صفوف الحركة الوطنية التونسية، حيث عدّ أحد أبرز مؤسّسي "الشبيبة المدرسية" (النواة الأولى للشبيبة الدستورية)، كما شارك في الدّعاية للقضيتين التونسية والجزائرية وكسبت التأييد الدولي لهما. وفي هذا الإطار سافر إلى عدّة بلدان مثل المغرب الأقصى ومصر وباريس والولايات المتّحدة الأمريكية، ومن هذه الأخيرة عاد إلى تونس في أكتوبر ١٩٥٥، وانتخب في مؤتمر صفاقس أمينًا عامًا للحزب. ظل طوال فترة الخمسينيات والستّينيات الشخصية الثانية في هرميّة الدولة والحزب بعد بورقيبة، إلى أن تراجع دوره السياسي بشكل كبير بداية من سنة ١٩٧٠، حين أعفاه بورقيبة من مهامّه على رأس الحكومة، وبقيّ معتزلا عن الحياة السياسية إلى أن توفي سنة ١٩٩٨. انظر: محمد محفوظ، **تراجم المؤلفين التونسيين**، ج ٠٤، ط ٠١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥، ص. ص ٢٢٣. ٢٢٩.

(٣٧) إسماعيل دبش، **السياسة العربية والمواقف الدولية تجاه الثورة الجزائرية (١٩٥٤– ١٩٦٢)**، دار هومة للنشر، الجزائر، ٢٠٠٩، ص ١١٧.

(٣٨) في ٢٢ نوفمبر حاول الحبيب بورقيبة ومحمد الخامس القيّام بوساطة بين فرنسا وجبهة التحرير الوطني، وقد قبلتها جبهة التحرير شريطة أن تكون المفاوضات مبنية على أساس الاستقلال، أما فرنسا فقد رفضتها معتبرة أن ما يجري في الجزائر مسألة داخلية بالنسبة لفرنسا. انظر: محمد الميلي، **مواقف جزائرية**، ط ٠١، منشورات المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤، ص ٨٢.

(٣٩) **جريدة المجاهد**، العدد ١٤، ١٥ ديسمبر ١٩٥٧، ص ٠٦.

(٤٠) إسماعيل دبش، المرجع السابق، ص ١١٩.

(٤١) محمد شطيبي، المرجع السابق، ص ١٠٨.

(٤٢) "**الرئيس بورقيبة يتلقى شكر من وزير الأنباء الجزائرية**"، جريدة الصباح، العدد ١٩٧٢، ١٦ ديسمبر ١٩٥٨، ص ٠١.

(٤٣) لمياء بوقريوة، **العلاقات الجزائرية التونسية ١٩٥٤ – ١٩٦٢**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة وهران، ٢٠٠٦، ص ١٥٧.

(٤٤) "**حرب الجزائر هي حرب المغرب العربي**"، جريدة المجاهد، العدد ١٥، ٢٠ مارس ١٩٥٦، ص. ص ٢. ٣.

(٤٥) عبد القادر خليفي، **المؤتمرات الآفرو- آسيوية والقضية الجزائرية**، مجلة المصادر، العدد ٠٨، القرص المضغوط الصّادر عن المركز الوطني للدراسات والبحث في تاريخ الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، وزارة المجاهدين، الجزائر، ٢٠١٠ .

(٤٦) "**مقترحات تونسية**"، جريدة العمل، العدد ٦٨٩، ٠٩ جانفي ١٩٥٨، ص ٠١ .

(٤٧) عُقد هذا المؤتمر بمدينة طنجة المغربية، وبالتّحديد في " قصر المارشان الملكي"، تحت رئاسة علال الفاسي زعيم حزب الاستقلال المغربي، خلال الفترة الممتدّة من ٢٧ إلى ٣٠ أفريل ١٩٥٨، بحضور ممثلين عن حزب الدستور التونسي وحزب الاستقلال المغربي وحزب جبهة التحرير الوطني، وذلك بهدف دراسة الأوضاع المستجدّة على الساحة المغاربية والعمل على توحيد المواقف المغاربية ضدّ الاستعمار. انظر: معمّر العايب، **مؤتمر طنجة المغاربي (دراسة تحليلية تقييمية)**، دار الحكمة، الجزائر، ٢٠١٠، ص. ص ١٢٣. ١٢٥.

(٤٨) عُقد هذا المؤتمر بمدينة المهدية التونسية في ١٧ جوان ١٩٥٨، بدعوة من تونس وبحضور ممثلين عن حزب الدستور التونسي وحزب الاستقلال المغربي وحزب جبهة التحرير الوطني، دارت أشغاله حول تطبيق قرارات مؤتمر طنجة ودراسة مسألة إقامة الهيئات التي نصّ عليها مؤتمر طنجة. انظر: مريم صغير، **مواقف الدول العربية من القضية الجزائرية ١٩٥٤ – ١٩٦٢**، دار الحكمة للنشر، الجزائر، ٢٠١٠ ، ص ١٤٠.

(49) Slimane cheikh , L’Algérie en armes au le temps des Certitudes , 2 (ème) éditions , casbah, Alger, 1998, p 200.

(٥٠) معمّر العايب، **قراءة في محاضر جلسات مؤتمر طنجة ٢٧ – ٣٠ أفريل ١٩٥٨. واقعيّة الطرح الجزائري في بناء الاتّحاد المغاربي**، مجلة المصادر، العدد ١٨، القرص المضغوط الصّادر عن المركز الوطني للدّراسات والبحث في تاريخ الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤، وزارة المجاهدين، الجزائر، ٢٠١٠.

(51) Mohammed Harbi, les archives de la révolution algérienne, Editions jeune Afrique, paris, 1981, p 414. 415.

(٥٢) مريم صغير، المرجع السابق، ص ١٣٩.

(٥٣) حبيب حسن اللولب، **التونسيون والثورة الجزائرية ١٩٥٤ – ١٩٦٢**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، ٢٠٠٦، ص ١٣٥.

(٥٤) "**مجلس استشاري**"، جريدة العمل، العدد ٨٢٨، ٢٢ جوان ١٩٥٨، ص ١.

(٥٥) "**ندوة المهدية**"، جريدة المجاهد، العدد ٢٨، جويلية ١٩٥٨، ص ١.

(٥٦) حبيب حسن اللولب، المرجع السابق، ص ١٥٣.

(٥٧) محمد الميلي، المرجع السابق، ص ٧٢.

(٥٨) الحبيب بورقيبة، **خطب**، ج 04، منشورات كتابة الدولة للإعلام، تونس، ١٩٧٤، ص ٦٠.

(٥٩) من مواليد أفريل ١٩١٤ بتونس، نشط خلال مرحلة شبابه في "الشبيبة المدرسية"، ثم انضمّ إلى جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا، ومع بداية الخمسينيات تولىّ قيّادة الدّيوان السيّاسي للحزب الحرّ الدستوري الجديد صحبة المناضل فرحات حشاد، الأمر الذي عرّضه للاعتقال والنّفي من طرف السّلطات الاستعمارية، وفي سنة ١٩٥٥ عينّ وزيرًا للصّحة في حكومة الطّاهر بن عمّار الثانية. بعد الاستقلال أنتخب نائب في المجلس القومي التأسيسي وعينّ كسفير في القاهرة، وفي شهر جويلية ١٩٥٧ عينّ كاتب للدولة للشؤون الخارجية، واستمرّ في منصبه إلى غاية ١٩٦٢. وللإشارة فقد كان للصّادق المقدم دور دبلوماسي هامّ في التّعريف بقضايا المغرب العربي (خاصة الثورة الجزائرية، أحداث بنزرت) على المستوى العالمي. توفي في شهر سبتمبر ١٩٩٣. انظر: منير الشرفي، **وزراء بورقيبة**، مطبعة تونس، قرطاج، دون تاريخ، ص ٢٠٢.

(٦٠) "**مداخلة الصادق المقدم في ندوة أكرا** "، جريدة العمل، العدد ٧٧٣، ١٧ أفريل ١٩٥٨، ص ٠٢.

(٦١) "**مقترحات تونسية مغربية لندوة أكرا** "، جريدة العمل، العدد ٧٧٥، ١٩ أفريل ١٩٥٨، ص ٠٣.

(٦٢) "**مداخلة الصادق المقدم في ندوة منروفيا**"، جريدة العمل، العدد ١١٧٧، ٠٦ أوت ١٩٥٩، ص ٠٤.

(٦٣) عبد الله مقلاتي، المرجع السابق، ص ١٢٦.

(٦٤) محمد حربي، المرجع السابق، ص ٢٢١.

(٦٥) حبيب حسن اللولب، المرجع السابق، ص ١٥٥.

(٦٦) عبد الفتاح عمر وقيس سعيد، **نصوص ووثائق سياسية تونسية**، مركز الدراسات والبحوث والنشر، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس، ١٩٨٧ ، ص ١٩٤.

(٦٧) "**مقابلة بورقيبة وإيزنهاور**"، جريدة العمل، العدد ٣٣٦، ٢٢ نوفمبر ١٩٥١، ص ٠١.

(٦٨) الحبيب بورقيبة، خطب، ج 03، المصدر السابق، ص .ص ١٤٥. ١٤٧.

(٦٩) محمد شطيبي، المرجع السابق، ص. ص ١٠٩. ١١٠ .

(٧٠) "**بورقيبة يبعث برسالة إلى الرئيس الأمريكي**"، جريدة العمل، العدد ٧٣٣، ٠٢ مارس ١٩٥٨، ص ٠١.

(٧١) "**تصريحات كاتب الدولة للخارجية الأمريكية**"، جريدة العمل، العدد ٧١٧، ١٢ فيفري ١٩٥٨، ص ٠١.

(٧٢) فتحي الديب، عبد **الناصر وثورة الجزائر**، دار المستقبل العربي، القاهرة، ١٩٨٤، ص ٣٠٣.

(٧٣) الحبيب بورقيبة، **خطب**، ج ١٢، منشورات كتابة الدولة للإعلام، تونس، ١٩٧٤، ص ٢٨٩.

(٧٤) عمار بن سلطان وآخرون، المرجع السابق، ص ٦٠.

(٧٥) عبد الله مقلاتي، المرجع السابق، ص ٥١.

(٧٦) **شهادة عبد الحفيظ كيرامان للصحفي محمد عباس**، جريدة الخبر، العدد ٥٣٦١، ٠٦ سبتمبر ٢٠٠٧، ص ٢٤.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

الاحتلال الإسباني لجزيرة بادس خلال العصر الحديث
السياق والتداعيات



د. عمر اشهبار
دكتوراه في التاريخ الحديث
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
شفشاون – المملكة المغربية

مُلَخّص

يتناول هذا المقال الاحتلال الإسباني لجزيرة بادس في منطقة الريف الأوسط بالمغرب، ومحاولة تقديم بعض المعطيات عن المقاومة المغربية لتحرير هذه الجزيرة المتوسطية، وإبراز تداعيات احتلال بادس على الأوضاع في المنطقة. ويروم المقال أساسًا إلى التعريف بجزيرة بادس المغربية، وإبراز أدوارها التاريخية، باعتبارها حلقة للتواصل بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط، ونافذة لعلاقات المغرب التجارية مع العديد من البلدان، خاصةً في أواخر العصر الوسيط وبداية العصر الحديث. ويكشف المقال عن السياق التاريخي لاحتلال جزيرة بادس من قبل إسبانيا في القرن السادس عشر الميلادي، والأسباب المتحكمة في ذلك. فضلاً عن تبيان موقف المغاربة من احتلال جزيرتهم، إذ اندلعت شرارة المقاومة، والعمل على منع محاولات الإسبان التوغل في المناطق الداخلية. كما يروم المقال كذلك إلى إبراز نتائج وتداعيات احتلال جزيرة بادس على الأوضاع في ساحل منطقة الريف بالمغرب. وقد تم تناول الموضوع اعتمادًا على بعض المصادر والمراجع، خاصةً الأجنبية، نظرًا لغياب المعطيات الكافية حول الموضوع في المصادر المغربية والعربية، وقد تم توخي الحذر في التعامل مع المادة المصدرية، نظرًا لحساسية الموضوع في الماضي والحاضر. ولم يتم الاكتفاء بسرد النصوص، بل تم تمحيصها، والتمعن في مضامينها، للخروج بنتائج واستنتاجات أساسية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١٨ نوفمبر ٢٠٢٠
تاريخ قبول النشر: ٢١ ديسمبر ٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

بادس؛ جزيرة؛ احتلال؛ مقاومة؛ إسبانيا؛ الريف؛ تاريخ الجزر المتوسطية المغربية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/KAN.2021.222642

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عمر اشهبار. "الاحتلال الإسباني لجزيرة بادس خلال العصر الحديث: السياق والتداعيات".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الحادي والخمسون؛ مارس ٢٠٢١. ص ١٥١ – ١٦٠.

Corresponding author: omar_achahbar@hotmail.fr
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقَدِّمَةٌ

اشتد التنافس الإيبيري حول السواحل المغربية منذ القرن الخامس عشر الميلادي، وتمكن الإيبيريون من احتلال مجموعة من الثغور المغربية، لتتجه الأطماع نحو الهيمنة على الجزر المتوسطية الصغيرة التي تعود جغرافيا وتاريخيا للمغرب، خاصة جزيرة بادس في منطقة الريف الأوسط، وقد تحقق هدف الإسبان في احتلال جزيرة بادس خلال القرن السادس عشر الميلادي.

يكتسي البحث في تاريخ جزيرة بادس المغربية المحتلة أهمية تاريخية كبيرة، فالموضوع له راهنية في الحاضر وامتدادات في المستقبل، لارتباطه بضرورة استرجاع المغرب لجزره المتوسطية المحتلة واستكمال وحدته الترابية. وقد ركزنا أساسا في هذا المقال على التعريف بجزيرة بادس المحتلة، وإبراز أهميتها وأدوارها في تاريخ المغرب، وتبيان السياق العام لاحتلالها من قبل الإسبان سنة ١٥٠٨م، والعوامل المتحكمة في الاحتلال، وردود الفعل التي نتجت عن ذلك، والمتمثلة في المقاومة المغربية لاسترجاع جزيرة بادس. مثلما تم الحديث عن أهم التطورات والأوضاع في المنطقة بعد تحرير بادس سنة ١٥٢٢م، إذ استمرت الأطماع الإسبانية في العودة إلى احتلال الجزيرة، كما برزت في الفترة نفسها أطماع الأتراك العثمانيين للتمركز بجزيرة بادس، حيث تمكن الأتراك من التمركز في جزيرة بادس سنة ١٥٥٤م، لكن بعد عشر سنوات فقط سقطت الجزيرة، مرة أخرى، بيد الإسبان بعد تسخير إمكانيات هائلة. وكان لهذا الاحتلال الأخير تداعيات على تطور الأوضاع في المنطقة وردود فعل قوية، حيث تنامت شرارة المقاومة من جديد لتحرير جزيرة بادس، ومنع محاولات الإسبان من التوغل في المناطق الداخلية.

ويحتم البحث في تاريخ جزيرة بادس ضرورة الرجوع إلى المصادر والوثائق الأجنبية، خاصةً الإسبانية، نظرًا لكون المادة المصدرية المغربية لم تف الموضوع حقه.

أولاً: الأهمية التاريخية لجزيرة بادس

تقع جزيرة بادس عند نقطة اتصال تراب قبيلتي بقوية وبني يطوفت، على البحر الأبيض المتوسط، وهي جزيرة صخرية طولها زهاء مائتين وخمسة وعشرين مترًا، وعرضها زهاء مائة وعشرة أمتار، أما علوها فيصل إلى سبعة وسبعين مترًا[١]. وتبعد جزيرة بادس عن مدينة الحسيمة الحالية بنحو خمسة وأربعين كيلومترًا كلم بحرًا، وعن مدينة تطاوين بنحو مائة وعشرة كيلومترات بحرًا، ولم تكن هذه الجزيرة تبعد كثيرًا عن الساحل المقابل لها، لكنها التقت مع البر منذ سنة ١٩٣٣م، فصارت شبه جزيرة. يتوسط بين الجزيرة ومدينة بادس التاريخية شاطئ طوله أكثر من سبعمائة متر. وتشرف على الجزيرة قمتان من الساحل المجاور، عرفتا في المصادر التاريخية بقمة بابا في جهة الشرق، وقمة القنديل في جهة الغرب. ومن المواقع الدفاعية المرتبطة تاريخيا ببادس نذكر مرسى يليش وقلعة صنهاجة.

ساهم مرسى جزيرة بادس في انفتاح منطقة الريف على مختلف المراسي المغربية وفي انفتاح المغرب على العالم المتوسطي، خاصة في أواخر العصر الوسيط، فقد كانت جزيرة بادس ميناء فاس بدون منازع في العهد المريني[٢]. وصارت بادس ميناء تجاريًا كبيرًا، حيث اتخذها المغاربة ميناء للتصدير والاستيراد[٣]. كما كانت قاعدة عسكرية مهمة، تصنع فيها مختلف أنواع السفن. وقد ظل مرسى جزيرة بادس لزمن طويل صلة وصل لربط العلاقات الاقتصادية والحضارية مع الأندلس ومختلف بلدان العالم المتوسطي مثل إسبانيا وإيطاليا ومصر والجزائر. وقد ظلت جزيرة بادس ومرساها هدفا للهجمات البحرية الأوربية نظرًا لأهميتهما الاستراتيجية في حوض البحر الأبيض المتوسط.

ثانيًا: السياق التاريخي للاحتلال الإسباني الأول لجزيرة بادس

تأرجحت الأوضاع الداخلية بالمغرب خلال نهاية العصر الوسيط وبداية العصر الحديث بين الاستقرار والتدهور، ووجود سلطة مركزية ضعيفة غير قادرة على توحيد البلاد والتصدي للأطماع الأجنبية، مما ساهم في تفاقم الأزمات على مختلف المستويات، وتنامي الأخطار الخارجية المتمثلة أساسًا في الاحتلال الإيبيري للعديد من الثغور المغربية، ومنها ثغور ساحل الريف. ومن المعلوم أنه منذ القرن الخامس عشر الميلادي وبداية القرن السادس عشر الميلادي قد تنامى التنافس الإيبيري حول السواحل المغربية، فقد تمكن الإيبيريون من غزو مدن سبتة ومليلة وغساسة في الساحل الريفي، وعدة مراكز أخرى على الواجهة الأطلنتية. كما استطاع الإسبان التسرب إلى جزيرة بادس، وكان ذلك استمرارًا للحملات التي قادتها قشتالة في ساحل الريف الشرقي.

وبعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م، آخر معقل للإسلام في الأندلس، بناءً على الاتفاقية المبرمة بين الملك ابن الأحمر والملكة القشتالية إيسابيلا الكاثوليكية، تنامت الحملات

الإيبيرية ضد السواحل المغربية. ولم تخل السياسة الإيبيرية البرتغالية والإسبانية، لاحتلال السواحل المغربية المتوسطية والأطلسية، من إثارة الخلافات المتولدة عن التنافس على حيازة أكثر المناطق عددًا وأفضلها من الناحية الاستراتيجية والاقتصادية، حيث تم إبرام بعض الاتفاقيات بين البرتغال وإسبانيا لمعالجة الخلافات بينهما، مثل معاهدة تورديسياس سنة ١٤٩٤[٤]، وكان يتم توقيع هذه الاتفاقيات بإشراف مباشر من البابوية الإيطالية.

أما فيما يخص الأوضاع في حوز بادس خلال أواخر القرن الخامس عشر ومستهل القرن السادس عشر فإننا نشير إلى أن المنطقة خلال هذه الفترة قد صارت من جملة سيادة الدولة الوطاسية تحت حكم محمد الشيخ الوطاسي (١٤٧١م-١٥٠٤م). كما تحولت بادس إلى قوة بحرية لا يستهان بها، خاصة بعد سقوط غرناطة، حيث زادت الاصطدامات بين الإيبيريين وسكان قبائل ساحل الريف، فقد كان الريفيون يعبرون إلى الساحل الأندلسي للقيام بالعمليات الجهادية انطلاقا من جزيرة بادس[٥].

ثالثًا: الاحتلال الأول لجزيرة بادس

نعتقد بأن فكرة الاستيلاء على جزيرة بادس والمدينة المقابلة لها، لم تكن وليدة سنة ١٥٠٨م، بل إن تلك الفكرة انطلقت على الأقل منذ سنة ١٤٩٣م، حيث توصلت الحكومة الإسبانية بأخبار المنطقة أثناء الجولات الاستطلاعية التي قام بها بعض رؤساء البحرية الإسبانية[٦]. نظم الملك القشتالي فرناندو الكاثوليكي حملة خصص لها أسطولا بحريا يتكون من عشرين سفينة تحمل على ظهرها خمسة آلاف مقاتل تحت قيادة الأميرال بيدرو نافارو[٧]. وقد حلت ببادس صبيحة يوم الأحد ٢٣ يونيو ١٥٠٨م. ويظهر أن الإسبان قد فاجأوا أهالي بادس بالنزول إلى الشاطئ بعد قصفهم بالمدفعية من السفن الحربية الراسية قبالة المدينة[٨].

استطاع الإسبان الاستيلاء على جزيرة بادس بسهولة، وقد أسهم عنصر المفاجأة في هذا الاحتلال السهل، خاصة أن حاكم بادس خلال هذه الفترة، مولاي منصور، لم يكن موجودا في المنطقة أثناء التسرب الإسباني[٩]. بعدما تمكن بيدرو نافارو من احتلال الجزيرة ترك فيها مجموعة من الجنود، وزودهم بالذخيرة الحربية، وقامت الحاميات الإسبانية بتحصين الجزيرة، وذلك ببناء الأسوار والقلع والأبراج، ونصب المدافع لحمايتها من أي هجوم مرتقب من قبل المجاهدين الريفيين[١٠].

احتجت البرتغال على احتلال الإسبان لجزيرة بادس، وكاد ذلك أن يؤدي إلى مواجهة حربية بين الدولتين لولا تدخل البابا والتوقيع على معاهدة سينترا سنة ١٥٠٩م، والتي بموجبها تخلت البرتغال للإسبان عن بادس والأراضي المجاورة لها حتى غساسة ومليلة، بينما سمح الإسبان للبرتغال بالتوسع في سواحل المغرب الممتدة من بادس حتى بوجدور وواد نون. ولم يكن هذا الاتفاق سوى تأكيد للأهداف التوسعية والاستراتيجية والاقتصادية التي سعت إسبانيا إلى تحقيقها بالساحل الريفي، حيث لا تخفى جملة الأضرار المترتبة عن احتلال الإسبان لجزيرة بادس، وأهم تلك الأضرار تراجع النشاط البحري الذي كان أساس النشاط الاقتصادي في ساحل منطقة الريف الأوسط. ادعت إسبانيا أن "القرصنة" هي السبب من وراء حملتها ضد بادس، لكن البحث في العوامل والأهداف الحقيقية يكشف لنا أن إسبانيا كانت مؤمنة بالروح الصليبية، فضلا عن وعيها بالأهمية الاقتصادية والاستراتيجية لجزيرة بادس والمناطق المقابلة لها.

رابعًا: تحرير جزيرة بادس

دام الاحتلال الإسباني الأول لجزيرة بادس أربع عشرة سنة، وخلال هذه المدة استمر الزحف الإيبيري على السواحل المغربية، وقد اندلعت شرارة المقاومة المحلية لاسترجاع جزيرة بادس، ولن يتأتى ذلك إلا في سنة ١٥٢٢م، حيث نجح المغاربة في استعادة بادس إلى حضن الوطن. تولى شؤون المقاومة بحوز بادس أحد قواد بني وطاس، يدعى المولى منصور[١١]، وقد كلف هذا الأخير من قبل محمد البرتغالي بتنظيم شؤون الجهاد والعمل على استرجاع الجزيرة. وقد تميزت استعدادات مولاي منصور بتنظيم المواقع حسب ما تفرضه العوائق الطبيعية المحيطة بالجزيرة، فقد عبأ السكان لبناء برجين الأول على قمة القنديل والثاني على قمة بابا، وشيد برج آخر بحاضرة بادس. إلا أن المولى منصور فشل في استرجاع جزيرة بادس، نظرا لتفوق السلاح الناري الإسباني[١٢].

وقد استمرت المحاولات المغربية لتحرير جزيرة بادس، حيث أسندت مهمة قيادة المقاومة للمولى محمد، وهو ابن عم المولى منصور، وتم استغلال قرب المسافة بين الجزيرة والشاطئ لشن هجومات على الحامية الإسبانية ببادس، فقد كانت تحدث مناوشات يومية بين الجانبين، وتمكن المغاربة مثلاً في سنة ١٥١٣م من قتل عدد من الإسبان، وإلحاق خسارة في العتاد الإسباني[١٣]. وتعرضت جزيرة بادس لهجومات من قبل الأتراك، مثل الهجوم الذي تم شنه سنة ١٥١٥م، كما قام الأتراك

بفرض حصار على الجزيرة سنة ١٥١٦م، وألحقوا بها عدة أضرار مادية، إذ فقد الإسبان بعض البواخر. وقد توصلت إسبانيا في شهر ماي سنة ١٥١٧م بمعلومات حول وجود اتصالات بين ملوك فاس وتلمسان وتونس وحاكم بادس والقائد التركي باربروس، للقيام بهجوم على الجزيرة. وفعلاً حدث ذلك، حيث تم فرض حصار آخر على بادس دام خمسة عشر يومًا[١٤].

ظل خطر المقاومة المغربية على الإسبان مستمرًا، سواء عن طريق الهجومات البحرية، أو عن طريق الهجومات التي كانت تنطلق من مدينة بادس[١٥]، لكن رغم استماتة هذه المقاومة فقد استمر الوجود الإسباني على جزيرة بادس، ففكر المغاربة في أسلوب آخر لاسترجاع جزيرتهم. لجأ المغاربة إلى الحيلة لتحرير جزيرة بادس، حيث عمد المولى محمد إلى السيطرة على الجزيرة من الداخل، عن طريق الدخول إلى أعلى الحصن بطرق سلمية، ثم التخطيط لقتل حاكم الجزيرة. فكانت بعض المحاولات لتنفيذ هذه الخطة، مثل المحاولة التي قام بها اثنا عشر مغربيا في منتصف أكتوبر ١٥٢٠م، وقد تمكن هؤلاء من السيطرة على الجزيرة في هجوم مباغت[١٦]، إلا أن المساعدة التي بعثت بها مالقة وجبل طارق أفشلت المحاولة يوم ٢٩ نونبر من السنة نفسها[١٧]. وفي يوم ١٠ دجنبر ١٥٢٢م استطاع المغاربة التسلل إلى جزيرة بادس وتنفيذ مؤامرة اغتيال حاكم الجزيرة[١٨]، وبالتالي توجت محاولات المغاربة لتحرير جزيرتهم بالنجاح.

كان استرجاع جزيرة بادس إلى حضن الوطن أول انتصار مغربي في عهد الدولة الوطاسية، وزاد ذلك من حماس سكان المناطق المجاورة لباقي الثغور المغربية المحتلة، وحفزهم على المقاومة والجهاد لاسترجاع الثغور المغتصبة، وقد نجح المغاربة في استرجاع غساسة سنة ١٥٣٢م. عادت الحياة إلى مجراها السابق بعد تحرير جزيرة بادس، لكن بحذر ملحوظ، حيث كان المغاربة لا يستبعدون عودة الإسبان نظرا للخسارة الجسيمة التي منوا بها، لذلك تم الاهتمام بتحصين الجزيرة[١٩]، ووضع مجموعة من الطلائع والمحارس على الجزيرة والمرتفعات المحيطة بها، وقد كان المغاربة قد غنموا بعد تحريرهم لبادس مجموعة من الأسلحة النارية، وبفضل هذه الأسلحة أصبح حصن الجزيرة قويًا.

سعى الإسبان إلى إعادة احتلال جزيرة بادس، فقاموا بعدة محاولات لتحقيق هذا الهدف، نذكر منها المحاولة التي فشلت بسبب يقظة الحراسة المغربية سنة ١٥٢٥م[٢٠]. وفي سنة ١٥٢٧م قام الإسبان بحملة أخرى ضد بادس، حيث قاموا بتوجيه هجوم بحري من مدينة مالقة لاحتلال الجزيرة، وشارك في هذا الهجوم أربعون باخرة وألف وخمسمائة جندي، لكن المقاومة المغربية أجبرت الإسبان على التراجع[٢١]. أتاح استرجاع المغرب لجزيرة بادس استمتاع السكان بالحرية في حاضرة بادس، المقابلة للجزيرة، لمدة اثنتين وأربعين سنة، حيث استمر وجود حاضرة بادس بعد الاحتلال الإسباني الأول للجزيرة. وإذا كانت الأطماع الإسبانية قد فشلت خلال هذه الفترة (١٥٢٢م- ١٥٦٤م)، فذلك راجع إلى العناية الحربية الدفاعية التي حضيت بها بادس وجزيرتها على يد علي بن محمد الشيخ، المعروف بأبي حسون الوطاسي، نتيجة الاستقلال بإمارتها منذ سنة ١٥٣٢م، على الأقل[٢٢].

عمل أبو حسون الوطاسي على تعزيز وضعية بادس الدفاعية، حيث أحدث تحصينات ومواقع دفاعية جديدة، واستطاع الحفاظ على ولاء سكان حوز بادس لمدة طويلة، وخلال هذه الفترة تراجعت الدولة الوطاسية، وتنامت الأطماع الأجنبية لاحتلال جزيرة ببادس. كما صار السعديون يشكلون خطرا على استمرار حكم أبي حسون في بادس، ففي عام ١٥٤٧م أرسل سلطان فاس محمد الشيخ السعدي جيشا كبيرا لاسترجاع جزيرة بادس من أبي حسون، لكن هذا الأخير استطاع التصدي للسعديين. أمام الخطر الذي أصبح يهدد حوز بادس، بعد دخول محمد الشيخ السعدي إلى فاس سنة ١٥٤٩م، وتنحية أحمد الوطاسي عنها، بدأ أبو حسون يكثف من اتصالاته مع الأجانب الإسبان والبرتغاليين والأتراك، والتجأ إلى هؤلاء الأجانب طالبا المساعدة منهم ضد السعديين. ليبدأ فصل آخر من فصول تطور الأوضاع بجزيرة بادس وحوزها، تميز بتنامي الصراع الإيبيري العثماني حولها.

خامسًا: تمركز الأتراك في جزيرة بادس وعودة الإسبان إلى احتلالها من جديد

بدأت أطماع الأتراك في التسرب إلى جزيرة بادس منذ الاحتلال الإسباني الأول للجزيرة سنة ١٥٠٨م، لكنهم لم يحققوا ذلك إلا في سنة ١٥٥٤م، وسيطروا على جزيرة بادس بعد هزيمة حسن بن خير الدين أمام السعديين وفراره إلى بادس[٢٣]. وقد تمكن الأتراك من الوصول إلى الجزيرة بسهولة بفضل السفن التي جاءت من سبخة قلعية ومرسى غساسة. وكان هذا التسرب طبقا للشروط التي اشترطها الأتراك على أبي حسون[٢٤]. شكل استقرار الأتراك بجزيرة بادس ضربة قوية للإسبان وللدولة السعدية، فهذا الاستقرار كانت له تداعيات سلبية على النشاط الإسباني بحوض البحر الأبيض المتوسط،

حيث اتخذ الأتراك من بادس مقرا لهجوماتهم على سواحل الأندلس[٢٥].

سعت إسبانيا إلى إعادة احتلال جزيرة بادس، ووضع حد للوجود التركي بالمنطقة. أما السعديون فقد رأوا في الوجود التركي ببادس تهديدا لدولتهم، خاصة أن العثمانيين ما فتئوا يهددون باكتساح كل بلاد المغرب، لكنهم فشلوا في تحقيق ذلك. ولعل من بين أهم أسباب فشل الأتراك في بسط سيطرتهم على المغرب هو التقارب بين السعديين والإسبان لمواجهة الخطر العثماني، وقد كان للسلطان عبد الله الغالب دور في توطيد العلاقات مع الإسبان بهدف انهاء الوجود التركي بجزيرة بادس. قام الإسبان بمحاولة أخرى لاحتلال جزيرة بادس سنة ١٥٦٣م، حيث خرجت السفن الإسبانية يوم ٢٣ يوليوز ١٥٦٣م من مالقة في اتجاه جزيرة البرهان، الواقعة بعرض مياه مليلة، للاتصال بحاكم هذه المدينة، وهو مدبر الحملة، ومن هناك توجه الأسطول نحو بادس[٢٦]. كما نزلت قوات إسبانية أخرى مؤلفة من أربعة آلاف رجل بقلعة صنهاجة، وتوجهت منها إلى جزيرة بادس[٢٧].

أخفق الإسبان خلال هذه الحملة في إعادة احتلال جزيرة بادس بفضل التخطيط المحكم للمقاومة المغربية، ومباغتة الأسطول والجنود الإسبان النازلين على البر في اتجاه مدينة بادس وجزيرتها، مما كان له تأثير عميق في إسبانيا. وبدأت الاستعدادات الإسبانية على نطاق واسع لغزو الجزيرة مرة أخرى، حيث بحثت إسبانيا عن حلفاء جدد، وكثفت من المراسلات الرسمية الموجهة إلى مدن إيطاليا ولشبونة وعدة جهات أخرى. وقد ظلت إسبانيا تستغل الوجود التركي بجزيرة بادس لإضفاء الشرعية على رغبتها في الاستيلاء على بادس، وبالفعل تمكنت من ذلك سنة ١٥٦٤م.

سخرت إسبانيا إمكانيات مادية وبشرية كبيرة لإعادة احتلال جزيرة بادس، ونكتفي بالإشارة إلى بعض ما ورد في تقرير رسمي صادر عن الحكومة الإسبانية بتاريخ ٥ شتنبر١٥٦٤م، حيث أشار هذا التقرير إلى مشاركة ثلاثين سفينة كبيرة وستين متوسطة في الحملة الإسبانية. أما عدد الجنود فقد تحدث التقرير عن مشاركة زهاء ثلاثة عشر ألف من الجنود الإسبان، وألف ومائتي جندي برتغالي، وخمسمائة فارس تابعين للقديس خوان المسيحية[٢٨]. صمدت المقاومة المغربية ضد الحملة الكبيرة التي قادتها إسبانيا لإعادة احتلال جزيرة بادس، وآخر الإشارات التي تهم المقاومة المغربية قبل السيطرة النهائية للإسبان على الجزيرة تشير إلى أن أربعمائة من الجنود المغاربة حاولوا مواجهة زحف الإسبان، لكن وجود عدد كبير من الجنود الإسبان، والجنود الآخرين الذين شاركوا في هذه الحملة، وتفوقهم على مستوى العتاد، حال دون صمود المقاومة المغربية[٢٩].

بادر الإسبان إلى حماية المواقع المهيمنة على جزيرة بادس، لتفادي هجومات المغاربة، وتمكنوا من السيطرة على السفوح المحيطة بالجزيرة، فاشتغل رجال المقاومة المغربية لفك الحصار المضروب على المواقع المحيطة بالجزيرة، ولكن لم يصلوا إلى المواقع الحيوية الإسبانية، وبذلك غدت الجزيرة محاصرة حصارا فعليا، مما أدى إلى استسلام من تبقى من الحامية التركية على الصخرة يوم ٠٦ شتنبر ١٥٦٤م[٣٠]. سعت إسبانيا بالاحتلال الأخير لجزيرة بادس إلى استكمال مخططها التوسعي في الساحل الريفي، وتحقيق مصالحها الاقتصادية والاستراتيجية، وزادت خطورة الوجود الإسباني عند التوغل إلى ساحل مدينة بادس لاحتلال برج الساحل الفاصل بين الجزيرة والمدينة، حيث احتل الإسبان هذا البرج يوم ٢ شتنبر ١٥٦٤م. وقد تم استغلال برج الساحل في الحراسة وفي عمليات القصف[٣١]. كما حاول الإسبان التوغل نحو مدينة بادس، إلا أن المقاومة المغربية أرغمت الإسبان على التراجع من المدينة، ويبدو من خلال الرسم أسفله أن المدينة كانت ما تزال قائمة ومحاطة بأسوارها ومحتفظة بمبانيها.

استطاعت إسبانيا إعادة احتلال جزيرة بادس سنة ١٥٦٤م، ولم تكن العملية سهلة، فبالرغم من الإمكانيات الضخمة التي اعتمدتها إسبانيا وحلفاؤها، إلا أنها لم تتمكن من السيطرة على الجزيرة إلا بعد عدة أيام. قام الإسبان الغزاة بإحكام قبضتهم على الجزيرة والتمركز في برج الساحل الذي تم بناؤه خلال فترة التحرير السابقة، وذلك بهدف محاصرة الجزيرة بحرًا وبرًا. وقد ترك الغزاة على الجزيرة حامية تألفت من ثلاثمائة إسباني وعدد من المهندسين والبنائين الذين سيتكلفون بتشييد التحصينات الدفاعية على الجزيرة، كما تركوا في الجزيرة عددًا كبيرًا من المدفعية[٣٢].

جاء في رسالة بعثها رئيس البعثة الإنجليزية طوماس تشالونار إلى الملكة إليزابيت بعد احتلال جزيرة بادس ما يلي: "وأخيرا فإن السعي الذي ظل طويلا في طي الكتمان حول أعظم حشد للسفن قد أسفر عن الوجهة التي كان غالب الناس يتحدثون عنها، بحرز وتخمين، فإنه ما حل اليوم السابع من الشهر الحالي حتى تبين أنهم وصلوا إلى حجر بادس بيوم قبله فقط، وحجر بادس عبارة عن صخرة عظيمة تبدو على مرمى

البصر من شاطئ بلاد البربر، ولها أهمية عظيمة بالنسبة إلى هذه البلاد، وهي واقعة غير بعيدة من جبل طارق"[٣٣].

سادسًا: تداعيات الاحتلال الأخير لجزيرة بادس واستمرار المقاومة المغربية لتحريرها

قبل الحديث عن تداعيات الاحتلال الأخير لجزيرة بادس ورد فعل المغاربة لابد من الإشارة إلى موضوع مرتبط باحتلال بادس سنة ١٥٦٤م، وهو الحديث عن تسليم السلطان السعدي عبد الله الغالب جزيرة بادس للإسبان مقابل أن يقوم هؤلاء بطرد الأتراك من تلك الجزيرة، فقد وقع اختلاف بشأن هذا الموضوع، حيث انقسم المؤرخون والباحثون إلى فريقين: فريق لا يستبعد أن يكون عبد الله الغالب قد تنازل عن جزيرة بادس للإسبان، وفريق آخر يرفض أن يكون السلطان عبد الله الغالب قد سلم الجزيرة.

عدنا إلى مختلف المصادر والمراجع التي تطرقت إلى قضية التنازل عن جزيرة بادس من عدمه، وقد تبين لنا غياب الحجج التاريخية المقنعة للقول إن عبد الله الغالب قد سلم جزيرة بادس للإسبان، فليست هناك أي وثيقة تثبت هذه التهمة المنسوبة للسلطان السعدي، إذ لم نجد في جميع النصوص التي اطلعنا عليها، خاصة الإسبانية، المتعلقة بحيثيات الاحتلال الأخير إلى جزيرة بادس، ما يثبت تخاذل عبد الله الغالب وتنازله عن بادس[٣٤]. ولا بد من الإشارة إلى أن جل من تبنوا الرأي القائل بتسليم جزيرة بادس للإسبان قد نقلوا ذلك عن المؤرخ المجهول[٣٥] المعروف بالعداء الذي كان يكنه للدولة السعدية.

كان احتلال جزيرة بادس العامل الأساسي في اندثار حاضرة بادس التاريخية، حيث اضطر السكان إلى مغادرتها بدون رجعة، وتعرض عمرانها للتخريب، حيث صارت عرضة للقصف من قبل الإسبان المحتلين لجزيرتها، لتظل منذ ذلك الوقت خرابًا. وامتد أثر الاحتلال إلى جميع المواقع التي كانت بمثابة شرايين الحياة لحاضرة بادس، مثل مرسى قلعة صنهاجة، ومرسى يليش. كان للاحتلال الأخير لجزيرة بادس تداعيات مباشرة على تطور الأوضاع في قبائل ساحل الريف، خاصة على النشاط الاقتصادي البحري الذي كان يعتمد عليه السكان في حياتهم المعيشية. وقد أنزل احتلال الإسبان للجزيرة البادسية ضربة قاصمة بالبحرية المغربية التي كانت تقف بالمرصاد لأساطيل الغزاة المسيحيين، لاسيما وقد تبع ذلك إقدام إسبانيا على مهاجمة القوات البحرية في تطاوين خلال نونبر من سنة ١٥٦٤م نفسها، وقيامها بإغلاق مصب نهر تطاوين[٣٦].

خلف ضياع بادس أصداء مفجعة ترددت عبر جوانب المغرب كافة، فمرسى بادس كان آخر ميناء تحت السيادة المغربية على السواحل المتوسطية، ومع فقدان هذا الثغر انغلقت أبواب البحر المتوسط على المغرب[٣٧]. برزت خلال السنوات الأولى بعد احتلال الجزيرة بعض أشكال المقاومة لتحرير الجزيرة، لكن عموما يمكن القول إنه سادت في البداية حالة من الهدنة بين المغاربة والإسبان، حيث كان الجانب المغربي يسعى إلى إفشال الأطماع الإسبانية للتوغل في المناطق الداخلية، فقد تيقن المغاربة من صعوبة زحزحة الوجود الإسباني من الجزيرة، وتقرر الاكتفاء بمراقبة الميدان الخارجي عن طريق إحداث مركز قار للمراقبة يتمثل في إقامة قصبة تلا بادس.

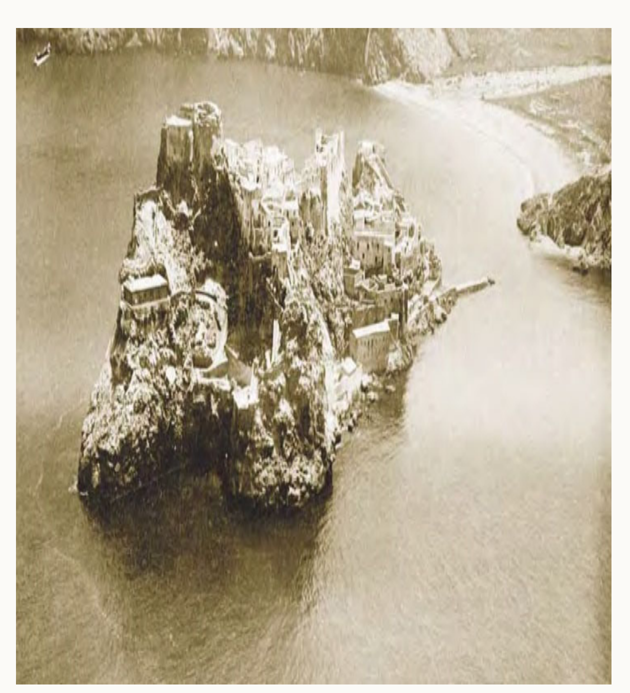
وبعد الهدنة التي تلت الاحتلال الأخير لجزيرة بادس برزت مرة أخرى المقاومة المغربية لتحرير برج الساحل والجزيرة، ففي سنة ١٦٨٠م بدأت المحاولة الأولى لاسترجاع برج الساحل[٣٨]، لكن هذه المحاولة باءت بالفشل، لتليها محولات أخرى توجت باسترجاع برج الساحل على يد القائد علي بن عبد الله الريفي سنة ١٧٠٢م[٣٩]. ومن البرج المسترجع بدأت محاولات اقتحام الجزيرة، ففي السنة نفسها حاول المغاربة التسلل إلى الجزيرة[٤٠].

يظل الحصار الذي تعرضت له جزيرة بادس من قبل المغاربة ما بين ١٧٧٤م- ١٧٧٥م أهم مظهر من مظاهر المقاومة المغربية لتحرير جزيرة بادس السليبة خلال العصر الحديث، وقد نشر المؤرخ الإسباني غارسيا فيغيراس يوميات هذا الحصار، وصاحب تلك اليوميات هو طبيب إسباني كان حاضرا بالجزيرة، اسمه أنطونيو كاردين[٤١]. وبعد رفع الحصار عن الجزيرة والفشل في تحريرها استمرت حركة المقاومة المغربية، ويكفي أن نطلع على تقرير عسكري إسباني صادر يوم ٢٢ شتنبر ١٧٩١م لمعرفة استمرار المواجهات بين السكان والجنود الإسبان في عهد المولى اليزيد[٤٢].

خَاتِمَةٌ

نؤكد في الختام على أن جزيرة بادس قامت بأدوار تاريخية مهمة جدا، لكونها كانت جسرًا للتواصل بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط، وقد ساهمت في الإشعاع الحضاري لمنطقة الريف المغربي، ومن ثمة اكتست أهميتها في السياسة التوسعية الإسبانية. وكانت خسارة المغرب لجزيرة بادس عنوانا لمأساة تاريخية، لما لاحتلالها من عواقب وتداعيات كبيرة. وقد حاولنا في هذا المقال إبراز جوانب من المقاومة المغربية لتحرير جزيرة بادس، خاصة المقاومة المحلية، فقد ظل المغاربة دائما بالمرصاد للتمركز الإسباني بجزيرة بادس، مما حال دون تحقيق الأطماع الإسبانية في التوغل في المناطق الداخلية.

ونؤكد كذلك على ضرورة تعميق البحث التاريخي في موضوع جزيرة بادس، وغيرها من الجزر المتوسطية المغربية المحتلة، لما لذلك من أهمية في تعزيز حقوق المغرب المشروعة في المطالبة باسترجاع هذه الجزر إلى حضن الوطن.



صورة رقم (٢)

جزيرة بادس قبل اتصالها بالبر[٤٣]

الملاحق



صورة رقم (١)

شبه جزيرة بادس وساحلها في الوقت الراهن



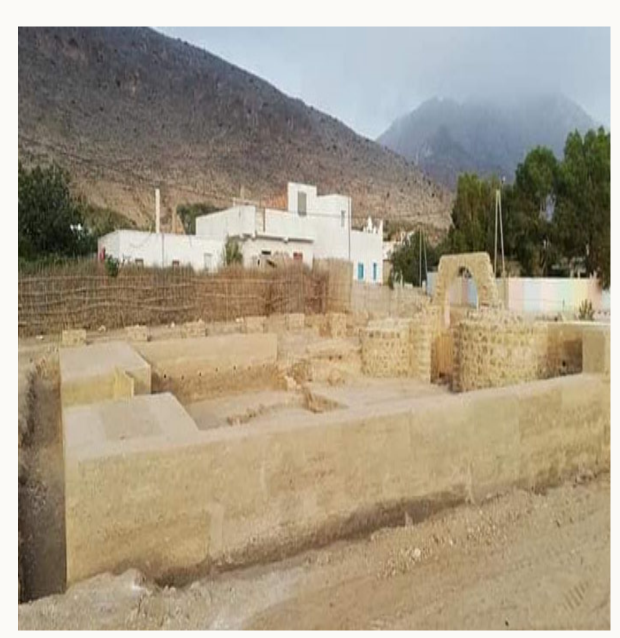
صورة رقم (٣)

رسم يوضح الإنزال الإسباني البري ومحاصرة الجزيرة من كل الجهات، كما تظهر في الرسم مدينة بادس[٤٤]



صورة رقم (٤)

محاولة الإسبان التقدم نحو مدينة بادس[٤٥]



صورة رقم (٦)

الموقع الأثري نفسه بعد ترميمه في السنوات الأخيرة



صورة رقم (٥)

بقايا أثرية لأحد أبواب حاضرة بادس

* مصدر الصور في الملاحق: أرشيف كاتب المقال ما لم يذكر غير ذلك.

الاحالات المرجعية:

(1) Comision Historica de las Campañas de Marruecos, Geografia de Marruecos, Protectorados y Posesiones de España en Africa, t. 2, Madrid, 1936, p. 297.

(٢) حليمة فرحات، مادة "بادس"، معلمة المغرب، نشر مطابع سلا، الجزء ٣، سلا، ١٩٩١، ص. ٩٦٦.

(٣) أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، دار الكتاب، الجزء السادس، الدار البيضاء، ١٩٥٦، ص. ٢٠.

(٤) تورديسياس مدينة إسبانية تقع على نهر ديرو الذي يصب قرب ميناء بورطو شمال غرب البرتغال.

(5) TOMAS Garcia Figueras, **Marruecos la accion de Espana en el norte de Africa**, Tetuan, 1955, p p. 62-63.

(6) la CASCA Enrique, **la Epopeya de Espana en Axdir**, Melilla, 1928, p. 24.

(٧) محمد بن عزوز حكيم، **المغرب في مواجهة الحملات الصليبية**، الطبعة الأولى، الجزء الأول، تطوان، ٢٠٠٣، ص. ١٩٣.

(8) DE LA PENA Francisco, **Lellenda del Peñon de Velez de la Gomera**, Valencia, 1846, p.144.

(9)CALINDO DE VERA Leon, **las posesiones Hispano - Africanas**, Colección Africa propia, Malaga, 1993, pp. 82-89.

(10) TOMAS Garcia Figueras, **Mescelania de estudios historicos Marroquies**, Larache, 1949, p. 31.

(١١) حسن الفكيكي، **مقاومة الوجود الإيبيري بالثغور الشمالية المحتلة ١٤١٥ – ١٥٧٤**، أطروحة الدكتوراه في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، رسالة مرقونة، الجزء الثاني، الرباط، ١٩٨٩- ١٩٩٠، ص. ٥٨٤.

(١٢) نفسه، ص ص. ٥٨٤- ٥٨٥.

(13) Rafael Gutiérrez Cruz, «El Penon de Vélez de la Gomera 1508-1520 », El Peñón de Vélez de la Gomera, Historia, cultura y **sociedad en la Espana norte Africana**, Op.cit, p p. 68-69.

(14) **Ibid**, p. ٦٧- 69- 74 – 89.

(15) **Ibid**.

(16) **Ibid**, p. 65.

(17) Pedro SALAZAR, **Espania Victrix**, Madrid, 1570, p. 4

(١٨) يروي مارمول كاربخال تفاصيل تحرير الجزيرة، قائلا: " لما كان قد أخبر أمير بادس بأن حاكم الجزيرة يحب المال حبا جما، فإنه أرسل إليه كيماويين اقترحا عليه أن يصنعا له نقودا مزيفة تروج في المنطقة، وفي تلك الأثناء تقربا إلى حام الجزيرة فيلالوس Vilalos، وتآمرا على قتله، فأسرا بذلك إلى أمير بادس، لينجدهم في الوقت المناسب، وبينما كان فيلالوس منحنيا في إحدى شرفات البرج، فتم قتله، واستحوذا على البرج، وجميع المدفعية والذخيرة الحربية، ثم أعطيا الإشارة إلى سكان بادس الذين أتوا مسرعين واستولوا على المكان، دون أن يستطيع المسيحيون منعهم من ذلك، لأن البرج، الذي هو القلعة الرئيسية، كان محتلا من طرفهم". انظر: مارمول كاربخال، **إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد زنيبر وآخرون، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار نشر المعرفة، مطبعة المعارف الجديدة، الجزء الثاني، الرباط، ١٩٨٩، ص. ٢٣٣.

(١٩) مارمول كاربخال، المصدر السابق، ص. ٢٣٣.

(٢٠) نفسه، ص ص. ٢٣٣ - ٢٣٤.

(21) Mariano **FERRER** BRAVO y Baltasar DE COLLAZOS, «Algunas visiones del siglo 16 hasta 1563», **El Peñón de Vélez de la Gomera, Historia, cultura y sociedad en la Espana norte Africana, Op.cit**, p. ٨٩.

(22) Archivo General de Simancas, Estado, Leg. 461. - Les sources inedites de l'histoire du Maroc. Espagne, T. 1, pp . 44.60.

(٢٣) حسن الفكيكي، **مقاومة الوجود الإيبيري بالثغور الشمالية المحتلة**، مرجع سابق، ص. ٦٤٠.

(٢٤) نفسه.

(25) **S.I.H.M**, Espagne, T. ٣, p. 7.

(٢٦) حسن الفكيكي، **مقاومة الوجود الإيبيري بالثغور الشمالية المحتلة**، مرجع سابق، ص. ٦٤٥.

(٢٧) عبد الكريم كريم، **المغرب في عهد الدولة السعدية**، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، الطبعة الثالثة، الرباط، ٢٠٠٦، ص. ٩١.

(٢٨) أورده محمد بن تاويت، **من زوايا التاريخ المغربي**، مجلة **تطوان**، عدد٥، ١٩٦٠، ص. ١٢٠.

(29) Baltasar DE COLLAZOS y Chantal DE LA VERONNE, «Garcia de Toledo y la ocupacion definitive de 1564», **El Peñón de Vélez de la Gomera, Historia, cultura y sociedad en la Espana norte Africana, Op.cit**, p. 126.

(30) **A.G.S**. Estado, Leg. 445.

(٣١) محمد بن تاويت، من زوايا التاريخ المغربي، مرجع سابق، ص. 126.

(٣٢) مارمول كاربخال، مصدر سابق، ص. ٢٤٢.

(٣٣) محمد بن تاويت، من زوايا التاريخ المغربي، مرجع سابق، ص. ١٢٥.

(٣٤) لمعرفة كل الآراء المختلفة حول مسألة تنازل السلطان الغالب عن جزيرة بادس، انظر: عمر اشهبار، **المسار الاستعماري لجزيرتي بادس والنكور خلال العصر الحديث (١٥٠٨ – ١٨٢٢م)**، تقديم مصطفى المشيش العلمي، مطبعة دار أبي رقراق للطباعة والنشر، منشورات مؤسسة سيدي مشيش العلمي، الطبعة الأولى، الرباط، ٢٠١٠، ص. ١٦٢ – ١٦٧.

(٣٥) جاء في مخطوط **تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية**، ما يلي: "وأخذ مولاي عبد الله في ترتيب الجيوش والذخائر والعدة وعمارة الأهرية وخزاين البارود، وذلك خوفا من إخوته أن يأتوه من الجزائر بمحلة الترك، وكانت عمارة أهل

الجزائر وسفنهم لا تخلو من مرسى بادس (...) ولا ينقطع الترك عنها في كل أوان، فاهتم بذلك مولاي عبد الله وقنط وخاف أن تخرج عمارة الترك من تلك البلاد إلى المغرب فكتب إلى سلطان النصارى واتفق معه أن يخلي له الإدالة من حجرة بادس ويبيع له البلاد ويخليها من المسلمين وتنقطع مادة الترك، فأتت النصارى بالعمارة إلى الحجر ونزل المسلون (منها) وسكنها النصارى برأي السلطان الفاسد". مؤرخ مجهول، **تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية**، تقديم وتحقيق عبد الرحيم بنحادة، منشورات عيون المقالات، دار تينمل للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، مراكش، ١٩٩٤، ص. ٣٩.

(٣٦) عبد الكريم كريم، **المغرب في عهد الدولة السعدية**، مرجع سابق، ص.٩١.

(٣٧) حليمة فرحات، مرجع سابق، ص. ٩٦٨.

(38) Juan Antonio de Estrada, **Poblacion General de España**, Vol 3, Madrid, 1747, p. 547.

(٣٩) محمد بن العياشي المكناسي، **زهر البستان في نسب أخوال سيدنا ومولانا زيدان**، مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط، رقم ١٢١١٩، ص. ٢٨-٢٩.

(٤٠) نفسه.

(41) TOMAS Garcia Figueras, **Diario del sitio del** Peñón de Vélez de la Gomera desde 20 de Enero de este presente año de 1775, Mauritania, Julio, 1940, p. 217 a 219; 252 a 254 y 289 a 294.

(42) **Bacaicoa Arnais DORA,** El Peñon de Velez de la Gomera en 1791**, Tamuda, Septembre, 1950.**

(43) DE MORALES Gabriel y otros, «El Peñón de Vélez hasta 1921 », **El Peñón de Vélez de la Gomera: Historia cultura y sociedad en la Espana Norte Africana**, Direccion a cargo de Antonio Bravo Nieto y Juan Antonio Bellver Garrido, Edicion al cuidado del Instituto de Cultura Mediterranea, Espana, 2008, P. 379

(44) **Baltasar** de Callazos y Chantal de la Veronne, « Sancho de leiva y el intento de conquiesta de 1663 », **El Peñón de Vélez de la Gomera, Historia, cultura y sociedad en la Espana norte Africana, Op.cit**, p. 130.

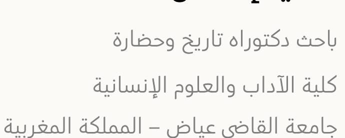
(45) Baltasar de Callazos y Chantal de la Veronne , «Sancho de leiva y el intento de conquiesta de 1663», **Op.cit**, p. 109.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].



ملاحظات أولية حول تاريخ التغذية في مغرب العصر الحديث
القيم الحضارية والمحددات الطبيعية المتحكمة في ثقافة الغذاء





سعيد إدحمان

باحث دكتوراه تاريخ وحضارة

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة القاضي عياض – المملكة المغربية

مُلَخّص

من المعروف أن الكتابة حول مسألة التغذية لدى الإنسان تكتسي أهمية كبرى، باعتبارها ظاهرة ثقافية واجتماعية، وخصوصًا حينما تلامس مسارها التاريخي، والذي يكشف عن حمولة حضارية عريقة ساهم في غناها انصهار عدة ثقافات بشرية متنوعة الأصول والأعراق في إطار انتقال العوائد بين مختلف البلدان عن طريق الهجرات. من هذه الزاوية جاءت الرغبة في كتابة هذه الدراسة البحثية، إذ أن الغاية منها هي تسليط الضوء على جوانب من تاريخ التغذية بالمغرب خلال العصر الحديث (ما بين ق ١٦م – ق ١٨م) من خلال إبراز العوائد الغذائية للإنسان المغربي، والشروط التي تتحكم في اختلافها بين مناطق البلاد، وخاصة المحددات الطبيعية والحضارية، حيث سنتحدث بإسهاب عن مساهمة العوامل المجالية والمناخية في فرض أنماط تغذية مُعينة في كل إطار جغرافي، مع التطرق لأنواع المأكولات وطرق تحضيرها، التي شكلت ركيزة أساسية في تغذية الأهالي، فضلا عن بعض الأقوات المُكملة، والعادات الغذائية التي تسربت إلى البلاد عن طريق المؤثرات المتوسطية – في إطار علاقة التأثير والتأثر بين الحضارات الإنسانية - كما سنتطرق لدور التراتب الاجتماعي والتقاليد في تباين العادات والأذواق الغذائية، من خلال ثنائية موائد علية القوم، وموائد الشرائح الدنيا فضلاً عن آثرها على بيولوجيتهم، باتباع منهج وصفي وتاريخي يستنطق مختلف المظان التي تحفل بها الإسطغرافيا التاريخية، وخاصة كتابات الرحالة والأطباء والقناصلة الأجانب.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٨	فبراير	٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر:	٢٨	فبراير	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

المغرب الحديث؛ تاريخ التغذية؛ العوائد والقيم؛ المأكولات والمشروبات؛ الإنسان المغربي

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/KAN.2021.222702

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

سعيد إدحمان. "ملاحظات أولية حول تاريخ التغذية في مغرب العصر الحديث: القيم الحضارية والمحددات الطبيعية المتحكمة في ثقافة الغذاء".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الحادي والخمسون؛ مارس ٢٠٢١. ص ١٦١ – ١٧٢.

Corresponding author: idhmanesaid@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَة

من المعلوم أن الكتابات التاريخية التقليدية كانت في عمومها منصبة على تدوين ما يدور في قصور السلاطين والملوك والأمراء، والإشادة بانتصاراتهم في ميادين الحروب وساحاتها، والإطناب في سرد منجزاتهم ومآثرهم، والتأريخ للقادة السياسيين والعسكريين المقربين من دوائر السلطة وكل من يدور في فلكها، وهو أمر يستمد سوءاته من كونه جاء على حساب أخبار باقي الفئات الاجتماعية الدنيا، وهي كما هو معروف تشكل القاعدة الأوسع من المجتمع. وهذا ما خلق لدى العديد من الدارسين الرغبة الجامحة في إنارة هذه الجوانب المسكوت عنها في إطار تناهج التاريخ مع مختلف العلوم الأخرى، لخلق مخارج متعددة للانحباس المعرفي والمنهجي الذي وسم الكتابة التاريخية الكلاسيكية لفترة طويلة. ولعل تاريخ التغذية يشكل واحدا من أهم القضايا التي أصبحت تنال حظوة واضحة في ورش وكتابات الباحثين والمهتمين بالعلوم الإنسانية والاجتماعية.

من هذه الزاوية ارتأينا دراسة جوانب من تاريخ التغذية بالمغرب خلال العصر الحديث، إذ ما يزال هذا الموضوع بكرًا في حقل الكتابة التاريخية، وأنه ليس ترفا فكريا إثارة القول فيه، خاصة عندما يرد الحديث عن الشروط الطبيعية والحضارية التي كانت تتحكم في القيم والعوائد الغذائية بالبلاد، واختلاف ثقافتها من منطقة إلى أخرى، ومن طبقة إلى أخرى. ممارسات غذائية برزت من خلالها ثنائيات: الفئة العالِمة/ الفئة الشعبية. فئة المُترفين/ فئة الكادحين. الحاكمين/ المحكومين.

أولاً: المناخ كعامل مهم في اختلاف العادات الغذائية

لا يخامرنا شك في أن الإشارات التاريخية التي تشير إلى النظام الغذائي في الاسطغرافيا التقليدية، كان حضورها متفاوت الأهمية من مُصنف إلى آخر، فالمصادر الإخبارية لا تذكر غذاء الساكنة في أغلب الأحوال إلا في حال حدوث مجاعة، أسفرت عنها ظرفية طبيعية أو سياسية، وكتب المناقب والتراجم تقدم بعض الأغذية التي كان يتناولها الصلحاء ورجالات التصوف، لكن العامة كانت على هامش التدوين في كتاباتها باستثناء حالات نادرة. أما شهادات الرحالة الأجانب، فتتصف في أغلبها بالغلو والرغبة في إظهار تخلف المغاربة في ظروف معيشتهم، لكنها تظل منجما غنيا بالمعلومات حول عادات السكان في الأكل والشرب، وبالتالي لا مناص من استغلالها، مع أخذ الحيطة والحذر في التعامل معها.

لقد لعبت العوامل الطبيعية دور مهما في فرض أنواع معينة من التغذية، وهذا ما يُفسر المكانة الريادية للشعير ضمن القوت اليومي للمغاربة. فقد استعاض سكان جبل شيشاوة عن قلة القمح بأكل الشعير[١]. كما شكل الشعير بالنسبة لساكنة إيليغ " عماد المعيشة؛ ولا يعرف القمح بعض الأضياف إلا في بعض الديار" [٢].

أما ساكنة بعض السهول الأطلنطية، وسفوح الجبال[٣]، فاتخذوا من القمح وجبات على شكل أحسية أو خبز أو كسكس، في حين سُجل استهلاك الذرة بكثرة خلال بعض السنوات العجاف[٤]. أما الأرز فلم يحظ بأهمية كبرى في تغذية المغاربة، فلم تكن "لهم نهمة في أكله"[٥].

وبالنسبة لأهل بعض المناطق الشمالية، التي تفتقر إلى الموارد الفلاحية والمواشي كترغة وبادس - نظرا للبرد القارس والجفاف – فقد دأبوا على تناول العنب والزبيب، حيث كانوا يحضرون منه كمية عظيمة من الخمور[٦]، كما يستهلكون القطاني، فقد شكل حساء الفول [البيصارة] طبقا محبوبا لدى ساكنة منطقة غمارة، حيث يعتبرونه أحسن قوت.

وفيما يخص الفواكه فقد لعب بدورها وظيفة غذائية هامة، فشملت المناطق الرطبة والشبه الجافة على حد سواء[٧]، وسمحت بالتغيير في الوجبات الغذائية نظرا لكثرة أنواعها ورخص أسعارها ومذاقها الطيب، إضافة إلى تتابع مواسم نضجها وفترات استهلاكها على امتداد ثمانية أشهر في السنة تقريبا. وهو ما يوضحه الجدول التالي[٨]:

الفترة التي يظهر فيها الإنتاج	طبيعة الإنتاج
أواخر إبريل	الكرز
أواخر ماي	التين
أواخر يونيو	العنب
يوليوز	التفاح - الإجاص - المشمش – البرقوق
غشت	التين (الثانية) - النبق - العنب الجاف (الزبيب)
شتنبر	التين – الخوخ
أواسط أكتوبر	التفاح - الرمان – السفرجل
نوفمبر	الزيتون

كما لا تخلو الإشارات المصدرية التي تدل على أهمية الفواكه في تغذية الساكنة، فكان المتصوفة في جبل الحديد يقتاتون الفواكه والماء [٩]. وتتحدث كتب المناقب عن وجبة زهيدة للنساك، مكونة من خبز وعنب، أو خبز ورمان[١٠]. أما لامبريير فقد ذكر بأن جل ساكنة المغرب، تعيش من الفواكه، والخبز الأسود[١١].

وفيما يتعلق بالخضر، يظهر عموما أن استهلاك المغاربة لها، لم يحظ بإقبال مهم، إلا في بعض المناطق، كتارودانت التي كانت ساكنتها يقتاتون على جميع أنواع الخضر الطرية واليابسة [١٢]. ومدينة فاس التي اتخذ أهلها من الخضروات عنصرا مهما في مائدتهم، وتهافتوا على شرائها، ويبدو أن أسعارها كانت تتناسب مع قدرتهم الشرائية، حيث تعرض أسواق المدينة " كل يوم خمسمائة حمل من الجزر واللفت، وأكثر من ذلك أحيانًا، يباع منها كمية هائلة. ومع أن هذين النوعين مرغوب فيهما كثيرا كما قلت، فإنهما يباعان عادة بثمن بخس.."[١٣].

على أن مختلف المصادر التاريخية تتحدث في أغلبها عن الخبز، والعصيدة والكسكس، كقاعدة للأطعمة المغربية سواء في المدن أو البوادي، وهي ترتكز أساسًا على كل أنواع الحبوب. أما القطاني والفواكه وغيرها فكانت أغذية مكملة[١٤]. في حين كان شراب معظم المغاربة يتكون من الماء ولبن الماعز[١٥].

ثانيًا: التراتب الاجتماعي (معطى حضاري مُحدد لطبيعة الأطعمة وموائدها)

لقد وردت إشارة عند الإفراني، تتحدث عن خبز علية القوم، يذكر فيها أن أحمد بن إبراهيم الدرعي دخل عليه أعيان لكتاوة لزيارته، " فأطعمهم التمر وخبز الحواري الخالص مع السمن والعسل...فقيل له: يا سيدي أين يكون في درعة خبز الخالص ؟ فقال لهم: إنما مدته أخت لنا في الله من مدينة فاس "[١٦]. وذكر *Windus* أن خبز الأغنياء لذيذ جدًا، وخاصة المعمول من دقيق فاس، وهو مشهور ببياضه. أما خبز الفقراء، فهو عبارة عن خليط من حبوب سوداء خشنة تبدو أكبر من حبة القمح، وهي شديدة السواد ورديئة [١٧].

وأشار القنصل الدنماركي جورج هوست *Høst*[١٨] في العقد السابع من القرن ١٨م، إلى أن العادات الغذائية تعتمد بشكل رئيسي على الحبوب. ففي الصباح، جرت العادة أن يتناول المغاربة حساء ساخنا، يُصنع من الدقيق والماء وقليلا من الزيت والملح. عند الظهر يأكلون الخبز مع العنب والتين والبطيخ، فخبز الأغنياء يمتاز بالجودة، ويبدو أنه مصنوع من القمح، أما خبز الفقراء فهو رديء ويُصنع من الشعير[١٩]، وقد أشار شارل دو فوكو *Foucauld* إلى دور التراتب الإجتماعي في اختلاف العادات الغذائية، فعند حديثه عن منطقة تازناخت بجنوب البلاد، أشار إلى أن الفقراء يتغذون على دقيق الشعير ولكن كل ذي يسر كان يتغذى على دقيق القمح[٢٠].

أما المختار السوسي، فقد أشار إلى أن الإلغيين كانوا يقدمون الخبز كهدية في المناسبات والأفراح، مضيفا القول بأن الخبز عندهم أنواع أشهرها؛ الخبزة الكبيرة، وتسمى (توفديلت) وبها تفد النساء من أسرة إلى أسرة؛ كما يتزود بها المسافر فتبقى معه أياما إلى أسبوع؛ ومن أنواع الخبز الرقاق، وخبزة الكانون، وهو أفضل ما يؤكل في إليغ، علاوة على خبز الفران الذي يهيأ للأعراس والضيوف [٢١].

فيما يخص الكسكس، فكان يعتمد بدوره على دقيق الحبوب، فإذا كان هو الوجبة المفضلة عند المغاربة، فإن هوست *Host* ميز بين طبق الفئات العليا، الذي يُصنع من دقيق القمح وتُضاف إليه لحوم البقر والضأن والماعز، والبيض المسلوق والخضر المطبوخة، والسمن والزعفران[٢٢]. وطبق الفقراء الذي لا يحتوي إلا على دقيق الشعير وبعض الخضر. ولا نعدم الإشارة إلى وجبات أخرى كالحريرة المصنوعة من دقيق القمح والقطاني، والتي كانت طعاما تتناوله العامة والخاصة بكبريات المدن كفاس ومراكش، كما تتناول هذه الفئات الدنيا الاسفنج، وشحوم البقر والغنم والماعز في فصل الشتاء عوضا عن الزبدة والسمن، وفي بعض الحالات النادرة يستهلكون قطعا من اللحم المسلوق مع العسل واللوز (المروزية)[٢٣].

أما فيما يتعلق بسكان قرى الشمال الشرقي، فقد كانوا يعتمدون على الشعير في استهلاكهم اليومي حيث شكل الخبز وجبتهم المفضلة، ويتم تناوله مع العسل والسمن والزيت، كما يقتاتون على بعض الفواكه التي يتم تجفيفها كالعنب والتمر والخوخ، حيث يحتفظ بها طوال السنة وتعتبر طعاما شهيا[٢٤].

واعتاد سكان إينولتان على تحضير أحسية متنوعة من الحبوب، يُضاف إليها في بعض الأحيان شيء من الزيت أو السمن، كما كانت تتخذ منها بعض الفطائر والقلايا. بيد أن الخبز لم يكن الغذاء الأساسي لديهم، ولدى ساكنة جبال الأطلس، فكان يؤكل وحده، أو ببعض الدهون[٢٥]، أما ساكنة إيليغ فكانوا يحبذون وجبة تتكون من "الدقيق الملتوت بالحليب تدعى بوفي" وهي تشبه العصيدة، التي كانوا يحضرونها من جريش الذرة البيضاء، ويصب عليها الحليب حالة إنضاجها. ثم تطبخ طبخا جيدا، ليتم تناولها بالزبدة ولبن جيد[٢٦].

فيما يهم منطقة الريف، فقد اشتُهرت دون غيره من مناطق المغرب باستهلاك السمك المملح في البوادي بجبالها وبسائطها، وبيعه في أسواقها. ويظهر هذا في ارتفاع أسعاره، لدرجة أن رائحة السردين تفوح من الجدران والأزقة. ولم يقتصر صيد الأسماك واستهلاكها على السواحل بل اشتهرت مدن داخلية كفاس، بوجود استهلاك أصناف متعددة كالسردين بالبصل أو السمك بالجوز أو الحوت بالعسل، ويباع السمك المشوي والمقلي بكثرة في أسواقها[٢٧].

ثالثًا: المأكولات والمشروبات تحت تأثير تيارات التلاقح الحضاري

من الملاحظ أن اعتماد المغاربة على الأسماك في هذه الفترة، ضمن وجباتهم الغذائية لم يتجاوز هذه المناطق المذكورة، رغم أن الثروة السمكية للسواحل المغربية شكلت أحد الدوافع الاقتصادية التي دفعت البرتغال والإسبان للتنافس حول المصائد المغربية، لكن من غير المستبعد أن تكون موائد الخاصة أو العامة قد تأثرت بالأنماط الأندلسية منذ العصر الوسيط، أو ما يعرف بانتقال الأغذية في حوض البحر الأبيض المتوسط، وهو ما عبر عنه فرنانd بروديل *Braudel* عندما أكد أن النباتات واللحوم ووصفات الطبيخ كلها ثروات ثقافية، " فقد شكل التبادل المستمر للثروات الثقافية قاعدة بين الحضارات الراسخة والحضارات شبه الراسخة. هذا ما يفسر الاسفار والتنقلات. فالكل يتحرك.. أساليب التفكير والتصور والفعل، جزئيات اللباس والسكن، وحتى وصفات الطبيخ الأكثر بساطة"[٢٨]. وقد تحدثت مجموعة من الدراسات عن أهمية البيئة البحرية المغربية من خلال ثرواتها السمكية، وقِدم الاعتماد عليها في تغذية المغاربة[٢٩].

وتسترعي الانتباه ملاحظة مهمة، وهي أن المصادر لا تشير إلى السكر ضمن الوجبات الغذائية لدى الخاصة أو العامة على حد سواء، على الرغم من إنتاجه الضخم خاصة في القرن ١٦م، لدرجة أن الفشتالي قال بأن تارودانت كانت محاطة ب " معاصر السكر الجاثمة حواليها جثوم أهرام مصر يتقاصر عن تشييدها أولوا القوة من عاد وثمود "[٣٠]. وأشار مجهول البرتغالي إلى أن بلاد سوس غنية بالسكر[٣١]، كما توصلت إحدى الدراسات إلى أن الطفرة التي عرفها اقتصاد المغرب، خاصة في عهد السلطان السعدي عبد الله الغالب يُعزى إلى أهمية قطاع زراعة وصناعة السكر، نظرًا لتشييد قرى ومدن صناعية. وبشكل أكبر في عهد المنصور، حيث استفاد هذا القطاع من خبرة الأرقاء المسيحيين، خاصة منهم البنادقة، بفعل التقنيات التي جلبوها،

وفي مقدمتها ما يرتبط بتصفية السكر[٣٢]. ويبدو أن المغاربة كانوا يُفضلون العسل، في تحلية الأطعمة عوضا عن السكر[٣٣].

هذا يجرنا للحديث عن عادات غذائية ارتبطت بالسكر، وهنا نتحدث عن استهلاك الشاي، والذي أشارت إليه مصادر مغرب القرن ١٨م، وهو ما تعكسه بعض النصوص الفقهية والأدبية، التي تبرز الخلاف الفقهي بين العلماء حول مشروعية استهلاك هذا المشروب. وقد مدح الفقيه أبو حفص عمر الفاسي (١١٢٥-١١٨٨ هـ/ ١٧١٣ - ١٧٧٤ م) شرب الشاي نظرا لفوائده[٣٤]، في حين أن الفقيه أحمد بن محمد الفاسي (١١٦٦- ١٢١٣ هـ / ١٧٥٣ - ١٧٩٩ م)، ذكر ولع أهل المغرب بشرب الشاي، لكنه عارض ذلك، محذرا من سلبيات استهلاكه على القدرة الشرائية للناس، والوقوع في الإسراف ".. فإنه عمت به البلوى أو كادت أن تعم بشرب أتاي، وهو بأغلى ثمن في الغالب. وقد جعل الناس كلهم يتكلفونه، ولا يخلو مجلس منه، ولا إكرام ولا غير ذلك بدونه، وفيه من السرف ما لا يخفى " [٣٥].

في نفس السياق أورد صاحب المعسول نصا في هذا الصدد جاء فيه: " قدمت إلينا أوانى الاتاى على العادة، فقال لنا [الشيخ عابد بن عبد الله البوشواري] دونكم والاتاى، فانى تركته منذ مدة مديدة، فقلت له ولمه؟ أيدك الله بتقواه، فقال لشبهة فيه شبيهة بالحرمة، وذلك أنه قدم على بعض العوام الذين يخدمون فيه بباريس، وسألته عن حاله وحال السكر، فأخبرني أنه معصور بعظام الجيف وغيرها، معقود بعد ذلك بالدم المسفوح، في أخبار غير ذلك غريبة منكرة، فسكت، ثم سألني ما نظركم أنتم فيه. فقلت إنه كما في علمكم تكلم فيه من تقدمنا من فحول زمان ظهوره نظما ونثرا. تصريحا وتلويحا، فمن مبيح له ومن محرم ومن متوقف."[٣٦].

هذا النص يحيل على أن المغرب عرف استهلاك الشاي والسكر، وليس وليد الفترة التي عاش فيها صاحب المعسول، ويبين كذلك الخلاف الفقهي حول تناول الشاي، لكن هذه المرة ليس من باب الإسراف واستنزاف أموال العباد، بل من زاوية شبهة الطهارة، حول كيفية صناعته وتصفيته بالعظام البشرية وغيرها [٣٧].

ولا نعدم الإشارة إلى الشهادات الأجنبية، فالقنصل الفرنسي شني *Chénier* ذكر بأن المغاربة كانوا يتهافتون على الشاي، لأنه يقوم بتدفئة الجسم، مشيرا إلى ولعهم بهذا المشروب [٣٨].

وإذا كان استهلاك السكر والشاي ضمن المائدة المغربية في النصف الثاني من القرن ١٨م مسألة لا يرقى إليها الشك، وحيث أننا نرجح دخول الشاي منذ أواخر القرن السابع عشر عن طريق الهدايا التي كانت تأتي بها البعثات السفارية إلى السلطان وحاشيته[٣٩]، فإن إشارة شنيي وغيره لا تنهض حجة على أن استهلاك هذا المشروب قد عرف انتشارا واسعا بالبلاد - على الأقل قبل النصف الثاني من القرن التاسع عشر[٤٠]، فهم كتبوا بدرجة أولى عما عاينوه في بعض المدن الساحلية - حيث نجد التواصل والاحتكاك بالأوروبيين- كتطوان وطنجة والرباط والصويرة، وفي المدن الداخلية كمراكش وفاس أثناء مجالستهم لكبار المسؤولين في المخزن والأعيان. وبالتالي يمكن القول إن استهلاك الشاي والسكر كان محصورا في إطار ضيق متمثل في الشرائح العليا ببعض المدن الكبرى فحسب [٤١].

رابعًا: ثقافة الأكل (خاضعة للعادة والطبائع أم تحددها الاعتبارات الجغرافية؟)

إن الحديث عن التغذية، وبعض الشروط المتحكمة في اختلافها، يحيلنا لنص تاريخي قيم أورده اليوسي حيث جاء فيه: "ودخلت في أعوام الستين وألف مدينة مراكش عند رحلتي في طلب العلم وأنا إذ ذاك صغير السن، فخرجت يوما إلى الرحبة أنظر إلى المداحين، فوقفت على رجل مسن عليه حلقة عظيمة، وإذا هو مشتغل بحكاية الأمور المضحكة للناس. فكان أول ما قرع سمعي منه أن قال: اجتمع الفاسي والمراكشي والعربي والبربري والدراوي فقالوا: تعالوا فليذكر كل منا ما يشتهي من الطعام، ثم ذكر ما تمناه كل واحد بلغة بلده، وما يناسب بلده، ولا أدري أكان ذلك في الوجود أم شيء قدره، وهو كذلك يكون، وحاصله أن الفاسي تمنى مرق الحمام، ولا يبغي الزحام، والمراكشي تمنى الخالص واللحم الغنمي، والعربي تمنى البركوكش بالحليب والزبد، والبربري تمنى عصيدة انلي وهو صنف من الذرة بالزيت. والدراوي تمنى تمر الفقوس في تجمدرت وهو موضع بدرعة يكون فيه تمر فاخر، مع حريرة أمه زهراء، وحاصله تمر جيد وحريرة.

ولو عرضت هذه الحريرة على العربي لم يشربها إلا من فاقة، إذ لا يعتادها مع الاختيار، ولو عرضت العصيدة على الفاسي لارتعدت فرائصه من رؤيتها، وهكذا"[٤٢].

إن هذا النص التاريخي الذي جاء على لسان أحد المداحين [القرن ١٧ م] يعرض لبعض الأطعمة ومناطق انتشارها، وهو يكشف عن دور الأنساق الثقافية لمختلف الفئات في تشكل أصناف الطعام وأذواقها أو ما يُعرف بـ "الإحساس الغذائي" على حد تعبير جاك لوتمان *Lautman* [٤٣]، كما يبرز النص بأن النظام الغذائي كان يفرز أنماطا غذائية تستجيب لما تقدمه البيئة الجغرافية وشروطها. فالإنسان في حقيقة الأمر، لا يمكن التعرف عليه من خلال ما يأكل فقط، بل أيضا انطلاقًا من محيطه الجغرافي. وهو ما دفع الجغرافيين البريطانيين إلى تغيير المثل الألماني "قل لي ما طعامك، أقول لك من أنت"، إلى صيغة جغرافية " قل لي أين تأكل أقول لك من أنت"[٤٤]. كما يحيل هذا النص على غلبة الطبع والعادة على السلوك الغذائي، مع الاضطرار إلى الخروج عن المألوف، وخصوصا أثناء ظروف الفاقة، المُشار إليها في النص، والتي لا تحدث إلا تحت ضغط موجات الجفاف ونتائجها الكارثية، ما يُجبر الإنسان على التكيف مع ظرفية الأزمة وانتهاك المحظور، خوفا من الهلاك، واليوسي نفسه، عاش في فترة حبلى بالأزمات الديمغرافية الخطيرة، كما ورد في طبقات الحُضيكي أن أبو عمرو المراكشي (ت.٩٧٤ هـ / ١٥٦٧ م) كان "ممن صحب الشيخ عبد الكريم الفلاح...وكانت له همة رفيعة في إطعام الطعام، فلا يدخل أحد زاويته إلا بادر الخدام له بإحضار الطعام على قدر الداخل، فسائر الناس يأكلون خبز الشعير وما وجد من الفواكه معه، وفي الصبح الدشيش، وفي المساء الكسكس، ومن هم أعلى مرتبة يأكل خبز البر وخلاصة التمر والعسل واللحم والثريد والدجاج، ومن هو أعلى قدرًا من الطبقتين يقربون له الحسو المتخذ من لباب الخالص وفصوص البيض بالقرفة والزعفران، ولحم الظأن المطبوخ بالجزر واللفت والسلجم، وأنواع الفواكه التي لا توجد في خزائن الملوك.."[٤٥].

يبدو من أول وهلة، أن هذا النص يبرز أن الأطعمة راعت التراتب الاجتماعي بين الشرائح الاجتماعية، بمعنى أن هناك تمايزا في إطعام الوافدين على شيوخ الزوايا والصلحاء يقوم على ثلاثية: عامة المجتمع، وصفوة القوم، وصفوة الصفوة.

وإذا كنا نُقر بتحكم التراتبية الاجتماعية في العديد من الوجبات الغذائية، فإن هذا النص على ما يبدو لم يكن الغرض منه وضع تصنيف وتفاضل بين هذه المكونات المجتمعية، بقدر ما يحيل على أن هذا الاستهلاك الغذائي قد خضع للعادات والطبائع[٤٦]، وهو ما نلمسه في نص تاريخي، يتحدث عن أبي بكر الدلائي (ت. ١٠٢١ هـ/ ١٢-١٦١٣م)، الذي كان على طريقة شيخه أبو

عمرو المراكشي في إطعام الناس حسب طبقتهم، حيث جاء فيه: "وكان كثير الإطعام أمرًا خارجًا عن الوصف، ومباينا للعادة والالف. وكان يطعم الناس على طبقتهم وما يناسب حالهم في جودة الطعام ورداءته، على سنة إطعام شيخه أبي عمر وطريقته. فقال له إنسان: إن طعامك فيه الرياء، فإن سيدي فلانا إنما يطعم الناس سواء. فقال له: من حسب الناس سواء، فليس لحمقه من دواء، فإن الناس أصناف، وكل واحد ما اعتاده في الغذاء، فالبدوي الذي ألف الطعام الغليظ من الدخن وشبهه إن أطعَمتَهُ الرقيق لم يشبعه وبات جائعا، والحضري الذي ألف الرقيق إن أطْعمتَه غيره لم يقبل عليه ولم يتسوغه وبات جائعا، وإن بات أحدهما جائعا ولم أطعمه ما يجب فقد أهنته ولم أكرمه. وقال النبي (ﷺ): من كان يومن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه "[٤٧].

كما أكد اليوسي نفسه، في موضع آخر هذه المسألة، عندما قال "اختلفت طباع الناس في الطعام باختلاف الإلف والعادة، فكل يستمرئ ما يألفه من الطعام ويشتهيه ويعاف الآخر"[٤٨].

إن ارتباط الثقافة الغذائية في جوانب منها بالطبائع والعادات، مسألة لا يمكن دحضها، فالحكماء العرب بدورهم، أكدوا على هذا الجانب، فقد ارتبطت التغذية عند ابن خلدون بنمط العيش، وما يُسفر عن تلك العلاقة التفاعلية للإنسان مع محيطه الإيكولوجي من تعود على نوع أو أنواع من الأطعمة[٤٩].

تظهر هذه النصوص والإشارات المصدرية التي أسلفناها، بساطة النظام الغذائي لدى السواد الأعظم من الساكنة. نظام شكلت فيه المواد النباتية وخاصةً الحبوب حجر زاويته، وتحكمت في ذلك بدرجة أولى محددات طبيعية أهمها المناخ والبيئة الإيكولوجية. فأفرزت عادات غذائية ترتبط بالفصول المطيرة الباردة، وأخرى تتكيف مع الفصول الجافة والحارة. نظام يجب التمييز فيه بين ما يطغى على الوجبات، وبين ما يقل أو ينعدم، أو ما يتغير تبعا للموقع الجغرافي وطبيعة التضاريس والتربة والبيئة المائية. عوائد غذائية قامت في معظمها على قاعدة سد الرمق، خوفًا من هاجس المجاعة والهلاك، الذي يتربص بالأرواح في ظروف الجفاف والقحط. أعراف غذائية، خضعت كذلك لاقتصاد القلة، وترهل تقنيات العمل وأنماط العيش، إضافة إلى المحددات الذهنية والفوارق الاجتماعية والقدرة الاقتصادية للأفراد.

فالحواضر الكبرى كمدينة فاس على سبيل المثال، استفادت من دينامية اقتصادية، تشهد عليها كثرة الأسواق وتوافد التجار والقناصل والرحالة الأجانب وغيرهم. وإذا ما استحضرنا استقرار أغلب الأعيان والبيوتات الكبرى وأفراد البيت الحاكم في هذه المدينة، فإن هذه الخصائص السوسيو- اقتصادية أفرزت عقلية تحبذ المتعة والترف لدى ساكنة المدينة، تجلت في مظاهر الحياة اليومية، وفي القلب منها السلوك الغذائي من حيث وفرة وتنوع الوجبات الغذائية، واعتمادها على اللحوم، مرتين في الأسبوع بالنسبة للعامة، ومرتين في اليوم بالنسبة للخاصة[٥٠]، فاستهلاك اللحوم مؤشر يدل على المستوى المعيشي والمركز الاجتماعي. لكننا لا نتوفر على أرقام حول هذا الاستهلاك، وكذلك أسعار المواد الغذائية في فترة الوفرة. فوجود إشارات من هذا النوع، تسمح بالإحاطة بتاريخ الأسعار، وحجم الثروة، والتفاوتات في أنماط الطبخ.

وفي واقع الحال، لا يوجد دليل على أن الفئات الاجتماعية الدنيا في أغلب الحواضر، كانت وجباتها الغذائية أغنى وأحسن حالاً من سكان البوادي، فقد ظل غذائهم رتيبًا ومتواضعًا، يرتكز على الحبوب، بما لها من "صفة مقدسة، وتمثل هدية من الله بامتياز، كما تصاحب أعمال الزراعة المرتبطة بها، مجموعة من مظاهر الاحترام. إن تبذيرها كان تدنيسًا حقيقيًا"[٥١] حسب تعبير جوين *Jouin*. فاستهلاك اللحوم لم يكن إلا بصورة استثنائية، اتخذت طابعًا موسميًا أو احتفاليًا، وهو ما عبر عنه المختار السوسي عندما قال: "في غالب الأسر لا ترى اللحم إلا في عيد الأضحى. أو إذا وزع أهل القرية بذبيحة يجتمعون عليها في مثل عاشوراء. أو إذا كانت حفلة من الحفلات التي تُقام سنويا على المشاهد المحترمة؛ ولم نكن نعلم في صغرنا من يدوم اللحم في دارهم إلا دار الرئيس الإيغشاني القديم؛ وتضاهيها دار الفقيه علي بن عبد الله؛ ثم تتلوهما دارنا أحيانا إن حضر والدنا وكثيرا ما يغيب؛ وإلا فنبقى شهرا أو أكثر لا نذوق مرقة" [٥٢]. ولم تخرج نتائج الدراسات الميدانية التي أنجزها كل من مونطاني وبيرك عن هذا الإطار[٥٣]. فـ"الإنسان هو ما يأكل" Der Mensch ist was er ist. هكذا عرف المثل الألماني الإنسان" [٥٤]. فتغذيته هي مؤشر على مكانته داخل الإطار الاجتماعي، والمستوى الحضاري بصفة عامة.

إن هذا السلوك الغذائي الهزيل من الناحية الاجتماعية، هو الذي يشرح التقشف الذي طبع أطعمة المتصوفة والصلحاء، ودعوة هؤلاء لمريديهم بعدم الاستجابة فورا للرغبة في الأكل والشرب، حتى يألفوا الجوع ويتخذوه طعاما للروح، فـ"الغلو في قوت البدن مذموم"[٥٥]. أو كما عبر عن ذلك ابن خلدون، عندما ربط بين ثقافة الجوع لهاته الفئة المجتمعية وبين طبيعة

عيشها، بالقول أنها تجسد "المتقشفين من أهل البادية والحاضرة ممَنْ يأخذ نفسه بالجوع والتجافي عن الملاذ أحسن دينا وإقبالا على العبادة من أهل الترف والخصب.."[٥٦]. والدلائل على هذا الطرح، موجودة في ثنايا المصادر المعاصرة، فعبد الله ابن حسين الرقي "كان قوته اثنى عشرة ثمرة كل يوم، وقدر ثلاث لُقم من الطعام، وجرعات من الحساء، ولا يفطر إلا يوم الجمعة"[٥٧]، أما أحمد بن محمد السائح الحاجي، فقد " كان عيشه من كسور الخبز التي تفضل على الفقراء، صواما للدهر على كبر سنه"[٥٨]. وكان أحمد بن إبراهيم التمكروتي "يصوم يومًا ويفطر يومًا... وكان قوته سبعة عشرة تمرة... وكان لا يفارقه حساء العدس"[٥٩]. أما الشيخ رحال الكوش فكان "يعيش على نبات البرية ويذخر زريعة الخردل لقوته"[٦٠].

على أن هذا الطبع الغذائي المتقشف، وحرمان الذات من لذة اللحم والأطعمة التي تزينها، ما هو إلا مرآة تعكس الحرص على الكفاف، وتكشف عن هاجس شبح الكوارث الديمغرافية الذي يطارد هؤلاء، فالجفاف والقحط نذير شؤم بحلول جوع ماحق. ما يدفعهم للاقتصاد في سنوات الوفرة ومحاولة نهج سلوك الادخار، فأحلام الأطباق المليئة باللحوم على تنوعها، وقدور السمن والعسل لتحليتها، والتي تعج بها كرامات أهل الصلاح والولاية، ما هي - في اعتقادنا - إلا عزاء عن الإملاق والخصاصة.

خامسًا: آثر التغذية على البناء البيولوجي للإنسان المغربي

ويمكن القول أن مأكولات عموم المغاربة كانت نباتية بدرجة أولى، وعلى الرغم من أنه نظام غذائي هش سوسيولوجيا، ولم يكن متنوعا بالقدر الكافي الذي يسمح بامتصاص الجسم لأنواع مختلفة من البروتينات والفيتامينات، إلا أنه لا يخلو من مزايا صحية، بفعل تناول أطعمة نيئة أو شبه مطهية، وقلة المواد الدهنية التي تسبب أضرارًا لبدن الإنسان، وهو ما تنبه له العلامة ابن خلدون، عندما أكد على أن سكان الحواضر "المخصبين العيش المنغمسين في طيباته " كانت عادتهم في تناول أغذية كثيرة، تُضر بصحة الإنسان، نظرا لأن "رطوباتها تولد في الجسم فضلات رديئة ينشأ عنها بعد أقطاره في غير نسبة، وكثرة الأخلاط الفاسدة العفنة، ويتبع ذلك انكشاف الألوان وقبح الأشكال من كثرة اللحم.."[٦١]. خلافًا لسكان البوادي الذين كانوا من "المتقشفين في عيشهم المقتصرين على الشعير أو الذرة، مثل المصامدة منهم وأهل السوس وغمارة. فتجد هؤلاء أحسن حالا في عقولهم وجسومهم."[٦٢]

من هنا تكمن أهمية نتائج الأبحاث التي أُنْجزت في البيولوجية التاريخية، وعلى سبيل المثال لا الحصر، الدراسة التي أنجزها كل من بريسك Bresc و ايرمارد Ayrmard، والتي توصلت إلى أن غذاء بلدان البحر الأبيض المتوسط في هذه الفترة كان نباتيا في المقام الأول، وظل الخبز الوجبة المألوفة داخل هذا المجال، ونظرًا لسوء التغذية لدى الشرائح الدنيا ببلدان البحر الأبيض المتوسطي، والنقص الذي تعرفه الحبوب من مادة الليسين [Lysine] - من الأحماض الأمينية التي تُعادل البروتين الحيواني - رغم أنها تعد المصدر الرئيسي للبروتينات والسعرات الحرارية والكربوهيدرات، فإن البقوليات ومنها الفول والحمص والعدس، كانت تحتوي على مادة الليسين وتعوض هذا الخصاص بنسبة لاتقل عن ٢٠ إلى ٢٢% من البروتينات الأخرى النباتية، فهذه البقوليات هي- حسب تعبير هذين الباحثين- "لحم الفقير"[٦٣]. وشكلت الفواكه الطازجة والمُجففة، والأعشاب مصدرًا مهما للطاقة، بتوفرها على الفيتامينات والسكريات والمعادن. أما الألبان ومشتقاتها، والبيض، فتمكن الجسم من بروتين يعمل على تخفيف نقص اختلال توازنه الغذائي[٦٤].

وقد أشارت فالنسي Valenci أن ظروف الجفاف والقحط، كانت تؤثر بشكل كبير على البناء البيولوجي للإنسان المغاربي "الذي كان يعيش أساسًا على حبوبه، ويقتات على المأكولات النيئة". فعلى الرغم من بساطة وعدم التنوع في أغذية ساكنة المجال المتوسطي قبل فترة الاستعمار. فإن ذلك يتم تداركه في أيام الأعياد، والمناسبات العائلية والدينية. فعلى سبيل المثال، كانت وجبة كسكس مع اللحم، والخضر والتوابل، توفر للجسم ما يُعادل ١٥٠٠ وحدة من السعرات الحرارية[٦٥]. وأنه بغض النظر عن خصاص التغذية من البروتين الحيواني، فإن القمح والشعير والذرة والصرغو، كانت تسمح للجسم بامتصاص معدلات مهمة من هيدرات الكربون[٦٦].

وقد استنتج أحد الدارسين أنه "بفضل هذه الأطعمة النباتية، استطاع سكان مغرب ما قبل الاستعمار الحفاظ على التكامل البيوكميائي لأبدانهم"[٦٧].

وتستمد هذه المعطيات البيولوجية، قيمتها في تفسير جوانب من المشهد الديمغرافي للمغرب في هذه الحقبة، بمعنى أن المصادر المعاصرة، وردت فيها شهادات تضم بين ثناياها شذرات تتوافق مع ما ذكرناه، حيث ذكر الوزان بأن سكان جبل

سكسيوة " كانت شيخوختهم قوية خالية بطبيعتها من العلل التي تحملها معها السنون، فهم يسيرون وراء بهائمهم إلى أن يدركهم الموت..."[٦٨]. وأضاف مارمول بأنهم "..يعيشون كالمتوحشين بصحة جيدة، بحيث انهم عندما يبلغون من العمر مائة وستًا وعشرين لا يظهرون مسنين...ومن العجب كيف يرتدون ملابس قليلة يتقون بها هذا البرد الشديد.."[٦٩]. وشكلت القوة والرشاقة خصائص بدنية اتصف بها أهل جبل بني منصور[٧٠] وبني ورياگل[٧١].

وأشار وندوس جون سنة ١٧٢١م، إلى أن عموم المغاربة كانوا "يتوفرون على بنية قوية، أعضاؤهم ضخمة وقاماتهم تفوق قليلا قامات الأوروبيين.. نشيطون يبذلون جهدًا كبيرًا في العمل. فالمبعوث الذي يذهب من تطوان إلى مكناس.. يقطع كل هذه المسافة بسرعة كبيرة...وهم يتمتعون بصبر مدهش خلال العمل. يتحملون فصل الصيف وبرد الشتاء ومطره بشكل يثير الإعجاب...وهؤلاء الرجال عموما نحيلو الأجسام، لا يتناولون إلا القليل من الطعام، ويتزودون خلال رحلة تدوم سبعة أو ثمانية أيام بزاد ضئيل جدًا"[٧٢]. ثم أشار الجراح الإنجليزي لامبريير في العقد التاسع من القرن ١٨م، إلى أن اتساع حجم ملابس المغاربة، يجعل من تحديد أوصافهم الجسمانية بشكل دقيق أمرًا صعبا، مضيفًا بأنه رغم ذلك يمكن " القول بصفة عامة أن أجسادهم نحيفة، وطوال القامة"[٧٣]. ولاحظ أن البربر "يعيشون داخل الكهوف بالجبال، وهم مفعمون بالحيوية."[٧٤] ثم أكد القنصل الفرنسي شنيي Chénier في نفس الفترة، أنه من الطبيعي أن تجد بأن" المغاربة؛ سواء تحت تأثير طبيعة التربة أم جودة الأغذية، هم نحاف الأبدان"[٧٥]. وأبرز التقرير الطبي الذي أنجزه كيرن Kern قبل فترة الحماية، أنه بغض النظر عن رداءة الظروف المعيشية والصحية لمجموع سكان البلاد، فإنهم يتصفون بالنشاط والحيوية والتحمل "ولاحظت في كل مكان...أنهم عراة يحملون حمولات ثقيلة ويمشون بخطى سريعة"[٧٦].

خاتِمَةٌ

وفي مطلق الأحوال، يمكنا أن نلخص أهم النتائج التي توصلنا إليها من خلال هذا العمل، وهي كالتالي:

أن تغذية الإنسان المغربي خلال العصر الحديث، كانت تتحكم فيها العديد من الشروط والاعتبارات، منها ما يرتبط بالإطار الطبيعي والمناخي، ومنها ما يتعلق بالمكانة الاجتماعية للأفراد، وبعضها الأخر خاضع للطبائع والعادات والأذواق، وكلها أنساق ثقافية تُعبر عن وعاء تاريخي حضاري موغل في القِدم.

أن الأوصاف الفيزيولوجية التي جاءت في كتابات الأجانب، دليل على أن الأطعمة النباتية شكلت عماد تغذية المغاربة، فهي التي أعانتهم على محاولة التكيف إلى حد كبير مع شروط المحيط الإيكولوجي، ومجابهة قساوته عبر نمط بيولوجي مُعين - بسطنا فيه القول - بصورة أثارت اندهاش الرحالة، والمستكشفين والأطباء الأوروبيين. على أنه يبقى نظامًا غذائيًا رتيبًا، بفعل الإكراهات الطبيعية والمناخية التي تفرض القلة في المردود والإنتاج، ونظرًا لضعف المستوى السوسيو اقتصادي، فقد شكل كابحًا حال دون تنوع العوائد الغذائية بالقدر الذي يضمن تزويد الجسم بمواد عضوية وبروتينية كافية ومتوازنة. ومما لا ريب فيه أن الإنسان المغربي، كان يهدف أولا وقبل كل شيء إلى سد رمقه وحاجته، ليمارس بكل صعوبة كفاح البقاء على قيد الحياة.

توصيات

تبقى هناك جوانب مهمة تحتاج إلى مزيد من البحث والدراسة فيما يخص تاريخ التغذية، كدراسة أسعار الأقوات في الأزمنة العادية والأزمنة العسيرة، ورصد الموقف الفقهي من بعض العادات الغذائية من خلال كتب النوازل، فضلاً عن تدبير الأقوات من طرف السلطة الحاكمة، وزعماء الزوايا والمتصوفة زمن الجوائح -في إطار أعمال الغوث والتكافل التي يقدمونها للفئات المنكوبة-وأبعاده السياسية.

الاحالات المرجعية:

(١) الوزان الفاسي الحسن بن محمد، " **وصف إفريقيا** "، ترجمه عن الفرنسية، محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ج ١، الطبعة ٢، ١٩٨٣، ص ١٤٠.

(٢) السوسي محمد المختار، " **المعسول** "، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٦١، ج ١، ص ٤٤.

(3) Rosenberger (B) , « Cultures complémentaires et nourritures de substitution au Maroc.XV°-XVIII° siècles », in A.E.S.C , N° 3-4, 1980, p: 483.

(٤) كما حدث في جفاف عام ١١٥٠ هـ / ٣٧- ١٧٣٨ م. الرباطي الضعيف محمد بن عبد السلام، " **تاريخ الضعيف: تاريخ الدولة العلوية السعيدة** "، تحقيق وتعليق وتقديم أحمد العماري، نشر دار المأثورات، ط ١، ١٩٨٦،ص ١٢٥.

(٥) العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله، "**مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: السفر الرابع «ممالك اليمن والغرب الإسلامي وقبائل العرب»**"، تحقيق د. حمزة أحمد عباس، أبو ظبي- الإمارات العربية المتحدة؛ المجمع الثقافي، ط ١، ٢٠٠٢، ص ١٩٤.

(٦) الوزان، "**م.س**"، ج ١، ص ٣٢٦ و ص ٣٣٣. نضيف أنه في حالة سقوط المطر أو كان ضباب أو ندى، فإن العنب لا يجف كما ينبغي، حيث يقوم ساكنة بعض جبال الأطلس، بجعله خمرا مطبوخة لشرابهم. أنظر: كاربخال، "**م.س**"، ج ١، ص ٣٠. مجهول البرتغالي، "**م.س**"، ص ٣٨.

(٧) الوزان، " **م.س**"، ج ١، صص: ١٦٩ - ١٧٠؛ ٣٣٣، ٣٧٠. مجهول برتغالي، " **وصف المغرب أيام مولاي أحمد المنصور**"، ترجمه هنري دوكاستري، نقله عن الفرنسية: محمد مزين وعبد الرحيم بنحادة، المطبعة: دار تينمل للطباعة والنشر- مراكش، ط ١، ١٩٩٥، صص: ٣٨، ٥٧-٥٨؛ ٧٠، ٦١، ٦٩، ٧٥، ٨٣. دي طوريس دييگو، " **تاريخ الشرفاء** "، تعريب محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، ١٩٨٨، ص ١٦٤.

De Castries Henry: « Une Description du Maroc sous le régne de Molay Ahmed el Manssour », 1919. p: 89.

التاسافتي عبد الله ابن إبراهيم، " **رحلة الوافد: لحظات من تاريخ أدرار ن– درن (أطلس مراكش) وسوس في القرن ١٢ الهجري / ١٨ الميلادي** "، تحقيق أزايكو علي صدقي، منشورات ك.أ.ع.إ بالقنيطرة، سلسلة: نصوص ووثائق رقم ١، ١٩٩٣، ص ١٧٤.

(٨) مزين محمد، " **فاس وباديتها** " **مساهمة في تاريخ المغرب السعدي ١٥٤٩-١٦٣٧**"، منشورات ك.آ.ع.إ بالرباط، جزءان، ط ١، ١٩٨٦، ج ٢، ص ٣٩٨.

(٩) الوزان، " **م.س** "، ج ١، ص ١١٢.

(١٠) الفاسي محمد العربي، " **مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن** "، دراسة وتحقيق الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني، منشورات رابطة أبي المحاسن ابن الجد، ط ١، الدار البيضاء، ٢٠٠٣، ص ٢١٢.

(11) Lemprière William (G), « Voyage dans l'Empire de Maroc et le Royaume de Fez, fait pendant les années 1790 et 1791», trad de l'Anglais par M.De Sainte Suzanne, Paris, 1801 , p: 53.

(١٢) دييكو دي طوريس، م.س، ص ١٦٧.

(١٣) الوزان، "**م.س**"، ج ١، صص ٢٣٥ – ٢٣٦. يشير الأستاذ التوفيق أحمد أن الإينولتانيين كانوا يتناولون اللفت والجزر بكثرة، نظرا لكونهما غلة فصل الشتاء، حيث يكون الفلاح قد فرغ يداه من الزرع، وهو ما تبينه عقود بيع الأملاك في الأطلس خلال القرن ١٩ م، حيث تضم رسوم بيع أراض مقابل كميات من الجزر بصفة خاصة. راجع دراسته: " **المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (اينولتان ١٨٥٠ - ١٩١٢)**"، منشورات ك.أ.ع.إ بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط ٣، ٢٠١١ م، ص ٣٢٠.

(١٤) حول أغذية المغاربة في مغرب ما قبل الحماية، راجع: رويان بوجمعة،" **الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب ١٩١٢ - ١٩٤٥** "، منشورات دار الأمان-الرباط، مطابع الرباط نت، ٢٠١٣.صص ٢٧ - ٣٣.

(١٥) دييكو دي طوريس، " **تاريخ الشرفاء** "، م.س، ص ١٥٩.

(١٦) الإفراني الصغير محمد بن الحاج، " **صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر** "، تقديم وتحقيق عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي-الدار البيضاء، ط ١، ٢٠٠٤، ص ١٤٩.

(١٧) وندوس جون، " **رحلة إلى مكناس** "، ترجمة عن الإنجليزية زهراء إخوان، منشورات عمادة جامعة المولى إسماعيل، ١٩٩٣. صص ٥٠ – ٥١.

(١٨) درس علم اللاهوت، وكان دبلوماسيًا ورحالة، غادر كوبنهاغن بصحبة السفير المغربي تهامي مدون، وأقام في الرباط، وعين بعد تصفية الشركة الدنماركية ـ الأفريقية قنصلاً للدنمارك في مدينة الصويرة، ما بين عام ١٧٦٠ و عام ١٧٦٨ م، وتنقل خلالها في بعض المدن والبوادي المغربية، وأتقن اللغة العربية، وقد حل بقصور السلطان في مراكش وفاس، وأصبح صديقا للسلطان محمد بن عبد الله.

(19) Høst Georg, « Relations sur les Royaumes de Marrakech et Fès: recueillies dans ces pays de 1760 à 1768 », traduction: Frédéric Damgaard et Pierre Gailhanou », Préface: Jean- Luis Miège, Editions LA PORTE, Rabat, 2002, pp: 63 -64.

(٢٠) دو فوكو شارل، "**التعرف على المغرب ١٨٨٣- ١٨٨٤**"، ترجمة المختار بلعربي، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الثقافة، ط ١، ١٩٩٩، ج ١، ص ١٥٠.

(٢١) السوسي محمد المختار، م.س، ج ١، ص ٤٥.

(٢٢) تحدثت أغلب المصادر الأجنبية عن العادات الغذائية للمغاربة، من منظور التمييز بين أكل الفقراء، وأكل علية القوم الذين يشتركون مائدته، بحكم مهمتهم كسفراء وقناصل وأطباء وغيرهم، وقد ركزوا على وجبة الكسكس، وبعض المواد الغذائية المكملة، حيث تحدث شنيي

Chénier عن أن النساء كن مكلفات بطحن الحبوب بواسطة رحى مكونة من حجريين دائريين، ويقمن بطهيه بطريقة سيئة، ثم يذكر بأن " الكسكس " يعتبر الطعام المفضل لدى المغاربة، حيث يتم تحضير دقيق القحم أو الشعير على شكل حبيبات صغيرة، ليتم طهيها بواسطة البخار، تطبخ معه الخضر واللحم أحيانا، كما يستهلك المغاربة الكسكس مع الحليب والسمن.

- Chénier Louis **« Recherches sur les Maures et histoire de l'Empire de Maroc »**, T.III, Paris, 1787, p: 104 - 105.

- كما تطرق الأسير مويط جرمان لمهارة النساء في تهييئ الكسكس، وأنه كان يحتوي على كمية من اللحم الجيد، كالدجاج، والبقر والغنم، الذي يتم طهيه، ليصب في طبق، ثم يدهن بالسمن قدر الكفاية، ويصب عليه مرق الخضر.

للمزيد حول طريقة تحضير الكسكس، راجع: مويط جرمان، **"رحلة الأسير مويط"**، ترجمه إلى العربية د.محمد حجي ود.محمد الأخضر، منشورات دار المناهل للطباعة والنشر، وزارة الثقافة، مركز الدراسات والبحوث العلوية، الريصاني، ١٩٩٠، ص ٦٣.

- يتحدث بريثويت جون Braithwaite - أحد أعضاء البعثة الإنجليزية التي زارت تطوان سنة ١٧٢٧ م - عن أنواع الطعام الذي قدمه لهم الحاج لوقاش - أمين المصالح الجمركية بتطوان - في إحدى ضيعاته، في نواحي تطوان، قائلا: " تناولنا الغذاء تحت شجرة ضخمة، أما الوجبة فقد اشتملت على مقدار كبير من اللحم، والسمك، والدجاج...بالإضافة إلى كسكس ممتاز ". راجع: **" تاريخ الثورات في إمبراطورية المغرب بعد وفاة السلطان الراحل مولاي إسماعيل "**، ترجمة ودراسة مادني مينة، أطروحة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، ك.أ.ع.إ بالرباط، السنة الجامعية ١٩٩٩ - ٢٠٠٠ م، ص ١١٣.

(23) Høst Georg, **« Relations sur les Royaumes.. »**, op.cit, pp: 64 – 65.

(٢٤) الوزان، **"م.س"**، ج ١، ص ٣٥٩. نشير إلى أن تجفيف الفواكه واللحوم وغيرها ظاهرة معروفة في هذه الفترة، وقد وردت إشارات كثيرة بخصوص هذا الجانب: الوزان، م.س، ج ١، صص ١٦٩ – ١٧٠؛ ص ٣٣١ و ٣٧٠. دييكو دي طوريس، م.س، ص ١٦٧. كاربخال مارمول، **" إفريقيا "**، تعريب محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، أحمد بنجلون، جزءان، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٨٤،ج ١، ص ٣٠.

(٢٥) التوفيق أحمد، **" المجتمع المغربي.."**، م.س، ص ٣٣٢.

Massignon Louis, **« Le Maroc dans les premières années du XVI° siècle Tableau Géographie d'après Léon L'African »**, Ed, Typographie Adolphe Jourdan Alger, 19٠٠, p: 118.

(٢٦) السوسي المختار، **" المعسول "**، م.س، ج ١، ص ٤٥ و ص ٤٧.

(٢٧) الوزان، **م.س**، ج ١، ص ٣٢٦ و ص ٣٣٣.

- Massignon louis, op.cit, p: 118 -121.

(28) Braudel Fernand , **« Alimentation et catégories de l'histoire »**,In: A.E.S.C. 16 (e)année, N.4, 1961, pp: 723 – 728, p: 723.

(٢٩) أورد قدوري الطاهر إشارات متنوعة عن الثروة السمكية كعنصر رئيسي في تغذية المغاربة في العصر الوسيط، كما تحدث عن الموقف الفقهي من تناول الأسماك، وطرق المحافظة على جودتها، إضافة إلى طرق تحضير طبق طجين السمك، والقلي والشي، وذكر استعمالات أخرى كالتداوي والزينة، وبعض المعتقدات كالتقديس والتبرك بالحوت، واعتقادات أخرى لها علاقة بالذهنيات. راجع مقاله: **"السمك والتغذية في المغرب الوسيط"**، دورية كان التاريخية، ع ١٠، ٢٠١٠، صص ٥٩- ٦٥.

- ذكر الأستاذ البزاز محمد الأمين أن الثروة السمكية التي تزخر بها السواحل المغربية، تعتبر من بين الاعتبارات الموضوعية التي شجعت البرتغاليين والإسبانيين على محاولة الاستيلاء على مجموعة من الثغور المغربية، وأججت التنافس بينهما، وبالرغم من ذلك فإن البرتغاليين هم أول من سيهتم باكتشاف أسراب السمك الموجودة في المجالات البحرية المغربية خصوصاً الجنوبية، فمنذ أواخر القرن الخامس عشر عمد البرتغاليون إلى إنشاء عدة مستعمرات على الساحل المغربي، وكان الدافع الأساسي لإقامة الكثير منها هو استغلال الموارد البحرية المغربية. راجع: **"التنافس الإسباني البرتغالي للصيد في المياه المغربية بين القرن الخامس عشر والقرن التاسع عشر"**، ضمن مجلة التاريخ العربي، ع ٤٩، ٢٠٠٩، صص ٣١ - ٥٠، صص: ٣١ - ٣٨.

- ذكر André Simoneau، أن غنى السواحل المغربية بموارد الصيد كان معروفا لدى المغاربة منذ عصور موغلة في القدم، ولا أدل على ذلك، هو أنواع الأسماك التي تبرزها الرسوم الصخرية ولوحات الفسيفساء الباقية إلى حد الآن. راجع:

Le poisson, symbole du finistère atlasique A. Simoneau, «- .», **in Hesp, Vol.VI, 1965, p. 53-79**

- تحدث الأستاذ التازي سعود عن أن الصيد المائي البحري والنهري شكل دعامة لاقتصاد المغرب القديم، وأن الطون والاسقمري كانت مأكولات محبذة لدى المغاربة، كما ذكر بأن الشابل عرف قديما بلحمه المستطاب، بل جازف بالقول أنه كان يجفف ويملح ويحمل على البغال في أكياس إلى أسواق الداخل. راجع: التازي سعود محمد، **" محاولة في الإقتصاد المغربي في عهد الملك يوبا الثاني وابنه بطليموس ٢٥ ق.م – ٤٠ ق.م "**، مجلة المناهل، إصدار و.ش.ث. الرباط- المغرب، ع ٢٦. ١٩٨٣، صص: ١٢- ١٣ - ١٤.

(٣٠) الفشتالي عبد العزيز أبو فارس، **" مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا "**، دراسة وتحقيق د.عبد الكريم كريم، مطبوعات و.أ.ش.إ.ث. الرباط، ١٩٩٣، ص ٢٥٤.

(٣١) مجهول البرتغالي، **" م.س"**، صص ٥٧ - ٥٨.

(٣٢) الكنتوري عائشة و للاصفية العمراني، **" زراعة وصناعة السكر بالمغرب من خلال نصوص تاريخية: ق. X م - XVI(e) م**، ضمن مجلة أمل، ع ٤٣، م.س، صص ٧٤ – ٧٥.

(٣٣) أورد الأستاذ لقبايبي توفيق أن قصب السكر كان يعصر في معاصر حجرية كمعاصر الزيتون، ويختزن سائله أو يطبخ فيستخرج منه العسل الذي يستعمل لتحلية الوجبات الغذائية. راجع: لقبايبي محمد توفيق، " **الأهمية الإقتصادية لمادة السكر خلال العهد السعدي**"، مجلة أمل، مطابع الرباط نت، ع ٤٤، ٢٠١٥، ص ٥٢.

- أما الباحث استيتو محمد فيذكر أن السكر لم يشكل مادة غذائية مهمة لدى المغاربة خلال العصر السعدي، خلافا للأوروبيين الذين يستهلكونه بكثرة، ويعتبرونه مادة كمالية رفيعة، لا يقدر عليها إلا المترفون. راجع دراسته: **صناعة السكر خلال العصر السعدي: محطة ضائعة في التاريخ الإقتصادي والإجتماعي المغربي**"، مجلة ك.أ.ع.إ بالقنيطرة - جامعة ابن طفيل، ع ٨، ٢٠٠٨، ص ٦٤ و ٦٩.

(٣٤) أورده: الأخضر محمد، " **الحياة الأدبية** "، م.س، ص ٣١٠.

(٣٥) الأخضر محمد، " **الحياة الأدبية** "، م.س، ص ٣٢٩.

(٣٦) السوسي المختار، " **المعسول** "، **م.س**، ج ٣، صص ٣٠٠ – ٣٠١.

(٣٧) تطرقت بعض الدراسات الحديثة لتجارة المحظور، وعلى رأسها استغلال العظام البشرية في تصفية السكر، وبعض المواقف التي أثارتها، ونورد هنا بعض النماذج:

- أشار الباحث بوزويتة سمير إلى انحراف بعض التجار المغاربة من التجارة في عظام الحيوانات، إلى الإتجار في عظام الأموات، عن طريق نبش القبور، وتهريبها إلى الأوروبيين، وخاصة عبر المدن والموانئ الأطلسية، حيث تستخدم في بعض الصناعات، ومن أهمها تكرير السكر، وذلك خلال القرن ١٩ م، ومطلع القرن ٢٠ م، ناعتا إياها بمرحلة " كنطربند العظام البشرية ". " **قضايا شائكة في تاريخ المغرب: تجارة العظام البشرية خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين** "، منشورات ك.أ.ع.إ سايس – فاس، مطبعة سايس-فاس، ط ١، ٢٠١٣ – ٢٠١٤، صص ١٢ – ١٦.

- يذهب أمري مرسال في نفس الإتجاه، ويوضح أنه بعد الإستيلاء على الجزائر سنة ١٨٣٠ م، نبش قبور المسلمين لاستخراج عظام الموتى، حيث كان المالطيون يعرضون خدماتهم على رجال الصناعة في مارسيليا، والذين كانوا يحتاجون إلى فحم العظام لتبييض السكر، وكانت ترسل عبر السفن إلى مصانع مارسيليا. وقد خلفت هذه التجارة ردود أفعال، كشهادة الطبيب الفرنسي سيغو Segaud بمارسيليا في مارس ١٨٣٣م، تؤكد صحة هذه المسألة، كما أن وزير الحربية الذي أمر الوكيل المدني جونتيل دوبوسي Gentil de Bussy باتخاذ إجراءات فعالة لوقف هذه التجارة، إذا ثبت صحة ذلك.

راجع: أمري، " **استغلال عظام المسلمين في تصفية السكر** "، تعريب عبد الجليل التميمي، المجلة التاريخية المغربية (للعهد الحديث والمعاصر)، ع ١، ١٩٧٤، تونس، صص ٩ – ١١.

(38) Chénier ,« **Recherches…** », op.cit, pp: 208 – 209.

(٣٩) أشارت فالنسي لوسيت إلى أن استهلاك الشاي ببلدان المغرب العربي، كان مقتصرا على الفئة الحاكمة في القرن ١٨ م. وكان يُقدم كهدية للحاكم وحاشيته. فعلى سبيل المثال لا الحصر، حمل قنصل إنجليزي سنة ١٧٦٦ م الشاي والسكر إلى حضرة الباي بتونس. وكان غزو هذه المنتجات - المترفة - للأسواق بطيئا، ولم يدخل إلى بيوت الشرائح الدنيا في المجتمع إلى في نهاية القرن ١٩م

- Valenci Lucette, « **Consommation et usages alimentaires en Tunisie aux XVIII (e) et XIX (e) siècles** », In: A.E.S.C, 30(e) année, N. 2 – 3, 1975, pp: 600 – 609, p: 603.

(٤٠) أورد مييج جون لوي Miège كميات وأسعار السكر والشاي المستوردة بالمغرب، في الأوقات العادية وفترات الأزمات الديمغرافية، وخاصة منذ عام ١٨٧٠ م. للمزيد حول الموضوع راجع:

- Miège Jean-Louis, « **Le Maroc et l'Europe (1830 – 1894)** », T.III, Editions La Porte, Rabat, 1989, pp: 246 – 253 ; pp: 413 – 418.

(٤١) يشير جوين Jouin إلى أن الشاي دخل إلى المغرب في القرن ١٧ م، فانحصر استهلاكه بين علية القوم، فشكل عادة أرستقراطية، طوال قرنين من الزمن، إلى أن انتشر استهلاكه بين سائر المجتمع في القرن ١٩ م، فأصبح يرتبط بالفئات البسيطة في المجتمع.

Voir: Jouin Jeanne, « **Valeur symbolique des aliments et les rites alimentaires à Rabat**», Hesp.T. XLIV, 3e – 4 e Trimestre, 1957, pp: 299 – 327, p: 300.

(٤٢) اليوسي الحسن (المتوفى عام ١١٠٢ هـ)، " **المحاضرات في الأدب واللغة** "، تحقيق وشرح محمد حجي وأحمد الشرقاوي إقبال، دار الغرب الإسلامي- بيروت، ط ٢، ٢٠٠٦، صص ٢٠٢ – ٢٠٣.

(٤٣) Aron J.Lautman, « Jacques, P, Essai sur la sensibilité alimentaire à Paris au XIXe siècle», note bibliographique, Revue française de sociologie, Année 1969, Vol 10, N° 3 , p: 392.

(44) Houbaida Mohamed , « **Le Maroc Végétarien: 15 (ème) - 18 (ème) Siècles. Histoire et biologie** », Editions Wallada, Casablanca, 2008, p: 90.

(٤٥) الحضيكي، محمد بن أحمد، (ت.١١٨٩ هـ/ ١٧٧٥ م)، " **طبقات الحضيكي** "، تقديم وتحقيق أحمد بومزكو، جزءان، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط ١، ٢٠٠٦، ج ١، ص ١٦٨.

(٤٦) يذكر الأستاذ حبيدة محمد أن هذا النص، يدل على تمايز اجتماعي واضح في النظام الغذائي، لكن مُقابلة نصوص أخرى لليوسي وتلامذته تبين أن القصد منه ليس وضع تصنيف في هذه الأطعمة، وإنما يرمي الإشارة إلى العادة والطبائع التي تتحكم في نوع التغذية. " **بؤس التاريخ: مراجعات ومقاربات** "، منشورات دار الأمان، ط ١، ٢٠١٥، ص ١٢٨.

(٤٧) القادري محمد بن الطيب، " **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني** "، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٧٧، ج ١، ص ١٦٨. أما الإفراني فاكتفى بالقول: " وكان (أبو بكر الدلائي) يطعم الطعام، الذي لا يعهد في بلاده،

وينزل الناس منازلهم، ويعطي لكل قوم ما يناسبهم كما كان شيخه يفعل، فإذا لامه أحد في التفرقة بين الناس. قال له: « من جعل الناس سواء فليس لحمقه دواء ». الإفراني، **" صفوة من انتشر.."**، م.س، ص ١٠٦.

(٤٨) اليوسي الحسن، **" المحاضرات.."**، م.س، ج ١، ص ٢٠١.

(٤٩) يقول ابن خلدون في هذا الصدد: " وأصل هذا كله أن تعلم أن الأغذية وإيلافها أو تركها إنما هو بالعادة، فمن عود نفسه غذاء ولاءمه تناوله، كان له مألوفا وصار الخروج عنه والتبدل به داء ما لم يخرج عن غرض الغذاء بالجملة كالسموم واليتوع وما أفرط في الانحراف.فأما ما وجد فيه التغذي والملاءمة، فيصير غذاء مألوفاً بالعادة. فإذا أخذ الإنسان نفسه باستعمال اللبن والبقل عوضاً عن الحنطة والحبوب حتى صار له ديدناً، فقد حصل له ذلك غذاء واستغنى به عن الحنطة والحبوب من غير شك ". المقدمة، **ج١، " م.س"**، ص ١٤٣.

(٥٠) الوزان الحسن، **" م.س "**، ج ١، صص ٢٥٢ - ٢٥٣. ولا تنقصنا الإشارات بخصوص مسألة غنى أطعمة صفوة القوم، وكثرة اللحوم والمواد التي تزين أطباقها وتعمل على تحليتها، حيث تحدث صاحب الإتحاف عن تموين " الدار العالية بالله بمكناس " أو دار المخزن، قائلا: " فمن لحم الضأن مياومة أربعة قناطير، وست وسبعون رطلا، ومن الخضر المختلفة ستون قفة.ومن السمن المذاب سبعة قناطير وسبع وسبعون رطلا... ومن القرفة خمسة أرطال.ومن أثمان الزعفران مائة وسبعة عشر ثمنا ومن الزيت خمسمائة وثمانية عشر رطلا...ومن الشحم ثمانية عشر قنطارا وخمس وأربعون رطلا. ومن الزيت لتقلية الخليع مائتا قلة واثنان وثمانون قلة، كل قلة كيلها عشرون ليتر". راجع: ابن زيدان، **"إتحاف أعلام الناس.."**، م.س، ج ٢، صص ٦٢٣ - ٦٢٥.

(٥١) Jouin , « **Valeur symbolique..**», op.cit, p: 304.

(٥٢) السوسي المختار، **" المعسول "**، م.س، ج ١، ص ٤٤.

(٥٣) ذكر روبير مونطاني **Montagne** بأن تغذية سكان الأودية الجبلية العليا للأطلس الكبير، كانت تتألف من عصائد الشعير أو الذرة. ونادرًا ما يتناولون لحم الماعز.

- Montagne Robert, « **L'Aghbar et les hautes vallées du grand Atlas**», Hesp-Tam, T.VII, 1927, 1(er) trimestre, pp: 1 - 32, p: 8.

وأشار جاك بيرك Berque إلى أن العصائد والعجائن، المكون من طحين الحبوب، هي أساس تغذية قبائل سكساوة وغيرها من قبائل جبال الأطلس الكبير. أما اللحوم فكان استهلاكها فكان موسميا.

- Berque Jacques, « **Structures Sociales du haut-Atlas** », sociologie d'aujourd'hui collection dirigée par Georges Balandier », 2(e) édition, presses universitaires de France, Paris, p: 101.

(٥٤) بن الطاهر جمال، **" خبز الأغنياء وخبز الفقراء بالبلاد التونسية خلال العصر الحديث "**، ضمن كتاب المغيبون في تاريخ تونس الاجتماعي: إعداد مجموعة من الباحثين، تنسيق د. الهادي التيمومي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون بيت الحكمة، ص ١٨٣

(٥٥) الحضيكي، **" طبقات الحضيكي "**، م.س، ص٤.

(٥٦) ابن خلدون، **" م.س "**، ص ١٤٢.

(٥٧) الإفراني، **"صفوة من انتشر.."**، م.س، ص ١٤٠.

(٥٨) نفسه، ص ٢٣٨.

(٥٩) الحضيكي، **"طبقات الحضيكي "**، م.س، ص ٦٤.

(٦٠) ابن عسكر محمد الشفشاوني، **"دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر"**، تحقيق محمد حجي، منشورات دار الغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ط ٢، ص ١٩٧٧، ص١٠١.

(٦١) ابن خلدون، **" المقدمة "، م.س**، ص ١٤١.

(٦٢) نفسه، ص ١٤١.

(63) Aymard Maurice et Bresc Henri, «**Nourritures et consommation en Sicile entre XIV (e) et XVIII (e) siècle**», In: Mélanges de l'Ecole française de Rome. Moyen-Age, Temps modernes, tome 87, n°2. 1975, pp. 535 – 581, p: 538.

(64) **Ibid**, p: 577.

(65) Valenci Lucette, «**Consommation et usages alimentaires en Tunisie aux XVIII (e) et XIX (e) siècles**», In: A.E.S.C, 30(e) année, N. 2 – 3, 1975, pp: 600 – 609, p: 600.

(66) **Ibid,** p: 601.

(67) Houbaida Mohamed, «**Le Maroc Végétarien..** », op.cit, p: 86.

(٦٨) الوزان، **" م.س "**،ج ١، ص ١٤١.

(٦٩) كاربخال، **" م.س "**، ج ٢، ص ٦٦.

(٧٠) نفسه، ج ٢، ص ٢٤٦.

(٧١) نفسه، ص ٢٥٥.

(٧٢) وندوس، **" رحلة إلى مكناس "، م.س"**، ص ٤٢.

(73) Lemprière, «**Voyage dans l'empire de Maroc...** »,op.cit, p: 245.

(74) **Ibid**, p: 141.

(75) Chénier, «**Recherches historiques...** », op.cit, p: 191.

(٧٦) كيرن إميل، **" رحلة مراقب صحي إلى المغرب ١٩١١ م "**، ترجمة وتقديم بوشعيب الساوري، منشورات القلم المغربي، ٢٠١١، ص ٤٣.

ترجمات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

الكتب العربية والكنز المغربي
العقيد بيرسيفال كيرك ومولاي إسماعيل (١٦٨٢ – ١٦٨٣)



العياشي الحبوش

أستاذ الأدب الإنجليزي والدراسات الثقافية والإعلامية

كلية الآداب والعلوم الانسانية

جامعة سيدي محمد بن عبد الله – المملكة المغربية

الدِّرَاسَةُ

يقوم الدكتور نبيل مطر بالترجمة الثقافية ما بعد الكولونيالية للأصوات العربية الإسلامية من خلال الاستعمال الخطابي للأرشيفات الغربية والعربية واستدراجها من أجل كتابة تاريخية جديدة تتأسس على عودة الهامش وهو يحاول استعادة فاعليته في التمثيل الذاتي والسرد المقاوم للهيمنة. والدراسة التالية من ترجمة العياشي الحبوش، تحت عنوان "الكتب العربية والكنز المغربي: العقيد بيرسيفال كيرك ومولاي إسماعيل، ١٦٨٢-١٦٨٣" وبيانات النشر الأصلي لها:

Nabil Matar, Arabic Books and a Moroccan Treasure: Colonel Percival Kirke and Mulay Ismail, 1682-1683 April 2011 The Seventeenth century 26 (1):119-128.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام الترجمة:	١٥	نوفمبر	٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر:	٢٩	ديسمبر	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

مكتبة مولاي زيدان؛ الإسكوريال؛ مولاي إسماعيل؛ الكتب العربية؛ المخطوطات

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/KAN.2021.222717

الاستشهاد المرجعي بالترجمة:

نبيل مطر، "الكتب العربية والكنز المغربي: العقيد بيرسيفال كيرك ومولاي إسماعيل (١٦٨٢ – ١٦٨٣)"، ترجمة: العياشي الحبوش.- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الحادي والخمسون؛ مارس ٢٠٢١. ص ١٧٣ – ١٨٠.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: el_habbouch@hotmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

في أوائل العصر الحديث، كان هناك عدد كبير من القراء في شمال إفريقيا بين الرجال (وأحيانًا النساء) الذين تدربوا في المدارس الابتدائية القرآنية ثم في المساجد والمدارس والمساكن الصوفية. تحت سلطة الفقهاء القانونيين، تلقوا شهادة إجازة/ شهادة إنجاز في نهاية دورة التدريس. في المغرب، كانت النخبة الحاكمة متعلمة ومثقفة: لقد أتقن مولاي أحمد المنصور (حكم ١٥٧٨–١٦٠٣) أقليدس[١]، وقد اشتهرت مكتبته (على وجه المبالغة) بامتلاكها ٣٢ ألف مخطوطة[٢]. على فترات منتظمة، تلقى شحنات من الكتب من إسطنبول، وعندما ذهب سفيره التمجروتي إلى هناك في عام ٩٠/١٥٨٩، اشترى مجموعة كبيرة من الكتب لسيده.[٣] كما أمر المنصور مبعوثيه إلى مكة لشراء أو نسخ كتب له: "يجب أن يتم شكرك على إحضارها إلى شخصنا الحسني، لمعرفة مدى حرصنا على اختيار كتب تعليمية وإضافتها" إلى مجموعتنا[٤].

في الوقت نفسه، حاول المنصور بإصرار استرجاع الكتب العربية التي كانت مملوكة للموريسكيين المشتتين في إسبانيا وكتب إلى الملك فيليب الثاني: "من قراءة مغربية أن السكان الأصليين الأندلسيين كان لهم طقوس وشعائر في كتب منبثقة من قانونكم"[٥]. أخبره المنفيون والهاربون من إسبانيا كيف بعد ثورة ١٥٦٩-١٥٥١ للموريسكوس، نهب الإسبان القرى والمكتبات والمدارس. لسوء الحظ، فإن المخطوطات التي صادروها لم تؤخذ لدراستها أو حفظها: في ٥ مايو ١٥٧٣، سأل ابن زنبل إسبانيا عن قرطبة، وقيل له إن المسجد الكبير قد تحول إلى كنيسة وجميع الكتب التي كانت ملكا للمسلمين في جميع أنحاء الأراضي الإسلامية السابقة قد تم جمعها داخل مبنى بالقرب من الكنيسة، ووضعوها تحت القفل والمفتاح. إذا وضعت أذنك على ثقب المفتاح، يمكنك سماع الصراصير تمضغها[٦].

في سنة ١٦١٢، اضطر خليفة المنصور وابنه مولاي زيدان إلى الفرار من مراكش أثناء النزاع مع شقيقه. واعتزازًا بمجموعة والده، قام بتعبئة ألفي مخطوطة في ثلاثة وثلاثين حزمة وشحنها وأرسلها على متن سفينة من سوس إلى أسفي الآمنة الضامنة. لسوء الحظ، أبحر القبطان الفرنسي للسفينة مع الشحنة واستولى عليها قرصان إسباني أرسل المخطوطات في وقت لاحق إلى فيليب الثالث. كان زيدان يائسا من استعادة المخطوطات، وعندما وصل وفد فرنسي إلى المغرب في سنة ١٦٢٤، أخذ أعضاء البعثة كرهائن: "الجزء السفلي لهذه العملية"، كتب زائر فرنسي بعد أكثر من نصف قرن، "أن الملك كان يرغب في استعادة أغراضه المنزلية، ولكن في المقام الأول مكتبته ... لأنه يوجد فيها العديد من مخطوطات القديس أوغسطين، الذي كانوا يدعونه سيدي بلعباس... هذه المخطوطات التي كان يقدر قيمتها الملك قبل كل شيء من أغراضه المنزلية"[٧].

كان السبب وراء اعتزاز زيدان بتلك الكتب كثيرًا هو أنها شملت مجموعات من شروحات الحديث الواردة والقواعد النحوية وأطروحات حول الطب وعلاج الأمراض وترجمات وتعليقات حول أبقراط وأفلاطون وأرسطو وبطليموس وجالينوس وشرائع ابن رشد وابن ميمون وترجمات إسحاق بن حنين وأشعار حافظ وأبو تمام ومختارات من الأدبين الفارسي والتركي. بعض الكتب كانت مكتوبة باللغة الأندلسية، في حين أن بعضها الآخر جيء به من مناطق أقرب ما تكون من مايوركا وتبعد حتى مصر. كانت هناك أيضًا نسخة من "القرآن من سورة البقرة إلى سورة مريم وما بعدها، بالخط المسيحي"؛ ونسخة أخرى "مكتوبة باللغة العبرية لا أفهمها"[٨].

كان هناك العديد من الكتب الأخرى، ولكن بعد أكثر من سبعين عامًا، وبصعود سلالة جديدة إلى العرش المغربي حريصة على توطيد السلطة أكثر من التعلم، أصبحت مخطوطة واحدة على وجه الخصوص هدفا لمفاوضات واسعة النطاق بين مولاي إسماعيل (حكم ١٦٧٢-١٧٢٧)، الذي أراد استعادتها، والعقيد بيرسيفال كيرك في طنجة. وكان السبب الذي جعل إسماعيل يريد تلك المخطوطة هو أنها تحتوي على خريطة بها معلومات عن كنز ذهب مدفون.

بحلول السنوات الأخيرة من معقل طنجة، ١٦٨٢-٨٣، كان البريطانيون في شمال إفريقيا لأكثر من عشرين عاما، لكن الوضع كان محفوفا بالمخاطر. لم يثبت المعقل أنه مربح كما اعتقد الملك تشارلز الثاني أنه سيكون، وكان هناك اعتراض من البرلمان بشأن الحاجة المستمرة لإرسال الدعم المالي والعسكري. لم يوقف المغاربة هجماتهم عليه، حيث أوضح مولاي إسماعيل كم كان وجود حصن مسيحي على التراب المسلم إهانة له، وإلى أي حد كان العثمانيون في الجزائر يسخرون منه. كما أعرب عن غضبه من أن التجار الإنجليز كانوا يساعدون ابن أخيه المتمرد في نفس الوقت الذي كانوا يحتجزون فيه ٤٠٠ من المغاربة الأسرى في طنجة "داخل بلدنا"[٩]. داخل المعقل كان على كيرك المناورة بين الضرورات الداخلية والخطر الخارجي، وكان يأمل في بلورة استراتيجية معينة لتحييد الأخطار التي تكتنف الحصن[١٠].

كانت تتحقق آماله في زائر. في رسالة مؤرخة يوم ١٥ يونيو ١٦٨٢ بطنجة، كتب كيرك إلى وزير الخارجية ليولين جينكينز عن السيد مارتن ويسكومب الذي أراد كيرك أن يكتب إلى مولاي إسماعيل عن الكنز المدفون. أخبر ويسكومب الذي أصبح قنصلا في قادس تحت حكم ويليام الثالث كيرك بما يلي: أنه في عام ١٦٣٢، اتصل محمد الشيخ، ابن مولاي زيدان، بالتاجر المسيحي المعروف باسم "تاجر اللؤلؤ"، وطلب منه أن يعثر له في الإسكوريال على كتاب عربي أخذ منه بقدر كبير من المال من قبل الإسبان ... أو على الأقل، الورقة الأولى من الكتاب المذكور مع صورة لملك مغربي معين من جانب، وتحتوي من ناحية أخرى على حروف مختلفة ترسم مفتاحا يدل على اكتشاف الملوك الذين سبقوه لكثير من الكنوز العظيمة[١١]. احتوت تلك الورقة على توجيهات إلى كنز أحد أسلافه، حمل اسمه (محمد الشيخ، توفي سنة ١٥٥٧). ذهب تاجر اللؤلؤ الغامض إلى الاسكوريال ولكن تم رفض دخوله. لقد أبلغت محاكم التفتيش عن منع الوصول إلى المخطوطات الإسلامية. وعلى الرغم من فشله، تمسك التاجر بأمل الحصول على الكتاب والعثور على الاتجاهات الراصدة للكنز، وبعد خمسين سنة، بقي مصرا على ذلك. فبعد أن سمح له بعض الكهنة بالدخول إلى المكتبة، تمكن من الحصول على الخريطة وكان حريصًا على بيعها إلى الحاكم المغربي.

تابع كيرك أن السيد مارتن حكى له هذه القصة، فبعد الوصول إلى طنجة مع رجلين، أحدهما كان رجلا مسنا والآخر 'هو الرجل نفسه الذي كان يسمى في بلاد البرابرة بتاجر اللؤلؤ. لقد أحضروا معهم الورقة المزعومة التي أودعوها في عهدتي،' وقد أوفدت رجلاً محترمًا إلى ملك [المغرب] مع إشعار بذلك. على الرغم من أنه كان متشككًا في أمر هذا الكنز بأكمله، "أحلام الرجال الطامعين" كما سماه، كان كيرك حريصا على استخدامه في توطيد العلاقات مع إسماعيل الذي كان جيشه يحيط بطنجة. كان مسرورًا لإبلاغ جنكينز بأن مولاي إسماعيل عبر عن اهتمامه الكبير بهذا الأمر. أرسل كيرك (نسخة من؟) الورقة إلى إنجلترا مع الأميرال راسل لفحصها والتحقق المحتمل منها. وبعد فترة وجيزة، كما أبلغ في رسالة بتاريخ ١٠ يوليو ١٦٨٢ إلى جينكينز، تلقى مبعوثا من مولاي إسماعيل أراد التحقيق في الأمر. استفسر المبعوث تاجر اللؤلؤ عن الطريقة التي تعلم بها من هذا "السر، والذي [كما زعم ذلك تاجر اللؤلؤ] نقله إليه الملك محمد الشيخ منذ عدة سنوات. كان يجب على التاجر أن يكون قد قدم إجابات مقنعة أثناء وصفه للصعوبات الكبيرة التي واجهته في الحصول على الرسالة. ثم قام التاجر "بإحضار الورقة، وهي عبارة عن ورقة واحدة في مربع صغير، بها صورة لملك مغربي من جانب، وعلى الواجهة الأخرى المكتوبة التي تكشف الكنوز الخفية للعديد من الأمراء". كان المبعوث المغربي، بعد دراسة متأنية، مقتنعا بأنها كانت الورقة الحقيقية التي كان يرغب فيها من قبل مولاي محمد الشيخ، والآن مولي إسماعيل. صرح التاجر بثمن الورقة: قبل خمسين عامًا، عرض عليه مولاي الشيخ مليوني قطعة من ثمانية. والآن، كان على استعداد للموافقة على نفس الشروط. حاول المبعوث المغربي دون جدوى الحصول على الرسالة من أجل إعادتها إلى مكناس، وبعد إخفاقه في إقناع التاجر بالسفر معه مرة أخرى، غادر مع رسائل من كيركي تصف الوضع برمته. كان كل من التاجر وكيرك خائفين من وضع أنفسهم في يد مولاي إسماعيل حتى الآن في مكناس، ولذا توصلوا إلى عذر مفاده أن هناك شريكا متورطا في هذا الأمر لم يسمح للرسالة بمغادرة أراضي طنجة[١٢].

كانت المعاهدة التي استمرت أربع سنوات بين الملك تشارلز ومولاي إسماعيل بشأن طنجة صخرية، وعلى الرغم من أن السفير المغربي محمد بن حدو كان في إنجلترا للتفاوض على شروط سلام جديدة حول البحر والبر، كان كيرك قلقا، وكان يأمل أن جاذبية صفقة الكنز قد تخفف من موقف مولاي إسماعيل من معقل طنجة. في هذا الحساب، كان كيرك محقا: نظرا لاحتمال أن يكون الكنز قد أثار اهتمام إسماعيل الذي كتب إليه (في رسالة غير مؤرخة) أكد له فيها على "عطفه" وتابع: "لقد تلقيت أنباء عن كتابة معينة عن كنز مولاي محمد الشيخ. إذا كان هذا هو المال الذي تم إخفاؤه تحت جذع شجرة ليمون بحضور مسيحي في المغرب، والذي كان يحتوي على ثمانية عشر وعاء من الدولارات، وعثر عليه بعد ذلك من قبل جاروميل حاجي بمساعدة هذا المسيحي الذي ورد ذكره، أنا متأكد من أنه لا يمكن العثور عليه مرة أخرى"[١٣]. لا توجد معلومات حول من كان جاروميل هذا، أو عن المسيحي الذي شهد دفن واكتشاف الكنز (ما لم يكن تاجر اللؤلؤ نفسه). ومع ذلك، وربما على أمل أن تؤدي الخريطة إلى خريطة أخرى للكنز، واصل إسماعيل رسالته من خلال تقديم رشوة لكيرك. 'إذا كان الأمر يتعلق بمال" مولاي زيدان "أو" مولاي بوفارس "[أبو فارس، شقيق زيدان]، أو أي من الملوك السابقين، فإنه لا يزال غير مكتشف. لقد أرسلت خادما موثوقا به لن يكشف عن أي سر يجب أن تطمئن إليه، وإذا أرسلت لي ورقة تلك الاكتشافات، فسوف تكون متأكدا من أنه سيكون لديك نصيبك فيه، وأنني سأفعل أي شيء يمكنني القيام به من أجلك[١٤].

تبعت هذه الرسالة برسالة أخرى أطول منها، أخبر فيها إسماعيل كيرك بأن طنجة كانت آمنة فقط لأنه كان يحبه، وإلا فإن "المغاربة" كانوا سيهاجمونها. وأوضح أن تعاون كيرك فيما يتعلق بالكنز كان حاسما لسلامة المعقل. ومع ذلك، لم يرغب إسماعيل في تضخيم أهمية الكنز، رغم أن هذه الرسالة الثانية كانت في الحقيقة لا تتعلق إلا بالكنز. وأشار إلى أنه كان يشك في المعلومات الموجودة في "الورقة" واعتقد أنها "قضية منتحلة". وقال إنه لم يكن بهذا الغباء، كما قال لكيرك، أن يدفع ثمن "ورقة بها صورة". لكن إذا اعتقد كيرك أن هناك "حقيقة في تلك الورقة"، فعليه (كيرك) إرسالها إليه، وإذا أراد المالك/المالكين لها بعض التأمين الذي يضمن إرجاعها بعد التشاور بشأنها، فإنه سيقدم "أربعة رهائن يقيمون في طنجة. "نحن راضون"، خلص إسماعيل إلى كيرك، "أن ما سعيت إليه في هذا العمل كان خارج حبك لخدمتنا، وخارج حبك الحقيقي لشخصنا". ثم أقسم "بالله الذي في مساعدته نرغب إن كان جيدا ما تقوم به بعد أن نصحتنا، وأن هذا العمل سوف يتم بأيديك، فسنعيد تلك السفينة التي تريدها، وسنفعل المزيد من أجلك، ولن نقلل من تأييدنا لك، وإنما سنجعلك أكبر بين المسيحيين"[١٥].

كان كيرك حريصًا على التفاوض مع إسماعيل بشأن السفينة الإنجليزية التي استولى عليها جنود مغاربة، لكنه لم يكن متأكدا مما يجب فعله حيال الكنز. على الرغم من أن إسماعيل كان مصالحا توفيقيا في رسالته، إلا أن كيرك كان يخشى رفع آمال إسماعيل. بعد كل شيء، يمكن أن يكون الكنز مجرد خدعة للتجار المحتالين - خوف جعله يدرك أنه سيكون حكيما في رده على إسماعيل. واشتكى من وجود "بعض الأشخاص" الذين "أخبروكم [إسماعيل] بنية سيئة عندما دفعوكم للاعتقاد بأني نظرت إلى الورقة كشيء يحتوي حقا على ما يزعمه أصحابه." من الواضح، كان هناك فصيل مغربي أراد توتير العلاقات بين إسماعيل وكيرك وكان يحاول فضح كيرك ككذاب - أو أراد أن يكون له نصيب في الكنز. اعترف كيرك بأنه لم يستطع تأكيد المعلومات عن الكنز (من الواضح أنه لم يتلق ردا من لندن)، لكنه كتب إلى إسماعيل حول ما أخبره به التجار. مع وجود سفينة إنجليزية بأيد مغربية، أدرك كيرك أنه يحتاج إلى كل المصداقية التي كان عليه أن يستردها من إسماعيل، وتمديد الهدنة مع القوات المغربية المحيطة بطنجة. من الواضح أن ظهوره بمظهر كاذب أو خادع سيقوض موقفه التفاوضي[١٦].

في ٢٤ غشت من سنة ١٦٨٢، أبلغ كيرك وزير الخارجية عن الأوضاع في طنجة، وصعوبات التعامل مع المغاربة، والنزاعات الداخلية بين مسؤولي إسماعيل فيما يتعلق بالخطط ضد طنجة. لقد انتهى بملحق مكتوب مفاده أنه لا يزال يأمل في أن تكون جاذبية الكنز مفيدة: "لقد قمت مرة أخرى بإرسال رجل محترم إلى الملك مولي إسماعيل بخصوص أعمال الكنوز المخفية، بإيعاز جدي من مالكي الورقة، والمراسلون جاؤوا مؤخرًا من صاحب الجلالة عند عودته، وستعرف نتائج ذلك"[١٧]. وكتب أيضًا إلى "القايد" علي، موصله المباشر، يخبره أن رجلاً يدعى حماد القربلي سيبلغه قريبًا عن هذا الكنز، وأنه ينبغي حل الأمور بسرعة قبل أن يكتشف الإسبان ما يجري[١٨]. كان الوقت جوهر الأمر خشية أن يدفع إغراء الكنز الإسبان (في سبتة أو مليلية) إلى الفعل.

الغريب، في الأشهر القليلة المقبلة لم يرد ذكر الكنز في أي من الرسائل الباقية. في أكتوبر من سنة ١٦٨٢، بعد عودة محمد بن حدو السفير المغربي إلى إنجلترا إلى المغرب، كتب مولاي إسماعيل إلى تشارلز الثاني يطلب منه إرسال مبعوثين "صادقين وذكيين" لمناقشة الأوضاع المحفوفة بالمخاطر في طنجة[١٩]. لم يرسل الملك أحدًا، وكان كيرك يخشى أنه إذا هاجم مولاي إسماعيل معقل طنجة، فستكون النتيجة كارثية نظرا لوجود نقص خطير في الإمدادات. في ٢٥ يناير من سنة ١٦٨٣، أبلغ كيرك وزير الخارجية عن الحاجة إلى تجنب الصراع المفتوح وعن محاولاته "لبث أفكار السلام والعيش ضمن حدود حسن الجوار"[٢٠]. بعد شهرين، لم يتغير الوضع. على الرغم من أن كيرك كان متأكدًا من القوة الفائقة للأسطول البريطاني، إلا أنه لم يرغب في استفزاز المغاربة، خشية أن يشنوا هجومًا بريًا على طنجة، ولذا فقد حث الأميرال هربرت على الامتناع عن القيام بنشاط بحري معادي ضد سلا[٢١]. في ٢١ مارس، كتب كيرك مرة أخرى إلى وزير الخارجية ليقدم تقريرًا عند وصول رسالة من مولاي إسماعيل إلى الملك تشارلز، كان يستعد لإرسالها إلى لندن. لقد كانت رسالة قاسية وصريحة[٢٢]، وكان كيرك خائفًا من تأثيرها على العلاقات بين الملكين والعواقب على طنجة. لحسن الحظ، أكد له مبعوثون من إسماعيل الذين حضروا لرؤيته أن "نوايا الإمبراطور كانت تميل إلى مراسلات جيدة"، وأن إسماعيل كان "مستعدًا لتعليق الأعمال العدائية، توقعا ربما لسفارة أخرى، وهدايا من إنجلترا"[٢٣].

كان كيرك مرتاحًا، وفي وصف مشاعره، يعطي الانطباع بأنه كان يحاول إقناع نفسه، وكذلك جنكينز، بالتطمينات التي تلقاها. لنحو ثمانية أشهر، لم يرد ذكر شيء في رسائل طنجة

حول الكنز. لكن بعد ذلك، في مارس من سنة ١٦٨٣، علم كيرك بالرسالة الخطيرة من إسماعيل إلى الملك تشارلز. كان المغربي غاضبًا من تشارلز لأن الأخير قد اتهمه بخرق معاهدة بحرية بينهما، والتي لم يتم تأكيدها مطلقًا مادام "أن البحر لم يتم التعامل معه حتى الآن ... لا يوجد لدينا شيء نفقده في البحر، وعلى الرغم من استمرار سفنك التي لا تمضي وقتًا طويلاً أبدا أمام هذه الأماكن، فأنت لا يمكنك أن تؤذينا". ثم طلب إسماعيل من تشارلز "التوبة عما قمت به في هذه القضية"[٣٤]. في اليوم نفسه الذي كتب فيه إسماعيل إلى تشارلز، كتب أيضا إلى كيرك لتذكير البريطانيين بأن السبب الوحيد الذي جعل قواته لم تهاجم طنجة هو أنه، هو إسماعيل، أحب كيرك كثيرا، وقد أعجب به عندما، جنبا إلى جنب مع ستين مسيحيًا، قدم نفسه في بلاط مكناس، لأن "تعقلك ومجاملتك وتقديريك منحت [كذا] دخولاً إلى قلبي". لقد نمت المحبة اتجاهه ليحبه كثيرا لدرجة أنه يرغب حقا في توجيهه نحو الإسلام، وهو يرى أنه لا يمكن أن يقدم له أية هدية أعلى من ذلك. وهكذا إذا رغب كيرك في الحفاظ على الهدنة التي دامت أربع سنوات والتي وافقوا عليها، فعليه أن يواصل إرساله كما طالب بذلك "مائة أو ألف قنطار من مساحيق البارود الخاصة بالأسلحة أو القماش"[٣٥]. وجد كيرك الرسالة مقلقة للغاية، حيث انتهى بملاحظة تهديدية: "لا تهمل إرسال الجواب ودون إبطاء، فإذا كنت تملك السلطة من سيدك، فأنت من سيجيبني في هذه الأمور". لقد أدرك أن أمله الوحيد في تهدئة الحاكم المغربي كان من خلال إثارة مسألة الكنز مرة أخرى - وهو ما فعله في رسالة مؤرخة في ماي من سنة ١٦٨٣.

يجب أن يكون كيرك قد أدرك أن هذه ستكون آخر مرة يمكنه فيها تعليق مفاوضات الكنز أمام إسماعيل، وبالتالي فهو بحاجة إلى التأكد من ذلك. مادام الدليل الثابت الوحيد لديه عن الموقع السري (لم يتم ذكر للسيد مارتن أو لتاجر اللؤلؤ في مراسلاته في هذه المرحلة) "لتلك الورقة"، قرر إعطاء الكنز محاولة أخيرة - للتأكيد تمامًا من ذلك. لقد أرسل "الورقة" نفسها (هل أرسل نسخة فقط في وقت سابق؟) إلى إنجلترا للحصول على ترجمة خبير. لعدم وجود أي شخص في المعقل لديه معرفة كافية باللغة العربية، فقد طلب من الدكتور توماس هايد من جامعة أكسفورد إجراء الترجمة وإعادتها إليه "بحلول أول فرصة آمنة"[٣٦].

كان هايد معروفا بوضع معرفته باللغات الشرقية على حد سواء رهن إشارة الاستخدام التجاري والدبلوماسي. في سنة ١٦٧٥، كتب إلى وزير الخارجية جوزيف ويليامسون، يقترح التكليف بإجراء ترجمات من اللغة الفارسية والعربية لمواد يمكن أن تقدم خدمات لأبناء بلده: ترجمة علم الجغرافيا لدى أبو الفيدا من خلال اللغة العربية، أمير حماة في سوريا، وهو أدق الجغرافيين الشرقيين حيث سيتم حذف وتعديل أخطاء خرائطنا للأجزاء الشرقية[٣٧]. مدى صلابة معرفته بالعربية لم تكن واضحة لأنه في سياق شمال إفريقيا اتُهم بتقديم ترجمة غير دقيقة لرسالة من تشارلز الثاني إلى مولاي إسماعيل، إذ لم تكن لديه، كما كانت الشكوى، "المعرفة الحقيقية بقوة وأهمية التعابير"[٣٨]. لكن كيرك كان يثق فيه، وهكذا كان هايد مضطرًا للترجمة، كما كان في المناسبات السابقة.

في رسالة مؤرخة يوم ٢٩ ماي من سنة ١٦٨٣، أوضح هايد أن الكتابة في ورقة كانت مبهمة تماما، لكنه قام بترجمتها بأفضل طريقة ممكنة، دون ترك أي "لحظة مهمة لم يتم الكشف عنها". ثم أضاف: "ما قد يكون في قصة مولاي حميد حيث يخفي كنوزه التي لا يمكنني أن أخبر عنها"[٣٩]. لم يكن السبب هو عدم فهمه للنص، بل حقيقة أن النص لم يصف الكنز وكان مجرد بداية "كتاب يحتوي على حياة أحد الملوك، كما هو مذكور في التوضيح تحت صورته، وهي صورته هذه، الله يحفظه" (جريئة في الأصل). وأضاف أن الأمر المذهل في الكتابة هو أنها كانت مكتوبة باللغة العربية من اليسار إلى اليمين. ثم خلص هايد إلى أن القصة الكاملة عن الكنز كانت خدعة، "قصة فارغة" دون أية حقيقة بخصوص "إخفاء أي كنز"، "وأقسم على هذا بيميني"[٣٠].

الترجمة التي قدمها هايد نجت، وهي مؤرخة في ٣٠ ماي من سنة ١٦٨٣: "رواية الورقة المكتوبة باللغة العربية على الواجهة الخلفية لصورة المغربي حيث حذفت بعض الكلمات بصورة تعتريها نقائص إذ لا يمكن قراءتها":

"العدالة، والمداخيل... التي تغير العواصف السوداء ... التي يقدمها الأباطرة، عندما يقفون أمام تاجه، فيسقطون ويعبدون مجسم لحيته فوق قبره: مع ذروة الشهرة التي طارت عبر--- جميع البلدان، وشغلت آذان العالم وأتت من كل طرق الكون حيث تتناثر/ وتبذر في كل أرض العرب. و ... وفيه يفرح كل الرجال الذين تم العثور عليهم".

ثم تخلص إلى:

"وصف آخر له (يحفظه الله) مأخوذ من الجزء الأكبر من حياة أبيه الإمام الذي يصلح الله أمره.

لقد كان ملمحه مذهلا بحسن لامع - كأنه أسد في أدائه، وراشد في جاذبيته ووداعته في جميع الآداب الجادة. لقد كان ذو أكتاف عريضة حيث الحضور الوسيم، وهو مزين بزخرفة لؤلئية رائعة. كان شجاعا وباسلا وقويا وكان مما يميزه بشكل فريد عيون كبيرة وحواجب كثيفة الشعر. لقد كان طويل القامة - ولكن معتدل القوام: واسع النطاق وممتلئ الجلد وذا شارب متلألئ بالألوان"[٣١].

ومع ذلك، لم ترافق الرسالة أية خريطة (في الأرشيف الوطني، على الأقل).

في غياب المستند الأصلي، لا يمكن التحقق مما إذا كانت الوثيقة، كما وصفها هايد، مجرد فاتحة لكتاب أو رسالة مشفرة تؤدي إلى الكنز. كيف تمت كتابة اللغة العربية من اليسار إلى اليمين لا يزال غير واضح (هل كان تسلسل الكلمات الذي تم عكسه أو الأحرف في الكلمات هي التي تم عكسها. من الذي سيكتب بهذه الطريقة ولماذا). حتى الآن، أصبح كيرك مقتنعًا بأنه لا يوجد كنز، وبالتالي فقد تخلى عن هذا الخط من المفاوضات. لا توجد إشارات أخرى إلى الكنز في أرشيف طنجة، سواء من قبله أو من قبل إسماعيل.

لكن مسألة مخطوطات مولاي أحمد المنصور ظلت موضوع مفاوضات مكثفة، على الرغم من الإخفاق في ورقة الكنز. في وقت سابق من سنة ١٦٨١، أبلغ السفير المغربي، الحاج تيم، إسماعيل عن العدد الكبير من الكتب العربية التي شاهدها في فرنسا خلال زيارته. اعتقادًا منه بأن بعض كتب مولاي زيدان ربما تكون قد وجدت طريقها إلى فرنسا، أخبر الحاكم المغربي كاهن الثالوث الإسباني أنه حمل الملك الفرنسي مسؤولية فقدان مكتبة مولاي زيدان، مضيفًا أن المقتنيات العربية للسوربون كانت جزءًا من تلك المجموعة التي أراد استرجاعها[٣٢]. لم يرد الملك الفرنسي، وهكذا أرسل إسماعيل في سنة ١٦٩٠ سفيره، محمد بن عبد الوهاب الغساني، إلى إسبانيا للتفاوض على إطلاق سراح الأسرى المسلمين – والكتب[٣٣]. فالرسالة التي أخذها معه إلى الملك الإسباني تضمنت مطلب مولاي إسماعيل الصريح:

"لكل خمسين مسيحيًا من بين المئات، أعطنا ٥٠٠٠ كتاب، ١٠٠ كتاب عن كل مسيحي. يجب أن تكون الكتب نصوصًا إسلامية أصيلة، وبعضها محفوظ في مكتباتك في إشبيلية وقرطبة وغرناطة وغيرها من المدن والقرى المجاورة. دع خادمنا يختارهم وخاصة نسخ القرآن وغيرها من الأصناف... إذا كانت الكتب التي نريدها غير متوفرة، فامنحنا الأسرى المسلمين، بما في ذلك عبيد المطبخ. سوف نقبل الرجال والنساء والأولاد والرجال المسنين"[٣٤].

هذه الرغبة في استرداد "الكتب المسلمة التي تركت في المساجد المهجورة" كانت تتذكر منذ عقود -كما سجل محمد بن الطيب القادري في مذكراته بعد عقود لاحقًا[٣٥]. بعد كل شيء، كانت هذه هي المرة الأولى في التاريخ الحديث المبكر التي يرغب فيها حاكم قوي في إعادة الأسرى الأوروبيين مقابل كتابات إسلامية مسروقة.. ولكن لم يتم إرجاع أي كتب، حيث أخبر الملك بشكل خاص من قِبل مستشاريه أن إعادة الكتب كانت غير لائقة وأن الكرسي الرسولي سيكون مستاء للغاية. بدوره، أبلغ الغساني أن الكتب قد تم حرقها (عندما زار الإسكوريال، تم إخفاء الكتب حتى لا يراها)[٣٦]، فعاد بالأسرى، ولم يعد بالكتب.

على الرغم من أن خريطة الكنز لم يرد ذكرها في المراسلات، وصلت الرغبة في استرجاع كتب مولاي زيدان إلى الجزائر، وفي ١٤ يناير من سنة ١٦٩٢، أبلغ القنصل الفرنسي في الجزائر عن عودة ١٢٠ أسيرا من إسبانيا تم تحريرهم بتدخل مولاي إسماعيل، إلى جانب "أربعة آلاف عمل باللغة العربية من المكتبة الملكية في مدريد"[٣٧]. لا يوجد أي دليل، في أي مكان، على أن هذا العدد من الكتب قد عاد منذ سنة ١٦٩٩، كتب مولاي إسماعيل إلى الملك لويس الرابع عشر يطلب منه السلع الاستهلاكية ومرة أخرى "الكتب العربية التي أسمع أنها تحت نفوذك وفي ممالكك"[٣٨]. بعد ثلاثة أرباع قرن من الزمان، كان حاكم المغرب محمد بن عبد الله لا يزال يفكر في كتب مكتبة مولاي زيدان. ففي سنة ١٧٦٥، أرسل سفيره أحمد بن المهدي الغزال إلى إسبانيا لفدية الأسرى المسلمين وإعادة الكتب. في مفاوضاته، أكد السفير أنه يريد الأسرى والكتب، وليس دفع ثمنها: لأنه "لدينا الكثير من الذهب والفضة والماس". كتب السفير أن هناك ٢٠٤ أسرى يعملون على بناء الطريق من مدريد إلى الإسكوريال؛ لقد كانوا ٣٠٠ قبل هروب بعضهم أو موتهم، "لقد أنعم الله عليهم بالاستشهاد". كان معظم الأسرى جزائريين، لكن تعليماته كانت العمل من أجل تحرير جميع الأسرى بغض النظر عن الجنسية، لأن "الكل واحد في الإسلام". وبعد أيام، عندما وصل السفير إلى قرطاجنة، وجد بعض الأسرى الذين أطلق سراحهم. عندما اصطفوا على متن السفينة للإبحار إلى سلا، كان كل واحد منهم يحمل كتابًا فوق رأسه[٣٩].

ربما وجدت حفنة من مخطوطات زيدان طريقها إلى المغرب. وربما كانت ورقة الكنز مخبأة داخلها.

ملاحظة إضافية

في نهاية القرن الثامن عشر، أعد أمين مكتبة إسكوريال الشرقية للمخطوطات، ميغيل كاسيري، ببليوغرافيا مشروحة للكتب العربية التي نجت من حريق ١٦٧٣ من مجموعة المنصور: مكتبة إسكوريال العربية الإسبانية المشكلة من الكتب والمخطوطات. يتضمن جزء كبير من المكتبة العربية حول المجتمع الإسباني- إسكوريال- كتب المؤلفين العرب حيث مراجعات وتفسيرات ميخائيل كاسيري. (مدريد، أنطونيو بيريز دي سوتو، ١٧٦٠-١٧٧٠). ما تزال بعض المخطوطات في الإسكوريال حتى اليوم، في حين تم نقل الغالبية إلى المكتبة الوطنية في مدريد.

نبيل مطر - جامعة مينيسوتا

عنوان المراسلة

البروفيسور نبيل مطر، قسم اللغة الإنجليزية، جامعة مينيسوتا، ٢٠٧ شارع شورش س.إ، مينيابوليس، مينيسوتا ٥٥٤٥٥، الولايات المتحدة الأمريكية، البريد الإلكتروني:

matar010@umn.edu

الاحالات المرجعية:

(1) Ahmad ibn Muhammad al-Maqqari, Rawdat al-ās al-ātirat al-anfās fī dhikr man laqiyathu min a lām al-hadratayn Murrākush wa-Fās (Rabat, al-Matba‘ah al-Malakīyah, 1964), p. 35.

(2) Ahmad ibn Qasim al-Hajari, Kitāb Nāsir al-dīn alā l-qawm al-kāfirīn, eds Van Koningsveld, Qāsim al-Sāmarrā’ī, et al (Madrid, al-Majlis al- A‘lā-Abhāth al-Islmīyah, al- Wikālah al-Isbānīyah lil-Ta‘āwun al-Dawlī, 1997), p. 103.

(3) Al-Mansur was a bibliophile: see Rasā’il Sa‘dīyah, ed. ‘Abd Allah Gannūn (Titwān, Ma‘had Mulai al-Hasan, 1954), pp. 81, 104: ‘books for our massive libraries of knowledge’, and p. 182 for books from Egypt.

(4) Ibid., p. 81. The Sa‘dian dynasty claimed descent from the grandson of the Prophe Muhammad, Hasan.

(5) Quoted in Darío Cabanelas Rodríquez, ‘Cartas Ahmad al-Mansur a Felipe II’, Al-Andalus, 23 (1958), 19–47 (at p. 38).

(6) Tohfat el-Molouk in E. Fagnan, Extraits inédits relatifs au Maghrib (géographie et histoire) tr. de l’arabe et annotés (Algiers, J. Carbonel,1924), p. 136.

(7) A Letter; in answer to divers Curious Questions Concerning the Religion, Manners, and Customs, of the Countrys of Muley Arxid King of Tafiletta (London, 1671), pp. 58–9.

(8) Nemesio Morata, ‘Los Fondos Àrabes Primitivos de el Escorial’, Al-Andalus, 2 (1934), 87–181. So many manuscripts had been stolen or destroyed that by the late 1660s, when the English chaplain Lancelot Addison travelled in Morocco, he found no books at all. Instead, he found that the people ‘wondered to see any Book of Age or Volume in their own Language’, Addison, West Barbary, or, A short narrative of the revolutions of the Kingdoms of Fez and Morocco: with an account of the present customs, sacred, civil, and domestick (Oxford, 1671), ‘To the Reader’.

(9) CO 279/30/369r-v (25 March 1682).

(10) For a discussion of overall relations between Kirke and Ismail, see my Britain and Barbary 1589–1689 (Gainesville, University Press of Florida, 2005), chapter 5.

(11) CO 279/29/277v (15 June 1682).

(12) CO 279/29/325r-v.

Muhammad Hajjī and Ahmad al-Tawfīq (Rabat, Maktabat al-Tālib, 1977-1986), III, 173.

(36) Tomás García Figueras and Carlos Rodríguez Joulia Saint-Cyr, Larache; datos para su historia en el siglo XVII (Madrid, Instituto de Estudios Africanos, Consejo Superior de Investigaciones Científicas, 1973), p. 323.

(37) Mohammed Touili, Correspondance des consuls de France à Alger 1642-1792: inventaire analytique des articles A.E. BI 115 à 145 (Paris, Centre historique des archives nationales, 2001), p. 56.

(38) Henry de Castries, Pierre de Cenival and Philippe de Cossé Brissac, Les Sources inédites de l'histoire du Maroc: Archives et Bibliothèques de France – Dynastie Filalienne (Paris, Ernest Leroux, 1922-1960), 6 vols, V, 381 (30 July 1699).

(39) Al-Ghazzal, Natījat al-Ijtihād fī al-muhādanah wa-al-jihād, ed. Isma'īl al-'Arabī (Beirut, Dar al-Gharb al-Islami, 1980), pp. 143, 153, 177.

(13) CO 279/30/342.

(14) Ibid.

(15) CO 279/30/351r.

(16) CO 279/30/132v.

(17) CO 279/30/ 56v.

(18) CO 279/30/336 (1682).

(19) CO 279/30/240r (27 October 1682).

(20) CO 279/31/58v-59v (25 January 1683).

(21) CO 279/31/166r (19 March 1683).

(22) CO 279/30/340r-341v (3 March 1683).

(23) CO 279/31/171v, 172r (21 March 1683).

(24) CO 279/30/ 340v, 341r (21 March 1683).

(25) CO 279/31/169r-170v. The English translation of the letter (the Arabic did not survive) is dated '4 Rabi Nebahy 1682/83'; the Arabic letter of Ismail to Charles, which has survived, is dated 4 Rabī al-Nabawi, 1094.

(26) CO 279/31/173r (21 March 1683).

(27) CSPD, Charles II, March 1st, 1675, to February 29th, 1676 (14 September 1675), p. 295.

(28) CO 279/31/173r (21 March 1683).

(29) CO 279/31/325r.

(30) Ibid.

(31) CO 279/31/381 r-v.

(32) Quoted in Younès Nekrouf, Une amitié orageuse, Moulay Ismail et Louis XIV (Paris, A. Michel, 1987), p. 89.

(33) See the translation of his account of this journey in Nabil Matar, In the Lands of the Christians (New York, Routledge, 2003).

(34) Al-Wathā'iq: majmū'āt wathā'iqīyah dawrīyah (al-Rabāt, Mudīrīyat al-Wathā'iq al-Malakīyah, 1976), First Collection, p. 418. It is strange that the British ambassador in Spain, who was present at the arrival of al-Ghassani in Madrid, was not aware of the book factor: 'His business is only to treat about the redemption of the prisoners taken at Larache. It is adjusted he is to have ten Moors a-piece for a hundred officers, and the common men to be exchanged man for man', Alexander Stanhope, Spain under Charles the Second, ed. Lord Mahon (London, 1846), p. 11.

(35) Muhammad ibn Tayyib al-Qadiri, Nashr al-mathānī li-ahl al-qarn al-hādī' ashar wa-al-thānī, ed.

الماء والفلاحة في منطقة سوس خلال فترة الحماية

سهل تزنيت نموذجًا (المغرب)



د. محمد مسكيت

أستاذ الثانوي التأهيلي

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين مراكش

أسفي - المملكة المغربية

بيانات الأطروحة

أطروحة دكتوراه ضمن تكوين "الماء في تاريخ المغرب" بكلية الآداب والعلوم الإنسانية التابعة لجماعة القاضي عياض بمراكش (المغرب).
نوقشت بتاريخ ٢٤ فبراير ٢٠٢٠

الباحث: محمد مسكيت

إشراف: الدكتور أحمد امهدرها

مناقشة: د. عبد الكريم مدون
د. شفيق أرفاك من جامعة ابن زهر بأكادير
د. حسن المباركي
د. عبد العالي الفقير من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش

كلمات مفتاحية:
تاريخ المغرب المعاصر؛ المياه؛ الفلاحة؛ التدبير؛ سهل سوس؛ سهل تزنيت؛ التاريخ الاقتصادي والبيئي

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/KAN.2021.222720

مُقَدِّمَة

تندرج هذه الأطروحة ضمن تكوين الدكتوراه "الماء في تاريخ المغرب" بكلية الآداب والعلوم الإنسانية التابعة لجماعة القاضي عياض بمراكش (المغرب)، والتي أعدها الطالب الباحث محمد مسكيت تحت إشراف الدكتور أحمد امهدرها. وناقشها كل من السادة الدكاترة عبد الكريم مدون وشفيق أرفاك من جامعة ابن زهر بأكادير وحسن المباركي وعبد العالي الفقير من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش، وذلك يوم ٢٤ فبراير ٢٠٢٠.

تهدف الأطروحة إلى مساهمة في دراسة التاريخ البيئي والاقتصادي للمغرب في فترة الحماية (١٩١٢-١٩٥٦) التي هيمنت عليها الدراسات السياسية والعسكرية، مع غلبة الكتابة الأدبية والصحفية المبنية على الذاكرة بدل الكتابة التاريخية. ويأتي تناول هذا الموضوع في سياق اعتبار المياه والفلاحة من الموارد الأساسية والحيوية والضرورية للمجتمعات، فهي حجر الزاوية الذي تتأسس عليه باقي شؤونها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. وتتجسد أهميتها بوضوح في المجتمعات الفلاحية ما قبل الرأسمالية، حيث رسمت تفاصيل بنياتها المختلفة، وتم اعتبارها عاملا مؤسّسا لأشكال اشتغال أنظمتها السوسيو- اقتصادية. ولهذا تحتل هذه الموارد مكانة بارزة ضمن الاهتمامات التي تقض مضجع المجتمعات قديما وحديثا. فإذا كانت وفرتها تخلف مشاكل كبيرة لمجموعة من الكيانات الاقتصادية، كلما بلغت حجما يتعدى مستوى الطلب، فتهدد بناءها الاقتصادي والاجتماعي بالتلاشي والاضمحلال، فإن الندرة تثير وتؤجج مخاوف وهواجس مجتمعات المناطق الجافة والشبه الجافة. وذلك بفعل ما عاشته مؤخرا من تحولات عميقة، مست آليات تعاملها مع مختلف الموارد الطبيعية، في وقت ازدادت فيه وطأة التغيرات المناخية من جهة، والحاجيات الاقتصادية والاجتماعية من المياه والغذاء

من جهة أخرى. بل لم يحد من تلك الهواجس حتى الرهان على التقدم التقني والتكنولوجي.

الدراسات السابقة للموضوع

أصبحت دراسة المياه والفلاحة تستأثر باهتمام معظم تخصصات العلوم الاجتماعية والإنسانية، وتميز في هذا الحقل علم الجغرافيا وعلم الاجتماع والأنثربولوجيا. أما بالنسبة لعلم التاريخ، فبقيت مساهمته في هذا المضمار محدودة على الرغم من قدراته المنهجية والمعرفية على تتبع وتحليل تطور القضايا البيئية والاقتصادية عبر الزمن وبشكل تركيبي ومقارن للمسارات التاريخية لمختلف المجتمعات، لأن تاريخ الإنسان لا يقتصر على القضايا السياسية والعسكرية، بل إن روابطه الوثيقة مع مصادر عيشه وبيئته الطبيعية أداة مهمة لتفسير الكثير من المنعرجات الحساسة والبؤر الغامضة في التاريخ وفهم الحاضر ورسم واستشراف الآفاق المستقبلية. واكتشفت هذه الأهمية العديد من المؤسسات المُدبرة للمياه، إذ أحسّت بضرورة التاريخ في فهم واستيعاب تطور تلك الظواهر من جهة، وأهميته في بلورة ونجاح المشاريع التنموية المُتعلقة بمجالات تدخلها من جهة أخرى.

وتنقسم التوجهات العامة لدارسي موضوع المياه والفلاحة بالمغرب خلال القرن ١٩ والنصف الأول من القرن ٢٠ إلى ثلاثة أصناف. تناول الصنف الأول أهمية المياه والفلاحة في هيكلة وإرساء البناء الاجتماعي والاقتصادي للبلاد. وحلل الصنف الثاني سياق وآليات محاولة التحديث المائي والفلاحي، والصعوبات المُختلفة التي رافقتها خلال فترة الحماية، بينما قارب النّوع الأخير الموضوع من زاوية اللامساواة بين الفلاحين المغاربة والمعمرين في الاستفادة من إجراءات مصالح الحماية وإبراز آثارها على الفلاحة المغربية. ومنطلقاتها لا تخرج عن محاكمة اللامساواة في التجربة الاستعمارية وإبراز دورها الفعال في تفكيك البنى العتيقة للبادية المغربية.

تندرج تلك الدراسات، التي أعدها بعض المؤرخين المغاربة والأجانب، في إطار تحليل التطورات والتغيرات التي عرفها المغرب خلال مرحلة الحماية. ويبدو أن معظمها تطغى عليه النظرة الجغرافية والاقتصادية والتجاذبات السياسية، مع تركيز على بعض المجالات المغربية شمال الأطلس الكبير، المتوفرة على موارد مائية مهمة نسبيا مقارنة بباقي المجالات المغربية. واعتبرت أن تدبير الشؤون المائية والفلاحية، خلال فترة الحماية أفرز آثارا واضحة على الواقع الاقتصادي والاجتماعي استمرت تبعاتها إلى حدود الزمن الحاضر.

الإشكالية والفرضيات

لتحقيق التراكم في هذا المستوى انطلقنا من اعتبار المياه والفلاحة ككل مركب ومترابط من الجوانب الطبيعية والتقنية والإدارية والذهنية، له فعالية في رسم التطورات المجتمعية والاقتصادية محليًا وآليات التدبير مركزيًا. وتنحصر إشكالية الأطروحة في دراسة خصوصيات وآليات تدبير تلك الموارد في سهل تزنيت وأهم سهول منطقة "سوس" بجنوب المغرب، المتسمة بحساسية مفرطة للتغيرات المناخية والتدبيرية وضعف تواجد المعمرين مع استحضار التجربة الاستعمارية في باقي المناطق المغربية وشمال أفريقيا، وذلك في إطار التفاعل بين الميكروالماكرو تاريخ. ومن ثم انطلقنا من دراسة التفاعلات الزمنية والمكانية والتجليات الموضوعاتية للمياه والفلاحة، ووضعها في سياقها المحلي والوطني زمن الحماية الفرنسية لاكتشاف الأبعاد التي انطوى عليها تدبير الموارد المائية والفلاحية في هذه المرحلة التي تعد منعطفا حاسما في تاريخ المغرب على جميع الأصعدة.

انطلقنا من فرضية استناد سلطات الحماية على التجربة المخزنية المتراكمة مع إكراهات ندرة المياه والإنتاج الفلاحي، وعلى وسائل وتدابير تنظيم المجتمع لها، كآليات لترسيخ الوجود الفرنسي بالمنطقة. وتتمثل الفرضية الثانية في غلبة الطابع المحافظ على تدخلات سلطات الحماية بفعل الإكراهات المحلية والتحديات التي عاشتها أجهزتها الإدارية والسياسية. أما الفرضية الأخيرة فتنطلق من كون تلك التدخلات كان لها دور مهم في تحديث البنية السوسيو-مجالية والاقتصادية بمجال الدراسة. ويطرح هذا الأمر كذلك فهم أبعاد الأساليب التحديثية التي حاولت مصالح الحماية استعمالها.

مصادر البحث

ارتكز هذا العمل على المصادر الوثائقية والمعاينة الميدانية والرواية الشفهية. ومن أبرز الأرصدة الوثائقية التي نهل منها نذكر المراسلات المتبادلة بين السلاطين وخلفائهم والقواد وشيوخ الزوايا والعلماء في منطقة سوس خلال أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين وهي محفوظة بالخزانة الحسنية ومديرية الوثائق الملكية والخزانة الوطنية بمدينة الرباط. وكذا الرحلات الاستكشافية التي قام بها

العديد من الأوربيين إلى المنطقة، فضلاً عن العديد من الظهائر والقرارات الوزارية الصادرة بالجريدة الرسمية للحماية ما بين ١٩١٢ و١٩٥٦. واستند البحث بشكل كبير على المخزون الوثائقي الاستعماري المتنوع (المونوغرافيات والتقارير والمراسلات والنصوص القانونية وبيانات معدلات التساقطات المطرية والحرارة وغيرها) الذي أنتجته مختلف المصالح الإدارية والعسكرية الحماية. وقد تمكنا من الاطلاع عليه وهو محفوظ بمركز الأرشيف الدبلوماسي بنانط وقصر فانسان بباريس ومؤسسة أرشيف المغرب بالرباط والمركز الجهوي للاستثمار الفلاحي للحوز بمراكش. موازاة مع هذا الرصيد الغني والمتنوع، شكلاً ومضموناً، اعتمدنا على وثائق محلية معظمها عبارة عن عقود ونوازل فقهية وألواح عرفية، في حوزة مجموعة من العائلات بمجال الدراسة. وكان حضور الرواية الشفهية والتحريات الميدانية، مكملاً ومتمماً وموضحًا لبعض الخبايا الغامضة وسط مختلف الوثائق.

محتويات الأطروحة

اشتمل هذا العمل على مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة، ضم كل واحد ثلاثة فصول. عنونا الباب الأول بالهشاشة واحتلال سهل تزنيت ١٩١٣، وهو باب مخصص لدراسة الوضعية العامة الممهدة لاحتلال المنطقة وله أهمية كبرى في فهم مختلف التحولات اللاحقة. أما الباب الثاني فهو موسوم بمساهمة المياه والفلاحة في ترسيخ نظام الحماية ١٩١٤-١٩٣٧. وتناول الباب الأخير محاولة التحديث: آثارها والموقف منها ١٩٣٨-١٩٥٦. وضمت خاتمة البحث الاستنتاجات التي تم الوصول إليها.

تتبعنا في البداية تطور الظروف المناخية بسهل "تزنيت" خلال الفترة الممتدة من ١٨٧٧ إلى ١٩١٢. وتوقفنا كذلك على دور المياه والأرض في رسم البنية الاقتصادية والاجتماعية والعلاقات القبلية، وأهم التغيرات التي عاشها المجتمع انطلاقاً من الوضع المائي والفلاحي الاستثنائي المستجد انطلاقا من الموسم الفلاحي ١٨٩٣-١٨٩٤. تناولنا بعد ذلك آليات استعمال المياه والأرض في الإنتاج الفلاحي، فوصفنا التنظيم التقني لاستنباط وتعبئة واستعمال الموارد المائية، فضلا عن تحديد القواعد العرفية المنظمة للمجالات الفلاحية والمبادئ المُتحكمة في اختيار المنتوجات الفلاحية. ولتحليل منظور الأجانب لآليات تدبير تلك الموارد، رصدنا الصورة التي كوّنتها الرحلات الاستكشافية والبعثات العلمية الأجنبية عن الوضعية المائية والفلاحية بمجال الدراسة، وتحليل مساهمتها في التعبئة لاستعمار المنطقة، وتحديد دورها بمعية الأزمة المائية والغذائية الخانقة لسنة ١٩١٣ في المساهمة في تسهيل عملية الاحتلال.

وافتتحنا الباب الثاني بالتساؤل عن العلاقات الرابطة بين تطور الظروف المائية والإنتاج الفلاحي من جهة، و"تهدئة" سهل تزنيت من جهة أخرى. فكشفنا عن أساليب التوظيف العسكري والسياسي للموارد المائية والفلاحية في ترسيخ نظام الحماية ومطاردة المقاومين والتغلغل بالتالي في المجتمع. واستدعى تحليل هذا التغلغل وصف تطور مسار تكوين إدارات متخصصة في تدبير تلك الشؤون ووظائفها وتطوراتها والعلاقات بينها، فضلا عن دراسة مدى انعكاس ذلك على التنظيمات المحلية القائمة والأوضاع الاجتماعية. بالإضافة إلى دراسة الرهانات التي انطوى عليها التشريع العقاري والمائي في المنطقة. ومن ناحية أخرى، تناولنا الآليات والفاعلين في بلورة وتنفيذ السياسة المائية والفلاحية وتحديد مبادئها وتوجهاتها العامة مع وضعها في سياق العام المتسم بتشبع القائمين عليها بالنموذج الكاليفورني المبني على السقي الكثيف والمستمر والحوامض والبواكر وغيرها من المنتوجات ذات القيمة المضافة العالية. موازاة مع ذلك أبرزنا أهم التطورات التي عرفتها الوضعية المائية (التساقطات المطرية – المياه الجوفية) وتفاعلاتها الاقتصادية والاجتماعية والإدارية ما بين ١٩٣٨ و١٩٥٦. ومن ثم تتبعنا عملية إرساء التجهيزات والتقنيات الحديثة والرفع من حجم الإنتاج الفلاحي وتنويعه بشكل سريع. وحللنا مختلف النقاشات التي تزامنت مع إرسائها وسط دواليب الأجهزة الإدارية، وغير ذلك من الآليات والأساليب الإدارية والمالية المعتمدة. ورصدنا في الأخير أهم الآثار التي خلفتها محاولة التحديث المائي والفلاحي على المستوى المجالي والتنظيم الاجتماعي والبنية الاجتماعية وعلاقة المجتمع بالوسط الطبيعي. كما حللنا تطور موقف بعض عناصر النخبة المغربية من تلك المحاولة التحديثية والمبادئ الموجهة لمنظورهم.

الاستنتاجات

توصل هذا العمل إلى الاستنتاجات التالية: ومنها أن المياه والفلاحة، قبيل الحماية، شكلت أُساس دينامية وحركية المجتمع، واندمجت تقلباتها ضمن بنياته الاقتصادية والاجتماعية، إذ عاش في تناسق وتآلف مع تناوب تردد فترات الندرة والكفاف والوفرة. فتأسّست حولها تنظيمات اجتماعية واقتصادية، غايتها التعبئة المستمرة والمكافحة الجماعية وترسيخ التضامن بين

مختلف مكونات المجتمع، فضلا عن المراقبة والمعالجة المحلية لكل الإكراهات. غير أن تلك الآليات عاشت ضعفًا وفتورا قويا في الوقت الذي ازدادت فيه حدة الوضعية المائية والفلاحية وضعًا مُخلفَة اقتصاديًا واجتماعيا قاسيا بدأت تجلياته جد واضحة منذ أواخر القرن التاسع عشر. وهي الفترة التي تزامنت مع شدة التغلغل الاستعماري في المنطقة بقيام الأوربيين بمحاولات متعددة لاختراقه عبر مجموعة من البعثات والرحلات الاستكشافية. وهكذا، توجهت سلطات الحماية لمد نفوذها على سهل سوس الأدنى وسهل تزنيت بعد انفجار الأزمة المائية والغذائية الخانقة لسنة ١٩١٣، كنتيجة لاسترسال سنوات عديدة من الندرة وعجز الآليات المعتمدة في تجاوزها. لكن توطيد هيمنتها استلزم تفاعلا قويا بين التدخلات العسكرية والسياسية من جهة وتقلبات الوضعية المائية والفلاحية من جهة أخرى. ولهذا طغى على مختلف التدخلات حتى سنة ١٩٣٧ البعد العسكري والسياسي والطابع التدبيري المحافظ. وواكب ذلك تقوية دور ضباط الشؤون الأهلية وترسيخ أهمية القواد المخزنيين في التدبير. كما أن إعادة هيكلة الجماعات القبلية وجماعات الفخدات، كتنظيمات تدبيرية تقليدية محلية، لم تستهدف القضاء عليها، وإنما حصر وظيفتها في الاستشارة، لكون التجربة التي راكمتها كانت لها أهمية كبيرة في التغلغل وسط المجتمع وتقليص النفقات الاستعمارية، فتمت مسايرة آليات اشتغالها تحت مراقبة عناصر مكاتب الشؤون الأهلية.

وكان التركيز على الجهاز المخزني المحلي قويا في تنفيذ إجراءات سلطات الحماية. لقد ظل اتباع التجربة المخزنية للقرن التاسع عشر في تعاملها مع المياه والفلاحة وإكراهاتها المختلفة توجها سائدا في دواليب أجهزة الحماية. وتم الاستناد على مستوى تقديم الاستشارة وإنجاز التجهيزات الهيدروفلاحية والوساطة مع المجتمع على الجهاز المخزني المحلي المتشكل من قواد وفقهاء وعلماء وشيوخ الزوايا، وكانت هذه العناصر من الأعمدة الاجتماعية التي تم الرهان عليها لقيادة ونشر التحديث بمجال البحث، فكانت من السباقين إلى تبنيه.

ويبدو أن عملية التحديث تأخرت بالمنطقة لعوامل متداخلة، فبعضها مرتبط بالتوجهات السياسية لأجهزة الحماية التي هيمن عليها المنطق المركزي والعسكري والمحافظ واقتصاد النفقات. وكذا اندلاع الصراعات واختلاف الرؤى بين عناصر الإدارة الاستعمارية حول نوعية التجهيزات والمزروعات والمغروسات الملائمة لمجال الدراسة ودرجة التحديث الضرورية والمناسبة له. كما توجس ضباط الشؤون الأهلية من فقدان سلطاتهم الواسعة لصالح المهندسين الزراعيين ودعوا إلى ضرورة انتظار تهدئة الأطلس الصغير (الذي تم احتلاله بالكامل سنة ١٩٣٤). كما كانت معارضة المعمرين قوية لتحديث الفلاحين المغاربة، خوفا على فقدان مكانتهم الاقتصادية في البلاد. وبعضها الآخر مرتبط بالإرث التاريخي والظروف العامة لمجال الدراسة، إذ تمت معارضة توسيع مجال التحديث قبل التدقيق في حجم الموارد التي تتوفر عليها المنطقة وانتظار نتائج مختلف التجارب (تجربة زراعة القطن بتزنيت وتحسين النخيل والسدود التحويلية الإسمنتية). ولهذا ظلت القواعد القانونية العقارية والمائية موقوفة التنفيذ بسهل تزنيت لفترة طويلة، فعلى الرغم من تحويل المشرع المياه إلى ملكية عمومية منذ سنة ١٩١٤، فإن تطبيقها شهد تأخرا وغلب عليه الحذر والتردد حتى مطلع الثلاثينيات، بفعل حرص مكاتب الشؤون الأهلية على أولوية الجانب الأمني على كل القضايا.

وبعد الأزمة المائية والفلاحية الخانقة لسنة ١٩٣٧، تم الوقوف عند محدودية الآليات المعتمدة في "سوس". ولهذا وضعت سلطات الحماية مشاريع حديثة بتصورات جديدة، سهر عليها وتتبعها ودعمها المقيم العام الفرنسي. وكانت توجهاتها تجمع بين الأهداف الاقتصادية والاجتماعية والبيئية. وهو منعطف مهم في تاريخ تدبير المياه والفلاحة بالمنطقة، بيد أن تنفيذ كل إجراءاتها تأخر مجددا، بفعل ظروف الحرب العالمية الثانية وتوجيه العديد من المهندسين والتقنيين إلى المعارك وهيمنة "اقتصاد الحرب" على الإقامة العامة. فشكل ذلك مناسبة انتهزها ضباط الشؤون الأهلية للاستمرار في الاستئثار بتدبير مختلف الشؤون المائية والفلاحية. ولذلك قادوا معارضة قوية لقطاعات تحديث الفلاحين، ولم يتوقفوا عن التذرع بفهمهم العميق للواقع المحلي، وبأولوية الحفاظ على الوضع القائم دون تغيير. لكن حدة وقساوة الوضع المائي والغذائي ما بين ١٩٤١-١٩٤٣ موازاة مع تغيرات السياسة الفرنسية بالمغرب خلفت انعكاسات قوية. وهو ما سمح بتوسيع المشاركة أمام الفلاحين المحليين في مختلف الأجهزة والتنظيمات الاستشارية والجمعوية والتعاونية وتخفيف تدخلات الضباط، وخلق مكاتب إقليمية ومحلية للمؤسسات الإدارية المركزية والجهوية المدبرة للمياه والفلاحة مع الحرص على جعل المهندسين والتقنيين الزراعيين على رأسها.

وعلى الرغم من كون محاولة التحديث متأخرة ومحدودة، وتمت عملية تنفيذها بسرعة، فقد استطاعت أن تمهد لتغيير وجه المجال والاقتصاد والمجتمع، بفعل هشاشة الوضع القائم، والقوة العلمية والتقنية والإدارية لنظام الحماية. ولهذا تفككت مجال "سوس" عامة وسهل "تزنيت" خصوصًا، إلى فسيفساء من النقط التحديثية المختلفة الشكل والمساحة، في وسط غلبت عليه المظاهر التقليدية. وعلى مستوى الأراضي الزراعية، استطاعت البذور والمنتوجات والتقنيات الفلاحية الجديدة والتعمير منافسة المنتوجات التقليدية على المياه والأرض، بدعم من أجهزة الحماية المختلفة، فانحصر انتشار المزروعات والمغروسات القديمة، مقابل بروز أصناف جديدة منافسة، دون تعويض نظيراتها. وإذا كان الاهتمام قويا بإرساء التقنيات الحديثة، فإن عمليات اعتماد وإصلاح التجهيزات الهيدروفلاحية التقليدية جعلتها التحولات السوسيو-اقتصادية، المبنية على الفرد، غير متجانسة مع الوضع الجديد. وعزّز توسّع مجال الضخ، بأنواعه المختلفة، البعد الفردي والتنافسي حول المياه الجوفية فتقلص مستواها وارتفعت ملوحتها، فلم تستطع محاولات التشجير والتقنين إيقاف مسار تدهورها إلا نسبيًا.

وعلى العموم، فقد ساهمت تلك المحاولة التحديثية في تفكيك البنية الاجتماعية القديمة، حيث تقهقر دور وعدد العبيد واليهود كفاعلين أساسيين في الشؤون المائية والفلاحية قبيل الحماية. وظهرت في المقابل فئات اجتماعية جديدة نشيطة على المستوى الفلاحي: المالكون الكبار الذي راكموا الثروة من ممارسة النشاط التجاري والسياسي، والمحاربون القدامى والعمال الزراعيون خصوصا في سهل سوس. وأدى هذا الأمر بدرجة أقل في سهل تزنيت إلى بروز فاعلين جدد لهم امتدادات وسط مجموعة من الحواضر المغربية، بجانب شرفاء الزوايا والأسر القايدية القديمة وبيوتات الشيوخ. وتأكد بالملوس أن التنظيم التقليدي بدأ منذ مطلع الخمسينيات يعيش أزمة خانقة، فتم الحفاظ عليه في وضع متأزم مقابل تعزيز التوحيد الإداري والقانوني والتدبير الحديث. ومع كل ما قيل، فالمنطلق المحوري لتلك المحاولة كان هو المزاوجة بين المحافظة والتحديث المحدود، بشكل لا يؤدي إلى تغيير جذري، فخلف ذلك بنية تدبيرية مركبة ومترسبة. في ظل تلك التطورات تبلور موقف بعض عناصر النخبة المغربية بمضمون لا يبتعد كثيرًا عن توجهات وتجربة مصالح الحماية. وبذلك شكلت المحاولة التحديثية لتلك الفترة نبراسًا وموجهًا لتصورات المغاربة نحو مستقبلهم المائي والفلاحي.

خَاتِمَةٌ

يمكن الوقل إجمالاً إن للمياه والفلاحة امتدادات زمنية طويلة وتسري شرايينها في جميع مستويات ومفاصل المجتمع، لهذا فالإحاطة بجميع جوانب الموضوع تستدعي المزيد من النبش وتحليل مجموعة من القضايا الاقتصادية والبيئية، والتي ستمكن بدون شك من إعادة قراءة وكتابة تاريخ المغرب وفق متطلبات الزمن الحاضر مع استشراف للمستقبل. وتمنح للمؤرخ بالتالي مجالاً واسعًا للمساهمة في النقاش العمومي حول العديد من القضايا الراهنة.

بناءً على ذلك، تم الوقوف خلال إنجاز العمل، على ضرورة فتح آفاقه على مجموعة من القضايا، فتزويد المدن بالماء الصالح للشرب في سوس يستدعي بحثًا خاصًا، كما أن موضوع الرعي الترحالي خلال فترة الحماية، جدير بالنبش لإبراز تطوره وتفاعله مع الظروف المناخية وتحولات العلاقات الرابطة بين الدولتين الاستعماريتين من جهة وبين الرحل والمستقرين من جهة أخرى، وكذا توضيح دوره في تجاوز الرحل للتقسيم الاستعماري للجنوب المغربي. وارتباطًا بذلك يمكن ملامسة موضوع آخر يتعلق بالهجرات الداخلية والتحركات القبلية خلال الفترة نفسها. هذا فضلاً عن تتبع نشأة وتطور الجمعيات والتعاونيات المائية والفلاحية، التي كانت لها أدوار طلائعية زمن الحماية. وتستدعي إشكالية القطيعة والاستمرارية في السياسة المائية والفلاحية للمغرب، تحليلاً تاريخيًا دقيقًا ينطلق من فترة الحماية حتى إطلاق مخطط المغرب الأخضر سنة ٢٠٠٨ مع استحضاره لتطور موقف الأحزاب الوطنية من القضايا البيئية. ويفتح التاريخ البيئي للمغرب مجالاً واسعًا وواعدًا للبحث، خصوصًا على مستوى دراسة تطور المناخ والغطاء النباتي والتشجير وغيرها.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

التعليم في الأندلس خلال عهد الدولة الأموية
(١٣٨ - ٤٢٢هـ/ ٧٥٥ - ١٠٣٠م)



د. مختار عمارة
دكتوراه في الدراسات التاريخية المتوسطية
جامعة يحيى فارس – المدية
الجمهورية الجزائرية

مُلَخّص

سعى من خلال البحث في تاريخ الأندلس خلال العهد الأموي إلى تتبع القرائن التاريخية من أجل تسليط الضوء على الحركة التعليمية في الأندلس خلال هذه الفترة، والتي كانت ركن أساسي وعنصر جوهري في نهضة البلاد الفكرية والعلمية خلال هذه الفترة من التاريخ الإسلامي، وذلك من خلال التطرق إلى الخلفيات والعوامل المساهمة في ظهور أولى بوادر الحركة التعليمية في بلاد الأندلس ومراحل تطورها، والمناهج المعتمدة لتلقين المواد العلمية والكتب المتداولة لكل منهج ومادة، والمعايير التي اختيرت على أساسها هذه المناهج، والمراحل التي يمر بها الطلبة في مسارهم التعليمي، والتدابير المادية المخصصة لهذا الغرض والمتمثلة في أماكن التعليم والهيئات الموكلة بهذه المهمة ومصادر تمويل هذا التعليم. لم تكن الحركة التعليمية في الأندلس خلال هذا العهد منفصلة عن سابقها، ولم تختلف عن غيرها من الأقطار الإسلامية، إذ كانت امتدادًا لما كان معمولاً به في المشرق الإسلامي، حيث حمل الأندلسيون معهم المؤثرات المشرقية بعد عودتهم من رحلاتهم العلمية، وساروا على نهجها. وقد آثرنا الخوض في هذا البحث معتمدين على المنهج الوصفي أساسًا لاستخراج المادة المطلوبة من ثنايا المصادر التاريخية والتي انحصرت في كتب التاريخ العام وكتب التراجم والطبقات وبشكل أقل كتب الجغرافيا، ثم في مرحلة لاحقة على المنهج التحليلي لمناقشة محتوى النصوص التاريخية المنتقاة لهذه الغاية. وقد توصلت الدراسة إلى أن الحركة التعليمية في الأندلس خلال هذا العهد لم تكن منفصلة عن سابقها، ولم تختلف عن غيرها من الأقطار الإسلامية، إذ كانت امتدادا لما كان معمولا به في المشرق الإسلامي، حيث حمل الأندلسيون معهم المؤثرات المشرقية بعد عودتهم من رحلاتهم العلمية، وساروا على نهجها.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٠٦	نوفمبر	٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر:	٢٣	نوفمبر	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

التعليم؛ الحركة العلمية؛ المؤسسات التعليمية؛ العهد الأموي؛ الأندلس

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/KAN.2021.222738

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

مختار عمارة. "التعليم في الأندلس خلال عهد الدولة الأموية: (١٣٨ - ٤٢٢هـ/ ٧٥٥ - ١٠٣٠م)".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد الحادي والخمسون؛ مارس ٢٠٢١. ص ١٨٦ – ١٩٩.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: am.karim05@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

مُقدِّمَةُ

بلغت الأندلس في العهد الأموي مرحلة متقدمة في الازدهار الفكري والعلمي شاع به ذكرها في مختلف العصور، وامتلأت المصادر التاريخية بالإشادة بهذا العصر وحكامه وما امتازت به الأندلس في عصرهم من ازدهار حضاري في شتى المجالات، هذه القفزة الحضارية التي كانت نتاج عوامل عديدة ساهمت مجتمعة في ارتقاء الأندلس حضاريًا إلى أعلى المستويات، ويتربع التعليم على هرم هذه العوامل باعتباره الوسيلة الأساسية لنقل التراث المادي والمعرفي بين المجتمعات على اختلاف العصور والأمكنة، ونظرا لمكانة العلم والتعليم في ميزان الحضارة من جهة، وفي الدين الإسلامي الحنيف الذي حض على طلب العلم والسعي لتحصيله من جهة أخرى، جاءت الحاجة إلى الحديث عن هذا الموضوع في هذه الفترة الزمنية، والذي مازال يكتنفه شيء من الغموض إذ لم يحض إلا بالنزر اليسير من الصفحات في مختلف الدراسات السابقة التي تطرقت له.

الإشكالية:

باعتبار التعليم أحد الجوانب الأساسية ضمن مقومات الحضارة، وركن ركين في نقل تراثها المعرفي والحفاظ عليه، ونظرا للازدهار الفكري والعلمي الذي عرفته الأندلس خلال هذا العهد، ماهي المقومات التي قام على أساسها التعليم في هذه الفترة؟ تندرج ضمن هذه الإشكالية مجموعة من التساؤلات المرتبطة بها، وأهمها: ما هي أهم خلفيات نشأة التعليم في الأندلس خلال هذه الحقبة من التاريخ؟ وهل يمكن القول بوجود منظومة تعليمية متخصصة؟ وهل وجدت مراحل معينة اعتمدها الأندلسيون في التعليم؟ وماهي الوسائل والطرق المستخدمة في نقل المادة العلمية وتلقينها؟ وماهي أبرز المواد المقررة ضمن الدروس؟ وماهي الطرق المتعارف عليها في تمويل التعليم في هذه الفترة؟

المنهج المتبع:

للإجابة على هذه التساؤلات آثرنا الخوض في هذا البحث معتمدين على المنهج الوصفي أساسا لاستخراج المادة المطلوبة من ثنايا المصادر التاريخية والتي انحصرت في كتب التاريخ العام وكتب التراجم والطبقات وبشكل أقل كتب الجغرافيا، ثم في مرحلة لاحقة على المنهج التحليلي لمناقشة محتوى النصوص التاريخية المنتقاة لهذه الغاية وإن كانت في أحيان كثيرة تكتفي بالإشارة إلى الموضوع دون تفاصيل معينة على رسم صورة واضحة.

أولاً: نشأة التعليم في الأندلس

في واقع الأمر لا نجد في مصادر التاريخ الأندلسي أي إشارة عن البدايات الأولى للتعليم في الأندلس في هذه الفترة من التاريخ، إذ لم توجد مؤسسات رسمية تعنى بالتعليم مثلما صار عليه الحال منذ أواخر القرن الخامس للهجرة، ومن جهة أخرى كانت الصفة الشرعية والوجوب الذي أخذه العلم في حياة المسلمين من أهم العوامل التي جعلت الفرد المسلم يحمل همته على طلب العلم وتحصيله دون الحاجة إلى وجود صفة رسمية تدفعه إلى ذلك، ففي قيامه بطلب العلم امتثال لأوامر الله تعالى ورسوله الكريم التي تحض على طلب العلم وترفع من شأن العلماء، ومع ذلك لا يمكننا أن نهمل عامل مساهمة السلطة السياسية الأموية في دفع الحركة العلمية في البلاد في هذه الفترة[1]. هذا الدافع كان له بلا شك تأثير مباشر على ظهور بوادر حركة تعليمية في الأندلس خلال هذه الفترة، وإن كانت محتشمة ومقصورة على الجهود الفردية في كثير من الأحيان، لكنها كانت ولا بد خطوة أساسية وجوهرية في مسيرة حققت في فترة القرن من الزمن قفزة نوعية في شتى الميادين حتى صارت الأندلس وحاضرتها قرطبة منارة علمية ليس في العالم الإسلامي وحسب بل حتى في أرجاء أوروبا المظلمة، وصارت قرطبة تنافس بقية حواضر العالم الإسلامي في ميدان العلم والعمران والحضارة،

ولا يستبعد أن تسير الحركة التعليمية في الأندلس خلال هذه العهد على ما كان معمولا به منذ بداية الدعوة المحمدية، فقد حمل المسلمون معهم القرآن الكريم وحديث النبي (ﷺ) أينما حلوا وارتحلوا، وقاموا بدراسته وتدريسه في كل محلة ومناسبة وغير مناسبة، وهذا ما يدفعنا إلى اعتبار هذا النمط إحدى أوجه الممارسة التعليمية، وبدل أن تكون هناك مراسيم أو قوانين رسمية تنظم الحركة التعليمية في الأندلس، وجدت مجموعة من الأعراف والتقاليد والسلوكات المتفق عليها بين رواد العلم وطلبته نظمت إلى حد بعيد التعليم في الاندلس، وفي غيره من الأمصار الإسلامية على السواء، وإن كانت القرائن التاريخية حوله قليلة جدا إن لم تكن نادرة، إذ بدت المصادر المتأخرة التي وثقت أحداث التاريخ الأندلسي منذ مطلع القرن الثاني الهجري منصرفة بشكل كبير إلى الحديث عن الجوانب السياسية والعسكرية ومات تعلق بهما، ففي كتب التراجم هناك إشارات إلى وجود التعليم كمهنة اختص بها بعض الناس خلال ق٣هـ/٩م[2]، حيث تميزهم بصفة المعلم أو المؤدب أو الشيخ عند ذكر أسمائهم، وقد كانوا على درجة كبيرة

من العلم وتمكن من أصوله نتيجة تلقيهم العلم من مشاهير علماء عصرهم[٣].

كما تجلت المظاهر التعليمية في الأندلس من خلال الإشارات الغير المباشرة التي احتوتها المصادر حول هذا الموضوع، فما كان يحل عالم بأرض الأندلس حتى يتسابق إليه طلاب العلم ليسمعوا منه ويرووا عنه، وما إن يظهر مصنف جديد حتى يتلقفه العلماء وطلبة العلم وعامة الناس بالنسخ والقراءة، وما الرحلة العلمية إلا وجه من أوجه النشاط التعليمي الأندلسي وإن كان واقعا خارج الإطار الجغرافي للبلاد. وبالاستناد إلى ما جاء في كتاب طبقات الأمم لصاعد الأندلسي يمكننا أن نقسم نشاط التعليم في الأندلس إلى مرحلتين، المرحلة الأولى هي فترة عصر الولاة وبدايات حكم الدولة الأموية إلى غاية نهاية القرن الثاني للهجرة، وهذه الفترة حسب صاعد دوما اكتفى فيها الأندلسيون بطلب العلوم الدينية وعلوم اللغة، ثم في مرحلة ثانية وإن كانت متأخرة نسبيا عن المشرق أخذ الأندلسيون بالاهتمام بسائر العلوم إلى جانب العلوم الدينية واللغوية، وهذه الفترة تبدأ منذ النصف الثاني من القرن الثالث الهجري[٤].

ثانيًا: مراحل التعليم

كان التعليم في الأندلس خلال العهد الأموي مقسما إلى مرحلتين، الأول هو تعليم الصبا أو ما يسمى في وقتنا الحالي بالتعليم الابتدائي، والثاني يشمل التعلم العالي بالمفهوم الحالي، وفي هذا الصدد يبين ابن خلدون مناهج التعليم عند أهل الأندلس بقوله: (وأما أهل الأندلس فأفادهم التفنن في التعليم، فكانوا لذلك أهل حظ وأدب بارع، على حسبما يكون التعليم الثاني بعد تعليم الصبا)[٥].

المرحلة الأولى: مرحلة تعليم الصبا، حيث كان يستقبل الأطفال الصغار من بداية سن الإدراك إلى غاية سن الرشد كأبعد تقدير، وكان التعليم يقوم في هذه المرحلة أساسا على تحفيظ القرآن الكريم ثم يضيفون إليه دراسة اللغة العربية ورواية الشعر وتعليم الخط الذي اختص بعناية كبيرة، حيث كان أهل الأندلس يراعون في التعليم تحفيظ القرآن أولا، ولا يقتصرون عليه فقط، بل يضيفون إلى مقررات تعليم الصبيان رواية الشعر في الغالب وأخذهم بتعلم اللغة العربية وحفظ أصولها، وتجويد الخط والكتاب، فتكونت لهم بذلك ملكة صاروا بها أعرف في اللسان العربي، وكانت هذه جملة العلوم التي يبتدئ بها أهل الأندلس في تعليم الصبية لكونها سندا لتعلم العلوم الأخرى وتحصيلها، وانقطاع آفاق الأندلس عما سواها[٦].

المرحلة الثانية: كان التعليم في هذه المرحلة يختص بمن فوق سن الرشد، وقد ساروا على نفس منهج المرحلة السابقة، ولكن بشكل أعمق وأكثر تدقيقا، واختص بعضهم بعلم يدرسه دون غيره من بقية العلوم، ويشير آسين بلاثيوس إلى أن الأندلس أيام الحكم الأموي كانت تدين بفكرة الحرية الخالية من قيود النظام الرتيب سواء في تعليم العلوم النقلية أو العقلية، فكان كل إنسان يختار بنفسه الشيخ الذي يريده، حتى إذا أخذ منه تركه إلى غيره في نفس الناحية أو ناحية أخرى.[٧]

ثالثًا: مقررات التعليم

أول ما لاحظناه حول هذه المقررات في البداية أنها أخذت أساسها ومضامينها من المصنفات والكتب المشرقية، كنتيجة مباشرة للرحلات العلمية الأندلسية إلى حواضر المشرق، وما حملته معها من زاد معرفي وفكري كان الأساس ليس فقط في مناهج التعليم ومقرراته، بل لبنات قامت عليها نهضة الأندلس الفكرية والحضارية في مختلف الجوانب.

في علوم القرآن: كان منهج الأندلسيين يقوم في البداية على حفظ القرآن الكريم وتعليمه إيثارا للتبرك والثواب، وخشية ما يُعرَض للولد من جنون الصبا من الآفات والقواطع عن العلم فيفوته القرآن، لأنه ما دام في الحجر منقادا للحكم، فيغتنمون في زمان الحجر وربقة الحكم تحصيل القرآن لئلا يذهب خلوا منه[٨]. وفي المراحل المتقدمة اعتمدوا على مصنفات المشارقة بشكل كبير وتداولوها بينهم، ومن أهم المصنفات التي تدارسها الأندلسيون في هذا المجال كتاب معاني القرآن للزجاج ومؤلفات أبو عبيد القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ) مثل كتاب فضائل القرآن، وكتاب السبعة لأبي بكر بن مجاهد[٩]، وفي التفسير ثمة نوعان يتناولان أساسا نصوص القرآن الكريم: الأول التفسير اللغوي الذي يدرس الجمل والكلمات لفظا وكل ظروفها اللغوية والنحوية ومعانيها، والثاني التفسير التشريعي الذي يتصل بمعاني النصوص وأسباب نزولها واستنباط أحكامها وذكر المتشابه منها[١٠]، وكانت الأندلس خلال عهودها الأولى تعتمد في مجال التفسير على الكتب التي تصلها من المشرق حسبما بيناه في التأثيرات المشرقية التي حملتها الكتب التي تصلها، وانكب اهل الأندلس على دراسة وتعليم تفسير ابن جرير والطبري بالخصوص[١١]، وغيرها من كتب التفسير المنسوبة إلى ابن عباس والحسن البصري وغيرهم[١٢].

في الفقه: كان إقبال الطلاب في الأندلس على دراسة هذا الفرع من المعرفة أكثر من إقبالهم على بقية المواد الأخرى، لعله كان يتيح لهم الفرصة كي يتولوا المناصب العليا والوظائف الهامة في الدولة، دينية أو مدنية كالفقهاء المشاورون والمساعدين والقضاة والكُتَّاب والخطباء وغيرها من الوظائف التي كانت موقوفة على الفقهاء[١٣]. واختصت الأندلس بفقه الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة، وحمل الرعيل الأول من علماء الأندلس المرتحلين إلى المشرق فقهه وقاموا بنشره وتدريسه في الأندلس، وصار منذ أوائل القرن الثالث للهجرة المرجع الأساسي إن لم يكن الوحيد في الدراسات الفقهية[١٤]، ولذلك اعتنى الأندلسيون بدراسة موطأ مالك، واقتصروا على دراسة وسماع المصنفات المشرقية في فقه مالك ومن أشهرها كتاب الفقيه ابن المواز في الفقه المالكي وكتاب شرح المختصر للأبهري وكتاب الإختلاف لابن المنذر النيسابوري وكتاب الزاهي في الفقه لأبي إسحق بن شعبان وغيرها[١٥]، ثم في مرحلة لاحقة ظهرت مؤلفات أندلسية في فقه مالك بن أنس، تلقفها الناس بالحفظ والدراسة، من أشهرها واضحة ابن حبيب ومستخرجة العتبي[١٦].

في علوم اللغة: أما في يخص الدراسات اللغوية وما اشتملت عليه من نحو ونثر وشعر، ففي النحو جمع أهل الأندلس بين كتب المشارقة كسيبويه والخليل الفراهيدي وكتب الجاحظ وتدارسوها[١٧]، وبين كتبهم الخاصة التي ألفها أندلسيون مثل مؤلفات جودي بن عثمان النحوي (ت١٩٨ هـ) وابن القوطية (ت٣٦٧ هـ) وأحمد بن الحسن الزبيدي الذين كانت كتب اللغة أكثر ما تُقرأ عليهم وتُؤخذ عنهم[١٨]، ويظهر اهتمام الأندلسيين بعلم النحو في تصديهم لدراسة الكتب التي ألفها المشارقة وبخاصة كتاب سيبويه حيث كان موضع العناية أكثر من غيره، وصار احترام العالم بالأندلس وقفا على ما يعرف من علم النحو ويحفظ من أدق خصائصه وأصغر تفاصيله، ومن لا يريد ألا يُعدَّ متأخرا أو بليدا عليه أن يتفرغ لعلم النحو وعلوم اللغة عامة، وكانت الأندلس في العصر الأموي مهيأة تماما لأن تتم فيها هذه الدراسات على نحو أفضل مما يجري في كل البلاد الإسلامية الأخرى، لأن الصبيان كانوا يتلقون مبادئ النحو واللغة في المرحلة الابتدائية وهذا ما كان يؤهلهم جيدا لدراسة النحو واللغة في مرحلة الدراسات العليا، لأنهم يتمكنون من القدرة اللغوية عمليا في سن مبكرة[١٩]. وكان إعداد الطالب في الأدب على نحو جيد يتطلب منه أن يدرس المؤلفات المشرقية من دواوين شعراء الجاهلية وأمهات الكتب الأدبية مثل كتاب الكامل للمبرد ومؤلفات أبو علي القالي وكتاب النوادر بخاصة وديوان المتنبي وغيرهم[٢٠]

في مجال الطب: عرفت الأندلس أطباء مسلمين ونصارى ويهود اعتمدوا في الجانب الأكبر من دراستهم الأولية على المبادئ التي انتهى إليها أندادهم في المشرق وجيء بها إلى شبه الجزيرة الايبيرية[٢١]، وكانت دراسة الطب تتم تحت إشراف طبيب متمكن، يصحب الطلاب معه في زياراته العادية للمرضى من زبائنه، أو يحضر الطلاب الفحوص التي يجريها في منزله ومن هنا يتاح للطلاب أن يروا عمليا ما كانوا قد درسوه نظريا في الكتب، وقد استنتج خوليان ريبيرا طريقة تعلم الطب في الأندلس من مخطوطة موجودة في مكتبة الإيسكوريال لمحمد التميمي الطليطلي، وتحتوي على مذكرات تطبيقية وكان يُعتَقَد – دون شك – أن الطب خلال العهد الأموي كان يدرس في المدارس العالية، وحسب المخطوط فإن الطريقة المعتادة كانت تتم على النحو التالي:

يفحص الطبيب المريض عندما يُعرض عليه، ثم يدعو الطالب لكي يفحصه أيضا، ثم يتبادل الأستاذ والطالب الأسئلة والملاحظات، وفي النهاية يكتب الطبيب العلاج، وكثيرا ما كان الأستاذ يسأل الطالب عما يعرفه عن المرض موضع الفحص والدراسة، ثم يفسر له ما استعصى عليه في الفحص، وأي شيء يواجه الطالب في التشخيص أو العلاج ويصعب عليه فهمه يسأل الأستاذ عنه، ثم يلقي الأستاذ الدرس، على نحو ما يحدث الآن في المحاضرات[٢٢]. كما ينبغي أن نشير إلى أن الأطباء وحدهم كانوا يَدرُسون ويُدرِّسون علم النبات والأحياء والعلوم الطبيعية الأخرى، إذ كان عليهم أن يقوموا في الوقت نفسه بعمل الصيدلي وأن يُعدوا الدواء من الأعشاب والعقاقير[٢٣].

في مجال العلوم الرياضية: مثل الحساب والجبر والهندسة وغيرها، فكان تدريسها لذاتها أحيانا، أو لتطبيقها فيما تتطلبه الحياة اليومية من حساب في التجارة أو تقسيم الأراضي وحساب الخراج والضرائب وضبطها وغير ذلك، وكان تدريس هذه المواد يتم عن طريق رسائل ألفها علماء أندلسيون وشاع استخدامها في المدارس مثل أبو عبيدة المعروف بصاحب القبلة، ويحي بن يحي المعروف بابن السمينة وأبو القاسم أصبغ بن السمح الغرناطي وغيرهم[٢٤].

رابعًا: المؤسسات التعليمية

تنوعت الأمكنة المخصصة للتعليم وإلقاء الدروس في الأندلس خلال العهد الأموي، خاصة وأن التعليم كان حرا لا

دخل للسلطة فيه، فكان الأساتذة يلقون دروسهم حيثما اتفق، ولعل أهم المؤسسات التعليمية كانت:

٤/١-المساجد

لم يكن المسجد في يوم من الأيام مقصورا على الصلاة فحسب، بل كان مجمعا للمسلمين للتشاور في الأمور السياسية والقضايا ذات الأهمية المحلية، وفيه تعلن أوامر وقرارات الحكام وهو مكان مفتوح للعامة، وفضلا عن ذلك يُقدم للطلاب مكانا متسعا ومهيأ للتعليم والدراسة، لذلك تركز التعليم في ذلك العصر بشكل أساسي في المساجد، إذ كانت نواة المدينة الإسلامية في العصر الوسيط، واتخذت من طرف المسلمين في تسيير شؤونهم العامة والخاصة، وأظهر مثال على هذا استخدام المسلمين لمساجدهم دورا للقضاء والتعليم، وكانت تقام بها حلقات العلم والدرس والفتوى وغيرها في جميع أمصار البلاد الإسلامية في مختلف صنوف العلم والمعرفة الدينية والدنيوية[٢٥].

وكان المسجد في بلاد الأندلس مثل غيره من البلاد الإسلامية في ذلك العصر المركز الأول والأهم للعلم لعدم وجود مدارس مختصة لهذا الغرض بعد، وقد ذكر المقري أن الأندلسيين كانوا يقرؤون جميع العلوم في المساجد بأجرة[٢٦]، وقد كان العدد الكبير للمساجد المتواجدة في بلاد الأندلس دافعا حقيقيا للحركة العلمية، لقربها من مراكز السكان الذين لا يجدون مشقة في التنقل لطلب العلم إلا للمراحل المتقدمة، وهو إسهام مباشر من الدولة في تهيئة قسم من أماكن التعليم في ذلك الوقت، ومما هو معروف أن المسجد الواحد كان يضم العديد من حلق العلم والدراسة في وقت واحد، ما يشير إلى كثرة وتنوع هذه الحلق وشموليتها.

ونظرًا لهذه الأهمية الكبير للمساجد في حياة المسلمين اتجهت عناية الأمويين إلى إنشاء المساجد الجامعة في الأندلس وأسرفوا في الإنفاق عليها وتهيئتها وتوسيعها، والتي اضطلعت بأدوار طلائعية في مجال التعليم، وتشهد المصادر المختلفة التي أرخت لهذه الفترة بالدور البارز الذي قدمه الأمويون في هذا المجال بدءا بمؤسس الدولة عبد الرحمن الداخل الذي أقام أسس مسجد قرطبة الجامع الذي تداول خلفاؤه من بعده على توسعته والزيادة فيه حتى غدى في أواخر أيامهم من أهم معالم الحضارة الإسلامية ليس في الأندلس وحدها بل في ربوع العالم الإسلامي كله[٢٧]. وفي خضم النشاط العلمي الذي عرفته الأندلس في عهد عبد الرحمن الأوسط كثر بناء المسجد في كامل الأندلس، وتنافس رجال القصر ونساؤه في هذا، وتوسعن في الإنفاق على أبواب الخير والعلم، وأقمن مساجد عديدة في مناطق مختلفة من الأندلس كمسجد طروب ومسجد فخر ومسجد الشفاء ومسجد متعة ومسجد البهاء ومسجد شعاع وغيرها[٢٨].

كما ذكر ابن عذارى أن عدد مساجد قرطبة وحدها بلغ في عهد عبد الرحمن الناصر ثلاثة آلاف مسجد[٢٩]، بينما يذكر ابن الدلائي أن عدد مساجد قرطبة بلغ أربعمائة وإحدى وتسعون مسجدًا[٣٠]، ولعل تضارب تقديرات المؤرخين والرواة راجع إلى اختلاف الفترات الزمنية التي عاين فيها كل واحد منهم قرطبة، ولا يبدو لنا أن عدد مساجد قرطبة الذي بلغ أكثر من ثلاثة آلاف مسجد إبان ازدهارها عدد مبالغ فيه، إذ كان في بغداد في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة أكثر من ثلاثين ألف مسجد[٣١]، خاصة أن قرطبة في القرن الرابع هجري كانت أعظم مدينة بالغرب الإسلامي وليس به من يشابهها لا في المغرب ولا الشام ولا مصر حسب وصف ابن حوقل الذي زارها سنة ٣٣٧هـ/٩٤٨م، حيث ذكر له بعض المرتحلين إلى بغداد أنها كأحد جانبي بغداد[٣٢]، وفي هذا ما يعزز صحة كلام ابن عذارى حول مساجدها.

ولما كانت قرطبة حاضرة الخلافة وموطن الخليفة ودار الملك كانت كذلك قطب الرحى في النشاط العلمي، فقط حظي جامعها بشهرة علمية لا تدانى، حيث ضم بين أروقته حلقات العلم والدرس، وقد بالغ الأمويون في الإنفاق عليه وتوسعته وتهيئته حتى صار قبلة للعلماء وطلاب العلم، ومما يؤكد هذا الطابع العلمي لجامع قرطبة أن المصادر التي تناولت تاريخ الأندلس وتراجم علمائه تشير إليه وإلى جامع الزهراء التي بناها عبد الرحمن الناصر باعتبارهما أحد أهم المراكز العلمية التي يجتمع فيها العلماء ويفد إليها طلاب العلم بالأندلس، فقد كان الأديب اللغوي أبو علي القالي يجلس في جامع الزهراء كل يوم خميس ويجتمع إليه طلاب العلم ليكتبوا عنه كتاب الأمالي إملاء[٣٣]، ولما رجع أبو مروان الطبني من رحلته المشرقية إلى الأندلس واستقر بقرطبة وجلس للإملاء اجتمع إليه خلق كثير قدر عددهم بألف طالب، ولا يسع هذا العدد إلا مسجد قرطبة أو الزهراء في ذلك الوقت[٣٤]، وغيرهم العديد من حلق العلماء المشهورين في شتى مجالات العلم والمعرفة الذين اتخذوا من مسجد قرطبة مركزًا لنشر العلم والتدريس والإملاء[٣٥].

وشهدت المساجد بقرطبة وجميع مساجد المدن والحواضر الأندلسية الأخرى نفس الحركة والزخم اللذان عرفهما مسجد قرطبة الجامع[٣٦]، وكانت كلها أمكنة للتعلم والدراسة لجميع

الفئات والأعمار، حيث كان بها حلق لتعليم الصبيان[٣٧]، وبالإضافة إلى حلق العلم كانت المساجد تضم مجالسا للمناظرة التي كانت تعقد بحضور العلماء والمفتين[٣٨]، كما زخرت بمجالس الأدب ورواية الشعر وما شابه ذلك[٣٩]، وحفلت كذلك المساجد بمجالس المؤدبين، وحلق الزهاد والصلحاء[٤٠].

٢/٤-المكاتب

امتازت هذه المكاتب بكونها مراكز تعليم أولية مخصصة للصبيان بدرجة كبيرة، وقد اتخذ الحكم المستنصر خطوات جدية في تنظيمها في مسعاه لتعميم التعليم على مختلف طبقات المجتمع، حيث ذكر ابن عذارى أنه اتخذ المؤدبين يعلمون أولاد الفقراء والمساكين القرآن حوالي المسجد الجامع وبكل ربض من أرباض قرطبة، وأجرى عليهم المرتبات، ووزعهم على سبعة وعشرين مكتبا منها حوالي المسجد الجامع ثلاثة، وباقيها في كل ربض من أرباض المدينة، وخصص لهذا الغرض عائدات حوانيت السراجين بقرطبة وأوقفها على معلمي هذه الكتاتيب[٤١].

كما توجد إشارات في تراجم الرجال تشير إلى وجود الكتاتيب قبل عهد المستنصر، وكان يتولاها مجموعة من المعلمين من ذوي المستوى العلمي الحسن، منهم حبيب بن أحمد بن إبراهيم المعلم (ت٣٣٧هـ/٩٤٨م)، ومحمد بن أحمد الزهري (ت٣٢٥هـ/٩٣٦م) الذي كان يجتمع إليه أهل الحسبة والمعلمون ويقرأون عليه[٤٢]، وقد كان بقرطبة وغيرها من الأقاليم عدد من الكتاتيب المنتشرة في ربوعها تضم مؤدبين ومعلمين منهم من اختص في الحساب ومنهم من اختص بالعربية ومنهم بقراءة القرآن وكانوا يعرفون بمؤدبي الكتاب[٤٣]. ولا ندري إن كانت هذه الكتاتيب منظمة وممولة من طرف السلطة الأموية كما كان الحال في عهد الحكم المستنصر، وأنه جرى على ما كان سائدًا قبله، أم أنه خطى خطوة إيجابية في تعزيز تمويل التعليم ونشره عن طريق مسعاه السابق، وفي كلا الحالتين يمكننا القول إن الكتاتيب كانت موجودة بالأندلس على الأقل من بداية القرن الثالث للهجرة، وأنها كانت موجهة خصيصا لتعليم الصبيان.

٣/٤-البيوت الخاصة

لم ينحصر التعليم والتدريس بالمساجد والمكاتب فقط، إذ وجدنا في المصادر إشارات مهمة تفيد بانتشار مراكز التعليم في مواضع أخرى غير المساجد مثل دور العلماء والدكاكين والمكتبات الخاصة وحتى السجون، ولم يمنع اشتغال بعض الشيوخ والمدرسين بمعاشهم على القيام بواجب التدريس، كما كان بعض العلماء على قدر من الثراء يمكنهم من استضافة طلابهم في بيوتهم وحتى الإنفاق عليهم، واشتهرت بعض النساء ممن نبغن في العلم والأدب بعقد مجالس للعلم وحلق للتدريس في بيوتهن[٤٤]. لم تقتصر الدروس المقامة في بيوت العلماء على العلوم الشرعية فقط[٤٥]، بل شملت حتى العلوم العقلية والفلسفية التي حاربها الفقهاء، حيث كثيرا ما رفع هؤلاء أسماء المشتغلين بالعلوم العقلية والفلسفية بهدف توقيفهم أو طردهم من البلاد كما فعل المنصور بن أبي عامر مع محمد بن أبي بردة الشافعي الذي طرده من الأندلس بعد اتهامه بالاعتزال واشتغاله بعلم الفلسفة[٤٦].

وكان لأبي وهب عبد الرحمن العباسي (ت ٣٤٤هـ) حلقة خاصة تضم مجموعة من الطلاب الذين تحلقوا حوله لطلب العلم، ولم يكن يقبل غيرهم خوفا من اتهامه بالزندقة عند الحاكم[٤٧]، واشتهر محمد بن عبد الله بن مسرة (ت ٣١٩ هـ)، بعقد حلقة منعزلة بجبل قرطبة شاع ذكرها بين الناس الذين توافدوا عليه لأخذ طريقته في الزهد، إلا أنه لم يكن يعلم فلسفته إلا لبعض خواصه من الطلاب لنفس الأسباب السابقة[٤٨]. وكان محمد بن يحي الرباحي (ت ٣٥٨ هـ) يلزم التأديب في داره، حيث يجتمع إليه الطلاب في داره ويقرأون عليه كتاب سيبويه، وكان يعقد كل جمعة مجلسًا للمناظرة حول هذا الكتاب[٤٩]، وكان طلبة العلم يختلفون إلى يوسف بن عمروس المني في داره للسماع منه[٥٠]، واستعمل ابن ملوكة النصراني الذي عاش أواخر عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر بيته لمداواة الناس، فكان له مخبر خاص في بيته يستقبل فيه المرضى والطلاب حتى جعل على باب داره ثلاثين كرسيًا ينتظر عليهم رواده[٥١]، وفي طليطلة اشتهر أحمد بن سعيد بن كوثر الأنصاري باستقبال طلبته في بيته، وكانوا يزيدون على الأربعين طالبًا، وقد خصص لهم قاعة مفروشة لهذا الغرض[٥٢].

٤/٤-مجالس القصور

كان بلاط الحكام الأمويين بالأندلس يعج بالعلماء في الكثير من التخصصات خاصة أهل الشعر والأدب، وذلك لكون الحكام الأمويين محبين للشعر وأهله، وفي ذلك أورد المقري كلامًا ذكر فيه أن الشعر عند أهل الأندلس له حظ عظيم، وللشعراء من ملوكهم وجاهة، ولهم عليهم وظائف، والمجيدون منهم ينشدون في مجالس ملوكهم المختلفة[٥٣]، وهو الأمر الذي جعل هذه البلاطات من أكبر المؤسسات العلمية في ذلك الوقت، يلتقي فيها العلماء ويتبادلون الأفكار ويتناظرون، كما كان مدرسة لأبناء الأمراء والخلفاء، يعلم فيها أكابر علماء وفقهاء الأندلس على الإطلاق، فقد استأدب الأمير الحكم الأول لبنيه المقرئ أبوعبد الله محمد بن عبد الله الذي لقي الإمام

ورش أثناء رحلته إلى المشرق[٥٤]، كما كان الفقيه يحي بن يحي الليثي أقرب الناس إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط، ولما توفي قرب إليه عبد الملك بن حبيب، وكان المنجم الشاعر عبد الله بن الشمر من أخص خواصه أيضًا[٥٥].

أما بلاط عهد الخلافة فكان من الناحية العلمية أشهر وأعظم من العهد السابق، فهذا الخليفة عبد الرحمن الناصر استأدب لابنه محمد بن يحي بن عبد السلام النحوي المعروف بالرباحي، ثم استخدمه بعد ذلك الخليفة الحكم المستنصر بمكتبته العظيمة التي كان مقرها القصر الخلافي[٥٦]، وغير هؤلاء من العلماء والأدباء كثيرون كان يعج بهم بلاط الخلافة مثل الشاعر إسماعيل بن بدر بن إسماعيل (ت٣٥١هـ) وشاعر الناصر ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد، والفقيه الشافعي أحمد بن عبد الوهاب بن يوسف المعروف بابن صلى الله[٥٧]. كما كان أبو علي القالي البغدادي (ت٣٥٦هـ) ينشط المجالس الأدبية في حضرة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر، وكان البغدادي الآخر أبو العلاء صاعد بن الحسن اللغوي (ت٤١٠هـ) من أشهر رواد مجالس المنصور بن أبي عامر وكان هذا الأخير لا يستغني عنه في مجالسه وكان به فخورًا[٥٨]، كما استأدب المنصور بن أبي عامر أيضا النحوي حسين بن وليد بن نصر المعروف بابن العريف (ت٣٩٠هـ) لأبنائه وكان يحضر مجالسه الخاصة بالقصر[٥٩].

خامسًا: تمويل التعليم

لا يسعنا أن نقدم صورة واضحة المعالم عن طرق تمويل التعليم في الأندلس خلال هذه الفترة من التاريخ، إذ أن النصوص على قلتها في هذا الميدان لم تورد إلا شذرات متفرقة من خلالها توصلنا إلى أن تمويل التعليم في الأندلس اتخذ شكلين:

الشكل الأول من التمويل هو التمويل الرسمي من قبل السلطة السياسية المتمثلة في البيت الأموي، وهذا التمويل لم يكن منتظمًا بصفة قانونية ودائمة، وإنما كانت مساهمات تندرج أغلبها في باب المكافآت والتكرم على أهل العلم وطلبته، إذ كان إكرام العلماء وقضاء حوائجهم وتشجيعهم بالإعانات المالية في تلك الأزمنة من الأمور الجارية في محافل العلم والأدب، ولما كان الأمراء والخلفاء على قدر واسع من الثقافة والمعرفة فما بخلوا بما عندهم من دولة مستقرة وخزينة عامرة لرعاية الحركة العلمية التي أخذت منذ عهد عبد الرحمن الأوسط انطلاقة حقيقية وظهرت طلائعها بوضوح، والواقع أن الإمكانات المادية ما كانت تنقصه لدفع هكذا حركة حضارية بقوة نحو التقدم، فقد ترك له والده الحكم خزينة عامرة بالمال، ومصادر دخل على درجة كبيرة من الدقة والتنظيم بلغت وارداتها السنوية حسب بعض المصادر أكثر من ألف ألف دينار أي أكثر من مليون دينار ذهبي[٦٠]، بينما بلغت في عهد عبد الرحمن الناصر وبالتحديد سنة ٣٤٠هـ/٩٥١م حسب ابن حوقل الذي كان متواجدا بالأندلس في هذه الفترة حوالي عشرين ألف ألف دينار ذهبي، أي حوالي عشرون مليون دينار ذهبي[٦١]، ما جعل الدولة الأموية في هذ الفترة من أغنى دول البحر المتوسط، وهذا الغنى كان له انعكاس على ازدهار الأندلس الحضاري.

وعلى الرغم من وجود نصوص متناثرة في ثنايا المصادر تنبئ عن بعض الإتجاهات التي كانت سائدة آنذاك نحو طلبة العلم والعلماء، إلا أنها على قلتها لا تكفي للجزم بحقيقة وكيفية وطرق تمويل التعليم في الأندلس، فقد ذكر عن هشام بن عبد الرحمن أنه من شدة رغبته في تشجيع طلبة العلم وعمارة المساجد كان يبعث صرر الأموال في الليالي إلى المساجد لتعطى لمن وجد بها في ذلك الوقت[٦٢]، كما التزم الأمير عبد الرحمن الأوسط إكرام أهل العلم من الفقهاء والأدباء والشعراء وأدنى منازلهم وأجزل عطاياهم وأقطعهم الأراضي وبنى لهم الدور[٦٣]، وأجرى على المؤدبين الذين اشتغلوا بتربية وتعليم أبنائه الأرزاق السنية والنفقات الشهرية[٦٤]، وكان الأمير المنذر بن محمد (٢٧٣-٢٧٥هـ/٨٨٦-٨٨٨م) على رغم قصر عهده سخيا مكرما لأهل العلم، مقربا ومكرما لكل من أخذ بحظ من علم أو أدب[٦٥].

كما أكرم الحكم المستنصر وفادة العلماء الطارئين على الأندلس مثل الحكم بن محمد بن هشام القرشي المقرئ القيرواني الذي وفد إلى الأندلس في أول ولاية المستنصر بعد رحلته المشرقية، فوصله الحكم وأكرمه وأجرى عليه العطاء في ديوان قريش إلى أن مات، كما عرض على حباشة بن حسن اليحصبي القيرواني جراية من أجل أن يجلس للفتيا، وقرب مكانة عبيد الله بن عمر القيسي الشافعي القادم من بغداد وأنزله وتوسع له في الجراية إلى أن مات سنة ٣٦٠هـ/٩٧٠م، كما أكرم المستنصر وفادة الفقيه الشافعي محمد بن أحمد البغدادي (ت٣٧٣هـ/٩٨٣م) الذي قدم الأندلس سنة ٣٦١هـ/٩٧١م وتوسع له في الجراية، واستقدم الحكم المستنصر محمد بن عيسى بن رفاعة إلى قرطبة كما أسلفنا بعد قدومه من المشرق وأوسع عليه الجراية وسمع منه[٦٦]، ورفع منزلة العديد من الوافدين إلى الأندلس في عهده[٦٧]، كما أجزل العطاء للمؤلفين على

مؤلفاتهم وتصانيفهم في كل العلوم، وبلغت عطاياه وصلاته إلى فقهاء الأمصار النائية عنه[٦٨].

وفي مستعرض حديث ابن عذارى عن منجزات الحكم المستنصر ذكر أنه اتخذ المؤدبين يعلمون أولاد الفقراء والمساكين القرآن حوالي المسجد الجامع وبكل ربض من أرباض قرطبة، وأجرى عليهم المرتبات، وخصص وقفا لهذا الغرض، حيث حبَّس الحكم المستنصر حوانيت السراجين بقرطبة على معلمي الكتاتيب التي افتتحت لتعليم أولاد الفقراء والمساكين[٦٩]._ويندرج في مجال التمويل كذلك مسألة توفير أماكن التعليم والتي كانت متمثلة أساس في المساجد، ونظرا لهذه الأهمية الكبيرة للمساجد في حياة المسلمين عامة وفي مسألة التعليم خاصة اتجهت عناية الأمويين إلى إنشاء المساجد الجامعة في الأندلس وأسرفوا في الإنفاق عليها وتهيئتها وتوسيعها، والتي اضطلعت بأدوار طلائعية في مجال التعليم، وتشهد المصادر المختلفة التي أرخت لهذه الفترة بالدور البارز الذي قدمه الأمويون في هذا المجال بدءا بمؤسس الدولة عبد الرحمن الداخل الذي أقام أسس مسجد قرطبة الجامع الذي تداول خلفاؤه من بعده على توسعته والزيادة فيه حتى غدى في أواخر أيامهم من أهم معالم الحضارة الإسلامية ليس في الأندلس وحدها بل في ربوع العالم الإسلامي كله[٧٠]._وفي خضم النشاط العلمي الذي عرفته الأندلس في عهد عبد الرحمن الأوسط كثر بناء المسجد في كامل الأندلس، وتنافس رجال القصر ونساؤه في هذا، وتوسعن في الإنفاق على أبواب الخير والعلم، وأقمن مساجد عديدة في مناطق مختلفة من الأندلس كمسجد طروب ومسجد فخر ومسجد الشفاء ومسجد متعة ومسجد البهاء ومسجد شعاع وغيرها[٧١].

والشكل الثاني هو التمويل الشعبي، حيث شارك الاندلسيون بما قدروا عليه في هذا الميدان، وانتقل الأمر من الإنفاق المالي إلى تحبيس الكتب أو الدور وما له علاقة بالعلم على أهله وطلابه، حيث قام قاسم بن حامد الأموي بتحبيس كتبه بعد وفاته[٧٢]، وجعل أصبغ بن مالك (ت٢٩٩هـ/٩١١م) داره بقرطبة حبسا على القراء والمتنسكين ومن كانت رغبته العلم[٧٣]، كما أوصى موسى بن سليمان الأموي (ت٢٩٣هـ/٩٠٥م) بتحبيس كتبه لأهل العلم وكان كثير الجمع للكتب[٧٤]، وحذا حذوه العديد من العلماء حيث حبس يحيى بن عبد العزيز الخراز كتبه على أهل العلم[٧٥]، وكانت كتب هارون بن سالم القرطبي (ت٢٣٨هـ/٨٥٢م) موقفة عند أحمد بن خالد (ت٣٢٢هـ/٩٣٤م)[٧٦].

ولم يكن تشييد المساجد حكرا على الحكام، إذ شارك كل من في مقدوره بناء المساجد في هذا، إذ تذكر المصادر أن نساء القصر شاركن في هذا، كما شارك العديد من أهل الأندلس في بناء المساجد، وممن أشارت إليهم المصادر غانم بن الحسن الذي ابتنى مسجدا في إشبيلية، وأبو شيبة القاضي الذي ابتنى مسجدا جامعا في إستيجة[٧٧].

سادسًا: طرائق التعليم

من الملاحظ أن هذه الأساليب والطرق كانت معتمدة بالمشرق الإسلامي، وعلى أساسها تتلمذ الأندلسيون المرتحلون إلى حواضر المشرق، وعادوا ليعلموا بنفس الطرق التي تلقوا بها العلم[٧٨]، على أن هذه الطرق في التعليم غير منفصلة عن بعضها تماما ولا يمكن أن يستقل أحدها دون الحاجة إلى ضرب آخر يعين ويكمل الأول تماما، فالسماع لا يمكن أن يتم دون كتابة، إلا لذوي الحفظ القوي، وحتى المناولة والكتابة على الشيخ لا يختلفان كثيرا من حيث مضمونهما عن السماع والإملاء وتقييد المسموعات عن الشيخ في كتاب، ويمكننا أن نقسم هذه الطرق إلى:

٦/١-السماع:

هو أول شكل من أشكال التعليم وأكثر الطرق شيوعا في هذا المجال، وينقسم إلى إملاء وتحديث، سواء كان من حفظ المعلم أو قراءة من كتابه، وقد اعتمد لدى الكثير من أهل العلم في تلقين علومهم لطلبتهم[٧٩]، وصورة السماع أن يقرأ الشيخ من أصول كتبه أو من حفظه والطلبة يتابعون كلام شيخهم من أصوله المنسوخة أو من كتب المشايخ التي يروي عنهم[٨٠]. وقد اشتهر السماع في الأندلس خلال هذا العهد، وسمع الناس من علماء عصرهم[٨١]، خاصة من المشهورين القادمين من المشرق إلى الأندلس، وكانت كثرة الطلبة وازدحامهم على شيخ واحد من أهم أسباب توجههم إلى هذا الضرب من التلقين[٨٢]، حيث كانت الرحلة العلمية عامل جذب للطلبة والناس عامة نحو الشيوخ، فبمجرد أن يحل أحد الأندلسيين القادمين من المشرق بأرضهم حتى يتوافد الناس عليهم للسماع منهم، وكان جلهم لا يأبى الجلوس للسماع، كما كانت صفاتهم الخلقية تلعب دورًا هامًا في عدد طلابهم، إذ كلما اشتهر الشيخ بطيب الخلق وبلاغة اللسان وكرم المجالسة وحسن معاملة الناس وتقريب الطلبة والتواضع كثر مرتادوا مجلسه، والعكس صحيح[٨٣].

٦/٢-القراءة على الشيخ:

وتسمى كذلك العرض، وهي الشكل الثاني الأكثر تواترا في هذا المجال، وهي على ثلاثة أوجه، الأولى قراءة طالب العلم على الشيخ أو قراءة مُسمِع غيرهما والطلبة والشيخ يسمعان،

والثاني قراءة الشيخ على الطالب سواء كان الشيخ يقرأ ما يحفظ أو يمسك أصله المدون، والثالث أن يدفع الشيخ إلى الطالب كتابه والطالب يقرأ في أصل الشيخ والأخير يسمع ويصحح، ويذهب أهل العلم أنها في نفس مرتبة السماع، من حيث الاستدلال بلفظ الشيخ، وهو مذهب مالك وأهل المدينة[٨٤].

وتطالعنا المصادر بأمثلة كثيرة في هذا المجال، منهم عبد الله بن محمد الثغري (ت٣٨٣هـ) الذي قدم من المشرق وجلس للناس بقرطبة فقرأوا عليه أكثر رواياته، وقرأ عليه ابن الفرضي كتاب معاني القرآن للزجاج وأخذ إجازته عليه وعلى جميع روايته إجازة عامة[٨٥]، وممن قرأ الناس عليه كثيرا عباس بن أصبغ بن عبد العزيز (ت٣٨٦هـ)، لما اشتهر عليه من شدة ضبطه لكتبه وحسن روايته، كما ذكر ابن الفرضي في كتابه عددا كبيرا من الشيوخ الذين لقيهم وقرأ عليهم منهم أحمد بن عبادة المرادي (ت٣٧٨هـ) الذي قرأ عليه الكتاب الكامل بروايته عن سعيد بن جابر[٨٦]، وقد اشتهر هذا النوع من التلقين وصار وسيلة ناجعة إذا قل طلاب الشيخ وانفرد به الطلاب، وخاصة في مجال القرآن إذ كان أنجع وسيلة لحفظ القرآن وضبطه[٨٧].

٣/٦-المناولة

(وهي أن يدفع الشيخ كتابه الذي رواه أو نسخة منه وقد صححها أو أحاديث من حديثه وقد انتخبها وكتبها بخطه أو كتبت عنه فعرفها فيقول للطالب: هذه رواياتي فاروها عني ويدفعها إليه، أو يقول له خذها فانسخها وقابل بها ثم اصرفها إلي، وقد أجزت أن تحدث بها عني أو اروها عني، أو يأتيه الطالب بنسخة صحيحة من رواية الشيخ أو بجزء من حديثه فيقف عليه الشيخ ويعرفه ويحقق جميعه وصحته ويجيزه له، وهو عند مالك وجماعة من العلماء بمنزلة السماع)[٨٨]، وفي هذا الصدد اشتهر محمد بن وضاح بكونه أسمح الناس بإجازة الكتب[٨٩].

٤/٦-الكتابة

وصورتها أن يسأل الطالب الشيخ أن يكتب له شيئا من حديثه، أو يبدأ الشيخ بكتاب ذلك للطالب بحضرته أو من بلد آخر، وليس في هذا إذن ولا طلب للحديث بها عنه[٩٠]، وجاء ذكر الكتابة في مصادر الأندلس خلال هذا العهد، واشتهر الكثير من العلماء بهذا، فقد كتب الناس كثيرا عن أحمد بن عون بن تبيع البزاز القرطبي (ت٣٧٨هـ)، وكتب ابن الفرضي عن أحمد بن عبد الله المعروف بابن العنان (ت٣٨٣هـ) علما كثيرا واشتهر بشدة ضبطه لكتبه وصحتها، جيد التقييد لما روى، واشتهر حكم بن محمد بن هشام القرشي بقراءة القرآن وتعليمه، وكتب الناس عنه الحديث، وكان عبد الحميد بن محمد الزهيري (ت٣٨٠هـ) يحدث والناس تكتب عنه، وكان يجيز على العموم جميع ما رواه[٩١]. ويبدو من هذا الكلام أن شيوخ الأندلس تساهلوا قليلا في مسألة نقل العلم والإجازة، لكن من المنصف أن نشير أن العديد من علماء الأندلس كانوا حريصين على سماع ما انتسخه الطلاب تفاديا لأي خلل يقع منهم قبل أن يجيزوهم[٩٢].

٥/٦-الإملاء

من أشهر الطرائق التي عرفها الناس لتلقي العلم في تلك الأزمنة، بدأت كظاهرة صوتية مسموعة ومرتجلة ثم تطورت مع الحركة العلمية والفكرية وصارت تدون وتنسخ، وصورتها أن يجلس العالم وحوله الناس من طلبة العلم وغيرهم بالمحابر والقراطيس فيتكلم العالم بما فتح الله عليه ويكتبه الناس عنه فيصير كتابا ويسمونه الإملاء أو الأمالي، وقد شكلت هذه الأمالي موسوعات علمية وأدبية في مختلف المجالات وقد عرف منها في المشرق الكثير[٩٣]، وفي الأندلس أشهرها أمالي القالي الذي كان يملي في جامع الزهراء بحضور طلبة العلم والعلماء وغيرهم[٩٤]، وكان يحيى بن مالك بن عائذ (ت٣٧٦هـ) يملي بجامع بقرطبة[٩٥]، كما أملى صاعد البغدادي كتابه المسمى بالفصوص في جامع الزاهرة سنة ٣٨٥هـ بأمر من المنصور وبحضور جماعة من أهل الأدب وعامة الناس[٩٦]، وأملى ثابت شرح كتاب الجمل للزجاجي بحضور غفير من طلبة العلم والعوام[٩٧].

ولما رجع أبو مروان الطبني من رحلته المشرقية إلى الأندلس واستقر بقرطبة وجلس للإملاء اجتمع إليه خلق كثير قدر عددهم بألف طالب، ولا يسع هذا العدد إلا مسجد قرطبة أو الزهراء في ذلك الوقت[٩٨]، وكانت بعض حلق الإملاء تستدعي وجود قارئ من ذوي الصوت الجهوري يتولى مهمة القراءة على الشيوخ خاصة في الحالات التي كان يبلغ عدد رواد مجالس الإملاء عددا كبيرا لدرجة يتعذر أن يصل الصوت لآخرهم، واشتهر بالأندلس العديد من هؤلاء منهم على سبيل المثال لا الحصر عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري وعبد الله بن محمد بن أبي دليم[٩٩].

٦/٦-المناظرة

لا توضح النصوص الموجودة بين أيدينا هذا الأسلوب بشكل كاف، بل تكتفي المصادر بالإشارة إلى وجود المناظرة كأسلوب تعليمي في الأندلس خلال هذا العهد دون تفصيل آخر، وبالرجوع إلى التفسير اللغوي للكلمة نذهب إلى أنها كانت تتم بين الأقران المتساوين في العلم، حيث يتناظر المشايخ مع أقرانهم من المشايخ، وطلبة العلم مع أقرانهم وهكذا دواليك،

حيث جاء في لسان العرب ما مفاده: (أن تناظر أخاك في أمر إذا نظرتما فيه معا كيف تأتيانه، والنظير هو المثيل والشبيه، ويقال ناظرت فلانا أي صرت نظيرا له في المخاطبة)[١٠٠]. وتتضح بعض الجوانب حول المناظرة في هذا العهد فيما ورد عند ابن بشكوال عن عبد الله بن أحمد بن عثمان (ت٤١٧هـ) فقد (كان يبدأ في المناظرة بذكر الله عز وجل والصلاة على محمد (ﷺ) ثم يورد الحديث والحديثين والثلاثة والموعظة، ثم يبدأ بطرح المسائل من غير الكتاب الذي كانوا يناظرون عليه فيه)[١٠١].

ومن الشواهد الأخرى التي ذكرت في المصادر حول المناظرة ما جاء عند ابن الفرضي الذي ذكر اجتماع بعض الفقهاء والشيوخ عند يحيى بن زكريا بن سليمان (ت٣١٥هـ) لعلو باعه في العلم ومكانته بين الخاصة والعامة للسماع منه والمناظرة عنده، وكانت هناك حلقة عند قاسم بن خلف الجبيري (ت٣٧١هـ) يجتمع عنده ويناظر عليه في الفقه، كما اختصت مجالس قاسم بن أحمد المعروف بابن أرفع رأسه (ت٣٩٣هـ) بالمناظرة في الفقه، وشاعت المناظرة في الفقه بين علماء الأندلس[١٠٢].

سابعًا: الإجازة العلمية

هي عبارة عن إذن في الرواية لفظا أو كتابة، واحتاج الناس إليها عندما تم تدوين كتب الحديث، ولم يتيسر لكل محدث أن يعقد مجلس القراءة، كما كان من الصعوبة لكل طالب أن يطيل القيام عند الشيخ، ليسمع منه جميع مروياته فأجازوا لمن أحضر كتابا قد قوبل على نسخة الشيخ أن يروي عنه ولو لم يسمع منه[١٠٣]، وهي عبارة عن شهادة تتيح للطالب رواية الحديث والفتوى والتدريس خاصة إذا آنس من نفسه العلم والمقدرة على ذلك[١٠٤]، ولم تختص الإجازة بالعلوم النقلية، بل صارت ملزمة لكل عالم في كل فن وعلم أن يجيز طلبته الرواية عنه[١٠٥].

اشتهر في بلاد الأندلس وجهان من أوجه الإجازة، الأولى الإجازة على العموم كأن يجيز الشيخ للطالب على العموم دون تخصيص ولا تعيين لكتب أو أحاديث كقوله قد أجزت لك جميع رواياتي أو ما صح عندك من رواياتي[١٠٦]، وورد ذكر هذا النوع من الإجازة في المصادر الأندلسية دون تفاصيل كثيرة، أشهرها الإجازات التي تحصل عليها ابن الفرضي في مساره العلمي، والتي أوردها في كتابه كلما مر على ترجمة شيخ من شيوخه، منها ما حصل عليها مشافهة من شيوخه مباشرة، ومنها ما حصل عليها بشكل كتابي[١٠٧].

والوجه الثاني الإجازة على العموم من غير تعيين المجاز له، وهي المخصوصة والمعلقة بقول العالم أجزت لمن لقيني أو لكل من قرأ علي العلم أو لمن كان من طلبة العلم أو لأهل كذا ونحوها، أو تكون مطلقة كقول العامل أجزت لجميع المسلمين ونحوها[١٠٨]، ومن أشهر علماء الأندلس ممن أجاز جميع روايته وكتبه إجازة عامة مطلقة محمد بن وضاح، وقد ذكر جماعة ممن حضره عد الموت قوله: (ليحفظ عني من حضر وليعلم به من لم يحضر أن كل من سمع مني وجالسني فقد أجزت له كل كتاب عندي فليحدث به عني)[١٠٩]، وفي نفس السياق اعتبر عبد الرحمن بن أحمد بن بقي بن مخلد السماع عنه إجازة، وكذلك فعل أبوه وجده قبله، وذلك لما سمع الناس منهم كثيرًا[١١٠].

أما في حالة غياب صاحب الكتاب أو العالم سواء لعلة أو وفاة أو نحوهما دون أن يترك إجازة لأحد، يلجأ طالب العلم إلى أهل الاختصاص الذي يتطابق ومضمون العلم الذي يريد أن يُجاز فيه، فإذا أراد علم الحديث قصد علماء هذا العلم، أو أراد الإجازة في علوم الفقه ذهب إلى أعلام ذلك العصر في هذا التخصص وهكذا، فيقرأ عليهم الكتب المعنية بهذا العلم ويحصلوا منهم على إجازتهم، على خلفية أن تخصصهم في هذا النوع من العلوم أو ذاك قد أهلهم لأن يكونوا مرجعية في ذلك العلم، وصار لهم الحق في الإجازة والتفويض لغيرهم[١١١]، وهنا تبرز أهمية الإجازة في الحفاظ على الحقائق والمضامين والتأكد من عدم التزوير، لذلك حرص المجيزون على إيداع الإجازة في مضانها الأمين والموثوق في صدور العلماء الأمناء وعقولهم[١١٢].

وعلى الرغم من أن بعض علماء الأندلس منح إجازته لكل الراغبين في علمهم وأجازوا لطلبة العلم نقل أصولهم ومروياتهم وسماعهم سماعا وكتابة، وفي حين أجاز بعض العلماء طلبتهم على السماع فقط[١١٣]، حرص آخرون على الحصول على مستحقات مالية مقابل السماح بنقل مؤلفاتهم وعلومهم، واشترطوا أجرًا على السماع والإملاء[١١٤]، وبينما كان بعض العلماء يصبر على الإملاء والقراءة ويواظب الجلوس لهذا الغرض، كان آخرون حريصين على وقتهم لا يجلسون للإملاء إلا لماما[١١٥]، واشتهر عن بعض علماء الأندلس تشددهم في منح إجازتهم للطلاب إلا بعد السماع والقراءة، وحجتهم في ذلك أن لا يترك الناس مجالس العلماء ويقنعوا بنسخ الكتب ومقابلتها لما فيها من أخطاء وسهو قد تقع على عاتق صاحب الكتاب[١١٦].

خَاتِمَةٌ

من خلال ما سبق يمكننا أن نخلص إلى ما يلي:

لم تكن الحركة التعليمية في الأندلس خلال هذا العهد منفصلة عن سابقها، ولم تختلف عن غيرها من الأقطار الإسلامية، إذ كانت امتدادا لما كان معمولا به في المشرق الإسلامي، حيث حمل الأندلسيون معهم المؤثرات المشرقية بعد عودتهم من رحلاتهم العلمية، وساروا على نهجها.

كغيرها من الأمصار الإسلامية لم يكن في الأندلس في هذا العهد نظام تعليمي يضم مجموعة من القوانين الرسمية والتشريعات التي تضعها السلطة السياسية لتسيير شؤون التعليم، لأن التعليم حتى هذا العصر لم يتخذ شكلاً رسميًا تشرف عليه الدولة من خلال مؤسسات متخصصة، وإنما وجدت مجموعة من الأعراف والتقاليد التي وضعت من قبل المجتمع العلمي والتي تكونت من خلال الممارسة والتطبيق العملي وصارت تشبه إلى حد بعيد القوانين المكتوبة.

انقسم التعليم في الأندلس خلال هذا العهد إلى مرحلتين، الأولى مرحلة تعليم الصبيان وهي مرحلة ابتدائية تعنى بتعليم النشأ القرآن الكريم ومبادئ اللغة العربية والحساب، والمرحلة الثانية وهي مرحلة متقدمة بإمكان الطالب فيها أن يتخصص في علم معين وأن يختار الشيخ الذي يريده فيأخذ عنه، ولم تتحدد هذه المرحلة بسن معين، إذ انكب بعض الطلبة على طلب العلم إلى سن متقدمة.

اهتم الأندلسيون بكل أصناف العلوم النقلية منها والعقلية، واعتمدوا في بداية الأمر على مؤلفات المشارقة ومصفاتهم في دراسة هذه العلوم، وكانت هذه الكتب هي موضوع الدرس في أحيان كثيرة، ثم في مرحلة لاحقة استغنى الأندلسيون بمؤلفاتهم التي فاقت في أحيان كثيرة نتاج المشارقة أنفسهم.

تعددت المؤسسات التي احتضنت الحلق التعليمية في الأندلس، وعلى رأسها المسجد الذي كان نواة المدينة الإسلامية، والذي ضم إلى جانب أدواره العديدة الحلق التعليمية المختلفة ومجالس المناظرة وحلق الزهاد والصلحاء، وتأتي المكاتب في المرتبة الثانية من حيث الأهمية، نظرا لاضطلاعها بتربية النشأ وتعليمه، إذ كانت المحطة الأولى في مسار التعليم في الأندلس، بالإضافة إلى بيوت العلماء التي كانت مسرحا لحلق العلم ومجالس المناظرة في شتى أصناف العلوم، دون أن ننسى مجالس القصور التي حرص الأمويون على تزويدها بخيرة علماء عصرهم لتأديب أبنائهم وولاة عهودهم.

نظرًا لعدم وجود مؤسسات رسمية مكلفة بشؤون التعليم في الأندلس، لم يكن هناك تمويل رسمي وقار للتعليم، حيث انقسم التمويل إلى نوعين وكلاهما كان اختياريا، الأول هو التمويل الرسمي المقدم من قبل السلطة السياسية، وهذا التمويل لم يكن ثابتا ومقننا، وإنما كان يخضع في أحيان كثيرة للمناسبات التي يجتهد فيها الأمويون في إظهار كرمهم وعنايتهم بالعلم والعلماء، والثاني هو التمويل الشعبي الذي شارك فيه الخواص بما قدروا عليه من أموالهم وكتبهم وبيوتهم.

اشتهرت في الأندلس نفس الطرق والأساليب التعليمية التي كانت معتمدة في بلاد المشرق، مثل السماع والإملاء والقراءة على الشيخ والكتابة والمناولة والمناظرة، وقد اختار كل شيخ الطريقة التي يراها مناسبة لتلقين علومه لطلابه، وهذا الاختيار يرجع أساسًا إلى عدد الطلاب من حيث القلة والكثرة ونوع المادة المدروسة وغيرها.

كانت الإجازة العلمية هي خاتمة مسعى الطلاب عند شيوخهم ومطلبًا أساسيًا في مسعاهم الدراسي يجتهدون في الحصول عليها من شيوخهم، وهي بمثابة شهادة تتيح للطلاب رواية علم شيخهم، كما تتيح لهم التصدي للتدريس والفتوى وما شابه ذلك، وكانت تمنح الإجازة بشكلين إما مشافهة أو كتابة أو بكليهما.

الاحالات المرجعية:

(١) مختار عمارة، **مساهمة الأسرة الأموية في النهضة الفكرية والعلمية في الأندلس**، مجلة الحقيقة، جامعة أدرار-الجزائر، مج:١٩، عدد:٠١، مارس ٢٠٢٠م، ص ص:١٧٤ وما بعدها.
(٢) محمد بن حارث الخشني، **أخبار الفقهاء والمحدثين**، (د.ط)، تح: ماريا لويسا آبيلا ولويس مولينا، مدريد: المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، ١٩٩١م، ص ص:٣٢، ٣٩، ٢٣٨ ؛ عبد الله بن محمد ابن الفرضي، **تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس**، ط:٠٢، تح: عزت العطار الحسيني، القاهرة: مطبعة المدني، ١٩٨٨م، ج:٠٢، ص:٢٠٢ ؛ محمد بن الحسن الزبيدي، **طبقات النحويين واللغويين**، ط:٠٢، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، (د.ت)، ص:٣١١؛ خلف بن عبد الملك ابن بشكوال، **الصلة**، ط:٠١، تح: إبراهيم الأبياري، القاهرة: دار الكتاب المصري بالاشتراك مع دار الكتاب اللبناني ببيروت، ١٩٨٩م، ج:٠١، ص ص:٣٠، ٧٢، ٧٣، ١٤٢، ١٤٣ ؛ ج:٠٣، ص:٩٩٠ ؛ محمد بن عبد الله ابن الأبار، **التكملة لكتاب الصلة**، ط:٠١، تح: بشار عواد معروف، تونس: دار الغرب الإسلامي، ٢٠١١م، ج:٠٤، ص ص:٢٢٥، ٢٢٦، ٢٣٣.
(٣) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج:٠٢، ص:٢٧.
(٤) صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسي، **طبقات الأمم**، تح: لويس شيخو اليسوعي، بيروت: المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، ١٩١٢م، ص:٦٢.
(٥) عبد الرحمن ابن خلدون، **المقدمة**، (د.ط)، مر: سهيل زكار، بيروت: دار الفكر، ٢٠٠١م، ص: ٧٤٢.
(٦) ابن خلدون، المصدر نفسه، ص ص: ٧٤٠، ٧٤١.
(٧) آسين بلاثيوس، **ابن عربي حياته ومذهبه**، تح: عبد الرحمن بدوي، القاهرة: المكتبة الأنجلو مصرية، ١٩٥٦م، ص: ١٢١.
(٨) ابن خلدون، المصدر السابق، ص: ٧٤٠، ٧٤٣.
(٩) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج:٠١، ص ص:١٩٩، ٢٤١، ٢٨٦.
(١٠) ابن خلدون، المصدر السابق، ص ص: ٥٥٤، ٥٥٥.
(١١) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج:٠٢، ص ص: ٢٠٦، ٢٠٧.
(١٢) ابن الفرضي، المصدر نفسه، ج:٠١، ص ص:١٦٥، ٢١٥، ٣٠٢ ؛ ج:٠٢، ص ص:١٨٥، ١٨٦.
(١٣) خوليان ريبيرا، **التربية الإسلامية في الأندلس**، ط:٠٢، تر: الطاهر أحمد مكي، بيروت: دار المعارف، ١٩٩٤م، ص: ٥٤،
(١٤) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج:٠١، ص ص:٣٨٧، ٤١٣ ؛ أحمد بن محمد المقري، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، (د.ط)، تح: إحسان عباس، بيروت: دار صادر، ١٩٨٨م ، ج:٠٢، ص ص:٤٥، ٤٦.
(١٥) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج:٠١، ص ص:٢٩، ٣٣، ٤٥، ١٠٨، ١٠٩، ٣٠١ ؛ ج:٠٢، ص ص:٧٨، ١٢٢، ١٢٣.
(١٦) ابن الفرضي، المصدر نفسه، ج:٠٢، ص:١٣٠ ؛ الخشني، **أخبار الفقهاء**، ص:٢٤٨.
(١٧) ابن الفرضي، المصدر نفسه، ج:٠١، ص ص:٣٤٦، ٣٩٣، ٤٠٢، ٤٠٣ ؛ ج:٠٢، ص:٣١ ؛ الزبيدي، المصدر السابق، ص:٣١١.
(١٨) محمد بن أبي نصر فتوح الحميدي، **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**، مصر: الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م، ص: ١٧٧.
(١٩) ريبيرا، المرجع السابق، ص: ٦٠،
(٢٠) ريبيرا، المرجع نفسه، ص: ٦٤،
(٢١) ابن صاعد الأندلسي، المصدر السابق، ص ص: ٨٠، ٨١.
(٢٢) ريبيرا، المرجع السابق، ص- ص: ٦٦ - ٦٨.
(٢٣) سليمان بن حسان ابن جلجل، **طبقات الأطباء والحكماء**، ط:٠٢، تح: فؤاد سيد، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥م، ص:١١٣ ؛ ريبيرا، المرجع السابق، ص: ٦٨.
(٢٤) المقري، المصدر السابق، ج: ٠٣، ص: ٣٧٥ ؛ ريبيرا، المرجع السابق، ص: ٧٢، ٧٣.
(٢٥) محمد عبد الوهاب خلاف، **وثائق في شؤون العمران في الأندلس المساجد والدور**، ط:٠١، القاهرة: المركز العربي الدولي للإعلام، ١٩٨٣م، ص:٦٤ ، حسين مؤنس، **المساجد**، (د.ط)، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨١م، ص ص:٣٠، ٣١.
(٢٦) المقري، المصدر السابق، ج:٠١، ص:٢٢٠.
(٢٧) السيد عبد العزيز سالم، **المساجد والقصور في الأندلس**، (د.ت)، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، (د.ت)، ص ص: ١٢، ١٣.
(٢٨) حيان بن خلف ابن حيان، **السفر الثاني من كتاب المقتبس**، ط:٠١، تح: محمود علي مكي، الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ٢٠٠٣م، ص ص:٢٨٧، ٢٨٨، ٣٠٤، ٣٠٥؛ ابن الأبار، التكملة، ج:٠٤، ص ص:١٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٩.
(٢٩) ابن عذارى المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ط:٠٢، تح: ج.س كولان وليفي بروفينصال، بيروت: دار الثقافة، ١٩٨٠م، ج:٠٢، ص:٢٣٢.
(٣٠) أحمد بن عمر ابن الدلائي، **نصوص عن الأندلس**، (د.ط)، تح: عبد العزيز الأهواني، مدريد: منشورات معهد الدراسات الإسلامية، (د.ت)، ص:١٢٤.
(٣١) أحمد بن إسحق اليعقوبي، **البلدان**، (د.ط)، بيروت: دار الكتب العلمية، (د.ت)، ص:٤٣.
(٣٢) أبو القاسم بن حوقل النصيبي، **صورة الأرض**، (د.ط)، بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٩٢م، ص ص: ١٠٤، ١٠٧، ١٠٨.
(٣٣) ابن بشكوال، المصدر السابق، ج:٠٣، ص:٩٤٢.
(٣٤) الحميدي، المصدر السابق، ص:٢٨٥.
(٣٥) الخشني، **أخبار الفقهاء**، ص:١١٧؛ ابن الفرضي، المصدر السابق، ج:٠١، ص ص:٢١١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٥٢، ٢٦٢، ٢٨٢ ؛ ج:٠٢، ص:١٩١؛ ابن بشكوال، المصدر السابق، ج:٠١، ص:١٤٠.
(٣٦) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج:٠١، ص ص:٨٦، ١٩٧؛ ج:٠٢، ص:١٣١؛ وانظر أيضًا: سعد عبد الله صالح البشري، **الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس**، الرياض: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، ١٩٩٧م، ص:١٤١.
(٣٧) الحميدي، المصدر السابق، ص:١٠٢.

(٣٨) الخشني، **أخبار الفقهاء**، ص ص:٢٦، ٢١٦، ٣٦٣؛ ابن حيان، المقتبس، س: ٠٢، تح: مكي، ص:٢٢٦؛ ابن الفرضي، المصدر السابق، ج:٠٢، ص:٧٧؛ خلاف، المرجع السابق، ص ص:٦٣، ٦٤.
(٣٩) محمد بن الحارث الخشني، **قضاة قرطبة**، ط:٠٢، تح: إبراهيم الأبياري، القاهرة: دار الكتاب العربي بالاشتراك مع دار الكتاب اللبناني ببيروت، ١٩٨٩م، ص:١٤٩.
(٤٠) الزبيدي، المصدر السابق، ص:٢٩٠؛ الخشني، **أخبار الفقهاء**، ص:٢٢٧؛ ابن بشكوال، المصدر السابق، ج:٠١، ص:٢٨١.
(٤١) ابن عذارى، المصدر السابق، ج: ٠٢، ص: ٢٤٩.
(٤٢) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج:٠١، ص:١٤٧؛ ج:٠٢، ص:٤٧.
(٤٣) ابن الفرضي، المصدر نفسه، ج:٠١، ص ص:١٩٩، ٢٠٢، ٢٠٧، ٢٦٧، ٢٧٧، ٣٨٣، ج:٠٢، ص:١٥٣.
(٤٤) الخشني، **أخبار الفقهاء**، ص ص:٣٢، ٣٩، ٢٣٨؛ ابن الفرضي، المصدر السابق، ج:٠٢، ص:٢٠٢؛ الزبيدي، المصدر السابق، ص:٣١١؛ ابن بشكوال، المصدر السابق، ج:٠١، ص ص:٣٠، ٧٢، ٧٣، ١٤٢، ١٤٣؛ ج:٠٣، ص:٩٩٥؛ ابن الأبار، **التكملة**، ج:٠٤، ص:٢٢٥، ٢٢٦، ٢٣٣.
(٤٥) الخشني، **أخبار الفقهاء**، ص:٣٢، ٣٨، ٢٣٨؛ الزبيدي، المصدر السابق، ص:٣١١.
(٤٦) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج: ٠٢، ص: ١١٦،
(٤٧) علي بن موسى ابن سعيد، **المغرب في حلى المغرب**، ط:٠٤، تح: شوقي ضيف، القاهرة: دار المعارف، (د.ت)، ج: ٠١، ص: ٥٨،
(٤٨) كارل بروكلمان، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، تر: نبيه أمين ومنير البعلبكي. ط: ٠٥، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٨م، ص: ٣٠٠، ٣٠١.
(٤٩) الزبيدي، المصدر السابق، ص: ٣١١.
(٥٠) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج: ٠٢، ص: ٢٠٢.
(٥١) ابن جلجل، المصدر السابق، ص: ٩٧.
(٥٢) ابن بشكوال، المصدر السابق، ج:٠١، ص:٧٣.
(٥٣) المقري، المصدر السابق، ج: ٠١، ص: ٢٢.
(٥٤) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج: ٠٢، ص: ٠٨.
(٥٥) ابن الفرضي، المصدر نفسه، ج: ٠٢، ص: ١٧٦، ١٧٧، ٢٦٨.
(٥٦) المصدر نفسه، ج: ٠٢، ص: ٧١، ٧٢،
(٥٧) المصدر نفسه، ج: ٠١، ص: ٥٩، ٨٠؛ الحميدي، المصدر السابق، ص: ١٦٣.
(٥٨) المقري، المصدر السابق، ج: ٠٣، ص: ٧٧، ٧٨.
(٥٩) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج: ٠١، ص: ١٣٥.
(٦٠) ابن سعيد، المصدر السابق، ج:٠١، ص:٤٦؛ المقري، المصدر السابق، ج:٠١، ص:٣٤٨.
(٦١) ابن حوقل النصيبي، المصدر السابق، ص:١٠٧.
(٦٢) مجهول، **أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم**، ط:٠٢، تح: إبراهيم الأبياري، القاهرة: دار الكتاب المصري بالاشتراك مع دار الكتاب اللبناني ببيروت، ١٩٨٩م، ص:١١٠؛ ابن عذارى، المصدر السابق، ج:٠٢، ص:٦٦.
(٦٣) ابن حيان، المقتبس، **السفر**:٠٢، تح: مكي، ص:٢٩٨؛ إبراهيم بن علي ابن فرحون، **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**، (د.ط)، تح: محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة: دار التراث للطبع والنشر، (د.ت)، ج:٠٢، ص:٣٦١.
(٦٤) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج:٠١، ص: ٣٤٦؛ ابن حيان، **المقتبس**، س:٠٢، تح: مكي، ص ص:٣٨٣، ٣٨٤.
(٦٥) محمد بن عمر ابن القوطية، **تاريخ افتتاح الأندلس**، ط:٠٢، تح: إبراهيم الأبياري، القاهرة: دار الكتاب المصري بالاشتراك مع دار الكتاب اللبناني ببيروت، ١٩٨٩م، ص:١١٣.
(٦٦) الخشني، **أخبار الفقهاء**، ص:١٧٨.
(٦٧) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج:٠١، ص ص:١٤٣، ١٥٣، ٢٩٥، ٢٩٧، ٣٦١؛ ج:٠٢، ص ص:٩٥، ١١٦، ١١٧.
(٦٨) حيان بن خلف ابن حيان، **المقتبس في أخبار بلد الأندلس**، (د.ط)، تح: عبد الرحمن علي حجي، بيروت: دار الثقافة، ١٩٦٥م، ص ص:١٣٣، ١٣٤؛ محمد بن عبد الله ابن الأبار، **الحلة السيراء**، ط:٠٢، تح: حسين مؤنس، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٥م، ج:٠١، ص ص:٢٠١، ٢٠٢.
(٦٩) ابن عذارى، المصدر السابق، ج: ٠٢، ص: ٢٤٠، ٢٤١.
(٧٠) سالم، المرجع السابق، ص ص: ١٢، ١٣.
(٧١) ابن حيان، **المقتبس**، س:٠٢، تح: مكي، ص ص:٢٨٧، ٢٨٨، ٣٠٤، ٣٠٥؛ ابن الأبار، **التكملة**، ج:٠٤، ص ص:١٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٩.
(٧٢) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج:٠١، ص:٤٠٢.
(٧٣) الخشني، **أخبار الفقهاء**، ص:٣٩.
(٧٤) الخشني، المصدر نفسه، ص:١٨٩.
(٧٥) المصدر نفسه، ص:٣٧٤.
(٧٦) ابن حيان، **المقتبس**، س:٠٢، تح: مكي، ص:٢٢١.
(٧٧) الخشني، **أخبار الفقهاء**، ص ص:٢٩٢، ٣٣٦.
(٧٨) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج:٠١، ص:٣١٣، ٣١٤، ٣٣٥، ٣٨٣؛ ج:٠٢، ص:١٩٤ ؛ الخشني، **أخبار الفقهاء**، ص:٢٤٨.
(٧٩) عياض بن موسى اليحصبي، **الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع**، ط:٠٢، تح: السيد أحمد صقر، القاهرة: دار التراث بالاشتراك مع المكتبة العتيقة بتونس، (د.ت)، ص:٦٩.
(٨٠) الخشني، **أخبار الفقهاء**، ص:١٠٤.
(٨١) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج:٠١، ص:٦٨، ٧٠.
(٨٢) ابن الفرضي، المصدر نفسه، ج:٠١، ص:٣٥٩؛ ج:٠٢، ص:٩٥؛ الخشني، **أخبار الفقهاء**، ص:١٠٣.
(٨٣) الخشني، **أخبار الفقهاء**، ص:١٠٣.
(٨٤) اليحصبي، المصدر السابق، ص:٧٠، ٧١، ٧٤، ٧٦؛ ابن الفرضي، المصدر السابق، ج:٠١، ص:٢٧٢.
(٨٥) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج:٠١، ص:٢٨٥، ٢٨٦.
(٨٦) ابن الفرضي، المصدر نفسه، ج:٠١، ص:٦٨، ٣٤٣.
(٨٧) المصدر نفسه، ج:٠١، ص:٣٤٥، ٣٨٠.
(٨٨) اليحصبي، المصدر السابق، ص:٧٩.
(٨٩) الخشني، **أخبار الفقهاء**، ص:٢٤.
(٩٠) اليحصبي، المصدر السابق، ص:٨٣، ٨٤.
(٩١) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج:٠١، ص ص:٦٨، ٦٩، ١٤٤، ٣٣٥.

(٩٢) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج:٠١، ص:٢٨٦.
(٩٣) حبيب الزيات، **الوراقة والوراقون في الإسلام**، (د.ط)، بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٩٤٧م، ص:٠٧؛ حاجي خليفة، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، (د.ط)، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د.ت)، ج:٠١، ص:١٦١ وما بعدها؛ خير الله سعيد، **موسوعة الوراقة والوراقين في الحضارة العربية الإسلامية**، ط:٠١، بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، ٢٠١١م، مج:٠١، ج:٠٢، ص:٢٦٨.
(٩٤) الحميدي، المصدر السابق، ص:١٦٥؛ ابن بشكوال، المصدر السابق، ج:٠٣، ص:٩٤٢.
(٩٥) الحميدي، المصدر نفسه، ص:٣٨٠.
(٩٦) ابن بشكوال، المصدر السابق، ج:٠١، ص:٣٧١.
(٩٧) أحمد بن يحيى الضبي، **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس**، ط:٠١، تح: إبراهيم الأبياري، القاهرة: دار الكتاب المصري بالاشتراك مع دار الكتاب اللبناني ببيروت، ١٩٨٩م، ج:٠١، ص:٣١٠.
(٩٨) الحميدي، المصدر السابق، ص:٢٨٥.
(٩٩) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج:٠١، ص:٢٧١، ٢٧٢؛ الحميدي، المصدر السابق، ص ص:٢٥٦، ٢٥٧.
(١٠٠) ابن محمد بن مكرم منظور، **لسان العرب**، (د.ط)، تح: عبد الله علي الكبير وآخرون، القاهرة: دار المعارف، (د.ت)، مج:٠٦، ج:٤٩، ص: ٤٤٦٦ وما بعدها، مادة نظر.
(١٠١) ابن بشكوال، المصدر السابق، ج:٠٢، ص:٤٠٤.
(١٠٢) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج:٠١، ص ص:٤١١، ٤١٣؛ ج:٠٢، ص ص:١٤٨، ١٨٦.
(١٠٣) محمد ضياء الرحمن الأعظمي، **معجم مصطلحات الحديث ولطائف الأسانيد**، ط:٠١، الرياض: مكتبة أضواء السلف، ١٩٩٩م، ص:٠٨.
(١٠٤) مصطفى عبد الكريم الخطيب، **معجم المصطلحات والألقاب التاريخية**، ط:٠١، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٦م، ص ص:١٨، ١٩.
(١٠٥) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج:٠٢، ص:١٩٣.
(١٠٦) اليحصبي، المصدر السابق، ص:٩١.
(١٠٧) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج:٠١، ص ص:٦٨، ٦٩، ١٤٢، ٢٨٤، ٢٨٨، ٢٨٩، ٣٠٨، ٣١٠، ٣٨٣.
(١٠٨) اليحصبي، المصدر السابق، ص:٩٨.
(١٠٩) الخشني، **أخبار الفقهاء**، ص:٢٤.
(١١٠) الفرضي، المصدر السابق، ج:٠١، ص:٣٠٦.
(١١١) الفرضي، المصدر السابق، ج:٠٢، ص:١٩٧، ١٩٩؛ ابن بشكوال، المصدر السابق، ج:٠٢، ص:٤٨٩، ٤٩٠، ٧٠٥.
(١١٢) سعيد، المرجع السابق، مج:٠١، ج:٠٢، ص- ص:٢٨٥ - ٢٨٧.
(١١٣) الفرضي، المصدر السابق، ج:٠١، ص ص:٦٩، ٧٠، ٧٢، ٧٣، ١٧٩، ١٨٠، ٢٢٧، ٢٨٣، ٢٨٤، ٣٠٦.
(١١٤) الفرضي، المصدر السابق، ج:٠١، ص:٤٠٤؛ الحميدي، المصدر السابق، ص:٨٥.
(١١٥) ابن الفرضي، المصدر السابق، ج:٠١، ص:٨٢، ٢٨٥، ٢٨٦.
(١١٦) الخشني، **أخبار الفقهاء**، ص:٢٤.

Researches
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

A Sixteenth-Century Enslaved Moor in the New World
The Story of Estebanico Al-Zamori Reconstructed in Laila Lalami's The Moor's Account



LAHOUCINE Aammari
PhD researcher
University of Sultan Moulay Slimane
Beni-Mellal, Morocco.



Dr. Brahim AIT IZZI
Ph.D. holder in History
Mohammed V University
Rabat, Morocco.

ABSTRACT

The Spanish relacións tell us that Estebanico/Mustafa was a slave, that he was a Moor from the town of Azemmour on the Atlantic coast of Morocco, that he was captured by the Portuguese, Latinized, Christianized and sold in Spain, and then shipped across the Atlantic to the American Southwest around 1527 as servant and guide, and that he was killed by the Zunis between 1539 and 1540. Although some historians have tried to understand Estebanico in New Spain, these attempts are inscribed within the Spanish master accounts. The latter which are written from the point of view of Fray Marcos or the conquistadors miss the constitutive role of the Moor, who throughout the conquest provided assistance and mapped the colonial road to the New World's pueblos and deserts. Estebanico's story as explorer in Spain's colonial writings is erroneously twisted by the distorting lenses and representational practices of early overseas expansionist aspirations and imperial exigencies. With the aim of disorienting racial aggression, our study is concerned with the analysis of the story of Laila Lalami's Estebanico from a counter-stereotypical discourse far from bias. The research has concluded that by giving voice to this historically marginal explorer and by resurrecting his agency and by raising him to the position of narrator and main protagonist, Spanish enslavement and appropriation, through historical fiction, are vehemently obliterated, offering Estebanico ample opportunities to pen down his own account.

Keywords:
Laila Lalami, The Moor's Account; historical fiction; agency; Estebanico Al-Zamori; historiography; la relacions.

Research info:
Received: 06 January 2021
Accepted: 25 February 2021
DOI: 10.12816/KAN.2021.222759

Citation:
LAHOUCINE Aammari, Brahim AIT IZZI, "A Sixteenth-Century Enslaved Moor in the New World: The Story of Estebanico Al-Zamori Reconstructed in Laila Lalami's The Moor's Account".- Historical kan Periodical. - Vol. (14) Issue (51); March 2021. Pp. 200 – 208.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: brahim.aitizzy@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

Introduction

The history of events of the "Six-Day War" ("The Third Arab-Israeli War") is widely known. However, opinions about the causes of the outbreak differ. A common position among historians is that the war broke out "accidentally" as a result of the interplay of several misinterpretations of actions. The growing tension of the "Arab Cold War", the hesitation of the great powers, the extremist views of the leader of the Palestine Liberation Organization (PLO), the lack of realistic and balanced analysis of

Since its rise, the novel has sought to make its artistic methods diverse and miscellaneous so that it can give the imagination a continuous attraction, which allows it to open up to many fields of knowledge, literature and art. It is the literary genre that is capable of combining knowledge, pleasure and thinking in life and in all human dimensions. So novelists choose to move in time to construct other choices that reshape our knowledge about historical events, personalities, and issues.

In recent years, many Arab novels have attempted to shed light on prominent personalities in Arab Islamic history such as Ibn Battuta, Ibn Khaldoun, Ibn Arabi, Ahmed Ibn Qasim Al-Hajari (Afokai), Al-Hasan Ibn Mohammed Al-Wazzan Al-Fasi – better known as Leo Africanus ([1600] 1876) – and Estebanico, *inter alia,* by bringing to the fore the biography of these characters in history and fiction so that they can be attractive and real; that is, by making the actual reality that has really been worn in the past by a fictitious framework, these characters can be retrieved and revisited differently by means of imagination, which could be bereft of preconception and stereotyping.

Laila Lalami's *The Moor's Account* (2014) is a good example in this context. Through the deployment of historical fiction, Lalami sheds light on and reconstructs the story of Estebanico Al-Zamori as the main character and protagonist in her historical memoir. Historical fiction, as a contemporary Western literary genre, has its foundations in the early nineteenth century works of Sir Walter Scott and his contemporaries in other national literatures such as the Frenchman Honoré de Balzac, the American James Fenimore Cooper, and a later Russian, Leo Tolstoy, to name the most prominent figures. However, the melding of "historical" and "fiction" in individual works of literature has a long tradition in most cultures; both western traditions as well as Eastern, in the form of oral and folk traditions, which produced epics, novels, plays and other fictional works describe history for contemporary audiences.

This paper explores the way the slave capitalizes on historiography to reconstruct the Western monolithic history. In so doing, the salve's/re-constructor's memory performs a number of roles. It registers the history of the European conquest of La Florida using micro narrative frameworks that underscore outstanding differences from the official record. It is comprised of alternative memories that are marked with slipperiness and ambivalence. With the aim of disorienting racial aggression, this article is concerned with the analysis of the story of Laila Lalami's Estebanico from a counter-stereotypical and hegemonic discourse far from bias. Thus, it can be said to defy the authoritative forces that characterize the discourse of Grand Narratives.[8] The research has averred that by giving voice to this historically marginal explorer and by resurrecting his agency and by raising him to the position of narrator and main protagonist, Spanish enslavement and appropriation, through historical fiction, are vehemently obliterated, offering Estebanico ample opportunities to pen down his own account.

Estebanico Al-Zamori: A Moor in the New World

Laila Lalami was born and raised in Morocco. In 1992, she moved to the USA and got Ph.D. in linguistics from the University of Southern California where she is working for the moment as an associate professor of creative writing. Lalami is the author of four critically and widely acclaimed works of fiction, *Hope and Other Dangerous Pursuits* (2005), *Secret Son* (2009), *The Moor's Account* (2014) and *The Other Americans* (2019). Regarding *The Moor's Account,* it received the 2015 American Book Award, the Arab American Arab Book Award and the Hurston Wright Legacy Award, and was nominated for the Pulitzer Prize and long-listed for the Man Booker Prize, and, recently, she has released her last novel entitled *The Other Americans* (2019). Lalami's award-winning fictional memoir *The Moor's Account* reconstructs the pioneering and epic odyssey of Estebanico, a Moroccan slave who was among the four survivors of the disastrous Spanish Narvaez expedition to Florida in 1527.[1] He is a historical figure, mentioned in Cabeza de Vaca's eyewitness account of that journey during which the members of the expedition were lost in alien North America and separated from their known world until they reached Mexico (New Spain) eight years later.[2]

Lalami is entailed as a historical novelist in this work, as Alessandro Manzoni avers in his *On the*

Historical Novel, to give "not just the bare bones of history, but something richer, more complete. In a way, you want [her] to put the flesh back on the skeleton that is history."[3] J.A. Buckley and W.T. Williams, in their *Guide to British Historical Fiction* (1912), describe historical fiction as "a handmaiden to history proper"[4,] Helen Cam, in *Historical Novels*, describes the historical novel as "a form of literature ancillary to the study of history,"[5] while Ernest Baker, writing in 1968, suggests that "[it] gives us something beyond the scope of the historian." [6]

Diverse colonial writers represent Estebanico as a versatile device in varied attempts to realize the objectives of their writing. Those who incorporate Estebanico into their writings would appear to take license from the in-betweenness of his identity and social status or even to appropriate the African's own creative strategies of representation. Matthew Restall stresses that:

"Africans were ubiquitous not only to the Conquest of Mexico but also to the entire endeavor of Spanish invasion and colonization in the Americas. Because the majority of such Africans arrived as slaves, and because of their subordinate status in the increasingly ethnocentric Castilian worldview, the widespread and central role of blacks was consistently ignored by Spaniards writing about the Conquest."[7]

The novel is a retelling of Spanish conquistador Pánfilo de Narváez's disastrous real-life expedition to Florida in 1528. By 1536, there were only four survivors. Álvar Núñez Cabeza de Vaca's chronicle *La Relación* and other accounts mention the names of everyone except Estebanico, who is relegated to racial (and, in this case, social) classification: "negro." Taking as her starting point Álvar Núñez Cabeza de Vaca's throwaway remark of "Estevanico, an Arab Negro from Azamor" – which demarcates three discrete categories: protagonist, companions, and "negro" – Lalami has created a vivid portrait of the invasion of the New World and the role of black slaves in conquest. Using the tools of historical fiction, Lalami has superbly rectified this omission by penning an account of Mustafa/Estebanico's experiences. Lalami dares to unearth the archive of official history that passed over the testimonies of a Moroccan slave during the Discovery Age.

Closely related to the implication of grand narratives with the creation of desired realities, the narrator sheds light on the related sinister nature of the phenomenon of naming. Upon his loss of his native name and being named Estebanico by the Castilians after they had bought him from the Portuguese traders, he tersely remarks "A name is precious; it carries inside it a language, a history, a set of traditions, a particular way of looking at the world. Losing it meant losing my ties to all those things too. So I had never been able to shake the feeling that this Estebanico was a man conceived by the Castilians, quite different from the man I really was."[9] Being sold to slavery, the Moor is supposed to lose every contact he used to have with his native roots. The displacement of minorities into the whites' world in the context of slavery has wrought an effacement of their local identity.

During the drought of 1520-1521, Mustafa Al-Zamori, who was born around 1500 in Azemmour, was captured by the Portuguese and then sold into slavery to Andres Dorantes, a Spanish nobleman. He was Christianised and baptised Estebanico. [10] The latter is stripped of his name, identity and history; he becomes historyless: Lalami's protagonist manifests: "Estebanico was the name the Castilians had given me when they bought me from Portuguese traders—a string of sounds whose foreignness still grated on my ears. When I fell into slavery, I was forced to give up not just my freedom, but also the name that my mother and father had chosen for me." [11]

Estebanico's transatlantic journey began sometime on 17 June 1527 when five vessels set sail from the western coast of Spain and headed towards America with the aim of governing the provinces of the American Southwest. After a brief stop in Santo Domingo and Cuba some three hundred men landed on April 14, 1528, at a point on the Florida coast that was probably Sarasota Bay. Most of the expedition moved inland, but it soon divided, one part continuing overland and the other seeking the coast. Hostile Indians who almost certainly knew of the fatal results of other encounters with Spaniards decimated the ranks of the Europeans. Practically every hardship endured by explorers plagued them: hunger, thirst, sickness and threats of desertion. Eventually, there remained only four explorers, namely, Cabeza de Vaca, Castillo, Andres Dorantes, and Estevanico, the personal servant or slave of Dorantes. These four survivors spent some six years as slaves of Indians in what is now western Louisiana or eastern Texas. They finally escaped and crossed over the Rio Grande into Mexican territory in 1536. Like Cortez, Antonio de Mendoza, Viceroy of New Spain, constantly sought to discover new regions. The reports brought back by Cabeza de Vaca and his companions naturally inspired new efforts. But Cabeza returned to Europe; Castillo disappears; and the attempt to send out an expedition under Dorantes proved abortive. There remained only

Estebanico whom Mendoza had purchased from Dorantes in order to make sure that there remained in Mexico one of the four survivors. A part of this force, under Fray Marco de Nizza, crossed over into what is now Texas. Estebanico was the guide of this detachment.

The Moor's Account brilliantly captures Estebanico's voice and vision, giving us an alternate narrative for this famed expedition. As this dramatic chronicle unfolds, we come to understand that, contrary to popular belief, black men played a significant part in New World exploration, and that Native American men and women were not merely silent witnesses to it. In Laila Lalami's deft hands, Estebanico's memoir illuminates the ways in which stories can transmigrate into history, even as storytelling can offer a chance at redemption and survival.

Lalami's skill lies in giving Estebanico a voice and a different perspective from that expressed in Spanish accounts. Estebanico, a Christian, also carries another older identity, that of a well-born Muslim, Mustafa ibn Muhammad ibn Abdussalam al-Zamori. As such, he embodies a vanquished people and the suppressed narratives of Europe and the New World.

The fact that, in "New Spain", the Narvaez survivors are welcomed by the governor, Antonio de Mendoza, and the renowned conquistador Herman Cortes, provides an interesting intertextual link to *Shadows of the Pomegranate Tree* by Tariq Ali (1992). Ali's historical novel portrays the old family association of Antonio's father, Don Inigo Lopez de Mendoza, Mayor of Granada, with Spain's Moorish clan, the Banu Hudayl; the book culminates in the victorious and brutal Captain Cortes, having vanquished the Moors, surveying the riches of the New World. This is but one of the many different ways that Andalus "enters into the story of the American empire" (Menocal 2002, loc. 3650 of 4397 Kindle).

To recreate the adventures of Mustafa/Estebanico and to tell a story which is also American, Lalami also studied the landscapes of America and the history of its native American tribes. In an interview, Lalami postulates that "in the fall of 2009, I was reading Anouar Majid's (2009) *We Are All Moors* – a scholarly work on the historical connection between attitudes towards immigrants today and the perception of Moors in the 16th century – when I came across a mention of Estebanico, a Moroccan slave who was said to be the first African explorer of America." [12] She continues on to manifest that she thought she would find out more about Estebanico in Cabeza de Vaca's (2002) *Chronicle of the Narváez Expedition,* but that travelogue only inspired more questions. For example, the other three survivors were all aristocrats – men who typically received better rations and rode horses. But somehow, this slave had managed to survive as well. He quickly became the translator for the Spaniards, the man who made it possible for them to communicate with indigenous people. Still, Estebanico was not able to confirm to the Spanish authorities about the expedition. And Cabeza de Vaca's travelogue mentioned only one indigenous person and no women at all. These silences and lacunae intrigued Lalami, and she wanted to explore them in her novel.

While creating the voice of Estebanico Al-Zamori, Lalami did consider not only who should narrate the story (a 16th -century Arabic-speaking slave from Azemmur), but also why (to tell his own account of the expedition and "correct" the account given of it by the other survivors), and how (in the form of an Arabic travelogue, organized in individual stories):

"I think the truth is very slippery. I like to say you can take the same set of facts and you can shape them into completely different stories, and to me the truth is really on the side of the stories. A fact is something that is independently verifiable, it's something that we know happened. So in 1527 six hundred people departed from Seville, and that was something that was witnessed by a number of people, it's documented. But then truth, the story of what really happened once they got there, we have only one person for it. It's a little grayer there."[13]

Lalami wanted the voice to be genuine, but she didn't want it to feel antiquated, so she had been very careful in her lexical choices. The style of *The Moor's Account* is shaped to resemble sixteenth-century travelogues. To give the impression of historical authenticity without making the novel inaccessible to contemporary readers, Lalami decided to use words that belong to the register of the sixteenth century, but are still in use today. She avoided contractions because they appear too modern.

The novelist opens her story by referring to the temporal space of her account. Contrary to the unexpected deployment of the Western Gregorian Calendar which dominates Western narratives, she opts for Arabic (lunar Muslim) Hijri calendar. In Islamic history, Hijri date literally started to be in use since the first migration of Muslims from Mecca to Medina in an attempt to escape the persecution of the infidels. The account begins like this: "It was the year 934 of the Hegira, the thirtieth year of my life,

the fifth year of my bondage." [14] Therefore, from the very onset, the writer accents the existence of another different subjectivity, apparently non-European slave, using a different historical prism to approach the story of today's US. Clearly put, difference is said to destabilize the purported singularity of narration and purity of knowledge as well as unitary thought as claimed by Western history. Thus, this inherited History is open up to dialogic negotiation. The once-excluded subject re-enters History to re-inscribe his/her living difference. Iain Chambers remarks that today we live "in a world in which the unity of knowledge and power meets with resistance and is being interrupted, challenged and decentered." [15]

Lalami's key interest was to hear a character whose voice has been suppressed and obliterated. She didn't think of him as embodying anyone else's story but his own. At the outset of the novel, Estebanico points out that

"I intend to correct details of the history that was compiled by my companions, the three Castilian gentlemen known by the names of Andrés Dorantes de Carranza, Alonso del Castillo Maldonado, and especially Álvar Núñez Cabeza de Vaca, who delivered their testimony, what they called the Joint Report, to the Audiencia of Santo Domingo. The first was my legal master, the second my fellow captive, and the third my rival storyteller. But, unlike them, I was never called upon to testify to the Spanish Viceroy about our journey among the Indians." [16]

Lalami asserts that the Moroccan slave is mentioned five times as "Estebanico", but often he is referred to simply as "the negro". There are no physical descriptions of him and only one line of biography ("The fourth [survivor] is Estebanico, an Arabic-speaking Negro from Azemur"). Cabeza de Vaca acknowledges Estebanico's role as a translator, but he also says that having someone translate for the three other aristocrats was a way for them to assert their power vis-à-vis indigenous tribes.

The novelist assures her reader that she has to create Estebanico in the same vein as she would any other character. Still, she had to operate under certain constraints: "he had to be from Azemmur; he had to be schooled in Arabic; he had to be in Seville by 1527; and he had to be young enough and hardy enough to be useful to his master on such an arduous expedition. Everything else was the work of imagination."[17] The novelist manages to get into the mind and heart of a person who goes through an incredible journey and to witness his successive transformations, from the prosperous Mustafa in Morocco, to penury and slavery as Estebanico. This is followed by his encounter with the New World where he and his masters are the lost in an unknown territory and enslaved by Indians: so the definitions between Spanish master and Moorish slave fall away. He then falls on his own resources and comes to be known among the Indians as a legendary healer but when he reaches New Spain, he is not given his freedom.

In her novels, Lalami asserts that she faces a lot of challenges:

"One of my biggest challenges was that some of the native American tribes that the survivors lived with are now extinct, and the only sources we have on them were written by Spanish conquerors. I had to tread very lightly with that material, as I didn't want to sink into stereotypes commonly found in these kinds of writings. In my novel, I tried to focus on specific native American characters, rather than on whole tribes, and I gave them all names, families, stories and, I hope, agency." [18]

Whether "black or white, master or slave, rich or poor, man or woman," Mustafa writes in the introduction to his story (more properly, a series of stories at times rejecting the rigidity of chronological order), we all want to "survive the eternity of darkness."[19] This is, of course, Lalami's voice playing with her protagonist's and telling us of the fears and the courage of those who practice the religion of writing, and rather than being victimized by viewing its goals dogmatically, celebrate the adventure of telling the "truth in the guise of entertainment."[20] According to Laila Lalami, Mustafa/Estebanico seemed to be a thoroughly modern man, because of his ability to negotiate cultures – Arab, Spanish, American Indian. What did this signify in the sixteenth century? Lalami emphatically points out:

"I think of Mustafa/Estebanico as a globalized man, a man who had to live in different countries, but also a man who had to reinvent himself. And he certainly wasn't alone in that experience, as you can see from the story of Hassan al-Wazzan, for instance. Displacement has always been part of human history, though in the case of Mustafa/Estebanico it was quite extreme. I think that's probably what attracted me to his story. I know what it's like to live in a place, without being of it. I know what it's like to be regarded as a stranger. And perhaps that's what allowed me to have so much imaginative empathy for him."[21]

At the very outset of the novel, Estebanico as the character-narrator tells us his story in an overbearing manner by averring that "I, who is neither beholden to Castilian men of power, nor

bound by the rules of a society to which I do not belong, feel free to recount the true story of what happened to my companions and me."[22]

There still remains the question of credibility: can Estebanico's way of weaving the narrative of his "wondrous adventures" bring us any closer to the "truth" today than the Spaniards' way of reading various signs could bring them to earthly or heavenly riches then? In a critical discussion of Lalami's book for *The New York Review of Books*, Wyatt Mason wrote: "The trouble with Lalami's version – scrupulously researched, dependably in line with the trajectory de Vaca describes in detail – is that the voice she has forged to fill the silence of history, the written voice of Mustafa's own account in which Estebanico at last speaks for himself, doesn't seem plausibly that of a singular human being." [23]

What weakens the voice's plausibility and at the same time empowers it with the possibility of reaching a wider audience is that Mustafa's text is not in Arabic, or in Spanish, or in Portuguese, but in English. Estebanico's chances of becoming a successful trader in Morocco, then of surviving in America, and finally of finding there (in a Zuni village) a place he can call his home depend largely on what he declares to be his "love" of and "a certain ease" with languages.

As there is no information about Estebanico's life, Lalami may invent (and she occasionally lets readers clearly see that she is doing so) her own story that will best serve her purposes and lead its narrator to his experience in America, where it can intersect with that of Cabeza de Vaca's and the meanings he and his commentators want to give it.

It is not accidental that, years later, Estebanico is entrusted with the task of furnishing sails for the rafts which may hopefully bring a party of lost travellers to the safety of an abandoned ship. He collects and sews together old pieces of cloth: flags, sheets, shirts, vestments, handkerchiefs. When unfurled, the sails, made up of "a great jumble of colors, textures and shapes," catch wind and the slave's heart fills with a liberating sense of "boundless pride."[24] Is he suggesting connections between what he manages to accomplish so well for the benefit of his companions and the satisfaction he gets from weaving the text for his readers in the manner both foretelling and reminiscent of Melville's *sobreviviente*, or his humble, consumptive "Usher" who, to dust his collection of books, uses a handkerchief "with all the gay flags of all the known nations of the world"?

The belief that "a good story can heal" is as much part of the Eastern as of the Western tradition. Mustafa discovers that what he learned in the teeming markets of Azemmur holds true in the barren landscapes of America. It does not seem to trouble Lalami that her narrator's discovery was that of one blazing the cultural trail of correspondences for the first time while her and the reader's discovery is mediated by the pleasure of finding analogies between Mustafa's imagined narrative and the many texts of and about indigenous cultures testifying to such correspondences.

Assuming the role of a shaman or *curandero*, Mustafa "listened to the sick man or woman and offered consolation in the guise of a long story." [25] The story may be one of the many his mother told him when he was a little boy in Azemmour. "Reader," Mustafa says at some point, "the joy of a story is in the telling,"[26] and the reader knows he is speaking of the kind of joy denied in the official Spanish narratives which, whether written or oral, are "synonymous with power."[27]. In order to be recounted well, the stories need to be listened to well, the way Mustafa and his companions learn to listen when the Avavares tell them about "their ancestors, their neighbors, good and bad, the spirits that populate their world."[28] In a scene when Dorantes, accompanied by his slave, Castillo and Cabeza de Vaca are having dinner with Cortés (Estebanico is there because he has important information, while no other guests are invited as the conversation is confidential), the host neither enjoys the food nor expects to hear a long story told in a good way. Rather, he demands clear answers to direct questions he asks, although, having spies in the province, he already knows some of them. What really interests him are distances measured in dates and other clues helping to draw "a precise map" necessary for further exploration of the land; the Spanish crown cannot afford to let the territory north of the Rio Grande hide its riches. "We are doers, señores. Doers," Lalami imagines Cortés saying to his guests.

In *The Moor's Account*, Mustafa never gets a chance to read Cabeza de Vaca's account. However, because they have experienced the same shipwrecks and shared the horrors and the joys of a long walk as slaves and masters of their fate, Mustafa knows of the double purpose the narrative will serve. It will be delivered, personally and proudly, by Cabeza de Vaca to the imperial court and read officially as the Joint Report for possible signs of the mirage of wealth, becoming an incentive for another journey of conquest which will bring more suffering and

more destruction. He feels compelled to re-affirm his freedom by re-establishing his position of the writer of his own narrative: "I still had one thing. My story" . Fiction comes to rescue.

The account does not respect the Western chronological organization of events. It proceeds from the middle of the adventure of the Narvaez expedition and their fight with the native Indians after the protagonist's find of the golden pebble, which would inflict severe persecution on the Indians in an attempt to get hold of their gold map. Then, the narration moves back to the story of the protagonist's birth in his hometown Azemmour, then again to the expedition and alternatively to the experience of bondage in Spain. In so doing, Lalami's historiographic novel undoes the premise of completeness and continuity argued for by modern Western history. The present narrative "derives its sense of incompleteness, as most diasporic narratives tend to do, from the scattered fragments of memories and the abundance of moments of discontinuity. *The Moor's Account's* refusal of centrism, linearity, hierarchies, norms and hegemony indicates its search for alternative voices to get in the way of the absolute flow of history by the whites." [29]

The writer imagines other alternative versions of history and juxtaposes them with the dominant one. This narrative technique bothers the certainty of the dominant values and linear unicity of historical truths. Chambers concludes that History is to be seen as "a perpetual becoming, an inexhaustible emerging, an eternal provocation, a desire that defies and transgresses the linear flow of historicist reason." [30]

Lalami engages in the digging up of buried accounts of the subordinated subjects in society. Her other novels, especially *Secret Son* (2009) and *Hopes and Dangerous Pursuits* (2005), are *par excellence* engaged in this reconstructive project. They unearth what is "debarred" and silenced from the dominant History. In the act of unearthing micro stories, the authors tend to envisage reality in a better way by filling the gaps of absences and lacunae created by the hegemonic structures. Another crucial method of reconstruction is what Anuradlha Needham calls re-play. It is a kind of reviewing of the past not for the sake of repeating and storing "a prior hegemonic representation."[31] Still, it consists of appraisals that question the authority of a consistent use of certain topos that are seen as unquestionable pieces of truths. The prevalent narratives of authority have derived their legitimacy from their interrelation with power and its deterring apparatuses. Perhaps, all that reconstruction can do is to shake the certitudes of the norms that perpetuate the status-quo and relations of power and exclusion. In this context, Elboubekri postulates that "Lalami grants the black explorer of America a chance to retell the experience of discovery as he thinks it must be recounted. This alternative or better called reconstructed black version of history is capable of unveiling the constructive nature of whites' history and its embedment in ideological fallacies and imperial sublimatizing of the European self."[32]

The writer tends, through the protagonist's point of view, to openly interrogate the truth evinced by the whites' version of history. Besides, Estebanico tries to reconstruct the history of the Indians as the latter are in the same boat as the black protagonist, so he tries to show a kind of sympathy for the Indian natives; he represents them positively as a noble and peaceful race and as a people that is associated with hospitality and other noble feats, shattering and disrupting the hegemonic macro stories the white man constructs about Indians. Estebanico as the main narrator brings to the fore the premise that the whites are bereft of any sense of humanity; they treat the slaves in an inhuman way.

Regarding the significant centrality of narration within Lalami's reconstructive project, the account closes with a powerful note on the role of storytelling on both conquest normalization and resistance. The narrator considers fiction, which is composed essentially of storytelling, as more efficient than guns in both colonization and de-colonization. Because the narrator was aware of the Western valorization of fiction/narrative in the mission of conquests, he recommends adopting the same weapon in the Indians' work on resistance. He told the Indians "But they cannot be fought with weapons, I said. I explained to Ahku that the white men's weapons were far more powerful than anything he had ever seen and that his only means of salvation was to create a fiction." [33]

The protagonist's narrative eye did not fail to cover the event of his wedding with an Indian woman as did most of the Castilians: "I know that none of the Castilians have mentioned their wives in their joint report, but I feel bound by honor to reveal everything that came to pass without leaving anything out." [34] Mustafa insists time and again that his account is addressed directly to the readers in order to give the impression that he is responsibly telling the truth: "so you can imagine, gentle reader, how relieved we were to find another island."[35] Additionally, in a blunt critique of the ambiguity that hovers over the European history, the narrator

wants his report to be as accurate as possible. Addressing the readers again he said: "(Gentle reader, if I point out these details, it is not because I was jealous or resentful, but simply because I wish to be as precise as I can about the conditions under which we left La Florida)."[36] To strengthen his claim to thoroughness in the narratological process, he insists once and again on providing better relations by reminding the reader that he is employing the best of his remembered knowledge to relate the story as faithfully as possible. From time to time, he uses expressions such as: "To the best of my recollection, we sailed out on the first of Muharram in the year 935 of the Hegira"[37]; "He told us his story, which I record here for the reader, as best as I can remember it."[38]

Conclusions

As a conclusion, we can postulate that the narratives of Moroccan slaves and captives within the Atlantic system as "a category" and as a historical and geographical terrain marked by considerable exchanges and interactions is worth retrieving, translating and revisiting. Although often unobserved by both national and Western records of history, the transatlantic routes and journeys started from Moroccan shores by Moroccan slaves in earlier times of modern history is a valid category of historical analysis that sheds light on the questioning of the conventional definitions associated with the Atlantic crossing.

Laila Lalami has brought into sharper focus the forgotten experience of Estebanico Al-Zamori, who took a daring journey across the Atlantic and was part of the cultural fabric of the New World. His route and experience of travel have been decisive in the shaping of the sixteenth century Atlantic system and in turning it into a fascinating space of cultural connections. Through Lalami's Moorish account of Estebanico, we discover specific historical moments about the early beginnings of Moroccan interactions with America. We also discover how the "Moorish Other" played a significant role in the narratives of conquest during Spain's conquest of the Americas. Such a significant role is eclipsed in national and Western historians' chronicles, and obscured in most history textbooks that documented Spain's endeavours overseas. His place in history is worth recovering since his contributions within Spain's colonial enterprise cannot by any means pass unnoticed.

Although Lalami manages to give a voice to the voiceless and the subaltern Estebanico in her fictional memoir *The Moor's Account*, the latter is without shortcomings because the novelist's background of Moorish character cogently hinges around and culls from the author's different readings of accounts about Estebanico, and these historical accounts are forged and woven from omnisciently and imperiously Western perspectives and from the dominant "official" accounts of history. Lalami's account is an attempt to represent Estebanico by the deployment of the tools of historical fiction. In spite of the fact that this narrative tool gives more room to the author to imagine, fictionalize and depict her characters, it is not without its shortcomings as she cannot separate herself from history and its power.

Notes

1. Adorno and Pautz point out that: "The use of the diminutive form (Estevanico) was common practice for subalterns such as slaves and interpreters, African or Indian, in the service of Castilians.' However, after Cabeza de Vaca's arrival in New Spain, most writers refer to the African as 'Esteban' ('Estevan,' 'Este´ban,' etc.) or 'Esteban de Dorantes" (2:418).
2. See Hsain Ilahiane, "Estevan De Dorantes, the Moor or the Slave: The Other Moroccan Explorer of New Spain." *Journal of North African Studies* 5 (2000): 1–14; Lhoussaine Simour, "(De)slaving history: Mostafa al-Azemmouri, the sixteenth-century Moroccan captive in the tale of conquest," *European Review of History: Revue europeenne d'histoire*, 2013; Khalid Chaouch, "Claiming Estevanico de Azamor in the Labyrinth of Oriental/Western Identities" *Middle Ground: Journal of Literary and Cultural Encounters*, issue N° 6, 2014.
3. Alessandro Manzoni, *On the Historical Novel.* Translated by S. Bermann. Lincoln, NE: University of Nebraska Press, (1850) 1986, pp. 67-68.
4. Jerome de Groot, *The Historical Novel*. London: Routledge, 2010, p. 48.
5. Helen Cam, *Historical Novels.* London: Historical Association, 1961, p.9.
6. de Groot , p. 47.
7. Matthew Restall, *Seven Myths of the Spanish Conquest*. Oxford: Oxford UP, 2004, pp.52-53.
8. Jean-François Lyotard used the term Grand Narrative for the first time in his seminal book The Postmodern Condition: A Report on

Knowledge (1984) as another name for "master narrative" that labeled all forms of hegemonic knowledge. This categorization encouraged the critiques of discourses that are tainted with ideological constructions.
9. Laila Lalami, *The Moor's Account*. New York: Pantheon Books, 2015, p. 13.
10. Simour, p.8.
11. Lalami, p. 13.
12. Lalami, "So to Speak." *World Literature Today*. September. http://www.worldliteraturetoday.org/so-speak-laila-lalami, 2009, p.196.
13. Ibid., p. 94.
14. Lalami, *The Moor's Account*, p. 1.
15. Iain Chambers, *Migrancy, Culture, Identity*. London: Routledge, 1994, p. 126.
16. Lalami, *The Moor's Account*, p.1.
17. Lalami, "So to Speak," pp.197-198.
18. Lalami, *The Moor's Account*, p. 199.
19. Ibid., pp.3-4.
20. Ibid., p.3.
21. Ibid., p.199.
22. Ibid., p.1.
23. Wyatt Mason, "To Be a Muslim in the West." The New York Review of Books. 11–24 Feb. 2016, p.24.
24. Lalami, p.135.
25. Ibid., p.212.
26. Ibid., p.124.
27. Ibid., p.128.
28. Ibid., p.238.
29. Abdellah Elboubekri, "Whichever way you turn, there is the face of God' diaspora, memory, and historiography from the margin in *The Moor's Account* by Laila Lalami," p.4.
30. Chambers, p. 135.
31. Anuradlha Needham, *Using the Master's Tools: Resistance and the Literature of the African and South-Asian Diasporas*. New York: St. Martin Press, 2000, p. 61.
32. Elboubekri, p.6.
33. Lalami, p. 202.
34. Ibid., p.152.
35. Ibid., p.100.
36. Ibid., p.86.
37. Ibid., p.87.
38. Ibid., p.100.

ملخص الدراسة:

أسير مغربي في العالم الجديد خلال القرن السادس عشر: إعادة بناء قصة إستيبانيكو الأزموري في رواية ليلى العالمي "حكاية المغربي"

الحسين العماري، جامعة السلطان مولاي سليمان
إبراهيم أيت إزي، جامعة محمد الخامس
المملكة المغربية

تخبرنا المرويات الإسبانية عن مغربي عرف باسم "استيبانيكو" من مدينة أزمور المغربية، كان قد تم أسره وسَبْيُه من قبل البرتغاليين، ليتم تنصيره بعدها وبيعه في إسبانيا. تسرد هذه المرويات أنه انتقل بعدها عبر المحيط الأطلسي إلى العالم الجديد، هناك قتل من قبل قبائل "الزوني"، في أمريكا الشمالية، فيما بين ١٥٣٩ و١٥٤٠. وعلى الرغم من محاولة فهم خبايا هذه الشخصية من قبل بعض المؤرخين، فإن الأمر ظل خاضعا لنفس منظور الحكايات الإسبانية المشحونة بنوع من التعالي والإقصاء؛ وحتى الحكايات التي يسردها، سكان أمريكا اللاتينية، "فراي ماركوس"، أو المستكشفين تنفي وجود "استيبانيكو" ودوره المتميز في تقديم الدعم ورسم معالم الطريق نحو قرى وصحاري العالم الجديد. لقد تم تناول صورة "استيبانيكو" كمستكشف في الكتابات الكولونيالية الإسبانية من زاوية معرفية متحيّزة تتوافق والتمثلات الاستعمارية ونظرتها الدونية اتجاه الآخر. وانطلاقا من هدف إعادة النظر في هذا التوجه العنصري، فإن دراستنا تتجه إلى تحليل قصة "استيبانيكو" في رواية ليلى العلمي بعيدا عن هذا الخطاب المتحيز والمنمط. ونتوسل لتحقيق هذه الغاية بفكرة مفادها أنه من خلال إعطاء صوت لهذا المستكشف المهمّش، وإعادة إحياء دوره ورفعه الى مستوى الراوي والبطل الرئيسي، عبر المخيال التاريخي، يتم تلافي هذا البعد الإقصائي ومعه تقديم فرصة أكبر لاستيبانيكو لتسجيل حكايته كما يراها هو.

الكلمات المفتاحية: ليلى العلمي؛ المخيال التاريخي؛ استيبانيكو الأزموري؛ الحكايات؛ العالم الجديد.

Articles
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

The importance and role of roads in the emergence and development of the civilizations of the Syrian Jazirah during the Iron Age



Dr. Ribar Khalaf
Directorate-General of Antiquities and Museums
Damascus, Syria.

ABSTRACT

The study aims to shed light on the road network and its importance in the Syrian Jazirah region during the Iron Age, Being one of the archaeologically rich periods, which was characterized by the emergence of many cultural and artistic features of this era in general, The Syrian Jazirah region was particularly distinguished, and roads were the main reason that distinguished this period and a reason for importing and exporting the cultures of other civilizations. To be used during this period on a large scale, and to clarify their role and the difference of their networks (land and water) as in Mesopotamia due to the scarcity of waterways and channels, Land roads were used in rolling, mountainous and desert areas, and in general they were shortened, similar to the Syrian Jazirah region, In general, it was shortened, similar to the Syrian Jazirah region, and there are also long overland routes that connected Mesopotamia. With neighboring territories, Especially those that were linked to the Syrian Jazirah region. In addition to highlighting the role of rivers as a basic pillar for the emergence and development of civilization, as they provided important transport routes, The study relied on a descriptive and analytical approach, such as texts that illustrate those paths and roads used by the population, and maps that highlight the path of land and river roads, In addition to clarifying its role in linking through the analytical side, within the scope of the Syrian Jazirah region and Mesopotamia, and the paths that used to connect it to other civilizations, Accordingly, the study ended with a conclusion that lists the results of the study on the importance of these roads as a main artery for all activities, and their role in linking the Jazirah region internally and externally.

Keywords:

iron age; transportation; road transport; river transport; installation

Article info:

Received: 05 January 2021
Accepted: 31 January 2021
DOI: 10.12816/KAN.2021.222760

Citation:

Ribar Khalaf, "The importance and role of roads in the emergence and development of the civilizations of the Syrian Jazirah during the Iron Age".- Historical kan Periodical. - Vol. (14) Issue (51); March 2021. Pp. 209 – 214.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: reberxelef@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

Introduction

This required kings and rulers since ancient times to construct internal and external roads and paths, and to set up geographical lists to define their paths and stages between cities that pass through or are located on them, and a number of Land roads, riverbeds and their tributaries were natural waterways and pathways that facilitated movement and navigation on them. The inhabitants of the region have been famous since ancient times for their commercial activity with neighboring peoples, and they have influenced their methods and commercial dealings in these peoples. These roads and their means were the most important pillars of trade (Abu Al-Mahasen, 1979: 235-36). And in view of the strategic importance of the Syrian Jazirah site during the Iron Age and before it, by virtue of its location between Mesopotamia in the east and eastern Asia Minor to the north and the Levant to the west (Zyada 2002: 157). cuneiform texts were mentioned that clarify those paths and roads that the inhabitants used at that time in their internal and external transportation. Some of these roads were land as well as others watery (Hashem 2002: 18). For example: It is noticed that Assyria was during the Iron Age, on the days of the king, "Teglat Blaser III" 745-727 BC. Do not see that its ownership of Syria and Palestine is the basic condition for the success of its empire (Mahran 1999: 13), Which developed a highly developed road system, through which they crossed the island for military and administrative purposes (Map. 1) (Russel 1985: 57). In addition, the Jazira region, in some of its locations, used to form major phases between the major centers (Luciani 2002: 199), These included Tell Barri / Kahat, and Tell Ajaja / Shadikani, all of which highlighted the importance of the region as a whole (Liri 1963: 214).

Road lanes (land) towards cities

The road routes in the northern and eastern provinces of Mesopotamia, especially the Syrian Jazirah region, were generally difficult due to the nature of the rugged mountainous region in which the Zagros mountain range extends, and the road was land, starting from the city of Nineveh and heading towards the Jazirah region from east to west, Passing through several settlements and important cities such as the city called Shubat "Enlil" "Tell Shaghar bazar" and "gozana" "Tell Halaf" and the city of Maskanah " Emar", then it approaches the city of Aleppo and ends at the Orontes River, and from the Orontes River, several roads diverge from it leading to Central From Syria, other roads travel to the coast of the Mediterranean, There were also two other land roads heading to the north, and they were used permanently for transportation, as the convoys crossed them towards the center of "Kanish" in Anatolia. As for the first road, it can be divided into the following stages:

- From Assyria to Khabur.
- B. From Khabur to Admum.
- C. From Adam to the Euphrates.
- D. From the Euphrates to Kanish.

That is, this road crossed the Jazirah plateau north of the Euphrates Valley, while the second road used to start from Nineveh to Harran to meet the first road, and it went towards Kanish in Anatolia (Map. 1).

The commercial caravans relied on passing these roads on the water of the eyes and the wells available in the Jezirah region. As for the land roads heading to the mountainous region in the northern regions, they were rugged, especially in the winter season, and despite their ruggedness, they were sometimes used in the conduct of commercial caravans (Hashem 2002: 21-22). During the 1998 comprehensive survey of Wadi Awaij, one of the branches of the Khabur River, thirty kilometers from the city of Hasaka, northeastern Syria, to obtain a record of the history of human settlement during 8,000 years, and a complete description of the roads and canals was done. (Fig 1) (Wilkinson 1997-1998: 19-21).

Formation of land roads

The formation of the roads accompanied the organization of the city, being a link between all internal and external regions, and the study showed the roads in two distinct ways: either in the form of a wide and cloudy dark galaxy, or in the form of standing lines, but they are accurate and clearer. The first lines are always in contact with the great fortified hills towards the smaller attached hills, which are the lines that were used in the Iron Age and before it (Liri & Lovre 1954-1955: 154). These lines appear hollow / sunken, and are believed to have been formed by the continuous passage of human and animal movement over them (Ur 2003: 102). Also, all of these roads / main and secondary, appear to be placed for the local needs of the population, moving from one region to another, and the streets played a major role in determining the character of the city, as they appeared in various forms, reflecting the communication pattern in the city and the population, and provided the link between the different places for them. . The road

network usually varied as it served one or more houses, and was used as a pathway or an exit to the alley (Baker 2010: 67). In addition to roads paved with paved stones, used by the Assyrians (Al-Attar 1952: 102) (Fig. 2).

Organizing roads within the city streets Road planning

The street network is the planning basis for the master city plan. The streets provide transportation within the city, and under it the infrastructure network, and it was built according to an organized planning between the houses of the residence (Kamal 2001: 521). And it varied between dirt paths and stone roads, and was divided as follows:

Highways: These roads were divided according to their organization into degrees, as there were main streets, and they were usually wide, and public streets were usually narrow, in addition to very narrow streets that were used for the population, and they usually served one or more houses and used as a corridor or exit For the alley (Baker 2010: 67) (Fig. 3).

Main streets: It was usually used in big cities, and it was usually used for commercial purposes. There are rural roads that lie outside the cities in the surrounding villages and towns (Fig. 2) (Idlibi 2005: 558).

Road construction installation according to its functions

The inhabitants of Mesopotamia and the Levant began to pave the roads or corridors for the movement of vehicles with stone blocks (Fig. 2). Or a bear, and this can be seen in the city of Babylon and in the Syrian Jazeera, as the streets are parallel and perpendicular to the river (Fig. 4).

The organization and installation of these roads in the Khabur region[1] The importance of the region is illustrated in two main ways: the first is that it constitutes an important strategic point between the East and the West, through which commerce and transportation used to pass through the ancient world, and the second is that it is a border point, and two aspects that make the region a special character that distinguishes it from the rest of the ancient East sites.

This study on the region indicates its historical importance, especially the upper region / Hasakah Governorate, which was an important strategic point on the vital road between East and West, And this is what made the Jagjegh-Khabur triangle the richest and most important monuments, as it used to form a complex of transportation, as for the road that starts from Ras al-Ain and ends in Sinjar, and these roads still remain until now. And you see in it the paved stones despite the weeds that cover them, and the Assyrians used them as defensive lines. These mounds are no longer easily found (Map 1) (Al-Attar 1952: 101-105) It is also noted that this network / roads and canals are coordinated with the places of ancient cities, and rivers were taken as markers and intersections of roads (Poidebard 1927: 55.). They generally used to lead to the city gates at the walls, or the access point to the city itself / in the center, and these paths generally connected cities (Ur 2003: 107-108).

Road (riverine) paths towards cities

What confirms the frequent use of river roads in the region over successive eras is the construction of most important cities to be commercial centers and stations on the banks of the major rivers and their tributaries, as their establishment is on the course of a river or one of its branches or a main channel that draws from it, It necessarily puts it in close contact through the network of rivers and their branches with the rest of the cities and settlement centers. As in the case of land roads, as it was an encouraging factor in the prosperity and development of trade (Al-Hashemi 1985: 218). Because of the size of the network of these canals, rivers and large irrigation channels, and the large size of agricultural lands, emphasis was placed on river transport, because it is much easier than land roads, as these cities were connected to each other through the paths of large rivers (Khabur, for example) (Al-Hashemi 1981: 37). As for the cities far from the banks of the rivers, they were connected with the rest of the commercial centers through a number of water channels that branched from the rivers to facilitate the various transportation operations on them (Map. 1) (Hashem 2002: 23). It is also noted in the study that the main rivers in the Syrian Jazirah and their tributaries and water channels branching from them formed a network of river communication routes that linked the country's sections internally to each other, and at the same time contributed to direct contact externally with some neighboring cities and countries, as was These rivers and tributaries are also important in shortening distances with other areas, especially from all directions. It had a role in the commercial flourishing and cultural development during the Iron Age. The Tigris and Euphrates rivers still maintain a very important

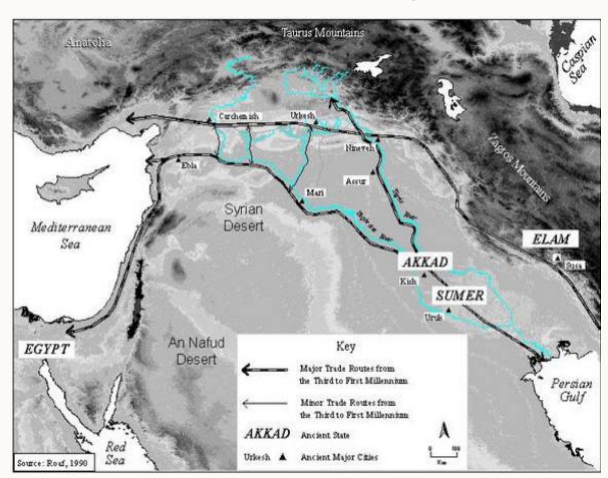
[1]. The Khabur region means the Syrian island here.

economic role, and they hope for a renewed start to large areas in Turkey, Syria and Iraq, It is also noted that most of the capitals were built on the banks of rivers, which increased the importance (El-Khund 1994: 27). of using riverine roads, and was the main reason for transferring the culture of the regions adjacent to the Syrian Jazirah region to it, including materials and patterns of architecture, art, etc., and transferring it to them via these river roads (El-Khund 1994: 27). Inside the city, there were regularly intersecting streets interspersed with alleys. The street width could reach 12 meters, and under the streets sewage canals were dug (Bahansi 1993: 126).

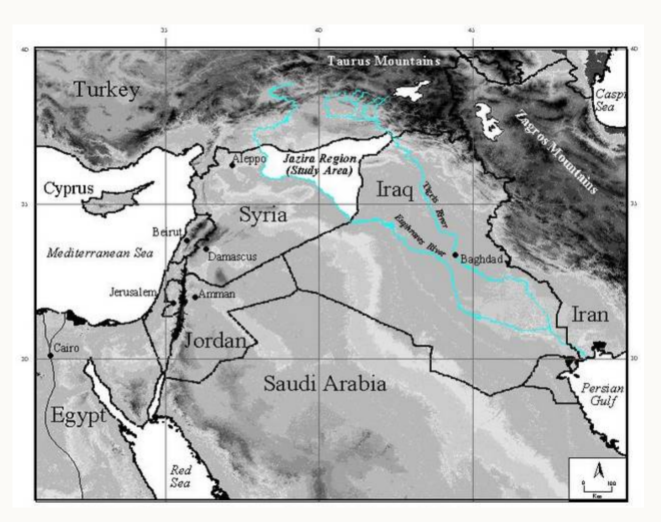
Conclusion

The road network was one of the most important components concerned with civilizations in the Iron Age, as it is the arteries through which a continuum of commercial, social and cultural activities passes that enhance the economic process. Therefore, the construction of roads occupied the first option in the development programs and projects of the ancient civilizations in the Syrian Jazirah, The completion of the main, secondary and subsidiary road network to serve the population centers and the sites of economic and agricultural activities, taking into account the volume of traffic movement, as well as the completion of the traffic movement axes and raising their efficiency according to the requirements of the traffic, and continuing to raise the level of linking methods between the Syrian island and the neighboring regions, while improving methods The implementation of dirt and river roads was the main reason for achieving a balance between them and those areas, taking into account the size of the economic activities in each region and its population density on the Syrian island during the Iron Age.

Appendices (maps and figures)



Map. 1 Important trade routes, cities, and states in the vicinity of the Syrian Jazirah from the third to the first millennium B.C. (Mathys 2007: 103).



Map. 2 The Syrian Jazira and current political boundaries and major physical features in the Near East (Mathys 2007: 6).

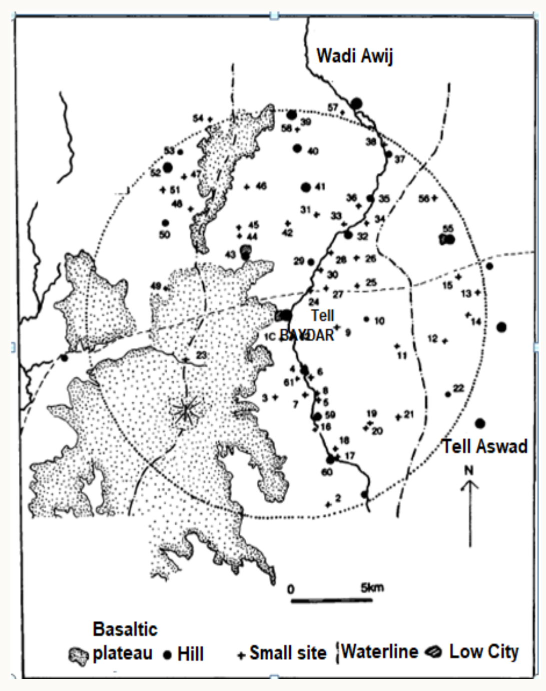


Fig. 1 Survey of study sites, with major topographic features. A complete description of the roads and canals (Wilkinson 1997-1998: 20)

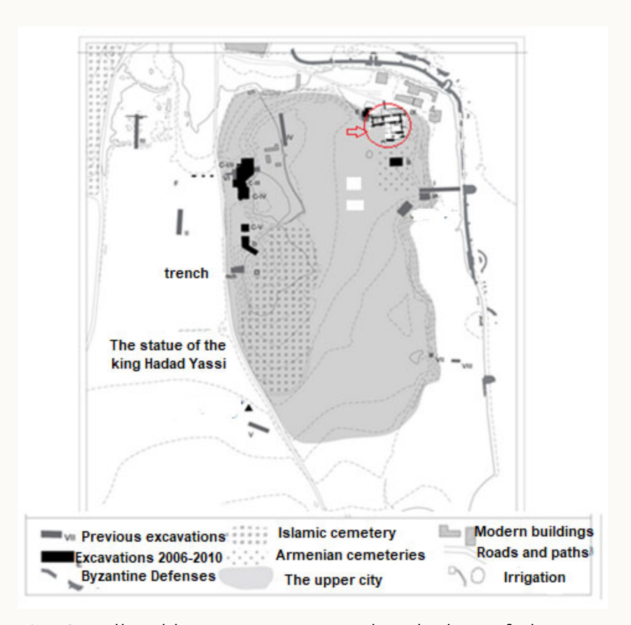


Fig. 3 Tell Fakhriya: a topographical plan of the site, indicating the Iron Age Palace and the network of roads and canals branching out at the site (*Directorate General of Antiquities and Museums. Syria)*. http://www.dgam.gov.sy/index.php)

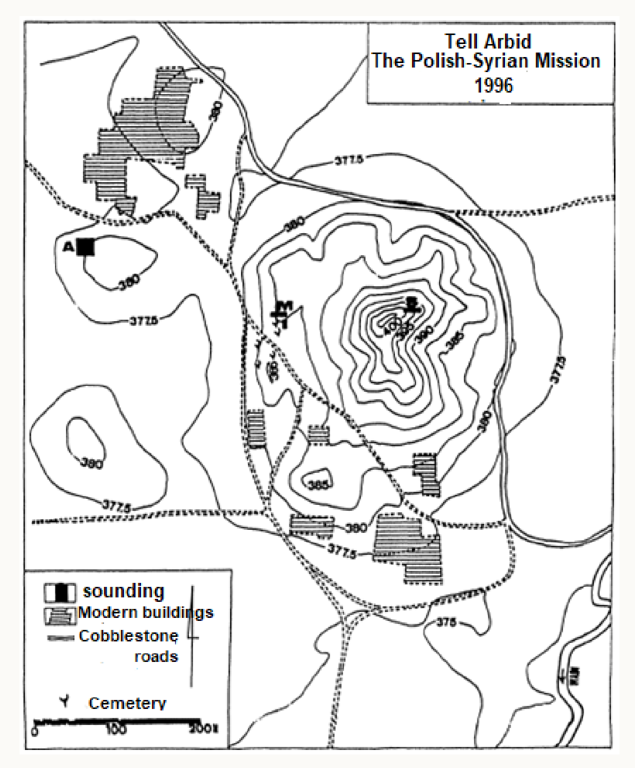
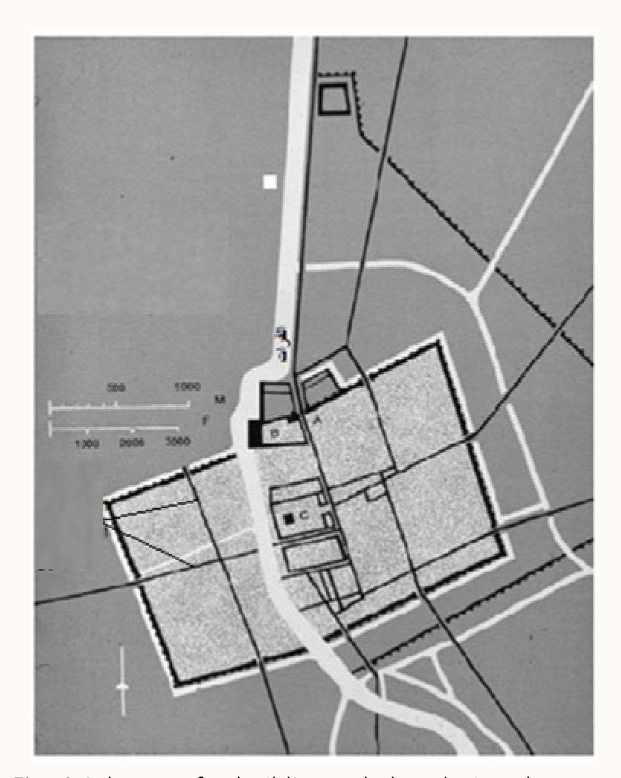


Fig. 2 Tell Arbid- a topographical plan of Tell Arbid and the paved and branching roads at the site (Bieliński 1996, p. 204).


Fig. 4 Scheme of rebuilding Babylon during the Iron Age / 1st millennium BC. M (Sallaberger 2010: 266)

Bibliography

Abu Al-Mahasen, A. M. 1979. معالم حضارات الشرق الأدنى القديم (Landmarks of the Ancient Near East Civilizations). Beirut: 235-236.

Al-Attar, N. 1952. منطقة الخابور الأثرية (Al-Khabour Archaeological District). *The Syrian Arab Archaeological Annals* 2: 97-111.

Al-Hashemi, R. J. 1981. الملاحة النهرية في بلاد وادي الرافدين (River Navigation in Mesopotamia). *Summer*, 37 (1-2). 36-55 (in Arabic).

Al-Hashemi, R. J. 1985. التجارة (Trade). *Iraq Civilization* 2. Baghdad.

Bahansi, A. 1993. الفنون القديمة ١ (Ancient Arts 1). Lebanon.

Baker, H. D. 2010. Urban form in the first millennium BC, The Babylonian World, Taylor & Francis e-Library, New York. London.

Bieliński, P. 1996. Tell Arbid, Preliminary Report on the first Season of Syro- Polish Excavation on Tell Arbid". *Polish Archaeology in the Mediterranean* 8: 203-211.

El-Khund, M. 1994. الموسوعة التاريخية الجغرافية (The Historical and Geographical Encyclopedia). Part Two, Lebanon.

Hashem, H. Y. 2002. وسائط النقل في العراق القديم (Modes of Transport in Old Iraq). Master Thesis (unpublished), College of Arts, University of Mosul.

Idlibi, R. 2005. الطرق (Roads). *The Arab Encyclopedia Magazine* 12: 558.

Kamal, H. 2001. الفن البابلي (Babylonian Art). *The Arab Encyclopedia Magazine* 4: 521.

Liri, V. & Lovre. C. 1954-1955. التنقيبات الأثرية الجديدة في الجزيرة العليا السورية (The New Archaeological Excavations in the Syrian Upper Island). translation, Nour al-Din Hatoum, *Journal of the Syrian Arab Archaeological Annals* 4-5: 149-165.

Liri, V. 1963. العواصم والقلاع في العصر البرونزي الحديدي في سورية وعلاقتها مع اليابسة والمياه (Capitals and Castles in the Iron Bronze Age in Syria and their Relationship with Land and Water). translation, Faisal Al-Serafi, *Journal of Syrian Arab Archaeological Annals* 13: 203-216.

Luciani, M. 2002. حوض الخابور الأدنى في عصر البرونز الوسيط اثرياً وكتابياً (The Near Khabur Basin in the Middle Bronze Age, Archaeological and Biblical). translation, Muhammad Khayyat and others*, Syrian Archeology Documents*: 199-202.

Mahran, M. B. 1999. المدن الكبرى في مصر والشرق الأدنى القديم٢ (The Great Cities of Egypt and the Ancient Near East 2). Alexandria.

Mathys, A. J. 2007. Gis Comparative Analysis Of Bronze Age Settlement Patterns And The Contemporary Physica Landscape In The Jazira Region Of Syria, (Master thesis), *College of Arts and Sciences of Ohio University.*

Poidebard, R. P. 1927. "Les routes anciennes en Haute-Djezireh. In: Syria", *Syria* 8 (1): 55.

Russel , H. F. 1985. "The Historical Geography of the Euphrates and Habur According to the Middle and Neo – Assyrian Sources". *Iraq* 47: 57–74.

Sallaberger, W. 2010. The palace and the temple in Babylonia, The Babylonian World, Taylor & Francis e-Library, New York & London.

Ur, J. A. 2003. "CORONA Satellite Photography and Ancient Road Networks: A Northern Mesopotamian Case Study". *Antiquity* 77: 102-115.

Wilkinson, T. J. 1997-1998. "Tell Beydar Survey", *Oriental institute Annual Reports.*

Yusef, A. 2010. Water in the Civilization of Mesopotamia, PhD Thesis (unpublished), College of Arts, University of Mosul, (in Arabic).

Zyada, N. 2002. الجزيرة وسيط لنقل الحضارة (Al-Jazeera is a Mediator for the Transfer of Civilization). *Syrian Archeology Documents*: 157- 158.

ملخص المقال:

أهمية ودور الطرق في نشوء وتطور حضارات الجزيرة السورية خلال العصر الحديدي

د. ريبر خلف، المديرية العامة للآثار والمتاحف، سوريا.

تهدف الدراسة إلى تسليط الضوء على شبكة الطرق وأهميتها في منطقة الجزيرة السورية خلال العصر الحديدي كونها من الفترات الغنية أثرياً والتي تميزت بظهور العديد من السمات الحضارية والفنية هذا العصر بشكل عام، وميّزت منطقة الجزيرة السورية بشكلٍ خاص، وكانت الطرق السبب الرئيس التي ميزت هذه الفترة وسببًا لاستيراد وتصدير ثقافات الحضارات الأخرى، لاستخدامها خلال هذه الفترة على نطاق واسع، وإيضاح دورها واختلاف شبكاتها (البرية والمائية) كما في بلاد الرافدين نظرًا لقلة المجاري والقنوات المائية، استخدمت الطرق البرية في المناطق المتموِّجة والجبلية والصحراوية، وهي بشكلٍ عام كانت مختصرة أسوةً بمنطقة الجزيرة السورية، وهناك أيضًا طرق برية طويلة كانت تربط بلاد الرافدين. مع الأقاليم المجاورة، وخاصةً تلك التي كانت تربطها بمنطقة الجزيرة السورية. بالإضافة إلى إبراز دور الأنهار كدعامة أساسية لنشوء الحضارة وتطورها، حيث وفرت طرقاً مهمة للنقل؛ وقد اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي والتحليلي، كالنصوص التي توضح تلك المسالك والطرق التي استخدمها السكان، والخرائط التي تبرز مسار الطرق البرية والنهرية، بالإضافة إلى إيضاح دورها في الربط من خلال الجانب التحليلي، ضمن نطاق منطقة الجزيرة السورية وبلاد ما بين النهرين، والمسارات التي كانت توصلها إلى الحضارات الأخرى، وعليه انتهت الدراسة بخاتمة تسرد فيها نتائج الدراسة حول أهمية هذه الطرق كشريان رئيس لجميع الأنشطة، ودورها في ربط منطقة الجزيرة داخليًا وخارجيًا.

الكلمات المفتاحية: عصر حديدي؛ مواصلات؛ نقل بري؛ نقل نهري



Historical Kan Periodical
ISSN: 2090 – 0449 (Online).
Peer-reviewed, open-access journal, indexed and abstracted in several international databases.

https://www.facebook.com/historicalkan